

وهنا يُقر إخوة يوسف بذنوبهم ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

وهم هنا يُقرُّون بالذنب ، ويُحدِّثون والدهم ببدء الأبوة كي يستغفر لهم ما ارتكبوه من ذنوب كثيرة ، فقد آذوا أباهم وجعلوه حزيناً ، ولا يسقط مثل هذا الذنب إلا بأن يُقرَّ به مَنْ فعله ، ونلاحظ أنهم قالوا :

﴿ إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [يوسف]

أي : أنهم كانوا يعلمون الصواب ، ولم يفعلوه .

وبأنى الحق سبحانه بما قاله يعنوب :

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾

ونلاحظ أن يوسف قد قال لهم من قبل :

﴿ لَا تَحْزَبْ <sup>(١)</sup> عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

[يوسف]

لكن والدهم هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنها عنها يقول :

(١) حزبه : لامة وعذب عليه . وشربه بالتضعيف : أكثر لوما وعيره بفتنة وأثبه على سوء فعله .

[ القاموس القويم ١/ ١٠٦ ] .

﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي..﴾ (١٨) [يوسف]

ولم يقل : « ساستغفر لكم ربى » ، وهذا يدل على أن الكبار يحتاجون لوقت أكبر من وقت الشباب ؛ لذلك أجل يعقوب الاستغفار لما بعد .

والشيخ الألوسى فى تفسيره يقول :

« إنما كان ذلك لأن مطلوبات البر من الأخ لإخوته غير مطلوبات البر من ابن لآبيه ؛ لأن الأخ ليس له نفس حق الأب ؛ لذلك يكون غضب الأب أشد من غضب الأخ » .

ثم إن ذنوبهم هنا هى من الذنوب الكبيرة التى مرّ عليها وعلى تأثيرها على الأب زمن طويل . ويقال : إن يعقوب عليه السلام قد أخر الاستغفار لهم إلى السحر ، لأن الدعاء فيه مُستجاب .

ونقلنا الحق سبحانه من بعد ذلك إلى لحظة اللقاء بين يوسف عليه السلام وأهله كلهم ، بعد أن انتقلوا إلى حيث يعيش يوسف ، فيقول سبحانه :

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيهُ وَقَالَ

ادْخُلُوا مَصْرَ ۖ إِنَّ مَنَآةَ اللَّهِ ءَامِنِينَ﴾ (١٩)

ونعلم أن الجد إسحق لم يكن موجوداً . وكانوا يفتلبون جهة الأبوة على جهة الأمومة ، ونقلت معهم الحالة ؛ لأن الأم كانت غير موجودة<sup>(١)</sup> .

(١) أوى : ضعه إليه وأسكنه عنده أو أنزله فى بيت . [ القاموس القويم ٤٥/١ ] .

(٢) أم يوسف وبنيامين هى « راحيل » . وقد ماتت فى نفس بنيامين . راجع تفسير القرطبي ج ٥ ص ٢٥٩٨ .

ويبدو أن يوسف قد استقبلهم عند دخولهم إلى مصر استقبال  
العظماء ، فاستقبلهم خارج البلد مرة ليريحهم من عناء السفر  
ويستقبلهم وجهاء البلد وأعيانهم ؛ ومثا هو الدخول الاول الذي آرى  
فيه أبويه :

ثم دخل بهم الدخول الثانى إلى البلد بدليل أنه قال :

﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِينَ﴾ (٩٩)

[يوسف]

ففى الآية دخولان .

وقول الحق سبحانه :

﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ..﴾ (٩٩)

[يوسف]

يدل على حرارة اللقاء لمختربين يجمعهم حنان ، فالأب كان  
يشفق لرؤية ابنه ، ولا بُدَّ أنه قد سمع من إخوته عن مكانته  
ومنزلة ، والابن كان مُتَشَوِّقاً للقاء أبيه .

وانفعالات اللقاء عادة تُترك لعواطف البشر ، ولا تقنن لها ، فهى  
انفعالات خاصة تكون مزيجاً من الود ، ومن المحبة ، ومن الاحترام ،  
ومن غير ذلك .

فهناك مَنْ تلقاه وتكتفى بأن تُسلم عليه مُصافحة ، وآخر تلتنى به  
ويغلبك شوقك فتحضنه ، وتقول ما شئت من الفاظ الترحيب .

كل تلك الانفعالات بلا تقنين عبادى ، بدليل أن يوسف عليه  
السلام آوى إليه أبويه ، وأخذهما فى حضنه .

والمثل من حياة رسولنا ﷺ في سياق غزوة بدر حيث كان يستعرض المقاتلين ، وكان في يده ﷺ قدح يعدل به الصفوف ، فمرّ بسواد بن غزية من بنى عدي بن النجار<sup>(١)</sup> ، وهو مستنصل<sup>(٢)</sup> عن الصف - أي خارج عنه ، مما جعل الصف على غير استواء - فطعن رسول الله ﷺ في بطنه بالقدح وقال له : « اسقِر يا سواد » .

فقال سواد : أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقذني<sup>(٣)</sup> .

فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال ﷺ : « استقد » ، فاعتنقه سواد وقبّل بطنه .

فقال ﷺ : « ما همك على هذا يا سواد ؟ » .

قال : يا رسول الله ، قد حضر ما ترى - يقصد الحرب - فأريت أن يكون آخر العهد بك أن يمسّ جلدي جلدك . فدعا له رسول الله ﷺ بالخير<sup>(٤)</sup> .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) انظر ترجمة سواد بن غزية في « الإصابات في تمييز الصحابة » ، ( ١٤٨/٢ ) .

(٢) تنصّلت الشيء واستنصلت إذا استخرجته . [ لسان العرب - مادة : نصل ] .

(٣) القود : القصاص . وإذا أتى إنسان إلى آخر أمراً فانتقم منه بمثله قيل : استقلها منه . [ لسان العرب - مادة : قود ] .

(٤) أورده ابن هشام في المسيرة النبوية ( ٢٢٦/٢ ) طبعة المكتبة العلمية - بيروت ، وكذا ابن كثير في كتابه « البداية والنهاية ٢/ ٢٧٦ » .

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا<sup>(١)</sup>  
 وَقَالَ يَا أَيُّهَا هَذَا أَتَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا  
 رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ  
 وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ  
 بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ  
 هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٣٠﴾

وقد رفع يوسف أبويه على العرش لأنه لم يحب التمييز عنهم :  
 وهذا سلوك يدل على المحبة والتقدير والإكرام .  
 والعرش هو سرير الملك الذي يدير منه الحاكم أمور الحكم .  
 وهم قد خروا سُجَّدًا لله من أجل جمع شمل العائلة ، ولم يخرؤا  
 سُجَّدًا ليوسف ، بل خروا سُجَّدًا لعن يخر سجوداً إليه ، وهو الله .  
 وللذين حاولوا نقاش أمر سجود آل يعقوب ليوسف أقول : هل  
 أنتم أكثر غيرة على الله منه سبحانه ؟

(١) أبويه : المقصود بهما هنا أبوه يعقوب عليه السلام ، وخالته زوجة أبيه ، لأن أمه راحيل  
 كانت قد ماتت في نفاس بنيامين . [ راجع تفسير القرطبي ٥ / ٢٥٩٩ ] .  
 (٢) قال الحسن البصري : لم يكن سجوداً ، ولكنه سنة كانت فيهم ، يومنون بربهم إيماناً ،  
 كذلك كانت تسميتهم . وقال النوري والضعاك وغيرهما : كان سجوداً كالسجود الممهور  
 علينا ، وهو كان تسميتهم . قال القرطبي في تفسيره ( ٥ / ٢٦٠ ) : « أجمع المفسرون أن  
 ذلك السجود على أي وجه كان فإنما كان تمجيداً لا عبادة » .

إنه هو سبحانه الذي قال ذلك ، وهو سبحانه الذي أمر الملائكة من قبل بالسجود لأدم<sup>(١)</sup> فلماذا تأخذوا هذا القول على أنه سجد لأدم ؟ والمؤمن الحق يأخذ مسألة سجود الملائكة لأدم : على أنه تنفيذ لأمر الحق سبحانه لله<sup>م</sup> بالسجود لأدم ، فأدم خلقه الله من طين ، ونفخ فيه من روحه ؛ وأمر الملائكة أن تسجد لأدم شكراً لله الذي خلق هذا الخلق .

وكذلك سجود آل يعقوب ليوسف هو شكر لله الذي جمع شملهم ، وهو سبحانه الذي قال هذا القول ، ولم يُجرم سبحانه هذا الفعل منهم<sup>(٢)</sup> ، بليل أنهم قدّموا تحية ليوسف هو قادر أن يردّها بمثلها .

ولم يكن سجودهم له بغرض العبادة ؛ لأن العبادة هي الأمور التي تُفعل من الأدنى تقريباً للأعلى ، ولا يقابلها المعبود بمثلها ؛ فإن كانت عبادة لغير الله فالله سبحانه يُعاقب عليها ؛ وتلك هي الأمور المحرّمة .

أما العبادة لله فهي اتباع أوامره وتجنّب نواهيه ؛ إذن : فالسجود هنا استجابة لنداء الشكر من الكل أمام الإفراج بعد الهم والحزن وسبحانه يُثيب عليها . أما التحية يُقدّمها العبد ، ويستطيع العبد الآخر أن يردّ بمثلها أو خيّر منها ، فهذا أمر لا يحرمه الله ، ولا يدخل للعبادة به<sup>(٣)</sup> .

(١) ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ۖ ﴾ [البقرة] .  
(٢) نسخ الله ذلك كله في صرغنا ، وجعل الكلام بدلاً عن الانحناء . قال قتادة : هذه كانت تحية الملوك عندهم ، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة . [ راجع : تفسير القرطبي ٢٦٠ / ٥ ] .

(٣) عن أنس رضي الله عنه قال : « قلنا يا رسول الله ، أينحنى بعضنا إلى بعض إذا التقينا ؟ قال : لا . قلنا : أينعتق بعضنا بعضاً ؟ قال : لا . قلنا : أهبساقح بعضنا بعضاً ؟ قال : نعم ، أوردته القرطبي في تفسيره ( ٢٦٠ / ٥ ) وعزاه لابن عبد البر في التمهيد .

لذلك يجب أن نفطن إلى أن هذه المسألة يجب أن تُحرر تحريراً منطقياً يتفق مع معطيات اللغة ومقتضى الحال ، ولو نظرنا إلى وضع يعقوب عليه السلام ، وما كان فيه من أحزان وموقف إخوته بين عذاب الضمير على ما فعلوا وما لاقوه من متاعب لآيقنا أن السجود المراد به شكر من بيده مقاليد الأمور بدلاً من خلق فجوات بلا مبرر وَهُمْ حِينَ سَجَدُوا لِيُوسُفَ : هل فعلوا ذلك بدون علم الله ؟ طبعاً لا .

ومن بعد ذلك نجد قول يوسف لأبيه :

﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ ﴾ (١٠٠)

[يوسف]

وقد كانت الرؤيا هي أول لُقطة في قصة يوسف عليه السلام حيث قال الحق ما جاء على لسان يوسف لأبيه :

﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (١)

[يوسف]

وقوله في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ ﴾ (١٠٠)

[يوسف]

أي : أمراً واقعاً ، وقد رآه والد يوسف وإخوته لحظة أن سجدوا ليوسف سجود الشكر والتحية لا سجود عبادة ، وقد سجد الإخوة الأحد عشر والاب والخاله التي تقوم مقام الأم ، ورؤيا الأنبياء كما نعلم لا بد أن تصير واقعاً .

ولقائل أن يقول : وماذا عن رؤيا إبراهيم عليه السلام التي أمره

ففيها الحق سبحانه أن ينبج ابنه : فقام إلى تنفيذها : واستسلم إسماعيل لأمر الرؤيا .

نقول : إن الأنبياء وحدهم هم الملتزمون شرعاً بتنفيذ رؤاهم : لأن الشيطان لا يُخايلهم : فهم معصومون من مخيلة الشيطان .

أما إن جاء إنسان وقال : لقد جاءتني رؤيا تقول لي ففعل كذا . نقول له : أنت غير ملزم بتنفيذ ما تراه في منامك من رؤى : فليس عليك حكم شرعي يلزمك بذلك : فضلاً عن أن الشيطان يستطيع أن يُخايلك .

أما تنفيذ إبراهيم عليه السلام لما رآه في المنام بأن عليه أن ينبج ابنه ، وقيام إبراهيم بمحاولة تنفيذ ذلك : فسيببه أنه يعلم بالتزامه الشرعي بتنفيذ الرؤيا .

وقد جاء لنا الحق سبحانه بهذا الذي حدث ليبين لنا عظم الابتلايات التي مرت على إبراهيم ، وكيف حاول أن يتم كل ما توجهه له السماء من أوامر ، وأن ينفذ ذلك بدقة .

وقال الحق سبحانه مُصَوِّراً ذلك :

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ<sup>(١)</sup> إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ . . (١٢٤)﴾

[البقرة]

(١) ابتلاه : اختبره ليصرف أمره وحاله . وبلوت الشيء : امتحنته واختبرته . قال تعالى : ﴿وَيَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ لِتُبْذَرُوا﴾ [التوبة ٣٥] . [الأنبياء ٤١] : نختبركم بالشر والنعيم ، أو بالخير والنعيم ، لنعلم مدى صبركم أو شكركم ومدى إيمانكم أو كفركم . [ القاموس القويم ٨٤/١ ]



وكانت قمة الابتلاءات هي أن يُنفذ بيديه عملية ذبح الابن ؛ ولذلك  
أؤكد دائماً على أن الأنبياء وحدهم هم الملزمون بتنفيذ رؤاهم ، أما  
أى إنسان آخر إن جاءته رؤيا تخالف المنهج ؛ فعليه أن يعتبرها من  
نزع الشيطان .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف :

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ .. (١٠٠)﴾ [يوسف]

والقائل أن يسأل : ولماذا لم يذكر يوسف الأحداث الجسام التي  
مرت به في تمكسُّلها ؛ مثل إلقاء إخوته له في الجُب ؟

نقول : لم يرد يوسف أن يذكر ما يُكثِّر صَفْوُ اللقاء بين العائلة  
من بعد طول فراق ، ولكنه جاء بما مرَّ به من بعد ذلك ، من أنه صار  
عبداً ، وكيف دخل السجن ؛ لأنه لم يستسلم لغواية امرأة العزيز ،  
وكيف منَّ الله عليه بإخراجه من السجن ، وما أن خرج من السجن  
حتى ظهرت النعمة ، ويكفى أنه صار حاكماً .

وقد يقول قائل : إن القصة هنا غير مُتسِّجة مع بعضها ، لأن  
بعضاً من المواقف تُذكر ؛ وبعضها لا يُذكر .

نقول : إن القصة مُتسِّجة تماماً ، وهناك فارق بين قصص  
التاريخ كتاريخ ؛ وبين قصص يوضح المواقف الهامة في التاريخ .

والمناسبة في هذه الآية هي اجتماع الإخوة والاب والخاله ،  
ولا داعي لذكر ما يُنقص هذا اللقاء ؛ خصوصاً ؛ وأن يوسف قد قال  
من قبل :

﴿ قَالَ لَا تَسْرِيبْ<sup>(١)</sup> عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ  
الرَّاحِمِينَ ﴾ (٩٢) [يوسف]

وسبق أن قال لهم بلطف من يلتبس لهم العذر بالجهل :  
﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ (٨٩) [يوسف]  
وهو هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنّا عنها يذكر إحسان  
الحق سبحانه له فيقول :

﴿ هَذَا قَوْلُ رُءُوسَى مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا .. ﴾ (٩٠) [يوسف]  
ويثنى على الله شاكراً إحسانه فيقول :

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ .. ﴾ (٩١) [يوسف]

وهو إحسان له في ذاته ، ثم يذكر إحسان الله إلى بقية أهله :  
﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ .. ﴾ (٩٢) [يوسف]  
وكلمة « أحسن » - كما نعلم - مرة تتعدى بـ إلى ، فتقول :  
« أحسن إليه » ، ومرة تتعدى بالباء ، فنقول : « أحسن به » ، وهو  
هنا في مجال « أحسن بي » .

أي : أن الإحسان بسببه قد تعلق بكل ما اتصل به : فجعله  
حاكماً ، وجاء بأهله من البدو<sup>(٢)</sup> : أما الإحسان إليه فيكون محصوراً  
في ذاته لا يتعداه .

(١) ثَرَبٌ عليه : لاه وعبره بفتحيه ، وذكره به . والمُعَرَّب : المعبر . قال نعلب : معنى الآية  
أي لا تُذَكِّرْ خنوبكم . [ لسان العرب - مادة : ثرب ] .

(٢) قال القرطبي في تفسيره ( ٥ / ٢٦٠ ) : « يُدْعَى أَنْ مَسْكَنَ يَعْقُوبَ كَانَ بَارِضَ كَنْعَانَ .  
وكانوا أهل مراضٍ وبيريا . وقيل : كان يعقوب تحول إلى بادية وسكنها » .

وجعل الحق سبحانه الإحسان هنا قسمين قسم لذاته وقسم للغير ، واعتبر مجيء الأهل من البدو إحساناً إليه ، لأن البدو قوم يعيشون على الفطرة والانعزالات الأسرية ، ولا قوطن لهم في مكان ، ولا يصممهم مجتمع ، وليس لهم بيوت مسببة يستقرون فيها ، ولكنهم يتبعون أرزاقهم من صابث الكلا ومساقط الميه ، ويحصلون ربحاً لهم إلى ظهر الجمال متنقلين من مكان لآخر

وتحلو حياتهم من نعم الحضارة ففي الحضر يحضر إليك كل ما تطلب ، ولكن الحياة في البدو تحتم أن يذهب الإنسان إلى حيث يجد الخير ، ولذلك تستقر الحياة في الحضر عنها في البادية .

ويعطينا الشاعر أحمد<sup>(١)</sup> شوقي رحمة الله عليه - صورة تبين الفارق بين البدو والحضر ، حين صنع مناظرة بين واحدة تتعصب لبدو ، وأخرى تتعصب للحضر فقال

فأنت من البید<sup>(٢)</sup> يا ابن جریج ومن هذه العیشة الجاهیه  
ومن حالب أشدة فی موضع ومن موقد النار فی ناحیه  
مختبئکم معبئ والفریق وقینتنا الضبع العاویه  
هم یاکلون قودن الطهارة ونحن نأکل ما طهت العاشیه

فابن جريج يشكو السأم من حياة البادية ، حيث لا يرى إلا المناظر المعتادة من حلب لشاة ، أو إشعال نار ، ولا يسمع كاهل

(١) أحمد شوقي من شعراء الإبداع ، وهو أمير الشعراء في العصر الحديث ، وما زالت زمامة الشعر عنده

(٢) البدو جمع بداء ، وهي الصحراء المستوية ، قليلة الشجر جرداء ، سميت بذلك لأنها تبيد سالكها والإبادة الإملاك [ لسان العرب - مادة بيد ]

الحضر صوت المفتين المشهورين في ذلك الزمن ، بل يسمع صوت الضبّاع العاوية ، ولا يأكل مثل أهل الحضر ما قام بطله الطهارة بل يأكل اللبن وهو ما تقدمه لهم الماشية .

وترد ليلى المتعصبة للبادية

قد اعتسفت هند يا ابن جريج	ركانت على مهدها قاسيه
فما البيد إلا ديار الكرام	ومنزلة الدّمم الواقيه
لها قبلة الشمس عند البرزوع	وللحضر القبلة الثانيه
ومح الرّياحين ملء الفضاء	وهن الرّياحين فسي آنيه
ويقتلنا العشق والحاضرات	يؤمن من العشق في غاميه

وقولها « اعتسفت » يعنى « ظلمت » ، أى أن هنداً ظلمت البيد يا ابن جريج ثم جاءت بميزات البيو ، فأوضحت أن بنات البادية كالرياحين المروعة في الفضاء الواسع ، عكس بنات الحضر التي تشبه الواحدة منهن الريحانة المزروعة في أصص الزرع ، أو أى آنية أخرى .

ثم تاتى إلى القيم ، فتغفر أن بنت ابادية يقتلها العشق ولا تقال ممن تعشق شيئاً ، فتسل وتموت ، اما بنت الحضر فصحتها تاتى على الحب .

وهنا في الآية - التي نحن بصدده خراطرنا عنها - يشكر يوسف ما من به الله عليه ، وعلى أهله الذين جاء بهم سيحانه من البادية ، ليعيشوا في مصر ذات الحضارة الواسعة ، وبذلك يكون قد خفّم

الفرق بين ما كانوا يعيشون فيه من شُطَفٍ<sup>(١)</sup> اعيش إلى حياة اللين والدعة<sup>(٢)</sup>

ثم يلعب ما كان من إخوته تجاهه فيقول

﴿مَنْ بَعْدُ أَنْ نَرْغِبُ الشَّيْطَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۖ﴾ (١٠٠) [يوسف]

وهذا مَسٌّ لطيف لما حدث ، وقد نسه يوسف للشيطان : وصورة على أنه « نَرْغ »

أي أنه لم يكن أمراً مستقراً على درجة واحدة من سوء أي أن ما فعله الشيطان هو مجرد وخزة تنبه إلى الشيء اضرار فيندفع له الإنسان ، وهي ماحودة من المهماز الذي يروّض به مدرب الخيل أي حصان ، فهو ينغره بالمهمار نزغة خفيفة ، فيستمع وينفذ ما أمره به ، فالنَّغْرُ تنبيه لمهمة ، ويختلف عن الطَّعْن

والحق سبحانه ينبهنا إلى ما يفعله الشيطان ، فيقول لنا

﴿وَأَمَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ﴾ (٢٠٠) [الاعراف]

وكُلُّ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ الشَّيْطَانَ عَدُوٌّ لَهُ عِدَاوَةٌ مُسَبِّقَةٌ ، وحين تستعِذ بالله من الشيطان ، فانت تكتسب حصانة من الشيطان

وسبحانه القائل

(١) الشطَفُ : يَبْسُ العيش وشدة [ لسان العرب - مادة شطَف ]

(٢) الدعة : الراحة والترف من العيش ، [ لسان العرب - مادة ودع ] بتصريف

(٣) مرعى الشيطان وسوس له بالشر ونزغ بين الرجلين أفسد ما بينهما قال تعالى

﴿وَأَمَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ﴾ [الاعراف] [ القاموس القويم - مادة

مرغ ] بتصريف

﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ <sup>(١)</sup> مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُنْصَرُونَ ﴾ (٢٠١)

[الأعراف]

أى أن الإنسان حين يتذكر العداوة بينه وبين الشيطان ، فعليه أن يشح نفسه بالمعاصرة الإيمانية ضد هذا النزغ .

ويُذيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقول يوسف

﴿ إِنَّا رَمَى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (١٠٠) [يوسف]

فسبحانه هو المدير لذى لا تُخفى عليه خافية أبداً ، وكلمة « لَطِيفٌ » ضد كلمة « كَثَافَةٌ » فاللطيف هو الذى له جرم دقيق والشئ كلما لَطُفَ عُنْفٌ ، لأنه لا توجد عوائق تمنعه

ولا شئ يعوق الله أبداً ، وهو العليم بموقع وموضع كل شئ ، فهو يجمع بين اللطف والخبرة ، فَلَطِيفٌ لا يقف أمامه أى شئ ، ولا يوجد ما هو مستور عنه ، ولا يقوم أمام مراده شئ ، وسبحانه خبير بمواضع الأشياء ، وعلمه سبحانه مُطلق ، وهو حكيم يُجرى كل حادثة بمراء دقيق ، ولا يصيف إليه أحد أى شئ ، فهو صاحب الكمال لمطلق

ويذكر الحق سبحانه بعد ذلك مناجاة يوسف لله سبحانه

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِمَّا تَأْوِيلُ  
الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكِوتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (١١)

(١) الطائف من الشيطان منه للإنسان بفلسوسة بهو ياتيه من كل جهة ليضلّه ولا ينجيه من إلا

ذكر الله [ القاموس القويم ١ / ٤١٠ ]

(٢) فطر الله الخلق خلقهم وبناهم فهو فاطر قال تعالى ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ (٥٥)

[يوسف] خالفهما ومن اللفظ معنى لخلق منهما كانت رتقا ففتتهما وقوله ﴿ فطرکم ارضه

برة . ﴾ [الإسراء] أى خلقكم ارض مرة في الدنيا [ القاموس القويم ٢ / ٨٥

ونعلم أن الربوبية نعى الخلق من عدم ، والإمداد من عدم ،  
والإقانة لاستنفاء الحياة ، والتزاوج لاستملاق النسل ، وتسير كل هذه  
العمليات في تناسق كبير

فالحق سبحانه أوجد من عدم ، واستبقى الحياة لذاتية بالفوت ،  
واستبقى الحياة الشرعية بما أباح من تزاوج وتكاثر

وكل مخلوق له حظ في عطاء الربوبية ، مؤمناً كان أم كافراً  
وكل مخلوقات الكون مُسَحَّرَةٌ لكل الخلق ، فسبحانه هو الذي استدعى  
المخلق إلى الوجود ، ولذلك تكفل بما يحقق بهم الحياة

ويختص الحق سبحانه عباده المؤمنين بعطاء آخر بالإضافة لعطاء  
الربوبية ، وهو عطاء الألوهية المتمثل في المنهج

يقول يوسف عليه السلام مناجياً ربه

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ .. (١١) ﴾ [يوسف]

أي أنه سبحانه هو الذي أعطاه تلك السيادة ، وهذا النقود  
والسلطان ، فلا أحد يملك قهراً عن الله ، وحتى الظالم لا يملك قهراً  
عن الله ، ولذلك يقول الحق سبحانه في آية أخرى من القرآن

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ  
وَتُعَزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾

[آل عمران]

وإتيان الملك لا ترحد فيه مقاومة ممن يملك ، ولكن نزع الملك هو  
الذي يقومه المروع منه .

والحق سبحانه هو أيضاً الذي يُعزّز مَنْ يشاء ، وهو الذي يُذلّ مَنْ يشاء .

وحين تتغلغل هذه الآية في نفس المؤمن ، فهو يوقن أنه لا مفرّ من القدر ، وأن يشاء الملك خير ، وأن نزع الملك خير ، وأن الإعراز خير والإذلال خير ، كي لا يطفى الإنسان ، ولا يتكبر ، ولا يُعدّل في إيمان غيره

وكان بعض الناس يقولون لا بد أن تُقدر محذوفاً في الآية .  
وهم قد قالوا ذلك بسعوى الظن أن هناك حيرين في الآية وشرّين محذوفين

واقول لا ، إن ما تظن أيها الإنسان أنه شر إنما هو خير يريد الله نكل ما يُحرّيه الله خير .

وقول يوسف عليه السلام هنا

﴿ أَتَيْتِي مِنَ الْمَلِكِ .. ﴾ (١٢١)

[يوسف]

يقتضى أن يفهم معنى « الملك » ، ومعنى « الملك » . ولنا أن نعرف أن كل إنسان له شيء يملكه ، مثل ملابسه أو قلمه أو أثاث بيته . ومثل ذلك من أشياء ، وهذا ما يُسمى « الملك » أما « الملك » فهو أن تملك مَنْ يملك

وقد ملك الله بعضاً من خلقه لخلقه ، ملكهم أولاً ما في حوزتهم ، وملكهم غيرهم ، وسبحانه ينزع الملك من واحد ويهبه لآخر ، كي لا تصبح المسألة رتابة دات



رمثال هذا هو ما حدث لشاه إيران ، وكان له الملك ، وعنده كل أسياب الحضارة وفي طوعه جيش قوى ، ثم شاء الحق سبحانه أن ينزع منه الملك ، فقام غيره بتفكيك المسامير غير المرئية التي كان الشاه يثبت بها عرشه ، فزال عنه الملك .

وانت في هذه الدنيا تملك السيطرة على جوارحك ، تقول للبد « إضربى فلان » فتضرب يدك فلان ، إلى أن يأتي اليوم الآخر فلا يملك الإنسان السيطرة على جوارحه ، لأن الملك يومها يكون له وحده ، فسبحانه القائل

﴿لَسَ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ النَّهَارِ (١٦)﴾ [غافر]

ففي اليوم الآخر تنتفى كل الولايات ، وتكون الولاية لله وحده وبجانب « الملك » و « الملك » : هناك الملكوت ، وهو ما لا تراه بأجهزة الحواس .

وسبحانه يقول

﴿وَكَذَلِكَ مَرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ .. (٧٥)﴾ [الاسم]

أي أن الحق سبحانه قد كشف لإبراهيم أسرار العالم الخفية من امخلوقات ، وأنت ترى العلماء وهم يتتبعون أسرار ممالك النباتات والحيوانات ، فتعجب من بقاء خلق الله .

ومنَ وهبه الله بقاء العلم وبصيرة العلماء يرى بإشعاعات البصر والعلم عالم الملكوت ، ويستخرج الأسرار ، ويستنبط الحقائق

ويضيف يوسف عليه السلام في منجاته لربه

﴿وَعَلَّمَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ..﴾ (١٠١) [يوسف]

وهو يعترف بفضل الله عليه حين اختصه بالقدره على تأويل الأحاديث ، تلك التي أول بها رؤيا الفتبين اللذين كانا معه في السجن ؛ وأول رؤيا الملك ، هد القاويل الذي قاده إلى الحكم ، وليس هذا غريباً أو عجبياً بالنسبة لقدرة الله سبحانه

ويقول يوسف شاكراً لله

﴿فَاطَّرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ..﴾ (١٠٢) [يوسف]

ومما دام سبحانه هو خالق كل شيء ، فليس غريباً أن يُعَلِّمه سبحانه ما شاء ، وكأن إيمان يوسف قد وصل به إلى أن يعلم ما قاله الحق سبحانه

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٠٣) [الملك]

ونحن في حياتنا نجد الذي صنع جهازاً يستفيد منه غيره ، يوضح مواصفات استعمال الجهاز أو الأداة ، حتى ولو كانت نورياً<sup>(١)</sup> أو مغناطياً ، وذلك ليضمن للجهاز الحركة السوية التي يؤدي بها الجوار عمله

والواحد منا إن تعطلت منه السيارة يستدعي الميكانيكي الذي ينظر ما فيها ، فإن كان أميناً ، فهو يُشَخِّصُ بدقة ما تحتاجه السيارة ، ويصلحها ، وإن كان غير أمين ستجده يُفسد الصالح ، ويزيد من الأعمال التي لا تحتاجها السيارة

(١) النموذج آلة لدراس الحبوب يحرك الحبوب والمغناطيسية الحركية

وهكذا نرى أن كل صانع في مجاله يعلم أسرار صنعته ، فما بالنا  
بالحالق الأعظم سبحانه وتعالى ؟

إنه خبير عليم بكل شيء .

ولماذا قال يوسف عن الحق سبحانه

﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ ۝ (١٠١) ﴾ [يوسف]

لأنه يعلم أن الحق سبحانه قد خلق الإنسان ، والإنسان له بدايه  
ونهاية ، لا يعلمها أحد غير الله سبحانه ، فقد يموت الإنسان وعمره  
يوم ، أو يموت في بطن أمه ، أو بعد مائه سنة ، وتمر على الإنسان  
الأعيار

أما السماوات والأرض فهي مخلوقات ثابتة ، فالشمس لا تحتاج  
إلى قطعه عيار ، ولم تقع ، ويعطى الدفء للأرض ، وهي مرفوعة عن  
الأرض ، لا تقع عليها بمشيئة الله

والحق سبحانه هو القائل

﴿ وَبِمَكَ لِسَاءِ أَد تَقَع عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ  
رَّحِيمٌ ۝ (٦٥) ﴾ [الحج]

واسمع قوله الحق

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَنَسْكُنُ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا  
يَعْلَمُونَ ۝ (١٠٧) ﴾ [عنبر]

فالإنسان يتغير ويموت ، أما اسماوات والأرض مثابته إلى ما شاء

الله

ويقول يوسف عليه السلام مواصلاً المناجاة لله

﴿أنت وَلِيّ لي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ..﴾ (١٠٠) [يوسف]

وصحيح أن الحق سبحانه وليّ ليوسف هي الدنيا ، وقد بصره وقربه وأعانه ؛ بدليل كل ما حرّ به من عقبات ، ويرجو يوسف ويدعو ألا يقتصر عطاء الله له في الدنيا الفانية ، وأن يثيبه أيضاً في الباقية ، الآخرة

وما دام سبحانه وليّه في الدنيا والآخرة فيوسف يدعو

﴿تَوَلَّى مُسْلِماً وَأَلْحَقَنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (١٠١) [يوسف]

وقوله ﴿تَوَلَّى مُسْلِماً﴾ (١٠١) [يوسف]

إنما بسبب أن يكون أهلاً لعطاء الله له في الآخرة ؛ فقد أخذ يوسف عطاء الدنيا واستمتع به ، ومتّع به ، ومشى فيه بما يرصى الله .

وعند تمتّي يوسف للوفاة وقف اعلماء ، وقالوا ما تمناها أحد ، لا يوسف .

قالإنسان إن كان مُوقِّفاً في الدنيا نجده دائم الطموح ، وتواتراً إلى المزيد من الخير

وتحمل لنا ذاكرة التاريخ عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز<sup>(١)</sup> أنه قبل الإمارة ، حينما كانوا يجيئون له بثوب قاعم كان يطلب

(١) هو أبو حفص الخليفة الصالح ، من ملوك الدولة الروابية الاسوية بالشام ، ولد ٦١ هـ ونشأ بالمدينة ، وولى إمارتها للوليد ثم استوربه سليمان بن عبد الملك بالشام ، ورأس الخلافة سنة ٩٩ هـ ولم تطل مدته فقد مات عام ١٠١ هـ عن ٤١ عاماً (الإسلام للذكلي ٥ / ٥٠)

الأكثر منه نعمة ، وإذا جرى له بطعام لين ، كان يطلب الأكثر ليونة  
 وحين صار خليفة ، كانوا يأتونه بالشرب ، فيطلب الأكثر خشونة ،  
 وطن من حوله أنه لم يعد منطعاً مع نفسه ، ولم يفهموا أن له نفساً  
 تواقة إلى الأفضل ، تستشرف الأعلى دائماً ، فحينما تاق إلى الإمارة  
 جاءته ، وحين تاق إلى الخلافة جاءته ، ولم يبق بعدها إلا الجنة<sup>(١)</sup> .

ونجد ميمون بن مهران وكان ملارماً له ، رضى الله عنهما ، دخل  
 عليه مرة فوجده يسأل ربّه الموت . فقال يا أمير المؤمنين ، أتسأل  
 ربك الموت وقد صنع الله على يديك خيراً كثيراً ، فأحييت سنناً ،  
 وأمت بدعاً ، وبقاؤك خير للمسلمين ؟

فقال عمر بن عبد العزيز . ألا أكون كالعبد الصالح حينما أتم الله  
 عليه نعمته قال

﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (١٠١)

[يوسف]

وقوله

﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً .. ﴾ (١٠١)

[يوسف]

مكونة من شقين

الشق الأول : طلب الموت

والشق الثاني : أن يموت مسلماً .

وكلُّنا يتوفى دون أن يطلب ، وعلى ذلك يكون الشق الأول غير

(١) قال عمر بن عبد العزيز إن نفسى هذه نواقة ، لم تعط من الدنيا شيئاً إلا تالتت إلى ما هو  
 أفضل منه ، فلما أعطيت الخلافة التى لا شيء أفضل منها تالتت إلى ما هو أفضل منها  
 قال سعد بن عامر الجنة أفضل من الخلافة [ حلية الأولياء ٢٣١/٥ ]

مطلوب في ذاته ، لأنه واقع لا محالة ، ويصبح المطلوب - إذن - هو الشق الثاني ، وهو أن يتوفاه الله مسلماً ، ولذلك حين نأتى إلى القبور نقول - السلام عليكم ديار قوم مؤمنين ، أنتم السابقون ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون<sup>(١)</sup> .

وإن قال سائل ولماذا نقول إن شاء الله بكم لاحقون ، رغم أنث سنموت حتماً ؟

نقول إن قولنا « إن شاء الله » سببه هو رغبتنا أن نلحق بهم كمؤمنين

وأيضاً قد يسأل سائل لماذا يقول نبي لربه .

﴿وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)﴾

[يوسف]

وهل هناك صالح يأتي إلى هذا العالم دون أن يهتدى بمنهج نبي مرسل ؟

نقول إن كلمة « الصالحين » تقسم الأنبياء وغيرهم من الذين آمنوا برسالة السماء

وهكذا انتهت قصة يوسف عليه السلام<sup>(٢)</sup> ، ولذلك يتجه الحق

(١) عن برودة الأسلمي قال كان رسول الله ﷺ يعمهم إذا خرجوا إلى المقبر ، فكان قائلهم بقول « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، إنا إن شاء الله بكم لاحقون ، أنتم مرطبا ونحن نكم تبع ، وسال الله لنا ولكم العاقبة » أخرجه الإمام أحمد في مسنده ( ٣٥٢/٥ - ٣٥٩ ) ومسلم في صحيحه ( ١٧٥ )

(٢) توفى يوسف عليه السلام بمصر ، وكان عمره ١٠٧ عاماً ، يذكر القرطبي في تفسيره ( ٣٦٥/٥ ) أنه نفي في النيل في صندوق من رخام ، وذلك أنه لما مات تشاح الناس عليه ، كل يحب أن يدفن في محلتهم ، لما يرجون من بركة ، واجتمعوا على ذلك حتى قفوا بالقتال ، فراوا أن يلقوه في النيل من حيث عرق الماء بمصر فيمر عليه الماء ثم يتفرق في جميع مصر ، فلما خرج موسى ببني إسرائيل أخرجه من النيل وقتل قابونه بعد أربعمائة سنة إلى بيت المقدس لدفنوه مع آباءه .

سبحانه من بعد تلك النهاية إلى المراد من القصة التي جاءت مكتملة في سورة كاملة ، غير بغية قصص القرآن التي تتناثر أي منها في لقطات متفرقة بمواقع مختلفة من القرآن الكريم

ودك باستثناء قصة نوح التي جاءت مكتملة أيضاً ، بدرجة أن بعض السطمين قالوا « إن هذا تكرار للقصة في لقطات مختلفة » ودائماً أقول رداً على ذلك إنه تأسيس للقطات ، إن اجتمعت جاءت القصة كاملة .

وشاء الحق سبحانه أن تأتي اللقطات متفرقة ، لأن كل لقطه إما جاءت لمناسبة ما ، وكل القصص القرآني قد جاء تثبتت فؤاد رسول الله ﷺ لأنه خلال عمره الرضائي الذي استمر ثلاثة وعشرين عاماً تعرض لأحداث حسام وكل لحظة كانت تحتاج لتثبيت ، ينزل الحق سبحانه ما يثبت به فؤاد<sup>(١)</sup> رسوله ﷺ فيوضح له في موقع ما لا تحزن ، لأن من سبقك من الرس حدث معهم كذا<sup>(٢)</sup>

بل قد تجد في الواقعة الواحدة لقطتين ، مثلما جاء في العداوة بين موسى وفرعون

قال الحق سبحانه

﴿فَالْتَفَعُلْ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ .. (A) ﴿[القصص]

وهنا تكون العداوة من طرف موسى .

(١) يقول تعالى في كتابه ﴿وَكَلَّا نَقْصُرُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْبِثُ بِهِ فُؤَادَكَ لِي هُدًى الْحَقُّ وَنُفِخَ وَذُكِّرَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢١) [هود]  
(٢) يقول تعالى ﴿وَإِنْ يَكْفُرْكَ فَدَعْهُنَّ وَمَا تَكُنْ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٢٣) [طه]  
(٣) المؤمن والمؤمنات والهم والهم [القاموس القويم ١/ ١٥٢]

ويقول في نفس المسألة أيضاً :

﴿يَأْخُذْ عَدُوُّ لِي وَعَدُوُّ لَهُ . ٣٩﴾ [٤٤]

وهنا تكون العداوة من جهتين ؛ لأن العداوة تتفعل حين تكون من جهتين ، فلا يمكن أن يستمر عداً من طرف واحد ، ونقوم من أجل هذا المدام معركة ، لكن حين تكون العداوة من جهتين فهذا يطيل أمد المعركة

والمثل الثاني هو قول الحق سبحانه في نفس قصة موسى : وهي لقطة متقدمة حدثت في الأيام الأولى من حياة موسى ، وقبل أن تلقى أمه في اليم ، فقد مهد الله لها الأمر

يقول الحق سبحانه عن ذلك

﴿فَإِذَا خَشِيَ عَلَيْهِ فَأُلْقِيَهُ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافُ وَلَا تَحْزَنُ . ٧﴾ [القصص]

وهذا شحذ لهُمَّتْهَا قبل الحادث ، وتنبيه لها من قبل أن يقع ، ولحظة أن جاء الحادث نفسه أوحى لها الحق سبحانه

﴿أَنْ أَقْدِفِهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوُّ لِي وَعَدُوُّ لَهُ . ٣٩﴾ [٤٥]

والذين قالوا إن قصص القرآن جاء مبثُوراً ، قد نسوا أن قصة نوح جاءت في موقع واحد ، وجاءت سورة يوسف مبثُورة من أول الرؤيا إلى تولى امُلك ، وجمع شمل العائلة

ونزلت القصة في سورة واحدة بعد أن سألوا عنها ، وهم يعلمون



أن محمداً ﷺ لم يجس إلى مُعَلِّم ، ولم يقرأ في كتاب ، وتاريخه معروف بالنسبة لهم ، وحين يأتي لهم مُوصِّحاً أن الحق سبحانه قد أنزل عليه ، فكذبوه ، وأنعموا أنه يسمع لقطة من هنا ، ولقطة من هناك ، حين سألوه أن يأتي بقصة يوسف جاء بها كاملة ، من أواخرها إلى آخرها

ويقول الحق سبحانه في نهاية القصة :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ<sup>(١)</sup> وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾

و « ذلك » إشارة إلى هذه القصة ، والخطاب مُوجَّه إلى محمد ﷺ أي أنك يا محمد لم تكن معهم حين قالوا

﴿ يُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا<sup>(٢)</sup> ﴾ [يوسف]

فالحق سبحانه أخبرك بأنباء لم تكن حاضراً لأحداثها ، والغيب - كما علمنا من قبل - هو ما غاب عنك ، ولم يغِبْ عن غيرك ، وهو غيب نسبي ؛ وهماك الغيب المُطْلَق ، وهو لدى يغيب عنك وعن أمثالك من البشر

والغيب كما نعلم له ثلاثة حواجز

الأول ، هو حاجز الزمن الماضي الذي لم تشهده ، أو حاجز الزمن المستقبل الذي لم يأت بعد .

(١) اجتمع القوم على أمر اتفقوا عليه . وجمع الأمر مرم عليه واحكمه قال تعالى ﴿ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا مُنْجَا .. ﴾ [طه] [ القاموس القويم ١/ ١٧٧ ]

والثاني : من حاجر امكان

والثالث : هو حاجر احاصر ، بمعنى ان هناك اشياء تحدث في مكان أنت لا توجد فيه . فلا تعرف من أحداثه شيئاً

و ﴿نُوحِهِ إِلَيْكَ ۖ﴾ (١٠٢) [يوسف]

أي نُعلمك به بطرف خفي ، حين اجتمعوا ليتفقدوا ، إما ان يقتلوا يوسف ، أو يلقوه في غيابة<sup>(١)</sup> الحب

وكشف لك الحق سبحانه حجاب الماضي في أمر لم يُعلمه لرسول الله ، ولم يشهد ﷺ ما دار بين الإخوة مباشرة ، أو سمعاً من مُعلم ولم يقرأ عنه ، لأنه ﷺ أمي لم يتعلم القراءة أو الكتابة

وسبحانه يقول عن رسوله ﷺ

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ<sup>(٢)</sup> بِيَمِينِكَ إِذَا لِأَرْثَابِ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٤٨) [العنكبوت]

وهم بشهادتهم يعلمون كل حركة لرسول الله ﷺ قبل أن يُبعث ، إقامة وترحالاً والتقاء بأي أحد

هو علموا انه قرا كتاباً لكانت لهم حُجَّة ، وحتى الأمر الذي عانت عنهم فطنتهم فيه ، وقالوا

(١) غيابة الحب ما غاب من جوابه عن النظر ويستقر ما اختبأ فيه ( القاموس القويم ٦٤/٢ ) والحب هي العثر التي لم تُبَيَّن بالحجارة

(٢) الخط السطر والكتابة خط الكتابة بخط كتيبه قال تعالى ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ (٤٨) [العنكبوت] أي قبل القرآن ما كنت قارئاً ولا كاتباً

[ القاموس القويم ١٩٨/١ ]

[النحل]

﴿ تَمَا يَعْلَمُهُ بِشَرِّ . (١٠٣) ﴾

فَرَدَّ عَلَيْهِمُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ

﴿ لِسَانُ لَدِي يُلْعَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) ﴾

[النحل]

وأبطل الحق سبحانه هذه الحجة . وقد قص الحق سبحانه على رسوله الكثير من أنباء الخيب ، وسبق أن قلنا الكثير عن « ما كُنْتَ القرآن » ، مثل قوله تعالى

﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ ، ذَ يَلْقَوْنَ أَفْلاَمَهُمْ ۚ أَنَّهُمْ يَكْمُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) ﴾

[آل عمران]

وقوله الحق

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ۚ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) ﴾

[النصر]

فكان مصدر علم الرسول بكل ذلك هو من إخبار الله له

وقد استقبح أهل الكفر ما طلبوا أن يعرفوه من قصة يوسف

(١) للقلم السهم أو خشبة تشبهه بكتف عنه رمز يدل على مقدار يعطى لمن يخرج بسهمه ، وكانوا يستعملونه في القمار أو في القرعة ومن استعماله في القرعة ، موله ﴿ إِذْ يَلْقَوْنَ أَفْلاَمَهُمْ أَنَّهُمْ يَكْمُلُ مَرْيَمَ . (٤٤) ﴾ [آل عمران] فالأفلام هه سهام الاقتراع ، وقد أجريت القرعة فقار سهم زكريا فكفل مريم [ القاموس القويم ١٣٢/٢ ]

(٢) هو الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الرادى

[ ابن كثير ٣ ٣٩١ ]

باللذرة<sup>(١)</sup> والجحود - وهم قد طلبوا مطلبهم هذا بتأسيس من اليهود  
وهو ﷺ جاء لهم بقصة يوسف في مكان واحد ، وبفئة واحدة ، وفي  
سورة واحدة ، لا في لقطات متعددة منثورة كأغلب قصص القرآن

وقد جاء لهم بها كاملة ؛ لأنهم لم يطلبوا جزئية منها ، وإنما  
سألوه عن القصة بتمامها ، وتوقعوا أن يعزب عن ذلك ، لكنه  
لم يعزب ، بل جاء لهم بما طلبوه

وكان يجب أن يلتفتوا إلى أن الله هو الذي أرسله ، وهو الذي  
علمه وهو الذي أباه لكنهم لم يؤمنوا ، وعز ذلك على رسول  
الله ﷺ . فأوضح له سبحانه لا تبتئس ولا تيأس

﴿ لَعَلَّكَ بَاحِعٌ<sup>(٢)</sup> نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢)

[الشعراء]

ويقول له سبحانه

﴿ لَعَلَّكَ بَاحِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ  
أَتَقَىٰ ﴾ (٦)

[الكهف]

نأت يا رسول الله عليك البلاغ فمقط ، ويذكر الحق ذلك ليسألني  
رسوله ﷺ حين رأى لدى الكافرين ، بعد أن جاء لهم بما طلبوه ، ثم  
جحدوه

﴿ وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظْمًا .. ﴾ (١٤)

[النمل]

(١) لذيرة اشتد في الجدد والحصومة والألد اسم تفضيل أي الأشد حصومة وجدلاً  
قال تعالى ﴿ وَشَهِدَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قُلُوبِهِمْ وَهُوَ اللَّهُ الْخَصَّامُ ﴾ (٢٤) [البقرة] القاموس الفويم

وهم قد جحدوا ما حاء به رسول الله ﷺ ، لأنهم حرصوا على السلطة الزمنية فقط . وكان من الواجب أن يؤمنوا بما جاءهم به ، لكن العناد هو الذي وقف بينهم وبين حقيقة البقين وحقيقة الإيمان .

وأنت لا تستطيع أن توجه المُعَانِد بحجة أو بمنطق ، فهم يريدون أن يظل الضعفاء عبيداً ، وأن يكونوا مسيطرين على الخلق بجبروتهم ، والدين سيُسوَّى بين اناس جمعاً ، وهم يكرهون تلك المسألة

ريأتى الحق سبحانه بعد ذلك بقصية كونية ، فيقول

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٣)

فأنت يا محمد لن تجعل كل الناس مؤمنين ؛ ولو حرصت على ذلك ، وكان ﷺ شديد الحرص على أن يؤمن قومه ، فهو منهم

ويقول فيه الحق سبحانه

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ <sup>(١)</sup> حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٢٨)

[ التوبة ]

لكنهم جحدوا ما جاءهم به ، وقد أحزنه ذلك الأمر . وفي الحرص نجد آية خاصة باليهود ، هؤلاء الذين دفعوا أهل مكة أن يسألوا الرسول ﷺ عن قصة يوسف ، يقول الحق سبحانه

﴿ وَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ ﴾ (٦١)

[ البقرة ]

(١) العنت المشقة وأعبته أوقعه في العنت وشق عليه قال تعالى ﴿ وَفَرَّ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْلَمَنَّ ﴾ (٦٠) [البقرة] أى كللكم الأمور الشاقة التي ترفعكم في العنت [ القسوس القويم ٢٩/٢ ]

وكان على أهل مكة أن يؤمنوا ما دام قد ثبت بهم بالبينات أنه رسول من الله .

وجاء قوله الحق

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٣) [يوسف]

جاء ذلك القول تسليةً من الحق سبحانه برسوله وليؤكد له أن ذلك ليس حار أهل مكة فقط ، ولكن هذه هي طبيعة معظم الناس لماذا ؟

لأن أغلبهم لا يحسن قياس ما يعطيه له منهج الله في الدنيا والآخرة ، والإنسان حين يقبض على منهج الله ، يقيس الإقبال على هذا المنهج بما يعطيه له في الآخرة ، فلسوف يعلم أنه مهما أعطى لنفسه من متع الدنيا فعمره فيها موقوف بالقدر الذي قدره له الله والحياة يمكن أن تنتهي عند أية لحظة

والحق سبحانه حين حبا عن الناس أعمارهم في الدنيا ، لم يكن هذا الإحفاء إبهاماً كما يظن البعض ، وهذا الإبهام هو في حقيقته عين البين ، فإشاعة حدوث الموت في أي زمن يجعل الإنسان في حالة ترتب

ولذلك فصيحات الهجاء لها حكمة أن يعرف كل إنسان أن الموت لا سبب له ، بل هو سبب في حد ذاته ، سواء كان الموت في حادثة أو بسبب مرض أو فجأة ، فالإنسان يتمتع في الدنيا على حسب عمره المعدد الموقوف عند الله سبحانه ، أما في الآخرة فإنه يتمتع على قدر إمدادات الخالق سبحانه .

والإنسان المؤمن يقيس استمعاؤه في الآخرة بقدرته الله على  
العطاء ، وبإمكانات الحق لا إمكانات الخلق

وهبُ أن إنساناً معزولاً عن أمر الآخرة أي أنه كافر بالآخرة  
وأحدها على أساس الدنيا فقط ، يقول به انظر إلى ما يُطلب منك  
نهياً ، وما يُطلب منك أمراً ، ولا تجعله لذاتك فقط ، بل احمله لمقابل  
لك من الملايين غيرك

سوف تحد أن بواهي المذهب إن منعك عن شر تفعله بغيرك ،  
فقد منعت الغير أن يفعل بك الشر في هذا مصلحة لك بالمقاييس  
العادية التي لا تدخل للدين بها

ويجب أن نأخذ هذه المسألة في إطار قضية هي « ذرء المفسدة  
مُقدَّم على حُكْب المصلحة »

وهبُ أن إنساناً مُحِباً لك أمسك بتفاحة وأراد أن يقذفها بك ، بينما  
يوجد آخر كاره لك ويحاول أن يقذفك في نفس اللحظة بحجر ،  
وأطلق الاثنان ما في أيديهما تجاهك ، هنا يجب أن تردُّ الحجر قبل أن  
تلتقط التفاحة ، وهكذا يكون ذرء المفسدة مُقدِّماً على حُكْب المصلحة

وعلى الإنسان أن يقيس ذلك في كل أمر من الأمور ، لأن كثيراً  
من أدوات الحصادات أو ابتكارات المدنية أو المخترعات العلمية قد  
تعطينا بعضاً من النفع ، ولكن يثبت أن لها من بعد ذلك الكثير  
من الضرر .

مثال هذا هو اختراع مادة « د د ت » التي قتلت بعض  
الحشرات ، وقتلت معها الكثير من الطيور المفيدة .

ولذلك يقول الحق سبحانه

﴿وَلَا تَقْفُ<sup>(١)</sup> مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦)﴾ [الإسراء]

وعليك أن تدرس أى مُخْتَرَع قبل استعماله ؛ لترى نفعه وضرره قبل أن تستعمله .

وقد رأينا من يُدخلون الكهرباء إلى بيوتهم يحاولون أن يرفعوا موقع « فيش » الكهرباء عن مستوى تناول الأطفال ، كي لا يضع طفل أصابعه فى تلك الفتحات فتضعفهم الكهرباء ، ووجدنا بعضاً من المهندسين قد صنّوا أجهزة تفصل الكهرباء ألياً إن لمستها يد بشر وهذا هو نزهة المفسسة المُقَدَّم على جلب المديعة ، وعليه أن نحقق لمثل هذه الأمور

وفى الآية التى نحن بصدد خواتمنا عنها مجد الحق سبحانه يقول

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٢)﴾ [يوسف]

وعلى قوله

﴿أَكْثَرُ النَّاسِ .. (١٠٣)﴾ [يوسف]

نسبة للدين لا يؤمنون ، يعنى أن المؤمنين قلة ؟

(١) لقاد يطوه قفوا مشى خلفه ان تبعه وأصله من القفا وقوله ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦)﴾ [الإسراء] أى لا تتبع من الضالين ما ليس لك به علم ، ولا من الأراء ، ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تسترسل فى الحديث عما ليس لك به علم [ القاموس القويم ١٢٨/٢ ]



نقول لا : لان « أكثر » قد يقابله « أقل » ، وقد يقابله « الكثير » .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۚ ۝ (١٨) ﴾ [الحج]

ومكذا نجد أن كلمة « كثير » قد يقابلها أيضاً كلمة « كثير » .

وقد أوضح الحق سبحانه لرسوله ﷺ أنه لو حرص ما استطاع أن يجعل أكثر الناس مؤمنين ، والحرص هو تعليق النفس وتعمدته محوود للاحتفاظ بشيء يرى أنه يجب لنا نفعاً أو يذهب ضرراً ، وهو استمساك يتطلب جهداً .

ولذلك يوضح له الحق سبحانه أنت لن تهدي من تحرص على هدايته

ويقول سبحانه .

﴿ إِن تَحْرِمْنَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ۚ ۝ (٣٧) ﴾ [النحل]

ومن هذه الآية نستفيد أن كل رسول عليه أن يؤمن نفسه على أن الناس سيخطئون مقدرات بين البدائل النفعية ، وسيقعون في أخطاء اختيار غير لمانم لعائدتهم على المدى الطويل ، فوطن نفسك يا محمد على ذلك

وإذا كنت يا رسول الله قد حملت الرسالة وسألتهم الإيمان

لفائدتهم ، فانت تفعل ذلك دون أجر رغم أنهم لو فطنوا إلى الأمر لكان يجب أن يقدروا أجراً لمن يهديهم سواء<sup>(١)</sup> السبيل ، لأن لاجر يُعطى لمن يقدم لك منفعة .

والإنسان حريص على أن يدفع الأجر لمن يُعينه على منفعة ، والمنفعة إما أن تكون موقوتة بزمان بنحوى ينتهى ، وإما أن تكون منعة ممتدة إلى ما لا نهاية ، راحة في الدنيا وسعاده في الآخرة

ويأتى القرآن بقول الرسل<sup>٢</sup>

﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا .. ﴾ (٦٠)

[الأنعام]

ولم يقل ذلك ثمان هما إبراهيم عليه السلام ، وموسى عليه السلام .

وكان العقل يقول كمن يجب على الناس لو أمها تُقدّر التقدير السليم ، أن تدفع أجراً للرسول الذى يفسّر لهم احوال الكون ، ويُطمئنتهم على مصيرهم بعد الموت ، ويشرح لهم منهج الحق ، ويكون لهم أسوة حسنة .

(١) سواء تدل على معنى التوسط والاعتدال فسواء السبيل وسطه قال تعالى ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ نَبِيٌّ مَتَى أَتَى الْبِلَادَ﴾ [التوبة: ١١٠] وعسى ربى أن يهدينى سواء السبيل (١٢) ﴿[القصص: ٢٢] أى وسط الطريق الموصّل للحبر [القاموس للقرئيم ٢٢٨/٦]

(٢) قالها نوح عليه السلام [يونس ٧٢] ، [هود ٢٩] ، [الشعراء ١٩٩]

وقالها هود عليه السلام [هود ٥١] ، [الشعراء ١٢٧]

وقالها صالح عليه السلام [الشعراء ١١٥]

وقالها نوح عليه السلام [الشعراء ١٦٤]

وقالها شعيب عليه السلام [الشعراء ١٨٠]

وقالها محمد ﷺ رسول الله [سبا ٤٧]

وبحق نجد في عالمنا المعاصر أن الأسرة تدفع الكثير للمدرس  
الخصوصي الذي يُلَقِّن الابن مبادئ القراءة والكتابة ، وما بالنا بمن  
يصيئه البصر والنصيرة بالهداية ؟

ومقتضى الأمر أن الرسول ﷺ يقدم نقعاً أبدياً لمن يتبعه ، لكن  
لم يطلب أجراً

وبقول الحق سبحانه

﴿وَمَا سَأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا وَكَرَّ لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٤)

وفي هذا القول الكريم ما يوضح أن النبي ﷺ لا يسأل قرمه  
أجراً على هدايته لهم ، لأن أجره على الله وحده

والحق سبحانه هو القائل

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ (١٥) [الطور]

والحق سبحانه يقول على لسان رسوله في موقع آخر

﴿مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَخْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ..﴾ (١٧)

[سبا]

وهو هنا يُعَلِّمُ الأجر ، فبدلاً من أن يأخذ لآخر من محدود القدره  
على الدَّفْع ، فهو يطلبها من الذي لا تُحَدُّ قدرته في إعطاء الأجر ،  
فكان العمل الذي يقوم به لا يمكن أن يُجَارَى عليه إلا من الله لأن  
العمل الذي يؤديه سبحانه الله ومن الله ، فلا يمكن إلا أن يكون الأجر  
عليه من أحد غير الله

ولذلك يقول سبحانه

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤)﴾

[يوسف]

والذكر يُطلق إطلاقاً متعددة ، ومادة « ذال » و « كاف » ، و « راء » مأخوذة من الذاكرة . وعرفنا من قبل أن الإنسان له آلات استقبال هي الحواس الإنسانية ، وتنتقل المعلومات أو الخبرات منها إلى العمليات العقلية ، وتُمرُّ تلك المعلومات ببؤرة الشعور ، ليُحفظ لفترة في هذه البؤرة ، ثم تنتقل إلى حاشية الشعور ، إلى أن تستدعيها الأحداث ، فتعود مرة أخرى إلى بؤرة الشعور .

ولذلك أنت تفكر حين تتذكر معلومة قديمة « لقد تذكرتها » ، كان المعلومة كانت موجودة في مكان ما في نفسك ، لكنها لم تُكُنْ في بؤرة الشعور . وحين جاءت عملية الاستدعاء ، فهي تنتقل من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور .

والتذكر هو استدعاء المعلومة من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور .

والحق سبحانه يقول

﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ .. (٥٠)﴾

[إبراهيم]

أي ذكّرهم بما مرّ عليهم من أحداث أجزاها الله ، وهي غير موجودة الآن في بؤرة شعورهم . وسُمّي القرآن ذكراً ، لأنه يُذكر كل مؤمن به بالله الذي تفضل علينا بالمذهب الذي تسير به حياتنا إلى خير الدنيا والآخرة .

فَالذِّكْرُ - إِذَنْ - يَكُونُ لِلْعَاقِلِ مَعُونَةً لَهُ ، وَهُوَ مَنْ ضَمِنَ رَحْمَةً اللَّهِ  
بِالْحَقِّ ، فَلَمْ يَتْرِكِ الْخَلْقَ مُنْشَغِلِينَ بِالْعَمَةِ عَنْ مَنْ أَسْعَمَهَا عَلَيْهِمْ ،  
فَهَذَا الْكَوْنُ مَنْظَمٌ بِدِقَّةٍ بَدِيعَةٍ ، وَفِيهِ كُلُّ مَقُومَاتِ حَيَاةِ الْبَشَرِ  
وَمَنْ فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُذَكِّرِينَ لَهُمْ بِهَذَا الْعِطَاءِ  
الرِّبَاطِيِّ .

وكلمة ، ذكر ، تدل على أن الفطرة في الإنسان كان يجب أن  
تظل وعية ذاكرة لله ، وقد قدر الله غفلة الأحداث ، فجعل لهم الذكر  
كله في القرآن الكريم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُقْرِضُونَ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿﴾

وإذا سمعتَ « كأي » أفهم أن معناها كثير كثير ، بما يفوق الحصر ، ومثل « كأي » كلمة « كم » ، والعَدُّ هو مِطْنَةُ الحصر ، والشيء الذي فوق الحصر ، تنصرف عن عَدِّه ، ولا أحد يحصر وعمال لصحراء مثلاً ، لكن كلاً ما يَعُدُّ انقواء النى يردُّها لنا البائع ، بعد أن يأخذ ثمن ما اشتريناه

إِنْ فَالْأَنْصِرَافُ عَنْ أَدْعَىٰ مَعْنَاهُ أَنْ الْأَمْرَ الَّذِي نُرِيدُ أَنْ نَتَّوَجَّهُ  
لَعَدُّهُ فَوْقَ الْحَصْرِ ، وَلَا أَحَدٌ يَعُدُّ النُّجُومَ أَوْ يَحْصِيهَا  
وَلِذَلِكَ نَجِدُ الْحَقَّ سَبِّحَانَهُ يُنَبِّئُهُمَا إِلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، لِإِسْبَاحِ مَعْنَاهُ  
عَلَى خَلْقِهِ ، وَيَقُولُ

﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها.. (٣٤)﴾ [إبراهيم]

و « إن » هي للأمر المشكوك فيه ، وأنتم لن تعدوا نعمة الله ، لأنها فوق الحصر ، والمعدود دائماً يكون مكرراً ، وذكر الحق هنا نعمة واحدة ، ولم يحددها ، لأن أي نعمة تستقبلها من الله لو استقصيتها لوجدت فيها نعمة لا تُحصَر ولا تُعدّ

إذن كلمة « كآين » تعنى « كم » ، وأنت تقول للولد الذى لم يستذكر دروسه كم نصحك ؟ وأنت لا تقولها إلا بعد أن يفيض بك الكبر

وتأتى « كم » ويُرَاد بها تضخيم العدد ، لا أنك أنت المتكلم ، ولكن ممن توجّه إليه الكلام ، وكأنك تستأمنه على أنه لن يهتق إلا صدقاً ، أو كأنك استحضرت النصائح ، فوجدتها كثيرة جداً

والسؤال عن الكمية إما أن يُلْتَمَس من المتكلم ، وإما أن يُطلب من المخاطب ، وطبّه من المخاطب دليل على أنه سيقَرّ على نفسه ، والإقرار سيد الأدلة .

وحين يقول الحق سبحانه

﴿وكآين (٣٥)﴾

[يوسف]

معناها أن ما يأتى بعدما كثير

وسبحانه القائل

﴿وَكُنْزٍ مِّنْ نَّيْمٍ قَاتِلٍ مَّعَهُ رَيْثُونٌ﴾<sup>(١)</sup> كَثِيرٌ فَمَا وَهَرُوا<sup>(٢)</sup> لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا صَعَفُوا<sup>(٣)</sup> وَمَا اسْتَكَانُوا<sup>(٤)</sup> وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُسَابِرِينَ ﴿٢١١﴾

[آل عمران]

وهكذا نفهم أن ( كائين ) تعني الكثير جداً ، الذي بلغ من الكثرة مبلغاً يُبرر لنا العذر أمام الغير إن لم نُخصه .

والآيات هي جمع « آية » ، وهي الشيء العجيب ، المَلَكُوت للنظر ، ويُقال فلان آية في الدكاء ، أي : أن دكاءه مَضْرِبُ المَثَل ، كما مر عجيب يفوق ذكاء الآخرين

ويُقال - فلان آية في الشجاعة ؛ وهكذا

ومعنى الشيء العجيب أنه هو الخارج عن المألوف ، ولا يُنسى .

وقد مر الحق سبحانه في الكون آيات عجيبة ، ولكل منثور في الكون حكمه ، وتنقسم معنى الآيات إلى ثلاث :

الأول : هو الآيات الكونية التي تحدثنا عنها ، وهي عجائب ، وهي حُجَّةٌ للمتأمل أن يؤمن بالله الذي أوجدها ، وهي تُلَفِّتُكُ إِلَى أَن مَن حَلَفَها لا بُدَّ أن تكون له منتهى الحكمة ومنتهى الدقة ، وهذه الآيات تُلَفِّتُنا إِلَى صدق توحيد الله والمُعقِدة فيه

(١) الرُّسُلُ العالم النسخ المصاير قال تعالى ﴿وَكُنْزٍ مِّنْ نَّيْمٍ قَاتِلٍ مَّعَهُ رَيْثُونٌ كَثِيرٌ﴾<sup>(١٢٦)</sup> [آل عمران] والذي من رَيْثِهِ ، وهم هنا من رَيْثِهِم النبي فقاتلوا معه وبمسروقه [القصص ٢٥١، ٦]

(٢) ابن جرير الصطف في العمل والامر ورجل واهل في الامر والعمل ، وموهون في العظم واليبس [لسان العرب - مادة وهن]

(٣) استكان حَضَعَ وَثَلَ [لسان العرب - مادة سكن]

وقد نثر الحق سبحانه هذه الآيات في الكون ، وحينما أعلن الله بواسطة رسله أنه سبحانه الذي خلقها ، ولم يقل أحد غيره « أما الذي خلقت ، فهذه المسألة - مسألة الخلق - تثبت له سبحانه ، فهو الخالق وما سواه مخلوق، وهذه الآيات قد خلقت من أجل هدف وغاية

وفي سورة الروم نجد آيات تجمع أغلب آيات الكون ، فيقول الحق سبحانه

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخْبِئُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (٩) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (١٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَحَصَّ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَمِنْ آيَاتِهِ حَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَاجْتَلَلَ الْأَسْتَكَمَّ وَأَنۢوَاكُمۡ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعٰلَمِينَ (١٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَازِلُكُمۡ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمۡ فِي فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (١٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (١٥)﴾

[الروم]

كل هذه آيات تنبيه الإنسان الموجود في الكون أنه بقمع فيه

(١) أظهر دخل في وقت الظهيرة والظهيرة وقت الظهر ويشع إلى العصر قال تعالى ﴿وَمِنْ تَعْمُرُونَ لِيَاكُم مِّنَ الظُّهْرِ (٥٨)﴾ [النور] أي حين تستريحون في منازلكم بعد صلاة الظهر عادة إلى العصر [القاموس المكيوم ٤١٨/١]



طبقاً لنواميس عليا ، فيها سرُّ نفاة حياته ، فيجب أن ينتبه إلى مَنْ أوجدها .

وبعد أن ينتبه إلى وجود واحد أعلى ، كان عليه أن يسأل : ماذا يريد منه هذا الخالق الأعلى ؟

هذه الآيات تفرض علينا عقلياً أن يوجد مَنْ ندعنا مطلوباً الواجد الأعلى ، وحينئذ يأتى رسول يقول لنا : إن مَنْ تبحثون عنه اسمه الله ، وهو قد بعثنى لابلغكم بمطالبه منكم أن تعبدوه ، فسيبعوا أوامره وتتجنبوا نواصيه

والنوع الثانى من الآيات هى آيات إعجازية ، والمراد منها تثبيت دعوة الرسل ، فكان ولا بُدَّ أن يأتى كل رسول ومعه آية ؛ لتثبت صدق بلاغه عن الله ، لأن كل رسول هو من البشر ، ولا بد له من آية تخرق النواميس ، وهى المعجزات التى جاءت مع الرسل

وهذه آيات حكمية ، وهى النوع الثالث ، وهى الفواصل التى تحمل جُملاً ، فيها أحكام القرآن الكريم : وهو المبهج الخاتم .

وهى آياتٌ عجيبية أيضاً ، لأنك لا تجد حكماً من أحكام الدين إلا ويمس منطقياً حاجة من حاجات النفس الإنسانية ، والبشر وإن كفروا سيضطرون إلى كثير من القضايا التى كانوا ينكرونها ، ولكن لا حلَّ للمشكلات التى يواجهونها ، ولا تُحلَّ إلا بها .

والمثل الواضح هو الطلاق ، وهم قد عابوا مجيء الإسلام به : وقالوا : إن مثل هذا الحل للعلاقة بين الرجل والمرأة قد يحمل الكثير

من القسوة على الأسرة ، كنهم لجأوا إليه بعد أن عضتْهم أحداث الحياة ، وهكذا امتدَّى العقل البشرى إلى حكم كان يناقضه

وكذلك أمر الربا انذى يحاولون الآن وضع نظام ليقطلوا من الرما كله ، ويقولون لا شيء يمنع المقر البشرى من التوصل إلى ما يفيد

وهكذا نجد الآيات الكونية هي عجائب بكل المقاييس ، والآيات المصاحبة للرسم هي معجزات خرقَتْ الدواميس ، وآيات القرآن بما فيها من أحكام تلقى الإنسان من الداء قبل أن يقع ، وتُجبرهم معصلات الحياة أن يعودوا إلى أحكام القرآن ليأخذوا بها

وهم يُعرضون عن كل الآيات ، يُعرضون عن آيات الكون التى إن دققوا فيها لثبتَ لهم وجود إله خالق ، ولأخذوا عطاءً من عطاءات الله ليسرى تربيته وتنمية ، وكل الاكتشافات الحديثة إنما جاءت متيحةً لملاحظات ظاهرة ما فى الكون .

وسبق أن ضربتُ المثل بالرجل الذى جلس ليطلبو فى قبر ، ثم رأى عطاء القبر يعنو ، ففكر وشاءل لماذا يعلو غطاء لقبر ؟ وم يُعرض الرجل عن تأمل ذلك ، واستبباط حقيقة تحول الماء إلى بخار ، واستطاع عن طريق ذلك أن يكتشف أن الماء حين يتبخر يتعدد ، ويحتاج إلى حيزٍ أكبر من الحيز الذى كان فيه قبل التمدد

وكان هذا التأمل وراء اكتشاف طاقة البخار التى عملتُ بها البواخر والقطارات . وبدأ عصر سُمى « عصر البخار » وهذا الذى رأى طَقَوْ طبق على سطح الماء وتأمل تلك الظاهرة ، ووضع قاعدة باسمه ، وهى « قاعدة أرشميدس »

وهكذا نجد أن أى إنسان يتأمل الكون بدقّة سيجد فى ظواهره ما يعيده فى الدنيا كما استفاد العالم من تأملات أرشميدس وغيره ، ممن قدّموا تأملاتهم كملاحظات ، تتبعها العلماء ليصلوا إلى حتراعات تفيد البشرية

وهكذا يرى أن الحق سبحانه لا يرضى على الكافر بما يفيد العالم ما دام يتأمل ظواهر الكون ، ويستنبط منها ما يفيد البشرية إذن فقله تعالى

﴿وَكَايَ مِ آيَةٍ فِى السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ (١٠٥) [يوسف]  
إن أردتها وسيلة للإيمان بالله ، فهى تقودك إلى الإيمان وإن أردتها لفائدة ادنيا فالحق لم يبخل على كافر بأن يُعطيه نتيجة ما يبذل من جهد

فكل المطلوب ألا تمرّ على آيات الله وأنت معرض عنها ، بل على الإنسان أن يُقبل إقبال الدرس ، ما لتنتهى إلى قصية إيمانية تُثري حياتك ، وتعطيك حياة لا نهاية لها ، وهى حياة الآخرة ، أو تُسعد حياتك وحياة غيرك ، بأن تبتكر أشياء تفيدك وتفيد البشرية

ويقول لحق سبحانه بعد ذلك

﴿وَمَا يَتُومِنُ أَكْثَرُهُمْ بِٱللّٰهِ  
إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ (١٦)

وهكذا يرى المصطفى الذى يمر بها البشر ليصلوا إلى الإيمان ، المصطفى الأول ، قوله تعالى

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٢) [يوسف]

أى أن الكثير من الناس لن يصلوا إلى الإيمان ، حتى ولو حرص الرسول ﷺ أن يكونوا مؤمنين .

وقلنا : إن مقابل « كثير » قد يكون « قليل » . وقد يكون « كثير » ، وبعض المؤمنين قد يشوب إيمانهم شبهة من الشرك ، صحيح أنهم مؤمنون بالإله الواحد ، ولكن إيمانهم ليس يقينياً ، بل إيمان متذبذب ، ويشركون به غيره .

والمصطفى الثانى : قوله تعالى

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (١٠٦) [يوسف]

ومثال هذا كفار قريش الذين قال فيهم الحق سبحانه

﴿وَلَوْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ..﴾ (٨٧) [الرحرف]

ويقول فيهم أيضاً

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .﴾ (٣٥) [لقمان]

[لقمان]

ورغم قولهم هذا إلا أنهم جعلوا شفعاء لهم عند الله ، وقالوا إن الملائكة بنات الله ، وهكذا جعلوا لله شركاء . ومعهم كل من ادعى أن لله ابناً من أهل الكتاب

وأيضاً مع هؤلاء يوجد بعض من المسممين الذين يحرصون قوماً أقوياء بالخصوع لهم خضوعاً لا يمكن أن يسمى في المرف مودة ، لأنه تقرب ممثلة بالذلة ، لأنهم يعتقدون أن بهم تأثيراً في النفع والضرر ، وفي هذا لون من الشرك .

ويأتي الواحد من هؤلاء ليقول لمن يتقرب منه أرجو أن تقضى لي الأمر الفلاني ويرد صاحب النفوذ . اعتمد على الله وإن شاء الله سيقضى الله لك حاجتك .

لكن صاحب الطلب يتمادي في الدلة ، ليقول : وأنا أعتمد عليك أيضاً ، لتقضى لي هذه الحاجة

أو يرد صاحب النفوذ ويقول : أنا سوف أفعل لك الشيء العلاني ، والباني على الله .

وحين أسمع ذلك فأنا أتساءل وماذا عن الذي ليس باقياً ليس على الله أيضاً ؟

وينثر الله حكماً في أشياء تمنأها أصحابها : فقُضيت ، ثم تبين أن فيها شراً ، وهناك أشياء تمنأها أصحابها ، فلم تُقصر ، ثم تبين أن عدم قضائها كان فيه الخير كل الخير

بجد الأثر يقول

واطلبوا الأشياء بعرة الأنفس فإن الأمور تجري بمقادير وربما منعك هذا فكرهته . وكان المنع لك خيراً من قضائه لك ، فإن المنع عين العطاء ، ولذلك وعلى الإنسان أن يعرف دائماً أن الله هو الفاعل ، وهو المسبب ، وأن السبب شيء آخر .

ودائماً اذكر بأننا حين نحج أو نعتمر نسعى بين الصفا<sup>(١)</sup> والمروة

(١) الصفا والمروة جبلان بين بطحاء مكة والمسجد وأصل الصفا العريض من العجارة الأملس . [ لسان العرب - مادة حفا ] والمروة الحجر الأبيض الهش البراق ومروة المسمى التي تذكر مع الصفا ، وهي أحد راسي الذين ينتهي السعي إليهما سعيت بذلك [ لسان العرب - مادة صفا ]

لنتذكر ما فعلته سيدتنا هاجر التي سعت بين الصفا والمروة ، لتطلب الماء لوليدها بعد استنفدت أسبابها ، ثم وجدت الماء تحت رجل ويدها إسماعيل

فقد أخذت هي بالأسباب ، فجاء لها ربُّ الأسباب بعد سألت عنه ولم يأت لها الحق سبحانه بالماء في جهة الصفا أو المروة ، ليثبت لها القضية الأولى التي سألت عنها إبراهيم عليه السلام حين أنزلها في هذا المكان

فقد قالت له : أنزلتنا هنا برأيك ؟ أم أن الله أمرك بهذا ؟ قال نعم أمرني ربِّي قالت إذن لا يضيعنا .

وقد سعت هي بحثاً عن الماء أحداً بالأسباب ، وعثرت على الماء بقدرة المسبب الأعلى

وقول الحق سبحانه

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف]

يتطلب منا أن نعرف كيف يتسرَّب الشرك إلى الإيمان ، ولنا أن نتساءل ما دام يوجد الإيمان ، فمن أين تأتي لحظة الشرك ؟

ويشرح الحق سبحانه لنا ذلك حين يقول

﴿وَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ<sup>(١)</sup> دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى

(١) ذكره القرطبي في تفسيره ، ٢٧٠٧/٥ ، وحيد استقبل إبراهيم عليه السلام قبله ، ثم دعا فقال : ﴿ربنا اني استأجنت من ذريتي بواذ غير ذي برح عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس نهيى إليهم ووزعهم من الثمرات لعلهم يشكروا﴾ [إبراهيم]

(٢) الملك المنجية المذكر والمؤنث ، والوحد والجمع [ القاموس القويم ٨٩/٢ ]

الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (١٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَعْتَمِرُوا فَأَسَافٍ  
يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ [المنكوب]

هم إذن قد آمنوا وهم في الفلك وأخذوا يدعون الله حين  
واجهتهم أزمة في البحر<sup>(١)</sup> فكيف م أن وصلوا إلى الشاطئ حتى  
ظهر بينهم الشرك

حين يسألهم السائل - ماذا حدث ؟

فيجيئون أنهم كانوا قد أخذوا حذرهم ، واستعدوا بقوارب  
النجاة ونسوا أن الله هو الذي أنقذهم فانطبق عليهم قوس الحق  
سيحانه

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ أَلَدًا لِّيُضِلُّرَا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى  
النَّارِ ﴾ (٢٠) [إبراهيم]

وفي حياتنا اليومية قد تذهب لتقضى حاجة لإنسان ، وبعد أن  
يسهل لك الله قضاء تلك الحاجة ، تلتفت فلا تجده ، ولا يفكر في أن  
يوجه لك كلمة لشكر

وحين تلقاه يقول لك كل ما طلبته منك وحده مقصيا ، لقد  
كَلَّمْتُ فَلَانًا فَقَضَاهَا

(١) يقول الحق سبحانه في آية أخرى ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ  
وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ رَّجَعَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ  
دَعَاؤُا إِلَهَ مُعَلَّمِينَ لَهُ الْفُلُ لَنْ أُنْجِيَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٦) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْتَرُونَ فِي  
الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ - (٢٧) ﴾ [يونس]

وهو يقول لك ذلك ليُبعد عنك ما أسبغ الله عليك من فضل  
قضائك لحاجته ، وذلك لأنه لحظة أن طلب منك مساعدته في قضاء  
تلك الحاجة فتأل وخضع ، وبعد أن تسقضي يتصرف كفرعون  
ويتناسى .

ولا ينزعه من فرغته إلا رؤياك ؛ لأنه يعلم أنك صاحب جميل  
عليه ، بل قد يري بك الشر ، رغم أنك أنت من أحسنت إليه ، لماذا ؟  
لأن هذه هي طبيعة الإنسان

يقول تعالى

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِغْفَى (٦) أَلَمْ يَرَأْ أَنَّمَنَى (٧) ﴾ [العلق]

ولذلك يُقال في المثل « اتَّقِ شَرَّ مَنْ أَحْسَنَتْ إِلَيْهِ » .

وأنت تتقى شره ، بأن تحذر أن تمنُّ عليه بالإحسان ؛ كي  
لا تنمى فيه غريزة الكره لك .

والناصح يحتسب أي مساعدة منه لغيره عند الله ، فيأخذ جزاءه  
من حالقه لحظة أداء فعل الخير ، ولا ينتظر شيئاً ممن فعل الخير له ،  
لأنك لا تعلم ماذا فُكر لحظة أن أُتيَتْ به الخدمة ، فحين يجد ترحيباً  
إناس بك في الجهة التي تُؤدَّى له الخدمة فيها ، قد يتساءل لماذا  
يحترمونك أكثر منه ؟

وهو يسأل هذا السؤال لنفسه على الرغم من أنك مُتواجد معه في  
هذا المكان لتخدمه .

ولذلك يقول العامة هذا المثل « اعمل الخير وارمه في البحر » ،



لأن الله هو الذى يجازيك وليس البشر ، فاجعل كل عملك موجهاً لله ،  
واتمم أنك فعلت معروفاً لأحد .

والمعروف المنكور هو أجدى أنواع المعروف عليك ، لأن الذى  
يُجَازَى عليه هو الله ، وهو سبحانه من سيناو لك أجره وثوابه بيده ،  
ولذلك عليك أن تنسى من أحسنت إليه ، كي يُعوّضك الله بالخير على  
ما فعلت .

ويقال فى الأثر إن موسى عليه السلام قال يا رب ، إني  
أسألك ألا يُقال فيّ ما ليس فيّ ، وأوضح به الله يا موسى لم  
أصنعها لنفسى ، فكيف أصنعها لك

ويعرض الحق سبحانه هذه المسألة فى القرآن بشكل آخر ،  
فيقول سبحانه

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ صَرٌّْ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا<sup>(١)</sup> إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ<sup>(٢)</sup> نِعْمَةً مِّنْهُ  
سِيَّ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّیُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ  
بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۝۸۱﴾ [الروم]

والإنسان لحظة أن يمسه الضر ، فهو يدعو الربوبية المتكفلة  
بمصالحه يا رب أنت الذى خلقتنى ، وأنت المتكفل بتربيته ، وأنا

(١) أتى السد إلى ربه . رجع إليه وتاب وترك الذنوب . قال تعالى ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾  
(٢) [الشورى] أى إليه أثوب وأرجع . ومنيب اسم فاعل . وجاء جمع منيب فى قوله  
﴿مُنِيبًا﴾ [الروم] أى راجعين إلى الله تائبين إليه . أى كرموا تائبين  
وكونوا متقين . القاموس القويم ٢/٢١٠ ]  
(٣) قوله ملكه بياه متفضلاً عليه غير موضح [ القاموس القويم ١/٢١٤ ]

أتوكل عليك في مصالحى ، فانتقضى مما أنا فيه

ومثل هذا الإنسان كمثل الرأس الذى ينقذه الله بأعجوبة من العاصفة ، لكنه بعد النجاة يحارل أن ينسب نجاته السفينة من العرق لنفسه

ولذلك أقول دائماً احذروا أيها المؤمنون أن تتسوا المُنعم المُسبَّب فى كل شيء ، وإياكم أن تُفتنوا بالاسباب ، فتعطلوا عن السبب ، وهو سبحانه مُعْطَى الاسباب

وأقول ذلك حتى لا تفعلوا فى ظلم أنفسكم بالشرك بالله ، فسبحانه لقائل

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهُمْ يَقْسُرُونَ<sup>(١)</sup> إِمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُنْتَدُونَ<sup>(٢)</sup>﴾  
[الأنعام]

والظلم - كما نعلم - هو أن تُعطى الحق لغير صاحبه فكيف يجروا أحد على أن يتجاهل فصل الله عليه ؟ فيقع فى الشرك الحقى ، والظلم الأكبر هو الشرك

وسبحانه القائل

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ<sup>(١)</sup>﴾  
[الأنعام]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

(١) لم ييسوا إيمانهم بظلم أى لم يحلوا إيمانهم بشرك وهو الظلم العظيم ، ولا بأى نوع من الظلم [ القاموس القويم ١٨٨/٢ ]

﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَتَيْنَهُمُ السَّاعَةَ  
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٦)

الم يحسب هؤلاء حساب انتقام الله منهم بعذاب الدنيا الذي يعم ،  
لان الغاشية هي العقاب الذي يعم ويغطي الجميع ، أم أنهم استبطئوا  
الموت ، واستبطئوا القيامة وعذابها ، رغم ان الموت مُعلق على رقاب  
الجميع ، ولا أحد يعلم ميعاد موته

فالرسول ﷺ يقول : « من مات قامت قيامته » (١) .

فما الذي يُبطئهم عن الإيمان بالله والإخلاص للتوحيدى لله ، بدون  
أن يمسُّهم شرك ، قبل أن تقوم قيامتهم بغتة ، أى بدون جرس  
نمهيدي

ونعم أن من سيقف إلى الموت لا يطول عليهم الإحساس بالزمن  
إلى أن تقوم قيامة كل الخلق ، لان الزمن لا يطول إلا على مُتتبع  
أحداثه

والناثم مثلاً لا يعرف كم ساعة قد دام ، لان وعته مفقود فلا

(١) قال مجاهد : عذاب يفشاهم . وقال قتادة : وقبحة تقع لهم . وقال الضحاك : يعنى الصواعق  
والقوارع [ تفسير القرطبي ٥ / ٢٦٨ ]

(٢) بغتة بغتاً وبغتة ما جاء على عرة وغطة قال زمخشري ﴿ فَأَخَذَهُمُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا  
يَشْعُرُونَ ﴾ [ الاعراف ]

(٣) ذكره العجلوني في كشف المصم ( حديث رقم ٢٦١٨ ) عن أس بن مالك رضى الله عنه ،  
وعنه « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غنى كفره عليكم . وإن ذكرتموه فى  
ضيق وسهه عليكم الموت القيامة . »

يعرف الزمن ، والذي يوضح لنا أن الذين سبقونا لا يشعرون بمرور الزمن هو قوله الحق .

﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ (٤٦) [النارعات]

ويأتي قول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٨)

أى قل يا محمد هذا هو منهجى ، والسبيل كما نعلم هو الطريق ، وقوله الحق

﴿ هَذِهِ سَبِيلِي .. ﴾ (١٠٨) [يوسف]

يدل على أن كلمة السبيل تأتي مرة مؤنثة كما فى هذه الآية ، وتأتى مرة مذكرة ، كما فى قوله الحق

﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعِمَى (١) يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا .. ﴾ (١١٦) [الأعراف]

وأعلن يا محمد أن هذه الدعوة التى جئت بها هى للإيمان بالله الواحد ، وسبحانه لا يعقّب بالمنهج الذى نزل عليك ليُطبّقهُ العباد ، بل

(١) البصيرة نور القلب الذى يرى به حقائق الأمور . وهو أيضاً ما يبصره القلب من الحق الواضح والبصيرة البين الواضح والحجة المقتضية والطريقة البينة التى لا تفس فيها ولا غموض [ التلخيص القويم ١ / ٧٠ ] بشعر

(٢) الغى الفساد والصلال والخيبة والغواية الانهالك فى الحق [ لسان العرب مادة غوى ]

فيه صلاح حياتهم ، وسبحانه هو الله ، فهو الأول قبل كل شيء بلا بداية ، والناقي بعد كل موجود بلا نهاية . ومع خَلْق الخلق الذين آمنوا هو الله ، ومن كفروا جميعاً هو الله ، والمسألة التكليفية بالمبهج عائدة إليكم أنتم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .

ولنقرأ قوله الحق

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ <sup>(١)</sup> وَأَذِنَتْ <sup>(٢)</sup> لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ <sup>(٣)</sup> ﴾ [الانشقاق]

فهى تنشق فور سماعها لأمر الله ، وتأتى لحظة الحساب

وقوله الحق

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ . ﴾ [يوسف]

أى أدعو بالطريق المُرص إلى الله إيماناً به وتقبلاً لمنهجه ، وطلباً لما عنده من جزاء الآخرة ، وأنا على بصيرة مما أدعو إليه

والنصر - كما نعلم - للمُحسَّات ، والبصيرة للمعنويات

والبصر الحسى لا يُوْدَى نفس عمل البصيرة ، لأن البصيرة هى يقينٌ مصحوبٌ بنور يُقْنِع النفس البشرية وإن لم تكن الأمور الظاهرة مُكجئة إلى الإقناع

ومثال هذا أم موسى حين أوحى الله لها أن تقذف ابنها فى

(١) ادبت استعنت لأمر ربها واستجابت لأوامر وحضمت ريشية [ القاموس القويم

[١٦٠]

(٢) حق الأمر يقى ثبت ووجب وحق له ثبت له وحق له بالياء للمجهول أثبت له قال تعالى ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّت ﴾ [الانشقاق] أى كان حقاً ثامناً عليها أى لحضج

لأمر الله [ القاموس القويم ١٦٤/١ ]

الْيَمِّ وَلَوْ قَاسَتْ هِيَ هَذَا الْأَمْرَ بِعَقْلِهَا لَمَا قَبِلَتْهُ ، لَكِنَّهَا بِالْبَصِيرَةِ قَبِلَتْهُ ، لِأَنَّهُ وَارِدٌ مِنْ اللَّهِ لَا مُعَانِدَ لَهُ مِنَ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ

فَالْبَصِيرَةُ إِذَنْ هِيَ يَقِينٌ وَنُورٌ مَبْنَى عَلَى بَرَهَانٍ مِنَ الْقَلْبِ ، فَيُطِيعُهُ الْعَدَدُ صَاعَةً بِتَغْرِیْضٍ ، وَيُقَالُ إِنَّ الْإِيمَانَ طَاعَةُ بَصِيرَةٍ .

وَيُمْكِنُ أَنْ نَقْرَأَ قَوْلَهُ الْحَقُّ

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ .. (١٠٨) ﴾ [يُوسُفُ]

وَهَذَا جُمْلَةٌ كَامِلَةٌ ، وَنَقْرَأُ بَعْدَهَا

﴿ أَنَا وَمَنْ أَتَّبِعِي .. (١٠٨) ﴾ [يُوسُفُ]

أَوْ نَقْرَأُهَا كَامِلَةً

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسُبحَانَ اللَّهِ بِمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾ [يُوسُفُ]

وَقَوْلُ الْحَقِّ

﴿ وَسُبحَانَ اللَّهِ .. (١٠٨) ﴾ [يُوسُفُ]

يَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ مُنْزَعٌ تَمْزِيهًا مُطْلَقًا فِي الْذَاتِ ، فَلَا بَاتَ تَشْبِيهِهِ ، فَذَاتُهُ لَيْسَتْ مَحْصُورَةٌ فِي الْقَالِبِ الْمَادِيِّ مِثْلِكَ ، وَالْمَنْفُوقَةُ فِيهِ الرُّوحُ ، وَسُبْحَانَهُ مُنْزَعٌ تَمْزِيهًا مُطْلَقًا فِي الْأَفْعَالِ ، فَلَا مَعْلَى يَشْبِيهِ فِعْلَهُ ، وَكَذَلِكَ صِفَاتُهُ لَيْسَتْ كَصِفَاتِ الْبَشَرِ ، فَحِينَ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ وَيَرَى ، مَحْذُوكٌ فِي بَطْنِ

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشُّورَى]

وكنك وجوده سبحانه ليس كوجودك ، لأن وجوده وجود واجد  
أزلي ، وأنت حدث طارئ على الكون الذي خلقه سبحانه .

ولذلك قاس بعض الناس رحلة الإسراء<sup>(١)</sup> والمعراج<sup>(٢)</sup> على قدرة رسول  
الله ﷺ ، ولم ينتهوا إلى أن رسول الله ﷺ قال : « لقد أسرى بي »<sup>(٣)</sup> .

ونزل قول الحق سبحانه

﴿سَبَّحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ  
الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ نُرِيهِ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء]

وهكذا تعلم أن الفعل لم يكن بقوة محمد ﷺ ، ولكن بقوة من  
خلق الكون كله ، القادر على كل شيء ، والذي لا يمكن لمؤمن حق أن  
يشرك به ، أمام هذا البرهان .

ويقول سبحانه من بعد ذلك

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَاً لَّا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ  
الْقَرْيَةِ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ  
عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا  
أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [١٦]

(١) أسرى يسرى سار ليلاً وأسرى به جطه يسرى ، أو حمله معه على العير ليلاً ، وهذا  
يشعر أن الله تعالى كان رفيقاً للرسول ومهيأ له في إسراة [ القاموس القويم ١/٣١٢ ]

(٢) عرج يعرج عرجاً صعد وعلا وارتفع ، والمعراج كل ما ساعدك على الصعود ،  
والجمع معارج [ القاموس القويم ١٣/٧ ]

(٣) متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه ( ٤٧١ ) ومسلم في صحيحه ( ١٧ ) من  
حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه

وينتقل الحق سبحانه هنا إلى الرسل الذين سبقوا محمداً ﷺ ،  
فالحق سبحانه يقول ،

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا  
رُّسُولًا ۖ﴾ (٩١)

[الإسراء]

أى أنهم كانوا يطلبون رسولا من غير البشر ، وتلك مسألة لم  
تحدث من قبل ، ولو كانت قد حدثت من قَبْلُ ، لقالوا « ولماذا فعلها  
الله مع غيرنا ؟ »

ولذلك أراد سبحانه أن يَرُدُّ لهم عقولهم ، فقال تعالى  
﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ  
السَّمَاءِ مَلَكًا رُّسُولًا ۖ﴾ (٩٥)

[الإسراء]

والملائكة بطبيعتها لا تستطيع أن تحيا على الأرض ، كما أنها  
لا تصلح لأن تكون قُدوة أو أُسوة سلوكية للبشر .

فالحق سبحانه يقول عن الملائكة  
﴿لَا يَخْضَعُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۖ﴾ (٩٦)

[التحريم]

والملاك لا يصلح أن يكون أُسوة للإنسان ، لأن الملك مخلوق  
عيبى غير مُحسِّن من البشر ، ولو أراد الله رسولا لجسده بشرا ،  
ولو جعله بشرا لبقيت الشبهة قائمة كما هي

أو أن الآية جاءت لِتَسُدَّ عَنِ النَّاسِ ذُرَائِعَ ١١ انفتحت بعد ذلك

(١) الدريعة الوسيلة وقد تدرج ملان بدريعة ، أى توسل والجمع البرع والدريعة

السبب إلى الشيء يقال فلان ذريعتى إليك أى سببى ووصلتى الذى تصبب به إليك

[لسان العرب - مادة ذرع ]



على الناس في حروب الردة حين ادعت سجاح أنها نبيه مرسلة .

لذلك جاء الحق سبحانه من البداية بالقول

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى .. (١٩)﴾

[يوسف]

ليوضح لنا أن المرأة لا تكون رسولاً منه سبحانه ، لأن مهمة الرسول أن يلتحم بالعالم التحام بلاغ ، والمرأة مطلوب منها أن تكون سَكَنًا .

كما أن الرسول يُفترض فيه ألا يسقط عنه تكليف تعبدى في أى وقت من الأوقات ، والمرأة يسقط عنها التكليف التعبدى أثناء الطمث<sup>(١)</sup> ، ومهمة الرسول تقتضى أن يكون مُستوفى الاداء التكليفى فى أى وقتٍ

ثم كيف يطلبون ذلك ولم تأت فى مهام الرسل من قبل ذلك إلا رجالاً ، ولم يسأل الحق لياً منهم ، ولم يستأذن من أى واحد من الرسل السابقين ليتولى مهمته ، بل تلقى التكليف من الله دون اختيار منه ، ويتلقى ما يؤمر أن يبلغه للناس ، ويكون الأمر بواسطة الوحي

والوحي كما نعلم إعلام بخفاء ، ولا ينصرف على إطلاقه إلا للبلاغ عن الله . ولم يوجد رسول مفوض لبلاغ ما يحب أو يُشرع . لكن كل رسول مكلف بأن ينقل ما يُبلغ به ، إلا محمد ﷺ ، فقد فوضه الحق سبحانه فى أن يُشرع ، ونزل فى القرآن

﴿مَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَعُدُّوهْ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. (٧)﴾ [المشر]

(١) طمث المرأة طمث حائض الطمث الدم والنكاح [ لسان العرب مادة طمث ]

ويقول الحق سبحانه عن هؤلاء الرسل السابقين أنهم

﴿ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى .. (١٠٩) ﴾ [يوسف]

والقرية كانت بأحد نفس مكانة المدينة في عالمنا المعاصر وأنت حين تزور أهل المدينة تجد عديم الخير عكس أهل البادية فالبدوى من هؤلاء قد لا يجد ما يُقدِّمه لك ، فقد يكون صرع الماشية قد جَفَّ ؛ أو لا يجد ما يذبحه لك من الأغنام

والفارق بين أهل القرية وأهل ابدية أن أهل القرية لهم تومُن ، ويعلمون قدرة التعايش مع الخير ، وترتبط مصالحهم ببعضهم البعض ، وترقُ حاشية<sup>(١)</sup> كل منهم للأحر ، وتتسع مداركهم بمعارف متعددة وليس فيهم غُلْظة أهل البادية

فالبدوى من هؤلاء لا يملك إلا الرُّحْلَ على ظهر حِمْلِه ، ويطلب مساقط لحياء ، وأماكن الكَلَا<sup>(٢)</sup> لما يرعاه من أغنام

وهكذا تكون في أهل القرى رِفْة وعِظْم وأدبُ تناول ومعامِل . ولذلك لم يأت رسول من البدو كي لا تكون معلومات قاصرة ، ويكون جافاً ، به غُلْظة قول وسلوك

وإن رسول يُفترض فيه أن يستقبل كل مَنْ يلتقى به بالرِّفق واللِّين وحسن للمعاشرة ، لذلك يكون من أهل القرى غالباً ، لأنهم ليسوا قَساة ، وليسوا على جهل بأمور التعايش الاجتماعى .

(١) الماشية الجانيب والناحية أى أنه يكون مهدياً بمن الطباع ، حسن السمعت ، لين الجانيب سليم المروية

(٢) الكلا انقشب والبقر وقيل هو العشب رطبه ويابسُه [ لسان العرب مادة كلا ]

ويتبع الحق سبحانه .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .. ﴾ (١٠٩) [يوسف]

أي أنهم إن كنوا غير مؤمنين بآخرة يعودون إليها ، ولا يعمون متى يعودون ، فيأخذوا الدنيا مقياساً ، ولينظروا في رُقعة الأرض ، وينظروا ماذا حدث للمُكذِّبين بالرسول ، إنهم سيجدون أن الهلاك والعذاب قد حاقاً<sup>(١)</sup> بكل مُكذِّب

ولو أنهم ساروا في الأرض ونظروا نظرة اعتبار ، لراوا قُرَى من سحتوا بيوتهم في انجبال<sup>(٢)</sup> وقد عصفت بها الحق سبحانه ، ولراوا أن الحق قد صبَّ سَوَّطَ العذاب على قوم عاد وآل فرعون ، فإن لم تحف من الآخرة ، فعليك بالخوف من عذاب الدنيا

وقول الحق سبحانه

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .. ﴾ (١٠٩) [يوسف]

وهذا القول هو من لفحات الكَوْنِيَّاتِ في القرآن ، فهدمنا كنا لا نعرف أن هناك غلافاً جويّاً يحيط بالأرض ولم نكنْ نعرف أن هذا الغلاف الحوى به الأكسوجين الذي نحتاجه للتنفس

ولم نكنْ نعرف أن هذا الغلاف الجوى من ضمن تمام الأرض ،

(١) حاق به الشيء يحمي مدله به وأحاط به وأحاطه الله به أتراكه وقيل حاق بهم العذاب أي أحاط بهم وبرز كانه وجب عليهم [لسان العرب - مادة حاق] (٢) هزلاء هم أصحاب الحجر قال عنهم رب البرية ﴿ وَفَعَلْنَا كَذِبَ أَصْحَابِ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ (٥٠) وَأَتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٥١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَخْرُجُ آتِيرٌ (٥٢) فَجَعَلْنَاهُمْ أَصْحَابَ الْمُدْنَةِ (٥٣) فَمَا كَانُوا بِهَا كَاثِرِينَ (٥٤) ﴾ [الحجر]

وَأَنْتَ حِينَ تَسِيرُ عَلَى الدَّبَسَةِ ، فَالْعَلَفُ الْجَوِي بِكَوْنِ فَوْقَ ، وَبِذَلِكَ  
فَأَنْتَ تَسِيرُ فِي الْأَرْضِ ؛ لِأَنَّ مَا فَوْقَكَ مِنْ غِلَافٍ جَوِيٍّ هُوَ مِنْ  
مُلْحَنَاتِ الْأَرْضِ .

وَالْمُسِيرُ فِي الْأَرْضِ هُوَ لِلْسِيَاحَةِ فِيهَا ، وَالسِّيَاحَةُ فِي الْأَرْضِ  
نَوْعَانِ سِيَاحَةٍ اِعْتِبَارًا ، وَسِيَاحَةُ اسْتِثْمَارٍ

وَيُعَبَّرُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عَنْ سِيَاحَةِ الْاِعْتِبَارِ بِقَوْلِهِ

﴿ أَرَأَيْتُمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ..  
(٩) ﴾ [الروم]

وَيُعَبَّرُ سُبْحَانَهُ عَنْ سِيَاحَةِ الْاِسْتِثْمَارِ بِقَوْلِهِ

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ  
الْآخِرَةَ .. (٢٠) ﴾ [العنكبوت]

إِذَنْ فَسِيَاحَةُ الْاِعْتِبَارِ هِيَ الَّتِي تَلَفَّتْكَ لِقُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ،  
وَسِيَاحَةُ الْاِسْتِثْمَارِ هِيَ مِنْ عِمَارَةِ الْأَرْضِ ، يَقُولُ لِحَقِّ سُبْحَانَهُ :  
﴿ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسِعَةً  
.. (٦٠) ﴾ [النساء]

وَأَنْتَ مُكَلَّفٌ مَهْذَةُ الْمَهْمَةِ ، بَلْ إِنْ ضَاقَ عَلَيْكَ مَكَانٌ فِي الْأَرْضِ  
فَاجْتَهِدْ عَنْ مَكَانٍ آخَرَ ، بِحَسَبِ قَوْلِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ :  
﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧) ﴾ [النساء]  
وَلَوْ أَنَّ تَسْتِثْمِرَ كَمَا تَرِيدُ ، شَرْطُ الْأَيْلَافِ الْاِسْتِثْمَارِ عَنْ  
الْاِعْتِبَارِ .

وَيَتَابِعُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .. (١٠٩) ﴾ [يوسف]

وَبَلِّغْ أَمْرَ الْقَوْمِ الَّذِي تَدْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ،  
بَلْ هُنَاكَ نَكَالٌ أَشَدُّ وَطْأَةً فِي أَنْتَظَرُهُمْ فِي الْآخِرَةِ

يقول الحق سبحانه

﴿وَلَذَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٩)

[يوسف]

وحديث الحق سبحانه عن مصير الذين كذبوا ، يظهر لنا كمقابل  
لما ينتظر المؤمنين ، ولم تذكر الآية مصير هؤلاء المكذبين بالتعبير  
المباشر ، وَيُسْمَوْنَ ذَلِكَ فِي اللُّغَةِ بِالْإِحْتِبَاكِ<sup>(١)</sup>

مثل ذلك قوله الحق

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ..﴾ (٤٩)

[الرعد]

وكل يوم تنقص أرض الكفر ، وتزيد رقعة الإيمان

وهكذا يأتي العقاب من جانب الله ، ونأخذ المقابل له في الدنيا ،  
ومرة يأتي بالثواب المقيم للمؤمنين ، ونأخذ المقابل في الآخرة .

ولفائل أن يقول وماذا لم يقل الحق سبحانه أنه سوف يأتي  
لهم بما هو أشدّ شراً من عذاب الدنيا في اليوم الآخر ؟

(١) النكال التنكيل والعقوبة الشديدة الزاجرة قال تعالى ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا لَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ (٥٣٨) [المائدة] أي عقوبة راجعة مرضها الله ليتعظ بها الناس [القاموس المفهرم ٢ / ٢٨٨]

(٢) من نوع من أنواع السنف ، قال السيوطي : « هو من الطب الأنواع رابدها » وقال من تشبه له أو شبه عليه من أهل فن البلاغة وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني ، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول ومثاله قوله تعالى ﴿وَمِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلِ الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة] التقدير ومثل الأتباع والكفار كمثل الذي يتق ، والذي يتق به ، فيحذف من الأول الأسماء لدلالة « الذي يتق » عليه ، ومن الثاني الذي يتق به لدلالة « الذين كفروا » عليه . [الإتقان في علوم القرآن ٢ / ١٨٢]

وأقول إن السياق العقلي لسطحي الذي ييسر من الله ، هو الذي  
يمكن أن يُذكرهم بأن عذاب الآخرة هو أشدُّ شراً من عذاب الدنيا  
ولكن الحق سبحانه لا يقول ذلك ، بل عدل عن هذا إلى المقابل  
في المؤمنين ، فقال

﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَمْلاً تَعْمَلُونَ ﴾ (١٩)

[يوسف]

فهذا جاء في الدنيا بالعذاب للكافرين ، ثم جاء في الآخرة بالثواب  
للمتقين ، أخذ من هذا المقابل أن غير المؤمنين سيكون لهم حسابٌ  
عسير ، وقد حذف من هنا ما يدل عليه هناك ، كي نعرف كيف يُحبك  
المعلم القرآني

ويقول سبحانه من بعد ذلك

﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَلُّوا أَنَّهُمْ قَدْ  
كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرٌ مِّنَّا فَتُجَىٰ مَن نَّشَاءُ وَلَا  
يُرَدُّ بِأَسْوَاعِنَ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (١١)

وكلمة

﴿ حَتَّىٰ (١١) ﴾

[يوسف]

تدل على أن هناك عساة ، وما دامت هناك غاية فلا بد أن بداية  
ما قد سبقتها ، ونقول « أكلت السمكة حتى رأسها » أي أن  
البداية كانت أكل السمكة ، والنهاية هي رأسها .  
وبداية التي تسبق

﴿ استَيْأَسَ الرُّسُلُ .. ﴾ (١١)

[يوسف]

هى قوله الحق

﴿ وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ .. ﴾ (١١٩)

[يوسف]

وما دام الحق سبحانه قد ارسلهم ، فهم قد صَمِمُوا النصر ، ولكن النصر انطا ، فاستيأس الرسل ، وكان هذا الإنطاء مقصوداً من الحق سبحانه ؛ لأنه يريد أن يُحْمَلَ المؤمنين مهمة هداية حركة الحياة فى الأرض إلى أن تقوم الساعة ، فيجب ألا يضطلع بها إلا الْمُخْتَبَرُ اختِباراً دقيقاً

ولا بُدَّ أن يمر الرسول - الأسوة لمن معه - ومن يتبعه من بعده محض كثيرة ، ومن صبر على المحر وخرج منها ناحياً ، فهو أهل لأن يحمل المهمة

وهو الحق سبحانه القائل

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ حُلُوا<sup>(١)</sup> مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْزِئِينَ الْيَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَرُلُلُوا<sup>(٢)</sup> حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ .. ﴾ (٢١٤)

[البقرة]

إذن لا بُدَّ من اختبار يُعْخَص ويحس هى حركة حياتنا نُؤَهِّل التلميذ دراسياً ، ليتقدم إلى شهادة إتمام الدراسة الابتدائية ، ثم نُؤَهِّله

(١) مثال هذا قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا نَحِلْ طَائِفَتٌ مِنَ الْمُجْرِمِينَ قَالَ إِنْ اللَّهَ مُنْجِيكُمْ مِنْ يَدِ حَرْبٍ مِنْهُ ظَنُنَى مِنَ يَوْمٍ لَمْ يَنْجِيكُمْ مِنْهُ إِلَّا مَنْ اعْتَرَفَ غُرْفَهُ بِيَدِهِ قَتَلُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ (٢١٥) [البقرة]

(٢) حلا الأسر يحلر محسى رسبق قال تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا حَلَا فِيهَا دَيرٌ ﴾ (٢١٦) [غافر] أى محسى وسبق [ القاموس القويم ٢٠٨/١ ]

لنيل شهادة إتمام الدراسة الإعدادية ؛ ثم تؤهله لنيل شهادة إتمام الدراسة الثانوية ، ثم يلتحق بالجامعة ، ويتم اختباره سنوياً إلى أن يتخرج من الجامعة .

وإن أراد استكمال دراسته لنيل الماجستير والدكتوراه ، فهو يبذل المريد من الجهد .

وكل تلك المرحلة من أجل أن يذهب لتولي مسؤولية لعمل الذي يُسند إليه وهو حديرها ، فما نأثنا بعملية بعث رسول إلى قوم ما ؟ لا بُدَّ إذن من مصححيه هو ومن يتبعونه ، وكى لا يبقى على العهد لا الموقن تمام اليقين بأن ما يفوته من خير الدنيا ، سيجد خيراً أفضل منه عند الله فى الآخرة .

ولفانك أن يقول وهل من المعقول أن يستيئس الرسل ؟

نقول فكنفسهم أولاً معنى « استيئس » ، وهناك فرق بين « يأس » و « استيئس » ، فـ « يأس » تعنى قطع الأمل من شيء . و « استيئس » تعنى أنه يلجأ على قطع الأمل

أى أن الأمل لم ينقطع بعد ومن قطع الأمل هو من ليس له منفذ إلى الرجاء ، ولا ينقطع أمل إنسان إلا إن كان مؤمناً بأسبابه المعزولة عن مسببه الأعلى

لكن إذا كان الله قد أعطى له الأسباب ، ثم انتهت الأسباب ، ولم تصل به إلى نتيجة ، فالمؤمن بالله هو من يقول إن لا تُهمنى الأسباب ، لأن معنى الحسب



ولذلك يقول الحق سبحانه

﴿وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَنَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ

﴾ (٨٧)

[يوسف]

ولذلك مجد أن أعلى نسبة انتحار إنما تُوجد بين الملاحدة الكافرين ، لأنهم لا يملكون رصيذاً إيمانياً ، يحطهم يؤمنون أن لهم رباً فوق كل الأسباب ، وقادر على أن يخرق السواميس

أما المؤمن فهو يأوى إلى ركن شديد ، هو قدرة الحق سبحانه ، مسبب كل الأسباب ، والقادر على أن يخرق الأسباب

ولماذا يستقيس الرس ؟

لأن حرصهم على تعجيل النصر دفع البعض منهم أن يسأل مثلاً  
سأل المؤمنون

﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ..﴾ (٩١)

[البقرة]

فضلاً عن طئهم أنهم كذّبو ، والحق سبحانه يقول هنا .

﴿وظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا ..﴾ (٩٦)

[يوسف]

ومادة « الكاف » ، و « الذال » و « الباء » منها « كَذَبَ » ، و « كُذِّبَ » عليه ، و « كُذِّبَ » . والكذب هو القول المخالف للواقع والعاقب هو من يُورد كلامه على بغيره قبل أن يحق له

أما فاقد الرشيد الذي لا يمتلك القدرة على التدبّر ، فينطق الكلام

على عواهنه<sup>(١)</sup> ، ولا يصرر لكلام على ذهنه ، ولذلك يقال عنه « محرف » .

وقد سبق لنا أن شرحنا الصدق ، وقلنا إنه تطابق النسبة الكلامية مع الواقع

ومن يقول كلاماً يعلم أنه لا يطابق الواقع ، يقال عنه إنه مُتَعَمِّدُ الكذب ، ومن يقول كلاماً بغالبية الغرض أنه لا يطابق الواقع ، ونقله عن غيره ، فهو يكذب دون أن يحسب كذبه افتراءً ، والإنسان الذي يتوخى الدقة ينقل الكلام منسوباً إلى من قاله له ، فيقول « أخبرني فلان » فلا يُعَدُّ كاذباً .

ولذلك أقول دائماً يجب أن يُفَرَّقَ العلماء بين كذب المُفْتَنِّين ، وكذب الخبير ، وكذب المُخَيَّرِ ، فالخبير الكاذب مسئول عنه من نَعَمَدُ الكذب ، أما الناقل للخبير ما دام قد نسبته إلى من قاله ، فمروغه مختلف

وفي الآية التي نحن بصدد حواطرها عنها نجد بها قراءتين ، قراءة هي « وظنوا أنهم قد كُذِّبوا » أي حدثهم غيرهم كذباً ، وقراءة ثانية<sup>(٢)</sup> هي « وظنوا أنهم قد كُذِّبُوا » وهي بمعنى أنهم قد

(١) ألفي الكلام على عواهنه لم يتدبره وفيل هو إذا لم يُبَلِّغْ أحباباً أم لعملاً وعين انتهى إذا حصر أي أرسل الكلام على ما حضر منه وعجل من خطأ وحوار [ لسان العرب مادة عه ]

(٢) هناك قراءة ثالثة ذكرها القرطبي في تفسيره ( ٢٦١١/٥ ) قال « قرأ مجاهد وحيد » قد كذبوا « بفتح الكاف والذال مخففاً ، على معنى ونس قوم الرسل أن الرسل قد كذبوا ، لما رأوا من تفعل الله عز وجل في تأخير العذاب »

ظَنُّوا أَن مَا نَمِلُ لَهُمْ مِنْ كَلَامٍ عَنْ الْفَصْرِ هُوَ كَذِبٌ

وَلَقَانِلْ أَن يَسْأَلَ كَيْفَ يَظُنُّ الرِّسْلُ<sup>(١)</sup> ذَلِكَ ؟

وأقول إن الرسول حين يطلب من فومه الإيمان ، يعلم أن ما يُؤكِّد صدق رسالته هو مجيء النصر وثمر عليه بعض من الخواطر حوماً أن يقول المقاتلون اذين معه ، لقد كتب علينا ، لأن الضن إخبار بأراجع .

ولا يحطر على بار الرسل أن الله سبحانه وتعالى - معاذ الله - قد كَذَّبهم وعده ، ولكنهم ظَنُّوا أن النصر سيأتيهم بسرعة ؛ وأخذوا بطء مجيء النصر ليلاً على أن النصر لن يأتي .

أو أنهم حافوا أن يُكذِّبهم الغير

ولذلك نجد الحق سبحانه يُعلم رسله أن النصر سيأتي في الموعد الذي يعده سبحانه ولا يعرفه أحد ، فسبحانه لا يعجل بعجلة اعباد حتى تبلغ الأمور ما أراد .

ويقول سبحانه

﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ۖ ۞ (١١٠) ﴾ [يوسف]

(١) سأل عروة بن هشام عائشة رضي الله عنها عن قول الله عز وجل ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ۖ ۞ (١١٠) ﴾ [يوسف] فقال أئمنوا أم كذبوا ؟ قالت عائشة كذبوا قلت فقد استيقروا أن قومهم كذبوهم ، فما هو بالظن ؟ قالت أجل لعمرى لقد استيقروا بذلك فقلت بها ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا ۖ ۞ (١١٠) ﴾ [يوسف] قالت معاذ الله ، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها قلت فما هذه الآية ؟ قالت هم اتعاج الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم ، لم طال عليهم البلاء ، واستأجر عنهم النصر حتى إذا استيقروا الرسل ممن كذبهم عن قومهم وظننت الرسل أن أتباعهم كذبوهم جاءهم نصرنا عند ذلك . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦٩٥) وأورده القرطبي في تفسيره ( ٣١١١ ، ٥ )

وهكذا يأتي النصر بعد الزلولة الشديدة ، فيكون وقعه كوقوع الماء على ذى الغلّة<sup>(١)</sup> الصّدى ، ولنا أن نحصيل شوق العطشان لكوب الماء .  
وايضاً فإن إبطاء النصر يعطى غروراً للكافرين يجعلهم يتمادون فى الغرور ، وحين يأتي النصر تتضاعف فرحة المؤمنين بالرسول ، وايضاً يتضاعف غم الكافرين به  
ومجيء النصر للمؤمنين يقتضى وقوع هزيمة للكافرين ، لأن تلك هى مشيئة الله لدى يقع بأسه وعدابه على الكافرين به  
ويقول سبحانه من بعد ذلك

لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ  
مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَئِنْ كُنْتَ تُصِدِّقُ الَّذِي  
بَيَّنَّ كَذِبُهُ وَتَقْصِيصَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدَى وَرَحْمَةً  
لِقَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾

ولنحظ أن هذه الآية جاءت فى سورة يوسف ، أى . إن أردت قصة يوسف وإخوته ، نفى السيرة كل القصة بمراسيها وأهدافها وعظمتها . أو المهم فى كل قصص الأنبياء .

يقول الحق سبحانه

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَرَبِّهِمْ أَتَمْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ﴾ [١٦] [عبد]

ونعلم أن معنى القصص ماخوذ من قصّ الأثر ، وتتبعه بلا زيادة أو نقصان

(١) الغلّة شدة العطش وحرارته وبغير غلّ وغلار عطشان شديد العطش [ لسان العرب - مادة غل ] والصدى شدة العطش

ويقول الحق سبحانه هنا

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ .. (١١١)﴾ [يوسف]

وفي أول السورة قال الحق

﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٢)﴾ [يوسف]

ونعرف أن مادة « لعين » و « الباء » و « الراء » تفيد التعدية من جلى إلى حقى .

والعبرة في هذه القصة - قصة يوسف - وكذلك قصص القرآن كلها ، نأخذ منها عبرة من الجلى فيها إلى الخفى الذى يواجهه ، فلا نفعل الأمور السيئة ، ونقدم على الأمور الطيبة

وحين نُقبل على العمل الطيب الذى جاء فى أى قصة قرآنية ، وحين نبتعد عن العمل السيء الذى جاء خبره فى القصة القرآنية ، بذلك نكون قد أحسنّا الفهم عن تلك القصص

وعلى سبيل المثال : نحن نجد الظالم فى انقصاص القرآنى ، وفى قصة يوسف تحليداً ، وهو يتكسر ، فيأخذ الواحد ممّا العبرة ، ويبين حياته على الأ يظلم أحداً ، وحين يرى الإنسان منا المظلوم وهو ينتصر ، فهو لا يحزن إن تعرض لظلم ، لأنه أحد العبرة لما ينتصره من نصر بإذن الله .

ونحن نقول « عبر النهر » أى - انتقل من شاطئ إلى شاطئ . وكذلك قولنا « تعبر الرؤيا » أى تؤولها ، لأن الرؤيا بأى رمزية ؛ ونعبرها أى ، تشرحها وتنقلها من خفى إلى جلى ، وإيضاح المطلوب منها

وَصَفَّ الدُّمْعَةَ مَانَهَا « عِبْرَةٌ » ، وَالْحَزْنَ الْمَدْفُونِ فِي النَّفْسِ  
الْحَشَرِيَّةِ تَدُلُّ عَلَيْهِ الدُّمْعَةُ

وَهَذَا قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٧١١) [يوسف]

وَالْعِبْرَةُ قَدْ تَمَرُّ ، وَلَكِنْ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا إِلَّا الْعَاقِلُ الَّذِي يُمَحِّصُ  
الْأَشْيَاءَ ، أَمَّا الَّذِي يَمُرُّ عَلَيْهَا مُرُورَ الْكَرَامِ ، فَهُوَ لَا يَسْتَفِيدُ مِنْهَا

و « أُولُو الْأَلْبَابِ » هُمُ أَصْحَابُ الْعُقُولِ الرَّاجِعَةِ ، وَ « الْأَسْبَابُ »  
جَمْعُ « لَبِّ » وَاللَّبُّ هُوَ جَوْهَرُ الشَّيْءِ الْمَطْلُوبِ ، وَالْقَشْرُ مَوْحُودُ  
لِصَيَابَةِ اللَّبِّ ، وَسُمِّيَ الْعَقْلُ « لُبًّا » لِأَنَّهُ يَنْتَشِرُ الْقَشُورَ بَعِيدًا ، وَيَعْطِيَتْ  
جَوْهَرَ الْأَشْيَاءِ وَخَيْرَهَا

وَيَتَابِعُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ . . ﴾ (١١١) [يوسف]

أَيُّ أَرَأَيْتَ مَا جَاءَ عَلَى لِسَانِكَ يَا مُحَمَّدُ وَأَتَوَلَّهِ الْحَقُّ وَحْيًا عَلَيْكَ  
بِإِسْحَاقِ حَدِيثِ كَذِبٍ مُتَعَمِّدٍ ، بَلْ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَطْبِيقُ الْكُتُبَ الَّتِي سَبَقَتْهُ  
وَيُقَالُ « بَيْنَ يَدَيْكَ » أَيُّ سَبَقَكَ ، فَبِذَا كُنْتَ تَسِيرُ فِي طَابُورٍ ،  
فَمَنْ أَمَامَكَ يُقَالُ لَهُ « بَيْنَ يَدَيْكَ » ، وَمَنْ وَرَاءَكَ يُقَالُ لَهُ « مِنْ  
خَلْفِكَ »

وَالْقُرْآنُ قَدْ جَاءَ لِيَصْدُقَ الْكُتُبَ الَّتِي سَبَقَتْهُ ، وَلَيْسَتْ هِيَ الَّتِي  
تُصَدِّقُ عَلَيْهِ ، لِأَنَّهُ الْكِتَابُ الْمَهِيمُ ، وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ هُوَ الْفَائِزُ

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ..﴾ (٤٨)

[المائدة]

ويضيف الحق سبحانه في نفس الآية لتي نحن بصدد خواطرها عنها .

﴿وتفصيل كل شيء ..﴾ (٦٦)

[يوسف]

فالقرآن يُصَدِّق الكتب السابقة ، ويُفَصِّل كل شيء ، أي يعطي كل جزئية من الأمر حُكْمَهَا في جزئية مناسبة لها فهو ليس كلاماً مُجْمَلاً ، بل يجري تفصيل كل حُكْم بما يناسب أي أمر من أمور البشر .

وفي أعراف ليومية نقول « فلان قام بشراء بدلة تفصيل » أي أن مقاساتها مناسبة له تماماً ، ومُحْكَمَةٌ عليه حين يرتديها

وفي الأمور العقدية نجد - والعياذ بالله - مَنْ يقول إنه لا يوجد إله على الإطلاق ، ويقابله مَنْ يقول إن الآلهة مُتعددة ، لأن كل الكائنات الموجودة هي الكون من الصعب أن يخلقها إله واحد ، فهناك إله لسماء ، وإله للأرض ، وإله للنبات ، وإله للحيوان

ونقول لهم كيف يوجد إله يقدر على شيء ، ويعجز عن شيء آخر ؟

وإن قال هؤلاء « إن تلك الآلهة تتكاتف مع بعضها »

نردُّ عليهم ليست تلك هي الألوهية أبداً ، ولذلك نحد الحق سبحانه وتعالى يقول

﴿حُزِبَ اللَّهُ مَثَلًا رُجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ<sup>(١)</sup> وَرَجُلًا سَلَمًا<sup>(٢)</sup> لَرَجُلٍ  
هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ<sup>(٣)</sup>﴾ [الزمر]

وحين يكون الشركاء مختلفين فحال هذا العبد المملوك لهم  
يعيش في ضيق وعذاب ، أما الرجل المملوك لرجل واحد محاله  
يختلف ، لأنه ياتبع بأمر واحد ، لذلك يحيا مرتاحاً

ويجد الحق سبحانه يقول عن الآلهة المتعددة :

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَتَى بِشَيْءٍ لَمْ يَكُنْ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ شَيْءٍ يَخِيفُ الْيَوْمَ إِذْ يُنْفَخُ الصُّورُ<sup>(٤)</sup>﴾ [المؤمنون]

أما من يقول بأنه لا يوجد إله في الكون ، فنقول له : وهو يُحق  
أن كل هذا الكون الدقيق والمُحكم بلا صانع

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يُفصل هذا الأمر ليؤكد أنه لا يوجد  
سوى إله واحد في الكون ، ونجد القرآن يُفصل لنا الأحكام ، ونُزِّل  
لكل مسألة حكماً مناسباً لها ؛ فلا ينتقل حكم من مجال إلى آخر .

وكذلك تفصيل الآيات ، فهناك المُحكم والمُعْتَشِبُ والمُكَلِّ هو قول

الحق سبحانه

﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ<sup>(٥)</sup>﴾ [آل عمران]

ويقول في موقع آخر

(١) تشاكس القوم تنازعوا واشتد اختلافهم قدس تعالى ﴿حُزِبَ اللَّهُ مَثَلًا رُجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ [الزمر] ذلك مثل العبد المشرِك له آلهة متعددة يتقارعون فيه

[ القاموس القويم ٣٥٤/١ ]

(٢) سَلَمًا أي ملكاً حالماً له لا يلزمه فيه أحد [ القاموس القويم ٣٢٤/١ ]



﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ﴾ [آل عمران]

جاء مرة بقول « إلى » ، ومرة بقول « في » ، لأن كلا منها مناسبة ومُفَصَّلَةٌ حسب موقعها

والمُسَارعة إلى المغفرة تعني أن مَنْ يسارع إليها موجود خارجها ، وهي انغاية التي سيحصل إليها ، أما مَنْ يسارع في الخيرات ، فهو يحيا في الحير الآن ، ونطلب منه أن يزيد في الخير ، وأيضا نجد قوله الحق .

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان]

ونجد قوله الحق

﴿وَلَمَّا صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى]

وواحدة منهما وردت في المصائب التي لها عَريم ، والأخرى قد وردت في المصائب التي لا عريم فيها ، مثل المرض حيث لا عَريم ، ولا خُصومة

أما إذا صبر على أحد ، أو اعتدى على أحد أنساني ، فهو عَريمي وترجد خُصومة ، فوجوده أمامي يهيج الشر في نفسي ، واحتاج لضبط النفس بعزيمة قوية وهذا هو تفصيل الكتاب

واحق سبحانه يقول

﴿كَتَابٌ فَصَّلَ آيَاتُهُ ۖ﴾ [فصت]

أي أن كل حُرثية فيه مناسبة للأمر الذي برلت في مناسسته .

ومثال هذا هو قوله سبحانه

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَشِيَّةَ إِمْلَاقٍ<sup>(١)</sup> نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. (٢١)﴾

[الإسراء]

وقوله الحق

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١)﴾

[الأنعام]

وكل آية تناسب موقعها ، ومعناها مُتَّسِقٌ في داخلها ، وتمّ تفصيلها بما يناسب ما جاءت له . فقوله

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ .. (١٥١)﴾ [الأنعام]

يعنى أن الفقر موجود ، والإنسان مُتَشَفِّلٌ برزقه عن رزق ابنه  
أما قوله :

﴿حَشِيَّةَ إِمْلَاقٍ .. (٣١)﴾ [الإسراء]

أى أن الفقر غير موجود ، وهناك حَوْفٌ أن يأتى إلى الإنسان ،  
وهو خوف من أمر لم يَطُرْ بعد .

وهكذا نجد في القرآن تفصيل كل شيء نحتاجونه في أمر دنياكم  
وآخرتكم وهو تفصيل لكل شيء ليس عندك ، وقد قال الهمداني  
ملكة سبأ بلقيس

﴿وَأُرْتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .. (٢٤)﴾ [السل]

(١) إملق : افتقر بعد عى . والإملاق : الفقر [ القاموس القويم ٢٢٤ / ٢ ]



إذن فهناك ملاحظتان يشيران إلى القسمين

**الملاحظة الأولى :** أن المنهج القرآني قد نزل وقاية لمن لم يقع في المعصية .

**والملاحظة الثانية :** أن المنهج يتضمن العلاج لمن وقع في المعصية

ويُحذّر الحق سبحانه من يستعيدون من المنهج القرآني وقاية وعلاجاً ، فيقول

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف]

أي هؤلاء الذين يؤمنون بإله واحد خلقهم وحلى الكون ، ووضع للبشر قوانين صيانة حياتهم ، ومن المنطقي أن يسمع المؤمن كلامه ويُفقهه لأنه وضع المنهج الذي يمكنك أن تعود إليه في كل ما يصور حياتك ، فإن كنت مؤمناً بالله : فخذ الهدى ، وخذ الرحمة

ونسأل الله أن نُعطى هذا كله

سُورَةُ الشَّعَرِ



سورة الرعد<sup>(١)</sup>

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَرْثِيَّةَ﴾ آيَةُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ  
مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

وقد سبق لنا أن تكلمنا طويلاً في خواطرننا عن لحروف التي تبدأ  
بها بعض من سور القرآن الكريم ، مثل قوله الحق

﴿الْم (١)﴾ [البقرة]

وقوله

﴿الْمر .. (٢)﴾ [الرعد]

ومثل قوله

﴿لَمَم (٣)﴾ [الأعراف]

(١) سورة الرعد هي السورة الثالثة عشرة في ترتيب المصحف قال القرطبي في تفسيره ( ٥  
٢٦١٢ ) ، مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر وحيدة في قول الكلبي  
ومقاتل وقال ابن عباس وقتادة مكية إلا ابنين معها مرفعة ، وعما قوله عز وجل  
﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ السُّورُ﴾ (٣) وقد استُهرى برسو من  
فهلك فاعلمت . (٢٢) [الرعد] وانظر الإتيان في علوم القرآن للسيوطي ( ١ / ٣١ ) عدد  
آياتها ٤٣ آية . وسميت بسورة الرعد لورود ذكره في السورة في قوله تعالى ﴿وَيُسَبِّحُ  
الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ (١٩) [الرعد]

وغير ذلك من الحروف التوقيفية التي جاءت في أول بعض من فواتح السور

ولكن الذي أحب أن أؤكد عليه هنا هو أن آيات القرآن كلها مبنية على الوصل ، لا على الوقف ، ولذلك نجد ما مشكولة ، لأنها موصولة بما بعدها

وكان من المفروض - لو طبقنا هذه القاعدة - أن نقرا « امر » فنطبقها « ألف » ، « لام » ، « مي » ، « راء » ، ولكن شاء الحق سبحانه هنا أن تأتي هذه الحروف في أول سورة الرعد مبنية على الوقف ، فنقول « ألف » ، « لام » ، « مي » ، « راء » .

وهكذا قراها جبريل عليه السلام على محمد بن عبدالله ﷺ ، وهكذا نقرأها نحن

ويتابع سبحانه

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ .. (١) ﴾

[الرمز]

أي أن السورة القادمة إليك هي من آيات الكتاب الكريم - القرآن - وهي إضافة إلى ما سبق وأنزل إليك . فالكتاب كله يشمل من أول ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) ﴾

[الفتحة]

في أول القرآن ، إلى نهاية سورة الناس .

ونعلم أن الإضافة تأتي على ثلاث معانٍ ، فمرة تأتي الإضافة بمعنى « من » ، مثل قولنا « أريد قمح » والمقصود « أريد من القمح

ومرة تأتي الإضافة بمعنى « في » مثل قولنا « مذاكرة المدرس » والمقصود « مذاكرة في المدرس » .



ومرة ثالثة تأنى الإضافة بمعنى « اللام » وهي تتخذ شكلين .

إما أن تكون تعبيراً عن ملكية ، كقولنا « مالُ زيدٍ لزيد » .

والشكل الثاني أن تكون اللام للاختصاص كقولنا « لجامُ الفرس »

أي أن اللجام بحص الفرس ؛ فليس معقولاً أن يملك الفرس لجاماً

إذن . فقول الحق سبحانه هذا

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ .. (١) ﴾ [الرعد]

يعنى تلك آيات من القرآن لأن كلمة « الكتاب » إذا أُطلقت ، فهي تنصرف إلى القرآن الكريم

والمثل هو القور « فلانُ الرجل » أي أنه رجل حقاً ، وكان سلوكه هو معيار الرجولة . وكان خصال الرجولة في غيره ليست مكتملة كاكتمالها فيه ، أو كفولك « فلان الشاعر » أي أنه شاعر متميز للغاية .

وهكذا نعلم أن كلمة « الكتاب » إذا أُطلقت ينصرف في العقائد إلى القرآن الكريم ، وكلمة الكتاب إذا أُطلقت في النهر انصرفت إلى كتاب سيوريه الذي يضم قواعد النحو

ويتبع سبحانه في وصف القرآن الكريم

﴿ وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(١) [الرعد]

ونعلم أن مراد الذي يخالف الحق هو أن يكسب شيئاً من وراء

تلك المخالفة

وقد قال سبحانه في واخر سورة يوسف

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣)﴾ [يوسف]

ثم وصف القرآن الكريم ، فقال تعالى

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى<sup>(١)</sup> وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)﴾ [يوسف]

وهكذا نرى أن الحق سبحانه لا يريد الكسب منكم ، لكنه شاء أن ينزل هذا الكتاب لتكسبوا انتم

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ( )﴾ [الزمر]

أي أن أكثر من دعوتهم إلى الإيمان بهذا الكتاب لحق لا يؤمنون بأنه نزل إليك من ربك ، لأنهم لم يحسنوا تأمل ما جاء فيه ، واستسلموا للهوى وأرادوا السلطة الرمتية ، ولم يلتفتوا إلى أن ما جاء بهذا الكتاب هو الذي يعطيهم حير الدنيا والآخرة

ويقول سبحانه بعد ذلك

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأُمُورَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿١﴾﴾

(١) افتري القول اختلقه وسخره واشترى عليه الكتاب اختلعه قال تعالى ﴿أَمْ يَتَوَكَّلُونَ الْفِرَافِرَ﴾ (٣٧) [يونس] أي اختلعه القرآن واختلقه من عند نفسه [القاموس القويم ٣ /

وكلمة « الله » عَلَّمَ على واجب الوجود ، مضمورة فيه كُلُّ صفات الكمال ولحظة أن تقول « الله » كأنك قُلْتَ ، القادر ، « الضار » « النافع » « السميع » « البصير » « المُعْطَى » إلى آخر أسماء الله احسنى

ولذلك قال ﷺ « كُلُّ عمل لا يبدأ باسم الله هو أبتر<sup>(١)</sup> »<sup>(٢)</sup>

لأن كل عمل لا يبدأ باسمه سبحانه ، لا تستحضر فيه أنه سبحانه قد سَخَّرَ لك كُلَّ الأشياء ، وبم تُسَخَّرُ أنت الأشياء بقدرتك ولذلك ، فالمؤمن هو مَنْ ندحر على أى عمل محيية « بسم الله الرحمن الرحيم » ، لأنه سبحانه هو الذى ذُلَّ للإنسان كل شيء . ولو لم يُدَلِّها لَمَّا استجابت لك أيها الإنسان

وقد أوصح الحق سبحانه ذاك فى أمثلة بسيطة ، فنجد الطفل الصغير يُمسك بحبل ويربطه فى عنق الجمل . ويأمره بأن « ينخ » ويركع على أربع ، فيمثل الحمل لذلك .

وبعد البرغوث الصغير ، يجعل الإنسان ساهراً الليل كُلَّهُ عندما يتسلل إلى ملابسه . ويبدى هذا الإنسان الجهدَ الجَهِيدَ لِيُفْسِكَ به . وقد يستطيع ذلك ، وقد لا يستطيع

وهكذا نعرف أن أحداً لم يُسَخَّرْ أىَّ شيءٍ بإرادته أو مشيئته ،

(١) البتر : استئصال الشيء قطعاً وكل أمر انقطع من الحيز أدناه ، فهو أبتر . والبتر أصله القطع الحسى والقطع المعنوى من الحيز [ لسان العرب مادة بتر ، القاموس القويم ٥٤/١ ]

(٢) أخرج أحمد فى مسنده ( ٢٥٩/٢ ) عن أبى هريرة رضى الله عنه « كل كلام أو أمر دى مل لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر ، لو قال لقطع »

ولكن الحق سبحانه هو الذي يدلُّ كلَّ الكائنات لخدمة الإنسان

والحق سبحانه هو القائل

﴿وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ (٧٢) [يس]

وأنت حين تُقبل على أي عمل يحتاج إلى قدرة فتقول « باسم القادر الذي أعطى معص القدرة » .

وإن أقبلت على عمل يحتاج مالا تقول « باسم الغنى الذي وهبني بعضاً من مال أفضى به حاجاتي » .

وهي كل عمل من الأعمال التي تُقبل عليها تحتاج إلى قدرة ، وحكمة ، وعي ، وبسط ، وغير ذلك من صفات الحق التي يُسخّر بها سبحانه لك كل شيء ، فشاءت رحمته سبحانه أن سهل لنا أن نفتتح أي عمل باسمه الجامع لكل صفات الجمال والكمال ، باسم الله الرحمن الرحيم .

ولذلك يُسمونه « علّم على واجب الوجود » ،

وبقية الأسماء الحسنى صفات لا توجد بكمالها المطلق إلا فيه ، فصارت كالاسم .

فالعزيز على إطلاقه هو الله ، ولكننا نقول عن إنسان ما « عزيز قومه » ، ونقول « الغنى » على إطلاقه هو الله ، ولكن نقول « فلان غنى » و « فلان فقير » .

وهكذا يرى أنها صفات أحدث مرتبة الأسماء ، وهي إذا أطلقت إنما تشير إليه سبحانه

وعرفنا من قَبْلِ أن أسماء الله ، ما أن تكون أسماء ذات ، ولما أن تكون أسماء صفات ، فإن كان الاسم لا مقابل له فهو اسم ذات ، مثل « العرير »

أما إن كان الاسم صفة الصفة والفعل ، مثل « المُعز » ، فلا بُدَّ أن به مقابلاً ، وهو هنا « المُنزَل »

ولو كان يقدر أن يُعزَّ فقط ، ولا يقدر أن يُبدل لما صار إلهاً ، ولو كان يضر فقط ، ولا ينفع أحداً لما استطاع أن يكون إلهاً ، ولو كان يقدر أن يبسط ، ولا يقدر أن يقبض<sup>(١)</sup> لما استطاع أن يكون إلهاً

وكل هذه صفات لها مُقابِلها ويظهر معلها في الغير ، فسبحانه - على سبعين المثال - عريرٌ في ذاته ومُعزٌ لغيره ، ومُنزَلٌ لغيره

وكلمة « الله » هي الاسم الجامع لكل صفات الكمال ، وهناك أسماء أخرى علّمها الله لبعض من خلقه ، وهناك أسماء ثالثة سنعلمها إن شاء الله حين نلقاه .

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ <sup>(٢)</sup> (٢٦) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ <sup>(٣)</sup> (٢٧) ﴾ [القبالة]

ونلاحظ أن الحق سبحانه بدأ هذه الآية بالحديث عن العالم العلوي أولاً ، ولم يتحدث عن الأرض ، فقال

(١) قال الحليمي في معنى الباسط أنه الغافر فضله على عباده يوزق من يشاء ويوسع ويجود ويُسَلِّم ويُمَكِّر ويُدْخِل ويعطي أكثر مما يحتاج إليه وقال في معنى القابض يطوى بره ومضروقه عن يريده ويضيق ويَقْنَرُ ويحرم فينظر نكرو القرطبي في كتابه « الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » ( ١ / ٣٦٠ )

(٢) نصر الوجه حسن وكان له رونق ومهجة ويقول تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَنشَأُوا نَفَرًا <sup>(٤)</sup> (٢٨) وَجُوهٌ نَّاصِرَةٌ <sup>(٥)</sup> (٢٩) ﴾ [القاسم]

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ ..﴾ (٢) [الرعد]

وكلمة « رفع » إذا استعملتها استعمالاً بشرياً ، تدلُّ أن شيئاً كان في وَضْع ثم رفعتَه عن موضعه إلى أعلى ، مثل قول الحق سبحانه

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ..﴾ (١) [يوسف]

فقد كن أبوا يوسف في موضع اقلّ ، ثم رفعهما يوسف إلى موضع أعلى مما كانا فيه ، فهل كانت السماء مرفوعة في موضع اقلّ ، ثم رفعها الله ؟ لا بل خلقها الله مرفوعة .

ورحم الله شيخنا عبد الجليل عيسى الذي هال « له قلت سبحانه الله اندي كثر الهيل » فهل كان العير صغيراً ثم كبره الله ، أم خلقه كبيراً ؟ لقد خيفه الله كبيراً وإن قلت سبحانه الله الذي صغر العوضة فهل كانت كبيرة ثم صغرها الله ؟ لا بل خلقها الله صغيرة »

وحين يقول سبحانه

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ..﴾ (٢) [الرعد]

فهذا يعني أنه خلقها مرفوعة ، وفي العرف البشري نعرف أن مُقْتَضَى رَفَعِ أي شيء أن تُوجَدَ من تحته أعمدة ترفعه

ولكن خلق الله يختلف ، فنحن نرى السماء مرفوعة على امتداد الأفق<sup>(١)</sup> ويظهر لنا أن السماء تمطبو على الأرض ، ولكنها لا تنطبق بالمعل

(١) الأفق الناحية - وحط النقاء السماء بالأرض في رأى العين - وجمعه الأفق قال تعالى ﴿سُبْحَانَ أَنَا فِي الْأَفَلَاكِ وَفِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فصلت] وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ (٢٦) [التكوير] أي ما بين السماء والأرض [القاموس القويم ٢٢/١]

ولم يجد إنساناً يسير في أى اتجاه ويصطدم بأعمدة أو بعمود واحد يُظنُّ أنه من أعمدة رَفَع السماء ، وهى مرئية هكذا ، فهل هناك أعمدة غير مرئية ؛ أم لا توجد أعمدة أصلاً ؟

وهذا يكون وراء هذا الرَفَع أمر آخر ، فقد قلنا إن الشيء إذا رَفَع ، فذلك بسبب وجود ما يُمسكه أو ما يَحْمِلُهُ ، وسبحانه يقول فى أمر رفع السماء

﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ بِالْأَنفِ لَوْ أَنَّ رُحُومَ (٦٥) ﴾ [الحج]

فإذا كانت مَمْسُوكَةٌ من أعلى ، فهى لا تحتاج إلى عَمَد ، وقوله الحق ( يمسك ) يعنى أنه سيجده قد وضع لها قوانينها الخاصة التى لم نعرفها بَعْدُ

وقد قام العلماء المعاصرون بمسح الأرض والفضاء بواسطة الأقمار الصناعية وغيرها ، ولم يجدوا عَمَدًا ترفع السماوات أو تَمْسُكُهَا .

والمهندسون يتبررون فى عصرنا سيرفعوا الأسقف بغير عمد ، لكنهم حتى الآن ؛ ما زالوا يعتمدون على الحوائط الحاملة

وهكذا نعلم أنه سبحانه إِمَّا أنه حمل السماء على أعمدة أدنى والطفَ من أن تراها أعيننا ، ولذلك تراها بغير أعمدة ، أو أنها مرفوعة بلا أعمدة على الإطلاق

و « عَمَد » اسم جمع - لا جمع - ومفردها «عمود» أو «عمادة» .  
وقد جاءت هذه الآية بمثانة التفسير لما أجمل في قول الحق سبحانه  
في سورة يوسف .

﴿وَكَايَ مِمَّ آيَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا  
مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٥)

[يوسف]

وجاء سبحانه هنا بالتفصيل ، فأوضح لنا أنه

﴿رفع السَّمٰوٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ..﴾ (٦)

[البرق]

أي لا ترونها أنتم بحكم قانون إبصاركم ولا تعجب من أن  
يوجد مخلوق لا تراه ، لأن العين وسيلة من وسائل الإدراك ، ولها  
قانون خاص نهى ترى أشياء ولا ترى أشياء أخرى

هذا بيلس أنك إذا نظرت إلى إنسان طوله متران يتحرك مبتعداً  
عك ، تحده نصغر تدريجياً إلى أن يتلاشى من مجال رؤيتك ، لكنه  
لا يتلاشى بالفعل

وهذا معناه أن قانون إبصارك محكوم بقانون ، له مدى مُحدد .

وهناك قوانين أخرى مثل قانون السمع ، وقانون الجاذبية ،  
وقانون الكهرباء ، وكلها ظواهر تستفيد بآثارها ، ولكننا لا ندركها ، فلا  
تعجب من أن يوجد شيء لا تدركه ، لأن قُوَى إدراكك لها قوانين  
خاصة

ويشاء الحق سبحانه أن يُبدل على صدور ذلك بأن يجعل  
ما يكتشفه العلماء في الكون من أشياء وقُوَى لم تكن معروفة من  
قبل ، ولكننا كما نستفيد منها دون أن ندري ؛ مما يدل على أن إدراك



الإنسان غير قادر على إدراك كل شيء .

وذلك يوضح لنا أن رؤيتنا للسماء مرفوعة بغير عمد نراها ، قد  
يعنى وجود أعمدة مصنوعة بطريقة غير معروفة لنا ، أو هي مرفوعة  
بغير عمد على الإطلاق

وقول الحق سبحانه

﴿بغير عمد ترونها﴾ (٢) [الرعد]

هو كلام خبري . والمثل من حياتنا حين تقول لابنك « أنت  
خارج إلى العمل » وذاكر أنت دروسك ، وبذلك تكون قد أوضحت  
له « ذاكر دروسك » وهذا كلام خبري ، لكن المراد به إنشائي

وإبراز الكلام الإنشائي في مقام الكلام الخبري له ملحظ مثلاً  
تقول « فلان مات رحمه الله » وقولك « رحمه الله » كلام خبري ،  
فأنت نحبر أن الله قد رحمه

على الرغم من أنك لا ترى هل رحمه الله أم لا ولكنك قلت  
ذلك تفاؤلاً أن تكون الرحمة واقعة به ، وكان من الممكن أن تقول  
« مات فلان يا ربّي ارحمه » ، وأنت بذلك تطلب له الرحمة

كذلك قول الحق سبحانه .

﴿بغير عمد ترونها﴾ (٣) [الرعد]

أي تدققوا وامتثروا النظر إليها ، وابحثوا فيما يعينكم على ذلك إن  
استطعتم ، وإذا لفكّ امتكلم إلى شيء ليحرك فيك حواس إبراكك ،  
فمعنى ذلك أنه واثق من صنّعه

والمثل من حياتنا - والله المثل الأعلى - وسبحانه منزه عن أن يكون له مثل .. حين تدخل لتشتري صُوفاً ، فيقدم لك البائع قعاشاً ، فتسأله « هل هذا صوف مائة في المائة ؟ » فيقول لك انبائع « نعم إنه صوف مائة في المائة ، وهات كبريتاً لنشعل فتلة منه لترى ببفسك »

ويوضح الحق سبحانه هنا أن السماوات مرفوعة بغير عمد ، وانظروا أنتم ، بمد البصر ، ولن تجدوا أعمدة على هذا الامتداد . وصغار عدم وجود أعمده مُحقق لك وبغيرك على مدى أفق أي منكم

وبكل إنسان أفقه الخاص على حسب قدرة بصره . فهناك من تطبق اسماء على الأرض أمام عيونه ، فيقول له أنت تحتاج إلى نظارة طبية تعالج هذا الأمر

فالآفاق تختلف من إنسان إلى آخر ، وفي التعبير اليومي اشائع يقال « فلان ضيق الأفق لا يرى إلا ما تحت قدميه »

ونقول إن هذا يحدث معي ومع من يعيشون الآن ، ولا جد يرى أعمدة ترفع السموات ، فهل سيحدث ذلك مع من سيأتون من بعدنا ؟

ونقول لقد مسحت الأقمار الصناعية من الفضاء الخارجي كل مساحات الأرض ، ولم يجد أحد أية أعمدة ترفع السماء من الأرض وهذا دليل صدق القضية التي قالها الحق سبحانه في هذه الآية .

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ..﴾ (٢) [الرعد]

والسَّمَاوَاتِ جمع « سماء » وهى كل ما علاك فأظنك ، والحق سبحانه يقول

﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ..﴾ (٢٢) [المطر]

ونعلم ان المطر إنما نزل من السُّحُبِ التى تعلو الإنسان ، وتبدو مُعلَّقة فى السماء ، وإذا أُطلقت السماء انصرفت إلى السماء العليا التى تُغْشَى كل ما تحتها

وحين أراد الناس معرفة كُنْه السماء ، وهى لها جُرمٌ أم ليس لها جُرمٌ ، وهل هى امتداد أجواء وهواء ؟ لم يتفق العلماء على إجابة وقد نثر الحق سبحانه أدلة وجوده ، وأدلة قدرته ، وأدلة حكمته ، وأدلة صنعته فى الكون ، ثم أعطاك أيها الإنسان الأدلة فى نفسك أيضاً ، وهو القائل سبحانه -

﴿وَهِيَ أَنفُسُكُمْ أَفَلَا تَصْزُرُونَ﴾ (٢١) [الذاريات]

وانظر إلى نفسك تجد العلماء وهم يكتشفون فى كل يوم شيئاً جديداً ومبرحاً عجيباً ، سواء فى التشريح أو علم وظائف الأعضاء وسوف تعجب من أمر نفسك ، وأنت ترى تلك الاكتشافات التى كانت العقول السابقة تعجز عن إدراكها ، وقد يُدرك بعضها الآن ، ويُدرك بعضها لاحقاً

(١) الجرم - الجسم والجنس [ لسان العرب - مادة جرم ] والمعصود هل السماء لها بعدد محددة تأخذ حيزاً كالاجسام أم هى مجرد ملاء وهواء ؟

وإدراك البعض ليعجهول في الماضي يؤذن بأنك سوف تدرك في المستقبل أشياء جديدة .

وإن نظرت خارج نفسك ستجد قول الحق سبحانه .

﴿ سَتَرْنَاهُمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ <sup>(١)</sup> وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾

[فصلت]

ومعنى ﴿ سَتَرْنَاهُمْ .. (٥٣) ﴾

[فصلت]

أن الرؤية لا تنتهى ، لأن « السين » تعنى الاستقبال ، ومن نزل فيهم القرآن قرءوها هكذا ، ونحن نقرؤها هكذا ، وستظل هناك آيات جديدة وعطاء جديد من الله سبحانه إلى أن تقوم الساعة

وسبحانه القائل

﴿ لَخَلْقُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِن أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾

[غافر]

وأنت حين تفكر في خلق السماوات والأرض ستجد مسالة غاية في الضخامة ، ويكفيك أن تتحير في مسالة خلقك وتكوينك ، وأنت مجرد فرد محدود محير ، ولك عمر محدود ببداية ونهاية ، فعما بالك بخلق السماوات والأرض التي وجدت من قبلك ، وستستمر من بعدك إلى أن تنشق بأمر الله ، وتتكرر لحظتها البجوم

ولا بد أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ،

(١) الآفاق الناحية - وحط اللقاء السماء بالأرض في رأى الصين - وجسمه الآفاق [ القاموس القويم ٢٧/١ ] يتصرف والآفاق والآفاق - ظهر من بواحي الفلك وأطراف الأرض ، وكذلك آفاق السماء وبواحيها [ لسان العرب - مادة آفاق ]

بِالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَشَمَلُ الْكَوْنِ كُلِّهِ

وَحِينَ تُحَدِّثُ عَنْهَا إِيَّاكَ أَنْ تَخْلُطَ فِيهَا بِوَهْمِكَ ، أَوْ بِخَمِيمِكَ ، لِأَنَّ هَذِهِ مَسْأَلَةٌ لَا تُدْرِكُ فِي الْمَعَامِ ، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُجْرِيَ تَحْلِيلَاتٍ بِمَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

وَلِذَلِكَ عَلَيْكَ أَنْ تَكْتَفِيَ بِمَعْرِفَةِ مَا يَطْلُبُهُ مِنْكَ مَنْ خَلَقَهَا ، وَمَاذَا قَالَ عَنْهَا . وَتَذَكَّرُ قَوْلَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ

﴿ وَلَا تَقْفُ <sup>(٣٦)</sup> مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. ﴾ [الْإِسْرَاءُ]

وَقَدْ حُجِّزَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عَنِ الْعُقُولِ الْمُتَطَفِّلَةِ أَمْرَيْنِ ، فَلَا دَاعِيَ أَنْ تُرْهِقَ نَفْسَكَ فِيهِمَا

الْأَمْرَ الْأَوَّلُ : هُوَ كَيْفِيَّةُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ ، وَمِمَّا كَانَ قَرْدًا فِي الْبَدَايَةِ ثُمَّ تَطَوَّرَ ، تِلْكَ مَسْأَلَةٌ لَا نَحْصُكُ ، فَلَا تَتَدَخَّلْ فِيهَا بِافْتِرَاضَاتٍ تُؤْدِي بِكَ إِلَى الضَّلَالِ

وَالْأَمْرَ الثَّانِي : هُوَ مَسْأَلَةُ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَتَقُولُ إِنَّ الْأَرْضَ كَانَتْ جُزْءًا مِنَ الشَّمْسِ ، وَمِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ لَا يَسْتَنْدُ إِلَى وَقَائِعٍ

وَتَذَكَّرُ قَوْلَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ .. ﴾ [الْكَهْفُ]

[الْكَهْفُ]

(١) قُلْنَا الْإِسْرَاءُ بِقَلْبِهِ مَشَى خَلْقَهُ أَوْ بَعَثَهُ وَقَوْلُهُ مَعَالَى ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾

(٢٦) [الْإِسْرَاءُ] أَيْ لَا تَتَّبِعْ مِنَ الْعَقَائِدِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، وَلَا مِنَ الْأَرَاءِ ، وَلَا مِنَ

الْأَحَادِيثِ مَا لَا تَعْرِفُ لَهُ دَلِيلًا ، وَلَا تَسْتَرْسِلُ فِي الْمَبِيتِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ [ الْقَامُوسُ

ولو كان الحق سبحانه قد أراد أن نعلم شيئاً عن تفصيل هذين  
الأمرين لأشهد خلقهم ببعض من البشر ، لكنه سبحانه بفي هذا  
الإشهاد لذلك ستظل هذه المسألة لغزاً للأبد ؛ ولن تحل أنت هذا  
اللغز أبداً ، بل يحله لك البلاغ عن الحق الذي خلق

وقد أوضح لك أنه قد خلقك من طين ، ونعخ فيث من روحه ،  
فاسمع منه كيفية خلقك وخلق الكون كله

وبيل الإعجاز البياني في القرآن على أن بعضاً ممن يملكون  
الطموح العقلي أرانبوا أن يأخذوا من القرآن أدلة على صحة تلك  
الطريات التي افترصها بعض من الطماء عن خلق الإنسان وخلق  
الأرض ، فبلغنا الحق سبحانه مقدماً ألا تصدقهم

ويقول بنا

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ  
مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا ﴾ (٥١)

[الكهف]

والمُصل هو من يُضلك في المسمومات ، هكذا أثبت لنا الحق  
سبحانه أن هالك مُضللين سيأتون ليقولوا كلاماً انتراهيباً لا أساس له  
من الصحة

وأوضح لنا سبحانه أن أحداً لم يتلصص عليه ، ليعرف كيفية  
خلق الشمس أو الأرض ، ومن يدعى معرفة ذلك فهو من المُضللين ،  
لأنهم فقرأ ما ليس لهم به علم .

(١) العصد العاوان المساعد وهو في الأصل ما بير المرافق إلى الكتف ، ويستعمل مجازاً  
للمعين المساعد قال تعالى ﴿ قَالَ مَشْدُ عَصَاكَ بِأَخِيكَ ﴾ (٢٠) [القصص] أي سفلوك  
به على سبيل المجاز المرسل ، فنقرية العصد تقوية للإنسان كله [ القاموس الفريم

وما نام الحق سبحانه قد قال ذلك ، فمن نُصدق ما قال

وقد أثبتت التحليلات صدق ما قاله سبحانه عن خلق الإنسان ،  
فسبحانه قد خلق الكور أولاً ، ثم خلق السير لهذا الكون وهو  
الإنسان ، وكل الكون مُسَمَّرٌ للإنسان ويخدم هذا الخليفة في الأرض ،  
وكل ما في الكون يسير بنظام وانتظام

ولمُتمرد الوحيد في الكون هو الإنسان ، فيأتي الحق سبحانه إلى  
هذا المتمرد ، ليجهز الآية فيه ، وليثبت صدق الغيب في الأرض

وأوضح سبحانه أنه خلق آدم من الطين والإنسان من سل  
آدم الذي سواه الله ، وفتح فيه من روحه ، وبعد ذلك أمر الملائكة ،  
من المنبريات أمراً ومن الحفظة ، أن تسجد للإنسان

وهذا السجود هو إعلان الطاعة لأمر الله بخدمة الإنسان هذا  
الذي بدأت حكاية خلقه من تراب ، ثم خلط التراب بالماء ، ليصير  
طيناً ، ثم ترك قليلاً ليصير خماً مسنوناً<sup>(١)</sup> ، ثم يجفّ الحما العسفون  
ليصير صلصالاً كالغُحار ، ثم ينفخ فيه الحق بالروح

فإذا ما انتهى الأجل ، فأول ما يُنقص هو خروج الروح ، ثم  
يتصلّب الجثمان ، وبعد أن يُؤازى التراب بصير الجثمان رَمَةً<sup>(٢)</sup> ، ثم

(١) الحما والحما الطين الاسود والمسبون المصبوب في قالب إنساني أو مصوّر بصورة

إنسان أو طين كالغُحار صالح للتصوير والمشكل [ القاموس القويم ١/ ٢٣٩ ]

(٢) رَمُ الميت بكى جسعه قال تعالى ﴿ نال من يحيى العظام وهي رميم ﴾ (٧٨) [ يس ]

والرميم الحلق البالي من كل شيء [ لسان العرب - مادة رمم ]

يَتَسَرَّبُ الْمَاءُ الْمَوْجُودُ فِي الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَتَبْقَى الْعِظَامُ إِلَى أَنْ تَتَحَوَّلَ فِي الْأُخْرَى إِلَى تُرَابٍ .

وَهَكَذَا يَتَحَقَّقُ نَقْضُ كُلِّ بِنَاءٍ ، فَمَا يُبْنَى فِي سَهَابَةٍ أَوْ بِنَاءٍ هُوَ مَا يُنْقَضُ أَوَّلًا ، وَهَكَذَا يَتَأَكَّدُ لَنَا صِدْقُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ حِينَ نَرَى صِدْقَ الْمُقَابِلِ فِيمَا أَخْبَرَنَا بِهِ سُبْحَانَهُ عَنْ كَيْفِيَةِ الْخَلْقِ .

وَعِنْدَمَا يُخَبِّرُنَا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ أَنَّ كَيْفِيَةَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيْسَتْ فِي مَتَنَاوِلِنَا ، فَقَدْ أَعْطَانَا مِنْ قَبْلِ الدَّلِيلِ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ ، فِيمَا أَخْبَرَنَا بِهِ عَنْ أَنْفُسِنَا

وَمِنَ الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ بِصُدُودِ خَوَاطِرِنَا عَنْهَا يَقُولُ سُبْحَانَهُ

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ...﴾ [الرعد]

وَكَلِمَةُ « السَّمَوَاتِ » فِي الْلُغَةِ جَمْعٌ ، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ

﴿فَقَصَّاهُنَّ<sup>(١)</sup> سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا...﴾ [١٦]

[فصلت]

وَقَدِيمًا كَانُوا يَقُولُونَ ، إِنَّ الْمَقْصُودَ بِالسَّبْعِ سَمَاوَاتٍ هُوَ الْكَوَاكِبُ السَّبْعَةُ الشَّمْسُ ، وَالْقَمَرُ ، وَعِطَارِدُ ، وَالزُّهْرَةُ ، وَالْمَرْيَخُ ، وَالْمُشْتَرَى

(١) قَصَّاهُنَّ حَلَقَهُنَّ وَأَوْجَدَهُنَّ وَأَعَدَّ إِرَادَتَهُ بِخَلْقِهِنَّ. [ الْقَامُوسُ الْقَوِيمُ ١٢٢/٢ ] وَلِلْقَضَاءِ مَعَانٍ كَثِيرَةٌ ذَكَرَ السُّبُوطِيُّ فِي ( الْإِنْقَاضِ ١٢٨/٢ ) مِنْهَا الْغَرَاغُ ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿إِذَا فَضَعْتُمْ نَاسِكُكُمْ<sup>(٢)</sup>﴾ [البقرة] وَمِنْهَا الْفَصْلُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿لَقَضَى الْأَمْرُ<sup>(٣)</sup> لَمْ يَأْخُذْ بِهِ<sup>(٤)</sup>﴾ [الأنعام] وَمِنْهَا الْعَهْدُ ﴿إِذْ فَضَعْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ<sup>(٥)</sup>﴾ [القصص]



وشاء سبحانه أن يُكْتَبَ هذا القول وأصحابه أحياء ، فرأى علماء  
الفلك كواكب أخرى مثل نبتون وبلوتو ، وكان في ذلك لفظة سماوية  
لمن قالوا : إن المقصود بالسموات السبع هو الكواكب السبعة .

وقد قالوا هذا القول بحسن نية وبرغبة في ربط القرآن بالعلم ،  
لكنهم نسوا أن يُدَقِّقُوا المهم لما في كتاب الله ، فسبحانه قد أوضح أن  
الشمس والقمر والكواكب كلها ربة السماء الدنيا<sup>(١)</sup> ، لما بالآلة بطبيعة  
وزينة بقية السموات ؟

ويتابع سبحانه

﴿ ثُمَّ امْشُوا عَلَى الْعَرْشِ .. (٢) ﴾ [الزمر]

وهذه قضية هي أهم قضية كلامية نأشها علماء الكلام ،  
قضية الاستواء والعرش ، وحتى نفهم أي قضية لا بد أن نحلل  
ألفاظها لننتفح على معانيها ، ثم نبحثها جملة واحدة ، لكن أن يجلس  
لمتجادل ونحس غير متوردين ومتفقين على فهم واحد ، فهذا أمر  
لا يليق

ولننظر الآن معنى « لاسقواء » ومعنى « العرش » ، ونحن حين  
نستقري كلمة « استوى » في القرآن نجدها قد وردت في آيات  
متعددة

وجاءت مرة واحدة بمعنى الاستواء ، أي التضييق في قول  
الحق سبحانه .

(١) يقول تعالى ﴿ إِنَّا رَبُّهَا السَّمَاءُ الدُّنْيَا بِرَبِّهَا الْكَوَاكِبِ (٦) ﴾ [الصافات] ويقول أيضاً ﴿ وَرَبُّهَا  
السَّمَاءُ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٥٥) ﴾ [فصلت]

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ<sup>(١)</sup> وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ ۝١٤﴾ [القصص]

أى أنه قد بلغ نُضْجَه الكمالى ، ويستطيع أن يكون رجلاً صالحاً لممارسة ما يُقى نوعه ، وإن تزوج فلاسوف يُنجب مثله ، وهذا استواء لمخوق هو الإنسان

ومرة أخرى يقول القرآن

﴿ذُو مِرَّةٍ<sup>(٢)</sup> فَاسْتَوَىٰ ۖ وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ [النجم]

والمعنى هنا هو صعد ، والمقصود هو صعود محمد و جبريل عليهما السلام إلى الأفق الأعلى وهناك قوله الحق

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ۝٢٩﴾ [البقرة]

أى أنه سبحانه قد استوى إلى السماء ، وإياك أن تظن أن استواءه سبحانه إلى السماء مُساوٍ لاستواء البشر ، لأننا قلنا من قبل إن كل شيء بالنسبة لله إنما تأخذه فى إطار

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ ۝١﴾ [الشورى]

(١) الأشد يبلغ الرجل الحكمة والمعرفة قال الأزهري الأشد فى كتاب الله تعالى فى ثلاثة معان يقرب أحلامها فقوله فى قصة يوسف ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۝٢١﴾ [يوسف] قد بلغ الإدراك والبلوغ ولما قوله فى قصة موسى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ شُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ۝٢٥﴾ [القصص] أى أن يجتمع لمره وقوته ويكتمل وينتجى شبابه وأما قوله ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ لَأُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنًا ۝٤٠﴾ [الأحقاف] فهو أقصى نهاية بلوغ الأشد ، وقد اجتمع حكمة وتعام عقله [نسب العرب - مانه شند ] بتصرف

(٢) المرة القوة والشدة وخصافة الراى والوة الحق ، مأخوذ من إمرار الجبل وإحكام فئته قال تعالى ﴿عَلَيْهِ شِدَّةُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦﴾ [النجم] ، وهو وصف لجبريل عليه السلام بلغة ذو قوة [ القاموس الفيوم ٢٢٣/٢ ]



وبذلك يكون استواءه سبحانه إلى السماء هو استواء يليق بذاته ،  
والاستواء المطلق شيء مختلف عن الاستواء على العرش .

وهكذا حدد استواء لغير الله من إنسان وهناك استواء لغير الله  
من إنسان ومن ملك ، وهناك استواء من الله إلى غير العرش  
وبجانب ذلك هناك استواء على العرش

وقد ورد الاستواء على العرش في سبعة مواقع بالقرآن ، هي  
سورة الأعراف ، وسورة يونس ، والرعد ، طه ، الفرقان ،  
والسجدة ، والحديد

وورد ذكر العرش في القرآن بالنسبة لله واحداً وعشرين مرة ،  
وورد بالنسبة ليعقوب أربع مرات ، فهو القائل سبحانه

﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢٢)

[النمل]

وقال

﴿ أَتَيْكُمْ بِآتِيٍّ بِعَرْشِهَا . ﴾ (٤٨)

[النمل]

ثم قال

﴿ نَكْرَرُ لَهَا عَرْشَهَا . ﴾ (٤٩)

[النمل]

وقال

﴿ أَمْ كَذَّبْتُمْ عَرْشَتِ . ﴾ (٤٩)

[النمل]

وبالنسبة ليوسف قال سبحانه

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ . ﴾ (٦٠)

[يوسف]

وإنك أن تأخذ الاستواء بالنسبة لله على أن معناه « الضَّجَّ » ،

لأن الضَّجَّ إشعارٌ بكمالِ سَبْقِهِ نَقْصُ

وبذلك مجد العلماء المُدَقِّقِينَ قد عَلمُوا أن ذِكرَ استواءِ الله على العرش قد ورد في سبعة مواضع بالقرآن الكريم وقالوا .

وَذِكْرُ اسْتِواءِ اللَّهِ فِي كَلِمَاتِهِ عَلَى الْعَرْشِ فِي سَبْعِ مَوَاضِعٍ فَاعْتَدِدْ  
فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ ثَمَّةَ يُونُسَ وَفِي الْأَرْعَادِ مَعَ طِهِ فَلْيَعِدَّ أَكْثَرُ  
وَفِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ ثَمَّةَ سَجْدَةَ كَذَّا فِي الْحَدِيدِ أَفْهَمَةُ فَهَمٌ مُؤَيَّدٌ  
وقالوا في المعنى

فَلَهُمْ مَقَالَاتٌ عَلَيْهَا أَرْبَعَةٌ قَدْ حُصِّلَتْ لِلْعَارِسِ الطُّعَانِ  
وَهِيَ اسْتِقرارٌ وَقَدْ عَمِلَ وَكَذَلِكَ ارْتَفَعَ مَا فِيهِ مِنْ نُكْرَانٍ  
وَكَذَلِكَ قَدْ صَعِدَ الَّذِي هُوَ رَابِعٌ بِتِمَامِ أَمْرِ مَنْ حَمَى الرَّحْمَانِ  
والصعود إلى العرش هو حركة انتقال من وضع إلى وضع  
لم يَكُنْ قَبْلَهُ

وهكذا نجد أن المعاني التي تتمشى مع الاستواء في عُرْفِنَا  
البشرى لا تتناسب مع كمال الله .

واختلف العلماء . قال واحد منهم « سَأَدَ الْفُطْ كَمَا قَالَ اللَّهُ »

وفردُّ على هذا بِسْوَالٍ : وهل يَمَكُنُكَ أَنْ تُغَيَّبَ

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ﴾ (١١)

[الشورى]

طبعاً ، لا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَأْخُذَ كُلَّ فِهْمٍ لَشَيْءٍ  
يَخْصُرُ الذَّاتَ الْعَلِيَّةَ فِي إِطَارٍ :



[الشورى]

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ﴾ (١١)

ولذلك نجد أهل الذِّقَّة<sup>(١)</sup> يقولون : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة .

فنحن نعلم معنى الاستواء ، ولكن كيفية استواء الله مجهولة بالنسبة لنا ، والسؤال عن الكيفية بدعة لأن المعاصرين لرسول الله ﷺ لم يسألوا عن تلك الكيفية ، رغم أنهم سألوا عن كثير من الأمور

وهناك آيات متعددة<sup>(٢)</sup> تبدأ بقول الحق سبحانه

[البقرة]

﴿يَسْأَلُونَكَ ۖ﴾ (١٨٩)

وكان السؤال ورداً بالنسبة لهم ، لكنهم بملكوتهم العربية الفطرية قد فهموا الاستواء كشيء ياسب الله ، فلم يسألوا عنه

وجاء السؤال من المتأخرين انذين تمعكوا ، فقال واحد : سأخذ الالفاظ بمعناها ، فبان قال : إن له صعوداً ، فهو يصعد ، وإن قال : إن له استواء فهو يستوى

ولمن قال ذلك ترد عليه : إن ما تقويه صالحٌ للأعيان ، ولا يليق أن تقول ذلك عن الذي يُعْبَرُ ولا يتغيَّر . وإذا سألتَ عن معنى كلمة « استواء » فهو « استتب له الأمر » وهل كان الأمر غير مستتب له سبحانه ؟

(١) روى هذا عن الإمام مالك بن أنس

(٢) ورد هذا في ١٥ موضعاً من القرآن [ البقرة ١٨٩ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،

٢٢٢ ] . [ المائدة ٤ ] . [ الأعراف ١٨٧ ] . [ الأنفال ١ ] [ الإسراء ٨٥ ] .

[ الكهف ٨٢ ] ، [ طه ١٠٥ ] ، [ السجدة ٢٢ ]

ويقول نحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى صفات متعددة ، وهذه الصفات كانت موجودة قبل أن يخلق الله الخلق والكون ، فسبحانه موصوفاً أنه خالق قبل أن يخلق الخلق ، ومُعزّ قَبر أن يخلق من يُعزّه ، ومُذلّ قبل أن يخلق من يُذلّه ، وبه سبحانه صفات الكمال المُطلق .

وبهذه الصفات خلق الخلق ، يقول الحق

﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)﴾

[الحق]

وكذا يؤمر بأر صفه الخلق كانت في ذاته قبل أن يخلق خلقه .  
وحين خلق سبحانه السماوات والأرض أبرز الصفة التي كانت موجودة فيه وليس لها مُتعلّق : فوجد هو سبحانه المُتعلّق ، وهكذا استتبّ له الأمر سبحانه .

إس إذا ذكر استواء الله ، فهذا يعني تسمّ المراد له ، فصار للصفات التي كانت فيه ، وليس لها مُتعلّق أو مقدور ، مُتعلّق ومقدور

وإذا وُجِدَتْ هذه الصفة في البشر مثل بلقيس التي وصفه سبحانه

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٦٣)﴾

[السر]

فهي تختلف عن صفة الله ، لأنها لم تجلس على العرش إلا بعد أن خلقها الله ، ولا يستتب الأمر لملك أو ملكة إلا بمتاعب ومعارك ، وقد يشغل هذا أشخاص في معارك وحروب ، ثم يستتب له الأمر

وهكذا يختلف استواء الله عن استواء خلق الله ، وإذا ذكر استواء

الله على العرش ، فحين نُفِزَهُ الله عن كل استواء يناسب البشر ،  
ويقول

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى]

واستواؤه هو تمام الأمر له ، لأن أمره صادر ، وعند تحقيق أمره  
في توقيته المراد به يكون تمام الأمر ، وتمام الأمر استواؤه ، أما  
كلمة ، العرش ، فنحن نجدُها في القرآن بالنسبة لله

إما مُصَافًا لاسم ظاهر

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ .. (١٧)﴾ [الحاق]

وإما مُصَافًا للضمير المخاطب أو الغائب

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .. (٧)﴾ [هود]

وما مُصَافًا للتنسيب

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٦)﴾ [الاسماء]

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية التي نحن بصدده حواطرها  
عنها

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. (٢)﴾ [الزمر]

والتسخير هو طلب المُسَخَّر من المُسَخِّر أن يكون كما أراده  
تسخيراً بحيث لا تكون به رغبة ، ولا رأى ، ولا هوى ، والتسخير  
ضدّه لاختيار .

والكائن المُسَخَّر لا اختيار له ، أما الكائن الذي له اختيار فهو إن  
شاء فعل ، وإن شاء لم يفعل

وَقُلْنَا قَدِيمًا إِنَّ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ قَدْ خَيْرُ الْإِنْسَانِ

﴿يَا عَرِضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْسَ أَنْ يَحْمِلَهَا  
وَأَشْفَقْنَ<sup>(١)</sup> مِنْهَا رَحِمْنَا الْإِنْسَانَ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٧﴾﴾ [الأحزاب]

وبذلك قبِل الإنسان أداء الأمانة وقت أدائها ، لا وقت تحملها  
ووقت الأداء غير وقت التحمل ، وضربتُ المثل بمن يقول لصديقه  
« عندي ألف حنيه ، وأخاف أن يضيعوا مني ، فاحفظهم لي معك ،  
وحين احتاجهم أعطهم لي »

ويقول الصديق « هات النقود وسأعصيها لك وقت أن تطلبها »  
والصديق صادق وقت تحمل الأمانة ، لكن ظروفاً تمرُّ عليه ،  
فيتصرف في هذه الأمانة ، وحين يطلبها صاحبها ؛ قد يمجز حامل  
الأمانة عن رثها ، وهو منك ضمن نفسه وقت التحمل ، لكنه  
لم يضمن نفسه وقت الأداء .

وكان من الواجب عليه أن يقول لصديقه لحظة أن طلب منه ذلك .  
« أرجوك ابتعد عني لأنني لا أضمن نفسي وقت الأداء »

وقد آت السماء والأرض والجبال تحمل الأمانة وقت عرضها ،  
وقبلت كل منهم التسخير ، ملا الجبال ولا السماوات ولا الأرض لها  
قدرة الاختيار ولا هوى لاي منها في هذه القدرة ؛ مثلها في ذلك  
مثل كل أجناس الكون ما عدا الإنسان ، ولم نجد فساداً في الأرض

(١) أشفق من الشيء خشى أن يناله منه مكروه وقول تعالى ﴿فَأَبَيْسَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ

مِنْهَا ﴿٧٧﴾﴾ [الأحزاب] أي خفن من حمل الأمانة ، ومن نتائج عدم الوفاء بحقوقها

[ القاموس القديم ٢٥١/١ ]



قد نشأ من ناحية المُسَخَّرَات .

أما الإنسان فقد قُبِلَ تحمُّلُ الأمانة ، لأن له عقلاً يُعَكِّرُ ويختار ، ومن الاختيار ونتيجة للهوى جاء الفساد في الكون ، ولو أقتل الإنسان على عمله وكأنه مُسَخَّرٌ خاضع لمنهج الله ، لاستقام عمل الإنسان مثلاً يستقيم عملُ كل الكائنات المُسَخَّرَة بأمر الله .

فإن أردتم أن تستقيم أموركم فيما لكم فيه اختيار ، فطبّقوا قول الحق سبحانه

﴿ أَلَا تَطْهَرُونَ ﴾<sup>(١)</sup> فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا أَوْرُنَ بِالْقِسْطِ<sup>(٢)</sup> وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴿ [الرحمن]

وانظروا ماذا يطلب الحق منكم في منهجه . فإن بَقِذْتُمُ المنهج تَسْتَقِمُ أموركم ، كما استقامت الكائنات لِمُسَخَّرَة .

ولا يأتي الحُكْلُ إلا من أنما نحن البشر نقوم ببعض الأعمال باختيارنا ، وتكون مخالفةً لمنهج المشرع أما إذا كنا نُؤدّي أعمالنا وضع نصب أعيننا قول الحق سبحانه

﴿ أَلَا تَطْهَرُونَ ﴾ فِي الْمِيزَانِ (٨) ﴿ [الرحمن]

فلسوف تكون أعمالنا مُطابقةً لمنهج الله ، وسنجد في أعمالنا ما يَسْرُبُ مثل سرورنا حين نجد الأملاك منظمّةً بدقة وحساب .

إن الفساد لا يأتي إلا من الاختيار غير المُرتجى لمنهج من

(١) طهى يطهى تجاور الحد [ القاموس القويم ٢/١ ص ٤ ]

(٢) القسط العدل وقسط يقسط عدل والقسط عدل وأزال الظلم والجور [ القاموس

القويم ٢/١ ص ١١٦ ]

خلق فيما الاختيار وإن كنت تريد أن تكون مختاراً ، فعليك أن تلتزم بمنهج من خيرك

ولذلك نجد الصالحين من خلق الله قد ساروا على منهج ربهم ، والتموا باختيار مراد ربهم فيما لهم فيه اختيار ، فصاروا وكتبهم مسخرين لمرادات الله

وهؤلاء يسموهم «العباد» لا «العبيد» ، فكل مملوك لله من العبيد ، آمن به أو كفر ، أطاع أو عصى ، أما العباد فهم من جعلوا مرادات الله هي اختيارهم ، يقول تعالى

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (٦٣)

[الفرقان]

هؤلاء هم من اتجهوا بالاختيار إلى ما يختاره لهم الله

ويحد الحق سبحانه يقول في الملائكة

﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (٢٦) لَا يَسْأَلُونَهُ بِأَقْوَالٍ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (٢٧)

[الانباء]

وإذا ما التزم العبد بمنهج ربه في حال الاختيار ، فهو لا يتساوى مع الملائكة فقط ، بل قد يسمو عنهم ، لأنهم مقهورون بالتسخير ، بينما يسمع أنت بالاختيار ، وآثرت منهج ربك

ويقول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خراطها

عنها

﴿وَسُجَّرَ<sup>(١)</sup> الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٢٩)﴾

[لقمرا]

ولحظة تجد التتوين مثنى « كل » فهذه يعنى كلاً من السابق  
أى الشمس والقمر أما الجرى إلى أجل مسمى ، فبقتضى ممّا أن  
نظم معنى الجرى ، وهو تقليل الزمن عن المسافة

فحين تريد الوصول إلى مكان معين فقد نعيشى لهويتنا ، نتصل  
فى ساعة زمن ، وقد تحرى لتقطع نفس المسافة فى نصف ساعة ،  
والجرى بطبيعة الحال ملحوظ ممّن يراك

لكن هل يرى أحدهما الشمس وهى تجرى ؟

لا ، لأنها تجرى فى ذاتها ، ويُسمى هذا النوع من الجرى « جرى  
انسيابى » أى ، لا تدركه بالعين المحرّدة ، وهناك ما يُسمى  
« انتقال قبرى » وهناك ما يُسمى « انتقال انسيابى »

وانظر إلى عقارب الساعة ستجد عقرب الثواني أسرع من عقرب  
الدقائق لذى يبدو ساكناً رغم أنه يتحرك ، وأنت ترى حركة عقرب  
الثواني ، لأنها تتم قفزاً بينما لا ترى حركة عقرب الدقائق ، لأنه  
يتحرك تبعاً لدورة هادئة من التروس داخل الساعة ، وكل حركية فى  
حركة التروس الخاص بعقرب الدقائق تتأثر بحركة تروس عقرب  
الثواني ، والحركة انقضية لعقرب الثواني تتحول إلى حركة انسيابية  
فى عقرب الدقائق

(١) سَجَّرَه أخضعه وقهره لينفذ ما يريد منه بدون إرادة ولا اعتبار من العسَّجَر وعنه قوله  
تعالى ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ النُّجُومُ سُجَّرَاتُ يَامِرِهِ . (٢٩)﴾ [الأعراف] أى مسيرات  
خاضعات مقهورات بأمر الله وإرادته هو لا بإرادتها ولا باعتبارها [ القاموس القويم

وحركة كل من العقربين تتحول إلى حركة أكثر انسيابية في  
عقرب الساعات ، وهذا يعني أن كل جزئية من الزمن فيها جزئية من  
الحركة

وحتى في النمو بالنسبة للإنسان أو الحيوان أو النبات ، تجد  
عملية النمو غير ظاهرة لك لأن الكائن الذي يعمو إما ينمو بقدر  
بسيط غير ملحوظ ، وهذا القدر البسيط شائع في اليوم كله

وإن أردت أن تعرف هذه المسألة أكثر ، انظر إلى الظل ، وأنت  
تري الظل واصحاً ساعة سطوع الشمس ، ثم يحسر الظل بانحسار  
الشمس

واقراً قول الحق سبحانه -

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ مَسْكِئًا ﴾ [الفرقان]

أي أن الظل متحرك وغير ثابت ، وكل جزئية من الزمن تؤثر  
في حركة الشمس ، فيتأثر بها الظل .

وهكذا يجب أن نُفرّق بين الحركة القفزية والحركة الانسيابية ،  
وحين تقدمنا في العلم نجدهم يقولون « سنزيد من الحركة  
الانسيابية عن الحركات القفزية ،

وهنا يقول الحق سبحانه -

﴿ رَسَّخُوا الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ ﴾ [الرحمن]

والأجل هو المدة المحدودة للشيء ، وهي محدودة زمناً إن أردنا  
ظرف الزمان ، أو محدودة بالمسافة إن أردنا المكان

والمقصود هنا بالأجل ، إما الأجل النهائي لوجود اشمس والقمر ، ثم إذا انشقت السماء كَوَّرَتْ<sup>(١)</sup> الشمس ، وانكدرت<sup>(٢)</sup> المجوم

أو أن المقصود هنا بالأجل هو للتعبير عن عملها اليومي

وقد عرفنا أن هناك مطالع متعددة للشمس ، وعلى الرغم من أن المشرق له جهة عامة واحدة ، لكن المطالع مختلفة ، بدليل أن قدماء المصريين أقاموا في بعض المعابد طاقات وفتحات في البناء .

ينطلع الشمس كُلُّ يوم من أحد هذه الطاقات ، فكل يوم توجد لها منزلة مختلفة عن اليوم السابق ، وتظل تقطعها ثم تعود مرة أخرى ، وتفعّل ذلك إلى أجل مُسمّى أى يومياً

وُسمّى بحزن تلك المنارل ، البروج ، كبرج الحمل ، والحدى : والثور ، والأسد ، والسنبلة ، والقوس ، والموت ، ونحن نرصد هذه الأبراج كوسيلة لمعرفة أحوال الطقس من حرارة ، وبرودة ، ومطر ، وغير ذلك ، ذلك أن كُلُّ برج له زمن ، ويمكن تعريف أحوال الجو خلال هذا الزمن بدقة

ولكن بعضاً من تصرفات الإنسان تفسد عملية التحديد الدقيق في الكون ، مثلاً يشعل المعصر الحرائق في العبايات ؛ فتحرق النار

(١) كَوَّرَتْ الشيء شمساً مستديراً ، فيقال : كَوَّرَ جسمه ، أي قلبها على رأسه وقوله ﴿يَكْوَرُ اللَّيْلُ عَلَى نَهَارٍ﴾ (٣٠) [الرسم] أي يريد الليل ميلتف على جزء من النهار وبالعكس [ القاموس النوب ١٧٧/٢ ]

(٢) قال تعالى ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَثَرَتْ (٤٢)﴾ [التكوير] أي تغير لونها ولم يعد صافياً لامعاً أو تتأثرت وتساقطت سرعته كالصقور المنفضة على فراشها عند قيام الساعة [ القاموس النوب ١٥٥، ٢ ]

الأكسوجين الذى يحتاجه البشر والحيوانات للتنفس ، ويحاول الغلاف  
الجوى أن يتوارى ، فيشد كميات من الهواء من منطقه أخرى ، فيختل  
ميزان الطقس لأيام .

وكذلك يفسد الجو من التجارب الدرية التى تجريها الدول أعضاء  
النابى الدرى ، تلك التجارب التى تقوم بتفريع الهواء ، فتجعل الطقس  
غير مستقر وغير منضبط ، وهذا ما يفسد استخدامنا للأبراج كوسيلة  
لمعرفة تقلبات الطقس

وقد أوجز الشعر تلك الأبراج فى قوله

حمل الثورُ جَوْزَةَ السُّرطانِ ورعى النيثُ سُبُلَ الميرانِ  
عُقُوبَ القوسِ حذى نَلُوَ وحوَتِ ما عَرَفْنَا مِنْ أَمهِ السُّرَّانِ

ويباع الحق سبحانه فى نفس الأمة التى نحن بصدد حصادها  
عنها

﴿ يُذِكرُ الأَمرُ يُفَصِّلُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد]

وسبحانه قد أوضح من أول الآية مسألة رفع لسموات بغير  
عمد ، واستوائه على العرش وتسخير الشمس والقمر ، وكيف يجرى  
كلُّ شىء لأجل مُسمى

وكلُّ ذلك يتطلب تدبيراً بالمر بعد أن أبرر القدرة ، ثم يصون ذلك  
كله ، فكما قدر مخلوق ، فهو مُقدر مقبوميته ، فهو القاسم على كل  
شىء ، وسبحانه كل يوم هو فى شأن<sup>(١)</sup>

(١) عن عبيد بن عمير الأردى قال تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرعد] فقلنا يا رسول الله ، وما ذاكَ الشأن ؟ قال إن يعجز دينا ويفرج كربا ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين ، أورده ابن كثير فى تفسيره ( ٢٧٢/٤ )

واقول هذا المثل لاوضح - لا لأشبهه فسحابه مُرَّة عن النشيبه -  
 ونحن نقول فلان فكر أولاً ثم ندر والتفكير هو العملية التي تحدث  
 فيها من الشيء لإخراج المطلوب منه ، كأن تأتي بقليل من حساب  
 الفصح لتفركه ببذك لتخرج القمحة من قشرته .

هذا هو التفكير الذي يطلب منك أن تبحث وتُنْقَب إلى أن تصل إلى  
 لبّ الأشياء . والتدبُّر يقتضى ألا تقتنع بما هداك إليه فكرك في نفس  
 اللحظة ، ولكن أن تُمَحِّص الأمر لترى ماذا سيتنتج عن تنفيذ ما وصل  
 إليه فكرك ؟

فربما ما فكرت فيه يُسَعِّفك ويُعينك في لحظتك الصالبة ، لكنه  
 سيأتي لك بعطَبٍ بعد قليل

واسمُّهُ الذي أصر به على مثل هذه الحالة دائماً هو اختراع  
 المبيدات الحشرية ، وهم يَفْطِنُوا إلى أن هذه المبيدات لا تقتل لحشرات  
 الصارة وحدها ، بل تُسَمِّم الطيور التي كانت تفيد العلاج .

ووصل الأمر إلى حدّ تحريم استخدام هذه المبيدات ، وجاء هذا  
 التحريم ممن تفاخروا من قبل على كل شعوب الأرض باختراعاتهم لتلك  
 المبيدات ، فقد فطنوا إلى أن ما جاءهم من خير عن طريق تلك  
 المبيدات هو أقل بكثير من الضرر الذي وقع بسببها

وهذا يعنى أنهم لم يتدبروا اختراعاتهم بتلك المبيدات ، فقاموا  
 بتصنيعها لعائدة عاجلة . دون أن يلتفتوا إلى الخطورة الآجلة ، وكان  
 لا يد لهم أن يتدبروا الأمر ، لأن التدبُّر معناه النظر في دُر  
 الأشياء

والحق سبحانه هو اقاتل .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٧٤)

[محمد]

أى لا تنظر إلى راجهة الآية فقط ، بل نظر فى أعماقها ، ولذلك يقول لنا سيدنا عبدالله بن مسعود رضى الله عنه ، « ثُورُوا القرآن »

أى . استخرجوا منه الكنوز بالتدبر ، لأن التدبر يحمى من حماقة التفكير ، والمثل البسط المتكرر فى بيوتنا هو أننا نغسل أفواهنا بعد تناول الطعام ونتمضمض مما بقي فى الفم من بقايا

ويجد من بين هذه البقايا بعضاً من ، العفائيت الصلبة بعض الشيء ، ثم نغسل حوض المياه بتيار متدفق من ماء الصنبور . ونُفاجأ بعد فترة من الزمن بانسداد ماسورة الصرف الخاصة بالحوض ، وحين نفتح السباك ماسورة الصرف هذه يجدها مليئة برواسب من بقايا الأطعمة .

رأيت حين تمضمضت لم تلتفت إلا لنظافة الفم من البقايا ، ولم تتدبر أمر تلك البقايا ، ولو أنك تدبرت ذلك لَقُمْتَ بتركيب ماسورة صرف للحوض أكبر من الماسورة التقليدية الضيقة ، ولَجَعَلْتَ صندوق الطرد الخاص بالحوض أكبر من احجم المعتاد والمُجَهَّر لسرف المياه فقط

(١) لورد ابن منظور فى لسان العرب حديث ابن مسعود ، « اثنوا القرآن » فإن الله حبر الأوبى والآخرين . قال شمر : تنوير القرآن قرائت ومفاتيح العامة به فى تفسيره ومعانيه . [ مادة ثور ]



وهكذا نرى أن الفكر يحثك على أن تبحث عن مطلوب لك ، ولكن عليك أن تنظر وتُدقق . هل يحقق لك ما يقترحه عليك فكرك ، ما يفيدك أم ما يضررك ؟

هذا هو التدبر ، وهو ما نُسَمِّيه صيانة الأشياء .

ويتابع الحق سبحانه في نفس الآية .

﴿ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ (٢٤)

[الرعد]

وتفصيل الآيات يعني أنه جعل لكل أمر حكماً مناسباً له ودائماً أقول لمن يسألني عن فتوى ، ويلجأ إليّ أن تتوافق الفتوى مع مراده « نحن لا نُفَصِّلُ الفتوى من أجل هواك » لأن ما عندي هي فتاوى حاضرة ، وعليك أن تضبط مقاسك أنت على الفتوى ، لا أن نُفَصِّلُ لك الفتوى على هواك »

أقول ذلك ، لأن المسألة ليست حياة تنتهي إلى العدم ، ولكن هناك حياة أخرى تُحاسب فيها على كل تصرف ، فالحق سبحانه هو القائل

﴿ وَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْإً مُنْثَوًى ﴾ (٢٣)

[الفرقان]

وهو القائل سبحانه أيضاً جلّ وعلا

(١) البهاء الغيار المتطايير في الجبر قال تعالى ﴿ تَكُنَّ نَبْإً مُنْثَوًى ﴾ [الواقعة] أي (ربما متطايير) ما وهماك ومثله قوله ﴿ فَجَعَلْنَاهُ نَبْإً مُنْثَوًى ﴾ [الفرقان] أي كل عمل عملوه كالنبأ المنثور لا يُعْتَدُّ به ولا قيمة له [القاموس القويم ٢٩٧/٢]

﴿ كَرُمَادِ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ <sup>(١)</sup> لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ .. (١٨) ﴾

[إبراهيم]

ولذلك فعليك أن تُقِلَّ على كل عمل وأنت موقن بأن هذا العمل لا ينتهي بتركك للحياة الدنيا ، ولكن لكل عمل أثره في حياة باقية ، وإذا كانت الدنيا تحصل لك راحة موقوتة أو تعباً موقوتاً ، فالراحة في الآخرة باقية أبداً ، والتعب فيها غير موقوت

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوْسِيًّا <sup>(٢)</sup> وَانْهَارًا <sup>(٣)</sup> وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوَجَيْنِ <sup>(٤)</sup> انْتَيْنِ يُغْشَى <sup>(٥)</sup> اللَّيْلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

ويتابع الحق سبحانه سرِّد آياته الكونية في هذه الآية

﴿ مَدَّ الْأَرْضَ . (٢٠) ﴾

[الرعد]

يعنى أنها موحودة أمامك ومُتَّدَّة ، وبعض الناس يفهمون المَدَّ بمعنى البسط ، ونقول إن البسط تابع للمدِّ

(١) عصفت الريح اشد هبوبها والريح العاصف أحياناً تدمر كل شيء تمر عليه [ القاموس القويم ٢٢/٢ ]

(٢) الرواسي الجبال لأنها تثبت الأرض فتستقر ولا تسيل [ لسان العرب - مادة رسا ]  
(٣) غشيت الشيء تغطيه إذا غطيته [ لسان العرب - مادة غشى ] قال ابن كثير في تفسيره ( ٥٠٠/٢ ) : أى جعل كلا منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً فإذا ذهب هذا غشي هذا ، وإذا انقضى هذا جاء الآخر ،

ولذلك وقف بعض العلماء وقالوا ومن قال إن الأرض كروية ؟

إن الحق سبحانه قال إنها مبسوطة ، وهو سبحانه الذى قال  
إنه قد مدَّ الأرض .

وقلتُ لهؤلاء العلماء فلأنفهم كلمة المدَّ أولاً ، وكلفهم أيضاً كلمة  
« الأرض » وهى التى تقف عليها أنت وغيرك ، وتعيش عليها  
الكائنات ، وتمتد شمالاً إلى القطب الشمالى ، وجنوباً إلى القطب  
الجنوبى ، أيًا ما كنْتَ فى أىِّ موقعٍ فهى ممدودة شرقاً وغرباً

ومعنى

﴿ مدَّ الأرض . ﴾ (٣) [المراد]

تعنى أنك إن رُقِلْتَ فى مكانٍ وتقدمت منه تجد الأرض ممدودة  
أمامك ولا توجد حافة تنتهى لها . ولو أنها كانت مبسوطة لكان لها  
نهاية ، ولكانت على شكل مُثلَّث أو مُربَّع أو مُستطيل ، ولكان لها  
حافة ، ولوجدنا مَنْ يسير إلى تلك الحافة ، وهو يقول : لقد وصلتُ  
لحافة الأرض ، وأمامى الفراغ ، ولم يحدث أن قال ذلك واحد من  
البشر

وإذا ما سار إنسان على خط الاستواء مثلاً ، فسيظل ماشياً على  
البياسة أو راكباً لمركب تقطع به البحر أو المحيط لنصل إلى نفس  
النقطة التى بدأ منها سيره

وهكذا نجد الأرض ممدودة غير محدودة ، لا يكون ذلك إلا إذا  
كانت لأرض مَكْوَرَة ، بحيث إذا مشيت مُتَّبِعاً أىَّ خطٍ من خطوط  
العرض أو خطوط الطول لانتَهت إلى النقطة التى بدأت منها سيرك .

وكان هذا هو الدليل الذى يقدمه العلماء على كروية الأرض ، فبين  
أن يَخْتَرَعُوا فكرة التصوير من خارج الغلاف الجوى

وبأحد من قول الحق سبحانه :

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ .. (٣)﴾

[الرحمن]

معنى آخر هو ضرورة أن ينظر الإنسان في هذا الامتداد ، ومن تضيق به الحياة في مكان يمكنه أن يرحل إلى مكان آخر ، فأرض الله واسعة ، والحق سبحانه هو القائل

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧)﴾

[النساء]

ونعلم أن فساد العالم في زمننا إنما ينشأ من فساد السياسات ، وزيادة الاضطرابات ، وذلك واحد من نتائج تعويق مد الأرض ، فساعة يحاول إنسان أن يترك حدود موطنه يجد الحراسات والعوائق عند حدود البلاد المجاورة ، وتقاسى الجميع قُرْل الحق سبحانه

﴿وَالْأَرْضُ وَجْهًا لِلْأُنَامِ (١٠)﴾

[الرحمن]

فسبحانه قد سَحَّرَ الأرض وأخضعها للأنام كل الأنام<sup>(١)</sup> ، وإذا لم يتحقق هذا المبدأ القرآني ، سيظل العالم في صراع ، وستظل بعض من البلاد في حاجة للبشر ، وبعض من البلاد في صيق من الرزق ، لزيادة السكان عن إمكانات الأرض التي يعيشون عليها

وستظل هناك أرض بلا رجال ، ورجال بلا أرض ، نتيجة للحواجز المصطنعة بين البلاد

(١) الاسم ما ظهر على الأرض من جميع الملق وقال المفسرون هم الجار والإنس [لسان العرب - مادة أنم] قال ابن كثير في تفسيره ( ٢٧ / ٤ ) « أي كما دفع السماء وضع الأرض ومهدا وأرساها بالخيال الراسيات الشامخات لتستقر لها على وجهها من الأنام وهم المخلوق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم والستهم في سائر أقطارها ووجاهتها ،

وحتى تُحل هذه القضية - كما قلنا في الامم المتحدة - لا بد من  
تصديق المبدأ القرآني

﴿وَالْأَرْضُ وَجَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝﴾ [الرحمن]

ومن تصديق به الأرض التي نشأ فيها فيسمح له بالهجرة  
وينابيع سبحانه في نفس الآية .

﴿وَجَمَلٌ فِيهَا رَوَاسٍ وَأَنْهَارًا .. ۝﴾ [الرعد]

والرواسي هي جمع « رأس » وهو الشيء الثابت  
وسبحانه يقول

﴿وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا ۝﴾ [المرمات]

وهكذا جاء الحق بالحكم الذي شاء أن تكون عليه الجبال ، وهي  
آية أخرى يأتينا الله بعلّة كونها رواسي ، فيقول

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تُمِيدَ بِهِمْ .. ۝﴾ [الاسماء]

أي لا تضطرب بكم الأرض ، ولو كانت الأرض محفوفة على  
هيئة الثبات ، لما احتجنا إلى الجبال الرواسي كي تُثَبِّتْ . ولكن  
الأرض مخلوقة متحركة ، وهي عُزْصَة للاضطراب ، ولولا الجبال  
ارواسي لَمَاتِ الأرض .

ولسائل أن يقول : ولكننا نقطع الآن الجبال ، ونأخذ الجرانيت من  
جبل لُسُزَيْنَ به أرضية بعض المناطق ، ونقطع الرخام من جبل آخر  
لنصنع منه حمامات واحوضاً ودرجات السلالم ، ونقطع بعض  
أحجار أنواع معينة من الجبال ، نستخلص اليورانيوم منها ؟

ونقول انظر إلى حكمة الحق تبارك وتعالى حين خلق ، وحكمت حين دبر ، فهذه الأرض لها محيط ، ولها مركز ، ولها أقطار ، وكلما اقتربت من مركز الأرض فالقصر يقل

ومثال هذا هو البطيخة ، فانت إن استخلصت القشرة الخارجية لها يكون لديك كرة من القشرة الخضراء ، وكرة أخرى من مكونات البطيخة التي ناكلها ، ولو استخلصت كرة أخرى من مكونات الالياف الحمراء التي تتكون منها البطيخة ، لصار عندك كرة أخرى ، ولصار قطر الكرة الحديدية أصغر بطبيعة الحال من الكرة الخضراء

وكلما استخلصت كريات أخرى من مكونات البطيخة ، صغرت الأقطار ، لأنك تقترب من مركز الدائرة ، والمحيط الأحضر الذي يحيط بالبطيخة وهو القشرة ، يشبه المحيط الذي يوحده على الكرة الأرضية ، وهذه القشرة التي توجد حول الكرة الأرضية صلبة ، أما ما بداخل الأرض وجوفها ، فهو مكون من أشياء ومواد متعددة ، منها ما هو سائل ومنها ما هو صلب .

وكلما اقتربنا من مركز الأرض وحسبنا ارتفاعاً في درجة الحرارة ، وتدلنا على ذلك كتل الحُمم التي تخرج فورة من فوهات البراكين ، وهي حُمم ذات حرارة مرتفعة للغاية ، وهي حُمم مُخرقة

وقد شاء الحق سبحانه أن يجعل بطن الأرض سائلاً ، رحمة بنا ، ذلك أننا حين نبنى بيوتاً أو نقطع أحجاراً من الحبل ، أو نستخدم مكونات الجبال في أي غرض ، إنما ننقل بعضاً من مكونات الأرض من موقع إلى آخر

وحين ينقل ثقل من مكان على سطح الأرض إلى مكان آخر ،

فالسائل الذي في باطن الأرض يستقل من المنطقة التي زاد عليها النقل إلى المنطقة التي خَفَّ من فوقها الثقل ليتحقق التوازن ، ولو لم يحدث ذلك لَتَسَاوَتْ العِمَارَاتُ الشاهقة التي نراها أثناء دوران الأرض

والمُثَرُّ الذي يُوَضَّحُ ذلك أنك لو وضعت قطعة من العجين على سطح بطيخة أو كرة ، وجعلت البطيخة أو الكرة في حالة دوران لطردت الكرة أو البطيخة قطعة لعجين من على سطحها

وقد شرح العلماء في « علم الحركة » ذلك فقالوا : إن كل شيء مستدير يتحرك ، إنما تنشأ عن حركته عملية اسمها الطرد الذاتي ، لأن قطعة العجين أو أى شيء نفسه على شيء مستدير يتحرك تكون له كثافة وثقل على المنطقة التي يوجد فيها ، ويصل هذا الثقل إلى المركز ، ولكن تستمر الحركة الدائرية متوازنة لا بد أن يطرد الشيء المستدير ما فوقه من ثقل ذات

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يجعل نصف الكرة الأرضية من أى موقع تتحرك ، متساوياً في الوزن مع النصف الآخر ، ومهما أخذت من مواد ونقلتها من موقع إلى آخر ، فالوزن يتعادل نتيجة لحركة السوائل التي في بطن الأرض .

وهذا يدل على عظمة الخالق الذي خلق متديراً دقيق ، ويكفي أن ننظر إلى عظمة الحق الذي لم يجعل الجبال رواسب ليعن الأرض من أن تميد بنا ، بل جعل في الجبال والصحاري ما استنجدنا به حين ضاقت الأرض بنا ، فذهب إلى الجبال لنستخرج منها المواد الخام ، ونصّرها ، ثم نشترى بثمنها التمتع

ونرى من حولنا الصحارى حيث كان المقيمون فيها يلهثون قدسياً  
من العطش ، ولا يجدون شجرة يستظلون بها ، فيفجرُ فيها الحق آبار  
البترو

وهكذا نرى أن كل قطاع من الأرض فيه خيرٌ مُساوٍ لاي قطاع  
آخر من الأرض ، وجعل الله لكل أمرٍ زمناً يمكن للبشر أن يستفيدوا  
من هذا الأمر في تلك الزمن

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول في الجبال

﴿قُلْ أَنتَكُم لَكَفَرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً﴾<sup>(١)</sup>  
ذلك ربُّ العالمين (٩) وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها  
أفلاكها<sup>(٢)</sup> في أربعة أيامٍ سواءً للسائلين (١٠) ﴿[مسلت]

أي أنه سبحانه بارك في الجبال ، وهي جزء من الأرض وشاء  
أن يُقدر الأفلاك في الجبال والأرض ، ويكفي أن نعلم أن المطر حين  
يتساقط من السماء على الجبال ، فيحمل المطر بعضاً من الطمي من  
على أسطح تلك الجبال ، فتتجدد خصوبة الأرض .

ولو كانت الجبال هشةً لذابت الجبال من عدد قليل من مرات  
سقوط المطر ، ولذابت القشرة الخصبة التي تُغذي النبات حين مزرعه  
في الأرض

(١) المد المتل والنظير ، وجمعه أنداد قال تعالى ﴿وجعلوا له أنداداً﴾ (٣٥) ﴿[إبراهيم]

أي أمثلاً شركاء [ القاموس القويم ٢/ ٢٥٧ ]

(٢) القوات الطعام يحفظ على البس حياته وجمعه ، قوات ، قال تعالى ﴿وقدر فيها أفرانها

في أربعة أيام﴾ [مسلت] أي قوات جميع سكان الأرض من إنسان وحيوان وكل

شيء من إلى آخر الدهر [ القاموس القويم ٢/ ١٢٦ ]



ولكنه سبحانه شاء أن تمر الظروف الجوية باختلافها وتنوعها في  
تتابع يوفر من الحرارة والرطوبة ما يجعل الأرض تتشقق ، فيصير  
سطح الجبال الصلبة هشاً لينزل مع المطر ؛ وليغذي الأرض  
بالخصوبة من أجل أن يستمر استبقاء الحياة بإنتاج ما نحتاجه من  
نباتات مزروعة

ونلاحظ قوله سبحانه في نفس الآية :

﴿ وَجَعَلْ فِيهَا رَوَاسِيَ رَوَاسِي وَأَنْهَارًا - (٣) ﴾

[الرعد]

وهذا يجمع الحق بين الرواسي وهي الثوابت ، وبين الأنهار وهي  
التي تحمل الماء السائل ، وهذا جمع بين الأضداد .

والنهر يطلق على ما يحمل المياه العذبة أما البحر فهو المكون  
من الماء المالح ، وأنت إذا استعرضت أنهار الدنيا كلها ستجد أن  
مجاريها تصب في البحار ، وهذا دليل على أن منسوب النهر أعلى  
دائماً من منسوب البحر ، ولو كان الأمر بالعكس ، لطفى ماء البحر  
على مياه النهر ، ولما استمتعنا أن نشرب أو نزرع

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يجمع الماء العذب هو الأعلى ، لأن  
له مهمة يؤديها قبل أن يصب في البحر . أقول ذلك حتى يعلم الحكمة  
في قول الحق سبحانه

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْخٌ<sup>(١)</sup> لَا يَبْغِيَانِ (٤) ﴾

[الرحمن]

(١) البرخ الحاجز بين الشيكين ، والله تعالى جعل بين البحرين حاجزاً من الأرض يحجز كلا  
منهما من مجراه فلا يبغي ولا يطفئ على الآخر ، فهو يمزجهما حين يلتقيان فلا يبغي  
العذب عذباً على المالح من الأرض بدرج قبل التقلبهما ويحفظ كلا منهما في مجراه  
[ القاسوس للتوحيه ٦٢/١ ]

ومن العجيب أن البرزخ الذي يفصل بين النهر والبحر يكون انسيابياً ، يتدرج نزول مياه النهر في مياه البحر بما يُحقّق سهولة في هذا الانتقال ، ومن لعجيب أيضاً أنك إن حفرت عند شاطئ البحر قد تمش على الماء العذب

ولذلك حين نزرع العريش نجد شاطئاً باسم شاطئ النخيل ، ونحس نعلم أن النخيل يحتاج إلى الماء العذب ، وكان الحق سبحانه قد جعل في هذا النخيل خاصية استخلاص الماء العذب من هذا المكان الذي يوجد على البحر ، وقد تكون له جداول عدة

فسبحانه القائل

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعٌ فِي الْأَرْضِ ۚ ۞ ﴾ (٢١)

ومن في الريف نجد من يحفر بئراً ويكون مأواه عذماً وآخر يحفر بئراً ويكون مأواه مالحة وهذا دليل على أن الماء في بطن الأرض غير مختلط ، بل لكل ماء مسار<sup>(١)</sup> تختلف باختلاف نوعية المياه

ويُرتَّب الحق سبحانه في نفس الآية مجيء الثمرات كنتيجة على وجود الثابت - الجبال - كمصدر للغرين<sup>(٢)</sup> وخصوبة الأرض وعلى وجود الانهيار التي تحمل اماء الأرض لبرى ، وهكذا يكون مجيء الثمرات أمراً طبيعياً

(١) ينابيع جمع ينوع وهو من ينح الماء إما جرى من العين ، أى تنجّر والينبوع الجدول الكثير الماء [ لسان العرب - مادة ينبع ]

(٢) المغرب الطريق والمسلك [ لسان العرب - مادة مغرب ]

(٣) الغرين ما بقي من أسفل الحوض والتغير من الماء أو الطين قل الاسمى الغرين أن يجيء الغيل فيثبت على الأرض ، فإذا جف رأيت الطين رقيقاً على وجه الأرض قد تشقق

[ لسان العرب - مادة غرن ]

والثمرة كما نعلم هي الغاية من أى زرع

وهي نفس الآية يواصل الحق ذكر عطائه ، فيقول سبحانه

﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوْحَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٢)﴾ [الرعد]

ويستعمل البعض كلمة « روج » ويراد به شيتين كقولنا « روج أحذية » مع أن التعبير الدقيق يقتضى أن نقول « روجان من الأحذية » كتوصيف لفردة حذاء يُمْنَى وفردة حذاء يُسْرَى ، لأن كلمة « روج » مفرد ، وتستخدم فى الشيء الذى له مثل ، ولذلك نحدد العدد الفردى والعدد الزوجى ، والعدد الزوجى مُفْرَد له مثيل ، وفى الإنسان هو الذكر والأنثى

وسبحانه المقاتل

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ (١٩)﴾ [الدريث]

ويخطئ الناس أيضاً فى فهم كلمة التوأم ، ويظنون أنها تعنى الاثنين اللذين يولدان معاً ، ولكن المعنى الدقيق للتوأم وهو الفرد الذى يُولَد مع آخر ، ويقال لأثنين معاً «الدوامان» .

وهنا يقول الحق سبحانه -

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسٍ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوْحَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٣)﴾ [الرعد]

ولم يخلق الحق سبحانه أى شئ إلا وشاء له أن يتكاثر ، مصداقاً لقول الحق سبحانه

﴿سَبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس]

وَكُلُّ نَكَاثٍ إِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى رَوْحَيْنِ ، وَكَمَا نَعْتَقِدُ قَدِيمًا أَنَّ النَكَاثِرَ يحدث فقط فى النبات ، مثلما تُلقَح النخلة بالذكر ، وفى الحيوان يخصب الفحل الانثى ، ثم كشف لنا العلم بعد ذلك أن الكهرباء - على سبيل لمثال لا لحصر - تتكون من سالب وموجب وغير ذلك كثير ، وكل ما قدمه العلم من كشوف يؤيد صدقه سبحانه

﴿سَبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا .. (٣٦)﴾ [يس]

ويتابع سبحانه فى نفس الآية

﴿يَمْشِي<sup>(١)</sup> اللَّيْلُ النَّهَارَ .. (٣٧)﴾ [الرحمن]

أى ، أن تاتى الظلمة على النهار فتعطيه ، وهو القائل فى موقع آخر من القرآن

﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. (١٢)﴾ [الإسراء]

وذلك تحقيقاً لمشيبته التى قالها ،

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ حُلُفَةً<sup>(٢)</sup> (٦٤)﴾ [الفرقان]

وإن سأل سائل هل الليل هو الذى خلق أولاً أم النهار ؟

أقول نحن نرى الآن الليل والنهار ، كُلُّ منهما يُؤَدِّى مَهْمَتَهُ فى نصف ما فى الكرة الأرضية ، وكل منهما يحلف الآخر ، ولا بد أن الأمر كذلك من أول الخلق

(١) أى يجعل الليل يمشى النهار ويعطيه بظلامه [ القاموس القويم ٥٥/٢ ]

(٢) الحلفة اسم مصدر بمعنى الاختلاف ، أو مصدر خلف جاء بعده ليعمل محله أى أن الليل والنهار يحلف كل منهما من الآخر طويلاً وقصراً ، أى يخلف كل منهما الآخر ويأتي بعده [ القاموس القويم ٢٠٦/١ ]

فإن كان سبحانه قد أوجد الأرض مبسوطة وفي مواجهتها الشمس ، لكان النهار هو الأسبق في الخلق ، وإن كان قد خلق الشمس غير مواجهة للأرض ، يكون الليل هو الذي سبق النهار في الخلق

وبوضح الحق سبحانه هذا الأمر قليلاً في سورة يس حين يقول :

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٤٠) [يس]

وكان العرب قديماً يظنون أن الليل هو الذي سبق النهار في الخلق ، لأنهم كانوا يؤرخون الشهور بالقمر ، فيدخل الشهر بليته لا بفهاره . ونحن نعلم أن رمضان ياتيأ بأول ليلة فيه ،

وقد أوضح الحق سبحانه لهم على قدر معرفتهم ، ثم ثبت لنا أن الليل والنهار قد وُجدا في وقت واحد بعد أن وضحت لنا أن صورة الأرض كروية ، وأنه سبحانه قد خلقها كذلك ، فما واجه الشمس كان بهاراً وما غابت عنه الشمس كان ليلاً ، ويختلف كل منهما الآخر

ومكذا وضُح لنا أنهما موجودان في آن واحد .

ويُبدل الحق سبحانه الآية لكرمة بقوله

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١) [الرعد]

أي أن على الإنسان مسئولية التفكير فيما يراه من حوله ليصن إلى لبُ الحقائق .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجِئَتْ مِنْ اعْتَصَبٍ وَرَزَقٌ وَنَحِيلٌ  
صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفِضُلٌ نَعَضُّهَا عَلَى نَعَضٍ فِي  
لَأَكُلُ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

هذه الآية جاءت بشيء من التفصيل لقول الحق سبحانه في أوامر  
سورة يوسف

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا  
مَعْرُضُونَ﴾ (١٠٠)

[يوسف]

وتلك آية تنضم إلى قوله تعالى

﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِعَمْرِىَ عَمْدٍ تَرَوْنَهَا﴾ (٢٠)

[الرعد]

وتنضم إلى

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفْعَلُ الْآيَاتُ ..﴾ (٢٠)

[الرعد]

وتنضم إلى قوله سبحانه

﴿وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْاسٍ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ  
جَعَلَ فِيهَا رِوْجِينَ انْثِينَ يُفْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ..﴾ (٣٠)

[الرعد]

وحين نتأمل قول الحق سبحانه

(١) لَمَسُو ( يكسر الصاد وضمتها ) العثى ، إذا طعن للثقل أو أكثر من المخل أو الشجر من  
أصل واحد ، قيل لكل واحد منهما ستر والجمع حدران ( بضم الصاد وكسرهما )  
[ القاموس القويم ١/ ٣٨٤ ]

﴿ وَهِيَ الْأَرْضُ قُطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ۖ ۝ (٤) ﴾ [الرعد]

يحدُّ أسما لا يستطيع أن يعرفها، بأنها التي يعيش عليها أمثالنا ،  
تلك هي الأرض ، ولو أردنا تعريفها لأبهمناها ، فهي أوضح من أن  
تُعرَّف

وكلمة « قطع » تدلُّ أول ما تدلُّ على « كل » ينقسم إلى أجزاء ،  
وهذا الكلُّ هو جنس جامع للكلية ، وفيه خصوصية تميز قطع عن  
قطع

وأنت تسمع كلام العلماء عن وجود مناطق من الأرض تُسمَّى  
جرام القمح ، ومناطق أخرى تُسمَّى حرام المور ، ومناطق حارة ،  
وحرى باردة

وقول الحق سبحانه

﴿ قُطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ۖ ۝ (٤) ﴾ [الرعد]

هو قول يدل على الإعجاز ، فعلى الرغم من أنها متجاورات إلا أن  
كلًّا منها تناسب الطقس الذي توجد فيه ، فزراعة الذرة تحتاج مناخاً  
مُعِيناً ، وكذلك زراعة المور

وهكذا نجد كل منطقة مناسبة لم تنتجها ، فالأرض ليست عجبة  
وحدة ستطراقية ، لا بل هي تربة مناسبة للجو الذي توجد به

ومن العجيب أن فيها الأسرار التي يحتاجها الإنسان ، هذا السيد  
الذي تحسّمه كل الكائنات ، فليست الأرض سائلة في التماسل بل  
تختلف بما يناسب الظروف ، فهناك قطعة سيخنة لا تنبت ، وأخرى  
خصبة تنبت

بل وتختلف الخصوبة من موقع إلى آخر ، ومن قطعه إلى أخرى ، فثمرة الجوافة من شجرة معينة في منطقة معينة تختلف عن ثمرة الجوافة من شجرة في منطقة أخرى ؛ والقمح في منطقة معينة يختلف عن القمح في منطقة أخرى ، ويقال لك « إنه قمح فلان » .

ويحدث ذلك رغم أن الأرض تُسقى بماء واحد .

ويقول العلماء البعيدون عن منطق السماء ، إن السبب في الاختلاف هو عملية الاختيار والانحياز ، وكأنهم لا يعرفون أن الاختيار يتطلب مُختاراً وأن يكون له عقل يُفكر به يختار ، وكذلك الانتحاب فهل النُذِيرَاتُ تمك عقلاً تُفكر به ونختار ؟ طبعاً لا

ويقولون إن النبات ينغذى بالخاصية الشعرية ، ونعلم أن الأنايب الشعرية التي نراها في المعاصر تكون من الزجاج الرفيع ، وإذا وضعناها في حوض ماء ، فالماء يرتفع فيها على مستوى الإناء

وإن صدّقنا العلماء في ذلك فكيف نُصدّقهم في أن شجرة ما تأخذ ماءً مثل الشجرة الأخرى ، وتنتج كل منهما نفس الثمار ، لكن ثمار شجرة تختلف عن الأخرى في الطعم ؟

ونقول إن كل شجرة تأخذ من الأرض ما يقعها ، ولذلك تختلف النباتات ، ويحدث كل ذلك بقدره الذي قدّر فهدى

وهكذا نرى الأرض قطعاً متجاورات ، منها ما يصلح لزراعة تختلف عن راعه الأرض الأخرى

وقد يقول بعض من لملاحدة إن هذا الاختلاف بسبب الطبيعة والبيئة



وهؤلاء يتجاهلون أن الطبيعة في مجموعها هي الشمس التي تعطي لصوء والحرارة والإشعاع ، والقمر أيضاً يعكس بعضاً من الصوء ، والفجوم تهدى من يسير في الفلاة<sup>(١)</sup> ، وتيارات الهواء تتناوب ولها مسارات ومواعيد .

ورغم كل ذلك فهناك أرض خصبة تنتج ، وأرض سبحة لا تنتج ، وأرض حمراء ، وأخرى سوداء ، وثالثة رمية ، وكلها متجاورة

لا بد إذن من وجود فاعل محقار يأمر هذه أمراً مختلفاً عن تلك .

ويتابع الحق سبحانه في نفس الآية

﴿وَحَنَاتٍ مِّنْ أَغَابٍ وَزُرْعٍ وَغُلٍّ صَوَّانٍ وَعَبْرٌ صَوَّانٍ .﴾ (٤٤)  
[الرعد]

وجاء الحق سبحانه هنا بالمُرْقَهَاتِ أولاً متحدث عن العاكهة ، ثم تحدث عن الزرع الذي منه القوت الأساسي ، ونحن في حياتنا نفعل ذلك ، فحين ندخ على مائدة أحد الكبار ، نجد العاكهة مُعدة على أطلاق بجانب المائدة الرئيسية التي يُقدَّم عليها الطعام

وبأتى الحق سبحانه بعد الأغاب والزرع الذي منه القوت الضروري بالنحير ، وهو الذي ينتج غذاء ، وقد يكون التمر الذي ينتجه ثمرًا يتناوله الإنسان بعد تناول الطعام الضروري

وقول الحق سبحانه

﴿صَوَّانٌ وَعَبْرٌ صَوَّانٌ .﴾ (٤٤)  
[الرعد]

(١) الفلاة القمر من الأرض التي لا ماء بها ولا أبيض والعلاء المسيرة وقين هي الصحراء الواسعة [لسن العرب مادة فلا ]

يتطلب منا أن نعرف ما لصنواں ، ونجد الرسول ﷺ يقول  
« العم صنو أنيك »<sup>(١)</sup> أى أن الصنؤ هو العنل

وبهذا يكون معنى الصنؤان هو المثال ونرى ذلك واضحاً فى  
التحليل ، فنرى أحياناً اصلاً واحداً يخرج منه ثلاثون ، أو ثلاث  
محلات واحداً يخرج من الأصل الواحد ربع أو خمس محلات

ونطلق لقب « الصنواں » على الأصل الواحد الذى ينفرع إلى  
خلفتين أو أكثر ، فكلمة « صنواں » تصلح للمثنى والجمع ، ولكنها  
فى حالة المعنى تعامل فى إعراب كالمثنى فنقال « انثرت صنواں »  
و « رأيت صنوين » أما فى حالة الجمع فيقال « رأيت صدواذا »  
و « مررت بصواں » والمفرد طبعاً هو « صنو »

ويقول سبحانه ها فى الآية التى نحن بصدد خواطرننا عنها

﴿ وَحُتَابٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَرِزْقٍ وَجْهِلٍّ صَوَانٍ وَغَيْرِ صَوَانٍ يُسْفَى بِمَاءٍ  
وَاحِدٍ وَنُفْصِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأَكْثَرِ .. ﴾ (١٤)

من العناب أن كل شجرة تأخذ عنر جذورها كميها من الماء  
والغذاء اللازم لإنتاج ثمار ذات شكل وطعم مختلف

وهذا ما جعلنا نقول من قبل إن امتصاصات العلماء المتخصصين  
فى علوم النبات عن أن النباتات تتعدى خاصية لاساليب الشعرية هو  
افتراض غير دقيق

فلو كان الأمر كذلك لأخذت الأدبيات الشعرية الخاصة بنبات

(١) أخرج مسلم فى صحيحه ( ١٨٢ ) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال لعمر  
رضى الله عنه « يا عمر أما شعرت أن عم الرجل صنو أمه » وكذا أخرجه أحمد فى مسنده  
( ٣٢٧/٢ )

المواد التي أخذتها الانابيب الشعرية الخاصة بنبات آخر والأمر ليس كذلك ، فكل نبات يأخذ من الأرض ما يخصه فقط ، ويترك ما عدا ذلك

ذلك أن الثمار لكل نبات تختلف ولا تتشابه ، بل إن الشجرة الواحدة تختلف ثمارها من واحدة إلى أخرى

مثال هذا هو شجرة امانحو أو اسخلة المثمرة ، ويمكنك أن تلاحظ نفسك ، وسترى أنك سيقى من ثمار امانحو القادمه من شجرة واحدة ما يعجبك وترفض غيرها من الثمار وسترى أنك تتلقى من ثمار البلح القادم من شجرة واحدة ما يروق لك وترفض بعضاً من ثمار نفس الشجرة

وحين تذهب لشراء الفاكهة ، فأنت تشتري حسب موقعك من الانجار فإن كنت تحب الانجار فسوف تشتري الفاكهة التي من الدرجة الثانية ، وإذا كنت تحب أن تستمتع بالطيب من تلك الفاكهة فسوف تشتري من الفاكهة اعتميرة

وأتحدى أن يقب واحد أسام قصص الفاكهة ، ويتلقى الثمار غير جميلة لشكل والرواق ، بل يحاول كل إنسان أن يأخذ الحملي والطيب من تلك الفاكهة ، حين يدفع ثمن ما يشتري سنجده يدفع النقود الورقية القديمة التي توجد في جيبه ، وسيحتفظ لنفسه بالنقود الحديثة

وهذا الموقف يغلب على مواقف أي إنسان فهو مقبل دائماً على رفض أخذ السوء ، وخائف دائماً على التهريب في الحس

(١) اربوق الصماء والحس [إنسان العرب - مادة ربق]

والحق سبحانه يقول

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لأَمْْسِكُمْ حَشِيَّةَ الْإِنْفَاقِ ..﴾  
(٦٠) ﴿[الاسراء]

وأنت لا تجد في الثمار تشابهاً بل اختلافاً في الطعم من نوع إلى نوع ، كذلك تجد اختلافاً في طريقة تناولها : فلا أحد مثلاً يأكل البطيخ بكاملها بل يأكل ثمرة البطيخ بعد أن تُخرج منها النواة ، وتأكل ثمرة التين بأكملها . ويخرج ما في قلب حبة المشمش من بذر جامده ، ثم تأكل المشمشة من بعد ذلك .

فكل ثمرة لها نظام خاص ، وليست مسألة ميكانيكية في عطاء هذه الثمار مشاهدتها ، بل هناك اختلاف ، ويمتد هذا الاختلاف إلى أدق التفاصيل ، لدرجة أنك حين تتناول قطعاً من العنب تجد اختلافاً لبعض من حبات العنب عن غيرها

ونحن لا نُفضلُ بعضاً من الفاكهة على البعض الآخر في الأكل فقط بل نُفضلُ في الصنف الواحد بعضاً من ثماره عن البعض الآخر وحين تقرأ

﴿يُفْضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ..﴾ (٤) ﴿[الاحزاب]

نأعلم أنه لا يوجد شيء أو أمر مُفضل على إطلاقه وأمر أحمر مفضل على إطلاقه ، فما دُمنا نُفضلُ بعضه على البعض الآخر فهذا يعني أن كلا منهما مُفضل في ناحية ، ومفضل عليه في ناحية أخرى

والمثل الواضح أمامنا جميعاً أننا حين ندخل لمائدة عشاءنا نأخذ الرومي قد نجد يدك تتجه إلى طبق « المحار » قبل أن تمتد يدك إلى الديك الرومي ، لأن « نفسك » قد طلبت أولاً ، فلا نقول إن هناك

شيئاً مفصلاً عليه طوال الوقت ، أو شيئاً مفصلاً كل الوقت .

وكذلك الناس ، إياك أن تضمن أن هناك إنساناً فاصلاً على إطلاقه ،  
وأخر مفصلاً على إطلاقه ، بل هناك إنسان فاصر في ناحية ،  
ومفصول عنه في ناحية أخرى

والمثل هو صاحب السيارة الفارعة ، ثم ينفجر إطار سيارته ؛  
فيتمنى أن يبرقه الله بمرءٍ يمرُّ عليه ليقوم بتغيير إطار السيارة ، فيمرُّ  
عليه هذا الإنسان صاحب الملابس غير النظيفة بما عليها من شحوم ،  
فيكون هذا الإنسان أفضل منه في قدرته على فكِّ الإصار لمفجر  
بالإطار السليم الاحتياطي

وهكذا نشر الله الفضل على الناس ليجتاح بعضهم لبعض ، ولذلك  
أقول حين تحد نفسك فاصلاً في ناحية إياك أن تقع في انغور ،  
واسأل نفسك ما الذي يفضّل عليك فيه غيرك ؟

وتذكّر قول الحق سبحانه

﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ  
عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ۚ ۝ (١١) ﴾

[الحجرات]

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يوزّع الفضل بين الناس ، ليجتاح  
كل منهم الآخر ، وليتكامل المجتمع ، وكذلك وزّع سبحانه الفضل في  
الاطعمة واللواكح والثمار ، وانظر إلى نفسك لحظة أن تُقدّم لك  
أنصاف متعددة من الفاكهة ، فقد تأخذ ثمرة من الجميز قبل أن تأخذ  
ثمرة من التفاح ، فساعة طلبت نفسك ثمرة الجميز صارت في تقدير  
الموازين والتبادل هي الأفضل ، وكل إنسان يمكن أن يجد ذلك فيما  
يُخصّه أو يُحبه .

ولحق سبحانه هو القائل

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٢٨) [الرعد]

ولذلك نجد للإنسان وهو يُلَوَّن ويَفْقَر في صناعة الطعام ،  
ويختلف إقبال الأفراء على الأطعمة المُنَوَّعة ، وقد تجد اثنين يُقبلان  
على لحم الدجاج ، لكن أحدهما يُفضِّل لحم الصدر ، والآخر يُفضِّل  
لحم « الورك » ، وتجد ثالثاً يُفضِّل لحم الحمام ، وتجد رابعاً يُفضِّل  
سور السمك

بل إنك تجد اختلافاً في طريقة تناول من يحبون السمك ، فبعضهم  
من يحب أكل رأس السمكة ، ومنهم من يحب لحم السمكة نفسها .  
ولا أحد يملك معرفة السبب في اختلاف الامرجة في الانجذاب إلى  
ألوان المختلفة من الأطعمة

وحين تتأمل تلك المسائل قد يأتى إلى خاضرك قول الحق  
سبحانه

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ (٢٨) [البقرة]

والسؤال هنا من الله للنعجب ، ولتعجب عادة يكون من شيء ،  
خفى سببه ، فهل يخفى سبب على الله ليعجب ؟  
طبعاً لا ، فسببانه مُنْزَه من ذلك وسببانه يعلم سبب كفر  
الكافرين ، لكنه يكرر عليهم أسباب الكفر .

والمثل من حياتنا - والله المسترُّ الأعلى - أنت تجد نفسك وأنت  
تنطق بكلمة « كيف تسبُّ أناك » ، لإنسان يوجه كلمات حارحة  
لوالده ، فتعجب بشكر ما معه هذا الإنسان

وكذلك اقول كيف تكفرون بالله ، لان الكفر شيء لا يتأتى من عاقل وكان لنا شديح هو فصيلة العالم أحمد لطويل ، وكان يحدثنا عن شيخ له حين كان يقرأ قول الحق سبحانه

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ . (٢٨) ﴾ [البقرة]

كان يقول إن الخطاب من عام لكل إنسان لأن الحق بعد ما يأتى بالقضية العامة

﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَئًا فَاحْيَاكُمْ .. (٢٨) ﴾ [البقرة]

وهذا لقول للعموم وكان شيخنا يحكى عن شيخه انه سئل ان انسانا كان مسرفا على نفسه ، ثم انصرفت عليه الهداية مرة واحدة ورده كل من حوله وهو مقبل على الله ، فسألوه عن سبب الهداية ، فقال

كنت اجلس في سجن ثم راق لي عنقود من العنب فخطفت العنقود واحدت اتأمل فيه ، فوجدت عشاء رقيقا شهاغا - وهو قشره حبة العنب - بشفا عما تحته من لحم العنبه الممتلىء بالعصير

وحين وصعت حبة العنب في فمي ، سارت ماء رطباً ، واخذني العجب من احتفاظ حبة العنب ببرودتها ورطوبتها رغم حراره جو شهر يؤونة ، ثم وجدت بذرة الحبة ولها طعم المسك ، فلما عمري انصروا من طعم وجمال لعنب سمعت مائها يهتف بي " كيف تكفر بالله وهو خالق لعنب ؟ " فهتفت " يا رب ان اومن بك

وكل مد به ان ينظر إلى شيء يعجبه ، وسيجد اشياء كانه يقول له كيف تكفر بالله وهو خالقى " وهكذا سنجد كل انسان وهو

مُخَاصِبٍ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ ، لِأَنَّهُ مَ مِنْ كَائِنٍ إِلَّا وَلَهُ شَيْءٌ يَعْجِبُهُ فِي الْكَوْنِ .

وَمَكْنَا نَفْهَمُ مَعْنَى قَوْلِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ

﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ..﴾ (٤٠) [الرعد]

وَسَجَدَ أَيْ شَيْءٌ هُوَ مُفَضَّلٌ فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَمُطْلَبٌ ، وَكُلُّ شَيْءٍ مُعْضُولٌ عَلَيْهِ فِي وَقْتِ مَا ؛ وَإِنْ كَانَ فَاصِلًا عِنْدَ مَنْ يَحْتَاجُهُ . وَبَعْدَ أَنْ التَّفْضِيلُ هَبَّ عِنْدَ الْأَكْلِ .

وَلَاكُلُّ هُوَ مَا يُؤْكَلُ ، لَا الْآنَ فَقَطْ إِنَّمَا مَا يُؤْكَلُ الْآنَ أَوْ بَعْدَ ذَلِكَ، رَسْمَانَهُ الْقَائِلُ

﴿كَمِثْلٍ حَنْتَ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ<sup>(١)</sup> فَأَتَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصْبِهَا وَابِلٌ فَطَلٌ<sup>(٢)</sup> ..﴾ (٢٦٠) [البقرة]

وَسُبْحَانَهُ يَقُولُ أَيْضًا

﴿أَكْلُهَا دَائِمٌ﴾ (٣٠) [الرعد]

وَكَذَلِكَ قَالَ

﴿تَوَتَّى أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ يَأْتِي رَيْبَهَا ..﴾ (٢٥) [إبراهيم]

وَمَكْنَا نَحْدُ أَنَّ الْأَكْلَ مَقْصُودُهُ مَا يُؤْكَلُ الْآنَ ، وَمَا بَعْدَ الْأَكْلِ أَيْضًا

(١) الْوَابِلُ الْمَطَرُ الْغَرِيرُ وَبِلَ الْمَطَرِ كَثْرَ وَعَظَمَ لَطَرُهُ [ الْقَامُوسُ الْقَوِيمُ ٢/٢١٨ ]  
(٢) الْطَلُّ ( بَفَتْحِ الطَّاءِ ) الْمَطَرُ الْخَفِيفُ يَكُونُ لَهُ أَثَرٌ لِلْبَيْنِ سَكَنُهُ يَقِي الْعِيدَاتِ شَرَّ الظُّمَاءِ قَالَ تَعَالَى ﴿فَإِنْ لَمْ يُصْبِهَا وَابِلٌ فَطَلٌ﴾ (٢٦٠) [البقرة] فَإِنْ لَمْ يَصِبِ الرِّبْوَةَ أَوْ الْحَنِيظَةَ وَابِلٌ يَسْقِيهَا وَيَرْوِيهَا فَإِنَّهُ يَصْبِيحُهَا طَلٌّ غَيْرُ مُحَلَوَّلَةٍ مِنَ الظُّمَاءِ دَائِمًا [ الْقَامُوسُ الْقَوِيمُ ١/٤٦ ]



وَيُذِيلُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ بِقَوْلِهِ

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٤٤)

[البرء]

وبعض الناس يطلبون أن العقل يعنى أن يمرح الإنسان في الأشياء ، وأنه يعطى الإنسان الحرية المطلقة ومثل هذا الظن خاطيء ، لأن العقل جاء ليُنصّر الإنسان بعواقب كل فعل ونتائجه ، فيقول للإنسان : إياك أن يستهويك الأمر العفانى لأن عاقبته وخيمة . ومن مادة العين والقاف واللام عقل ويقال عقلت النعير ومن مهام العقل أن يفرز الأشياء وأن يفكر فيها ليستخرج المطلوب ، وأن يتدبر كل أمر ، فعمليات العقل هي الاستقبال الإدراكي والبحث فيه لاستخلاص الحقائق واننتاج ، وأن يتدبر الإنسان كل أمر كي يتجنب ما فيه من ضرر

والمثل هو ما توصل إليه بعض من العلماء من اكتشاف الأدوية يستخسّمونها لفترة ما ، ثم يعلنون عن الاستعناء عنها ، لأن آثارها الجانبية ضارة جداً ؛ وهذا يعنى أنهم لم يتدبروا الأمر جيداً ، وخطأوا خطوات إلى ما ليس لهم به كامل العلم

وقول الحق سبحانه

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٤٥)

[البرء]

نلاحظ فيه توجيهاً بالتعاون بين العقول ، لنبحث في آيات ربّ العقول ، فلا يأخذ أحد قراراً بعقله فقط ، بل يسمع أىّ مآل لأى عقل ثار وعقل ثالث ورابع ، ليستطيع الإنسان تدبر ما يمكن أن يقع ، ولتكتشف العقول هي استنباط الحقائق النافعة التي لا يتأتى منها

ضرر فيهما بعد ، لأن من استبىد برأيه هلك ، ومن شاور الرجاس  
شركهم في عقولهم

وبقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَذْكَاتُ الْبَاطِلِ أَمْ خَلْقُ  
جَدِيدٍ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَلُ فِي  
أَعْيُنِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

والعجب هو : أن قبيد دهنه من شيء لا تعرف سببه ، وهذا  
التعجب لا يأتى من الله ، لأنه سبحانه يعلم كل شيء ، فمن صدر  
عجب من الله مثل قوله الحق

﴿كَيْفَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ (٢٨) ، اسقرة

فمعنى هذا انه سبحانه يُبكر ان يكفر الإنسان مع قيام أدلة على  
الإيمان ، لكن بعضا من الناس - رغم ذلك - يكفر بالله

وقول الحق سبحانه

﴿وَإِنْ تَعْجَبْ...﴾ (٣٠)

[الزبد]

هو خطاب مُوجَّه لرسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ يتعجب  
من أنهم كانوا يُسمونه قبل أن يبعث الله رسولا بالصادق الامير  
وبعد ما جاءت الرسالة قالوا إنه ساحر كذاب

فكيف يكون صادقا أصلا ببشريكه ودائنته ، ثم إذا أمده الحق  
سبحانه بالممدد الرسمى اتهمونه بالكذب ، ألم يكن من الأجدر أن

تقولوا إنه صار أكثر صدقاً ، وهل من الممكن أن يكون صادقاً  
عندكم ، ثم يكتب على الله .

والتعجب أيضاً من أنهم أنكروا البعث من بعد الموت ، رغم أنه  
سبحانه أوضح الأدلة على ذلك ، ولكن المؤمنين وحدهم هم الذين  
استقبلوا أمر البعث بالتصديق بمجرد أن أنعمهم به رسول الله مُبلِّغاً  
عن ربه

ونجد الحق سبحانه وتعالى قد احترم فضول العقل البشري  
وأوضح سبحانه ذلك ونصب الأدلة عليه ، وأبلغ أنه لم يعجز عن  
الخلق الأول لذلك لن يعجز عن البعث

فقد جاء بنا سبحانه من عدم وفي البعث سيأتي منه من  
موجود ، ومن الغباء إذن أن تشكك أحد في البعث ، والمُستوفى على  
نفسه بما يتكرر الحدث ، لأنه لا يقدر على صسبب النفس ، ويضن أنه  
بإنكار البعث لن يلقى المصير الأسود الذي سيلقاه في الآخرة

ولذلك تجد المسرفين على أنفسهم يحاولون التشكك في البعث  
ويأتى الحق سبحانه بتشكيكهم هذا في قول الحق سبحانه

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا  
الدَّهْرُ .. ﴾ (٧٤) ﴿

[الجانة]

ولو أن الواحد منهم وضع مسألة البعث في يقينه لانتصر عن  
شهواته ، بينما هو يريد أن يطلق بالشهوات ، ولذلك نجدهم يقولون

﴿ أئذا ضللتنا في الأرض .. ﴾ (١) ﴿

[السجدة]

وهم يقصدون بذلك أنهم بعد الموت سيصيرون برأى ، ويعودون

إلى الأرض كعناصر وتتراب تدروه<sup>(١)</sup> الرياح ، فكيف سيأتى بهم الله  
تبعث ، ويُعْثَنهم من حديد ؟

ويقول سبحانه

﴿قُلْ مَنْ يُخْسِى الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) قُلْ يُخْسِئُهَا الَّذِى أُنْشِأَهَا أَوَّلَ  
مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ [يس]

ومن الكافرين مَنْ قَالَ سنصير تراباً ، ثم نخلط بالتراب ، ويتم  
رعايه هذه التربة ، فتمتزج عناصرها بما تنبتة الأرض من سواكه  
وخضر وأشجار ، ثم يأكل طقس من الثمرة التى تنفُثُ بعناصرنا ،  
ميصير بعضُ منا فى مكونات هذا الطفل ، والقياس يُوضِّح أنهُ سوف  
يُعاثر ، فكيف يأتى بنا الله ؟

كل ذلك بطبيعة الحال من وسوسة الشيطان ووحيه

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَیُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ (٩٦) [الانعام]

وأقول سنفترض أن إنساناً قد مرض ، وأصابه مُزال ولقد  
ثلاثين كيلوجراماً من وزنه ، وما نزل من هذا الوزن لا بُدَّ أنه قد  
ذهب إلى الأرض كعناصر اختلطت بها ، ثم جاء طبيب قام بتشخيص  
الداء وكتب الدواء ، وشاء الله لهذا المريض الشفاء واستردَّ وزنه ،  
وعاد مرة أخرى لحالته الطبيعية ، فهل الثلاثين كيلو جراماً التى  
استردَّها هى نفس الكمية ببوعيتها وخصوصيتها التى سبق أن  
مقدَّها ؟ طبعاً لا

(١) توت للريح التراب تدروه أصدرته وسعته وأدهنته وقيل حملته فالتزته [ لسان العرب  
مادة در ]

(٢) رم الميت بلى جسمه والرميم الحيوان الذى من كل شيء [ لسان العرب مادة  
رم ]

وهكذا نفهم أن التكوين هو تكوين نسبي لبعضنا من كذا من الحديد ، كذا من الصوديوم ، كذا من المغنسيوم ، وهكذا

[بن] فالجزاء في اليوم الآخر عملية عقلية لازمه ، يقول الحق ﴿ كَيْفَ نَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) ﴾ [البقرة]

ما دام هناك أمر ، وهناك نهى ، وهناك منهج واضح يُسَيِّن كل شيء ، وإن كنت تعجب يا محمد من الكفار وما يثيرونه من أقضية ، فكأنك أن تعجب لأنها أمور تستحق العجب

والحق سبحانه حين يخاطب الخلق فهو يخاطبهم إماماً في أمر يشكُّون فيه ، أو في أمر لا يشكُّ فيه أحد

والمثل من حياتنا - والله المثل الأعلى - حين تصاطب أنت واحداً في أمر يشكُّ هو فيه - فانت تحول أن تؤكد هذا الأمر بكل الطرق ، وهكذا رصدنا بعضاً من الناس ينكرون البعث والحساب - ووجدنا الحق سبحانه وتعالى يُذَكِّرهم به عبر رسوله ويؤكد لهم

وأيضاً خاطبهم الحق سبحانه فيما لم يشكُّوا فيه ، وهو الموت ، وما

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

ويقول الرسول ﷺ

« ما رأيت يقبلاً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت » .

«الموت يقين ، ولكن لا أحد يجادل التفكير في انه قادم ،  
وسبحانه يقول

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيُوتُونَ﴾ (١٥)

[المؤمنون]

وهذا تأكيد لامر يُجمع الناس على انه واقع ، لكنهم لعفلتهم عنه  
نَدُوا كَالْمُنْكَرِينَ له بذلك خاطبهم خطاب المنكرين ، ثم قال بعد ذلك

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُخْشَرُونَ﴾ (١٦)

[المؤمنون]

ولم يقل : « ولتخشون » لان البعث مسأله لا تحتاج إلى تأكيد  
وعدم التأكيد هنا أكد من التأكيد ، لان امر الموت واضح جداً ، مع  
العفلة عنه ، أما البعث فهو واقع لا محالة بحيث لا يحتاج إلى تأكيد

والمثل من حيثنا - ونه المثل الأعلى - يذهب الإنسان إلى  
الطبيب ، فيقول له الطبيب بعد الكشف عليه : « اذهب فليس اكيب لك  
دواء ، وهذا لقول يعنى ان هذا الإنسان في تمام الصحة ، وكن  
كتابة الدواء بحمل شبهة ان هناك مرضاً

وكذلك الحق سبحانه يخاطب الخلق في الشيء الذي ينكرون ،  
وعليه دليل واضح ، هيأتى خطابه لهم بلا تأكيد ، وهو يوضح بتلك  
الطريقة أنهم على غير حق في الإنكار ، أما لشيء الذى يباكدون منه  
وهم عاقلون عنه ، فهو يؤكد لهم ، كى لا يفعلوا عنه

وكذلك في القسم ، فنجد سبحانه قد أقسم بالثنين والريثون ،  
وأقسم بالقرآن الحكيم ، وأقسم بغير ذلك ، ويجده في موقع أخرى  
يقول

﴿لَا أَقْسَمُ بِهِذَا النَّبْلِ﴾ (١) وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا نَبْلًا (٢) وَوَالِدِي رُوبِ

[النبل]

وَلَد (٣) ﴿

وَالْعَجِيبُ أَنَّهُ يَأْتِي بِجَوَابِ الْقَسَمِ ، فَيَقُولُ

[النبل]

﴿لَقَدْ حَقَّقْنَا لِإِنْسَانٍ فِي كَيْدٍ﴾ (٤) ﴿

وَقَدْ يَقُولُ قَائِلٌ كَيْفَ يَقُولُ

[النبل]

﴿لَا أَقْسَمُ .. (٥)﴾

ثُمَّ يَأْتِي بِجَوَابِ الْقَسَمِ ،

وَيَقُولُ لَقَدْ جَاءَ هُنَا مَعُولُهُ

[النبل]

﴿لَا أَقْسَمُ . (٦)﴾

وَكَأَنَّهُ يُوَضِّحُ الْإِنْكَارَ ، وَلَدَنَ مَا كَانَ يَصْنَعُ أَنْ

'قَسَمَ لَكُمْ ، وَلَوْ كُنْتُمْ مُقْسِمًا ، لَأَقْسَمْتُ بِكُذَّاءٍ وَكُذَّاءٍ وَكُذَّاءٍ

وَسَبَّحَانَهُ يَقُولُ فِي الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ نَصُدُّ حَوْطَرًا عَلَيْهَا

﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ فَوَلَّيْهُمْ أَنَدَا كَمَا تَرَابٌ أَنَا لَمْ يَخْلُقْ جَدِيدٌ (٧)﴾ [البرء]

وَهُوَ جُلٌّ وَعَلَا يُدَكِّرُهُمْ بِمَا كَانَ يَجِبُ إِلَّا يَبْسُوهُ ، فَقَدْ خَلَقَهُمْ مِنْ

تَرَابٍ ، وَخَلَقَ انْتِرَابٌ مِنْ عَدَمٍ ، وَهُوَ الْقَائِلُ

﴿أَفَعَيَّبْنَا بِالْحَقِّ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي نِسْرٍ مِّنْ حَقِّ حَلِيدٍ (٨)﴾ [ذ]

(١) النبل المكان المحدود يستعمله سبعمائة من الناس وقد يعمى بها المكان الواسع من

الأرض ينسجم به أهل البلد قال تعالى ﴿وَالْبَلَدُ الْعَلْبُ يَحْرُجُ بِيَانُهُ بِإِذْنِهِ (١٠٨)﴾

[الأعراف] والرك تعالى ﴿لَا أَقْسَمُ بِهِذَا النَّبْلِ (١٠)﴾ [النبل] أى مكة [القاموس]

القيوم ١٢٦ [بتصرف]

(٢) الكد المشقة والعناء فالإنسان في مشقة وعناء طول حياته من العهد إلى العهد

القاموس القويم ١٤٩/٢ [

(٣) ليس الشراء جلته وعماء وأبهمه وحده مشكلاً معبراً وقوله تعالى ﴿بَلْ هُمْ فِي نِسْرٍ

مِنْ حَقِّ حَلِيدٍ (٨)﴾ [ذ] أى شك [القاموس القويم ١٨٨/٢] متصرف

إن فسحانه يتعجب من أمر هؤلاء ، ويريد من العجب أنهم  
كذبوا محمداً ﷺ بعد أن جربوا فيه الصدق ، ولمسوا منه الأمانة ،  
وقالوا عنه ذلك من قبل أن يُبعث ، ولوق ذلك أنكروا البعث مع قيام  
الدليل عليه

ويصفهم الحق سبحانه

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ .. ﴾ (٥)

[الرعد]

أي أن هؤلاء المكذبين بك يا محمد والمُنكرين للبعث لم يكفروا  
فقط بالله الذي أوجب التكليف العبادي بل هم يكفرون بالربوبية التي  
تعطى لمؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ، وتاتمر بأمرها الأسباب  
للتستجيب لأيّ مجتهد يتبع قوانين الاحياء ، فتأخذ من عطاءات  
الربوبية وهي عطاءات التشريف التي تضمن الرزق ، بينما عطاءات  
الالوهية هي تكليفات بالطاعة للأوامر التعدية ، الممثلة في « افعل »  
و « لا تفعل » .

وسبحانه لا يكلف الإنسان إلا بعد أن يبلغ الإنسان درجة النضج  
التي تؤهله ، لأنّ ينجب مثيلاً له ، وقد ترك الحق سبحانه كل إنسان  
يرتج في خير النعم التي أسبقها سبحانه على البشر وكان على  
الإنسان أن يسعى إلى الإيمان فور أن تصله الدعوة من الرسول  
المُبلغ عن الله ، هذا الرسول المشهود له بالصدق والأمانة

وبذلك يجد الحق سبحانه وهو يصف المنكرين للإيمان

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ .. ﴾ (٥)

[الرعد]

ويضيف





﴿وَأَرْسَلْنَاكَ فِي أَعْيُنِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤) ﴿[الرعد]

والغُلّ هو طوق الحديد الذي له طرف في كل يد ليقبدها ،  
وطرف معلق في الرقبة ليقلل من مساحة حركة اليدين ، ولمزيد من  
الإذلال

وهم أصحاب اسار ، وكلمة « صاحب » تُطلق على من تعرفه  
معرفة تروى كيالك وذاك ، فهناك من تصاحبه ، وهناك من تصادقه ،  
وهناك من تؤاحبه ، وهناك من تعرفه معرفة سطحية ولا تقيم علاقة  
عميقة معه

إن المعرفة مراتب ، والصحة تألف وتجاذب بين اثنين ، ومن  
يصاحب النار فهو من تعشقه النار ، ويعشق هو النار ، ويجب كل  
متهما ملزمة الآخر ، ألا تقول النار لربها يوم القيامة

﴿هل من مزيد﴾ (٣) ﴿[ق]

أي أن العذاب نفسه يكون مشوقاً أن يصل إلى العاصي  
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿وَلَسْتَ عِزُّونَاكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ  
خَلَسَتْ مِنْ قِبَالِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ  
لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١) ﴿

(١) المثلة العقوبة القاسية التي يتحمل بها لشئها وشهرتها وتنشط عبرة وعظة قال  
تعالى ﴿وقد خلت من قبلهم المثلأ﴾ (٢٠) ﴿[الرعد] أي مضت العقوبات الراجعة من  
الأمم العالمة مما يُعدُّ عبرة لهم ولغيرهم [ القاموس القويم ٢١٦/١ ]

والاستعجال أن تطب الشيء قبل ربه ، وتقصير الرمز عن الغاية . فانت حين تريد غاية ما ، فانت تحتاج لزمن يختلف من غاية لأخرى ، وحين تتعجل غاية ، فأنت تريد أن تصل إليها قبل ربه

وكل اختيار لتعجل أو الاستبطاء له مميزات وعيوبه . فهل الاستعجال هذا لمصلحة امر مطلوب ؟

إنهم هم يستعجلون بالسنة قبل الحسنة ، وهذا دليل على احتلال وحلف عوازين تفكيرهم وقد سبق لهم أن قالوا

﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَهْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَسُوعَا﴾ (٤٠) أو تكون لك حبة من بحير وعنب فتعجر الأنهار حلالها تعجيرا (٤١) أو تسقط السماء كما رعمت علينا كسفا (٤٢) ﴿[الإنس]

وهكذا يجد هؤلاء الكافرين وهم يستعجلون بالسنة قبل الحسنة كما استعجوا أن تنزل عليهم الحجارة ، وهم لا يعرفون أن كل عذاب له مدة ، وبه ميعاد موقوت و لم يفكروا في أن يقولوا ، اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه .

بل إنهم قالوا

﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا حِجَارَهُمْ سَ لَسْمَاءِ أَوْ أَنْتَ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٤٣) ﴿[الأنفال]

وهكذا وضع لنا الحق سبحانه ما وصلوا إليه من حل في نفوسهم وفسادها ، ذلك أن مقاييسهم انتهت إلى الكفر ، وليس أدل على عساد المقاييس إلا استعجالهم للسنة قبل الحسنة ، لأن العاقل

(١) الكسف القطعة ، وجمعها كسف وكسو [لسان العرب مادة كسف]

حَيْرٌ يُحْيِرُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ فَهُوَ يَسْتَعْجِلُ الْحَسَنَةَ - لِأَنَّهُا تَنْفَعُ ، وَيَسْتَعْمِدُ  
السَّيِّئَةَ

وَمَا دَامَتْ نَمُوسُ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ فَاسْنَةُ ، وَمَا دَامَتْ مَفَاسِيْسُهُمْ  
مُحْتَلَّةٌ ، فَلَا بُدَّ أَنَّ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ هُوَ الْكَفَرُ

إِذِنْ فَاسْتَعْجَلَ السَّيِّئَةُ قَبْلَ الْحَسَنَةِ دَانِسَبَةِ لِلشَّخْصِ أَوْ  
لِلْحَمَاعَةِ دَانِلُ حُفَقِ الْإِخْتِيَارِ فِي إِبْدَائِلِ فَلَوْ أَنَّهُمْ أَرَادُوا الْإِسْتَعْجَالَ  
الْحَقِيقِيَّ لِلدَّافِعِ لَهُمْ لَاسْتَعْجَلُوا الْحَسَنَةَ وَلَمْ يَسْبَحُوا السَّيِّئَةَ

رَبِّهَا يَقُولُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ

وَيَسْتَعْجَلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ حُطَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ  
الْمَثَلَاتُ... (٦٦) ﴿ [الرَّسَدُ]

فَلَمَّا دَا يَسْتَعْجَلُونَ الْعَذَابَ ، أَلَمْ يَنْظُرُوا مَا أَلَدَى حَاقٍ بِالَّذِينَ كُنُوا  
الرَّسَلِ مِنْ قَبْلِهِمْ ؟

وَحِينَ يَقُولُ الرِّسَلُ احْذَرُوا أَنْ يَحْيِيَكُمُ عَذَابٌ ، أَوْ احْذَرُوا أَنْ  
كُذِّبُوا وَكُذِّبُوا ، فَهَلْ فِي ذَلِكَ كَذِبٌ ؟ وَلَمَّا لَمْ يَنْظُرُوا لِلْعَبِيرِ الَّتِي حَدَّثَتْ  
عَبْرَ الْقَارِيخِ لِلْأَقْوَامِ الَّتِي كَذَّبَتْ الرِّسَلِ مِنْ قَبْلِهِمْ ؟

وَالْمَثَلَاتُ ، جَمْعُ « مَثَلَةٍ » ، وَفِي قَوْلِ آخِرِ « مَثَلَةٌ » وَالْحَقُّ  
سَبْحَانَهُ يَقُولُ لَمَّا

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ (١٢٦) ﴾ [الْحَرْ]

وَيَقُولُ أَيْضًا

﴿ وَجَاءُ سَيِّئَةٌ سَيِّئَةٌ مِثْلَهَا (٤٠) ﴾ [الشُّورَى]

وَهَكَذَا فَتَكُونُ ، مَثَلَاتٌ ، مِنْ الْمِثْلِ أَيْ أَنْ تَكُونَ الْعِشْقُونَةُ مُمَازِلَةً  
لِلْفَعْلِ

وقول الحق سبحانه

﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ...﴾ (٦)

[الرد]

يعنى أنه سبحانه سبق وأنزل العذاب بالمثل لهم من الأمم السابقة التى كذبت الرسل ، إما بالإبادة إن كان ميثوساً من إيمانهم ، وإما بانقهر والنصر عليهم

ويتابع سبحانه فى نفس الآية

﴿وإِنَّا رَبُّكَ لَدُوٌّ مَقْمَرَةٌ لِّلنَّاسِ عَلَى ظَلْمِهِمْ...﴾ (٦)

[الرد]

أى أنه سبحانه لا يُعَجِّلُ العذاب لمن يكفرون ، لعل رجلاً صالحاً يوحد فيهم ، وقد صبر سبحانه على أبى جهل ، فخرج منه عكرمة بن أبى جهل ، وهو الصحابى الصالح ، وصبر على خالد بن الوليد مصار سيف الله المسلول ، بعد أن كان أحد المقاتلين الأشداء فى معسكر الكفر

وتحمل لنا أخبار الصحابة كيف قاتل عكرمة بن أبى جهل ، إلى أن أصيب إصابة بالغة ، فينظر إلى خالد بن الوليد قائلاً أهذه ميتة تُرضى عنى رسول الله ؟

وتحمل لنا أخبار الصحابة كيف حزن واحد من المقاتلين المسلمين لحظة أن أفلت منه خالد بن الوليد أيام أن كان على الكفر ، وهو لا يعلم أن الحق سبحانه قد انخر خالداً ليكون سيف الله المسلول من بعد إسلامه

وهكذا شاء الحق أن يفلت بعض من صناديد قريش من القتل أيام أن كانوا على الكفر ، كي يكونوا من حيوة أهل الإسلام بعد ذلك

ويتابع سبحانه

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ .. (٦)﴾ [الرعد]

مع أن الناس ظالمون ، فسبحانه يقرر لهم ، لأنه سبحانه أفرح بعبيده الثائب المؤمنين من أحكمهم ، وقد وقع على بعيره ، وقد أضلَّهُ في غلاة<sup>(١)</sup>

ولذلك أرى أن مَنْ بُعِثَ عبداً يذنب استغفر منه الله ، هو إسان آثم ، ذلك أن العبد قد استغفر الله ، فلا يجب أن يحشر أحد معه في هد الأمر

ونلاحظ هنا قول الحق سبحانه

﴿عَلَى ظُلْمِهِمْ .. (٦)﴾ [الرعد]

وفي هذا القول يجد بعض العلماء أن الله قد استعمل حرفاً بدلاً من حرف آخر ، فجاءت « على » بدلاً من « مع » .

ونلاحظ أن « على » هي ثلاثة حروف ، و « مع » مكوبة من حرفين ، فلماذا حذف الحق سبحانه الأحف وأتى بـ « على » ؟ لا بد أن وراء ذلك غاية

أقول جاء الحق سبحانه بـ « على » في قوله

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ .. (٦)﴾ [الرعد]

(١) أخرج مسلم في صحيحه ( ٢٧٤٧ ) عن حديث أس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « قد أشد لرحاً بثوبة عبيد حين يتوب إليه من أحكم كان على راحلته يارحم غلاة فانطعت منه ، وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأنى شجرة فاضطجع في ظلها قد انس من راحتته ، فبيعا من كذلك (د مر بها قائمة عنده فأخذ بخصامها ثم قال من شدة الفرح اللهم ادع عبيد وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح »

ليؤكد لنا ن ظلم الناس كان يقتضى العقوبة ، ولكن رحمته سبحانه تسيطر على العقوبة .

وهكذا أدت كلمة « على » معنى « مع » ، وأضافت لنا أن الحق سبحانه هو المسيطر على العقوبة ، وأن رحمة الله تطفى على ظلم العباد

ومثل ذلك قوله سبحانه

﴿ وَيُضْعِفُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ . (٨) ﴾ [الاسراء]

أي أنهم يُحسبون الطعام حُبًّا جَمًّا يكن إرادة الحفاوة والكرم مطعًى على حُبِّ الطعام

ويكى لا يجب أن يفسد الخبز أن رحمة الله تطفى على عقابه دائماً ، فلو طس البعض من المحترئين هذا الخبز ، وتوهموا أنها فضية عامة ، لفسد الكون ، ولذلك ب هي الحق سبحانه الآلة الكريمة بقوله

﴿ وَنُزِّلْنَاكَ لِتُنذِرَ أَلْقَابِ (٦) ﴾ [الزمر]

ي أنه سبحانه قادر على العقاب العظيم ، وهكذا جمعت الآية بين الرحاء والتخويف .

ويقول سبحانه بعد ذلك

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۚ  
إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الزمر]



وبعض يعلم أن « لولا » إنْ سُخِطت على جملة إسمية تكون حرف امتناع لوجود ، مثل قولك « لولا زيد عندك لَرُرْتُكَ » ، أى أن الذى يمتنع من زيارة فلان هو وجود زيد

ولو سُخِطَ « لولا » على جملة فعلية ، قلنا نطق بها يحب أن يحدث ما بعدها ، مثل قولك « لولا عطفت على فلان » أو « لولا صفحت عن ولدك » ، أى أن فى ذلك حُضاً على أن يحدث ما بعدها

وظاهر كلام الكفار فى هذه الآية التى نحر بصدد حواصرنا عنها أنهم يطلبون آية لتأييد صدق الرسول ﷺ فى البيان الذى يحمله من احق لهم وكسأهم بهذا القول يُنكرون المعجزة التى جاء بها ﷺ وهى القرآن الكريم ، رغم أنهم مةٌ بلاعة وأدب وبيان ، وأداء لغوى رائع وأقاموا أسواقاً للادب ، وخصَّصوا الحواجز للتبوغ الأسمى ، وعَلَّقوا القصائد على جدران الكعبة ، وتفاخرت القبائل بمز أنجبتهم من الشعراء ورجال الخطابة

فلما نزل القرآن من حسر تبوغكم ، وتفرَّق على بلاءكم ، ولم تستطيعوا أن تأبوا بآية مثل آياته ، كيف لم تفتخروا بمعجزة ، وتطلبون بمعجزة أخرى كمعجزة موسى عليه السلام ، أو كمعجزة عيسى عليه السلام ؟

لقد كان عليكم أن تفخروا بالمعجزة الكاملة التى تحمى المنهج إلى قيام الساعة

ولكن الحَقَّ جعلهم يطلبون معجزة غير القرآن ، ولم يلتفتوا إلى المعجرات الأخرى التى صاحبت رسول الله ﷺ ، لم يلتفتوا إلى أن

الماء قد نبع من أصابعه ﷺ ، والطعام القليل أشبع القوم وقاض منه ، والغصاة قد ظللته ، وجذع النخلة قد أن بصوت مسموع عندما نقر رسول الله منبره ، بعد أن كان ﷺ يخطب من فوق الجذع<sup>(١)</sup> .

وقد يكونون أصحاب عذر في ذلك ، لأنهم لم يروا تلك المعجزات الحسية ، بحكم أنهم كافرون ، واقتصرت رؤياها على من آمنوا برسالة ﷺ .

وهكذا نعلم أن الرسول ﷺ لم يحرم من المعجزات الكونية تلك التي تحدث مرة واحدة وتنتهي ، وهي حجة على من يراها ، وقد جاءت لتثبيت إيمان القلة المضطهدة ، فحين يرون الماء متفجراً بين أصابعه ، وهم مزئرون بالاضطهاد هنا يرداد تمسكهم بالرسول ﷺ

ولكن الكافرين لم يروا تلك المعجزات وكان عليهم الاكتفاء بالمعجزة التي قال عنها رسول الله ﷺ ، « القرآن كافيي<sup>(٢)</sup> » ،

والقرآن معجزة من جيس ما نبهتكم فيه أيها العرب ، ومحمد رسول من أنفسكم ، لم يأت من قبيلة غير قبيلتكم ، ولسانه من

(١) أخرج البخاري في صحيحه ( ٦/٦٩ فتح الباري ) ، والترمذي في سننه - صلاة الجمعة - باب ما جاء في الخطبة على المنبر ، والبيهقي في دلائل النبوة ( ٥٥٧/٢ ) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يخطب إلى جذع ، فلما انشد المنبر تحول إليه ، فقص الجذع ، فأتاه النبي ﷺ فمسحه فسكر .

(٢) أورده العجلوني في كشف العفاء ( ١٨٦٨ ) ، القرآن غني لا فقر بعده ، ولا غنى بعده ، وعمره لأبي يعلى والدارقطني عن أنس مرفوعاً وقال الدارقطني روى أبو معاوية عن الحسن مرسلاً قال في المقاصد : وهو كشف المصائب .



لسانكم ، وتعلمون أنه لم يحس إلى معلّم ، ولا علم عنه أنه خطب  
ميك من قبل ، ولم يقرض<sup>(١)</sup> الشعر ، ولم يعرف عنه أنه حصيب من  
حطباء العرب .

ولذلك جاء الحق سبحانه بالقول على لسانه

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ نَسْتُ هِكْمَ عُمْرًا<sup>(٢)</sup> ﴾  
من قبله أفلا تعقلون ﴿٦﴾ [يونس]

أي أننى عشتُ بينكم ولم اتكلم بالملاعة ، ولم نأفس في أسواق  
الشعر ، وكان يجب أن تؤمنوا أنه قول من لدن حكيم عليم

ولكن منهم من قال : « لقد كان يكتم موهبة وقام بتأجيلها »

وهؤلاء نقول لهم هل يمكن أن يعيش طفل يتيم الأب وهو في  
بلن أمه ، ثم يتيم الأم وهو صغير ، ويموت جدّه وهو أيضاً صغير ،  
ورأى تساقط الكبار من حوله بلا نظام فى التساقط ، فقد ماتوا دور  
مرض أو سبب ظاهر ، أكان مثل هذا الإنسان مأمن على نفسه أن  
يعيش إلى عمر الأربعين ليعلى عن موهبة ؟

ثم من قال إن العبقريّة تنتظر إلى الأربعين لتظهر ، وكلنا يعلم  
أن العبقريات تظهر فى أواخر العقد الثامن وأوائل العقد الثالث

(١) القريض الشعر والقريض قرض الشعر وقرض فى سببه يلرض قرضاً عدل يمتن  
ويسره وقال الجرمرى القريض قول الشعر خاصاً يقال قرضت الشعر اقرضه إننا  
قلته [ لسان العرب - مادة قرض ]

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره ( ٤١٠/٢ ) : « قال جعفر بن أبى طالب للجاشى ملك الحبشة  
بعث الله نبيا رسولا يعرف صدقه ونسبه وأمانته ، وقد كانت مدة مقدمه عليه السلام بين  
أظهره قبل النبوة أربعين سنة »

ورغم عدم اعتراكم بمعجزة القرآن ، هاهو الحق سبحانه يُجْرى  
على ألسنتكم ما احفيتكموه فى قلوبكم ويظهره للناس فى مُحْكَم  
كِتَابِهِ

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى وَحَلٍّ مِنَ الْقُرَيْشِيِّينَ عَظِيمٍ ﴾ (٣)

[الرحمن]

وهكذا اعتروكم معجزة القرآن وحوشكم ن فاعطوا فى اسم  
المُحَرَّلِ عَلَيْهِ لِقُرْآنٍ

ويقول سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرها عنها

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ (٧)

[الرحمن]

فماذا إن قُتِلْتُمْ واعترفتم أن له رباً ؟ أما كان يحب أن تعترفوا  
برسالته وتعلنون إيمانكم به وبالرسالة . وقد سبق أن قالوا إن ربَّ  
محمد قد قُتِلَ<sup>(١)</sup>

وهذا القول يعنى أنهم اعترفوا بأن له رباً ، فلماذا اعترفوا به فى  
الهِجْرَ وأنكروه فى الوَصْرِ

وإذا كانوا يطلبون منك معجزة غير القرآن فاعلم يا محمد أن ربك  
هو الذى يرسل المعجرات ، وهو الذى يُجسِّدُ المعجزة لكل رسول

١. القريش مكة والطائف ذكر غير واحد منهم نقادة بهم أرادوا بذلك الويد من الصغيرة  
وعروة بن مسعود الثقفى قال إن كثير من تفسيره ( ١٢٧/٤ ) . الطاهر أن مرادهم  
رجل كبير من أى القبائل كان .

(٢) القلى أى الغنى قال ابن سببر قليته أى حسته وكبرته حاية الكرامة فتركته وقال  
تعالى ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ (٣٦) [المصفا] . ولسان العرب - مادة قلى :

## سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

﴿٧٢٢٧﴾

حسب ما تنبغ فيه لقوم المرسل إليهم الرسول ، وأنت يا محمد مُنذر  
فقط ، أي مُحذّر

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (٧) [الرعد]

فكل قوم بهم هاد ، يهديهم بالآيات التي تناسب اقوام ، فبنو  
إسرائيل كانوا مُتفوّقين في السحر ، لذلك جاءت معجزة موسى من  
لور ما نبعروا فيه ، وقوم عيسى كانوا مُتفوّقين في الطب ، لذلك كانت  
معجزة عيسى من نوع ما نبغوا فيه

وهكذا يرى أن لكل قوم هادياً ، ومعه معجزة تناسب قومه  
ولذلك ردّ الله عليهم الرد المُفحم ، حين قالوا

﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ (٩٦) أَوْ تَكُونَ لَكَ حِجَّةٌ  
مِنْ سَحَابٍ وَعَبْ فَتَنْجِرَ الْأَنْهَارَ حُلَالًا فَتَجِيرَا (٩٧) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا  
رَعِمْتَ عَلَيَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَأَمَلَانِكَا فَبِيلًا (٩٨) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ  
مِنْ زُخْرَفٍ (٩٩) أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفْعِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا  
مَنْقُورًا . (٩٣) [الإسراء]

فيقول الحق سبحانه

١) افحمه اسكته والمفحم العيمى وكلمه فحم لم يلق جوابا [ لسان العرب مادة  
فحم ]

٢، الكسفة القطعة وكسفت السحاب وكسفت قطعه وكل شيء قطعته فقد كسفته  
[ لسان العرب مادة كسف ]

٣) الزخرف الذهب ثم ستمل في الرينة وفي اثاب البيت الجميل وقوله تعالى ﴿ أَوْ  
يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ ﴾ (٩٩) [الإسراء] أي من ذهب أو كله ربه وأثاث جميل  
[ القاموس القويم ١/ ٢٨٥ ]

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ (١٧) وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يُمَشِّوْنَ مَغْطِيَتَيْنِ لَنُزِّلَ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَسْمَاءٍ مَلَكًا رَسُولًا ﴿١٩﴾

[الإسراء]

ويأتي الرد من الحق سبحانه

﴿ وما منع أن تُرْسِلَ بِالْآيَاتِ ، إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ . . ﴾ (٢٠) [الإسراء]

أي : أن موما قبلكم طلبوا ما أرادوا من الآيات ، وأرسلها لهم ، ومع ذلك كفروا ، لأن الكفر يخلق ثوب العناد على الكافر ، لأن لكافر مُصمَّم على الكفر

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾

وما المناسبة التي يقول فيها الحق ذلك ؟

لقد شاء الحق سبحانه أن يؤكد مسألة أن لكل قوم هادياً ، وأن رسوله ﷺ هو مبدئ ، وأن طلبهم للآيات لمعجزة هو ابنُ لرغبتهم في تحييز الرسول ﷺ .

(١) قال النووي عن ابن عباس ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ (٨) [الرعد] يعنى السقط ﴿ وما تزداد ﴾ (٨) [الرعد] يقول : مبرات الرحم في الحمل على ما علمت حتى ولدته تماماً . وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ، ومن تحمل تسعة أشهر ، ومنهن من تزيد في الحمل ومنهن من تنقص . فذلك الغيض والزيادة التي يكره الله تعالى وكل ذلك يعلمه تعالى . [ تفسير ابن كثير ٢/٢٥ ]

ولو جاء لهم الرسول بآية مما طلبوها لأصبروا على الكفر ، فهو سبحانه العالم بما سوف يفعلون ، لأنه يعلم ما هو أخفى من ذلك ، يعلم - على سبيل المثال - ما تحمل كل أنثى وما تفيض الأرحام وما تريد

ونحن نعلم أن كل أنثى حين يشاء الله لها أن تحبل ، هي تحمل الجنين في رحمها ، لأن الرحم هو مستقر الجنين في بطن الأم .

وقوله تعالى

﴿وَمَا تَمْيِزُ الْأَرْحَامُ مَا تَرْدَادُ..﴾ (٨) [الرعد]

أي ما تنقص وما تذهب من السقط في أي إجهاض ، أو ما ينقص من المواليد بالموت ، فغاصد الأرحام ، أي نزلت المواليد قبل أن تكتمل خلقتها ، كان ينقص المولود عيباً أو إصبعاً أو تحمل الخلقة زيادة تختلف عما نالها من اسخلق الطبيعي ، كان يريد إصبع ، أو أن يكون براسين .

أو أن تكون لزيادة في العدد ، أي أن تلد المرأة توأماً أو أكثر ، أو أن تكون الزيادة متعلقة بزمن الحمل .

ومكنا نعلم أنه سبحانه يعلم ما تفيض الأرحام أي ما تنقصه في التكوين العادي أو تريده ، أو يكون النظر إلى الزمن ، كأن يحدث إجهاض للجنين وعمره يوم أو شهر أو شهران ، ثم إلى ستة أشهر ، وعند ذلك لا يقال إجهاض ، بل يقال ولادة

وهناك من يولد بعد ستة شهور من الحمل أو بعد سبعة شهور

أو ثمانية شهور ، وقد يمتد الميلاد لسنتين عند أبي حنيفة وإلى أربع سنوات عند الشافعي ، أو لحمس سبعين عند الإمام مالك ، ذلك أن مدة الحمل قد تنقص أو تزيد

ويقال إن الضحكاك ولد لعنتين في بطن أمه<sup>(١)</sup> ، وهرم بن حيان<sup>(٢)</sup> ولد لأربع سنين ، وظل أهل أمه يلاحظون كبر بطنها ، واختفاء انطمث الشهرى طوال تلك المدة ، ثم ولدت صاحبنا ، ولدك سمرة ، هرم ، أي شاب وهو في بطنها

وهكذا نفهم معنى ، سعيص : نقصاً أو زياده ، سواء في الحلقة أو للمدة الزمنية

ويقول الحق سبحانه

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمَقْدَرٍ﴾ (١٠) [الرعد]

والمقدار هو الكمية أو الكيف زماناً أو مكاناً ، أو مواهب ومؤهلات

وقد عدد الحق سبحانه مفاتيح الغيب الخمس حين قال

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرِلُ الْغَيْثُ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ..﴾ (٣٤) [لقمان]

١٠ ذكره بن كثير في تفسيره ( ٥ / ٢ ) أن الضحاك قال وصعقني ابي وقد حملني في بطنها سعتين ووددتني وقد ميتت ثنتين

(٢) هرم بن حيان العبدى ، كان عاملاً لعمر بن الخطيب ، مات في يوم شديد الحر ، فلما انفصوا أيديهم عن قبره جاءت سحابة فامطرت وبنت العقب من يرمه (حلية الاوصاء

وقد حاول البعض أن يقيموا إشكالات هذا ، ونسبوه إلى الحضرة  
والتقدم العلمي ، وهذا التقدم يتطرق إليه الاحتمال ، وكل شيء يتطرق  
إليه الاحتمال يبطل به الاستدلال ، وذلك بمعرفة نوعية اجنين قبل  
الميلاد ، أهو ذكر أم أنثى ؟ وتتناسلاً أن العلم لم يعرف أهو طويل أم  
قصير ؟ دكى أم غنى ؟ شقى أم سعيد ؟ وهذا ما أعجز الأطباء  
والباحثين إلى اليوم وما بعد اليوم

ثم إن سألت كيف عرف الطبيب ذلك ؟

إبه يعرف هذا الأمر من بعد أن يحدث الحَمْلُ ، ويأخذ عينة من  
السائل المحيط بالجنين ، ثم يقوم بتحليلها ، لكن الله يعلم دون أحد  
عينة ، وهو سبحانه الذى قل لواحد من عباده

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ . (٧) ﴾ [مريم]

وهكذا يعلم أن علم الله لا ينتظر عينة أو تحربة ، فعلمه سبحانه  
أولى ، مُنْزَهٌ عن القصور وهو يعلم ما فى الارحام على أى شكل هو  
أو لون أو جنس أو ذكاء أو سعادة أو شقاء أو عدد .

وشاء سبحانه أن يجلى طلاقة قدرته فى أن تحصل امرأة زكريا  
عليه السلام فى يحيى عليه السلام ، وهو الذى خلق آدم بلا أب أو  
أم ، ثم خلق حواء من أب دون أم ، وخلق عيسى من أم دون أب ،  
وخلقنا كلنا من أب وأم ، وحين تشاء طلاقة القدرة يقول سبحانه

﴿ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس]

والمثل - كما قلت - هو فى دخول زكريا المحراب على مريم  
عليها اسلام ، فوجد عندها رزقاً ، فسألها

﴿ أَنَّىٰ لَكَ هَٰذَا . (٢٧) ﴾ [آل عمران]

قالت

﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٧) [ال عمران]

وكان زكريا يعلم أن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، ولكن هذا  
اعلم كان في حاشية شعوره : واستدعاه قول مريم إلى نورة  
اشعور ، فزكريا يعلم علم اليقين أن الله هو وحده من يرزق بغير  
حساب

وما أن يأتي هذا القول مُحَرِّكاً لتلك الحقيقة الإيمانية من حافة  
اشعور إلى نورة الشعور ، حتى يدمو زكريا ربه في نفس المكان  
ليرزقه بالولد ، فيبشره الحق بالولد

وحين يتذكر زكريا أنه قد بلغ من الكبر عتياً<sup>(١)</sup> ، وإن امراته  
عاقرة ، فبذكره الحق سبحانه بأن عطء الولد أمر هين عليه سبحانه  
﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ  
شَيْئاً﴾ (٩) [مريم]

ويقول سبحانه من بعد ذلك

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ (١٠)

ومن كل شيء عنده بمقدار ، لا يغيب عنه شيء أبداً ، وما يحدث  
لاي إنسان في المستقبل بعد أن يُولد هو غيب ، لكن المُطَّلِع عليه  
وحده هو الله .

(١) عتا يعلو عتراً : اسر وكبر وبعث بغارته وغمضارته [ القاموس القويم ٦/٢ ]



وكان هناك « نموذجاً » مُصنَّفاً يطعمه الله أولاً ؛ وإن اطلع عليه الإنسان في أواخر العمر ، لوجد مطابقاً لما أَراده وعلمه الله أولاً .  
فلا شيء يتأبى عيه سبحانه ؛ فكلُّ شيء عنده بمقدار .

وهو عالم الغيب والشهادة ، يعلم ما حَفِيَ من حجاب الماصي أو المستقبلي ، وكلُّ ما غاب عن الإنسان ، ويعلم - من باب أولى - المشهود من الإنسان ، فلم يقتصر علمه على الغيب وترك المشهود بغير علم منه ؛ لا بل هو يعلم الغيب ويعلم المشهود .

﴿عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾ (١) [الرعد]

والكبير اسم من أسماء الله الحسنى ؛ وهناك مَنْ تساءل ولماذا لا يوجد « الأكبر » ضمن أسماء الله لحسنى ، ويوجد فقط قولنا « الله أكبر » في شعار الصلاة ؟

وأقول لأن مقاييس الكبير الصغير وكل شيء بالنسبة لمُوجده هو صغير. ونحن نقول في أذن الصلاة « الله أكبر » ، لأنه يُخْرِجُكَ من عمالك الذي أوكله إليك ، وهو عمارة الكون ؛ لتستعين به خلال عبادتك له وتطبق منهجه ، فيمضُك بالقوة التي تمارس بها إنتاج ما تحتاجه في حياتك من مأكَل ، وملبس ، وسرَّ عورة

إذن فكلُّ الأعمال مطلوبة حتى لإقامة العبادة ، فلياك أن تقول إن الله كبير والباقي صغير ، لأن الباقي فيه من الأمور ما هو كبير من منظور أنها نعم من المُعْطى الأكبر ، ولكن الله أكبرُ مِنَّا ، ونقولها حين يُطلَبُ مِنَّا أن نخرج عن أعمالنا لتستعين بعبادته سبحانه

ونعلم أن العمل مطلوب لعمارة الكون ، ومطلوب حتى لإقامة العبادة ، ولن توجد لك قوة لتعبد ربك لو لم يُقَوِّك ربك على عبادته .

فهو الذي يستبقى لك قوتك بالطعام والشراب ، ولن تطعم أو تشرب ؛  
لو لم تحرث وتبذر وتصنع ، وكل ذلك يتبع لك قوة لتصلى وتزكى  
وتحج ، وكل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب

وسبق أن قلت. إن الحق سبحانه حينما نادانا لصلاة الجمعة قال  
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَامْعُوا إِلَىٰ ذِكْرِ  
اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الجمعة]

وهكذا نُخرجنا الحق سبحانه من أعمالنا إلى الصلاة الموقوتة ،  
ثم يأتي قول الحق سبحانه

﴿إِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَامْشُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا  
اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الجمعة]

وهكذا أخرجنا سبحانه من العمل ، وهو أمر كبير إلى ما هو  
أكبر ، وهو أداء الصلاة

وقول الحق سبحانه في وصف نفسه ( المتعال ) يعنى أنه المُرَّة  
دائماً وصفاتاً وأفعالاً فلا ذات كذاته ، ولا صفة كصفاته ، ولا فعل  
كفعله وكل ما له سبحانه يليق به وحده . ولا يتشابه أبداً مع غيره

ويقول سبحانه من بعد ذلك

﴿سَوَاءٌ مِّنْكُمْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ  
مُسْتَخْفٍ بِالْأَيْلِ وَمَسَارِبٍ ۖ بِالنَّهَارِ ﴿٩٨﴾﴾

(٩٨) قال ابن عباس : مستخف ، مستتر ، و . مسارب ، ظاهر . وقال أبو رجاء الساربي  
الناصب على وجهه في الأرض وقال القتيبي : مسارب بالنهار ، أي محصر في جوانبه  
بسرعة . قلنا القرطبي في تفسيره ( ٢٦٣٦/٥ )

وساعة تسمع كلمة « سواء » فالمقصود بها عدد لا يقل عن اثنين ، فنقول « سواء زيد وعمرو » أو « سواء زيد وعمرو وبكر وخالد »

والمقصود هنا أنه ما دام الحق سبحانه عالم الغيب والشهادة ، فأي سرٍّ يوجد لا بد أن يعلمه سبحانه ، وهو سبحانه القائل .

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ تَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧)﴾ [٥]

وهو السر هو ما ائتمنت عليه غيرك ، إذا كان السر هو ذلك ، فالأخفى هو ما بقي عندك ، وإن كان اسر بمعنى ما يوجد عندك ولم تقله لأحد ، فسبحانه يعلمه قبل أن يكون سرّاً .

ويتابع سبحانه

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (٨)﴾ [الرعد]

وهكذا جمع الحق سبحانه هنا كل أنواع العمل ، فالعمل كما نعلم هو شغل الجوارح بمتعلقاتها ، فعمل اللسان أن يقول وأن يذوق ، وعمل الأيدي أن تفعل ، وعمل الأذن أن تسمع ، وعمل القلب هو النية . والعمل كما نعلم يكون مرة قولاً ، ومرة يكون فعلاً

وهكذا نجد « القول » وقد أخذ مساحة نصف « العمل » ، لأن البلاغ عن الله قول ، وعمل الجوارح خاضع لمَقُول القول من الحق سبحانه وتعالى .

ولذلك أوضح لنا الحق سبحانه أن العمل هو كُلُّ فعل متعلق  
بالجوارح ، وأخذ القول شقاً بمفرده ، وأخذت أفعال الجوارح الشق  
الآخر ، لأن عمل بقية الجوارح يدخل فى إطار ما سمع من منهج الله .  
ولذلك نجمع الآية التى نحن بصدد حواطرها عنها كل العمل من  
قول وفعل

﴿ سَاءَ مَا كُنْتُمْ بِأَلْوَابِهَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الشورى : ١٨]  
ومارب بالنهار (١)

ومن يستخفى بالليل لابلد أنه يُدبّر أمراً ، كأن يريد أن يتسمع  
ما وراء كل حركة ؛ أو ينظر ما يمكن أن يشاهده ، وكذلك من يبرر  
ويظهر فى النهار قاله عالم به

وكان على انكفار أن ينتبهوا لأمر عجيب كانوا يُسرّونه فى  
أنفسهم ، لحظة أن حكى الله ، فقال

﴿ وَيَقُولُونَ فى أَنفُسِهِمْ لَوْلَا نُعَذِّبُهُمْ بِمَا يَقُولُ .. ﴾ [الشورى : ١٩]

فكيف طمّ الله ذلك لولا أنه يعلم السرّ وأخفى ؟

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك ،

﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ [الشورى : ٢٠]  
إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ  
بِقَوْمٍ سُوءًا أَفْلَا مَرَدُّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ ﴿٢١﴾

(١) النعجب العود بعد البعد وقال أبو الهيثم سحبت الملائكة ، مُعْجَبَات ، لأنهن عانت مرة  
بعد مرة [ تفسير القرطبي ٥ / ٣٦٢٦ ]

وكلمة ( له ) تفيد النفعية ، فإذا قلت « لك كذا » فهي عكس أن نقول « عليك كذا » . وحين يقول سبحانه .

﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ .. (١١) ﴾ [الرعد]

فكانَ الْمُعَقَّبَاتُ مصالح الإنسان و « مُعَقَّبَاتٌ » جمع مُؤنث ، والمفرد « مُعَقِّبَةٌ » ، أى أن الحق سبحانه وتعالى ملائكة يتناوبون على حراسة الإنسان وحفظه لئلا ويهارأ من الأشياء السى لا يمكن الاحتراز منها

والمَثَلُ هو تلك الإحصاءات التى خرجت عن الشر الذين تلدغهم الثعابين . فقد ثبت أنها لا تلدغهم وهم نائمون ، بل فى أثناء صَحُوتهم ، أى ساعة يكونون فى ستر النوم فهناك ما يحفظهم ، أما فى اليقظة فقد يتصرف الإنسان بطيشٍ وعَفْلَةٍ فتلدغه الأفعى

ونحن نقول فى أمثال الشعبية « العين عليها حارس » ، ونلاحظ كثيراً من الأحداث التى تبدو لنا غريبة كأن يسقط طفل من نافذة دور عُلوى ؛ فلا يُصَابَ بصوء ، لأن الحق سبحانه شاء أن تحفظه الملائكة الْمُعَقَّبَاتُ من السوء ، لأن مهمة الحَفَظَةِ أن يحفظوا الإنسان من كُلِّ سوء

وهكذا نرى أن الحق سبحانه قد أعدَّ للإنسان الكونَ قبل أن يخلقه ليستخلفه فيه أعدُّ السماوات وأعدُّ الأرض ، وسخرَ الشمس والقمر ، وأخرج الثمرات ، وجس الليل يفتشى النهار

كُلُّ ذلك أعدَّهُ سبحانه للخليفة قبل أن يوجد الخليفة ؛ وهو سبحانه قَيُّوم على هذا الخليفة ؛ فيصونه أيضاً بعد الخلق ، ولا يدعه لمقومات نفسه ليذامع عنها فيما لا يستطيع الدفاع عنها ، ويكلف الله الملائكة الْمُعَقَّبَاتُ بذلك

وقد ينصرف معنى امْعُقَبَاتٍ إلى الملائكة الذين يتعقبون أفعال الإنسان وكتابة حسناته وكذبة سيئاته ، ويمكن أن يقرءا بالعينين معاً ، حفظه وكتابة أعماله ، فإن كتبوا له الحسنات فهذا لصالحه .

ولقائل أن يقول ويكتبهم سيكتوبون السيئات ، وهذه على الإنسان وليست له

وأقول لا ؛ وَيَحْسُنُ أَنْ نَعْمَ جيداً عن المُشْرِعِ الأعلى ، ونعم أن الإنسان إذا ما عرف أن السنته سُنُحِبَ عليه وتُصْصَى ؛ وتُكْتَبُ ، يعسك كتابه ليقرأه ، فلسوف يبتعد عن فعل السيئات .

وهكذا يكرر الأمر في مصلحته ، مَثَلُ مَثَلُ الطَّائِبِ الذي يرى المراقب في لحة الامتحان ، فلا يكرهه ، لأنه يحمي حَقَّه في الحصول على التقدير الصحيح ، بدلاً من أن يَغْشَى غيره . فيأخذ فرصة أكبر منه في التقدير والتحاح ، فضلاً عن أن كل الطلبة يعلمون أن وجود المراقب اليَقْظ هو داعٍ لهم للمذاكرة .

ولذلك أقول دائماً إياك أن تكره أن يكون لك أمداء ، لأن الذي يَغْشَى الإنسان في سلوكه هو نفاق أصحابه له ، أما عدوك فهو يفتح عينيه عليك طوال الوقت ، ولذلك فانت تحذر أن تقع في الخطأ

وفي هذا المعنى يقول الشاعر

عَدَائِي لَهُمْ فَضْلٌ عَلَى وَمِيزَةٌ	مَتَدَيُّ لَهُمْ شُكْرٌ عَلَى نَفْعِهِمْ لِي
فَهُمْ كَالدَّوَاءِ وَالشُّفَاءِ لِمُرْمٍ	فَلَا أَمْعِدُ الرَّحْمَانَ عَنِّي لِأَعَادِي
هُمْ نَحْنُوا عَنْ زُلَّتِي فَاحْتَسَنْتُهَا	فَأَصْبَحْتُ مَعَا ذَلِ الْعَرَبِ خَالِيَا

إذن فكتابة الحسنات والسيئات هي مسألة لصالح الإنسان ،  
وحين يتعاقبون على لإنسان ، فكانهم يصنعون دوريات لحماية  
الفرد ؛ ولذلك نجد رسول الله ﷺ يقول

« يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في  
صلاة الصبح وصلاة العصر<sup>(١)</sup> ، فيصعد إليه الذين أتوا فيكم ،  
فيسألهم - وهو أعلم بكم - كيف تركتُم عبادي ؟ فيقولون ، اتيناهم  
وهُم يصلون ، وتركناهم وهُم يُصلُّون »<sup>(٢)</sup>

وكان الملائكة دوريات .

ويقول الحق سبحانه

﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨) [الإسراء]

أي أن ملائكة الليل يشهدون ؛ ومعهم ملائكة النهار<sup>(٣)</sup> .

وحديث رسول الله ﷺ ملحوظ فيه الوقت الرسمى للحركة  
الإنسانية ، فكل حركات الإنسان وعمله يكون من الصبح إلى

(١) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم ( المجلد ٢ / من ١٢٩ ) طبعة دار الفلم - بيروت ١٩٨٧ : « اما اجتماعهم في الفجر والعصر فهو من طيف الله تعالى بعباده المؤمنين وتكرمة لهم أن جعل اجتماع الملائكة عندهم ومراقبتهم لهم في أوقات عباداتهم واجتماعهم على طاعة ربهم ، فتكون شهادتهم لهم بما شاهدوه من الخير »

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ( ١٢٢ ) والبخاري في صحيحه ( ٥٥٤ ) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

(٣) أخرج أحمد في مسنده ( ٤٧١/٢ ) والترمذي في سننه ( ٢١٣٥ ) - وابن ماجه في سننه ( ٦٧٠ ) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في هذه الآية ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨) [الإسراء] : تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار ،

العصر ثم يرتاح الإنسان غالباً من بعد ذلك ، ثم ينام

والمُعَقَّبَاتُ يَكُنُّ من بين يدي الإنسان ومن خلفه ؛ و ( من بين يديه ) من أجل الرصد ، ولذلك وجدنا أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - أثناء الهجرة النبوية كان يسير بعض الوقت أمام النبي ﷺ ، وكان يسير البعض الآخر خلف النبي ﷺ

كان أبو بكر - رضى الله عنه - يتقدم ليرقب ، هل هناك من يرصد الرسول أم لا ؟ ثم يتراجع إلى الخلف ليمسح كل المكان بنظره ليرقب أهباك مَنْ يتتبعهما ؟ وهكذا حرص أبو بكر على أن يحمي الرسول ﷺ من الرُّصد أو التُّرْبُصِ<sup>(١)</sup> .

ويعول الحق سبحانه

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ...﴾ (١١)

[الرعد]

والسطحيّ يقول إن تلك الملائكة يحفظون الإنسان من الأمر المراد به من الله

ونقول إن الله لم يُنْزِلِ الملائكة ليعارضوا قَدرَهُ ، وهذا الحفظ لا يكون من ذات الإنسان لنفسه ، أو من الملائكة ضد قدر الله ، والمعنى هنا ينصرف إلى أن الملائكة إنما يحفظون الإنسان بأمر الله .

(١) أخرج البيهقي في سننه ( ٤٧٦/٢ ) أن عمر بن الخطاب قال : « والله ليلة من ليلى بكر حير من آل عمر - وليوم من ليلى بكر حير من آل عمر - لقد خرج رسول الله ﷺ ليلة انطلق إلى الفار ومعه أبو بكر ورضي الله عنه ، فحمل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه ، حتى فعل له رسول الله ﷺ ، فقال : يا أبا بكر ما لك تمشي ساعة بين يدي وساعة خلفي ؟ فقال : يا رسول الله تكسر الطيب ، فأمشي خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك »



ولذلك نجد في القرآن قول الحق سبحانه

﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا .. (٢٥)﴾ [سوح]

أى بسبب خطيئتهم أغرقوا ، فإياك أن تظن أن الملائكة يحفظون الإنسان من قدر الله ، لأننا نعلم أن الحق سبحانه إذا أراد أمراً فلا راد له

ويتابع سبحانه

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ .. (١١)﴾ [الزمر]

وهو سبحانه الذى خلق الكون الواسع بكل أجناسه ، جماداً ونباتاً وحيواناً وأفلاكاً وأملاكاً ، وجعل كل ذلك مسخراً للإنسان ، ثم يحفظ الحق سبحانه الإنسان ويصونه بقيومته

وقد يقول قائل ولماذا إذن تحدث الابتلاءات لبعض من الناس ، رغم أنه سبحانه قد قال إنه يحفظهم ؟

ونقول إن تلك الابتلاءات إنما تجرى إذا ما غيّر البشر من منهج الله ؛ لأن الصيانة تقوم ما قام بالمنهج

واقراء قول الحق سبحانه

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمَةً مُمِيتَةً بِأَتْيِهَا رَزَقَهَا رِغْدًا<sup>(١)</sup> مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَدَانَهَا اللَّهُ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَحْنَمُونَ (١١٢)﴾ [الاحق]

(١) رَغْدَ العيش اتسع وطاب وموله تعالى ﴿وَكَلَّا عَلَيْهَا رِغْدًا حَيْثُ شَقَمَا. (٣٥)﴾ [البقرة]

أى أكلاً طيباً مرسماً عليكم فيه [ القاموس القويم ١ ، ٢٦٩ ]

وهكذا نعلم أن الصيانة للإنسان والحفظ له والإمداد له من قبل  
أن يُولد ، كُلُّ ذلك لن يرجع عنه الله ما دام الإنسان يمشى على  
صراط مستقيم ، لكن إذا ما حاد الإنسان عن الصراط المستقيم ،  
فيلفته الله ببعض من لعبز والعظاات ليعود إلى الصراط المستقيم

والتغيير الذي يُجرّيه الله على البشر حتى يُغيّروا ما بأنفسهم ،  
يشمل الإمدادات الفرعية ، أم الإمدادات الأصلية فلا يجمعها عنهم ؛  
مثل الشمس والقمر والنجوم والهواء ، ولم يجمع الأرض أن تُخرج لهم  
المياه

ويصيبهم في الأشياء التي من الممكن أن يسير الكون في انتظامه  
رغم حدوثها ، كالمصيبة في المال أو العصية في النفس ، ويظل  
الكون على مسيرته المنتظمة

ولهذا نجد أحد الفلاسفة وقد قال « إن الله لا يتغير من أجلكم ،  
ولكن يجب أن تتغيروا أنتم من أجل الله ،  
وسبق أن قال الحق سبحانه .

﴿فَمَنْ أَتَّبِعْ هَلْ يَظِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣)

[طه]

وهو القائل سبحانه

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ .. (١٢٤)

[مه]

(١) الضنك الضيق من كل شيء والضعف ضيق العيش وقال الليث في تفسيره أكل  
ما لم يكن من خلال فهو ضنك وإن كل مؤسسا عليه ، وقد ضنك عيشه [ لسان العرب .  
مادة ضنك ]

وأنت ترى في عالمنا المعاصر مجتمعات مُتَرَفِّة ، يستورد منهم أدوات الحضارة المعاصرة ؛ لكنهم يعيشون في الضنك النفسي البالغ ، وهذا ما يُثبت أن انقراض المادى بالنقود أو أدوات الحضارة ، لا يُحقِّق للإنسان التوازن النفسى أو السعادة ، وينطبق عليهم ما قاله أمير الشعراء أحمد شوقي<sup>(١)</sup> رحمه الله

ليسَ الحَمَرُ مَا أَطَاقَ الظُّهْرُ مَا الحَمَلُ لِأَمَّا وَعَاءُ الصُّدْرِ

مقد يكون الثراء المادى فى ظنِّ البعض هو الحُطْمُ ، فيجذب الإنسان إلى الطريق غير السوى بما فيه من عُمولات ، وعدم أمانه ، ورغم النقود التى قد يكتنزها هذا الإنسان ، إلا أن الأمراض النفسية أو الأمراض العضوية تفتك به

وهكذا نجد الحق سبحانه وهو يُغَيِّرُ ولا يَتَغَيَّرُ ، فهو المُغَيِّرُ لا المُتَغَيِّرُ .

وقول الحق سبحانه

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾<sup>(٢)</sup> [الرعد]

يُوضِّحُ لنا أن أعمال الجوارح ناشئة من نبيغ نفس تُحرِّك الجوارح ، وحين تصلح النفس ، تصبح الجوارح مستقيمة ، وحين تفسد النفس تصير الجوارح غير مستقيمة

(١) أحمد شوقي أشهر شعراء العصر ، يلقب بأمير الشعراء ، ولد بالقاهرة عام ١٨٦٨ م . وتوفي بها عام ١٩٣٢ م عن ٦٤ عاماً . نشأ فى ظل البيوت المالكة ، درس الحقوق فى فرنسا واطلع على لأدب الفرنسى . صوغ إنشائه بين نظم الشعر والقصص الشعرية [ الأعلام للزركلى ١/ ١٣٦ ]

فالحق سبحانه وتعالى أخضع كل الجوارح لمُرادات النفس ، فلو كانت النفس مخالفةً لمنهج الله ؛ فאלلسان خاضع لها ، ولا ينطق رغم إرادته بالتوحيد ، لأن النفس التي تديره مخالفةٌ للإيمان

والمستل ، هم هؤلاء الذين سسوا الرسل الذين احتسارهم الله ، قاذعوا أنهم أبناء الله ، وسبحانه مرةً عن ذلك ، أما إذا كانت النفس مؤمنة فهي تأسرُ اللسان أن يقول كلمة التوحيد ، ويسعد هو بذلك ، لكنه في الحالتين لا يعصى النفس التي سخره لها الله

وهكذا تكون الجوارح مُفعلة لإرادة صاحبها ، ولا تتحلُّ الإرادة البشرية عن الجوارح إلا حين يشاء الله ذلك في اليوم الآخر ، وفي الموقف الحق

ولحظتها لن يستطيع أحد أن يسيطر على جوارحه ، لأن الملك يومئذ للواحد القهار ، وسفقت ولاية الفرد على جوارحه ، وتشهد هذه الجوارح على صاحبها بما فعلته وقت أن كانت مقهورة لإرادته

وهكذا نعلم أن التغيير كله في انفس التي تدير الجوارح

وقول الحق سبحانه

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ . . (١١) ﴾

[الزمر]

يدلنا أنه سبحانه لا يتدخل إلا إذا عنت الأمور ؛ وفسد كل المجتمع ، واجتفت النفس اللوامة من هذا المجتمع ، واحتفى من

(١) عن الشيء يعني ظهر أمامك ، لسان العرب مادة عين [ والمعصود أن يظهر الفواحش والمعاصي في المجتمع وتفسد

يَقْدِرُونَ عَلَى الرُّدِّعِ - وَلَوْ بِالْكَلِمَةِ - مِنْ هَذَا الْمَجْتَمَعِ هَذَا يَتَدَخَّلُ  
الْحَقُّ سَبْحَانَهُ .

وَحِينَ يُغَيِّرُ النَّاسَ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَيُصَحِّحُونَ إِطْلَاقَ إِرَادَةِ عَلَى  
الْجَوَارِحِ : فَيَنْصَلِحُ أَعْمَالَهُمْ ، وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَنْظُرُوا أَنَّ هُنَاكَ شَيْئًا يَتَأَبَّى  
عَلَى اللَّهِ

وَلِذَلِكَ يَتَابَعُ سَبْحَانَهُ فِي نَفْسِ الْآيَةِ

﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ..﴾ (١١) [الرعد]

وَعَلَيْكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِالْأَمْرِ مَعًا

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ..﴾ (١٢) [الرعد]

و ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ..﴾ (١٣) [الرعد]

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْوَالِ﴾ (١٤) [الرعد]

إِيَّاكَ أَنْ تَفْهَمَ أَنَّ هُنَاكَ سُلْطَةَ تَحْوِيلٍ دُونَ أَنْ يُغَيِّرَ اللَّهُ مَا يَرِيدُ  
تَعْيِيدَهُ ، وَلَنْ يَجِدُوا صَدْرًا حَتُّوًّا آخَرَ يُرْتُّ عَلَيْهِمْ إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِمُ  
السُّوءَ ، فَلَيْسَ هُنَاكَ وَالْآخِرُ يَأْخُذُهُمْ مِنَ اللَّهِ وَيَتْرَكِي شَأْنَهُمْ  
وَأَمْرَهُمْ مِنْ حُلْبِ الْحَيْرِ وَدَفْعِ الشَّرِّ .

وَلِذَلِكَ يَقُولُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْوَالِ﴾ (١٥) [الرعد]

وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه عن طاهرة في الكون لها وجهان  
وتُستقبل استقباليين أحدهما ساراً ، والآخر مُرْعِج : سواء هي  
النفس الواحدة أو في الجماعة الواحدة

فيقول الحق سبحانه

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا  
وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾

وكلُّنا يعرف البرق ، ونحن نستقبله بالخوف مما يُرْعِج وبالطمع  
فيما يُحِبُّ وَيُرْغِب ، فساعة يأتي البرق فنحن نخاف من الصواعق ،  
لأن الصواعق عادة تأتي بعد البرق ، أو تأتي السحابات الممطرة  
وهكذا يأتي الخوف والطمع من الظاهرة الواحدة أو أن يكون  
الخوف لقوم ، والرجاء والطمع لقوم آخرين .

والمثل الذي أضربه لذلك دائماً هو قول أحد لعفانين العرب  
وصف سيفه بأنه : « نَتَحُّ لِحَابِهِ ، وَحَتَفٌ<sup>(١)</sup> لَأَعْدَائِهِ » .

والمثل الآخر الذي أضربه مـ رواه لنا أمير بلدة اسمها  
« الشريعة » وهي تقع بين الطائف ومكة ، وقد حدثنا أمير الشريعة  
عام ١٩٥٣ عن امرأة صالحة تحفظ القرآن ، اسمها « آمنة » .

هذه المرأة كان لها بيتان ، تروجتا ، وأخذ كل زوج زوجها إلى

(١) الحَتَف الموت وجمعه حَتُوف والحَتَف الهلاك [ لسان العرب - مادة ح ت ف ]

مَحَلُّ إقامته ، وكان أحدُ زَوْجَي البنتين يعمل في الزراعة ، والآخر يعمل بصناعة « الشُّرْكُ »<sup>(١)</sup> ، وقالت أُمّة لزوجها : ألا تذهب لمعرفة أحوال البنّتين ؟ فذهب الرجل لمعرفة أحوال البنّتين ، فكان أول مَنْ لقي في رحلته هي أُمّته المقروجة مَمْنٌ يحسُّ ويخسر ، فقال لها كيف حالت وحال زوجك وحال الدنيا معك أنت وزوجك ؟

فالت يا أُمّ ، أنا معه على خير وهو معي على خير ، وأما حال الدنيا ، فَدَاعُ لَنَا اللهُ أَنْ يُزِلَّ الْمَطَرُ ، لَأَنَّا حَرِثْنَا الْأَرْضَ وَبَذَرْنَا الْبُذُورَ ، وَفِي أَنْتِظَارِ رَيِّ السَّمَاءِ .

فرفع الأب يديه إلى السماء وقال : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْغَيْثَ لَهَا

وذهب إلى الأخرى ، وقال لها : ما حالك ؟ وما حال زوجك ؟ فقالت : خير ، وأرحوك يا أباي أن تدعوا لَنَا اللهُ أَنْ يَمْنَعَ الْمَطَرُ ، لَأَنَّا قَدْ صَنَعْنَا الشُّرَاكَ مِنَ الطَّيْرِ ، وَلَوْ أَمْطَرَتْ لَفَسَدَتْ الشُّرُكُ ، فَدَعَا لَهَا .

وعاد إلى امرأته التي سألته عن حال البنّتين ، فدعا عليه الخبيث وقال : هي سَنَةٌ سَيِّئَةٌ عَلَى وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا ، وروى لها حال البنّتين ، وأضاف : ستكون سنة مُرْهِقَةٌ لَوَاحِدَةٍ مِنْهُمَا

فقالت له أُمّة : لو صبرت ، لَقُلْتُ لَكَ : إِنْ مَا تَكُولُهُ فَدَ لَا يَتَحَقَّقُ ، وسبحانه قادر على ذلك

قال لها : ونعم بالله ، قولي لي كيف ؟ فقالت أُمّة : أَلَمْ تَقْرَأْ قَوْلَ اللهِ

١ الشُّرْكُ : جمع شرِك ، وهو حبال الصائد ، وكذلك : يصب الطير [ لسان العرب - مادة : شرِك ]

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي<sup>(١)</sup> السَّحَابَ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا<sup>(٢)</sup> فَتَرَى  
الْوَدْقَ<sup>(٣)</sup> يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ<sup>(٤)</sup> فَيُصِيبُ  
بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ .. (٤٣)﴾ [النور]

فسجد الرجل لله شكراً أن رزقه بروج تُعصيه على أمر دينه ،  
ودعا اللهم اصْرِفْ عن صاحب الشُّرَاكِ المَطَرُ ، واقْضِرْ بالمَطَرِ على  
صاحب الحرْث . وقد كان .

وهذا المثل يوضح جيداً معنى الخوف والطمع عند رؤية الرعد  
﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ حَوَافًا وَطَمَعًا .. (١٢)﴾ [الرعد]

إما من النفس الواحدة بأن يخاف الإنسان من الصواعق ، ويعلم  
في نزول المطر أو من متقابلين ، واحد ينفعه هذا ، وواحد يضره  
هذا

ويضيف الحق سبحانه

﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢)﴾ [الرعد]

- (١) أُرْجَاهُ - ساقط برفق - وقال تعالى عن السفن ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْسِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ .  
(٣٦)﴾ [الإسراء] أي يدعمها ويُسيِّرها برفق فوق الماء [ القاموس القويم ٢٨٤/١ ]  
(٢) الركام - السحاب المتراكم بفضه فوق بعض [ لسان العرب - مادة ركم ]  
(٣) الودق - المطر شديد وهينه وقوته تعالى ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ  
خِلَالِهِ (٤٣)﴾ [النور] أي المطر يخرج من حلال السحاب المتراكم في السماء [ القاموس  
القويم ٢٢٧/٢ ]

- (٤) البرد - جبال صغار من الثلج تسقط مع المطر أحياناً [ القاموس القويم ٦٢/١ ]



ونحن نعلم أن السحاب هو الغيم المتراكم : ويكون ثقیلاً حين يكون مُعْبِئاً ، وهو عكس السحاب الخفيف الذي يبدو كُنُفٌ<sup>(١)</sup> القطن ويُقال عند العرب : لا تستبطيء الخيل ، لأن أبطأ الدلاء فيضاً أملؤها ، وانتقل لسحاب مشياً أحفلها<sup>(٢)</sup> .

حين تنزل الدُّر في البئر ، وترفعه ، فالدُّر المَلَان هو الذي يرهقك حين تشده من البئر أما الدلو الفارع فهو خفيف لحظة جذبته خارج البئر ، وكذلك السحاب الثقال تكون بطنته لما تحمله من ماء ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُ مِنْ خِيفَتِهِ  
وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ  
يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ<sup>(٣)</sup>﴾

وسبق أن جاء الحق سبحانه بذكر البرق وهو صوتي ، وهذا يأتي بالرعد وهو صوتي ، ونحن نعرف أن سرعة الضوء أسرع من سرعة الصوت ، ولذلك جاء بالبرق أولاً ، ثم جاء بالرعد من بعد ذلك .

وحين يسمع أحد العامة واحداً لا يعجبه كلامه ، يقول له

(١) الخنف جمع نُفْة ، وهو ما تنفثه بالصابك من ثوب أو غيره [ لسان العرب - مادة

نكف ]

(٢) الحفل اجتماع الماء في حفلة مدخل الماء مُتَمَسِّع وعملت السماء اشتد مطرها

[ لسان العرب - مادة حفل ]

(٣) المحال من الله العلقاب على التأكيد والتدبير المتحكم المتيقن ، بهم يعاجلون ويكيون لإبطال الدين والله شديد العقاب لهم على هذه المسامحة الباطلة وهو قوي يحمي التدبير لإبطال كيدهم وإفساد تدبيرهم [ القاموس القديم ٢/٢١٨ ]

« سمعت الرعد » ، أى . يطلب له أن يسمع الصوت المزعج الذى يُعجب مَنْ يسمعه . ولما أن نطقه أن المزعجات فى الكون إذا ما ذكرت مُسَبَّحةً لربها فلا تنزعج منها أبداً . ولا تظن أنها نعمة تُشَارُ فى الكون . بل هى نعمة تمتزج ببقية أنعام الكون .

ونحن نفهم أن التسبيح للعاقل القادر على الكلام ، ولكن هذا عدد الإنسان . لأن الذى خلق لكانات كلها علّمها كيف يتفاهم ، مثلم علّم الإنسان كيف يتفاهم مع بنى جنسه . وكذلك علّم كل جنس لغته

وكلنا نقرأ فى القرآن ماذا قالت النملة حين رأت جنود سليمان ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِيكُمْ لَا يَخْطِبَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٨) [المل]

وقد سمعها سليمان عليه السلام . لأن الله علّمه منطوق تلك اللغات ، ونحن نعلم أن الحق سبحانه علّم سليمان منطق الطير ، قال تعالى .

﴿عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ..﴾ (١٦) [المل]

ألم يتخاطب سليمان عليه السلام مع الهمد وتكلم معه ؟ بعد أن فتّ سليمان بتعليم الله له شفرة حديث الهمد . وقال الهمد لسليمان

﴿أَحْطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاءٍ يُقِيمُ﴾ (٢٢) إني وجدتُ امرأةً تملكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٣) [المل]

إنّ فكلُّ شيء له لغة يتفاهم بها لقضاء مصالحه . ومن يفهم الله عليه من أسرار خلقه يُسمعه هذه اللغات ، وقد فاض الحق سبحانه على سليمان بذلك . ففهم لغة الطير وتكلم بها مع الهمد ، وقال له

﴿ ذُهِبَ بِكُنَازِي هَذَا فَأُتِيَ بِهِمْ أُنْمُوتُ عَنْهُمْ قَابِضُ مَادَا يَرْجِعُونَ ﴾

[النمل]

﴿ ٧٨ ﴾

وهكذا عرفنا بقصة سليمان وبلقيس ، وكيف فهم سليمان منطق الطير وتكلم بها مع الهمد ، وهكذا علمت كيف يتعلم الإنسان لغات متعددة ، فحين يذهب إنسان إلى مجتمع آخر ويبقى به مدة ، فهو يتعلم لغة ذلك المجتمع ، ويمكن للإنسان أن يتعلم أكثر من لغة

وقد عرض الحق سبحانه مسألة وجود لغات للكائنات في قصة النملة وقصة الهمد مع سليمان : وهما من المرتبة التالية للبشر ، ويعرض الحق سبحانه أيضاً قصة وجود لغة لكل كائن من مخلوقاته في قوله

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء]

وكان الجبال تفهم تسبيح داود وتتردده من خلفه

أيضاً يقول الحق سبحانه

﴿ إِنَّ سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشَى وَالْإِشْرَاقِ ﴾ [النمل]   
 ﴿ كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ [٧٩]

[س]

وكذلك يخاطب الله الأرض والسماء ، فيقول

﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَنْتِنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ [٨٠]

[فصلت]

فيمتثلان لأمره :

﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [٨١]

[فصلت]

(١) الأواب المسيح أوبى معه سبى معه ورجعى المسيح والأواب صيغة مبالغة أى كثير الرجوع إلى الله تعالى [ لسان العرب - مادة أوب ، والفاموس القويم ١/ ٤٧ ]

وهكذا نعلم أن لكل جنس لغة يتفاهم بها ، ونحن نلاحظ أن لكل نوع من الحيوانات صوتاً يختلف من نوع إلى آخر ، ويدرس العلماء الآن لغة الأسماك ، ويحاولون أن يضعوا لها معجماً .

إذن ، قساعة تسمع

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ.. (٤٤)﴾ [الإسماء]

نافهم أن ما من كائن إلا وله لغة ، وهو يُسَبِّحُ بها الخالق الأكرم<sup>(١)</sup>

ثم يقول تعالى

﴿وَلَنْكُنَّ لَهُ تَنْفَهُوتٌ تَسْبِيحُهُمْ.. (٤٤)﴾ [الإسماء]

مثملاً لا يفقه جاهل بالإنجليزية لغة الإنجليز

وقال البعض إن المُرَادُ هنا هو تسبيح الدلالة<sup>(٢)</sup> على الخالق وقد حكم سبحانه بأننا لا نستطيع فهم تسبيح الدلالة

ولكني أقول : إن العلم المعاصر قد توصل إلى دراسة لغات الكائنات وأثبتها ، وعلى ذلك يكون التسبيح من الكائنات بالنطق والتفاهم بين متكلم وسماع ، بل ولتلك الكائنات عواطف أيضاً

(١) عن أمير رضي الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ على قوم وهم رقود على أبوابهم ورواحل فقال لهم : اركبوا سالمة ، ودعوها سالمة ، ولا تتعبوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأحواق فربما مركوبة خير من راكبتها وأكثر ذكراً لله منه ، أخرجه الإمام أحمد في مسنده ( ١٣٩/٣ ، ٤٤٠ ) وابن حبان ( ٢٠٠٢ عوارض الظنن )

(٢) وكما تطلق الدلالة على تسبيح الخالق ، فأتت عندما ترى دعماً إلهامية تسبيح الله في حين أن كل مخلوق يسبح بلغته الخاصة التي لا يستطيع مقبها ، فيجتمع تسبيحين الرائي لإبداع الخالق وتسييح المرئي بلغته [ لسان الإنسان مادة دل من ٤٦٧ ج ١ ]

وتحن فرى العلماء فى عصرها يدرسون عواطف الشجر تجاه من يسقيه من البطر ، وهناك تجربة تتحدث عن قياس العلماء لذبذبة النباتات أثناء رؤيه بواسطة مُرايع مسئول عنه ، ثم مات للرجل ، ففاسوا ذبذبة تلك النباتات ، فوجدوها ذبذبة مضطربة ، وكان تلك النباتات قد حرمت على من كان يعنى بها ، وهكذا توصل العلماء إلى معرفة أن النباتات لها عواطف

وقد بين لنا الحق سبحانه أن الجمادات لها أيضاً عواطف ، بدليل قوله عن قوم فرعون

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ۖ﴾ [الزمر]

فالسما والارض قد استراحتا لذهاب هؤلاء الاشرار عن الارض ، فالسموات والارض ملتزمتان مع الكون التزاماً لا تخرج به عن مُرات الله ، وحين ياتى كافر ليصنع بكفره نكساراً مع الكون ؛ فهى تفرح عند اختفائه ولا تحزن عليه

ومما دامت السماء والارض لا تبكيان على الكافر عند رحيله ، فلا بد أنهما تفرحان عند هذا الرحيل ، ولا ندّ أنهما تبكيان عند رحيل المؤمنين .

ولذلك قول الإمام على كرم الله وجهه إذا مات ابن آدم بكى عليه موضعان ، موضع فى السماء ، وموضع فى الارض ، وأما

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (١٤٢/٤) قول مجاهد فى تفسير آية النمل ٢٩ : ما مات

مؤمن إلا بكى عليه السماء والارض أربعين صباحاً قال فقلت به أتبكي الارض ؟

فقال انعجب ؟ وما للارض لا تبكى على عبد كان يصرها بالركوع والسجود ؟

وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتكبيره وتسميحه فيها دوى كوى النمل ،

مَوْضِعِهِ فِي الْأَرْضِ قَمَوْضِعٍ مُصَلَّاهُ : وَأَمَّا مَوْضِعُهُ فِي السَّمَاءِ  
فَمُصَعَّدُ عَمَلِهِ <sup>(١)</sup> .

وهكذا نجد أن معنى قول الحق سبحانه .

﴿وَيَسِّحُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ .. (١٣)﴾ [الرعد]

أى يُنَزِّه الرعد ويُمجِّد اسم الحق - تبارك وتعالى - تسبيحا  
مصحوبا بالحمد .

ونحن حين نُنَزِّه ذات الله عن أن تكون مثل بقية الذوات ، وحين  
ننزه فعل الله عن أن يكون كأفعال غيره سبحانه ، وحين ننزه صفات الله  
عن أن تكون كاصصفات ، فلا بد أن يكون ذلك مصحوبا بالحمد له  
سبحانه ، لأنه مُرَّةٌ عن كل تلك الاعبار ، وعينا أن نُسرَّ من أنه مُنَزَّه

ويقول تعالى

﴿وَيَسِّحُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ .. (١٣)﴾ [الرعد]

ولقائل أن يتساءل كيف تخاف الملائكة من الله ؟ وهم الذين قال  
فيهم الحق سبحانه

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم]

وأقول إن الملائكة يحافون الله حيفة المهابة ، وحيثه الجلال  
ونحن نرى في حياتنا من يحب رئيسه أو قائده ، فيكون خوفه مهابة ،  
فما بالنا بلحق سبحانه وتعالى الذي تُحبه ملائكته وتُهاب جلاله  
وكماله ، صحيح أن الملائكة مقهورون ، لكنهم يخافون ربهم من قوتهم .  
وساعة تسمع الملائكة الرعد فهم لا يخافون على أنفسهم ،

(١) أورده ابن كثير في تفسيره ( ١ : ٤ ) وعنه على بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأورد  
أيضا نحوه عن ابن عباس

ولكنهم يخافون على الناس ، لأنهم حفظة عليهم ، فالملائكة تعي مهمتها كحفظة على البشر ، وتخشى أن يربكهم أى أمر ، وهم يستغفرون لمن في الأرض<sup>(١)</sup> .

إذن فقله

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ حِمْيَرِهِ... ﴾ (١٢) [الرعد]

يُبين لنا أن الملائكة تخاف على البشر من الرعد ، فهم مكلفون بحمايتهم ، مع خوفهم من الله مهابة وإجلالا .

ويقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف

« ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان يبرلان فيقول أحدهما اللهم أعط متقنا خلفا . ويقول الآخر اللهم أعط مُفسِكا ثلثا »<sup>(٢)</sup> .

وقد يظن ظان أن هذه دعوة صد المُفسك ، ولكنى أقول لماذا لا تأخذها على أنها دعوة خير ؟ فالمُنفق قد أخذ ثوابا على ما أدى من حسنة ، أما المُفسك فسحين يستليه الله بتلف بعض من ماله ، ويصبر على ذلك ، فهو يأخذ جزاء الصبر .

ويتابع سبحانه في نفس الآية

﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُعَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحِمَالِ ﴾ (٣) [الرعد]

(١) يقول تعالى ﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ الْأَرْضَ مِنْ حَرَّةِ رَبِّهِمْ يَحْمَدُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَرِيمِ ﴾ (٢٧) [مائدة]

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ( ١٠١٠ ) ، وقال النووي في شرحه ، قال الطلاء هذا في الإنفاق في الصالحات ومكارم الأخلاق رعى الغيال والضيقات والصقعات وتحو ذلك ، بحيث لا يُثم ولا يسمى سرقا والإمسك المذموم هو الإمساك عن هذا ،

ولا بُدَّ من وجود حَدَّثٍ أليم في الكون لينتجبه هؤلاء الناس من عقلتهم ، وما هو ذا رسول الله ﷺ ، وقد جاءه اثنان من المعادين الكبار أريد بن ربيعة ، آخر لبيد بن ربيعة ، وعامر بن الطفيل ، ليُحَادِلَاهُ بِهَدَفِ التَّلَكُّؤِ رَابِحِثٍ عَنْ هَفْوَةٍ فِيمَا يَقُولُهُ أَرَعَجَزَ فِي مَعْرِفَتِهِ ، وَلَمْثَلْ مَا قَالَهُ مُجَادِلُونَ مِثْلَهُمْ ، وَأُورِدَهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ

﴿ أَلَمْ نَكُنَّا مِنْكُمْ تَرْابًا وَعِظَامًا أَكُنَّا نَمُوتُونَ ﴾ (٨٦)

[المؤمنون]

وكذلك استعمال بعض من المجادلين للعذاب<sup>(١)</sup>

وجاء هذان الاثنان وقالوا لرسول الله ﷺ هل ربنا مصنوع من الحديد أم من النحاس ؟ وهما قد قالوا ذلك لأيهما من عبدة لأصنام المصنوعة من الحجارة والأقوي من الحجارة هو الحديد أو النحاس ؟ فدعا رسول الله ﷺ ؛ فنزلت صاعقة ، فأحرقتهم<sup>(٢)</sup>

وإرسال الصواعق هنا آية قرآنية ، ولا بد وأن تأتي آية كونية تصدقها ، وقد حدثت تلك الآية الكونية

ويقول الحق سبحانه

﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ .. ﴾ (١٣)

[الرعد]

ولجدال في الله أنواع متعددة ، جدال في ذاته ؛ وجدال في

(١) قال تعالى ﴿ وَقَالُوا إِنَّا عَمِلُ سَاءَ عَمَلٍ فَسَرْنَا بِهِمِ الْفِتْنَةَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (١٦) [س] وقال أيضاً ﴿ وَاسْتَغْفِرُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَعَلْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِيهَا سَفَكًا وَلَهُمْ لَاقِبَةٌ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ وَهُمْ لَا يُغْنَوْنَ ﴾ (٥٢) [الحكيات]

(٢) أورد هذه القصة القرطبي في تفسيره ( ٣٦٣١/٥ ، ٢٦٣٢ ) وعزاها لابن عباس ، وكنا ابن كثير في تفسيره ( ٥٠٦/٢ ) وأوردما الواحد في أسباب النزول ( ص ١٥٦ )



صفاته ، أو جدال في الحسنة والسيئة ، وقد جادلوا أيضاً في إرسال آية مادية<sup>(١)</sup> عليه ، لأنهم لم يكتفوا بالقرآن كآية ؛ على الرغم من أن القرآن آية مميزة ومن جنس ما برعوا فيه ، وهو اللغة

وقد جادلوا أيضاً في الرد ؛ وقالوا : إن الرد ليس له عقل ليسبح ، والملائكة لا تكلف لها ، فكيف تُسبح ؟

ولكن الحق سبحانه قال : إنه قادر على أن يرسل الصواعق ويصيب بها من يشاء ، فيأتي بالخير لمن يشاء ، ويصيب بالضرر من يشاء ، فهو هم يملكون كل الوقت لهذا الجدل ؛ بعد أن خلق الحق كل هذا الكون ؟

هل لديكم الوقت لكل تلك المعارضة بقصد الجدل والعناد المذموم ؟ والجدل في حد ذاته قد يحسن استخدامه وقد يساء استخدامه ، والحق سبحانه قال لنا

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ (٤٦) [التكوير]

وقال أيضاً

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا<sup>(٢)</sup> وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ...﴾ (٤٦) [المجادلة]

(١) قال تعالى عنهم ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَجِيءَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ بِبُرْهَانٍ﴾ (٤٦) أو تكون لك جنة من بابل وعجب فتعبر الأنهار خلالها تفجيراً (٤٧) أو تسقط السماء كما رعبت علينا كسفاً لو تأتي بالله والملائكة قبيلاً (٤٨) لو يكون لك رب من رُقِرَ أو ترقى في السماء وتؤمن برؤيتك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه . (٤٩) [الإسراء]

(٢) نزلت هذه السورة بسورة المجادلة في شأن حولة بنت ثعلبة وكانت تشتكي زوجها أوس بن الصامت أنها قالت لرسول الله ﷺ يا رسول الله ، أبى شيأبي وبثرت له بطنى ، حتى إذا كبر سمي واسطخ ولبنى ظلمت منى ، أتى قال لها أنت حرام على كلهم أمي [انظر : أساليب الدلول للواحدى ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ]

وهذا حَدَلُ المراد منه الوصول إلى الحق .

وَيُذِيلُ الله آية سورة الرعد بقوله .

﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٤)﴾

[الرعد]

ويقال : « محل فلان بفلان » أى كاذ له كيداً خفياً ومكر به .  
والمحال هو الكيد والتدبير الخفى . ومن يسأون إليه من البشر هم  
اضعاف الدين يعجزون عن مواجهة الخصم علانية ، فيبيئون له  
بإخفاء وسائل الإلزام .

وهذا يحدث بين البشر وبعضهم البعض ، لأن البشر لا يعلمون  
الغيب ، لكن حين يكيد الله ، فلا أحد يقادر على كيده ، وهو القاتل  
سبحانه

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ  
رُودًا (١٧)﴾

[الطارق]

لأن كيد الله لا غالب له ، وهو كيد غير مفضوح لأحد ، ولذلك  
قال تعالى

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾

[الأنفال]

هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُبَيِّنُوا لِرَسُولِهِ ﷺ ، وَأَرَادُوا قَتْلَهُ ، وَجَاءُوا بِشَابٍ  
مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ لِيَمْسِكَ سَيْفًا كَيْ يَتَوَزَّعَ دَمُهُ بَيْنَ الْقَبَائِلِ ، وَتَرْصِدُوا لَهُ  
الْمَرْصَادَ ، وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَتْ تَصَاحِبُهُ الْعَنَاءَةُ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ  
مَلْهُمًا قَوْلَهُ تَعَالَى

﴿فَأَعْشَاهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ (٤١)﴾

[يس]

وبذلك أَوْضَحَ لَهُمْ أَنَّهُمْ لَنْ يَسْتَطِيعُوا دَفْعَ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ .

لا مُجَابَهة وَمُجَاهَرَة ، ولا كَيْدًا وَتَبْيِيحًا ، حتى ولو اسْتَعْنِثُم بِالْجِنِّ ،  
فَالْإِنْسَانُ قَدْ يَمْكُرُ وَيُؤَايِجُ ، وَحِينَ يَفْشَلُ قَدْ يَحَاوِلُ الِاسْتِمَاعَةَ بِقُوَّةٍ مِنْ  
جِنْسٍ آخَرَ لَهُ سُلْطَانٌ كَسُلْطَانِ الْجِنِّ ، وَحَتَّى ذَلِكَ لَمْ يَفْلَحْ مَعَهُ ﷺ ،  
فَقَدْ حَاوَلُوا بِالسَّحَرِ ، فَكَشَفَ اللَّهُ لَهُ بِالرُّزْيَا مَوْقِعَ وَضْعِ السَّحَرِ<sup>(١)</sup>

وذهب بعض من صحابته ليستخرجوا السحر من الموضع الذي  
حدده رسول الله لهم

وهكذا أوضح لهم الحق سبحانه أن كل ما يفعلونه لن يحقق  
برسوله ﷺ ، فسبحانه

﴿ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .. ﴾ (٢٦)

وهكذا كان الحق سبحانه وما زال وسيظل إلى أن يبرث الأرض  
ومنَّ عليها ، وهو شديد المحال .

ويقول سبحانه من بعد ذلك .

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ  
شَيْءٌ إِلَّا كِبَاسٌ عَلَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِيَةٍ وَمَا دُعَاءُ  
الْكَاذِبِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾

وسبحانه قد دعانا إلى أن نؤمن بـإله واحد وهي دعوة حق .

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت : « سحر النبي ﷺ حتى كان يظن إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله . حتى كان ذات يوم دعا ودعا ثم قال : أشعرون أن الله آتاني شيئا فيما فيه شفائي ؟ آتاني رجلا من محمد أهدمما عند رأسي والأجر عند رجلي » . فقال أحدهما للآخر : ما وجع الرجل ؟ فقال مطبوع ( أي مسحور ) قال : ومن طبعه ؟ قال : بييد بن الأعصم قال : فيما ذا ؟ قال : في مشط ومشاطة وجفَّ طلعة ذكر قال : قاتل مر ؟ قال : في بئر بزان . أخرجه البخاري في صحيحه ( ٢٢٦٨ )

والدين من دونه يدعون لإله غير حق ، والضمير هنا قد يعود إلى الله ، فكان الله قد دعا خلقه إلى كلمة الحق وهي « لا إله إلا الله » ، وهو سبحانه قد شهد بأنه لا إله إلا هو ، وشهدت الملائكة شهادة المشهد ، وشهد بها أولو العلم شهادة الاستدلال<sup>(١)</sup> ، تلك هي دعوة الحق .

أو « له ، أي للإنسان الذي يدعو إلى الحق ، وحين يدعو الإنسان فهذا يدل على أن أمراً قد خرج عن نطاق أسماه ، لذلك يدعو مَنْ يعينه على هذا الأمر .

والدعاء لَوْثٌ من الطلب ، إلا أن الطلب يختلف باختلاف الطالب والمطلوب منه ، فإن كان الطالب أدنى من المطلوب منه لا يُقال له فعل أمر ، كقولك « اغفر لي يا رب » وهذا لا يقال له فعل أمر ، بل يقال له دعاء .

وهكذا ترى أنه إن كان فعل الأمر من الأدنى للأعلى ، لا سميّه فعل أمر بل سميّه دعاء ، والطالب الذكي هو مَنْ يلحظ افتناء الإعراب إن كان المطلوب هو من الأدنى إلى الأعلى ، فهو لا يقول « فعل أمر » بل يقول « فعل دعاء » مثل قول العبد لله « يا رب اغفر لي » ، وإن كان المطلوب من مُساوٍ ، فهو يقول « التماس » ، وإن كان المطلوب قد صدر من الأعلى للأدنى فهو « فعل أمر » .

وحين يدعو الإنسان ربه ، فهذا يعني أن أسباب العبد قد نفذت ، وهو يلجأ إلى مَنْ يعلم الكون ويملك كل الأسباب ، ولذلك فكلُّ مَنْ يدعو الله ، لأنه سبحانه القادر على إتمام مطلوب العباد ، ولا يُعجزه شيء .

ولكن إن دعوت مَنْ لا يستطيع ، فهذه دعوة لا تنفع العبد ، وهم

(١) قال تعالى ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ أُولُوا الْعِلْمِ قَالُوا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَزِينُ ﴾ [ال عمران]



كَانُوا يَدْعُونَ الْأَصْنَامَ ، وَالْأَصْنَامَ لَا نَصْرَ وَلَا تَنْفَعُ : فَالْصُّنَمُ مِنْ هَؤُلَاءِ لَا يَقْدِرُ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ لِنَفْسِهِ : فَقَدْ كَانَ مِنَ الْحَجَرِ .

وَبطبيعة الحال فالدعاء لمثل تلك الأصنام لا تحقق شيئاً ؛ لأنها لا تقدر على أى شيء

وهكذا يتأكد لنا أن دعوة الحق هي أن تدعو القادر ، أما الذين يدعون المعبودات الباطلة فإنها تخيب من يدعوها في مقصده . ولذلك يقول الحق سبحانه هنا

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ...﴾ (١٤)

لأنهم لا يملكون شيئاً فالصنم من هؤلاء لا يسمع فكيف يستجيب؟ ثم يضرب الحق سبحانه المثل بشيء مُحَسَّنٌ ، بفعله كلها ، فيقول ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ...﴾ (١٤)

فالعطشان ما أن يرى ماءً حتى يمدَّ يده إليه ليغترف منه ؛ لكن يده لا تصل إلى الماء ، هذا هو حال مَنْ يدعو غير الله ، فقد سأل غير القادر على إنفاذ مطلبه ، وهكذا يكون دعاء غير الله ، وهو دعاء في ضلال وقي غير متناهة

ويقول سبحانه من بعد ذلك

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا

وَعِلَانًا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (١٥)

(١) الأصل الوقت حين تصفر الشمس بعد العصر إلى المغرب ، وقد يراد به العشي والجمع أهل وجمع الجمع أصال قال تعالى ﴿وسبحوه بكرة وأصيلاً﴾ (٢١) [الأحراب] وقال تعالى ﴿يسبح له فيها بالغدو والآصال﴾ (٢٢) [النور] [القمر من القويم

والسجود كما نعرفه حركة من حركات الصلاة ، والصلاة هي وقفة لعبد بين يدي ربه بعد ندائه له ، والصلاة أقوال وأفعال مبتدأة بالكبير ومُختتمة بالسلام<sup>(١)</sup> ، بفرائض وسنن ومستحبات مخصوصة .

والسجود هو الحركة التي تبرز كامل الخضوع لله ، فالسجود رَضْع لأعلى ما في الإنسان في مُستوى الأدنى وهو قَدَم الإنسان ، ونجد العامة وهم يقولون : « لا ترفع رأسك على » أي لا تتعالى على ، لأن رَفْع الرأس معناه التعالي ، وتحفيصها بالركوع أو السجود هو إظهارٌ للخضوع ، فإذا قال الله

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ (١٥٠) [الرعد]

عليك أن تفهم أن هذا ما يحدث فعلاً ، وإن لم يتسع ذهنك إلى فهم السجود كما يحدث منك ، فليسمع ظنك على أنه مُنتهى الخضوع والذلة لله الأمر

وأنت تعلم أن الكون كله مُسخرٌ بأمر الله ولأمر الله ، والكون خاضع له سبحانه ، فإن استجاب الإنسان لأمر الله بالإيمان به فهذا خير ، وإن لم يستجب الإنسان مثلاً بفعل الكافر - فعليه سوء عمله

ولو استقصيت المسألة بدقة الفهم ، لوجدت أن الكافر إنما يتعمد بإرادته المُسيطرة على جوارحه ، لكن بقية أبعاضه مُسخرة ، وكلها تؤدي عملها بتمخير الله لها ، وكلها تُنفذ الأوامر الصادرة من الله لها ، وهكذا يكون الكافر مُتمرداً ببعضه ومُسخرّاً ببعضه الآخر ، فحين يُمرسه الله ؛ أيستطيع أن يعصى ؟

(١) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « مفتاح الصلاة الطهور ، وتحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم » أخرجه أحمد في مسنده ( ١٢٣/١ ، ١٢٩ ) والبارقي في سننه ( ١٧٥/١ ) والترمذي في سننه ( ٨/١ ) وقال : « هذا الحديث أصح شيء في هذا وأصح »

طبعاً لا . وحين يشاء الله أن يوقف قلبه أيقرر أن يجعل قلبه  
يخالف مشيئة الله ؟ طبعاً لا

إذن فالذي يتعمّد على التمرد على الله في العبادة ، وله دربة  
على هذا التمرد عليه أن يجرب التمرد على مرادات الله فبما لا احتار  
له فيه ، وسيقابل العجز عن ذلك .

وعليه أن يعرب أنه لم يتمرد بالكفر إلا بما أوسع الله له من  
اختيار ، بدليل أن تسعة وتسعين بالمائة من قدراته محكوم بالقهر ،  
وواحد بالمائة من قدراته مترك للاختيار ، وهكذا يتأكد التفسير .

وحضوع الكافر في أغلب الأحيان وتمرد في البعض الآخر ،  
هو منتهى العظمة لله ، فهو لا يجرو على التمرد بما أريد الله مسخراً  
منه

ولفائل أن يقول ولماذا قل الله هنا

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ﴾ (١٥)

[الرعد]

ولم يقل « ما في السماوات وما في الأرض » ؟

وأقول ما دام في الأمر هنا سجود ، فهو دليل على قمة لعقل ،  
وسبحانه قد جعل السجود هنا دليلاً على أن كافة الكائنات تعقل  
حقيقة الألوهية ، وتعبد الحق سبحانه

وهو هذا بقول

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ۖ﴾ (١٥)

[الرعد]

وهنا يُعَمَّا الحق سبحانه أن كل الكائنات ترضخ لله سحوداً ،  
سواء لمُسَخَّر ، أو حتى أبعاض الكافر التي يستخدمها بإرادته في  
الكفر بالله ، هذه الأبعاض تسجد لله

ويتابع الحق سبحانه

﴿وَقَلَّاهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾ (١٥)

[الرعد]

ونحن في حياتنا اليومية نسمع من يقول « فلان يشبع فلاناً كملته » ، أى لا يتأبى عليه أبداً مطلقاً ، ويلزمه كأنه الظن ؛ ونعلم أن ظن الإنسان تابع لحركته .

وهكذا نعلم أن الظلال نفسها خاضعة لله ؛ لأن أصحابها خاضعون لله ؛ فالظل يتبع حركتك ، وإياك أن تظن أنه خاضع لك ، بل هو خاضع لله سبحانه .

وسبحانه هنا يُعَبِّد تلك المسألة بالغدو والأصال ، و « الغدو » جمع « غداة » ، وهو أول النهار ، والأصال هو المسافة الزمنية بين العصر والمغرب .

وأنت حين تقيس ظلّك في الصباح ستجد الظل طويلاً ، وكلما اقتربت من الشمس طال الظل ، وكلما اقترب الزوال يقصر الظل إلى أن يتلاشى ، وأبرر ما ينمايل الظل بنمايل صاحبه هو في الصباح وبعد العصر .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَمَّا عِدَّتُمْ مِنْ دُونِهِ  
أُولَئِكَ لَا يَتَذَكَّرُونَ لَأَمْسِمْهُمْ مَعَارَ لَا ضَرَّ قُلْ هَلْ نَسْئُرُ الْأَعْيُنَ وَالْبَصِيرُ أَمْ  
هَلْ نَسْئُرُ الْأَلْطَمَتِ وَالْثَوْرُ أَمْ جَعَلُوا بِهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَمَا يَخْلُقُ فَنَسْنَبْهُ  
الْمَخْلُوقَ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٨٧﴾

و . قل ، هي أمر الرسول أن يقول للكافرين ، وهناك في آيات أخرى يقول سبحانه

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (٨٧) [الرحرف]

(٨) تلك يافك كذب واقتوى بطلا والإناك الكذب وفلك كثير الكذب صيغة مبالغة



ونقائل أن يسأل لماذا جاء الحق سبحانه هنا بالإجابة ، ولم يتركها لتأتى منهم ؟

ونقول . إن مجيء الإجابة من الحق هنا عن الذى خلق السموات والأرض أقوى مما لو جاءت الإجابة منهم .

والمثل من حياتنا ، والله المثل الأعلى ، قد نقول لابنك الصغير المتشاكس مع أخيه الكبير من الذى جاء لك بالحلة الجديدة ؟ فبمرتك خجلاً ، لأنه يعلم أن من جاء له بالحلة الجديدة هو أخوه الأكبر الذى تشاحن معه ، فتقول أنت جاء لك بها أخوك الأكبر الذى تشاحت معه .

وهنا لحظة أن يقول رسول الله ﷺ لهم ما أمره الله أن يقول

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ﴾ (١٦)

[الرعد]

فسوف يرتبكون ، فيؤكد بهم بعد ذلك ما أمره الله أن يقول .

﴿ قُلْ لِلَّهِ ۖ ﴾ (١٦)

[الرعد]

ويقتاع أمر الله لرسوله ﷺ ، فيقول له الحق سبحانه

﴿ قُلْ أَتَأْتِدْتُمْ مِّنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ فَعُوبٌ رَّءَا ۖ ﴾ (١٦)

[الرعد]

وهكذا يكشف لهم الرسول ببلاغ الحق سبحانه مدى جهلهم ، وهم من سبق لهم الاعتراف بأن الله هو خالق السموات والأرض ، ولم يحسروا وحدهم على أن يتسبب خلق السموات والأرض للأصنام .

وهنا يوضح لهم الرسول ﷺ ما أمر الحق سبحانه بإيضاحه لقد خلق الله السموات والأرض أبعد ذلك تتخذون من

دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ، ولا ضرا ؟ بدليل أن  
الصنم من هؤلاء لا يقدر لهم على شيء .

ويتابع الحق سبحانه

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ  
جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ۖ ﴾ (١٠)

[الرعد]

وبطبيعة الحال لا يمكن أن يستوى الأعمى بالبصر

وساعة ترى ، أم ، اعلم أنها ضَرْبُ انْتِقَالِي ، وهكذا يستنكر  
الحق ما فعلوه بالاستفهام عنه ، لأنه شيء مُنْكَرٌ فعلاً

﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ (١١)

[الرعد]

أي لو كان هؤلاء الشركاء قد خلقوا شيئاً مثل خلق الله ،  
لكان لهم أن يعقدوا مقارنة بين خلق الله وخلق هؤلاء الشركاء ،  
ولكن هؤلاء الشركاء الذين جعلوهم مشاركين لله في الألوهية  
لا يقدرون على خلق شيء ، فكيف يختاروهم شركاء لله ؟

ويأتي الأمر من الحق سبحانه .

﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۖ ﴾ (١٢)

[الرعد]

وفي آية أخرى يُقَدِّمُ الحق سبحانه تفسيراً لتلك الآية

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ .

﴾ (٢٣)

[الحج]

فهؤلاء الشركاء لم يخلقوا شيئاً ، ولن يستطيع أحد الإدعاء  
بأن هؤلاء لشركاء عندهم نية الخلق ، ولكن مجيء ، لن ، هنا  
يؤكد أنهم حتى بتقنيهم لتلك المسألة ، فلن سوف يعجزون عنها ،

لأن نفى المستقبل يستدعى التحدى ، رغم أنهم آلهة متعددة ،  
ولو اجتمعوا قلن يخلقوا شيئا .

يستمر التحدى فى قوله سبحانه .

﴿ وَإِنْ يَسْتَبْهِنُوا الذُّبَابَ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمُطْلُوبِ ﴾  
[الحج]

أى . لو أخذ الذباب بساقه الرفيعة شيئا مما يملكون لما  
استطاعوا أن يستخلصوه منه .

وهكذا يتضح أن الحق سبحانه وحده هو الخالق لكل شيء ،  
وتلزم عبادته وحده لا شريك له ، وهو جلٌ وعلا المتفرد بالربوبية  
والألوهية ، وهو القهار المتكبر ، والغالب على أمره أبداً ، فكيف  
يكون من دونه مساوياً له ؟ لذلك لا شريك له أبداً

ويقول سبحانه من بعد ذلك

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ  
السَّيْلُ رَبْدًا رَابِعًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ  
أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَخَارٍ كَذَلِكَ بَصُرَ اللَّهُ الْخَلْقَ وَالْبَاطِلُ قَامًا الزَّبَدُ  
فَبَدَّ هَبٌ جُمَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ  
بَصُرَ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾

(١) زيد الماء ما يعلوه عند جفافه واضطربه من الرعدة وحطام الاشياء [ القاموس القويم

[ ٢٨٢/١ ]

(٢) الجفام الزبد مثل الزبد الذى ترمى به القدر عند الغليان وجيفا الوادى عثاما رعى

بالزيد والقذى [ سائر العرب . مادة جفا ]

وهو سبحانه يُنزل الماء من جهة العلو وهو السماء ، ونحم  
أن الماء يتبخر من البحار والأنهار والأرض التي تتلجج فيها  
العيون ليتجمع كسحاب ، ثم يتراكم السحاب بعضه على بعض ،  
ويعمر بمنطقة باردة فيساقط المطر .

يقول الحق سبحانه .

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ۚ ۝ (١٧) ﴾ [الرعد]

والرادي هو المنخفض بين الجبلين ، وساعة ينزل المطر على  
الجبال فهو يسيل على الأودية ، وكل وادٍ يستوعب من المياه على  
اتساعه .

ولن أن نلاحظ أن حكمة الله شامت ذلك كيلا يتحول الماء إلى  
طوفان ، فلو زاد الماء في تلك الأودية لفرقت نتيجة ذلك القرى ،  
ولخربت الزراعات ، وتهدمت البيوت .

ولمئل على ذلك هو عيضان النيل حين كان يأتي مناسبا في  
الكمية لصجم المجرى ؛ وكان مثل هذا القدر من العيضان هو الذي  
يسعد أهل مصر . أما إذا راد فهو يمثل خطرا يدهم القرى ويخربها

وهكذا نجد أن من رحمة الحق سبحانه أن الماء يسيل من السماء  
مطرا على قدر اتساع الأودية ، اللهم إلا إذا شاء غير ذلك

والحق سبحانه هنا يريد أن يضرب مثلا على ما ينفع الناس ،  
لذلك جاء بجزئية نزول الماء على قدر اتساع الأودية .

ومن رأى مشهد نزول المطر على هذا القدر يمكنه أن يلاحظ أن  
نزول السيل إنما يكس كل الفش والقدورات ، فتصنع تلك الزوائد

رَعْرَعَةً عَلَى سَطحِ الْمَاءِ الَّذِي يَجْرِي فِي الْوَادِي ، ثُمَّ يَنْدْفَعُ الْمَاءُ إِلَى  
الْعَجْرِي ، لِيُزِيحَ تِلْكَ الرُّغَاوِي جَانِبًا ، لِيَسِيرَ الْمَاءُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ صَافِيًا  
رَقْرَاقًا

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾  
[الرعد]

وهذا المثل يدركه أهل البادية لأنها صحراء وحال ووديان ،  
فماذا عن مثل يناسب أهل الحضر ؟

ويأتى الحق سبحانه بهذا المثل المناسب لهم ، فيقول  
﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ وَبَدَّ مُنَدِّئًا ﴾ [الرعد]

وانت حين تذهب إلى موقع عمل السحَّاد أو صانعي الذهب  
ولفضة ؛ تجده يُوقِدُ النار ليتحول المعدن إلى سائل مَصْهُور ، ويطفو  
فوق هذا السائل الزبد وهو الأشياء التي دخلت إلى المعدن ، وليست  
منه في الأصل ، ويبقى المعدن صافياً من بعد ذلك

والصَّانِعُ يصنع الذهب في النار ليُخْلَصَهُ مِنَ الشوائب ، ثم يصيف  
إليه من المواد ما يُقَوِّى صلابته ، أو ينقله من حالة النقاء إلى درجة  
أقل نقاءً ، وحالة النقاء في الذهب هي ما نطلق عليه « عيار ٢٤ » ،  
والأقل درجة هو الذهب من « عيار ٢١ » ، والأقل من ذلك هو الذهب  
من « عيار ١٨ »

(١) ربنا الشيء، يربو رداً وما قال تعالى ﴿ وَمَا آتَاهُمْ مِنْ دُونِ لَيْتِهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ فَلَا يَرْبُو عَنْهُ ﴾  
الله [الرعد]

والذهب الخالص النقاء يكون ليناً ، لذلك يُضيعون إليه ما يزيد من صلابته ، ويصنع الصائغ من هذا الذهب الحلى .

وهذا هو المثلُّ المناسب لأهل الحضرة ، حين يصنعون الحلى ، وهم أيضاً يصنعون أدوات أخرى يستعملونها ويستعملها مثلهم أهل البادية كالسيوف مثلاً ، وهي لا بُدَّ وأن تكون من الحديد الصلب ، ذلك أن كل أداة تصنع منه لها ما يباسدها من الصلابه ، فإن أراد الحداد أن يصنع سيفاً فلا بد أن يختار له من الحديد نوعية تتناسب مع وظائف لسيف

والرَّيْد في الماء النازل من السماء إنما يأتي إليه نتيجة مرور المطر أثناء نزوله على سطح الجبال ، فصلاً عن غسيل مجرى النهر الذي ينزل فيه ، وعادة ما يتراكم هذا الرِّيد على الحواف ، ليبقى الماء صافياً من بعد ذلك

رحمن تنظر إلى انبيل - مثلاً - فأنت تجد الشوائب ، وقد ترسبت على جانبي النهر وحوافه ، وكذلك حين تنظر إلى مياه السحر ، فانت تجد ما تلقيه المركب ، وهو طاف فوق الأمواج ، لتلقيه الأمواج على الشاطئ

وهكذا ضرب الله المثل لأهل الدار ولأهل الحضر بما يفيدهم في حياتهم ، سواء حلية يلبسوها ، أو أداة يعاملون بها ، أو أداة أخرى يستخدمونها في أوجه أعمالهم الحياتية ، وهم في كل ذلك يلحظون إلى تصفية المعادن التي يصنعون منها تلك الحلى أو الأدوات الحياتية ليستخلصوا المعادن من الخَبَث أو الرِّيد .

وكذلك يفعل الحق سبحانه

﴿٧٢٧﴾

﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الرِّبْدُ فَيَذْهَبُ حُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْمِغُ النَّاسُ لِيَمُكِّثُ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (١٧) ﴿ [الرعد]

وحين يضرب الله الحق والباطل ، فهو يستخلص ما يفيد الناس ويذهب ما يضرهم ، وقوله

﴿ فَيَذْهَبُ حُفَاءً .. ﴾ (١٧) ﴿ [الرعد]

أى يبعده ، « حُفَاءً » يعنى « مَعْرُوداً » ، « من الجَفْوَةِ » ويقال : « فلان جفا فلانا » أى أبعدته عنه

ويُدِيلُ الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله

﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ (١٧) ﴿ [الرعد]

وشاء سبحانه أن يبين لنا بالأمور الحسية ، ما يساوى الأمور المعنوية ، كى يعلم الإنسان أن الظلم حين يستشري ويغلو ويطمس الحق ، فهو إلى زوال ، مثله مثل الربد .

ويقول سبحانه من بعد ذلك

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْخُسْفَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ  
يَسْتَجِيبُوا لِمُرَاتٍ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ  
مَعَهُ لَا قُدْرَٰةَ عَلَيْهِ ؕ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ  
جَهَنَّمُ وَيُتَسَّ إِلَهُادُ ﴿١٨﴾ ﴿

(١) افترى : قدّم الفدية عن نفسه ليخلصها من الأسر ، وافترى الأسير : فداءه وانقذه . قال تعالى ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَا قُدْرَٰةَ عَلَيْهِ ﴾ (١٨) ﴿ [الرعد] [ القاموس القويم ٧٦/٢ ]

(٢) العباد : العرائش ، وأصل العهد التوثيق . يقال : عهدت لنفسى وصديقتى أى جعلت بها مكاناً وطنياً سهلاً [ لسان العرب - مادة : عهد ]

ولذين يستجيبون للرب الذي خلق من عدم ، وأوجد لهم مقومات الحياة واستبقاء النوع بالزواج والتكاثر ، فإذا دعاهم لشيء فليعلموا أن ما يطلبه منهم مُنمٌ لصالحهم ، الذي سناه بإيجاد كل شيء لهم من البداية

وهؤلاء الذين يستجيبون لهم الحسنى ، فسبحانه جعل الدنيا مزرعة للآخرة ، وأنت في الدنيا موكول بقدرتك على الأخذ بالأسباب ، ولكنك في الآخرة موكول إلى المسبب .

فهي الدنيا أنت تنذر وتحرك وتروى وتحصد ، وقد تختلف حياتك شظفاً<sup>(١)</sup> وترفاً بقدرتك على الأسباب

فإذا استجبت لله واتبعت منهجه ، فأنت تقتفل إلى حياة أخرى ، تحيا فيها مع المسبب لا الأسباب ، فإذا خطر ببالك الشيء تحمته أمامك ، لأنك في الحياة الأخرى لا يملك الله إلى الأسباب ، بل أنت موكول بذات الله ، والموكول إلى الذات باقي ببقاء الذات

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسُيِّدْهُمْ فِي رَحْمَةِ مِّنْهُ ..﴾  
(١٧٤) ﴿[النساء]

وبعض المُفسِّرين يقولون ، إنها الجنة ، وأقول هذا تفسير مقبول ، لأن الجنة من رحمة الله ولكن الجنة باقية بإبقاء الله لها ، ولكن رحمة الله باقية ببقاء الله

وهنا يقول الحق سبحانه

(١) الشظف : يُيسر العيش ويسدته وميسقه [ لسان العرب : مادة شظف ]



﴿لِّلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ۖ ۞ (١٨)﴾ [الرعد]

ويقول تعالى في آية أخرى

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ ۞ (٢٦)﴾ [يونس]

والحسنى هي الأمر الأحسن ، وسبحانه حق لك في لدينا  
الاسباب التي تكدر فيها ، ولكنك في الآخرة تحيا بكل ما تتمنى دون  
كدح ، وهذا هو الحسن

وهب أن الدنيى ارتقت ، والذين يسافرون إلى الدول المُقدمة ،  
وينزلون في العنادق الفاخرة ، يُقال لهم اضغط على هذا الزر تنزل لك  
القهوة ، والزر الآخر ينزل لك الشاي

وكل شيء يمكن أن نحصل عليه فور أن نطلبه من المطعم حيث  
يُعدّه لك آخرون ، ولكن مهما ارتقت الدنيا فمن تصل إلى أن يأتيك  
ما يمر على خاطرك فور أن تتصاه ، وهذا لن يحدث إلا في الآخرة

وكلمة « الحسنى » مُؤنثة وأفعل تفصيل ، ويُقال « حسنة  
وحُسْنَى » ، وفي المذكر يُقال « حسن وأحسر » ، والمقاس لمن  
لم يستجيبوا معروف

والحق سبحانه يقول هنا

﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّثْلَ مَعَهُ  
لَاقْتَدُوا بِهِ ۖ ۞ (٢٨)﴾ [الرعد]

أى يقول خذوا ما أملك كله واعتقوبى ، لكن لا يُستجاب له

ويقول الحق سبحانه

﴿أَوَلَيْسَ لَهُمْ سُرُّ الْحَسَابِ وَمَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبَشِ الْمِهَادُ(١٨)﴾

[الزبد]

لأن الحساب يترتب عليه مرة خير ، و يترتب عليه مرة أخرى شر ، وجاء الحق سبحانه بكلمة

﴿وَبَشِ الْمِهَادُ(١٨)﴾

[الزبد]

هنا ، لأن الواحد من هؤلاء والعياد بالله لن يستطيع أن يتصرف لحظة وصَّعه في النار ، كما لا يستطيع المفل الوليد أن يتصرف في مهده ، ومن المؤكد أن النار بَشِ المهاد .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿أَمْ مَنْ يَعْلَمُ أَمْرًا أَرْبَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُكُمْ وَلَوْ آتَىٰ لَبِئْسَ

والمؤمن هو من يعلم أن القرآن الحامل للمنهج هو الذي أنزله سبحانه على رسوله ، ولا يمكن مقارنته بالكافر وهو الموصوف هنا من الحق سبحانه

﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى(١٩)﴾

[الزبد]

وجاء هنا بـ ، علم ، و ، عمى ، ، لأن الآيات الدالة على القدرة من المراثيات .

ويقول الحق سبحانه

(١) اللبُّ العقل وجميع الباب [ القاموس القويم ١٨٧/٢ ] ولَبُّ كل شيء خالصه وحياره وهو أشد نفسه وحقيقته [ لسان العرب - مادة لب ]

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١١) ﴾ [الرعد]

أي أصحاب العقول القادرة على التدبُّر والتفكُّر والتمييز .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك عن أولى الألباب

﴿ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقِضُونَ الْعِثْقَ (١٢) ﴾

والواحد من أولى الألباب ساعة أمر بالله ، فهو يعلم أنه قد تعاهد مع الله عهداً بالآل يعبد غيره ؛ والآخر يخلص لغيره ، والآخر يتقرب لغيره ، والآخر ينتظر أو ينتظر من غيره ، وهذا هو العهد الأول الإيماني

ويتفرع من هذا العهد العقدي الأول كلُّ عهد يقطع سواء بالنسبة لله ، أو بالنسبة لخلق الله ، لأن الباشيء من عهد الله مثله مثل عهد الله ، فإذا كنت قد آمنت بالله ، فأنت تترنن بالمنهج الذي أنزله على رسوله ، وإذا أوفيت بالمدهج ، تكون قد أوفيت بالعهد الأول .

ولذلك نجد كل التكاليفات المهمة البارزة القوية في حياة المؤمنين نجد الحق سبحانه يأتي بها في صيغة البناء ، فيما يسمى « البناء للمجهول » مثل قوله

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ . (١٦٣) ﴾ [البقرة]

وقوله

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ فِي الْقَتْلِ . (١٧٨) ﴾ [البقرة]

(١) القصاص معاقبة الجاني بمثل جانيه [ القاموس القويم ٢ / ١٢ ] والقصاص القود وهو القتل بالقتل ، أو الجرح بالجرح ، وقال الليث القصاص والثأص شيء بشيء [ لسان العرب مادة قصص ]

وقوله

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ ۞ (٢١٦) ﴾ [البقرة]

وَكُلُّ التَّكْلِيفَاتِ قَاتِي مَسْئُوفَةٍ بِكَلِمَةِ « كُتِبَ » ، وَالَّذِي كُتِبَ هُوَ اللَّهُ ، وَسَبْحَانَهُ لَمْ يُكَلَّفْ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ ، فَسَاعَةً إِعْلَانِ إِيْمَانِكَ بِاللَّهِ ، هِيَ سَاعَةٌ تَعَانِدُكَ مَعَ اللَّهِ عَلَى أَنْ تُنْفِذَ مَا يُكَلِّفُكَ بِهِ

وَأَنْتَ حُرٌّ هِيَ أَنْ تَزْمَنَ أَوْ لَا تَزْمَنَ لَكِنَّكَ لِحِظَةِ إِيْمَانِكَ بِاللَّهِ تَدْخُلُ إِلَى الْإِتِّزَامِ بِمَا يُكَلِّفُكَ بِهِ ، وَتَكُونُ قَدْ دَخَلْتَ فِي كِتَابَةِ التَّعَاهُدِ ، الْإِيْمَانِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ .

وَبِذَلِكَ قَالَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ ، كُتِبَ ، وَلَمْ يَقُلْ « كُتِبْتُ » ، لِأَنَّ الْعَهْدَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ يَقْتَضِي أَنْ تَدْخُلَ أَنْتَ شَرِيكًا فِيهِ ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ لَمْ يُكَلَّفْ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ

وسبحانه هذا يقول

﴿ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بَعْدَ اللَّهِ لَا يَقْضُونَ<sup>(١)</sup> الْوَعْدَ ۖ (٢٠) ﴾ [الزمر]

أَيُّ أَنْ الْعَهْدَ الْإِيْمَانِي مُؤْتَقٌ بِمَا أَخَذْتَهُ عَلَى نَفْسِكَ مِنَ التَّزَامِ

ويواصل سبْحَانَهُ وَصَفَ هَؤُلَاءِ يَقُولُ

﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۖ (٢١) ﴾

وَأَوَّلُ مَا أَمَرَ بِهِ اللَّهُ أَنْ يُوصَلَ هُوَ صَلَوةُ الرَّحْمَنِ : أَيُّ ، أَنْ تَحْصُرَ مَا يَرْمِطُكَ بِهِمْ نَسَبٌ ، وَالْعَمُومَةُ الْحَقُّ إِذَا سَكَّسَ الْأَنْسَابَ ، فَسَيَدْخُلُ

(١) التَّقْضَى : إِفْسَادُ مَا أُيْرِمَتْ مِنْ عَقْدٍ أَوْ بَيْعٍ ، وَفِي الْمَصْحَاحِ : التَّخْضَرُ بِمَعْنَى الْبَيْدِ وَالْحَبْلِ وَالْمُؤَدِّ [ لِسِ الْعَرَبِ ] مَانَهُ تَقْضَى .

كُلُّ الْمُؤْمِنِينَ فِي صِلَةِ الرَّحْمِ ، لَا كُلُّ الْمُؤْمِنِينَ رَحِمٌ مُتَسَاوِلٌ ، فَإِذَا كَانَ لَكَ عَشْرَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ تَصْلَهُمْ بِحُكْمِ الرَّحْمِ ، وَكُلُّ مُؤْمِنٍ يَصِلُ عَشْرَةٌ مِثْلَكَ ، انْظُرْ إِلَى تِدَاخُلِ الدَّوَائِرِ وَانْتِظَامِهَا ، سَتَجِدُ أَنَّ كُلَّ الْمُؤْمِنِينَ يَدْخُلُونَ فِيهَا

وَلِئَلَّا نَجِدَ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ يَقُولُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ

« أَمَّا الرَّحْمَنُ ، خَلَقْتَ الرَّحْمَ ، وَاشْتَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنْ أَسْمَى ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتَهُ ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتَهُ »<sup>(١)</sup>

وَقَدْ رَوَيْتُ مِنْ قَبْلِ قِصَّةٍ عَنْ مَعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : فَقَدْ جَاءَ حَاجِبُهُ لِيَعْلَمَ لَهُ أَلَا رَجُلًا مَالِئًا يَقُولُ : إِنَّهُ أَحْوَكُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ

وَلَا يَدْرِي أَلَا حَاجِبٌ مَعَاوِيَةَ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ مَعَاوِيَةَ بِنُ أَبِي سَفْيَانَ لَا إِحْوَةَ لَهُ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَشَأْ أَنْ يَدْخُلَ فِيمَا يَقُولُهُ الرَّجُلُ ، وَقَالَ مَعَاوِيَةُ لِحَاجِبِهِ أَلَا تَعْرِفُ إِخْوَتِي ؟ فَقَالَ الْحَاجِبُ هَكَذَا يَقُولُ الرَّجُلُ ، فَأَدْبَنَ مَعَاوِيَةُ لِلرَّجُلِ بِالدَّخُولِ ، وَسَأَلَهُ أَيْ إِخْوَتِي أَنْتَ ؟ أَجَابَ الرَّجُلُ أَخْوَكُ مِنْ آدَمَ ، قَالَ مَعَاوِيَةُ رَحِمَ مَقْطُوعَةٌ ، وَاللَّهِ لَا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَصْهَاهَا

وَالْتَقَى الْفَضِيلُ بْنُ عِيَّاضٍ<sup>(٢)</sup> بِجَمَاعَةٍ لَهُمْ عِنْدَهُ حَاجَةٌ ، وَقَالَ لَهُمْ مَنْ أَيْنَ أَنْتُمْ ؟ قَالُوا مِنْ خُرَّسَانَ . قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ ، وَكُونُوا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ .

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ ( ١٩١/١ - ١٩٤ ) وَالتِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ ( ١٩٠٧ ) وَقَالَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ وَكَذَا أَخْرَجَهُ أَبُو نَادٍ فِي سُنَنِهِ ( ١٦٩٤ ) كُلُّهُمْ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَرْثَدٍ

(٢) هُوَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَّاضِ التَّمِيمِيِّ ، أَبُو عَلِيٍّ شَيْخُ الْمَرْمِ الْمَكِّيِّ مِنْ أَكْبَارِ الْعُلَمَاءِ وَالْمُسْلِمِينَ ، لُقِّبَ فِي الْحَدِيثِ ، وَوُلِدَ بِسَمَرْقَنْدَ ( ١٠٥ هـ ) ، وَسَكَنَ مَكَّةَ وَتَوَقَّفَ بِهَا ( ١٨٧ هـ ) عَنْ ٨٢ عَامًا الْأَعْلَامُ ( ١٥٣/٥ ) .

وقد أمرنا سبحانه أن نصل الأهل أولاً ، ثم الأfarب ، ثم الدوائر  
الأبعد فالأبعد ، ثم الجار ، وكل ذلك لأنه سبحانه يريد الالتحام بين  
الخلق ، ليستطرق للنافع لغير النافع ، وانقدر لغير القادر ، فهناك  
جارك وقريبك الفقير إن وصلته وصلك الله

ولذلك يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ ومن خلاله يأمر كل مؤمن  
برسالته

﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمُرَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۖ ۞ ﴾ [الشورى]

وقال بعض من سمعوا هذه الآية قُرباك أنت فى قُرباك  
وقال البعض الآخر لا ، القربى تكون فى الرسول ﷺ : لأن  
القرآن قال فى محمد ﷺ

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ ۞ ﴾ [الأحزاب]

وهكذا تكون قرابة الرسول أولى لكل مؤمن من قرابته  
الخاصة

يستمر قول الحق سبحانه فى وصف أولى الألباب

﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۖ ۞ ﴾ [الرعد]

والخشية تكون من الذى يمكن أن يصيب بمكروه ، ولذلك  
جعل الحق هنا الخشية منه سبحانه ، أى أنهم يخافون الله  
مالكهم وخالقهم ومربيهم ، خوف إحلال وتعظيم

(١) أخرج الإمام أحمد فى مسنده ( ٢٦٨/١ ) عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : لا أسألكم  
على ما أتيتكم من النبى والهذى أحراً (لا أن تواتروا الله تعالى وأن تكتبوا إليه بطعته ، قال  
ابن كثير فى تفسيره ( ١١٢/٤ ) : أى : إلا أن تعملوا بالطاعة التى تقرىكم عند الله بلى .

وجعل سبحانه المخاف من سوء العذاب ، وأنت تقول خفتُ زيدا ، وتقول خفتُ المرض ، ففيه شيء بحافته : وشيء يُوقع عليك ما تخافه .

وأولو الألباب يخافون سُوء حساب الحق سبحانه لهم ، فيدفعهم هذا الخوف على أن يصلوا ما أمر به سبحانه أن يصل ، وأن يبتعدوا عن أى شيء يغضبه .

ونحن نعلم أن سوء الحساب يكون بامتناقضة واستيفاء العبد لكل حقوقه ، فسبحانه مُنزّه عن ظلم أحد ، ولكن مَنْ يُناقش الحساب فهو مَنْ يُلْقَى العذاب <sup>(١)</sup> ، ونعوذ بالله من ذلك ، فلا أحد يقادر على أن يتحمل عذاب الحق له .

ويواصل الحق سبحانه وَصَفَ أُولَى الألباب فيقول

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ  
وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ  
الَّتِي تَبَىٰ أَوْلِيَّكَ لَهُمْ عَقِبَ الدَّارِ ۚ﴾

ويجد هذه الآية معطوفة على ما سبقها من صفات أُولَى الألباب الذين يتذكرون ويعرفون مواطن الحق بعقولهم اهتماما بادليل : الذين يُوفون بالعهد الإيماني بمجرد إيمانهم بالله في كَلِيَّات العقيدة

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : « مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَّبَ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي مَلِيكَةَ : أَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَلْيَرْوِ بِحَسَابِ حِسَابِ يَسْرٍ﴾ (٢٦) [الانشقاق] فقال : ليس بذاك الحساب ، إنما ذاك العرس ، مَنْ نُوقِشَ الحساب يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَّبَ ، أخرجه مسلم في صحيحه ( ٢٨٧٦ ) قال النووي في شرحه : « معناه أن التقصير غالب في العباد من استغنى عليه ولم يُعَامَجْ هلك ونحو النار ولكن الله تعالى ينفو ويفقر ما يورث الشوك لمن يشاء ،

الوحدانية ، ومقتضيات التشريع الذي تأتي به تلك العقيدة .

ولذلك جعلها سبحانه صفقة أوضحها في قوله تعالى

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ۖ (١١١) ﴾ [البقرة]

وهي صفقة إيجاب وقبول ، والعهد إيجاب وقبول ، وهو ميثاق مؤكد بالأدلة القطرية أولاً ، والأدلة العقلية ثانياً .

وهم في هذه الآية من صبروا ابتغاء وجه ربهم ، والصبر هو تحمل متاعب تطرأ على النفس الإنسانية لتخرجها عن وقار استقامتها ونعيمها وسعادتها ، وكل ما يخرج النفس الإنسانية عن صياغة الانسجام في النفس يحتاج صبراً .

والصبر يحتاج صابراً هو الإنسان المؤمن ، ويحتاج مصبوراً عليه ، والمصبور عليه في الأحداث قد يكون في ذات النفس كأن يصبر الإنسان على مشقة التكليف الذي يقول « افعل » و « لا تفعل » .

فالتكليف يأمر بترك ما تحب ، وأن تنقد بعض ما يصعب عليك ، وأن تمتثل بالابتعاد عما ينهاك عنه ، وكل هذا يقتضى محاهدة من النفس ، والصبر الذاتي على مشاق التكليف

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الصلاة مثلاً :

﴿ وَإِنِّهَا <sup>(١)</sup> لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) ﴾ [البقرة]

(١) قال ابن كثير في تفسيره ( ٨٧/١ ) : الصبر في قوله ﴿ وَإِنِّهَا لَكَبِيرَةٌ (٤٥) ﴾ [البقرة] عائد إلى الصلاة نعم عليه مجاهد ، واختاره ابن جرير ويحتمل أن يكون عائداً على ما يدر عليه الكلام وهو الوصية بذلك ،



وَمَآ صَبَّرَ الذَّاتَ عَلَى الذَّاتِ وَلَكِن هُنَاكَ صَبْرٌ آخَرٌ ، صَبْرٌ  
مِنكَ عَلَى شَيْءٍ يَقَعُ مِنْ عَيْرِكَ ، وَيُخْرِجُكَ هَذَا الشَّيْءُ عَنْ اسْتِقَامَةِ  
نَفْسِكَ وَسَعَادَتِهَا

وَهُوَ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ قِسْمٌ تَجِدُ فِيهِ غَرِيماً لَكَ ؛ وَقِسْمٌ  
لَا تَجِدُ فِيهِ غَرِيماً لَكَ .

فَالْمَرَضُ الَّذِي يُخْرِجُ الْإِنْسَانَ عَنْ حَيِّزِ الاسْتِقَامَةِ الصُّحْبَةِ  
وَيُسَبِّبُ لَكَ الْأَلَمَ ، لَيْسَ لَكَ فِيهِ غَرِيمٌ ، لَكِنَّكَ تَجِدُ الْغَرِيمَ حِينَ  
يَعْتَدِي عَلَيْكَ إِنْسَانٌ بِالضَّرْبِ مِثْلًا ، وَيَكُونُ هَذَا الَّذِي يَعْتَدِي عَلَيْكَ  
هُوَ الْغَرِيمُ لَكَ .

وَكُلُّ صَبْرٍ لَهُ طَاقَةٌ إِيْمَانِيَّةٌ تَحْتَمِلُهُ فَالَّذِي يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ  
لَيْسَ لَهُ فِيهِ غَرِيمٌ ، يَكُونُ صَبْرُهُ مَعْقُولاً بَعْضُ الشَّيْءِ ، لِأَنَّهُ  
لَا يَوْجَدُ لَهُ غَرِيمٌ يَهِيِجُ مَشَاعِرَهُ .

أَمَّا صَبْرُ الْإِنْسَانِ عَلَى أَلَمٍ أَوْقَعَهُ بِهِ مَنْ يَرَاهُ أَمَامَهُ ، فَهَذَا  
يَحْتَاجُ إِلَى قُوَّةٍ ضَبْطٍ كَبِيرَةٍ ، كَيْ لَا يَهِيِجَ الْإِنْسَانُ وَيُفَكِّرَ فِي  
الْإِسْتِقَامَةِ .

وَلِذَلِكَ تَجِدُ الْحَقَّ يَفْصِلُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ ، يَفْصِلُ بَيْنَ شَيْءٍ  
أَصَابَكَ وَلَا تَجِدُ لَكَ غَرِيماً فِيهِ ، وَشَيْءٍ أَصَابَكَ وَلَكَ مِنْ مِثْلِكَ  
غَرِيمٌ فِيهِ

وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ عَنِ الصَّبْرِ الَّذِي لَيْسَ لَكَ غَرِيمٌ فِيهِ .

﴿وَأَصْبِرْ عَنِ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَرْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٧) [القلم]

وَيَقُولُ عَنِ الصَّبْرِ الَّذِي لَكَ فِيهِ غَرِيمٌ ، وَيَحْتَاجُ إِلَى كَفْظِ  
الْغَيْظِ وَصَبْطِ الْغَضَبِ

﴿وَلَمْ يَصْبِرْ وَغَفِرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٤٣) [الشورى]

وحينما يريد الحق سبحانه منك أن تصبر ، فهو لا يطلب ذلك منك وحدك ، ولكن يطلب من المقابلين لك جميعاً أن يصبروا على إيثاكَ لهم ؛ فكأنه طلب منك أن تصبر على الإيذاء الواقع من الغير عليك ، وأنت فرد واحد

وطلب من لغير أيضاً أن يصبر على إيثاكَ ، وهذا هو قمة التامين الاجتماعى لحياة النفس الإنسانية ، فإذا كان سبحانه قد طلب منك أن يصبر على مَنْ أذاك ، فقد طلب من الناس جميعاً أن يصبروا على أذاك لهم

فإذا بدرتُ منك بادرة من الاغيار ، وتخطىء فى حق إنسان آخر وتؤلمه ، فإن لك رصيذاً من صبر الآخرين عليك ، لأن الحق سبحانه طلب من المقابلين لك أن يصبر عليك وأن يَغفرو

وإذا كان لك غريم ، فللصبر يحتاج منك إلى ثلاث مراحل أن تصبر صبراً أولياً بأن تكظم فى نفسك ؛ ولكن الغيظ يبقى ، وإن منعت الحركة التزوعية من التعبير عن هذا الغيظ ، فلم تضرب ولم تَسَبْ ؛ ويسمى ذلك

﴿الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ..﴾ (١٣١) [آل عمران]

والْكُظْم مأخوذ من عملية رَبَط القربة التى تحمل فيها الماء ، فإن لم تُحْكِم ربطها انسكب منها الماء ، ويُقال « كظم القربة » أى أحكم ربطها .

ثم يأتى الحق سبحانه بالمرحلة الثانية بعد كظم الغيظ فيقول

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .. (٧٢٤)﴾ [آل عمران]

وهنا تظهر المسألة الأرقى ، وهي إخراج الغيظ من الصدر ، ثم التسامى في مرتبة الصديقين ؛ فلا ينظر إلى من كظم غيظه عنه أولاً ، بل يعفر عنه ، ولا ينظر له بعداء ، بل بنظرة إيمانية

والنظرة الإيمانية هي أن من أتاك إنما يعتدي على حق الله فيك ؛ وبذلك جعل الله في صفك وجانبك ، وهكذا تحد أن من ظلمك وأساء إليك قد جعلك في معية الله وحمائته ، وعليك أن تحسن له

والصبر له مواقع ، وهما من يصبر كي يقال عنه ، إنه يملك الجأء والصبر ، ولبيان أنه فوق الأحداث ، وهذا صبر ليس ابتغاء لوجه الله ؛ بل صبر كيلا يشمت به أعداءه

وصبر لأنه قد توصل بعقله أن جزعه لن ينفعه ، ولو كان حصيفاً<sup>(١)</sup> لصبر لوجه الله ، لأن الصبر لوجه الله يحفف من قدر الله .

ومن يصبر لوجه الله إنما يعلم أن الله حكمة أعلى من الموصوع الذي صبر عليه ، ولو خُبر بين ما كان يجب أن يقع وبين ما وقع ، لاختار الذي وقع

والذي يصبر لوجه الله إنما يتقار الحكمة في مورد القضاء الذي وقع عليه ، ويقول أحملك ربي على كل قضائك وجميل قدرك ، حمداً الرضى بحكمك لليقين بحكمك

فمن يصبر على الفاقة<sup>(٢)</sup> ، ويقول لنفسه « اصبري إلى أن

(١) الحصيف جيد الرأي مُحْكَمُ الْعَقْلِ وإحصاء الأمر [حكمه] [لسان العرب - مادة حصف]

(٢) الفاقة الفقر والحاجة وإفتاق الرجل أي الفقر [لسان العرب - مادة فاق] [موق]

يفرجها الله « ولا يسأل أحداً سيجد الفرج قد أتى له من الله

انظر إلى الشاعر وهو يقول

إِذَا رُمْتُ أَنْ تَسْتَخْرِجَ الْمَالَ مُنْفَعًا

عَلَى شَهَوَاتِ النَّفْسِ فِي زَمَنِ ابْعُسْرِ

فَسَلَّ نَفْسَكَ الْإِنْفَاقَ مِنْ كَثَرِ صَبْرِهَا

عليك وإنذاراً إلى ساعة اليُسْرِ

فإن فعلت كنت الغنى وإن أبيت

فكلُ منوع بعدها واسع العُذْرِ

« أى إن راودتك نفسك لتقتصر مالا لتنفقه على شهوات النفس ورفضت تلك المراكودة ، وطلبت من نفسك أن تعطيك من كثر الصبر الذى تملكه » وإن فعلت ذلك كنت الغنى ، لأنك قدرت على نفسك .

والذى يلتفت إلى الحَدَث وحده يتعب ، والذى يلتفت إلى الحدث مقروبا بواقعه من ربه ، ويقول « لا بد أن هناك حكمة من الله وراء ذلك ، فهو الذى يصير انتفاء وجه الله ويريد الله أن يحضر مَنْ يصير انتفاء وجهه بمنزلة عالية ، لأنه يعلم أن الله له حكمة فيما يُجرىه من أقدار

ويتابع سبحانه رَصَفَ أُولَى الْأَلْبَابِ

﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ (٢٢) [الرمع]

وسبق أن قلنا فى الصلاة أقوالاً كثيرة ، وأن من يؤديها على

مطلوبها ، فهو من يعلم أنها جلوة<sup>(١)</sup> بين العبد وربّه ، ويكون العبد في ضيافة ربّه

وحين تُعرّض الصُّنعة على صانعها خمس مرات في اليوم : فلا بد أن تتال الصُّنعة رعاية وعناية من صمّمها وخلّقها ، وكما أن الله غيّب عنك ، فكذاك أسباب شفاذك من الكروب يكون عيباً عنك وقد علّمنا رسول الله ﷺ ذلك ، فكان إذا حربه<sup>(٢)</sup> أمر قام إلى الصلاة<sup>(٣)</sup> ،

ومن عظمة الإيمان أن الله هو الذي يدعوك إلى انصلاحة ، وهو سبحانه لا يسمع عنك القُرب في أي وقت تشاء ، وأنت الذي تُصدّد منى تقف بين يديه في أي وقت بعد أن تُلبّي دعوته بالفروض ، لتؤدّي ما تحب من النوافل ، ولا يُنهي سبحانه المقابلة معك كما يفعل عظماء الدنيا ، بل تُنهي أنت اللقاء وقت أن تريد

ولقد تأدّب رسول الله ﷺ بأدب ربّه ، وتحلّق بالخلق السامي ، فكان إذا وضع أحد يده في يد الرسول ﷺ ، فهو لا يدرع يده من يد من يُسلم عليه ، إلا أن يكون هو العارح<sup>(٤)</sup> وقول الحق سبحانه

﴿وَأَنْصَرُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ . . (٢٢)﴾ [الرعد]

(١) اجتلى الشهود ، نظر إليه ، وجلى الشئ . كشفه . فالجلوة : الاكشاف والظهور وكأنه ينظر إليه [ لسان العرب - مادة : جلا ]

(٢) حربه امر أصابه أي نزل به مهم أو أصابه خم ولطقت عليه . وأمر حارب وحارب شديد [ لسان العرب - مادة : حزب ]

(٣) عن حذيفة رضي الله عنه قال : « كان النبي ﷺ إذا حربه أمر صلى ، أخرج الإمام أحمد في مسنده ( ٣٨٨ / ٥ ) ، وأبو داود في سننه ( ١٣١٩ )

(٤) عن أنس بن مالك قال : « إن كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ ، فما يدرع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت من المدينة ، في حاجتها » أخرجه ابن ماجة في سننه ( ١٦١٨ ) ، وأحمد في مسنده ( ١٧٤ / ٣ ، ٢٦٦ )

يعنى أنك لا يجب أن تنظر إلى ما يؤخذ منك ، ولكن انظر إلى أنك إن وصلتَ إلى أن تحتاج من الغير سيؤخذ لك ، وهذا هو التأمين الفعال . ومن يخاف أن يترك عياله دون قدرة ، ولو كان هذا لإنسان يحيا في مجتمع إسماني ، لوحد قول الحق مطبقاً :

﴿وَلْيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً<sup>(١)</sup>﴾ [النساء]

وبذلك لا يشعر اليتيم باليتم ، ولا يخاف أحد على عياله ، ولا يسخط أحد على قدر الله فيه . وسبحانه يصع العيزان الاقتصدي حين يطلب منا الإنفاق . والإنفاق يسكون من مال زائد ، أو مال بلغ النصاب<sup>(٢)</sup> ولذلك فعليك أن تتحرك حركة باعة للحياة ، ويستفيد منها الغير ، كي يكون لك مال تنفق منه . وعلى حركتك أن تسعك وتسع غيرك

وهناك من ينفق مما رزقه الله بأن يأخذ لنفسه ما يكفيها ، وينفق الباقي لوجه الله ، لأنه يضمن أن له إلهاً قادراً على أن يرزقه ، والمضمون عند الله أكثر مما في يده

وها هو رسول الله ﷺ يسأل أبا بكر فيما نك من غنائم ويقول له ماذا صنعت بها يا با بكر ؟ فيقول أبو بكر الصديق رضي الله

(١) السداد الصواب وموافقة الحق والعدل قال تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اللَّهُ وَقَالُوا قَوْلًا سَدِيداً<sup>(١)</sup>﴾ [الأحزاب] أي موافقاً للعدل والحق والشرح لا خطأ فيه [ القاموس القرين ٣٠٧/١ ]

(٢) النصاب من المال القدر الذي تجب فيه الزكاة إذا مكفه [ لسان العرب مادة نصب ] ويُكْفَرُ هذا النصاب بما يساوي قيمة ٨٥ جراماً من الذهب يسعر اليوم الذي تُخرج منه الزكاة ، إذا مر عليه عام.

عنه وأرضاه تصدقتُ بها كلها . فيقول الرسول وماذا أبقيت ؟  
يقول أبو بكر أبقيت الله ورسوله<sup>(١)</sup>

وسأل رسول الله عمر بن الخطاب رضي الله عنه وماذا فعلتُ  
با عمر ؟ فيقول بن الخطاب تصدقتُ بنصفها والله عندي نصفها  
وكانه يقول للرسول : إن كان هناك مصرف تريدني أن أصرف فيه  
النصف لناقى الله عندي ، فسوف أفعل .

وهكذا رأينا من يصرف ممّا رزقه الله ، بكل ما رزقه سبحانه .  
وهو أبو بكر الصديق ، ونجد من ينفق ممّا رزقه الله ومستعد لأن  
ينفق الباقي إن رأى رسول الله مصرفاً يتطرب الإنفاق

ونجد من توجيهات الإسلام أن من يرعى يتيماً ، فليستغفف فلا  
يأخذ شيئاً من مال اليتيم إن كان الولي على اليتيم له مال . وإن كان  
الولي فقيراً فليأكل بالمعروف<sup>(٢)</sup>

ولنائل أن يسأل ولماذا تأتي بالفقير لتكون له ولاية على مال اليتيم ؟  
وأقول كي لا يحرم المجتمع من خبرة قادرة على الرعاية ،  
فيأتي بالفقير صاحب الخبرة ، وليأكل بالمعروف .

(١) ذكر الفصة الأكادملوى في حياة الصحابة ( ١٣٧/٢ ) وعرفانا لأبي داود والترمذي  
والدارمي والماكم أن عمر رضي الله عنه قال : « أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتمسك  
بوافق تلك مالا عندي فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً ، فجئت بنصف مالي  
فقال ﷺ ما أبقيت لأهلك ؟ قلت سبقته وأتى أبو بكر بكل ما عنده فقال يا أبا بكر ،  
ما أبقيت لأهلك ؟ قال أبقيت لهم الله ورسوله قلت لا أسبقه إلى شيء أبداً »

(٢) يقول تعالى ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا  
تَكُونُوا مِنْ سَرَّاهَا أَنْ يَكْبَرُوا » ومن كان غنياً فليستغفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ﴿ وَإِذَا دَفَعْتُمْ  
إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَنْهَبُوا عَلَيْهِمْ وَكُلْ بِالْإِسْبَاطِ ﴾ [النساء] .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال :

﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا ۖ ۝٥٠﴾

[النساء]

ولم يقل : « وارزقوهم منها » أي خذوا الرزق من المطمور فيما يملكون بالحركة في هذا المال .

وهكذا نعلم كيف يُنفق الإنسان المؤمن مما رزقه الله ، فهناك مَنْ ينفق كل ما عنده ؛ لأنه واثق من رصيده عند ربه ، وهناك مَنْ ينفق البعض مما رزقه الله ، وقد تأخذه الأريحية والكرم فيعطى كل مَنْ يسأله ، وقد ينفق كل ما عنده ، مثل مَنْ يجلس في حُرْبِ القمح ويريد أن يزكى يوم الحصاد ، فيعطى كل مَنْ يسأله ، إلى أن يفرغ ما عنده

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول

﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۝٤١﴾

[الأنعام]

وهنا نجد الحق سبحانه يصف هؤلاء المُنْفِقِينَ في سبيله

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ۖ ۝٢٢﴾

[الزمر]

والسر هو الصدقة المندوبة ، أما الإنفاق في العلانية ، فهي الصدقة الواضحة ، لأن الناس قد تراك غيباً أو يُشَاع عَنْكَ ذَلِكَ ، ولا يرونك وأنت تُخرج الزكاة ، فتتأكد السننهم بالسوء ، وحين يرونك وأنت تنفق وتتصدق ، فهم يعرفون أنك تؤدي حق الله ، وتشجعهم أنت بأن ينفقوا مما رزقهم الله .



وصدقة السر وصدقة العكن أمرها متروك لتقدير الإنسان ، فهناك من يعطى الصدقة للدولة لتتصرف فيها هي ؛ ويعطى من بعد ذلك للفقراء سرا ؛ وهذا إنفاق فى العكن وفى السر ، وجاء الحق بالسر والعلانية ، لأنه لا يريد أن يحجب الخير عن أى أحد بأى سبب .

وقد يقول قائل إن فلانا يُخرج الصدقة رياءً وأقول لمن يتقوه بمثل هذا القول ألم يستغفد الفقير من الصدقة ؟ إنه يستغفد ، ولا أحد يدخل فى الواب .

ويتابع سبحانه

﴿وَيَنْزِعُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ..﴾ (٧٢) [الزمر]

والنَّزْعُ هو الدُّفْعُ بشدة ، أى يدفعون بالحسنة السيئة بشدة وأول حسنة إيمانية هي أن تؤمن بالله ، وبذلك تدفع سيئة الشرك ، أو دفعت السيئة . أى دفعت الذنب الذى ارتكبته وثلثك بالتوبة عنه ، لأن التوبة حسنة ، وحين ترى منكراً ، وهو سيئة ، مانع تدفعه بحسنة النصيح

أو أن يكون معنى

﴿وَيَنْزِعُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ..﴾ (٧٣) [الزمر]

هو إن فعلت سيئة فانت تتبعها بحسنة ، والكمال المطلق لله وحده ولرسوله ، لنفترض أن واحداً لديه سيئة مُلْحَةٌ فى ناحية من النواحي ، فالحق سبحانه يأمره أن يدفع السيئة بأن يفعل بجانبها حسنة

يقول سبحانه

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۖ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١١٤)

[هود]

وما هو رسول الله ﷺ يقول لمعاذ<sup>(١)</sup> رضى الله عنه .

« اتق الله أينما تكون ، واتبع السيئة حسنة تَمْحُهَا ، وخالق الناس بحق حسن<sup>(٢)</sup> . »

ولذلك ، فأنت تجد أغلب أعمال الخير في المجتمع لا تصدر من أى رجل رقيق لا يرتكب السيئات ، فلا سيئة تطارده كي يفعل الحسنة التي يرجو أن تمحو السيئة .

فالسيدة ساعة تُلْهِبُ ضمير من ارتكبها ، ولا يستطيع أن يدفعها ، لأنه ارتكبها ، فهو يقول لنفسه « فلأبى مدرسة » أو « أبى مسجداً ، أو « أقيم مستشفى » أو « اتصدق على الفقراء »

وهكذا نجد أن أغلب حركات الإحسان قد تكون من أصحاب السيئات ، فلا أحد يقادر على أن يأخذ شيئاً من وراء الله ، فمن يرتكب سيئة لا بد أن تُلْجَ عليه بأحاسيس الذنب ، لنجده مدعوعاً من بعد ذلك إلى فعل الحسنات ، بل الحسنات تُعَوِّضُ السيئات

ومن نَرَى الحسنة بالسيئة أيضاً ، أنه إذا أساء إليك إنسان فأنت

(١) هو معاذ بن جبل الأنصاري الإمام المقدم في علم الحلال والحرام كان من أجمل الرجال وشهد المشاهد كلها ، أرسله رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن معلماً ومفتياً ، توفي في طاعون الشدة عام ١٧ هـ وكان عمره ٢٤ عاماً [ الإصابة ١٠٦/٦ ]

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ( ٢٢٨/٥ ، ٢٢٦ ) وأبو نعيم في حلية الأولياء ( ٣٧٦/٤ ) من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه

تَكْطِمُ غَيْظَكَ وَتَعْفُو ؛ وَبِذَلِكَ نَأْتِ نَحْسَنَ إِلَيْهِ .

وتجد الحق سبحانه يقول -

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤)

{افصل}

وإذا أنت جرّبتُها في حياتك ، وأحصلتِ السوداء لمن دخل في العداوة معك ، ستجد أنه يستجيب لتلك المردة ويصبح صديقاً حميماً لك

ولكن هناك من يقول ، جرّبتُ ذلك ولم تنفع تلك المسألة

وأقول لمن يقول ذلك : لقد ظننت أنك قد دُمعت بالتي هي أحسن ، لكنك في واقع الحال كنت تقربص بما يحدث منك تجاه مَنْ دخلتَ معه في عداوة ، ولم تُخلص في الدفع بالتي هي أحسن ، وأخذت تُحرّب اعتبار قول الله ، فذهبتُ منك طاقة الإخلاص فيما تفعل ، وظل الآخر العدو على عداوته .

لكنك لو دفعتَ بالتي هي أحسن ستجد أن الآية القرآنية فيها كل الصدق لأن الله لا يقول قضية قرآنية ثم تأتي ظاهرة كونية تُكذّب القرآن .

ولذلك يقول الشاعر

يَا مَنْ تَضَايِقُهُ الْفِعَالُ مِنَ التِّي وَمِنَ الَّذِي

دفع هديتك بالتي حتّى ترى فرداً الذي

أى يا مَنْ تَضَايِقُهُ أفعال الذى بينك وبينه عداوة ، عليك أن

تُحَسِّنُ الدُّفْعَ بِالنِّسْبَةِ هِيَ أَحْسَنُ ، حَتَّى تَرَى أَنَّ الْعِدَاوَةَ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَكَ  
وَبَيْنَ مَا ذَكَرَهُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ فِي قَوْلِهِ

﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٢٤)

[مفصلة]

وَيَتَابِعُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ

﴿ أَوَلَمْ نَكُ لَكُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (٧٢)

[الدعاء]

أَيُّ أَنَّ الْمُتَقَدِّمِينَ أَوْسَى الْأَلْيَابِ الَّذِينَ اجْتَمَعَتْ لَهُمْ تِلْكَ الصِّفَاتُ  
التَّسْعَةُ ، بِدَايَةِ مَنْ أَنَّهُمْ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ، وَلَا يَنْقُصُونَ الْعَيْثَانِ ،  
وَيَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، وَيَخَافُونَ سُوءَ  
الْحِسَابِ ، وَصَدَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا  
رَزَقَهُمُ اللَّهُ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، وَيُذَرِّعُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ، هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ  
لَهُمُ عُقْبَى الدَّارِ

وَعُقْبَى مَأْخُودَةٍ مِنَ الْعُقُبِ ، فَالْقَدَمُ لَهُ مُقَدِّمٌ وَلَهُ عَقِبٌ ، وَعَقِبٌ هُوَ  
مَا يَعْقِبُ الشَّيْءُ ، وَيَنْقُصُ فِي أَفْرَحِنَا ، وَالْعَاقِبَةُ عِنْدَكُمْ فِي الْمَسَرَّاتِ ،  
أَيُّ أَنَّا نَتَمَنَّى أَنْ تَتَحَقَّقَ لَكُمْ مَسْرَةٌ مِثْلُ الَّتِي عِنْدَنَا ، وَتَكُونَ عَقِبُ  
الْمَسْرَةِ الَّتِي فَرَحْنَا نَحْنُ بِهَا .

وَمِثْلَ ذَلِكَ تَكُونُ الْعُقْبَى هِيَ الشَّيْءُ الَّذِي يَعْقِبُ غَيْرَهُ ، وَانْدَى يَعْقِبُ  
الدَّارَ الدُّنْيَا هِيَ الدَّارُ الْآخِرَةُ

وَلِذَلِكَ يَقُولُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ فِي الْآيَةِ الْقَالِيَةِ مُوضِّحًا الْعَاقِبَةَ  
لِهَؤُلَاءِ .

﴿ جَنَّاتٌ عِدْنُ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ  
وُذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ (٢٢)

إذن فالدار الآخرة التي تعقب الدنيا بالسسبة لأولى الألباب هي  
جَنَاتِ عَدْنٍ و « العَدْنُ » هو الإقامة الدائمة ، وجَنَاتِ عَدْنٍ هي جَنَاتِ  
الإقامة الدائمة ، لأن الدنيا ليست دار إقامة

وكل يعيم في الدنيا إما أن تقوته بالموت أو بقوته بأغيار  
الحياة أما جَنَاتِ عَدْنٍ فهي دار إقامة دائمة ، بما أن « عَدْنٌ » تعنى  
مرافقة دائمة للحنات

والحنات معناها كما نفهم هي البستين التي فيها أشجار وفيها  
ثمار ، وكل ما تشتهي النفس ، مع ملاحظة أن هذه الجَنَاتِ ليست  
هي المساكن ، بل في تلك الجَنَاتِ مسكن بدليل قول الحق سبحانه  
﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ﴾ (٧٢) [التوبة]

فالجَنَاتِ هي الحدائق ، وفيها مساكن ، ونحن في حياتنا الدنيا  
بجد الفيلات في وسط الحدائق ، فما بالنا بما يعد به الله من طيب  
المساكن وسط لجَنَاتِ ؟

لا بد أن ينطبق عليه وصف الرسول ﷺ للجنة في الحديث  
القدسى عن رب العزة سبحانه

« أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ،  
ولا خطر على قلب بشر »<sup>(١)</sup>

وهكذا بين الله سبحانه عقيب الدار ، فهي

﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمِنْ صَلَاحٍ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ( ٢٨٢١ ) وأحمد في مسنده ( ٤٦٦/٢ ) وأبو يعيم في الطيبة  
( ٢٦٢/٢ ) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

وَدُرِّيَّاتِهِمْ .. ﴿٧٣﴾

[الرعد]

وآباء جمع « أب » أى يدخلها مع أولى الأبواب مَنْ كَانَ صَالِحًا  
من الآباء مُتَّبِعًا لِمَنْهَجِ اللَّهِ

وإن سأل سائل وأين الأمهات ؟

أقول نحن ساعة نثنى العسماتلين نُغَلِّبُ الذَّكْرَ دَائِمًا ، ولذلك  
فأَبَاؤُهُم تعنى الأب والام ، أَلَمْ يَقُلْ لِحَقِّ سُبْحَانِهِ فِي سُورَةِ يُوسُفَ

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهُ عَلَى الْعَرْشِ .. ﴾ ﴿٧٤﴾

[يوسف]

وهؤلاء هم الذين يدخلون الجنة من أولى الأبواب الذين استوفوا  
الشروط التسعة التى تحدثنا عنها ، فهم استوفى الآباء والأزواج  
والأبناء الشروط التسعة «

ونقول إن الحق سبحانه وتعالى يعامل خلقه فى الدنيا بمقتضى  
العواطف الموجودة فى الذرية ، فالواحد منا يُحِبُّ أَوْلَادَهُ وَأَزْوَاجَهُ  
وآبَاءَهُ ، وَمَا دَامَ يُحِبُّهُمْ وَقَدْ صَلَحُوا كُلُّ حَسَبٍ طَائِفَتَهُ ، فَالْحَقُّ  
سُبْحَانَهُ يُنْقِضُهُمْ بِهِ

ولذلك تنأتى آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ<sup>(١)</sup>  
مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ<sup>(٢)</sup> ﴾ ﴿٧٥﴾

[الطور]

(١) لا تلبت حقه شيئاً منعه وبم يؤذه كاملاً قال تعالى ﴿ لَا يُلَاقِيكُمْ مِنْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً

﴾ ﴿٧٥﴾ [الحجرات] أى لا ينقصكم شيئاً من ثوابها [القاسم من القويم ٢/ ٢٠٩] .

(٢) أى مروهون عند الله حتى يُحَسَّبَ عَلَى مَا كَسَبَ [القاسم من القويم ١/ ٢٧٨] .

وهنا بمسك القرآن القصيدة العقلية في الإلحاق بمعنى أن تلحق ناقصاً بكامل ، فهو كان مُساوياً له في العمل ما سُمي إلحاقاً لكل إنسان يأخذ حَقَّهُ ، وقد اشترط الحق سبحانه شرطاً واحداً في إلحاق الذرية بالأباء ، أو إلحاق الأباء بالذرية في الجنة ، وهو الإيمان فقط

وكوضح لنا هنا أن الأباء قد تميزوا ببعض إيمانهم بنيل قول تعالى

﴿وَمَا أَلْتَأَهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ ۚ﴾ (٢١) [النور]

فلم يأخذ سبحانه عمل الأب الذي عمل ، والابن الذي لم يعمل ، ومزج الاثنين ، ليأخذ المتوسط ، لا ، وذلك كي لا يظلم من عم من الأباء أو الأبناء

ثم إن ذلك لو حدث لما اعتُبر تواجد الأباء مع الأبناء في الجنة إلحاقاً ، لأن الإلحاق يقتضي أن يبقى حق كل من عمل ، ثم يتكرم سبحانه من بعد ذلك بعملية الإلحاق ، بشرط واحد هو أن يكون لشخص المُلحق مؤمناً

وهكذا نفهم قول الحق سبحانه

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ ۖ﴾ (٢٠) [النور]

أي أن الذرية مؤمنة والأرواح مؤمنون ، والأهل مؤمنون ، والأبوين مؤمنان ، ولكن الذي يلحق به هو من يُكرمه الله بهذا الإلحاق ، كي يُدخل الفرع على قلب المؤمن حين يرى أولاده معه في الجنة ما داموا مؤمنين ، وهذه قمة في العدالة ، لماذا ؟

والمثل الذي أصره على ذلك هَبْ أَنْ بَأْ قَدْ حَرَصَ عَلَى أَنْ يَطْعَمَ أَهْلَهُ مِنْ حَلَالٍ ، فقد يعيش أولاده في ضيق وشظف ، بينما

جد أبناء المحرف يعيشون في بُحْبُوحَةٍ<sup>(١)</sup> من العيش ، وهكذا يتنعم  
أبناء المحرف الذي يأكل ويطعم أولاده من حرام ، بينما يعاني أبناء  
الأمين الذي قد يعتبره البعض مُترماً ؛ لأنه يَرعى حق الله ، ويرفض  
أكل الحرام

وما نام أولاده الذين يأكلون من حلال قد يُعاون معه من عدم  
التنعم ، فالحق سبحانه يلحقهم في الجنة منعيم يعيشه الأب ،  
لا يفوتهم فيه شيء ، ولا يفوته شيء

وبذلك تسعد الذرية ، لأنها جاءت من صُلُب رجل مؤمن قضى  
حياته على حادة الصواب ، رغم أن بعض الناس قد اتهمته في الدنيا  
بأنه مُنَزَّمٌ<sup>(٢)</sup> .

والقائل أن يقول ، ألا يوجد تناقض بين هذا الإلحاق وبين قول  
الحق سبحانه

﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ مِنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ حَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا...﴾ (٣٣)

[العام]

واقول لا يوجد تناقض ، لأننا نصل على الصيت صلاة شرعها  
المُشرع ، وفائدتها أن تصل الرحمة للصيت المؤمن ؛ والإيمان من  
عمله

وبذلك يضيف له الحق سبحانه فوق رصيد الإيمان ما يشاؤه هو  
سبحانه من الرحمة بصلاة الجنائز التي أقامها المسلمون عليه

(١) بحبوحة كل شيء وسطه وحياره رقل الفراء البحرى الرابع فى الشفة الواح

فى العزل وتصبح لى المجدى انه فى مجد واسع [ لسان العرب - مادة بوح ]

(٢) الرَّمِيم والرَّمِيم الطيم الساكن القليل للكلام [ لسان العرب - مادة رمت ]



﴿ جَاءَتْ عِدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَرْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ  
وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ (٢٢) [الرعد]

وكلمة « زوج » تعنى المرأة التى يتزوجها الرجل ، وتعنى الرجل  
الذى تتزوجه المرأة ، ونحن بخصىء خطأ شأننا حين نقول  
« زوجة » ، بل الصحيح أن نقول « زوج » عن المرأة المنسوبة لرجل  
بعلاقة الزواج<sup>(١)</sup>

وسبغنا بقول

﴿ وَأَرْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ .. ﴾ (٢٦) [الاحزاب]

وهكذا نعلم أن جاءت عِدْنٌ هى مكان ينتصم كل شىء ، ولهذا  
المكان أبواب متعددة هى أبواب الطاعات التى أدت إلى خير  
الجراءات فباب الصلاة يدخله أناس ، وباب الزكاة يدخله أناس ،  
وباب الصبر يدخله أناس ، وهكذا تتعدد الابواب ، وهى إما أبواب  
الطاعات أو أبواب الجراءات التى تدخل منها الطيبات

﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ .. ﴾ (٢٥) [البقرة]

[البقرة]

فالباب يكون مفتوحاً ، تاتى معه الفاكهة والثمار والحيرات على  
اختلاف ألوانها ؛ فمرة تاتى ثمار الماسجو من باب ، وبعد ذلك تاتى  
ثمار التفاح

(١) كلمة « زوج » للذكر والانثى هى لغة الحجازيين أى « زوجة » هى لقة بى معيم ،  
يسقونون هى زوجته وأبى الأصمعى لقال زوج لا غير واحتج بقول الله تعالى  
﴿ اسْكُرْ أَبَاكَ وَرَوْحَكَ الْحَبَّةَ ﴾ [البقرة] فليس له نعم ، كذلك قال الله ، فقل قال الله لا  
يُقال زوجة ؟ وكانت من الأصمعى فى هذا شدة وعُسر [ لسان العرب - مادة زوج ]

وتلك الأبواب كما قلت هي إما للجزاءات ، أو هي أبواب لطاعات  
التي أدت إلى الجزاءات ، وتدخل عليهم الملائكة من كل باب فمنا  
تقول الملائكة ؟

يعون الملائكة لأهل الجنة

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ وَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾<sup>(١)</sup>

والسلام يعنى لاطمئنان والرضى الذى لا تاتى بعده الاغيار ، لان  
السلام فى الدنيا قد تُعكر أمنه اغيار الحياة فأنتم أيها المؤمنون  
الذين سحلتهم الجنة بريئون من الاغيار

وقال ﷺ عن لحظات ما بعد الحساب

« الجنة أبداً ، أو النار أبداً »<sup>(٢)</sup>

ولذلك يقول سبحانه عن خيرات الجنة

﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾<sup>(٣)</sup>

[الواقعة]

والملائكة كما نعلم نوعان

الملائكة المهيمون الذين يشغلهم ذكر الله تعالى عن أى شىء  
ولا يدرون بئاً : ولا يعلمون قصة الخلق ، وليس لهم شأن بكل  
ما يجرى ، فليس فى بالهم إلا الله وهم الملائكة العالون ، الذين جاء  
ذكرهم فى قصة السجود لأسم حين سأل الحق سبحانه الشيطان

(١) العاقبة والعقبى أمر كل شىء وحاقته قال تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِلنَّاسِ إِذَا دُخِرَ عَنَّا﴾ (١١)

[الكهف] [ القاموس القويم ٢ ٧٨ ]

(٢) اخرج الطبرانى فى الكبير والارسط والحاكم ( ١ ٨٢ ) وصححه عن معاذ بن جبل أن  
رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن فقدم عليهم قال : « أيها الناس إن رسول الله ﷺ إليكم  
بميركم أن العبد إلى الله وإلى الجنة أو النار مخلوق بلا صوت وإنما بلا ظن ، فى أجساد  
لا يموت »

﴿ أَسْكَنْتَ لَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾ [ص]

أى أن العالين هنا هم مَنْ لَمْ يشملهم أمرُ السجود ، وليس لهم علاقة بالخلق ، وكلُّ مهمتهم ذكر الله فقط .

أما النوع الثانى فهم الملائكة المُدبِّراتِ أمراً ، وتعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد استدعى آدم إلى الوجود هو ودريته ، وأعد له كل شىء فى الوجود قبل أن يجرىء ' الأرض مخلوقة والسماء مرفوعة ' والجبال الرُّواسى بم فيها من قُوتٍ ' والشمس والقمر والنجوم والعياء والسحاب

والملائكة المُدبِّرات هم مَنْ لهم علاقة بالإنسان الخليفة ، وهم مَنْ قال لهم ' الحق سبحانه

﴿ اسجُدوا لآدم . (٧٤) ﴾ [البقرة]

وهم الذين يتولَّون أمر الإنسان تنفيذاً لأوامر الحق سبحانه لهم ، ومهمهم الحفظُة الذين قال فيهم الحق سبحانه

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِمَّنْ أَمَرَ اللَّهُ . (٧٦) ﴾

[الرعد]

أى أن لأمر صادر من الله سبحانه ، وهم بعد أن يفرعوا من

(١) ذهب ابن كثير فى تفسيره ( ١ ٧٥ ) إلى أن الملائكة المأمورين بالسجود هما هم هؤلاء الذين أرسلهم مع إبليس لمحاربة من أفسد فى الأرض وسفك الدماء قبل خلق آدم ، فمحتوم بمرائر الحروب وأطراف الجبال ، فاعتز إبليس فى نفسه ، فاطلع الله على ذلك من قلبه ولم يتألم عليه الملائكة الذين كانوا معه ، واستقل ابن كثير بحديث طويل لأبى عيسى أخرجه ابن جرير الطبري فى تفسيره

مهمتهم كحفظه من رقيب وعنيد على كل إنسان ، ولن يوجد ما يكتونه من بعد الحساب وتقرير الجزاء ، هنا سيدخل هؤلاء الملائكة على أهل الجنة ليحملوا الطاب الله والهدايا ، فهم منوط بهم الإنسان الخليفة

وسبحته حين يُورد كلمة في القرآن بموقعها البياني الإعرابي فهي تؤدي المعنى الذي أراده سبحانه والمثل هو كلمة «سلام» فصيف إبراهيم من الملائكة

﴿ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ۖ ﴾ (٦٩)

وكان القياس يقتضى أن يقول هو : سلاماً ، ، ولكنها قضية إيمانية ، لذلك قال

﴿ سلامٌ ۖ ﴾ (٦٩)

فالسalam هنا لم يأت مصوباً ، بل جاء مرفوعاً ، لأن السلام للملائكة أمرٌ ثابت لهم ، وبذلك حيّاهم إبراهيم بتحية هي أحسن من التحية التي حيّوه بها

فبحسب نُسْلَم سلاماً : وهو يعنى أن نتمنى حدوث الفعل ولكن إبراهيم عليه السلام فطن إلى أن السلام أمرٌ ثابت لهم

ومكذا المال هنا حين تدخل الملائكة على العباد المكرمين بدخول الجنة ، فهم يقولون ،

﴿ سلامٌ ۖ ﴾ (٧٤)

وهي مرفوعة إعرابياً ؛ لأن السلام أمر ثابت مُستقر في الجنة ،

وهم قالوا ذلك ، لأنهم يعلمون أن اسلام أمر ثابت هناك لا يتغير  
بتغير الأعيان ، كما في أمر الدنيا

والسلام في الحنة لهؤلاء بسبب صبرهم كما قال الحق سبحانه  
على السدة الملائكة

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ...﴾ (٧٤) [الرعد]

وجاء الصبر في صيغة الماضي ، وهي صيغة صادقة ، مهم قد  
صبروا في الدنيا وانتهى زمن الصبر بانتهاء التكليف

وهم هنا في دار جزاء ، وذلك يأتي التعبير بالماضي في  
موقعه ، لأنهم قد صبروا في دار التكليف على مشقات التكليف ،  
صبروا على الإبداء ، وعلى الأقدار التي أجراها الحق سبحانه عليهم .

وهكذا يكون قول الحق سبحانه

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ...﴾ (٧٤) [الرعد]

في موقعه تماماً

وكذلك قوله الحق عزّ توقّرت فيهم القسع صفات ، وهم في  
الدنيا

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ...﴾ (٢٢) [الرعد]

وجاء بالصبر هنا في الزمن الماضي ، رغم أنهم ما زالوا في دار  
التكليف ، والذي جعل هذا المعنى متّسبباً هو مجيء كل ما أمر به الله  
بصيغة المضارع ، مثل قوله تعالى

[الرعد]

﴿الَّذِينَ يُؤْفِقُونَ بَعْدَ اللَّهِ...﴾ (٢٠)

وهذه مسألة تحتاج إلى تجديد دائم ، وقوله

[الرعد]

﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ (٢١)

وقوله

[الرعد]

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ...﴾ (٢٢)

[الرعد]

و ﴿وَيَخْشَوْنَ﴾ ، ﴿وَيَخَافُونَ﴾

هكذا نرى كل تلك الأفعال تأتي في صيغة المضارع ، ثم تختلف

الصيغة إلى الماضي في قوله

[الرعد]

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا...﴾ (٢٣)

والماتل لكل ذلك نعلم أن كل تلك الأمور تقتضى الصبر ، وكان

الصبر يسبق كل هذه الأشياء ، وهو انقسام المشترك في كل عهد من

العهود السابقة

وقد عبر الحق سبحانه - لأجل هذه اللفظة - بالماضي حين جاء

حديث الملائكة لهم وهم في الجنة

وهكذا تقع كلمة الصبر في موقعها ، لأن العلائكة تحاطبهم بهذا

القول وهم في دار أبقاء ، ولأن المتكلم هو الله وهو يُرْصَحُ لنا

جمال ما يعيش فيه هؤلاء المؤمنون في الدار الآخرة

ويُذَبَّلُ الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله

[الرعد]

﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٢٤)

وعلمنا ان ، عُنَى ، تعنى الامر الذى يجىء فى لعقب ، وحين  
يعرض سبحانه للقضية الإيمانية وصفات المؤمنين المعاشين للقيم  
الإيمانية ، فذلك بهدف أن تستشرف النفس أن تكون منهم ، ولا تدَّ  
أن تنفِر النفس من الجانب المقابل لهم

والمثل هو قول الحق سبحانه

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) ﴾ [الانقطار]

ويأتى بمقابلها بعدها

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانقطار]

وساعة تقارن بأهم لو لم يكونوا أبراراً ؛ لكأما فى جحيم ، هنا  
نعرف قدر نعمة توجيه الحق لهم ، سيكونوا من أهل الإيمان .

وهكذا نجد انفسنا أمام أمرين سلب مضرّة وجلب منفعة .  
ولذلك يقول الحق سبحانه أيضاً عن النار

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا<sup>(١)</sup> كَانَ عَلَى رَيْكٍ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧٦) ﴾ [مريم]

أى كلنا سرى النار .

ويقول سبحانه

﴿ ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧٧) ﴾ [التكاثر]

وذلك لكي نعرف كل مسلم ماذا صنعت له نعمة الإيمان ، قبل أن

(١) ورد برد - حصير أو اشرف على العكان دخله أو لم يدخله [ القاموس القويم ٢ / ٣٣ ]

قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم - ورود المسلمين المرور على الجسر بين شطريها

ورود المشركين أن يدخلوها [ ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢ / ١٣٢ ]

يدخل الجنة ، وبذلك يعلم أن الله سلب منه مضرة ؛ وأنعم عليه  
بمنفعة ، سلب منه ما يُشقى ، وأعطاه ما يُفيد  
ولذلك يقول الحق سبحانه -

﴿ فَمَنْ رُحِّحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۖ ۝ (١٨٥) ﴾ [آل عمران]  
وإنا كنا الحق سبحانه قد وصف أولى الالباب بالارصاب  
المذكورة من قبل ، فهو يبين لنا أيضاً خيبة المقابلين لهم ، فيقول  
سبحانه

﴿ وَالَّذِينَ يَفْقَهُونَ وَعْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا  
أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعَنَةُ  
وَهُمْ سُوءُ النَّارِ ۖ ﴾ (٢٥)

ولقائل أن يسأل ، وهل آمن هؤلاء وكان بينهم وبين الله عهد  
ونقصوه ؟

ونقول يصح أنهم قد آمنوا ثم كفروا ، أو أن الكلام هنا  
ينصرف إلى عهد الله الأبدى.

يقول سبحانه

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ  
أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ۖ ۝ (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وهنا يوضح سبحانه أن من يفكضون عهد الله من بعد ميثاقه  
وتاكيده بالآيات الكونية التي تدل على وجود الخالق الواحد



﴿ يَفْطُرُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ .. ﴾ (٢٥)

[الرعد]

والمقابل لهم هم أولو الألباب الذين كانوا يصلون ما أمر سبحانه أن يوصل - وهؤلاء الكفرة بقضة العهد .

﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٢٥)

[الرعد]

ولم يأت الحق سبحانه بالمقابل لكلِّ عمر أداه أولو الألباب ، فلم يقل « وَلَا يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » ، لأنهم لا يؤمنون بآله ، ولم يقل « لَا يَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ » لأنهم لا يؤمنون بالبعث

وهكذا يتضح لنا أن كل شيء في القرآن جاء بقدر ، وفي تمام

موقعه

ونحن نعلم أن الإفساد في الأرض هو إخراج الصالح عن صلاحه ، فأنت قد أقيمت على الكون ، وهو معد لاستقبالك بكل مقومات الحياة من مأكّل ومشرب وتنفس ؛ وغير ذلك من الرزق واستقاء النوع بأن أحلّ لنا سبحانه أن نتزاوج نكراً وأنثى

والفساد في الكون أن تأتي إلى صالح في ذاته فتفسده ، ويقو دأباً إن كنت لا تعرف كيف تزيد الصالح صلاحاً ، ما تركه ، حاله ، وسمع قول الحق سبحانه

﴿ وَلَا تَقْفُ<sup>(١)</sup> مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . ﴾ (٢٦)

[الإسراء]

فلا تنظر في أيّ أمر إلى الحير اعاجل منه ، بل انظر إلى ما يؤول إليه الأمر من بعد ذلك ، أضر أم ينفع ؟

(١) قفاه فلو ، تبعه ، وهو أن يتبع الشيء والمعنى لا تتبع ما لا تعلم [ سائر العرب

لأن الضرَّ الأجل قد يتلصص ويتسلل ببطء وأناة ، فلا تستطيع له  
نفعاً من بعد ذلك

ويقول الحق سبحانه في آخر الآية التي نحن بصدد خواطرها  
عنها

﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)﴾ [الرعد]

ونلاحظ أن التعبير هنا جاء باللام مما يدل على أن العنة عشقتهم  
عشق المالك للملوك

﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)﴾ [الرعد]

أي عذابها ، وهي النار والعياذ بالله

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ شَاءَ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ (٢٦)﴾

والبسُّط هو مدُّ الشيء

وقد أقام العلماء معركة عند تحديد ما هو الرزق فهل الرزق هو  
ما أحله الله فقط ؟ أم أن الرزق هو كل ما يتفقع به الإنسان سواء  
أكان حلالاً أم حراماً ؟

(١) قدر الله الرزق جعله صليلاً على قدر الحاجة لا يريد ومنه قوله ﴿وقدر عليه رزقه﴾ (٢٦) ﴿

[الفجر] ي صبيته وجعله على قدر الحاجات الضرورية لا يريد عليها [ القاموس القويم

## سُورَةُ الرَّزْقِ

○ ٧٣-٧ ○

فمن العلماء مَنْ قال إن الرزق هو الحلال فقط ، ومنهم من قال إن الرزق هو كل ما يُنتفع به سواء أكان حلالاً أم حراماً ، لأنك إن قُلْتَ إن الرزق محصور في الحلال فقط ، ذنُ فمن كفر بالله من أين يأكل ؟

الم يخاطب الحق سبحانه المكابرين قائلاً

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ ﴾ (٣٦)

[يونس]

وقال سبحانه ،

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (٥٨)

[الذاريات]

ويقول تعالى

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ (٢٢) فرب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون (٢٣)

[البارعات]

إذن فالرزق هو من الله ، ومن بعد ذلك يأمره فعل كذا ، و « لا تفعل كذا »

وقول الحق سبحانه

﴿ لِلَّهِ يَسُطُ الرِّزْقُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۖ ﴾ (٢٦)

[الرعد]

أي أنه سبحانه يمد الرزق لمن يشاء

﴿ وَيَقْدِرُ ۖ ﴾ (٢٦)

[الرعد]

من لقدر أي في حالة إقداره على المُقَدَّر عليه ، وهو من يعطيه سبحانه على قدر احتياجه ، لأن القدر هو قطع شيء على

مساحة شيء ، كأن يعطى الفقير ويسط له الرزق على قدر احتياجه  
والحق سبحانه أمرنا أن نُعطى الزكاة للفقير ، ويظل الفقير عائشاً  
على فقره ، لأنه يعيش على الكفاف

أو يقدر بمعنى يُضيق ، وساعة يحدث لك إياك أن تظن أن  
التضييق على الفقير ليس لصالحه . فقد يكون رزقه بالعال الوفير  
دافعاً للمعصية : ومن العفة ألا يجد

أو يقدر بمعنى يُضيق على إطلاقها ، يقول سبحانه  
﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ<sup>(١)</sup> وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا  
يُكْتَفِ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا أَنَا سَاجِدٌ اللَّهُ يَغْفِرْ غَسْرَ سُورًا<sup>(٢)</sup>﴾ [الطلاق]  
ولأن الله قد آتاه بهذا يعنى أنه بسط له بقدره .

ويتابع سبحانه

﴿وَمَهْرَجُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..<sup>(٣)</sup>﴾ [المد]

وطبعاً سيفرح بها من كان رزقه واسعاً ، والمؤمن هو من ينظر إلى  
الرزق ويقول هو زينة الحياة الدنيا ، ولكن ما عند الله خير وأبقى  
أما أهل الكفر فقد قالوا .

﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِ<sup>(١)</sup> عَظِيمٍ<sup>(٢)</sup>﴾ [الزحرف]

(١) اسم من المال المعنى والثراء والرخاء واتساع الارزاق [ القاموس الموم ٢٢٧/٢ ]

(٢) المقصود بالقرينين مكة والطائف قتاله ابن عباس وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي  
وقتادة والسدي وابن زيد . وختلفوا في المقصود بهذين الرجلين قال ابن كثير في  
تفسيره ( ١٢٧/١ ) . والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أعيان البلدين كان .

وَيُرَدُّ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ

﴿أَنَّهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ۖ﴾ (٣٣) [الزحرف]

وساعةً تبحث في تحديد هذا البعض الميسوط له الرزق ، والبعض المُقَدَّر عليه من الرزق ، لن تجد ثباتاً في هذا الأمر لأن الأعيار قد تأخذ من الغنى فتجعله فقيراً ، وقد تنتقل الثروة من الغنى إلى الفقير .

وسبحانه قد ضمن أسباباً علياً في الرزق ، لكل من المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ، وكلما قد دخل الحياة ليأخذ بيده من عطاء الربوبية ، فإنَّ قصراً واحد فليس لهذا المرء من سبب سوى أنه لم يأخذ بأسباب الربوبية وينتفع بها .

وقد يأخذ بها الكافر وينتفع بها

والحق سبحانه هو القائل -

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (٢٠) [الشورى]

إذن فليس هناك تضيق إلا في الحدود التي يشاؤها الله ، مثل أن يزرع الإنسان الأرض ، ويتعب في الري والحَرْث ثم تأتي صاعقة أو برد مصحوب بصقيع فيأكل الزرع ويميته

وفي هذا لَعْنٌ للإنسان ، بأنه سبحانه قد أخذ هذا الإنسان من

رزقه ، وهو العطاء منه ، كي لا يُقْتَرَّ الإنسان بالاسباب ، وقد يأتي رزقه من بعد ذلك من منطقة أخرى ، وبسبب آخر .

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ (٧٦)

[الرمز]

والفرح في حد ذاته ليس ممنوعاً ولا مُحَرَّمًا ، ولكن الممنوع هو فرح البطر كفرح قارون

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُورِ مَا إِذْ مَفَاتِحَهُ تَسْوَى<sup>(١)</sup> بِالْعَصْبَةِ أَوْلَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ...﴾ (٧٦)

[الفصل]

والحق سبحانه قد قال

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (٧٦)

[الفصل]

وهذا هو فرح البطر الذي لا يحبه الله لأنه سبحانه قال في موقع آخر

﴿قُلْ بِمَضِلِّ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٥٨)

[يوس]

(١) البغي الظلم والكبر ومجاوزة الحد والباعى المتجاوز الحد [ القاموس القديم ٧٧١ ]

(٢) ناء الرجل بالحمل يزوء بهص به متثاقلاً في جهد ومشقة أى تثقل عليهم مفاصل كتور قارون وتجهدهم [ القاموس القديم ٢ / ٢٩ ]

وهي في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها يأتي بفرحهم ،  
وبسبب هذا الفرح وهو الحياة الدنيا ، أي أنه سبب تافه للفرح ،  
لأنها قد تؤخذ منهم وقد يؤخذون منها ، ولكن الفرح بالآخرة  
مختلف ، وهو الفرح الحق .

لذلك يقول فيه الحق سبحانه

﴿بِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾ [يوسف]

ويقسم الحق سبحانه أمامنا فرح الحياة الدنيا بالآخرة ، فيقول

﴿رَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦)﴾ [الرعد]

ومتاع الرجل هو ما بعده إعداداً يُنفقه في سفر قصير ، كالحقيبة  
الصغيرة التي تضع فيها بعضاً من الملابس والأدوات التي تخصك  
لسفر قصير

والعاقِل هو مَنْ ينظر إلى أقصى ما يمكن أن يفعله الإنسان في  
الحياة ، فقد يتعلم إلى أن يصل إلى أرقى درجات العلم ، ويسعى في  
الأرض ما وسعه السَّعى ، ثم أخيراً يموت

والمؤمن هو مَنْ يصل عمل دُنياه بالآخرة ، ليصل إلى النعيم  
الحقيقي ، والمؤمن هو مَنْ يبذل الجهد ليصل نفسه برحمة الله ، لأنها  
باقية بقاء الله ، ولأن المؤمن الحق يعلم أن كل غية لها نَعْد ،  
لا تعتبر غاية

ولذلك فالدنيا هي حد ذاتها لا تصلح غايةً للمؤمن ، ولكن العاية  
الحق هي إما الجنة أبداً ، أو النار أبداً

يقول الحق سبحانه بعد ذلك .

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ

إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ (٢٧)

ونعلم أن « لولا » إذا دخلت على جملة اسمية قلها وضع يختلف عنه وصنعها إذا دخلت على جملة فعلية ، فحين نقول « لولا ريد عندك لورثتك » يعنى امتناع حدوث شيء لوجود شيء آخر وحسين نقول لولا تذاكر دروسك فهذا يعنى حضاً على الفعل

والحق سبحانه يقول

﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (١٣)

[السود]

والجملة التى دخلت عليها « لولا » فى هذه الآية هى جملة فعلية وكان الحق سبحانه يحضنا هذا على أن نلتفت إلى الآية الكبرى التى نزلت عليه ﷺ ، وهى القرآن .

وقد تساءل الكافرون - كذباً - عن مجيء آية ، وكان تسأولهم بعد مجيء القرآن ، وهذا كذب واقع : يناقضون به أنفسهم ، فقد قالوا

(١) الآية العلامة الواضحة والمعجزة لأنها علامة على صدق الرسول وتجمع آية على « آية » و « آيات » قال تعالى ﴿قَدْ يَمُنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا يَكْفُرُونَ﴾ (البقرة) [ أى المعجرات والعلامات الدالة المؤشدة إلى الحق ] [ القاموس القويم ٤٧/١ ]

(٢) أناب العبد إلى ربه - رجع إليه وتاب وترك السيئات - قال تعالى ﴿عَنْ تَوَكُّلْتُمْ وَلِلَّهِ الْإِيبُ﴾ (مائدة) [ عود ] إليه أقرب وأرجع [ القاموس القويم ٢٩ / ٢ ]



﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ (٣٧)﴾

[الرغرف]

وهم بذلك قد اعترفوا أن القرآن بلغ حد الإعجاز وتمنوا لو أنه نزل على واحد من عظماء الفريقين - مكة أو الطائف -

وهم من قالوا أيضاً

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ (١) إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦)﴾ [الحجر]

ثم يعودون هنا لينكروا الاعتراف بالقرآن كمعجزة ، على الرغم من أنه قد جاء من جنس ما نبأوا فيه ، فهم يتذوقون الأدب ، ويتذوقون البيان ، ويتذوقون العصاحة : وقيمون الأسواق ليعرضوا إنتاجهم في البلاغة والقصائد ، فهم أمة تطرب فيها الآن لما ينطقه اللسان .

ولكنهم هنا يطلبون آية كونية كالتي نزلت على الرسل السابقين عليهم السلام ونسوا أن الآية الكونية عمرها مَقْصُور على وقت حدوثها ، ومن رآها هو من يصدقها ، أو يصدقها من يُخبره بها مصدر موثوق به

ولكن رسول الله ﷺ هو المبعوث لتنظيم حركة انحصار في دنيا الناس إلى أن تقوم الساعة ، ولو أنه قد جاء بآية كونية ، لأخذت رماها فقط

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يأتي بآية معجزة باقية إلى أن تقوم الساعة ، فضلاً عن أنه ﷺ قد جاءت له معجزات حسية : كتفجر

(١) الذِّكْر الكتاب الذي فيه تفسير الدين وكل كتاب من كتب الأنبياء عليهم السلام نكر

[لسان العرب - مادة ذكر]

الماء من بين أصابعه<sup>(١)</sup> ، وحفة الطعام التي أشبعت جيشاً ، وأظلت السحابة ، وحن<sup>(٢)</sup> جذع الشجرة حيناً إليه ليقف من فوقه خطيباً ، وجاءه الضب مسلماً<sup>(٣)</sup>

كل تلك آيات كونية هي حجة على من رآها ، وكذلك معجزات الرُسل السابقين ، ولولا أن رواها لنا القرآن لعب أمناً بها ، وكانت الآيات الكونية التي جاءت مع الرسل هي محرمات لئن عاشوا في أزمان الرسل السابقين على أن هؤلاء الرسل مُدْعَوْنَ عن الله

وقد شرح الحق سبحانه هذا الأمر بالنسبة لرسول الله ﷺ حين

قال

﴿وما معنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾ (١٠٩) [الإسراء]

(١) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (١١٦/١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، أن هذا كل يوم الحديبية أن النفس تلاقى لرسول الله ﷺ ، ليس عند ماء مشرب ولا ماء متركب ، إلا ما بين يديك فوضع رسول الله ﷺ يده في الركوة ، فجعل الماء ينزل بين أصابعه مثل العيون .

(٢) عن الجعد إليه نزع واشتاق وأعمل الصنن يرجع المنافه صوبها إثر ولدها ، [لسان العرب مادة حس]

(٣) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣٦/١) من حديث عمر بن الخطاب أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ «واللات والعزى لا أمنت بك أو يوء بك هذا الصب ، وبخرج ضيماً من كعبه وطرحه بين يدي رسول الله ﷺ فقال ﷺ يا صب ، فنجاه الحب بلسان عربي مبين يسمعه القوم جميعاً ليبيك وسبعديك يا رب من وافى القيامة قال من تعبد يا صب ؟ قال الذي في السماء عرشه ، وفي الأرض سلطانه ، وفي البحر سبيله ، وفي الجنة رجمته ، وفي النار عقابه قال لمن لنا يا صب ؟ قال رسول رب العالمين ، وحاتم النبیین وقد أفلح من صدقك ، وقد خاب من كذبك »

أى أن الرسل السابقين الذين نزلوا في أقوامهم وصحبتهم  
الآيات الكونية قبلوا أيضاً المكذبين بتلك الآيات ، وقوم رسول الله ﷺ  
قالوا أيضاً

﴿وَقَالُوا لِمَ تُؤْمِنُ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنُوعًا (٩٠) أَوْ تُكُونُ لَنَا جَنَّةً  
مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَسَى فَتَعْمِرَ الْأَنْهَارَ حُلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زُيِّنَتْ  
عَلَيْهَا كَسَفًا (٩٢) أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٣)﴾ [الإسراء]

ويقول الحق سبحانه في موقع آخر

﴿وَلَوْ أَنَّا مَرَّاتًا إِلَهُهُمْ الْأَمْلَأْنَاهُ أَلْمَلَكُوتَ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ  
قَبْلًا (٩٤) مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا (٩٥)﴾ [الأنعام]

وهكذا يبيِّن لنا الحق سبحانه أنهم غارقون في العناد ولن  
يؤمنوا ، وإن أقوالهم تلك هي مجرد حُجَج يتلكنون بها

وهم هنا في الآية التي نحن بصدد خوطبها عنها يقولون

﴿لَوْلَا أَنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ .. (٩٦)﴾ [الرعد]

وهكذا نجد أنهم يعترفون أن به رباً ، على الرغم من أنهم قد  
اتهموه من قبل أنه ساحر ، وأنه - والحياد بالله - كاذب - وحين هتَر<sup>(١)</sup>

(١) الكسبة القطعة رجمها كسَفَ وكسَفَ وكسَفَ الثوب قطعه قطعاً [ القاموس  
القيوم ١٦١/٢ ]

(٢) القيل المماينة والسقبة والمواجهة وتيل جمع سبيل أى أصنافاً وأنواعاً  
[ القاموس القويم ١٨/٢ ]

(٣) هتَر الشيء سكر بعد حدة ، ولان بعد شدة والفترة الانكسار والصف والفترة  
ما بين كل مابين من الزمان الذي انقطعت فيه الرسالة [ لسان العرب - مادة هتَر ]

عن الرّوحى قالوا : « إن ربّ محمد قد قلّاه »<sup>(١)</sup>

وأزّل الحق سبحانه الرّوحى

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ (٢) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ  
يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) ﴿ [الضحى]

أى أن الرّوحى سوف يستمر ، وهكذا فضح الله كذبهم على مرّ  
سنوات الرسالة المحمدية

وهم هنا يتعنّتون فى طلب الآية الحسيّة الكونية وكلمة آية كما  
عرّفنا من قبل هى إما آية كونية تُكفّت إلى وجود الخالق .

أو آية من القرآن فيها تفصيلٌ للأحكام : وليست تلك هى الآية  
التي كانوا يطلبونها

أو آية معجزة تدلّ على صدق الرسالة .

وكان طلب الآيات إنما جاء لأنهم لم يقنعوا بآية القرآن ، وهذا  
دليل غباثتهم فى استقبال أدلّة اليقين بصدق الرسول ﷺ ، لأن القرآن  
جاء معجزة ، وجاء منهاجاً .

والمعجزة - كما أوضحنا - إنما تأتي من جس ما ينبغ فيه  
القوم ، ولا يأتى سبحانه بمعجزة لقوم لم يُحسنوا شيئاً مثلاً ،  
ولم يتيقنوا فيه

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٥٧٢/٤) أن جذباً بن عبد الله قال : « أبطأ جبريل على  
رسول الله ﷺ فقال المشركون ودع محمداً ربه فانذر الله تعالى ﴿ وَالطُّمَى ﴾ وَاللَّيْلُ  
إذا مضى (٢) ما ودَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴿ [الضحى] »

قالذين كانوا يمارسون السُّحْرَ<sup>(١)</sup> جاءت المعجزة مع الرسول المرسل إليهم من نفس النوع ، ولذين كانوا يعرفون الحُبَّ ، جاء لهم رسول<sup>(٢)</sup> ، ومعه معجزة مما ينبغوا فيه

وقد جاءت معجزة رسول الله ﷺ من جنس ما ينبغى فيه ، فصلاً عن أن القرآن معجزة ومنهج فى آن واحد ، بخلاف معجزة التوقيت والتقييد فى زمن

ومع ذلك ، فإن كفار مكة تعنتوا ، ولم يكتفوا بالقرآن معجزة وآيات تدلهم إلى سواء السبيل ، بل اقترحوا هم الآية حسب أهوئهم ، ولذلك نجدهم قد ضلُّوا

ونجد للحق سبحانه يقول بعد ذلك

﴿قُلْ إِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِىْ إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ (٢٧) [الرعد]

وهنا تنف وقعة ، لأن البعض يحاول أن يسقط عن الإنسان مسئولية التكليف ، ويدَّعى أن الله هو الذى يمدح مدياة هؤلاء الكافرين ونقول إننا إن استقرنا آيات القرآن ، سنجد قول الحق سبحانه

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٧٦٤) [النقرة]

(١) المقصود بهم سحرة فرعون ، وقد قص علينا الحق سبحانه قصة موسى عليه السلام ومواجهته لسحرة فرعون ، إذ ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقَوْمُ مَا أَنْتُمْ مُتَّفِقُونَ﴾ (٢٠) فأنفوا حبلهم رخصتهم وقالوا مودة فرعون إنا نحن الغالبون (٢١) فالتقى موسى عصاه فإذا هى تلقب ما يأتفكون (٢٢) فالتقى السحرة ساجدين (٢٣) قالوا أما رب العالمين (٢٤) رب موسى وهارون (٢٥) [الشعراء]

(٢) محمد بن عبد الله بن عبد الوهاب ، رحمه الله ، قال : « قد وجدنا ما يدل على أن الله تعالى هو الذى يمدح مدياة هؤلاء الكافرين ونقول إننا إن استقرنا آيات القرآن ، سنجد قول الحق سبحانه »

ونجد قول الحق سبحانه

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١)﴾ [المائدة]

ويقول سبحانه أيضاً

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦٨)﴾ [المائدة]

وعن كل ذلك نفهم أن العمل السابق منهم هو الذي يجعله سبحانه لا يهديهم ، لأن الإنسان ما دام قد جاء له حُكم أعلى ويؤمن بمصدر الحكم ، فمن أجل هذا الحكم يُعطى للإنسان معونة لكن مَنْ يُكذِّب بمصدر الحكم الأعلى سبحانه يتركه بلا معونة أما مَنْ يرجع إلى الله ، فسبحانه يهديه ويدله ويعينه بكل المدد ويواصل الحق ما يمنحه سبحانه من اطمئنان لمن يُنِيب إليه فيقول .

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾

ومعنى الاطمئنان سكون القلب واستقراره وأنته إلى عقيدة لا تطفو إلى العقل لتناقضها من جديد

ونعلم أن الإنسان له حواس إدراكية يستقبل بها المحسّات ، وله عقل يأخذ هذه الأشياء ويهضمها ، بعد إدراكها ، ويفحصها جيداً ، ويتلمس مدى صحتها أو كذبها ، ويستخرج من كل ذلك قصة

واضحة يُبْقِيهَا فِي قَلْبِهِ لِتَصْبِحَ عَقِيدَةً ، لَأَنَّهُا وَصَلَتْ إِلَى مَرَحِلَةِ  
الوُجْدَانِ الْمَحَبِّ لِاخْتِيَارِ الْمَحْبُوبِ

وهكذا تَمُرُّ الْعَقِيدَةُ بِعِدَّةِ مَرَاهِلَ ، فَهِيَ أَوَّلًا إِدْرَاكُ حَسِّيٍّ ، ثُمَّ  
مَرَحِلَةُ التَّفَكُّرِ الْعَقْلِيِّ ، ثُمَّ مَرَحِلَةُ الْاسْتِجْلَاءِ الْحَقِيقَةِ ، ثُمَّ لِاسْتِقْرَارِ  
فِي الْقَلْبِ لِتَصْبِحَ عَقِيدَةً

وَلِلَّذَلِكَ يَقُولُ سَبِيحَانَهُ

﴿وَتَعْلَمُنْ قُلُوبُهُمْ﴾ (٧٨)

[الرعد]

فَاطْمَئِنَّاَنَّ الْقَلْبُ هُوَ النَّاتِجَةُ لِلْإِيمَانِ بِالْعَقِيدَةِ ، وَقَدْ يَمُرُّ عَلَى الْقَلْبِ  
بَعْضُ مِنَ الْأَعْيَارِ الَّتِي تَرْتَلِلُ الْإِيمَانُ ، وَيَقُولُ لِمَنْ تَسْمُرُ بِهِ تِلْكَ  
الْهُوَاجِسُ مِنَ الْأَعْيَارِ أَنْتَ لَمْ تُعْطِ الرُّبُوبِيَّةَ حَقَّهَا ، لِأَنَّكَ أَنْتَ الْمَلُومُ  
فِي أَيِّ شَيْءٍ يَبْأَلُكَ .

فَلَوْ أَحْسَنْتَ سَتَقْبَالُ الْقَدْرَ فِيمَا يَمُرُّ بِكَ مِنْ أَحْدَاثٍ لَعَلَّمْتَ  
تَقْصِيرَكَ فِيمَا لَكَ فِيهِ دَخَلَ بَأْيُ حَادِثٍ وَقَعَ عَلَيْكَ نَتِيجَةُ لِعَمَلِكَ ، أَمَّا  
مَا وَتَعَ عَلَيْكَ وَلَا سَحَلٌ لَكَ فِيهِ ، فَهَذَا مِنْ أَمْرِ الْقَدْرِ الَّذِي أَرَادَهُ الْحَقُّ  
لَكَ لِحِكْمَةٍ قَدْ لَا تَعْلَمُهَا ، وَهِيَ خَيْرٌ لَكَ

بِذَلِكَ اسْتِقْبَالُ الْقَدْرِ إِنْ كَانَ مِنْ خَارِجِ النَّفْسِ فَهُوَ لَكَ ، وَإِنْ كَانَ  
مِنْ دَاخِلِ النَّفْسِ فَهُوَ عَلَيْكَ

وَلَوْ قُمْتَ بِإِحْصَاءِ مَا يَنْفَعُكَ مِنْ وَقُوعِ الْقَدْرِ عَلَيْكَ لَوَجَدْتَهُ أَكْثَرَ  
بِكَثِيرٍ مِمَّا سَلَّكَ مِنْكَ ، وَالْمَثَلُ هُوَ الشَّابُّ الَّذِي سَتَذْكُرُ دُرُوسَهُ  
وَاسْتَعْدَّ لِلْامْتِحَانِ ، لَكِنْ مَرَضًا دَاهَمَهُ قَبْلَ الْامْتِحَانِ وَمَنْعَهُ مِنْ أَدَائِهِ

هذا الشاب فعل ما عليه ، وشاء الله أن ينزل عليه هذا القدر  
لحكمة ما ، كان يمنع عنه حسد جيرانه ، أو حسد من يكرهون أمه  
أو أباه ، أو يحميه من الغرور والفتنة في أنه مُعتمد على الأسباب  
لا على المُسبب . أو تأخير مرادك أمام مطلوب الله يكون خيراً

وهكذا فعلى الإنسان المؤمن أن يكون موصولاً بالمُسبب الأعلى ،  
وأن يتوكل عليه سبحانه وحده ، وأن يعلم أن التوكل على الله يعنى  
أن تعمل الجوارح ، وأن تتوكل القلوب ، لأن التوكل عمل قلبي ،  
وليس عن القوالب .

وليتدبر كل منا إلى أن الله قد يُغيّب الأسباب كي لا نفتخر بها ،  
وبذلك يعتدل إيمانك به ، ويعتدل إيمان غيرك

وقد ترى شاباً ذكياً قادراً على الاستيعاب ، لكنه لا يزال  
المجموع المناسب للكلية التي كان يرغبها ، فيسجد لله شكراً ، مُقْبِلاً  
قضاء الله وقدره ، فيُوفقه الله إلى كلية أخرى وينبغي فيها ، ليكون  
أحد البارزين في المجال الجديد

لهذا يقول الحق سبحانه

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ  
وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)﴾ [البقرة]

وهكذا نجد أن من يقبل قدر الله فيه ، ويذكر أن له رباً فوق كل  
الأسباب ، فالأطمئنان يعمُر قلبه أمام أي حدث مهماً كان .

وهكذا يطمئن القلب بذكر الله : وتهوى كل الأسباب ، لأن  
الأسباب إن عجزت فلن يعجز المُسبب

وقد جاء الحق سبحانه بهذه الآية في معرض حديثه عن التشكيك



الذى يُثْبِرُهُ الْكَافِرُونَ ، وحين يسمع المسلمون هذا التشكيك : فقد توجد بعض الحواطر والتساؤلات . لماذا لم يأت لنا رسول الله ﷺ بمعجزة حسية مثل الرُّسُلِ السابقين لتففض هذه المشكلة ، وينتهى هذا العناد ؟

ولكن تلك المِحْزَلَةُ لا تفرح من المؤمنين بيمانهم ، ولذلك يُذَنَّبُ الحق - سبحانه - الذى يُطْمِئِنُّ

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ .. (٢٨) ﴾ [الرعد]

وَالذِّكْرُ فى اللغة جاء لِمَعْنَى شَيْءٍ ، فمرة يُطلق الذِّكْرُ ، ويُراد به الكتاب أى القرآن

﴿ إِنَّا نَحْنُ الذِّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

ويأتى الذكر مرة ، ويُراد به الصِّيت والشهرة والنباهة ، يقول تعالى

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) ﴾ [الزحرف]

أى أنه شرفٌ عظيم لك فى التاريخ ، وكذلك لقومك أن تأتي المعجزة القرآنية من حسن لغتهم لتي يتكلمون بها

وقد يُملَقُ الذكر على الاعتبار ، والحق سبحانه يقول

﴿ وَلَنَسَكِّنَنَّ أَهْلَهُمْ وَلَنَنْسُوهُنَّ أَهْلَهُنَّ حَتَّىٰ يَسْكُنُوا دِيَارَهُمْ وَهُمْ يُنَادُونَ أَنَّا نَحْنُ الذِّكْرُ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) ﴾

[الفرقان]

(١) البوار الهلاك والباطل الهالك قال الجمهور البور الرجل الفاسد الهالك الذى لا خير فيه وبور البوار دار الهلاك [لسان العرب - مادة بور]

أَيُّ نَسُوا الْعِبْرَ الَّتِي وَقَعَتْ لِلْأُمَمِ الَّتِي عَاشَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَصَرَّ  
اللهُ الدِّينَ رَغْمَ عَصَا هَؤُلَاءِ .

وَقَدْ يُطَلَّقُ الذِّكْرُ عَلَى كُلِّ مَا يَبْعَثُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عَلَى لِسَانِ أَيُّ  
رَسُولٍ

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤٤)

[النحل]

وَقَدْ يُطَلَّقُ الذِّكْرُ عَلَى الْعَطَاءِ الْخَيْرِ مِنْ اللهِ

وَيُطَلَّقُ الذِّكْرُ عَلَى تَذَكُّرِ اللهِ دَائِمًا ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْقَائِلُ

﴿ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ ﴾ . (١٥٧)

[البقرة]

أَيُّ اذْكُرُونِي بِالطَّاعَةِ اذْكُرْكُمْ بِاسْمِ الْخَيْرِ وَالتَّجَلِّيَّاتِ ، فَإِذَا كَانَ الذِّكْرُ  
مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي ، فَهَذَا نَجْدُ الْإِطْمِئْنَانِ فِي أَيُّ مِنْهَا ، فَالذِّكْرُ بِمَعْنَى  
الْقُرْآنِ يُورِثُ الْإِطْمِئْنَانِ .

يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ (٤١) وَسَعَوْهُ بُكْرَةً وَأَهْمِلًا (٤٢)  
هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ كَانَ  
بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (٤٣)

[الاحزاب]

فَكُلُّ آيَةٍ تَأْتِي مِنَ الْقُرْآنِ كَأَنَّهُ تُطْمِئِنُّ الرُّسُولَ ﷺ أَنَّهُ صَافِقُ  
الْبَلَاغِ عَنِ اللهِ ، فَقَدْ كَانَ لِمُسْلِمُونَ قَلَّةٌ مُضْطَهَدَةٌ ، وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى  
حِمَايَةِ أَنْفُسِهِمْ ، وَلَا عَلَى حِمَايَةِ ذَوِيهِمْ

وَيَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ فِي هَذَا الظَّرْفِ

﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلُّونَ الدَّيْرَ ﴾ (٤٥)

[القصص]

ويتساءل عمر<sup>(١)</sup> رضي الله عنه أي جمع هذا ، ونحن لا نستطيع  
الدفاع عن أنفسنا ، وقد هاجر بعضنا إلى الحبشة خوفاً من  
الاضطهاد ؟

ولكن رسول الله ﷺ يسير إلى بدر ، ويحدد أماكن مصارع كبار  
رموز الكفر من صناديد قريش ، ويقول : « هذا مصرع فلان ، وهذا  
مصرع فلان »<sup>(٢)</sup> ، بل ويأتي بالكيفية التي يقع بها القتل على صناديد  
قريش ، ويتلو قول الحق سبحانه

﴿ نَسْفُهُمْ عَلَى الْحَرْطُومِ (١١) ﴾ [القلم]

وبعد ذلك يأتون برأس الرجل الذي قال عنه رسول الله ذلك ،  
فيجئون الضربة قد جاءت على أنفه<sup>(٣)</sup>

فمن ذا الذي يتحكم في مواقع الموت ؟

(١) أورد ابن كثير في تفسيره وعمره لابن أبي حاتم (٢٦٦/٤) عن عكرمة قال : « لما نزلت  
﴿ سَهْرُمِ الصَّبْعِ وَيُؤْكَلُ الدُّرُّ (١٠) ﴾ [القمر] قال عمر أي جمع يهرم ؟ أي أي جمع يغلب ؟  
قال عمر فلما كان يوم بدر رايت رسول الله ﷺ يشب في البرق وهو يقول سيهرم  
الجمع ويملكون الدبر فعرفت تأويلها يومئذ »

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ( ١٧٧٩ ) ، وأحمد في مسنده ( ٢١٩/٣ ، ٢٥٨ ) من حديث  
أش بن مالك رضي الله عنه

(٣) وسمه بسمه وسمًا جعل له علامة يُعرف بها سالكي أو يقطع جزء من الجسم قال  
تعالى ﴿ نَسْفُهُمْ عَلَى الْحَرْطُومِ (١١) ﴾ [القلم] أي ستجعل له علامة فوق أنفه يلكي أو  
بالجودع أو بالقطع ، وهذه العبارة كناية عن الإدلال أي سحقه [ القاموس المقيوم  
٢٢٨/٢ ]

(٤) قال ابن عباس في تفسير الآية من تفسيره ( ٤/٤ ) : « يقال يوم بدر قُطِعَ  
بالسيف في القتال » وأخرج مسلم في صحيحه ( ١٧٦٣ ) من حديث عمر بن الخطاب  
أنه بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع صرعة  
بالسرط فوقه فنظر إليه فإذا هو قد حُصِمَ أنفه ، وشقَّ وجهه فخرجه للسرط

إن ذلك لا يأتى إلا من إله هو الله . وهو الذى أخبر محمداً ﷺ  
بهذا الخبر

﴿ سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ١٥ ﴾ [القمر]

وقد طمانَ هذا لقول القوم الذين اتبعوا رسول الله ﷺ الذى  
لا يعلم الغيب ، ولا يعلم الكيفية التى يصوت عليها أى كافر وأى  
جبار ، وهو ﷺ يخبرهم بها وهم فى منتهى الضعف .

وهذا الإخبار دليل على أن رصيده قوى عند علم الغيوب

إننِ فقول الحق سبحانه

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ٢٨ ﴾ [الرعد]

يعنى ، أن لقلوب تطمئن بالقرآن وما فيه من أخبار صادقة تمام  
الصدق ، لتؤكد أن محمداً ﷺ مبلّغ عن ربه ، وأن القرآن ليس من  
عند محمد ﷺ بل هو من عند الله

وهكذا استقبر المؤمنون محمداً ﷺ وصدّقوا ما جاء به ، فهامى  
خديجة - رضى الله عنها وأرضاها - لم تكن قد سمعت القرآن ، وما أن  
أخبرها رسول الله ﷺ بمخاوفه من أن ما يأتىه قد يكون جنّاً ، فقالت

« إنك لتصلّ الرّحم ، وتحص الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقري  
الضّيف ، وتعين على نوائب الحق ، والله ما يخزيك الله أبداً »<sup>(١)</sup>

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ( ٢ ) وسنة مواضع أخرى من صحيحه ، وأخرجه أيضاً  
مسلم فى صحيحه ( ١٦٠ ) من حديث عائشة رضى الله عنها

ومعنى « تحص الكل » أى تمنى المثل ومنه الإنفاق على الضيف واليتيم والمملوك  
و « تكسب المعدوم » أى تستفيد المال المعدوم وقد كان النبي ﷺ محطولاً من تجارته  
« تقري الضيف » أى تطعمه طعام الاضياف و « نوائب الحق » حادثات الأيام انظر  
شرح النورى على مسلم ( ٢ / ٥٦٦ ) ، وفتح البارى للعسقلانى ( ١ / ٢٤٤ )

وهو هو أبو بكر - رضى الله عنه وأرضاه - يصدق أن محمداً رسول من الله ، فَوَرَّ أن يخبره بذلك .

وهكذا نجده ﷺ قد متلك سمعاً ، وقد صاغ الله لرسوله أخلاقاً ، تجعل مَنْ حوله يُصَنِّقُونَ كُلُّ ما يَقُولُ فَوَرَّ أنْ ينطق

ونلاحظ أن الذين آمنوا برسالة الله ﷺ ، لم يؤمنوا لأن القرآن أخذهم ، ولكنهم آمنوا لأن محمداً ﷺ لا يمكن أن يكذبهم القول ، وسيرته قبل البعثة معجزة في حد ذاتها ، وهي التي أدت إلى تصديق الأولين لرسول الله ﷺ

أما الكفار فقد أخذهم القرآن ، واستمال قلوبهم<sup>(١)</sup> ، وتمنؤا لو مزل على واحد آخر عبر محمد ﷺ .

وحير يرى المؤمنون أن القرآن يُحَرِّمُ بالمواقف التي يعيشونها ، ولا يعرفون لها تفسيراً ، ويخبرهم أيضاً بالأحداث التي سوف تقع ، ثم يجدون المستقبل وقد جاء بها وفقاً لما جاء بالقرآن ، هنا يتأكد لهم أن القرآن ليس من عند محمد ، بل هو من عند رب محمد ﷺ

(١) أورده ابن هشام في السيرة النبوية ( ٢ / ٢١٥ ) : « أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والاحبس بن شريق خرجوا ليلة ليستنصروا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته ، فأتاه كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض لا تموتوا قبلنا فجمعهم سمعناكم لأوقستم في شئنا شريفاً ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا .. » وحدث هذا الليلة الثالثة

وإنك فحين يُشير الكفار خزعبلاتهم لتشكيك في محمد ﷺ يأتي القرآن مطمئناً للمؤمنين ، فلا تؤثر فيهم خزعبلات الكفار

والمؤمن يذكر الله بالخيرات ، ويعتبر من كل ما يمرُّ به وبكل ما جاء بكتاب الله ، وحين يقرأ القرآن فقلبه يطمئن بذكر الله ؛ لأنه قد آمن إيماناً صدقاً

وقد لمس المؤمنون أن أحبار النبي النى يقولها بهم قد تعدتْ محيطهم لبيثى المحدود إلى العالم الواسع بجناحيه الشرقي من فارس ، والغربي من الروم .

وقد أعلن لهم رسول الله ﷺ - على سبيل المثال - خبر انتصار الروم على الفرس ، حين أنزل الحق سبحانه قوله

﴿الْقَوْمُ (١) غَلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مَرَّ بَعْدَ غَلِبِهِمْ سَيَلُونُ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ .. (٤)﴾ [الروم]

مارونى أى عنقرىة فى العام تستطيع أن تتحكم فى نتيجة معركة بين قوتين تصطرعان وتقتتلان ، وبعد ذلك يحدد من الذى سيفتصر ، ومن الذى سيهزم بعد فترة من الزمن تتراوح من خمس إلى تسع سنوات ؟

وأيضاً تأتي الأحداث العالمية التى لا يعلم عنها رسول الله ﷺ شيئاً ، وتوافق ما جاء بالقرآن

وكلُّ ذلك يجعل المؤمنين بالقرآن فى حالة اطمئنان إلى أن هذا القرآن صادق ، وأنه من عند الله ويصدق هذا قول الحق سبحانه

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨)

[الرعد]

ونعلم أن الكون قد استقبل لإنسان الأول - وهو آدم عليه السلام - استقبالا ، وقد هييء له فيه كل شيء من مقومات الحياة ؛ وصار لإنسان يعيش في أسباب الله ، تلك الأسباب الممدودة من يد الله ، فنأخذ بها وترقى حياتنا بقدر ما نبذل من جهد

وما أن نموت حتى نصير إلى أرقى حياة ، إن كان عملنا صالحا وحسن إيماننا بالله ؛ فبعد أن كنا نعيش في الدنيا بأسباب الله الممدودة ، فمن نعيش في الآخرة بالمُسبَّب في جنته التي أعدها للمتقين .

وقول الحق سبحانه

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨)

[الرعد]

يعنى أن الاطمئنان مُستَرَعِب لكل القلوب ؛ فكل إنسان له زاوية يضطرب فيها قلبه ، وما أن يذكر الله حتى يجد الاطمئنان ويتثبت قلبه .

وقد حاول المستشرقون أن يقيموا ضجة حول قوله تعالى .

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨)

[الرعد]

وتساءلوا كيف يقول القرآن هنا أن الذكر يُطمئن القلب ، ويقول في آية أخرى .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ<sup>(١)</sup> قُلُوبُهُمْ .. ﴾ (٢) [الأنفال]

فأى لمعنيين هو المراد ؟

ولو أن المستشرقين قد استقبلوا القرآن بالملكة العربية الصحيحة  
لعلموا الفرق بين

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (٢٨) [الرعد]

وبين قول الحق سبحانه

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .. ﴾ (٢) [الأنفال]

فكانه إذا ذكر الله أصم العاس ، وكان الإنسان فى غفلة عن الله ،  
هنا ينتبه الإنسان بوجل

أو أن الحق سبحانه يخاطب الخلق جميعاً بما فيهم من عرائر  
وعواطف ومواجيد ، فلا يوجد إنسان كامل : ولكن إنسان هفوة إلا  
من عصم الله

وحين يتذكر الإنسان إسراره من جهة سيئة ، فهو يوجل ، وحين  
يتذكر عفو الله وتوبته ومغفرته يطمئن .

ويقول سبحانه بعد ذلك

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ<sup>(٢)</sup>

وَحَسَنُ مَا لَهُمْ ﴾ (٤٩)

(١) وجل يوجل فرع وحاف قال تعالى ﴿ أَلَا لَا يَجِلُّ ﴾ (٥٢) [الصجر] أى لا تفرح ولا تخف وهو وجل أى حشف قال تعالى ﴿ قَالَ إِنَّا أَنْتُمْ وَجِلُونَ ﴾ (٥٦) [الصجر]  
[ القاموس القويم ٢/ ٢٢١ ]

(٢) طوبى اسم تفضيل أى لهم أطيب عاقبة وقيل طوبى مصدر مثل يشرى أى لهم  
لذة وطيب وسعادة وحير وقيل علّم على الجنة أو على شجرة طيبة فيها [ القاموس  
القويم ١/ ٤١٢ ]



وطوبى من الشيء الطيب : أى . سَيَلَقُونَ شيئاً طيباً فى كُلِّ  
مظهره شكلاً ولوناً وطعماً ومراجاً وشهوة ، فكلُّ ما يشتهيهِ  
الواحد منهم سيَجده طيباً : وكان الأمر الطيب موجود لهم .

وقول الحق سبحانه

﴿ وَحَسُنَ مَا يَمْنَنُ ﴾ (٢٩)

[الرعد]

أى - حَسُنَ مرجعهم إلى مَنْ خلقهم أولاً ، وأعاشهم بالأسباب .  
ثم أخذهم ليعيشوا بالمُسَبَّب الأعلى ، وبإمكانية « كُنْ فيكون »

● ● ●

ويريد الحق سبحانه من بعد ذلك أن يُوضِّح لرسوله ﷺ أنه  
رسول من الرُّسُل ، وكان كل رسول إلى أى أمة يصحب معه معجزة  
من صنف م نفع فيه قومه .

وقد أرسل للحق سبحانه محمداً ﷺ ومعه المعجزة لتى تناسب  
قومه ، فهم قد نبغوا فى البلاغة والبيان وصناعة الكلام ، وقول  
القصاص الطويلة وأشهرها المُعلقات السبع ، ولهم أسواق أدبية مثل  
سوق عكاظ ، وسوق ذي المجاز

ولذلك جاءت معجزته ﷺ من جنس ما نبغوا فيه ، كى تأتيتهم  
الحجة والتعجيز

ولو كانت المعجزة فى مجال لم ينبغو فيه ، لقالوا « لم نعالج  
أمراً مثل هذا من قبل ، ولو كنّا قد عالجناه لنبغنا فيه »

وهكذا يتضح لنا أن إرسال الرسول بمعجزة فى مجال نفع فيه

قومه هو نَوْحٌ من إثبات التحدى وإظهار تفوق المعجزة التي جاء بها الرسول

وهكذا نرى أن إرسال محمد ﷺ بالقرآن - وإن لم يُنفع الكفار - إنما كان مطابقاً لمنطق الوحي من السماء للرسالات كلها  
ولذلك يقول الحق سبحانه هنا

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِسَتَلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٢٠﴾﴾

لكما أرسلك الله إلى أمتك ، بعد سبق أن أرسل سبحانه رسلاً إلى الأمم التي سبقت ، ولم يرسل مع أي منهم معجزة تناقض ما نبغ فيه قومه ؛ كي لا يقول واحد أن المعجزة التي جاءت مع الرسول تتناول ضمناً لم يألفوه ، ولو كانوا قد ألفوه نعا تفوق عليهم الرسول

وقول الحق ﴿كَذَلِكَ﴾ [الرعد]

يعنى كهذا الإرسال اسابق للرسل جاء بعثتك إلى أمتك ، كذلك الأمم السابقة

ويلتى الحق سبحانه هنا بالاسم الذى كان يجب أن يقدروه حق قدره وهو « الرحمن » فلم يقل « وهم يكفرون بالله » بل قال .

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ .. (٢٠)﴾ [الرعد]

فهم يعيشون - رغم كفرهم - في رزق من الله الرحمان ، وكل ما حولهم وما يُلَينهم وما يَسْتَمعون به من نعم هي عطاءات من الله وهم لا يقومون بأداء أى من تكاليف الله فكان من اللياقة أن يذكرنا فضل الله عليهم ، وأن يؤمنوا به ، لأن المطلوب الألوهية هو القيام بالعبادة

وهو سبحانه هنا يأتي باسمه « الرحمن » ، والذي يقيد التطوع بالخير ، وكان من الواجب أن يقدروا هذا الخير الذي قدمه لهم سبحانه ، دون أن يكون لهم حول أو قوة

وكان يجب أن يعتبروا ويعطوا أنهم يتجهون إليه سبحانه بالعبادة ، وأن يُتَقَدوا التكليف العبدى

وفي صلح الحديبية دارت المعامشات بين المسلمين وكفار قريش الذين صنعوا رسول الله ﷺ من دخول مكة ، ولكنهم قبلوا التعاهد معه ، فكان ذلك اعترافاً منهم بمحمد ﷺ وصحبه الذين صاروا قوة تعاهد ، تأحد وتعصى

ولذلك نجد سيدنا أبا بكر - رضى الله عنه - يقول « ما كان في الإسلام نصر أعظم من نصر الحديبية »

فقد بدأت قريش في الحديبية الاعتراف برسول الله وأمة الإسلام ، وأخذوا هبة طويلة تمكّن خلالها محمد ﷺ وصحابته من أن يغزوا القبائل التي تعيش حول قريش ، حيث كانت تذهب سرية ومعها مبشّر بدين الله ، تُسم القبائل قبيلة من بعد قبيلة .

وهكذا كانت الحديبية هي أعظم نصر في الإسلام ، فقد سكنت قريش ، وتفرغ رسول الله ﷺ ومن معه لدعوة القبائل المحيطة بها للإسلام

ولكن الناس لم يتسع ظنهم لمّا بين محمد وربّ واعبد دائماً يعجلون ، والله لا يعجل بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد<sup>(١)</sup>

وحين جاءت لحظة التعاقد بين رسول الله ﷺ وبين قريش في الحديبية ، وبدأ علي بن أبي طالب في كتابة صيغة المعاهدة كتب « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » فاعترض سهيل بن عمرو وقال « لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب » « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو »

وأصرّ صحابة رسول الله ﷺ على أن تكتب صفة محمد كرسول ، لكن النبي ﷺ قال « والله إني لرسول الله وإن كذبتوني - اكتب محمد بن عبد الله »<sup>(٢)</sup>

ولكن علياً - كرم الله وجهه - يصرّ على أن يكتب صفة محمد كرسول من الله ، فينطق الحق سبحانه رسوله ﷺ ليقول لعلي « سنسأله<sup>(٣)</sup> مثلها فنقبل »

(١) وفي هذا يورد السيوطي في الدر المنثور ( ٩/٧ ) أثراً ، منها الأثر الذي عراه لبيدقي عن عروة رضي الله عنه أن بعض الصحابة قالوا والله ما هذا بفتح ، لقد صدقنا عن النبي ﷺ حديثاً مئال ﷺ « بشئ الكلام ، هذا أعظم الفتح ، لقد رضي المشركون أن يدفعوك لمراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبون إليكم في الإياب ، وقد أظفركم الله عليهم ، وركم سالمين خاسمين مajeورين فهذا أعظم الفتح »

(٢) أورده ابن هشام في السيرة النبوية ( ٢١٧/٢ )

(٣) ساءه الأمر يسوعه كلفه إياه وكثر ما يستعمل في العذاب والشر والنظم والسنن

التكليف [ لسان العرب - مادة سوم ]

ولما تولَّى عليٌّ - كرم الله وجهه - بعد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين ، وقامت المعركة بين علي ومعاوية ، ثم اتفق الطرفان على عقد معاهدة ، وكتب الكاتب « هذا ما قاضى عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب » فقال عمرو بن العاص مندوب معاوية « اكتب اسمه واسم أبيه ، هو أميركم وليس أميرنا » .

وهذا تدكُّر علي - كرم الله وجهه - ما قاله سيدنا رسول الله ﷺ « سَتُسَامِ مِنْهَا فَتَقْبَلُ » وقَبِلَهَا فقال « امْحُ أمير المؤمنين ، وكتب هذا ما قاضى عليه علي بن أبي طالب »<sup>(١)</sup> وتحققت مقولة الرسول ﷺ

ومن الوقائع التي تُثَبِّتُ الإيمانَ ، تجد قصة عمار بن ياسر ، وكان ضمن صفوف علي - كرم الله وجهه وأرضاه - هي المواجهة مع معاوية ، وقتله جنود معاوية ، فصرخ المسلمون وقالوا « ويح<sup>(٢)</sup> عمار ، تقتله الفئة الباغية »<sup>(٣)</sup> . وهكذا كان رسول الله ﷺ قد قال

وبذلك فهم المسلمون أن الفئة الباغية هي فئة معاوية ، وانتقل كثير من المسلمين الذين كانوا في صفِّ معاوية إلى صفِّ علي بن أبي طالب ، فذهب عمرو بن العاص إلى معاوية وقال تفشَّش في

(١) أورده ابن كثير في البداية والنهاية ( ٢٨٧/٧ ) ، طبعة دار الريان للتراث ، الطبعة الأولى

١٩٨٨ م ، حوادث عام ٣٧ هجرية

(٢) ويح كلمة ترسم وتوجع ، قال ابن تيمول به بليَّة [ لسان العرب - مادة ويح ]

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ( ٩١،٢ ) ، والبخاري في صحيحه ( ٥٤١/١ ) ، والبيهقي في

دلائل النبوة ( ٥٤٦/٢ ) من حديث أبي سعيد الخدري

الجيش فاشية ، إن استمرت لن يبقى معنا أحد ، فقد قتلنا عمار بن ياسر ، وذكر صحابة رسول الله ﷺ قوله « ويح عمار ، تقتله الفئة الباغية » ، وقد فهم المقاتلون معنا أن الفئة الباغية هي فقتنا

وكان معاوية من الدهء بمنزلة ، فقال : اسع في الجيش وقتل إنما قتله من أخرجته ، ويعنى علياً ، ولما وصل هذا القول لعلي قال : ومن قتل حمزة بن عبد المطلب ، وقد أخرجته للقتال محمد ﷺ ١٩

وهنا في قول الحق سبحانه

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ .. ﴾ (٣٠) [الرعد]

إنما يعنى أن الحق قد أرسلك يا محمد بمعجزة تُنسب ما نبغ فيه قومك ، وطلت غير ذلك هو جهل بواقع الرسالات وتعتب يقصد منه مزيد من ابتعادهم عن الإيمان .

وقول الحق سبحانه

﴿ رَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي .. ﴾ (٣١) [الرعد]

أي أنهم حين يعلنون الكفر فانت تصادهم بإعلان الإيمان ، وتقول

﴿ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .. ﴾ (٣٢) [الرعد]

وكلمة « ربى » تنسجم مع كلمة « الرحمن » الذى يُنعم بالنعمة كلها ، وهو المتولى تربيته ، ولو لم يفعل سوى خلقى وتربيته ومدى بالحياة ومقرماتها ، لكان يكفى ذلك لأعبده وحده ولا أشرك به أحداً .

ولو أن الإنسان قد أشرك بالله ، لالتفت مرة لذلك الإله ، ومرة أخرى للإله الآخر ، ومرة ثالثة للإله الثالث وهكذا ، وشاء الله سبحانه أن يريخ الإنسان من هذا التشتت بعقيدة التوحيد

ويأتى القرآن ليطمئن القلوب أيضاً وليذكر

﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ<sup>(١)</sup> وَرَجُلًا سَلَمًا<sup>(٢)</sup> لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [الرمز]

وهكذا نعرض لنا القرآن صورتين :

**الصورة الأولى :** لرجل يملكه أكثر من سيد ، يعارضون بعضهم البعض .

**والصورة الثانية ،** لرجل آخر ، يملكه سيد واحد

ولا نُدُّ للعقل أن يعلم أن السيد الواحد أفضل من الأسياذ المتعددين ، لأن تعدد الأسياذ فساد وإفساد ، يقول الحق سبحانه ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢)﴾ [الأنبياء]

والعاقِر هو مَنْ لَا يُسَلِّمُ نَفْسَهُ إِلَّا لِسَيِّدٍ وَاحِدٍ يَتَّقُ أَنَّهُ أَمِينٌ عَلَيْهِ ، وَنَحْنُ فِي حَيَاتِنَا نَقُولُ مَا يَحْكُمُ بِهِ فَلَانِ أَمَا أَرْضَى بِهِ ، وَقَدْ

(١) تَشَاكَسَ الْقَوْمُ تَنَارَعُوا وَاجْتَدَ اخْتِلَافَهُمْ قَالَ تَعَالَى ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ . (٢٩)﴾ [الرمز] ذلك مثل العبد المَشْرُكِ لَهُ آلِهَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ يَتَنَازَعُونَ فِيهِ [القاموس القويم ٢٥٤/١]

(٢) السَّلَامُ مَنْ وَجَدَ إِلَهًا مِثْلَهُ مِثْلُ السَّلَامِ رَجُلٌ لَا يَشْرِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ [لسان العرب - مادة سلم]

وَكَلْتَهُ بِى كَذَا ، وَلَا أَحَدٌ مِّنَّا يُعْلَمُ نَفْسَهُ إِلَّا لِمَنْ يَرَى أَنَّهُ أَمِينٌ عَلَى هَذَا الْإِسْلَامِ ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ أَمِيناً وَقُويَا ، وَيَقْدِرُ عَلَى تَنْفِيذِ مَطْلُوبِهِ .

والرسول ﷺ فى المعركة العنيفة مع صناديد قريش قال : ائِى متوكل على الله ، وهذه شهادة منه على أنه تركل على القوى الامين الحكيم ، والرسول لم يقلُ توكلت عليه ، ولكنه قال

﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ .. ﴾ (٢٠) [الرعد]

والفرق بين القولين كبير ، فحين تقول « عليه توكلت » مات مَقْصُر التوكُّل عليه وحده ، ولكنْ إِن قُلْتَ « توكلت عليه » ماتَ مُسْتَطِيعٌ أَنْ تَضِيفَ وَتَعْلِفَ عِدداً آخَرَ مِمَّنْ يَمَكِّنُكَ التَّوَكُّلُ عَلَيْهِمْ

والدالك نقول

﴿ اِيَّاكَ نَعْبُدُ .. ﴾ (٥) [الفتح]

ونحصر العبادة به وله وحده سبحانه ، فلا تتعداه إلى غيره ، ولو أنها أُخْرِتْ لَجَازَ أَنْ يعطف عليه . ويُقَالُ فى ذلك ، اسم قصر ، ائِى أَنْ العبادة مَقْصُورَةٌ عَلَيْهِ ، وكذلك التَّوَكُّلُ

﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ .. ﴾ (٢٠) [الرعد]

ائِى ائنئى لَا أَحْذِ أَوْامِرِى مِنْ أَحَدٍ غَيْرِهِ وَمَرْجِعِى إِلَيْهِ .

ويقول سبحانه من بعد ذلك .



﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ  
 أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْنِسِ الْدِّينَ  
 ءَامِنُونَ أَنْ لَّوِ شَاءَ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ  
 كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ <sup>(١)</sup> أَوْ تَكْلُفٌ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ  
 حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٢١﴾﴾

و ( لو ) حَرْفُ شَرْطٍ يلزم لها جوابٌ شَرْطٌ ، وقد ترك الحق سبحانه جواب الشرط هنا اعتماداً على يقظة المُسْتَمِعِ وإن كان مثل هذا القول ناقصاً حين ننطق نحن به ، فهو ليس كذلك حين يأتي من قول الله سبحانه ، فهو كامل فيمن تكلم ، وقد تركها ليقظه المُسْتَمِعِ للقرآن لذي يبتدر المعاني ، ويتذكر مع هذه الآية قوله الحق

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ <sup>(٢)</sup> فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّسِيءٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام]

وكذلك قول الحق سبحانه

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمُرْسَلِينَ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ

(١) القارعة الدامية تفجؤهم بكفرهم وعثرهم ويقال قارعه أمر إذا أصابه قال ابن عباس القارعة الذكبة وقال أيضاً القارعة السلائع والسرايا التي كل ينلها رسول الله ﷺ لهم [ تفسير القرطبي ٥/ ٣٦٥٧ ]

(٢) القرطاس الصحيفة يكتب فيه من ورق أو نحوه [ القاموس القويم ١١٣/٢ ] جمعها قرطاس ورد به قول تعالى ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ نَجْهَرُونَهُ قُرَاطِسٌ يُدَوِّنُهَا وَتُخْفُونَ كِتَابًا .. ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام]

شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَنَسَكُنَ أَكْثَرَهُمْ يَحْطِلُونَ ﴿١١﴾ ﴿

[الأنعام]

إذن من كل بظائر تلك الآية التي نحن بصدد خواطرتها عنها  
نأخذ جواب الشرط المناسب لها من تلك الآيات ، فيكون المعنى  
لو أن قرأنا سُيِّرَتْ به الجبال ، أو قُطِعَتْ به الأرض ، أو كَلَّمَ به  
الْمَوْتَى لَمَا آمَنُوا

وَيُرَوَّى أَنَّ بَعْضًا مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ مِثْلَ أَبِي جَهْلٍ وَعَبْدِ اللَّهِ  
ابْنِ أَبِي أُمَيَّةٍ جَلَسَا خَلْفَ الْكَعْبَةِ وَأَرْسَلَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَقَالَ لَهُ  
عَبْدُ اللَّهِ : إِنْ سَرُّكَ أَنْ تَتَّبِعَكَ فَسَيِّرْ لَنَا جِبَالَ مَكَّةَ بِالْقُرْآنِ ، فَأُذْهِبْهَا  
عَنَّا حَتَّى تَنْفَسِحَ ، فَإِنَّهَا أَرْضٌ ضَيِّقَةٌ ، وَاجْعَلْ لَنَا فِيهَا عِيُونًا  
وَأَنْهَارًا ، حَتَّى نَغْرَسَ وَنَزْرِعَ ، فَلَسْتُ - كَمَا زَعَمْتَ - بِأَهْوَنَ عَلَى رَبِّكَ  
مِنْ دَاوُدَ حِينَ سَخَّرَ لَهُ الْجِبَالَ تَسِيرَ مَعَهُ ، وَسَخَّرَ لَنَا الرِّيحَ فَتَرَكِبُهَا  
إِلَى الشَّامِ نَفْضِي عَلَيْهَا مَيِّرَتَنَا وَحَوَائِجَنَا ، ثُمَّ رَجَعَ مِنْ يَوْمِنَا ، فَقَدْ  
سَخَّرَتْ أَرْبَعُ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَنَ دَاوُدَ ، وَلَسْتُ بِأَهْوَنَ عَلَى رَبِّكَ مِنْ  
سَلِيمَانَ ، وَأَخْبَى لَنَا قَصَبٌ جَدُّكَ ، أَوْ مَرُّ شَيْئٍ أَنْتَ مِنْ مَوْتَانِ  
مَسْأَلِهِ ، أَحَقُّ مَا تَقُولُ أَنْتَ أَمْ بَاطِلٌ ؟ فَإِنْ عَيْسَى كَانَ يُحْيِي الْمَوْتَى ،  
وَلَسْتُ بِأَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنْهُ ، فَانْزِلْ أَحَقَّ سُبْحَانَهُ هَذِهِ الْآيَةَ وَمَا عَلَيْهَا  
لِلرَّدِّ عَلَيْهِمْ <sup>(١)</sup> .

(١) القصب من العظام كل عظم أجوف مستدير له سَجٌّ [ سلسل العرب - مادة قصب ]

(٢) أورده القرطبي في تفسيره ( ٣٦٥٠/٥ ) وقال قال معناه الزبير بن العوام ومجاهد

وقائدة والضحاك ونظر أسباب النول ( ص ١٥٧ ، ١٥٨ )

وكانت تلك كلها مسائل يتكئون بها لينعبدوا عن الإيمان ،  
فالرسول ﷺ قد جاء بمعجزة من جنس ما نبؤوا فيه ، وجاء القرآن  
يحمل منهج السماء إلى أن تقوم الساعة

وقد ظلموا أن تباعد جبال مكة ليكون الوادي فسيحاً ، يزرعوا  
ويحصدوا ، وطلبوا تقطيع الأرض ، أى فصل بقعة عن بقعة ، وكان  
هذا يحدث بحفر جداول من المياه ، وقد قال الكامرون

﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۝﴾ [الإسراء]

والمراد من تقطيع الأرض - حسب مطلوبهم - أن تقصر المسافة  
بين مكن وآخر ، بحيث يستطيع السائر أن يستريح كل فترة ،  
فالمسافر يترك في كل خطوة من خطواته أرضاً ، ويصل إلى أرض  
أخرى ، وكل يقطع الأرض على حسب قدرته ووسيلة اتصالات  
التي يستخدمها

فالمُتَرَف يريد أن تكون المسافة كبيرة بين قطعة الأرض  
والأخرى ، لأنه يملك الجياد التي يمكن أن يقطع بها المسافة  
بسهولة ، أما من ليس لديه مطية ؛ فهو يحب أن تكون المسافات  
قريبة ليعتد على أن يستريح

ونلاحظ نحن ذلك في زماننا المعاصر ، فحين زاد الترف صارت  
السيارات تقطع المسافة من القاهرة إلى الإسكندرية دون توقف ،  
عكس ما كان يحدث قديماً حين كانت السيارات تحتاج إلى راحة  
ومعها المسافرون بها ، فيتوقفون في منتصف الطريق

ومثل ذلك قد حدث في مملكة سبأ يقول الحق سبحانه .

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ..﴾ (٢٩) [سبأ]

أي . أحعل المسافة بين مكان وآخر بعيدة ، كي يتمتع المسافر القاصر بالمناظر الطيبة<sup>(١)</sup>

ولاحظنا أيضاً تمادى المشركين من قريش في طلب المعجزات الحارقة ، بأن طلبوا إحياء لموسى في قول الحق سبحانه .

﴿أَوْ كُفُّوا بِهِ الْمَرْتَنَى..﴾ (٦١) [الرعد]

وبعضهم طلب إحياء قصي بن كلاب الجد الأكبر لرسول الله وقريش ، ليسألوه أحق ما جاء به محمد ؟ ولكن القرآن لم يأت لمثل تلك الأمور . وحتى لو كان قد جاء بها لما آمنوا .

ومهمة القرآن تتركز في أنه مبهج حاتم صالح لكل عصر وتلك معجزته

ويقول سبحانه .

﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا..﴾ (٢١) [الرعد]

وكلمة « أمر » تدل على أنه شيء واحد ، وكلمة « جميعاً » تدل على مُعَدَّد ، وهكذا نجد أن تعدد الرسائل والمعجزات إنما يدل على

(١) وذلك أن الله تعالى أنعم عليهم بأن جعل القرى ظاهرة والمعائن قريبة ، فقال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَىٰ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُورًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَهْرًا لِّهَا ذَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ (٢٥) [سبأ] ولكنهم طلبوا من الله المباحة بين أسفارهم فقالوا ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ لِحَمَلِهِمْ أَثْقَالًا وَمَرْقَدَهُمْ كُلَّ مَسَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ مُبَاسِّرٍ شَكُورٍ﴾ (٢٥) [سبأ]

أَنْ كُلُّ أَمْرٍ مِنْ أَمْرِ تِلْكَ الرِّسَالَاتِ إِنَّمَا صَدَرَ عَنِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ ؛ وَهُوَ  
الَّذِي اخْتَارَ كُلَّ مَعْجَزَةٍ لِقَنَاسَبِ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَنْزِلُ فِيهِمُ الرِّسُولُ

وَيَتَابِعُ سُبْحَانَهُ

﴿ أَلَمْ يَأْسِ الْدِّينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا .. ﴾ (٣١)

[الرمز]

وكلمة « يئس » يُقَالُ إِنَّهَا هُنَا بِمَعْنَى « يَعْلَمُ » ، فَهِيَ لُغَةٌ بِلَهْجَةِ  
قَرِيشٍ <sup>(١)</sup> ، أَيْ أَلَمْ يَعْلَمْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ هَؤُلَاءِ الْكَافِرَ لَمْ يَهْتَدُوا ، لِأَنَّ  
اللَّهَ لَمْ يَشَأْ هِدَايَتَهُمْ

وَكَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَوَدُّونَ أَنْ يُؤْمِنَ صَادِقُ قَرِيشٍ كَيْ يَخْفُ الْجَهْدُ  
عَنِ الْفِتْنَةِ الْمُسْلِمَةِ ، وَلَا يَضْطَهُدُوهُمْ ، وَلَا يَصَافِهُوهُمْ فِي أَرْوَاقِهِمْ  
وَلَا فِي عِيَالِهِمْ

وَيُوضِحُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ هُنَا أَنَّ تِلْكَ الْمَسْأَلَةَ لَيْسَتْ مُرْتَبِطَةٌ بِرِغْبَةِ  
الْمُؤْمِنِ مِنْ هَؤُلَاءِ ، بَلِ الْإِيمَانُ مَسْأَلَةٌ تَتَطَلَّبُ أَنْ يُخْرِجَ الْإِنْسَانُ مَا فِي  
قَلْبِهِ مِنْ عَقِيدَةٍ ، وَيَنْظُرَ إِلَى الْقَصَايَا بِتَجَرُّدٍ ، وَمَا يَقْتَضِيهِ أَنْ يَدْخُلَ فِي  
قَلْبِهِ

وَبِذَلِكَ يَمْتَلِئُ الرِّوْعَاءُ الْعَلَدِيُّ بِمَا يُفِيدُ ، كَيْ لَا تَدْخُلَ فِي قَلْبِكَ  
عَقِيدَةٌ ، وَتَأْتِيَ عَقِيدَةٌ أُخْرَى تَطْرُدُ لِعَقِيدَةٍ ، أَوْ تُزَيِّغُ قَلْبَكَ عَمَّا تَعْتَقِدُ ،  
يَقُولُ تَعَالَى .

﴿ هَلْ جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. ﴾ (٤)

[الاحزاب]

فَالرِّوْعَاءُ الْقَلْبِيُّ كَالرِّوْعَاءِ الْمَادِيِّ تَمَامًا ، لَا يَقْبَلُ أَنْ يَتَدَاخَلَ فِيهِ

(١) قِيلَ هُوَ لُغَةُ هَوَازٍ أَيْ أَلَمْ يَعْلَمُوا وَحَكَاهُ الْقَشِيرِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ذَكَرَهُ الْقُرْطُبِيُّ  
فِي تَفْسِيرِهِ (٢٦٥٦/٥)

جرمان أبداً ، فإن دخل جرم على جرم ، إن كان أقوى فهو يطرد من القلب الأدنى منه .

والمثل على ذلك لنفترض أن عندنا إناءً معتثلاً عن آخره ، ويحاول واحد منا أن يضع فيه كرة صغيرة من الحديد ، هنا سيجد أن الماء يقبض من حواف الإناء بما يُوازي حجم كرة الحديد ، وهذا ما يحدث في الإناء المادي ، وكذلك الحال في الإناء للعقدي

ولذلك يقول الحق سبحانه في الحديث القدسي

« لا يجتمع حبي وحب الدنيا في قلب »<sup>(١)</sup>

وهكذا نرى أن هناك حيّزاً للمعاني أيضاً مثلما يوجد حيّز للمادة ، فإذا كنت تريد - حقيقة - أن تدخل المعاني العقديّة الصحيحة في قلبك ، فلا بدّ لك من أن تطرد أولاً المعاني المناقضة من حيّز القلب ، ثم ابحث بالأدلة عن مدى صلاحية أي من المعنيين ، وما تجده قرئ الدليل ، صحيح المنطق ، موفور القوة والحجّة ، فادخله في قلبك

ولم يفعل الكفار هكذا ، بل تماذوا في القى إصراراً على ما يعتقدون من عقيدة فاسدة ، أما من أسمع منهم فقد أخرج من قلبه العقيدة القديمة ، ولم يُصر على المعتقد القديم ، بل درس وقارن ، وأسرع إلى الإسلام .

(١) أورد أبو حامد الغزالي في الإحياء ( ٢٠٨/٢ ) أثراً توضح عدم اجتماع حب الدنيا وحب الآخرة في قلب عبد ، قال : قال مالك بن دينار : بقدر ما نحب الدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك ، وبقدر ما نحب الآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك ،

أما مَنْ كَانَ قَلْبُهُ مَشْغُولًا بِالْعَقِيدَةِ السَّابِقَةِ ؛ وَيُرِيدُ أَنْ يُدْحَسَ  
الْعَقِيدَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي قَلْبِهِ ، فَهُوَ لَمْ يَجْعَلْ فِي ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ قَلْبَهُ مَشْغُولٌ  
بِالْعَقِيدَةِ الْقَدِيمَةِ .

وَإِذَا كُنْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تُرِيدُ مِنْ هَؤُلَاءِ أَنْ يُؤْمِنُوا ، فَلَا يَدْرُونَ  
يَعْتَمِدُ ذَلِكَ عَلَى إِرَادَتِهِمْ ، وَأَنْ يُخْرِجُوا مِنَ قُلُوبِهِمُ الْعَقِيدَةَ الْفَاسِدَةَ ،  
وَأَنْ يَبْحَثُوا عَنِ الْأَصَحِّ وَالْأَفْضَلِ بَيْنَ الْعَقِيدَتَيْنِ  
وَبِذَلِكَ يَعْلَمُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ كَيْفَ نَصَلَ إِلَى الْحَقَائِقِ بِسَهُولَةٍ ،  
فَيَقُولُ لِرَسُولِهِ ﷺ

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى خِثْلٍ شَحَّابٍ﴾  
بَصَائِحِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ<sup>(١)</sup> .. ﴿٤٦﴾ [سج]

أَيُّ . قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِمَنْ كَفَرَ بِكَ . إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ عِظَّةً ، وَابْتَ لَا تَعْظُ  
إِلَّا مَنْ تَحِبُّ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْحَقِّ ، وَهَذَا يُفَسِّرُ قَوْلَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ  
﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ<sup>(٢)</sup> حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ  
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٤٧﴾ [التوبة]

وَلِهَذَا يُرِيدُ ﷺ أَنْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ، لِذَلِكَ يَدْعُوكُمْ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ ،  
لَا لِجَاهٍ أَحَدٍ غَيْرِهِ ، لَا لِجَاهِ أَيْ كَائِنٍ سَيَرُولٍ مَهْمَا كَانَ هَذَا الْوَاحِدُ ،  
وَلَا تَقُولُوا لِنَفْسِكُمْ إِنَّ الْعَبِيدَ سَيَتَسَارُونَ مَعَكُمْ .

بَلْ قُمْ لِلَّهِ إِمَامًا مِثْلَى خِثْلٍ شَحَّابٍ ، أَوْ يَقُومُ غَيْرُكَ

(١) الجنة الجنون

(٢) العنت العشقاً وأعتته أولاده في العنت وشق عليه [ القاموس القويم ٣١/٢ ]

اثنين لبتناقش كل منكم مع مَنْ يجلس معه ، ولا يتحيز أحد منكم لفكر مسبق ين يوجه فكره كله متجرداً لله .

وليتساءل كل واحد محمد هذا ، صفته كذا وكذا ، وقد فعل كذا ، والقرآن الذي جاء به يقول كذا ، وسيجد الواحد منكم نفسه وقد امتدى للحق بينه وبين نفسه ، وبينه وبين مَنْ جلس معه ليدانسه فيستعرضان معه تاريخ محمد ﷺ وما جاء به .

وحين يتناقش اثنان لن يخاف أى منهما أن يهزمه الآخر ، لكن لو انضم إليهما ثالثٌ فكل واحد يريد أن يعتز برأيه ، ويرفض أن يقبل رأى إنسان غيره ، ويخشى أن يُعتبر مهزوماً فى المناقشة ، ويرفض لنفسه احتمال أن يستصغره احد .

ولذلك قال الحق سبحانه

﴿مَنْى وَفَرَادَى ثَمَّ تَعَكَّرُوا مَا بَصَاحِكُمْ مِّنْ جَنَّةٍ ۖ ۝ (٤١)﴾ [سبا]

و : الجئة ، هى احتلال العقل ، أى أن مَنْ به جئة إنما يتصرف ويسلك بأعمال لا يرتصيها العقل .

ويقرن الحق سبحانه بين العقل وبين الخلق ، فيقول

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ (٤)﴾ [القلم]

ويُقَال فلان على خلق . أى يملك من الصفات ما يجعله على الجادة من الفضائل ، مثل الصدق والأمانة وهذه صفات ينظمها من مواقفها الفكر العقلى ، وهو الذى يميز لنا أى المواقف تحتاج إلى شدة ؛ أو لين ؛ أو حكمة ، وكل هذه أمور يربتها العقل .



والخلق الرقيق لا يصدر عن مجنون ، لأنه لا يعرف كيف يختار  
بين البدائل ، لذلك لا نحاسبه نحن ، ولا يحاسبه الله أيضاً

وحين يأمرهم الحق سبحانه أن يبعثوا هل محمد يعانى من  
جنة ؟ فالحق سبحانه يعلم مُقَدِّمًا أن رسول الله ﷺ بشهادتهم يتمتع  
بكمال الخلق ، بدليل أن أهم ما كانوا يملكونه كانوا يستأمنون عليه  
رسول الله ﷺ

وبدليل أنه ﷺ حينما دخل عليهم وكاسوا مختلفين فى أمر بناء  
الكعبة ، ارتصوه حُكْمًا<sup>(١)</sup>

وإذ لك يقول سبحانه

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١) مَا أَتَىٰ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) ﴾  
[القم]

ومكذا رأينا أن هؤلاء الكفار ما كانوا ليؤمنوا ، ولم يكن الله  
ليهديهم ، لأنهم كانوا لا يملكون أدنى استعداد للهداية ، وكانهم  
أدمنوا الكفر والعباد بالله ، وقد طبع الله على قلوبهم فزادهم كفرًا ؛

(١) كان ضم رسول الله ﷺ حينئذ خمساً وثلاثين سنة ، أى قبل البعثة بخمس سنين  
وبلغ أن قبائل قريش اختصمت فيما بينها من بضع الحجر الذى فى موضع الركن ، حتى  
أنهم اعدوا للقتال ، ثم إنهم اجتمعوا فى البيت الحرام وتشاوروا قاضى أبى أمية بن  
المغيرة عليهم بأن يحكموا أول من دخل عليهم من باب بنى شيبه مكان أول من دخل عليهم  
رسول الله ﷺ ، فلما رأوه تسالوا ، ماذا الأيمن رضىنا هذا محمد ، فقال ﷺ : هلم  
إلى ثوبى ، فأتى به فاحد الركن فوضعه فيه بيده ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بباحية من  
الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده ، ثم ربي  
عليه الله أسيرة النبوة لابن هشام ( ١١٦/١ ، ١١٧ )

فَمَا فِي تِلْكَ الْقُوبِ مِنْ كُفْرٍ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا بِخَارِجِهَا لَا يَدْخُلُ فِيهَا .

وقد ظنَّ بعض من المسلمين أن كُفْرَ هؤلاء قد يُشَقِّي المؤمنين بزيادة العنت من الكافرين ضدهم ، لذلك يوضح الحق سبحانه لأهل الإيمان أن نُصْرَهُ قريب ، فيقول سبحانه

﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَعُرُوا قَارَعَةٌ أَوْ تَحُلُ قَرِيْبًا مِنْ دَرَمِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (٢١) [الرعد]

أى اطمئنوا يا أهل الإيمان ، فلن يظلَّ حال أهل الكفر على ما هو عليه ، بل ستصيبهم الكوارث وهم في أمكنتهم ، وسيشاهدون بأعينهم كيف ينتشر الإيمان في المواقع التي يسودونها ، وتنتسج رقعة أرض الإيمان ، وتضيق رقعة أهل الكفر ، ثم يأتى نُصْرُ الله وقد جاء نُصْرُ الله ولم يبقَ في الجزيرة العربية إلا من يقول « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

وهكذا تقام الآية بمجيء الأمل بعد اليأس ، كى لا يظلَّ اليأس مُسَيِّطراً على حركة المسلمين وعلى نفوسهم ، واستجاب الحق سبحانه لدعوته ﷺ حين دعه قائلاً ، اللهم اجعلهم عليهم سجين كسطين يوسف ، (١) .

وَقُتِلَ صَفَادِيْنُهُمْ وَاحِداً وَرَاءَ الْآخِرِ ، وَلَكِنْ عَنَانُهُمْ اسْتَمَرَّ ، وَبَلَغَ

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول « اللهم اهدنا وطناك على مضرب ، اللهم اجعلهم سجين كسطين يوسف » الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٦ - ١٠) ، أحمد في مسنده (٢ / ١٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١)

العناد حد أن ابنتي رسول الله ﷺ كانت متزوجتين من ابني أبي لهب ، فلما أعلن النبي ﷺ رسالته ؛ قال أبو لهب وزوجته لا بد أن يُطلق أبناؤنا بنات محمد ، فلما طلق أولهما بنت رسول الله ﷺ دعا رسول الله ﷺ قائلاً : « أما إني أسأل الله أن يسلب عليه كلبه »<sup>(١)</sup>

وما هو أبو لهب الكافر يقول : لا تزال دعوة محمد على ابني تشغل نألي وتقلقني ، وأخاف أن أبعث بولدي إلى رحلة الشام كي لا تستجيب السماء لدعوة محمد ،

وكان من المناسب ألا يخاف ، وجاء ميعاد اسفر لقافلة الشام ، وسافر أبو لهب مع ولده ، وحين جاء ميعاد النوم أمر أبو لهب الرجال أن يقيموا سياجاً حول ولده - وكان الرجال حوله كحط مارليف الذي بعثه إسرائيل على قبة السويس لجمع عنها صنيحة انتصر التي حملت صرخة الله أكبر - ثم أصبح الصبح فوجدوا أن وحشاً قد نهش ابن أبي لهب .

وقال الناس : كان أبو لهب بحشي دعوة محمد ، ورغم ذلك فقد تحققت فقال واحد - ولكن محمداً دما أن ينهش كلب وقال له « أكلك كلب من كلاب الله » ولم يقل فليبهشك سبع<sup>(٢)</sup> ، فرد عليه من

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣٢٨/٢) ، ولورده الهيثمي في مجمع الروايات (١٩/٦) وعراه للطبراني مرسلاً وقال فيه رغير بن العلاء وقد أخرجه الحاكم في مستدركه (٥٢٩/٢) من حديث أبي عقرب وصححه وحسنه ابن حجر من الفتح (٤/٢٩)

(٢) الكلب كل سبع عقور ، ومنه الأسد قال ابن سيده غلب الكلب على هذا النوع للذابح وقد يكون التكليل واقعاً على اللهد وسباع الطير [ سائر الغرب - مائة كلب ] وانظر فتح الباري (٢٩/٤)

سمعه . وهل إذا نُسِبَ كلبُ الله أيكون كلباً ؟ لا بد أن يكون الكائن المنسوب لله كبيراً .

وهكذا دَقَّتْ القارعة ميت الرجل الذي أصرَّ على الكفر . وتحقق قول الله

﴿ وَلَا يَرَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّنْ دَارِهِمْ ۖ ۝ (٣٦) ﴾ [الرعد]

نعم . فهم قد أسرفوا في الكُفْر والعناد ، فجاءتهم القارعة ، والقارعة هي الشيء الذي يطرق بعنف على هدى ساكن ، ومنها نأخذ قَرَحَ الباب ، وهناك فَرَقَ بين « ثَقُرَ الباب » و « قَرَحَ الباب » .

وقول الحق سبحانه

﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّنْ دَارِهِمْ ۖ ۝ (٣٦) ﴾ [الرعد]

بوضحه أمر صلح الحديبية الذي جاء بشارة للمسلمين ، نفذ صار كفار قريش يفاوضون رسول الله ﷺ ، وكان النبي ﷺ يبعث بالسرايا إلى المناطق المحيطة بمكة ، فتساقى القبائل أفواجا وهي تعلن إسلامها ، ويبلغ ذلك قريشا بأن الإسلام يواصل زحفه ، ثم تأتيهم القارعة بأن يدخل الرسول ﷺ مكة ، ويتحقق وعد الله بأن يدخلوا هم أيضا إلى حظيرة الإسلام

أو أن يكون المقصود به

﴿سَتَى يَأْتِي وَعْدُ اللَّهِ..﴾ (٣٦)

[الوعد]

هو مجيء يوم القيامة الذي يحمل وعْد الله بأن يحلّ عليهم ما يستحقونه من عذاب .

وفى هذا القول تطمين لمن قال لهم الحق سبحانه في أول هذه الآية

﴿أَلَمْ يَأْسَ..﴾ (٣٦)

[الوعد]

ذلك أن الله لا يُخلف وعده ، وهو القائل في تدبيل هذه الآية

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (٣٦)

[الوعد]

ونعلم أن كلمة « وَعْد » عادة تأتي في الخير أما كلمة « وعيد » فيه فتأتي غالباً في الشر

والشاعر يقول :

وَأَتَى ذَا أَوْعِدْتَهُ أَوْ وَعَدْتَهُ لَمُنْجِرٍ مِّيعَادِي وَمُخْلِفٍ مَّوْعِدِي

فالإيعاد دائماً يكون بـشراً ؛ والوعد يعني الخير ، إلا أن بعض العرب يستعمل الاثنين أو يستطيع أن نقول إن المسألة بتعبير المؤمنين ؛ أن الله سينصر المؤمنين بالقارعة التي تصيب أهل الكفر ، أو تأتي حور ديارهم ، وفي ذلك وعدٌ يُصبر به سبحانه المؤمنين وهو في نفس الوقت وعيدٌ بالنسبة للكافرين .

وقوله سبحانه

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ﴾ (٢١) [الرعد]

هو قضية قرآنية ستتحقق حتماً ، في كل عصر وأوان ، إذا  
ما أخذ المسلمون بأسباب الإيمان ، وهي كقضية تختلف عن وعد أو  
وعيد البشر ، لأن الإنسان قد يعد أو يتوعد ، لكن أغيار الحياة  
تصيبه ، فتعطل قدرته على إنفاذ الوعد أو الوعيد .

أما حين يعد الله فالأمر يختلف ، لأن وعده هو وعد مطلق ، وهذا  
هو معني

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ﴾ (٢١) [الرعد]

يقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بُرْسِلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُمُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا  
ثُمَّ أَخَذْتُمُوهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (٢٢)

ويقال « هزأ بفلان » أي سخر منه ، أما « استهزى بفلان »  
أي طلب من الغير أن يهزأ بشخص معين ، وهذا عليه إثم وإثم من  
أوعز له بالسخرية من هذا الشخص

(١) أملى له أطلال له روع له عيما هو فيه من خير أو شر [ القاموس القويم ٢/ ٧٣٦ ]  
وأملى الله له أمهله وطول له والإملاء الإمهال والتأخير وإطالة العمر [ لسان العرب  
- مادة حلا ]

وقول الحق سبحانه

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلِهِ مِنْ قَبْلِكَ ۖ﴾ [٣٦]

[الرعد]

أى - لست بدعاً يا محمد فى أن يقف بعض الكافرين منك هذا الموقف - ولعلهم هم الحكم بن أبى العاص أبو مروان<sup>(١)</sup> الذى كان يُقَدُّ مشية النبی ﷺ ، وكان رسول الله يعشى كأنما يتهلل من صيب<sup>(٢)</sup> - وكان بصره دائماً فى الأرض

ولم يكن الناس مُعتادين على تلك المشية الخاشعة ؛ فقد كانوا يسبرون بقرور مستعرضين مناكبهم

وحين قَدَّ الحكم رسول الله رآه ﷺ بنور البصيرة ، فقال له ﷺ : « كُنْ عَلَى هَذَا »<sup>(٣)</sup> . فصارت مشيته عامة ، بينما كانت مشية رسول الله تطامناً إلى ربه ، وتواضعاً منه ﷺ

ونفى رسول الله ﷺ الحكم إلى الطائف - وراح يرعى الغنم

(١) أسلم يوم فتح مكة ، وسكن المدينة . ثم نفاه النبي ﷺ إلى الطائف ، ثم أعيد إلى المدينة فى خلافة عثمان ومات بها عام ٢٧ هـ . [ الإصابة فى تمييز الصحابة ٢٨/٢ ، ٢٩ ]  
(٢) عن على بن رضى الله عنه قال ، كان رسول الله ﷺ إذا مشى تكفأ تكفؤاً كأنما يمحط من صيب ثم أر قبله ولا بعده ماله ﷺ ، أخرجه أحمد فى مسنده (٩٦ ، ١١٦) والترمذى فى سننه (٣٦٢٧) وقال ، هذا حديث حسن صحيح .

(٣) راجع الإصابة فى تمييز الصحابة (٢٨/٢ ، ٢٩) فقد أورد العسقلانى من حديث عبد الرحمن بن أبى بكر قال : كان الحكم بن أبى العاص يحلح عند النبي ﷺ ، لهذا تكلم اختلاج فيبصر به النبي ﷺ فقال : « كى كذاك » فما زال يقشط حتى مات . قال العسقلانى : فى إسنادة نظر .

هناك ، ولم يَعْفُ النّبي ﷺ عنه ، وكذلك أبو بكر في خلافته<sup>(١)</sup> ،  
ولا عمر بن الخطّاب ، ولكن الذي عفا عنه هو عثمان بن عفان ، وكان  
قريباً له<sup>(٢)</sup> .

وشهد عثمان بن عفان وقال : « والله لقد استأذنتُ رسول الله فيه  
فقال لي : إن استطعت أن تعفو عنه فاعفُ ، وحين وليتُ أمرَ  
المسلمين عفوتُ عنه » .

وحدث من بعد ذلك أن تولّى عبد الملك بن مروان أمر المسلمين ،  
وكان لابنه الوليد خيّر تتنافس مع خيّل أولاد يزيد بن معاوية ،  
واحتال أولاد يزيد بالغش ، روضعوا ما يُعوقل حيّل الوليد .

وحدث خلاف بين الفريقين فشتم الوليدُ أبناء يزيد ، فذهب أولاد  
يزيد إلى عبد الملك يشكّون له ولده ، وكان الذي يشكو لا يتقنُ تعلّق  
العربية دون أخطاء ، فقال له عبد الملك : ما لك لا تقيم لسبك من  
الحنّ<sup>(٣)</sup> ؟ فردّ الذي يشكو ساعراً : « والله لقد أعجبتُني فصاحةُ  
الوليد » . ويعنى أن حال لسان ابن عبد الملك لا يخلف عن حال

(١) روى الطبراني من حديث حنيفة قال : لما ولي أبو بكر كَلِم في الحكم أن يردّه إلى المدينة  
فقال : ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ . أورده ابن حجر العسقلاني في الإصابة  
{٢٨/٢}

(٢) نكر ابن حجر في الإصابة (٢٨/٢) أنه عمُّ عثمان بن عفان رضي الله عنه  
(٣) الحسن الحليل عن جهة الاستقامة . يقال : حسن فلان في كلامه إذا مال عن صحيح  
البيان . وقال ابن جرير وغيره : الحسن سنة معاني الخطأ في الإعراب واللغة والغناء  
والقطعة والتعريض والمعنى [ لسان العرب - مادة : حسن ]



لسان من يشكو ، كلامها لا ينطق بسلاسة ، ويكثر الحن في النطق بالعربية .

فقال عبد الملك : أتعيرني بعد الله ابني الذي لا يتقن العربية دون لحن ؟ إن أخاه خالداً لا يلحن وتبع ذلك بقوله اسكت يا هذا ، فليست في العير ولا في النغير .

وهذا مثل نقوله حالياً ، وقد جاء إلينا عبر قريش ، حيث كانت السلطة فيها ذات مصدرين ، مصدر العير ، أي التجارة التي تأتي من القوافل عبر الشام وقائدها أبو سفيان ، والنغير ؛ وهم القوم الذين مقرّوا لجدّة أبي سفيان في موقعة بدر ، وكان يقودهم عتبة فقال ابن يزيد : ومن أولى بالعير والنغير مني ؟ ويعنى أنه حفيد أبي سفيان من ناحية الأب ، وحفيد عتبة من ناحية الأم

واضاف لكن لو قلت شويّهات وغنيّمات وذكرت اللطائف لكنت على حق ، ورحم الله عثمان الذي عفا عن جدك ، وأرجعه من المنفى

ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قال لرسوله ﷺ

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (١٥) ﴾ [الحجر]

وكان أيّ إنسان يسخر من رسول الله ﷺ يُلقى عقاباً إلهياً

وهنا يقول الحق سبحانه

﴿ وَالْقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَحَدْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٣) ﴾ [الزمر]

فانت يا رسول الله لست بدُعاء في الرسالة ، ولك أسوة في  
الرسالة ، والحق سبحانه يعذك هذا في مُحكم كتابه

﴿ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ... ﴾ (٣٢)

[الرعد]

أى أمهلت الذين كفروا ، والإملاء بمعنى الإمهال ليس معناه  
تَرَكَ العقوبة على الذُّنْب ، وإنما تأخير العقوبة لذنوب قائم ، والمَثَل هو  
أن تتروك محطاً ارتكبت هفوة ، إلى أن يرتكب هفوة ثانية ، ثم ثالثة .  
ثم تنزل به العقاب من حيث لا يتوقع .

وإذا كان هذا ما يحدث في عالم البشر ، فما نالنا بقوة الحق  
سبحانه اللامتناهية ، وهو الغافل .

﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٨١)

[الأعراف]

ويقول تعالى .

﴿ وَلَا يَحْسِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّئُهُمْ خَيْرًا لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّئُهُمْ  
لِيُرْزَأُوا وَإِنَّمَا وَلَهُمَّ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (١٧٨)

[آل عمران]

تماماً مثلاً نجد مَنْ يصنع فخاً لعدوه

وهنا يقول الحق سبحانه

﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ  
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ (٣١)

[الرعد]

وكلمة - ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ (٣١)

[الرعد]

توضح أنه كن عقاباً صارماً ، ولذلك يقول الحق سبحانه في  
مواقع آخر

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَصْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَعَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَصْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثَوْبَ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾

[المطففين]

إذن فلسوف يلقى الذين استهزءوا بالرسول العقاب الشديد

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظِهَرُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٧)﴾

ولقائل أن يتساءل ألم يكن من الواجب ما دام قد قال

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ (٣٧)﴾ [الرعد]

أن يأتي بالمقابل ، ويقول : كمز ليس قائماً على كل نفس بما

كسبت ؟

ولعل هذا السائل نقول إنها عظمة القرآن الذي يترك للعقل

(١) الفكة كثير المراح والاستهزاء بالآخرين وقوله تعالى ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾

(٢) [المطففين] يصحرون من المؤمنين ويمتدرون بهم [القاموس القويم ٢، ٨٨]

ما يمكن أن يستنبطه ، فيأتي بأشياء تتطلب التفكير والاستنتاج ، كي يتنبه الإنسان أنه يستقبل كلام رب حكيم ، وعليه أن يبحث فيه ولذلك يقول سيدنا عبد الله بن مسعود . « تَوَرَّأ<sup>(١)</sup> القرآن » أي أثبره ، كي تكتشفوا ما فيه من كنوز

وحس نعلم أن كلمة « قائم على الأمر » تعني أنه هو الذي يُديره ويُديره ، ولا تخفى عليه خافية وجاء الحق سبحانه هنا بصيغة الفياض ، كي نعلم أن الحق سبحانه لا يدير الأمر من حالة فعود ، بل يديره وهو قائم عليه . فكل أمر هو واضح عنده غير خفي

وهو سبحانه قائم على كل نفس بما كسبت بن خيراً فخير . وإن شراً مشراً ، ولكنكم أيها الكافرون المشركون لا تملكون لأنفسكم ضراً ولا نفعاً . فهل يمكن لعاقل أن يساوى بين الذي يقوم على أمر كل نفس . بغيره ممن ليس كذلك ؟

ولكن هناك من قال فيهم الحق سبحانه في نفس الآية

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ۖ (٢٣) ﴾ [الرعد]

أي جعلوا للقائم على أمر كل نفس شركاء لا يقدر الواحد فيهم على أمر نفسه وبالتالي لا يقدر على أمر غيره ، بل قد يُصاب الصنم من هؤلاء بشرخ ، فيأتي من يعبدونه ليقوموا على أمره صارخين بأن إلههم قد انشرخ ، ويحتاج إلى مسمارين لنثيبته ،

(١) تَوَرَّأ القرآن فراءت ومُلاشاة الطعام به في تفسيره ومعانيه وقيل يُفَرِّغ عنه ويُفكر في معانيه وتفسيره وفراءت [ لسان العرب - مادة تور ]

فَكَيْفَ يُسَوُّونَ لَكَ الصَّنَمَ بِاللَّهِ الَّذِي لَا يَحِلُّهُ شَيْءٌ وَلَا يَحُدُّ قُدْرَتَهُ شَيْءٌ ؟

وَقَوْلُ احِقِّ سَبْحَانِهِ

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ...﴾ (٧٣٦) [الرعد]

دليل على النص المحذوف : كمن هو غير قائم على كل نفس ، ، فسبحانه ليس كهذه الاصنام العاجزة ، لأنه سبحانه قائم على كل نفس ، نفسك ونفس غيرك ونفس كل إنسان عاش أو سيعيش

ولذلك يقول سبحانه بعدها

﴿قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَحِلُّ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَقَاهِرُ مِنَ الْقَوْلِ ..﴾ (٧٣٧) [الرعد]

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله أن يقول للكافرين بالله : قولوا أسماء من تعبدونهم من غير الله ، وهي أحجار ، والأحجار لا أسماء لها ، وهم قد سمَّوا الأصنام بأسماء كاللآت والعزَّى وقُبَل ، وهي أسماء لم تُصِفْ لتلك الأصنام شيئاً ، فهي لا تقدر على شيء ، وبو سَمَوُهَا تُنْسَبُ لِعَمْرٍو بْنِ لُحَيٍّ ، الذي أوجدتهم<sup>(١)</sup> ، وهم سَمَوُهَا ساعة أن يحثُّوها .

(١) قال ابن هشام في السيرة النبوية (١/٧٧) ، حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لُحَيٍّ خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره ، فرأى العماليق يعبدون الأصنام فقتل لهم ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام يعبدونها ، يستنصرونها فيمنعونها ويستنصرها فتعصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطونني منها شيئاً ، فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ، فاعطوهم صنماً يقال له هُبَل ، فقدم به مكة ، فتنصبه وأمر الناس بهيادته وتعظيمه ،

والإله الحق لا يسميه أحد ، بل يُسَمَّى هو نفسه ، ولكن بما أن المسألة كَذِبٌ في كَذِبٍ ، لذلك يسألهم رسول الله ﷺ عن أسماء تلك الآلهة ويقول لهم هل تتبشرون أنتم الله خالق كل الكون بما لا يعلم في كونه الذي أوجده من عدم ؟

سبحانه يعلم كل ما خلق ، وأنتم لا تعبدون إلا أصناماً ينطبق عليها أنها من ظاهِر القول ؛ أي قول لا معنى له ، لأنهم أطلقوا أسماء على أشياء لا باطنَ لها ولا قدرةَ تستطيعها ، وهم اكتفوا بالظاهر والمُسَمَّى غير موجود

ويقول الحق سبحانه

﴿بَلْ زَيَّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَعَصَدُوا عَلَى السَّبِيلِ.. (٣٣)﴾ [الرعد]

أي ، أنهم ظنوا أنهم يمكنون على الله ، ويقولون إن تلك الأصنام آلهة ، وهي ليست كذلك

ثم يقول سبحانه

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٤)﴾ [الرعد]

أي أن العذاب الذي يُلْقَوْنَه في الحياة الدنيا هو لصيانة حركة المجتمع من الفساد ، ولا بد أن يقع لهم عذابٌ في الحياة الدنيا ولأن من يؤجل عذابه للأخرة ، لا بد أن يرى في نفسه آية العذاب قبل أن يُلْقَى عذابه في الآخرة .

إن عذاب الدنيا هو لحماية حركة الحياة ، ولذلك نجد القوانين وهي تُسنُّ لتُطبق على المحرف ، ومن يرتكب الجُرم يحاف أن تقع

عليه العين ، وإن رآه أحد فهو يبلغ منه ليلقى عقابه ؛ وبذلك تستقيم حركة الحياة

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول في سورة الكهف :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا <sup>(٨٧)</sup> إِنَّ مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَاتِّخَذَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ <sup>(٨٨)</sup> سَيِّئًا <sup>(٨٩)</sup> فَأَتْبَعَ سَبِيلًا <sup>(٩٠)</sup> حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجدهَا تَغْرُبُ فِي عَيْرٍ حَمَإٍ <sup>(٩١)</sup> وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَسْأَلُ الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا <sup>(٩٢)</sup> قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا <sup>(٩٣)</sup> ۝

أى أنه قد أحد تفويضاً بأن يقيم الأمر من هؤلاء الناس ، فإقامته على أساس من الثواب والعقاب ، فعن أحسن فله الجزء الحسن ، ومن أساء يلقى العقاب ، وهكذا نجد عذاب الدنيا ضرورياً لسلامة حركة الحياة من بطش من لا يؤمنون بالله

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك

﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ

وَمَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ <sup>(٩٤)</sup> ۝

ولهؤلاء المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة عذابٌ في الدنيا بالقتل والأسر والمصائب والكوارث التي لا يفسرون عليها ، وفوق

(١) السبب الرسيك وكل ما يتوصل به إلى شيء [ القاموس القويم ٢١٩/١ ]

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (١٠٢/٢) : أى رأى النشء في منظره تغرب في البحر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه ،

ذلك لهم عذاب في الآخرة أكثر شدة من عذاب الدنيا ، فليس لهم من يحميهم ، أو يُقيم بينهم وبين عذاب الله وقاية أو عصمة

وفى المقابل يقول سبحانه بعد ذلك

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقِينَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ  
أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُمَاتُهَا نَارٌ لَذِيذَاتُ الْبَاقِيَاتِ  
الْكَبِيرِينَ ۖ أَلَا تَرَىٰ

والمصدر لاساسى الذى وعد المتقين بالجنة هنا هو الله ، وقد  
بلغ عنه الرسل - عليهم اسلام - هذا الوعد ، وتلاهم العلماء المبغفور  
عن الرسل

وانت حين تنظر إلى فعل يشيع بين عدد من العناصر ، تستطيع  
أن تبحث عن المصدر الأساسى ، والمثل هو قول الحق سبحانه

﴿اللَّهُ يَتَرَفَّى<sup>(١)</sup> الْأَمْثَلُ حِينَ مَوْتِهَا.. (٤٦)﴾ [الزمر]

ويقول فى موقع آخر من القرآن

﴿قُلْ بِتَوَفَّائِكُمْ مَلَكَ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ.. (١٦)﴾ [السجدة]

وهكذا تكون التوفية فد آلت إلى الله ، وآلت إلى ملك الموت  
وقد أخذ ملك الموت مسئولية التوفية من إسماء الحق له تلك المهمة  
ويكون نسبتها لملك الموت هو نوع من إيضاح الطرف الذى يوكل له  
الحق سبحانه تنفيذ المهمة

(١) توفى الله ملائكة ، أو تولى الملك ملائكة أمانه وقبض روجه [ القاموس القويم ٢/٢٤٧ ]





ومرة يأتي الحق سبحانه بالمصدر الاصلى الذي يُصدر الامر  
لملك الموت مباشرة مهمته .

وهنا فى الآية الكريمة نجد قول الحق سبحانه :

﴿وَعَدَ الْمُتَّقُونَ... (٣٥)﴾ [الرعد]

وهى مبنية بما لم يُسم فاعله ، فالوعد منه سبحانه . ونعلم ان  
الرسول ﷺ يعد ايضا ، فها نحن قد جاء إلينا خبر بيعة العقبة ،  
حين أخذ ابيصة من الأنصار ، وقالوا له : خذ لنفسك ، فآخذ لنفسه  
ما أراد ، ثم قالوا له : وماذا نأخذ نحن ان أدینا هذا ؟ فقال لهم  
« لكم الجنة »<sup>(١)</sup>

وقد قال ﷺ ذلك ، لأن العمل الذى فعلوه ، لا يكفيه اجرا إلا  
الجنة ، ومن المعقول أن أى واحد من الذين حضروا العقبة قد  
يتعرض للموت من بعد معاهدة رسول الله ﷺ ، فلو أنه وعدهم بما  
فى الدنيا من متاع قد يأخذه البعض فيما بعد ، فالذى يموت قبل هذا  
لا بُدَّ أن يدرك شيئا مما وعد الرسول من عاقبته ، ولذلك أعطاهم  
ما لا ينقذ ، وهو الوعد بالجنة .

والحق سبحانه هنا .. فى الآية التى نحن يصدد خواطربا عنها -  
يقول .

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ... (٣٥)﴾ [الرعد]

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١١٩/٤ ، ١٢٢) من حديث أبي مسعود البدري الأنصاري  
وأورده الهيثمي فى مجمع الزوائد (٤٨/٦) وانظر السيرة النبوية لابن هشام (٤٣٣/٢)

أى أنه يضرب لنا المثل فقط ، لأن الألفاظ التى نتحاطبُ بها مص  
قد وُضعتُ لمعانٍ نعرفها ، وإنا كانت فى الجنة أشياء لم نَرَهَا عَيْنٌ ،  
ولم تَسْمَعْهَا أُذُنٌ ، ولم تخطر على بال بشر ، فمن المُمكن أن نقول  
إنه لا توجد ألفاظ عندنا تُؤدى معنى ما هناك ، فيضرب الله الأمثال لنا  
بما نراه من المخلوقات ، ولكن يأخذ منها المُكثرات والمُعكرات<sup>(١)</sup>

وهكذا نعرف أن هناك فارقاً بين « مثل الجنة » وبين « الجنة » ،  
فالمثل يعطينى صورة أسمعها عن واقع لا أعلمه ، لأن معنى التمثيل  
أن تُلحِق مجهولاً بمعلوم بماخذ منه احكم

مثلاً نقول لصديق أنعرف فلاناً يفعل لك « لا » فنقول  
له « إنه يشبه فلاناً الذى تعرفه »

وأنت تفعل ذلك كى تشبه مجهولاً بمعلوم ، لتأتى الصورة فى  
ذهن سامعك

ويقول الرسول ﷺ شرحاً لما أجمله القرآن

﴿ وفيها ما تشتهي لأنفس وتلد الأعين... ﴾ (٧١) [الخرم]

ويضيف ﷺ « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ،  
ولا خطر على قلب بشر »<sup>(٢)</sup>

(١) قال تعالى ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يمتد طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من حمى مسمى ﴾ (٢٤) [محمد] وقال فى آية أخرى ﴿ يكافون عليهم نكاس من معين ﴾ (٢٥) يفضاه لذة للشاربين (٢٦) لا فيها قول ولا هم عنها يفرقون (٢٧) [الصافات]

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده ( ٢٢٤ / ٥ ) ومسلم فى صحيحه ( ٢٨٢٥ ) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضى الله عنه

وحين تُدَقُّ في هذا القول النبوي الكريم تحد الترقى كاملاً ،  
فبقوله ، « ما لا أذن سمعت » جاء لانه يعلم أن مدركات العين  
محدودة بالنسبة لما تعلم الأذن ، لأن الأذن تسمع ما لا تتركه  
العين فهي تسمع ما يراه غيرك بالإضافة إلى ما تراه أنت

فالأذن تسمع القريب وتسمع البعيد وتنقل صوته وتستحضره ثم  
تصيره ، بخلاف العين فهي محدودة المسافة حسب قوة الإبصار ،  
ومع كل فتعيم الجنة فوق كل هذا النوق .

ثم يأتي الترقى الأكبر في قوله ، « ولا خطر على قلب بشر »  
والخاطر أوسع من قدرة الأذن وقدرة العين ، والخاطر تتحول أشياء  
قد تكون غير موجودة

ومكذا نرى عجز اللغة عن أن توجد بها الفاظ تعبر عن معنى  
ما هو موجود بالجنة ، ولا أحد فينا يعلم ما هي الأشياء الموجودة  
بالجنة ، وما دام أحد منا لم يَرِ الجنة ، وما دام الرسول ﷺ قال  
، « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

فلا بد أن نعلم قدر عجز اللغة عن التعبير عما في الجنة ، فإننا  
أراد الله أن يُعَبِّرَ عما فيها ، فهو يوصِّح لنا بالمثل ، لا بالوصف ،  
لأنه يعلم أن لغتنا تضع الألفاظ لما هو موجود في حياتنا ، ولا توجد  
الفاظ في لغتنا تؤدي معاني ما في الجنة

ولذلك قال لنا الحق سبحانه

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ  
لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ  
مُصْفًى.. (١٥)﴾

ومع أن الحق سبحانه يضرب مثلاً ، إلا أنه خلص المثل من شواثبه التي نعرفها في الدنيا ، فالمياه عندما تجري ، تكون حلوة ورائقة وصافية ، وإن ركدت فهي تأسن<sup>(١)</sup> وتكون عطنة

ولذلك يوضح لنا الحق سبحانه أن المياه في الجنة غير آسنة ، وأنها تكون أنهاراً متزوعاً من مياهها ما يكثرها

وكذلك المثل بأنهار من لبن لم يتغير طعمه . وللبن كما يعرف هو غذاء البنى ، فهم يحلبون الماشية ، ويحتفظون بالبانها في قربٍ لمدد طويلة ، فيتغير صم اللبن ، ولذلك يضرب لهم المثل بوجود أنهار من لبن لم يتغير طعمه .

وأيضاً يضرب المثل بوجود أنهار من عسل مصفى ، والعسل - كما نعرف - كان في الأصل يأتي من النحل الذي كان يسكن الجبال قبل استئناسه ، ووضعه في مناحل في الحدائق .

والحق - سبحانه وتعالى - هو القائل

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (٦٨)

[النحل]

وحين بحث علماء الحشرات عن تاريخ النحل ، وجدوا أن أقدم عسل في العالم هو الذي كان موجوداً في الكهوف الجبلية ، ثم يليه في العمر العسل الذي جاء من حلايا النحل ، تلك الخلايا التي لقامها

(١) أسن الماء تغيرت رائحته والماء الأسن هو الذي لا يشرب أحد من نشته [ أسن للعرب - مادة أسن ]

النحل بعد استئناسه ، ومن بعد ذلك يأتي العسل الذي أقمنا نحن له  
المساحل .

وقد ميّزوا العسل القديم عن المتوسط عن الجديد ، بأن أحرموا  
بعضاً من كل نوع من أنواع العسل ، فنتج من الاحتراق عنصر  
الكربون ؛ ومن هذا العنصر اكتشفوا عمر كل نوع من الثلاثة

وبوضح الحق سبحانه أن بالجنة أنهاراً من عسل مُصَفًّى ، وبذلك  
يُقدِّم لنا خير ما كنا نُحبُّه من عسل الدنيا ، ولكن بدون ما نُكرِّهه .

وبوضح سبحانه أيضاً أن في الجنة أنهاراً من خمر ، ولكنها  
خمر تختلف عن خمر الدنيا فهي لا تؤثر على التكوين العضوي  
للعقل ، كما أن خمر الدنيا ليس فيها بذّة للشاربين ، لأنها من كحول  
بكرى الغم ويلّسه ، ولذلك تجد مَنْ يشربها وهو يسكنها في فمه  
لتمرّ بسرعة فلا يشعر طسعها في فمه ، فتذهب إلى معدته مباشرة  
تتلفها

ويختلف الصال لو كان المشروب هو شراب عصير المانجو أو  
البرتقال أو الفصف ، حيث يسطيب النفس مذاق تلك الفواكه ، فتجد  
مَنْ يشربها يتمهل ليستيقى أثرها في فمه

ويقول الحق سبحانه عن خمر أنهار الجنة

﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ <sup>(١)</sup> .. ﴾ (١٧)

[الصفحات]

(١) الغَوْلُ الصداق وفيل السكر والغول أن تقتال عقوبتهم . [ لسان العرب - مادة

أي أنه سبحانه ينفي عن خمر أنهار الجنة كل العُكُرات التي توجد في خمر الدنيا .

إن . فساعة نسمع مثلاً عن الجنة ، فاعلم أنه مثلٌ تقريبي ، لأنه لا يمكن أن تأتي الحقيقة ، حيث لا يوجد لفظ يُعبرُ عنها ؛ وهي لم توجد عندنا ، وسبحانه لا يحاطبنا [لا بما يعلم من اللغة ؛ لذلك يأتي لنا بالمثل المضروب لناخذ منه صورة تقريبية

وهنا في الآية التي نحن بصدد حواطرها عنها يقول الحق سبحانه

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (٣٥) [الرعد]  
ونعلم أن عَصَبَ حياة العرب أيام نزول القرآن كان هو الماء ، ألم يطلبوا من الرسول أن يُفَجِّرَ لهم الأنهار فتجيراً<sup>(١)</sup> ؟

تجد الحق سبحانه قد جاء بالتعبير القرآني عن أنهار الجنة بصورتين مختلفتين

أولهما ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (٣٥) [الرعد]

مثلاً قال في الآية التي نحن بصدد حواطرها عنها  
ومرة يقول سبحانه

﴿تَجْرِي نَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (١١٠) [التوبة]

والفارق بين العبارتين هو استيعاب الكمالية في النص ، بمعنى أن

(١) قال تعالى ﴿وَقَالُوا لَنْ نؤمنَ بِكَ سِوَى ظُجْرٍ لَكَ مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ أو تكون لك بئنة من نعيم وعب ففجر الأنهار خلالها ففجيراً (١١٠) [التوبة]

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ..﴾ (٢٥) [الرعد]

تُوضَّحُ أَنَّ مَنَابعَ تِلْكَ الْأَنْهَارِ تَأْتِي مِنْ تَحْتِ تِلْكَ الْجَنَّةِ مُبَاشَرَةً :  
فَلَا يَقْرُنُ الْمَاءُ فِي تِلْكَ الْأَنْهَارِ أَبَدًا .

وَيُقَالُ . إِنْ الْفَارِقُ بَيْنَ أَنْهَارِ الدُّنْيَا وَأَنْهَارِ الْجَنَّةِ أَنَّ أَنْهَارَ الدُّنْيَا  
عِبَارَةٌ عَنْ شَقَوقٍ فِي الْأَرْضِ لَهَا شَوَاطِئُ تَحْتَضِنُهَا ، أَمَّا أَنْهَارُ  
الْآخِرَةِ فَهِيَ تَسِيرُ عَلَى الْأَرْضِ دُونَ شَوَاطِئِهَا تَحْجِزُهَا<sup>(١)</sup>

وَتَجِدُ أَنْهَارَ الْخَمْرِ تَسِيرُ أَيْضًا فِي الْأَرْضِ ، وَلَا تَتَدَاخَلُ مَعَ أَنْهَارِ  
الْمَاءِ . وَكَذَلِكَ أَنْهَارُ اللَّيْلِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ صُنْعَةِ رَبِّ حَكِيمٍ قَادِرٍ

أَمَّا قَوْلُ

﴿تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ..﴾ (١٠٠) [التوبة]

أَيُّ أَنَّ مَدْبِعَهَا لَيْسَتْ مِنْ تَحْتِهَا مُبَاشَرَةً ، وَلَكِنَّهَا تَأْتِي دُونَ  
نَقْصٍ مِنْ جِهَةِ أَنْتَ لَا تَعْلَمُهَا ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

وَيَتَابِعُ سَبْحَانَهُ ، فَيَقُولُ عَنْ تِلْكَ الْجَنَّةِ

﴿أَكْلُهَا دَائِمٌ ..﴾ (٢٥) [الرعد]

وَالْأَكْلُ هُوَ مَا يُؤْكَلُ ، وَسَبْحَانَهُ الْقَائِلُ .

﴿تُؤْتَى أَكْلُهَا كُلُّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ..﴾ (٢٥) [إبراهيم]

(١) أورد السيوطي في هذا الموضع في كتابه « الدر المنثور في التفسير بالمانور » (١/١٥٠) أنها

- أخرج ابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في صفة الجنة عن أبي قلابة  
قال رسول الله ﷺ : « لعنكم الله من أنهار الجنة أصدود في الأرض ، لا والله إنها  
لسانحة على وجه الأرض ، حافاتها حيام اللؤلؤ ، وطينها المسك الأذفر » قلت يا رسول  
الله ما الأذفر ؟ قال الذي لا حط معه ،

وقول ﴿أَكْلُهَا دَائِمٌ . (٣٥)﴾ [الرعد]

أى لا ينقطع ، ونعلم أن الإنسان حين يأكل ؛ فهو يفعل ذلك بهدف إشباع جُوعه ، وبعد أن يُشبع جُوعه ، قد يطلب أن يُرفع الطعام من أمامه ، إلى أن يجوع ، فيطلب الطعام من جديد .

ومن يحبون الطعام في حياتنا الدنيا نرى الواحد منهم وهو يقول « أشعر ببعض الصيق لأننى شبعتُ » ، فهو فى عراك بين نفس تشتهى وبين بطن لا تشبع ، وكأنه كان يريد أن يستمر فى تناول الطعام طوال الوقت

وقول الحق سبحانه

﴿أَكْلُهَا دَائِمٌ . (٣٥)﴾ [الرعد]

شغل هذا القول الرمان الدين كانوا أصحاب امبراطورية عظمت وتلها الإسلام بحصارته الوليدة ، وأرس امبراطورهم من يطلب من احد الخلفاء إرسال رجل قادر على شرح قول الحق .

﴿أَكْلُهَا دَائِمٌ . (٣٥)﴾ [الرعد]

فأرسل لهم أحد العلماء ، وسأله يقول قرآنكم إن أكل الجنة دائم ، ونحن وأنتم نعلمون أن كل شيء يؤخذ منه لا بد له أن ينقص ، فكيف يكون أكل الجنة دائماً ؟

قال العالم لهم فأتوا مصباحاً . فاحضروا له المصباح ، واشعله أمامهم . وقال لكل منهم فليأت كل منكم بمصباحه فاحضر كل منهم مصباحه . وقال لهم فليشعل كل منكم مصباحه .



وهنا سألهم ما الذي أنقصه إشعال مصابيحكم من هذا المصباح ؟  
قالوا لا شيء فقال بهم هكنا ضرب الله لنا المثل بأكل الجنة .

وبطبيعة الحال كان يجب أن يلتفتوا إلى أن المصباح يعتمد في  
اشتعاله على الزيت المحزون فيه ، ويأتيه منه المدد ، أما الجنة  
فمددتها من الله

ومناك من قال هل تتخوطين في الجنة ؟ فرد عليه واحد من  
العارفين لا تتساعن وابن تذهب بقايا ما ناكل من طعام الجنة ؟

فقال العارف بالله مثلما تذهب بقايا ما يتغذى عليه الطفل في  
مطبخ أمه ؛ حيث يحترق هذا الفائض في سحبة<sup>(١)</sup> الطفل ، والطفل في  
بطن أمه إنما ينمو بشكل مستمر ، مُعتمدًا على غذاء يأتيه من أمه  
عبر الحبل السري .

وكل تلك الأمور تقريبية نجعلها عبر الفجوة بين ما نشهده في  
حياتنا اليومية ، وبين ما أعدّه الله للمعتقين وهو اقيوم على كل أمر

وقد قال الحق سبحانه

﴿ أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ ﴾ (٢٥)

[الفرع]

يعنى أن الطعام موجود ولا ينهى وكذلك الظل والمظل حجب  
المضيء عن مكان ، أو حجب مكان عن المضيء . ولا أحد يعلم أنه  
ستوجد هناك شمس أم لا ، والعقل البشري قاصر عن تخيل ذلك ،

(١) المشيمة للمرأة هي التي يكون فيها الولد قال ابن الأعرابي يقال لم يكن فيه الولد  
المشيمة والكيس والخوران والنميص [ لسان العرب - مادة شيم ]

فهو من فعل الله ، وهو سبحانه قادر على كل شيء

وهو القائل سبحانه

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سُدَّخَلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا  
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَدُخِلَهُمْ ظِلَالٌ ظِلِيلًا ٥٧﴾

[النساء]

وهو الفاعل سبحانه

﴿وَقُلْ مَمْنُونٌ ٥٨﴾

[الواقعة]

ويتابع سبحانه

﴿تِلْكَ عَذَابُ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعَذَابُ الْكَافِرِينَ النَّارُ ٥٩﴾

[الرعد]

أى يا متقى الله ، ووضعت بينك وبين صفات جلاله وقاية ،  
ولم تقرب محارمه واتبعته منهجه ، ستجد أنه سبحانه يُجازيك  
بصفات كماله وجماله ، فيُنزلك الجنة التى وعده بها

لذلك إن وجدت مشقة فى التكليف فعليك أن تعلم أن جراء تلك  
المشقة هو الجراء الجميل ، لأنك صدقت رسولك ﷺ حين قال  
« حَفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ ، وَحَفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ »<sup>(١)</sup>

والعاقل ساعة يرى تكليفاً يحدُّ من حريته ، فهو يستحصر الجراء  
على تلك المشقة ، وهو أيضاً حين يرى أمراً يبدو فى ظاهره شهوة

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٥٢/٣ ، ٢٥٤) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) ، والترمذى فى  
سننه (٢٥٥٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال الترمذى « حديث حسن  
غريب من هذا الوجه صحيح »

عاجلة ، فهو يستحضر العقاب على تلك الشهوة العاجلة فيستبعدا .

وأي من احراء الطيب أو العقاب قد يأتي فجأة ، لأن الموت لا ميعاد له ؛ ونحن نصدق قول رسولنا ﷺ .

« الموت القيمة ، فمن مات فقد قامت قيامته »<sup>(١)</sup>

وهكذا يُضخَّم الحق سبحانه من جزاء المؤمن المنقَّى فيعشق العمر ، ويتحمل مشاق التكليف ليكون مَوْصُولًا بالجزاء الطيب ، فهذا الجراء هو عُقْبَى العمل الحسن في الدنيا ، فالغاية الحقيقية من كل مراحل الوجود هي ألا يوجد بعد بلغية ، لأنها غاية الخلود لا تعرف البعوضة

وما نامت الجبة تصمم الخلود أبداً ، فهي تستحق أن تكون غاية المؤمن وعاقبة عمله ، والتزامه بالتكاليف الإيمانية

تماماً كما تكون النار هي عاقبة الكافرين المكذَّبين ، حيث يروون الخير مصير المؤمنين ؛ ويروون الشر مصيرهم ، فبجمع عليهم القبيص ، مرة بوجود الخير عند أهل الإيمان ، ومرة بأن يروا ما أعد لهم من شر

لذلك قال سبحانه

﴿رُعُقِيَ الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥)﴾

[الرعد]

(١) ذكره العملي في كشف الحطاء ( حديث رقم ٢٦١٨ ) عن أنس بن مالك رضي الله عنه وتمامه : أكثروا ذكر الموت فإنكم إن تكرتموه في شيء كثره عليكم ، وإن تكرتموه في ضيق وسعه عليكم ، الحديث.

ويقول سبحانه بعد ذلك

﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ  
وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ  
وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَهُهُ أَدْعُوا وَإِلَٰهُهُ مَعَآبِ ﴿٦٦﴾﴾

ونعلم أن الإسلام قد سبق بديين : دين النصارى قوم عيسى عليه السلام ، ومن قبله دين اليهود قوم موسى عليه السلام وكلا الدينين له كتاب ، الإنجيل كتاب المسيحية ؛ ولتوراة كتاب اليهودية ، والقرآن هو كتاب الله المهيمن<sup>(١)</sup> الخاتم ، كتاب الإسلام . وهناك كتب سماوية أخرى مثل صحف إبراهيم ، وزيور<sup>(٢)</sup> داود ، وغير ذلك .

وكان على من نزل عليهم التوراة والإنجيل أن يواصلوا الإيمان بعدد السماء ، ولحير القادم منها إلى الأرض ، وقد سبق أن أخذ الله من أوبياتهم المعثاق على ذلك ، قال تعالى

(١) قال القرطبي في تفسيره (٣٦٦٢/٥) : يعني مشركى مكة ، ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس . وقيل هم للمرب المتحزبون على المبي ﷺ . وأطلقت الأحزاب ، في القرآن على كل قوم تحزبوا عند رسولهم . وقد وردت في القرآن ١١ مرة

(٢) عيسى عليه السلام كان وليياً عليه ، حافظاً به ، مسيطراً عليه [ القاموس القويم ٢٨٢/٣ ] قال ابن كثير في تفسيره (٦٥/٢) جمعاً بين عبارات المفسرين : هذه الأقوال كلها متفاربة المعنى فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله ، فهو مهين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله ،

(٣) الزبور الكتاب المكتوب قال تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا دَاوُدَ زُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [النساء] أي كتاباً وجمعه زُورٌ قال تعالى ﴿وَأَنَّهُ هُوَ زُورٌ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء] أي كتبهم [ القاموس القويم ٢٨٢/٦ ]

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۚ قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا ۚ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨١) [آل عمران]

ومكنا نعلم ان الحق سبحانه قد شاء ان يستقبل كل دين سابق الدين الذي يليه بالإيمان به ، وفي كل دين سابق لأحر كانت النصوص تؤكد ضرورة لإيمان بالرسول القادم ، كي لا يحدث اقتراع بين الأديان الناسخة والأديان المنسوخة

فمن صميم مواد أى دين سابق ان ينتظر الدين الذي يليه ، وإذا ما جاء الدين الجديد فهو يستقبله فرحاً وتكلمة ، ولا يستقبله كدين يضاد الدين السابق

وإذا كان الإسلام هو الدين الذي تُحتَم به مواكب الرُّسل ، فلا بد أن الأديان السابقة عليه قد بشرت به . وكل مؤمن بالأديان السابقة موصى بضرورة الإيمان به .

يقول الحق سبحانه .

﴿وَشَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ﴾ (١٣) [الشورى]

ويقول الحق سبحانه .

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلُ إِلَيْكَ ۖ﴾ (٣٦) [الزمر]

(١) الإصر - العهد الثقيل ، وما كان عن بعير وعهد فهو إصر [ لسان العرب - مادة

إصر ]

أى أن أهل التوراة والإنجيل يفرحون بما جاءك يا محمد من القرآن ، والإنسان لا يفرح بشيء إلا إذا حقق له غاية تُسعدُه ، ولا بد أن تكون هذه الغاية منشورة ومعروفة

وهم قد فرحوا بما نزل إلى رسول الله ﷺ ، لأنه حقق لهم ما جاء في كتبهم من نبوءة به

ومعنى ذلك أن كتبهم قد صدقت ، ومن جاء بالرسالة الخاتم صادق ، وكن عليهم أن يكونوا أول العابدين إلى الإيمان به

ذلك أن الفرحة هي العملية التعبيرية أو التروعية من مواجد الحب ، والإنسان إنما يفرح بتحقيق أمر طيب كان ينتظره

ولذلك كان يجب أن يهرولوا للإيمان بالدين الجديد ، وأن يعلنوا الإيمان به مثلما فعل كعب الأحبار<sup>(١)</sup> ، وعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي الذي جاب أغلب البلاد باحثاً عن الدين الحق .

وهؤلاء هم مجرد أمثلة لمن أرادوا أن يُعبّروا بالفرحة واستقبال مدد السماء عبر مجيء النبي الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ ، وأعلنوا البيعة للرسول الجديد كما بشرت به الكتب السماوية السابقة على بعثته ، ثم وقف العداء من الذين لم يفرحوا بمقدم الرسول ، ثم غيّرُوا ما جاء في كتبهم السماوية طمعاً في السلطة الزمنية .

(١) هو كعب بن مالك الحميري ليو إسحاق نابي ، كان من الجاهليين من كبار علماء اليهود في اليمن ، أسلم في زمن أبي بكر ، وأقدم المدينة في دولة عمر ، أخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيراً من أخبار الأمم الماضية . سكن حمص وتوفي بها عام ٢٧ هـ عن ٦٤ عاماً ( الإعلام للبركلي ٢٢٨/٥ )

وعرف مَنْ آمَنُوا برسالة رسول الله ﷺ أن الذين أنكروا نبوة محمد بن عبد الله قد دَلَّسُوا<sup>(١)</sup> على أنفسهم وعلى غيرهم ، وأتوا بأشياء لم تكن موحودة في كتبهم المُنزَّلة على رسلهم كادعائهم أن الله أبناء ، وسبحانه مُنَرَّه عن ذلك

ولذلك جاء قول الحق سبحانه

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَهُهُ أَدْعُو وَإِلَهُ مَنَابِ ﴿٧٣٦﴾﴾

تلك عداوة من القرآن ، لأن إقرار لم ينكر الكتب السماوية السابقة بأصولها ، ولكنه أنكر التحريف في العقائد ، وأنكر مواقف مَنْ حَرَّمُوا وأَدْعَوْا كذباً أن هناك نبوة لله

هذا التحريف لم يَنْكُرْ من القرآن إنكاراً لكل ما جاء بالكتب السابقة على القرآن ، ولكنه أنكر التحريف فقط

وقد ثبتَ القرآن ما لله وما للرسول ، وأنكر التحريف الذي أرادوا به السلطة الرمنية ، وادعاء القداسة ، والتجارة بصكوك الخفران ، وبيع الجنة ، وتلقى الاعترافات ، وغير ذلك مما لم يُدْرِكْ به كتاب سماوي

وحين جاء الإسلام يُحَرِّمُ ذلك دافعوا عن سلطتهم التي يتاجرون بها في أمور الدين ، وهي ليست من الدين .

(١) الميمنة المخدومة وقد دلس ودلس في البيع وفي كل شيء إذا لم يبين عيبه والدليس في البيع كتمان عيب السلعة من المظننى [ لسان العرب - مادة دلس ]

وانظر إلى قول الحق سبحانه

﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ لَا أُشْرِكُ بِهِ . (٣٦)﴾ [الرعد]

وهذا القول دليلٌ على أن هؤلاء المُفَيِّرِينَ في الكتب السماوية أو  
لذين أنكروا وحدانية الله ؛ هؤلاء حاء بهم بالقول الفصل

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ . . (٣٦)﴾ [الرعد]

أي أنه يُقَرَّرُ بأن هناك ديناً قد أُختِيرَ له من قبل مُرَبٍّ ،  
ولم يُخْتَرْ محمدٌ شيئاً أعجبه ليعبد ، ولكه كرسول من الله يُشَرِّفُ  
مالاتمء لما جاءه الأمر به من السماء ، وهو لا يشرك به أحداً .

ونجد الرسول ﷺ يتمصّب لِمَا يتعلق بربه ، وقد يتهاون بما  
يتعلق بشخصه .

ولذلك وجدنا بعض الملاحدة وقد قالوا له نحن نؤمن بالله  
وبالسماء والوحي وبكل شيء ، لكننا لا نؤمن بك أنت ، ولم يغضب  
رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولو كان يُدْخِلُ ذاته أو إنانيته في  
الأمر لغضب ، ولكن لم يغضب .

والدليل على هذا هو أن مواجهته ﷺ كانت مع الروم المؤمنين  
بكتاب سماوي ضد المشركين الذين لا يؤمنون بدين سماوي وهم  
الفرس ، وحرّن ﷺ حين غلبت الروم ، فنزل إليه القول الحق بنبا  
النصر القادم في بضع سنين ، تسلياً له ﷺ

﴿وَاللَّهُ (١) غَلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ  
سَيُغْلِبُونَ (٣) فِي بضع سنين لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ  
الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَبْصُرُ مِنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥)﴾ [الروم]



وهؤلاء في قلب رسول الله كانوا أقرب من غيرهم ، لأنهم يتبعون دينًا سماويًا ، وساعة يرى راتحة صاحب خير يرجحه على صاحب الشر ؛ فهو يطلب لهم النصر ويُبشِّرُهُ الله بخبر نصرهم في بضعة سنين ، وهم يحملون راتحة الخير ، رغم أنهم لم يؤمنوا برسول الله ﷺ .

ومعنى

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ .. ﴾ (٣٦) [الرعد]

أى ، أنتى ساعبد الله وحده ، ولن أعطف على عبادته شيئًا ، ويدعو عبادته وحده ، لأنه يعلم أنه سيؤوب إليه ، كما سيؤوب إليه كل إنسان ، فلا أحد ينقلب من ربه وخالقه ، ولا بد لكل إنسان أن يعد عُدته لهذا المآب .

ويقول سبحانه من بعد ذلك

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ (٣٧)

والمقصود بـ « كنك » إشارة إلى إرسال الرسل المتقدمين بمعجزات شاءها الحق سبحانه ، ولم يقترحها أحد .

وقوله ﴿ أَنْزَلْنَاهُ .. ﴾ (٣٧) [الرعد]

ساعة نسمعه نرى أن هناك مكانة عليّة يُنزل منها شيئًا مكانة

(١) الولي الصميم والناصر والمؤلة ضد المعادة والولي ضد المنو [ لسان

العرب - مادة ولي ]

أَدْنَى ، ومثل ذلك أمر معروف في الحسيات ، وهو معروف أيضاً في المعنويات

بل وقد يكون هذا الشيء لم يصل إلى السماء ولكنه في الأرض ، ومع ذلك يقول فيه الحق سبحانه

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ..﴾ (٧٥) [الحديد]

وهو إنزال ، لأنه أمر من تدبير السماء ، حتى وإن كان في الأرض

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ..﴾ (٧٦) [الرعد]

والحكم هو المعنى ، والمقصود بالإنزال هنا هو القرآن ، وهو كتاب ، والكتاب مبني ومعنى ، وشاء الحق سبحانه هنا أن يأتي بوصف المبالغة ليأتي الوصف وكأنه الذات ، أي . أنه أمر القرآن حكماً ، وهذا يعني أن القرآن في حد ذاته حكم .

وأنت حين تصف فاصياً يحكم تمام العدل ، لا تقول : قاض عادل ، بل تقول : قاض عدل ، أي . كان العدل قد تمسّم في القاضي ، وكان كل تكوينه عدل .

والحق سبحانه هنا يوضح أن القرآن هو الحكم العدل ، ويصفه بأنه

﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا ..﴾ (٣٧) [الرعد]

لأن اللسان الذي يفاطب به الرسول لقوم الذين يستقبلون بآذانهم ما يقوله لهم لابد أن يكون عربياً .

ولذلك يقول في آية أخرى

﴿وَأَنذِرْ لَدُنكَ<sup>(١)</sup> لُكْ وَلِقَوْمَكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤)﴾ [الرحرف]

أي أنه شرفٌ كبير لك ولقومك ، أن نزل القرآن بلغة العرب .

وقد حفظ القرآن لنا اللغة العربية سليمة صافية ، بينما نجد كل لغات العالم قد تشعبت إلى لهجات أولاً ثم استقلت كل لهجة فصارت لغة ، مثل اللغة اللاتينية التي خرجت منها أغلب لغات أوروبا المعاصرة من إنجليزية وفرنسية وإيطالية ، ووجدنا تلك اللغات تتفرق إلى لغات استقلالية ، وصار لكل منها قواعد مختلفة

بل إن اللغة الإنجليزية على سبيل المثال صارت « إنجليزية - إنجليزية » يتكلم بها أهل بريطانيا ، و « إنجليزية - أمريكية » يتكلم بها أهل الولايات المتحدة .

ولو تركنا - بحر - لغة التخاطب بيننا كمسلمين وعرب إلى لغة التخاطب الدارجة في مختلف بلادنا ، فلي يفهم بعضها البعض ، ومرجع تقاضنا مع بعضها البعض - حين نتكلم - هو اللغة الفصحى

وبلينا ما رأينا في مغربنا العربي ، منجد إنساناً تربى على اللغة الفرنسية ، أو تكون لغة جمعاً بين لهجات متعددة من البربرية والفرنسية وبقايا لغة عربية ، فإن حدثته باللغة العامية لا يفهم منك شيئاً ، وإن تحدثت معه باللغة العربية استحباب وأجاب ، لأن فطرته تستقبل الفصحى فهماً وإدراكاً

(١) قال ابن كثير في تفسيره (١٢٨/٤) : معناه أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم فهم أفهم الناس له فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه وقيل معناه أي التذكير لك ولقومك وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم .

وهكذا رأينا كيف صان القرآن الكريم اللغة العربية واللسان  
العربي

ومن ضمن معاني قول الحق سبحانه

﴿ حُكْمًا عَرَبِيًّا .. ﴾ (٢٧)

[الرعد]

أى أن الذى يسنون ويمصم هذا اللسان العربى هو القرآن الكريم.  
ويتابع سبحانه بقوله

﴿ وَلَنْ أَتَّبِعَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (١) بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي  
ولا وأق (٢٧)

[الرعد]

وهذا خطاب موجه منه سبحانه لرسوله ﷺ يكشف فيه الحق  
سبحانه أمام رسوله ﷺ مضاراً وخطورة اتباع الهوى وهو خطاب  
يدل على أن الدين الذى نزل على موسى ثم عيسى ، وهما السابقان  
لرسول الله ، لم يعد كما كان على عهد المرسلين السابقين ، بل  
تدخل فيه الهوى ، ولم يعد الدين متمسكاً كما نزل من السماء .

ولذلك يقول سبحانه فى آية أخرى

﴿ وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ .. ﴾ (٧١)

[المؤمنون]

ذلك أنه سبحانه لو اتبع أهواءهم لصاع نظام الكون ، ألم يقولوا  
لرسول الله ﷺ

(١) الهوى محبة الإنسان الشراء وغيبته على قلبه . جمعه أهواء [ لسان العرب - مادة  
هوا ]

﴿ أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا رَعِمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا <sup>(١)</sup> .. ﴾ (٩٢) [الإسراء]

ولو استجاب الحق مثلاً لهذه الدعوة ، ألم تكن السماء لتفسد ؟

إنن فبعد أن نزل القرآن من السماء حكماً وعلماً ومنهجاً يسهل عليهم فهمه ، لأنه بُلُغَتِهِمْ ، وهو يحمل كامل المصهج إلى أن تقوم الساعة ، وفيه دليل السعادة في الدنيا والآخرة

لذلك فليس لأحد أن يتبع هواه ، فالهوى - كما نعلم - يختلف من إنسان لآخر ، والخطاب الموجه لرسول الله ﷺ يتضمن في طياته الخطاب لأمة ﷺ

ومن يعبس بك فليس له من دوى الله ولى يؤزره أو يبصره ، أو يقيه عذاب الحق شقاء في الدنيا ، وإلقاء في الجحيم في الآخرة

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا  
وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِثَابِتٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ  
أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ (٣٨)

وانت يا محمد لست بشعاً من الرسل في مسألة الزواج والإنجاب <sup>(٢)</sup> . وهي تحمل الرد على من قالوا

(١) كِسْفًا قطعاً وهو جمع كسفة وقال الجوهري الكسفة القطعة من الشيء [ تفسير القرطبي ٥/ ٥٩٠ ]

(٢) ذكر الميسبوري في « أسباب النزول » (ص ١٥٨) أن الكلبي قال : « غيرت اليهود رسول الله ﷺ وقالن ما يرى لهذا الرجل - يقصدون محمداً ﷺ - همة إلا النساء والنكاح ولو كان شيئاً كب دمع لشغله أمر النبوة عن النساء ، فأنزل الله تعالى هذه الآية »

﴿ مَا لِهَذَا ارْسُولٍ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ (٧) [الفردان]

ومنهم مَنْ قال : ما لهذا الرسول يتزوج النساء ؟ ألم يكن من اللائق أن يتفرغ لدعوته ؟

وهؤلاء الذين قالوا ذلك لم يستقرئوا المعوكب الرسالي ، لأنهم لو فعلوا لوجدوا أن أغلب الرسل قد تزوجوا وأنجبوا .

وحين تكون حياة الرسول قربية - كمثال واضح - من حياة الناس الذين أرسل إليهم ، ليكون أسوة لهم ، فالأسوة تتأتى بالجنس القابل للمقارنة ، وحين تكون حياة الرسول كحياة غيره من البشر في إطارها العام ، كإبرار زوج ، فالأسوة تكون واضحة للناس

ونعلم أن هناك مَنْ جاء إلى رسول الله ؛ ليطلب الإذن بالتفرغ التام للعبادة من صوم وصلاة وزهد عن النساء ، فهي الرسول ﷺ عن ذلك وقال في حديث شريف

« إني لأحشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » (١)

(١) وقد رُئ عليهم رب العزة فقال ﴿ وما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفردان] ويقول في آية أخرى ﴿ وما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُرِى الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُ قُوَّةٌ أَنْ يَقُولَ إِنْ كُنْتُ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ [الأنبياء]

(٢) عن أنس بن مالك قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أحبروا كتابهم تلقاوها فتسألوا : أين نحن من النبي ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فقال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبداً وقال الآخر : إني أصوم الدهر فلا أفطر وقال الآخر : أما أمزّل النساء فلا أتزوج ، فجاء رسول الله ﷺ فقال : « أنتم الذين كنتم كذا وكذا أما والله إني لأحشاكم لله » الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ١٥١/٤ - فتح الباري (

ويتابع الحق سبحانه .

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (٧٢٨)

[الرعد]

أي ما كان لأحد أن يقترح على الله الآية التي تأتي مع أي رسول من الرسل ، ولم يكن لأي رسول حق في اختيار الآية المصاحبة له .

وبهذا القول حسم الحق سبحانه قضية طلب المشركين لآيات من الرسول ﷺ ، لأن كل رسول جاء لزمه ولقومه ، وكل معجزة كانت من اختيار الله ، وكل رسول يؤدي ما يكلفه به الله ، وليس للرسول أن يقترح على الله آية ما ، لأن الخالق الأعلى هو الأعلّم بما يصلح في هذه البيئة على لسان هذا الرسول

ونأخذ من قوله الحق .

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (٧٢٨)

[الرعد]

أن لكل رسالة رسوله ، ولكل رسالة مكانها ، ولكل رسالة معجزتها ، فإذا كن الأمر كذلك فدعوا محمداً ﷺ وما اختاره الله له ، في المكان الذي يشاء سبحانه ، وفي الزمان ، وفي المعجزة المصاحبة له ﷺ

ولكن ، هناك تغيير بعد أن يقول الحق سبحانه

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (٧٢٨)

[الرعد]

نعم هناك تغيير ، وانظروا إلى قول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (٢٩)

والمحو كما نعلم هو الإزالة ، والتثبيت أى . أن يبقى الحق ما يراه ثابتاً

وقد فهم بعض الناس - خطأ - أن كل حكم فى القرآن قد جاء ليثبت وسيظل هكذا أبد الدهر ولكن عند التصديق ظهر أن بعض الأحكام تقتضى تغييرها يغيرها الله لحكمة فيها خير لبشرية

ونقول لا ، لم يحدث ذلك ، ولكن كانت هناك أحكام مرحلية ، ولها مدة محددة ؛ ولذلك جاء قول الحق سبحانه

﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (٢٩)

[الرد]

أى عنده اللوح المحفوظ الذى تحدثت فيه الأحكام التى لها مدة محددة ، وما أن تنتهى إلا وينزل حكم آخر مكانها ، وعلى هذا المعنى يمكن أن نقول إنه لم يوجد نسخ للأحكام ، لأن معنى النسخ أن يخرج حكماً عن زمانه ، وهنا لم يجد حكماً يترجح عن زمانه ، لأن كل حكم موقوف بوقت محدود ؛ وما أن ينتهى الوقت حتى يبدأ حكم جديد .

أقول ذلك كى أثبته العلماء إلى ضرورة أن يخلصوا معاً لدراسة ذلك ، حتى لا يختلف العلماء أمثالكم نسخ أم لا ، وأقول فلنحدد النسخ أولاً ، لأن البعض يظن أن هناك حكماً كان يجب أن ينسحب عى كل الأزمنة ، ثم جاء حكم آخر ليحل محله لحكمة تقتضيها مصلحة البشرية والمراد به منها .

ولا يوجد حكم أنهى حكماً وطراً عليه ساعة الإنهاء . بل كل



الأحكام كانت مُقدَّرةً أزلًا ، وعلى ذلك فلا يوجد نَسْخٌ لَأَيِّ حُكْمٍ ،  
ولكن هناك أحكام ينتهى وقتها الذى قدره الله لها ، ويأتى حُكْمٌ سبق  
تقديره أزلًا سيواصل الناسُ الأخذ به ، وما دام الأمر كذلك فلا يوجد  
نسخ

ولنُظَلِّرَ إلى قول الحق سبحانه

﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا<sup>(١)</sup> نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا . ﴾ [البقرة]

ويتضح من منطوق الآية ومفهومها أن عند نسخ حكم يأتى الله  
بمثله أو خير منه إِنْ لَيْسَ هناك نسخ ويتم هناك أحكام تؤدى  
مهمتها فى زمن ثم يأتى زمن يحتاج إلى حكم خير منه أو مثله فى  
الحكم ، ولكنه يوافق المصالح المرسله مع مراد الله

ولقلل أن يقول ما دام سببأتى بخير من الآية المنسوخة أو  
المُنْسَاة فذلك أفضل ، ولكن لماذا يأتى بالمثُل ؟

وأقول لأنك إِنْ جِاءَكَ ما هو خَيْرٌ منها قد تَسْتَسْمِيغُهُ ، ولكن  
حين تنتقل إلى مِثْل ما جِاءَتْ بِهِ الآية ، فهذا مَحَكُّ الإِيمان .

والمِثْل هو التوجُّه فى الصلاة إلى بيت المقدس فى أول الدعوة ،  
ثم مجيء الأمر بتحويل القبلة إلى الكعبة ، فلا مشقَّة فى ذلك .

ولكن هنا يتم اختبار الالتزام الإيمانى بالتكليف ، وهنا الانصياعُ  
للحكم الذى يُنْزِلُهُ الله ، وهو حُكْمٌ مُقَدَّرٌ أزلًا ؛ وفى هذا اختبار لليقين

(١) نَسَا الشيء يَنْسُوهُ آخره عن موعده قال الجساسى فى « أحكام القرآن » ( ٧١/١ )  
« أما ( أو نُنسِها ) قيل إنه من النسيان ونسأها من التأخير يقال نَسَاكَ الشيء  
آخرته بأن يؤخرها فلا يهزلها ويبدل بدلًا منها ما يقوم مقامها فى المصلحة أو يكون أصله  
للعدا منتهى »

الإيمانى فى إدارة توجيه المدير لهذا السير .

وكذلك فى الحج يأتى الرسول ﷺ ليقبل الحجر الأسود ، ثم يرمج الحجر الذى يرمز لإبليس ، ونحن نفعل ذلك أسوة برسول الله ﷺ ، وكلاهما حجر ، ولكننا نمثل لأمره ﷺ فتقيل الحجر الأسود ورمج الحجر الذى يشير إلى رمزية إبليس ، كل هذا استحابة لأمر لأمر

وحين يقول الحق سبحانه .

﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِتُ وَعِدَهُ أُمُّ لِكِتَابِ (٣٩) ﴾ [الرعد]

فهو يعنى أنه سبحانه ينهى زمن الحكم لسابق الذى ينتهى زمنه فى أم الكتاب أى اللوح المحفوظ ، ثم يأتى الحكم الجديد

والمثل هو حكم الخمر ، وقد عالجها الحق سبحانه أولاً بما يتفق مع قدرة المجتمع ، وكان المطلب الأول هو تثبيت العقيدة ، ثم تحيى الأحكام من بعد ذلك .

وهناك فرق بين العقيدة - وهى الأصل - وبين الأحكام ، وهى تحمل أسلوب الالتزام العقدي ، وكان الحكم فى أمر العقيدة مكرماً ومستمراً .

أما الأحكام مثل حكم الخمر فقد تدرج فى تحريمها بما يتناسب مع إلف الناس ، واعتيادهم ، فقلل الحق سبحانه زمن صُحبة الخمر ، ثم جاء التحريم والأمر بالاجتناب ، وعدم القرب منها

والمثل فى حياتنا ، حيث نجد مَنْ يريد أن يمتنع عن التدخين

وهو يُوسِّعُ من الفجوة الزمنية بين سيجارة وأخرى ، إلى أن يقلع عنها بلطف ، ويبغيها من حياته تعاماً

ويجد القرآن يقول في الخمر

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا<sup>(١)</sup> وَرِزْقًا حَسَنًا .. (٦٧)﴾ [البقره]

وهنا يمتنُّ الله عليهم بما رزقهم به ، ولكن أهل الذِّقِّ يلتفتون إلى أنه لم يصف الحمر بأنها من الرزق الحسن ، ووصف البلح والعنب بأنه رزق حسن ، لأن الإنسان يتناوله دور أن يفسده

وهكذا يلتفت أهل الذوق إلى أن الحمر قد يأتي لها حكم من بعد ذلك ، ثم يُفْزَلِ الحق سبحانه عطفة تقول

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ قُلٌّ فِيهِمَا كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا .. (٢١٩)﴾ [البقرة]

وهكذا أوضح الحق سبحانه ميل الخمر والميسر إلى الإثم أكثر من ميلهما إلى النفع ، ثم جاء من بعد ذلك قوله بحكم مبدئي

﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .. (٦٣)﴾ [النساء]

ومعنى ذلك أن تتساعد الفترات بين تناول الخمر ، فلا يحقسي أحدٌ للخمر طوال النهار وجزء من الليل ، وفي ذلك تدريب على الابتعاد عن الخمر .

(١) السُّكْرُ بالفتح ، كل ما يسكر أي الخمر ، أو نقيع النمر وعصير العنب الذي لم تمسه النار ، وهو غير مسكر . والسُّكْرُ هنا يحتمل أنه الحمر المسكر ، ويحتمل أنه عصير حلو غير مسكر ، أو الخل ، وإذا فسِّرَ بأنه ما يسكر يكون ردول الآية للاعتناء بهذه النعمة فينبى  
تحريم الخمر [ الفارسي القويم ١ / ٢٢ ]

ثم يأتى لتحريم الكامل للخمير فى قوله تعالى .

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأُرْلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴾ (٩٠)

[المائدة]

وهكذا أخذ الحكم بتحريم الخمر تدرّجه المناسب لعادات الناس ،  
وتمّ تحريم الخمر بهرابة وعلى مراحل

وهكذا نفهم النسخ على أنه انتهاء الحكم السابق زمناً وبداية  
الحكم الجديد ، وهذا يعنى أن الحكم الاول لم يكن منسحباً على كل  
الرمز ثم أزلناه وجئنا بحكم آخر ؛ ولكن توقفت الحكم الأول - أزلنا -  
قد انتهى ، وبدأ الحكم الجديد .

وهكذا لا يوجد مجال للاختلاف على معنى النسخ . ذلك أن الحق  
سبحانه أرجع المحو والإثبات إلى أم الكتاب ، ففيها يتحدد ميعاد كل  
حكم وتوقيته ، وميعاد مجيء الحكم التالى له .

وما دام كل أمر مرسوم أزلاً : فعلى من يقولون أن البناء محرم  
على الله أن ينتهروا إلى أن هذا المحو والإثبات ليس بداءً ، لأن الداء  
يعنى أن تفعل شيئاً ، ثم يبدو لك فسادك فتغيره

والحق سبحانه لم يظهر له فساد ما أنزل من أحكام أو آيات ،  
بل هو قدّر كل شيء أزلاً فى أم الكتاب ، وجعل لكل حكم ميقاناً  
وميلاناً ونهاية .

ويصح أن يتسع معنى قول الحق سبحانه .

﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ (٣٩)

[الرعد]

ليشمل نسخ رسالة برسالة أخرى ، فيكون قد محا شيئاً وأثبت

شيئاً آخر ، وكل شيء فيه نغدير إلى الخير يصحّ فيه المحو  
والإثبات ، وهو من عند الرقيب العتيد

﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (٦٨)

[ق]

أى أنه لقادر على أن يأمر الرقيب والعتيد بأن يثبت لواجبات  
والمحرمات ، وأن يترك الأمور لمباحة ، وهو القادر على أن يمحو  
ما يشاء من الذنوب ، ويثبت ما يشاء من التوبة .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ  
فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ (٦٩)

هذه الآية تُحدّد مهمة الرسول ﷺ فى أن يبلغ منهم الله ، فمن  
شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، إلا أن قول الحق سبحانه فى  
رسوله ﷺ

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ  
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٢٨)

[التوبة]

جعله هذا القول متعلقاً بهداية قومه جميعاً ، وكان يرجو أن يكون  
الكل مهتدياً ، ولذلك يقول الحق سبحانه لرسوله فى موقع آخر .

(١) أى نريهم بعض الذى نعدهم من العذاب مثل قوله تعالى ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا ﴾ (٧١) [الرعد] وقوله تعالى ﴿ وَلَا يَرَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا نُصِيحَهُمْ بِمَا صَدَقُوا قَوْلَهُ ﴾ (٧٢)

[الرعد]

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ نَفْسٌ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ  
أَمَّا ﴿٦٠﴾﴾ [الكهف]

أي أنك لست مسئولاً عن إيمانهم ، وعليك ألا تحزن إن لم  
ينضموا إلى المركب الإيماني ، وكل ما عليك أن تدعوهم وتبلغهم  
ضرورة الإيمان ، والحق سبحانه هو الذي سوف يحاسبهم إما في  
الدنيا بالمصو والإذهاب ، أو في الآخرة بأن يلقوا عذاب النار  
وحين يقول الحق سبحانه

﴿وَأَن مَّا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نَعْرِفُكَ إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ  
وَعَلَيْهَا الْحِسَابُ (٤٠)﴾ [الرعد]

منحن نعلم أن كل دعوة من دعوات الخير تكبر يوماً بعد يوم ،  
ودعوات لشر تبهر يوماً بعد يوم . ومن يدعو إلى اسخير يحب  
ويتشوق أن يرى ثمار دعوته وقد أبغث<sup>(١)</sup> ، ولكن الأمر في بعض  
دعوات الخير قد يحتاج وقتاً يفرق عمر الداعي .

ولذلك يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ

﴿وَأَن مَّا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نَعْرِفُكَ .. (٤١)﴾ [الرعد]

أي اغرس الدعوة ، ودع من يقطف الثمرة إلى ما بعد ذلك ،  
وأنت حين تتفرع للغرس فقط ، ستجد اسخير والثمار تأتي حين يشاء  
الله ، سواء شاء ذلك إيان حياتك أو من بعد موتك

وأنت إذا نظرت إلى الدعوات التي تستقبلها الحياة ستجد أن لكل

(١) يدع نفسه قتلها مما وعيها وحرثا [ القاموس القويم ٥٦/١ ]

(٢) الأسف هو الحزن مع الغضب والأسف والأسف السريع الحزن الرقيق والأسف  
القصير المثلث على الشيء [ لسان العرب - مادة أسف ]

(٣) أبيع الثمر أدرك وبضج وحر لطفه [ القاموس القويم ٢٧٦/٢ ]

دعوة أنصاراً أو مؤيدين ، وإن القائمين على تلك الدعوات قد تعبوا  
الثمرة ، مع أنهم لو تمهلوا ليقطفوها مَنْ يأتى بعدهم لنجحت تلك  
الدعوات

ونحن فى الريف نرى الفلاح يفرس ، ومن خلال غرسه نعرف  
مراداته ، هل يعمل لنفسه ، أو يعمل من أجل من يأتى بعده ؟  
فمن يفرس قمحاً يحصد بسرعة تفوق سرعة مَنْ يفرس نخلة أو  
شجرة من المانجو ، حيث لا تثمر النخلة أو شجرة المانجو إلا بعد  
سنتين طويلة ، نطلع سبع سنوات فى بعض الأحيان ، وهذا يروع  
ليؤدى لمن يجرى ما أداه له مَنْ ذهب

وبن ناكل من ثمر زرعنا لنا غيرنا معن ذهبوا ، ولكنهم فكروا  
فيمَنْ سيأتى من بعدهم ، ومن يفعل ذلك لأنْ وإن يكون عبده سعة  
فى الأرض التى يزرعها ؛ لأن مَنْ لا يملك سعة من الأرض فهو يفكر  
فقط نيمَنْ يحول وفى نفسه فقط ، لذلك يزرع على قدر ما يمكن أن  
تعطيه الأرض الآن

أما مَنْ يملك سعة من الأرض وسعة فى النفس ، فهو مَنْ وضع  
فى قلبه مسئولية الاهتمام بمن سيأتون بعده ، وأن يردّ الجميل الذى  
أسداه له مَنْ سبقوه ، بأن يزرع لغيره ممن سيأتون من بعده

ودعوة محمد - عليه الصلاة والسلام - شهدت له بأنه لم يبحث  
لنفسه عن ثمرة عاجلة ، بل نجد الدعوة وهى تقابل الصعاب تلو  
الصعاب ، ويلقى ﷺ ما تلقى من الحت والإرهاق واجهد ، بعد أن  
جهر بالدعوة فى عشيرته الأقربين .

ثم ظَلَبَ الدعوة تتسع فى بعض العشائر والبطون إلى أن دالت<sup>(١)</sup>

(١) الإبالة القلبة وأباليا الله من عدونا من الدولة ويقال أدبل لنا على أعدائنا أى  
نصرونا عليهم [ لسان العرب - مادة دول ]

عاصمة الكفر ، وصارت مكة بيت الله الحرام كما شاء الله ، وأسلمت  
الحزيرة كلها لمنهج الله ، وأرسل ﷺ الكتب إلى الملوك والقيصرة ،  
وكلها تتضمن قوله ﷺ « أسلم سلم » ،

ودلت هذه الكتب على أن الدعوة الإسلامية هي دعوة مُمتدة لكل  
الناس ، تطبيقاً لما قاله الحق لرسوله ﷺ أنه « رسول للناس كافة » ،  
قال تعالى

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ . . (٢٨) ﴿[سبا]

وهم الذنوب الفارق بين رسالته ﷺ وبين كافة الرسالات  
اسابقة ، إلى قوم عاد أرسل هوداً عليه السلام

يقول لحق سبحانه

﴿وَالِى عاد أخاهم هوداً﴾ . . (١٠) ﴿[الأعراف]

وقال عن أهل مدين

﴿وَالِى مدين أخاهم شعيب﴾ . . (٨٤) ﴿[الأعراف]

وقال عن نعمة موسى

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ . . (٤٩) ﴿[آل عمران]

وهكذا حدد الحق سبحانه زمان ومكان القوم في أى رسالة  
سبقت رسالة محمد بن عبد الله ﷺ

لكن الأمر يختلف حين أرسل سبحانه محمداً ﷺ رسولاً وجعله  
للناس كافة ، فقد علم سبحانه أولاً أن هذا هو الدين الخاتم ، لذلك  
أرسل رسول الله إلى حُكَم العالم - المعاصرين له - دعوة لدخول  
الدين الخاتم



وقد ترك الرسول ﷺ تلك المهمة لمن يخلفونه ودعا ﷺ  
الجزيرة العربية تحت لواء « لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله »  
بعد أن كانت قبائل متعددة

كل قبيلة كانت لا تلزم نفسها بعبادة إله القبيلة الأخرى ، وكل  
قبيلة لا تلزم نفسها بتقنين القبيلة الأخرى ، ولم يجمعهم أبداً شمل ،  
ولا استيطناً لهم إلا في بعض انقراضى ، ذلك أن أغلبهم من البدو  
الرُّحْل ، كل واحد منهم يحمل بيته - الخيمة - على ظهر بعيره  
ويمشى بحثاً عن الكلأ والماء لأغنامه وماشيته .

فلم يكن عندهم انتماء وطنى ، فضلاً عن القبائل التي كانت  
تتقاتل فيما بينها هي تارات عيفة وامتدت الحرب فيما بين بعض  
القبائل إلى أربعين عاماً في بعض الأحيان

استطاع ﷺ أن يوظف ما كانوا عليه من تدريب وعتاد وعُدَّة  
مُحَرِّرة دين الله ، حين إعداده للغزوات أو اختياره للسرايا<sup>١</sup> كل يجد  
الحقائين في كامل لياقتهم

وحين استدعاهم إلى الحرب لم يُحَرِّ لهم تدريبات ، فقد كان الكل  
مُتَرْبِّاً على القتال

وهكذا صارت القبائل أمة واحدة بعد أن جمعهم محمد رسول  
الله ﷺ في وحدة التكامل العقدي تحت راية الإسلام ، وهذه الأمة  
الأمية ، قال فيها الحق سبحانه

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ<sup>(١)</sup> رَسُولًا مِنْهُمْ .. (٧)﴾ [الجمعة]

١ السرايا جمع سرية ، وهي القطعة من الجيش ، ما بين خمسة أنفس إلى ثلاثمائة سُميت  
سرية لأنها تسرع ليلاً في حفية [ لسان العرب - مادة سرا ]  
٢ الأميون هم العرب - قال ابن منظور في اللسان ( مادة امم ) ، قيل للعرب الأميون ،  
لأن الكتابة كانت قديم عريضة أو عديمة فهم على أصل ولادة أمهم لم يتعلموا الكتابة  
والحساب ، فهم على جبلتهم الأولى .

وكانت هذه الامية شرفاً لهم كَيْلاً يُقَالُ إِنَّهُمْ اصحاب قَفْزَةٍ حضارية من أمة مُتَمَدِّينَةٍ . وكانت هذه الامية مُنْفَعَةً ، لأن ما جاء في تلك الامة من تشريعات وقفت امامه الأمم الأخرى إلى زماننا هذا باندهاش وتقدير

وشاء الحق سبحانه لهذه الامة أن تحمِلَ رسالة السماء لكل الارض ، وبعد أن نزل قول الحق سبحانه

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا .. ﴾ [٢٧]

[المائدة]

فَهُمْ بعض الناس أن الرسول ﷺ ينعى نفسه لامته<sup>(١)</sup>

ومن بعد رحيله ﷺ إلى الرقيق الأعلى انساح صحابته بالدين الخاتم في الدنيا كلها ، وحلّال نصف قرن من الزمان صار للإسلام جناحان ، جناح في المشرق ، وجناح في المغرب . وهزم أكبر امبراطوريتين متعاصرتين له ، هما امبراطورية فارس بحضارتها وامبراطورية الروم

وكانت البلاد تتخطف للإسلام كمنهيج حياة ، حدث ذلك بعد أن حارب الإسلامُ الامبراطوريّتين في آن واحد ، وأقبل الناس على الإسلام ليبتحِقُوا من معصيته لئلا يُمَسُّوها في خَلْقٍ مَنْ سَمِعُوا القرآن وحملوا رسالته ، ثم في لكشافهم لعدالة القرآن في إدارة حركة الحياة

(١) أخرج ابن جرير عن السدي في قوله ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [٢٧] [المائدة] قال

« قد نزل يوم عرفة ، ظم يدرل بمعا حراء ولا حلال ، ورجع رسول الله ﷺ فمات .

أورد السيوطي في الدر المنثور ( ١٩/٢ )

وهكذا اكتشفوا أن معجزة الإسلام عقلية ، وأن رسوله ﷺ هو الرسول الخاتم الذي لم يأت لهم بمعجزة حسية ، وإذا كان القرآن معجزة في اللغة ليقوم الذين نزل فيهم رسول الله ﷺ ؛ فالقرآن لمن لم يعرفوا لغة القرآن كان معجزة في العدالة والقيم النابعة منه

وكان الناس يندفعون إلى الإسلام بقوة دفع من المؤمنين به وبقوة جذب من غير المؤمنين ، حين يرون الأفرق بين الأمير وأمسفر فرد تحت رايته ، وحين يلمسون عدالته ومساواته بين البشر

ولم يكن الإسلام معجزة لقومه فقط ، بل لكل النبي ، ويتحقق دائماً قول الحق سبحانه

﴿ مَن يُرِهم آيَاتُنَا لى الْآفَاقِ <sup>(١)</sup> وَفى أَنفُسِهِم حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُم أَنَّهُ الْحَقُّ <sup>(٥٢)</sup> ﴾ [نمل]

ومجد مُفَكِّراً كبيراً من الغرب المعاصر يعلن إسلامه ، رغم أنه لم يقرأ القرآن ، بل نظر فقط فى المبادئ التى قننها الإسلام ، وكيف تحمل حلولاً لما عجزت عنه الحضارات المتعاقبة وأهل القوانين فى كل بلاد الأرض .

ويعرف أن تلك القوانين قد جاءت لرسول ينتمى لامة لم تبرح إلا فى البلاغة والادب ، وتضع تلك القوانين حلولاً لمشاكل تعامى منها الدنيا كلها

ورأينا كيف بحث رجل عن أعظم مائة فى تاريخ البشرية ، وكيف جعل محمداً ﷺ أولهم ، وهذا الباحث لم يقرأ القرآن ، ولكنه درس

(١) الآفاق : جمع أفق ، وهو الناحية ، ومط التقاء السماء بالأرض فى رأى العين

[ التاموس القويم ٢٢/١ ] .

أثر تطبيق القرآن ، وبعد أن يُعجب بالمنهج القرآني نجدهُ يُعجب بالنص القرآني

والمثل هو دراسة الألمان لعملية إدراكات الحس ، وكيف يشعر الإنسان بالالم ، وكيف يلمس الإنسان ببشرته بلمس ناعم فيُسِرّ منه ، ثم يلمس شيئاً خشناً فيتأذى منه .

وستمر الألمان يدرسون ذلك لسنوات كي يعرفوا مناط الإحساس وموقعه في الإنسان ، هل هو في المَحْ أم أين : إلى أن انسهبوا إلى أن مناط الإحساس في كُلِّ إنسان هو في الجلد ، وأنها خلايا مُنسطة تحت الجلد مباشرة ، بدليل أن الإبرة حين تُقررها في جسم الإنسان ، فهو يتألم فقط في منطقة دخولها ، وليس أكثر

ولفت ذلك نظر أحد العلماء ، فقال لقد تحدث القرآن عن ذلك حين قال

﴿ كَلَّمَا نَضِجَتْ<sup>(١)</sup> جُلُودُهُمْ بِدَثْمَهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَرِيباً حَكِيماً (٥٦) ﴾ [النساء]

ولو أن تلك الجلود قد احترقت ، فالعذاب سينتهي ، لذلك يُبدّل الله جلودهم ليستمر العذاب ، وهذا مَثَلٌ واحد من أمثلة ما كشف عنه القرآن

ومن الأمثلة المعاصرة في العلوم الجنائية قصة شاب مسلم من سوهاج سافر إلى ألمانيا لبُعد رسالة الدكتوراه في القانون ، ووجدهم

(١) قال ابن عمر في تفسير الآية : « إذا امسكت جلدهم بجلدهم جلوداً بيماء أمثال الفراطيس » أورده السيوطي في الدر المنثور ٥٦٨/٢ )

يقفون عند نصية التعسف<sup>(١)</sup> في استعمال الحق ، ويعتبرونها من أهم  
الإجراءات القانونية في القرن العشرين .

وأوضح لهم هذا الشاب أن الإسلام قد سبقهم في تقدير هذه  
المسألة ووضع الحكم المناسب فيها من أربعة عشر قرناً من الزمان

وروى لهم أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ قائلاً : إن لفلان  
عندي في ساحة بيتي نخلة ، وهو يدخل بيتي كل ساعة بحجة رعاية  
تلك النخلة مرة بدعوى تأبيرها<sup>(٢)</sup> ، وأخرى بدعوى جنى ثمارها ،  
وثالثة بدعوى الاطمئنان عليها حتى جعل النخلة شُغْه الشاغل

وشكا الرجل للرسول ﷺ أنه يتأذى هو وأهل بيته من اقتحام  
الرجل للحياة الخاصة له ، فأرسل ﷺ إلى صاحب النخلة وقال له  
« أنت بالخيار بين ثلاثة مواقف إما أن تهبه النخلة - وتلك منتهى  
الارحية - ، وإما أن تبيعها له ، وإما قطعناها »<sup>(٣)</sup>

وهكذا وضع ﷺ قواعد للتعامل فيما يسمى « التعسف في  
استعمال الحق »

وهي انحصرا وجدوا أن القانون التجاري ملئ « بالثغرات ، ومثل  
هذا أن التعامل في السوق قد يتطلب بعضاً من المرونة بين لتجار ،  
فهذا يرسل لذاك طالباً من الآخر ألفاً من الجنيهات ، وفلان يريد  
ما أخذه أو يقايضه

(١) التعسف إساءة استعمال الحق مع ظلم وعدم روية أو «رأية

(٢) أبر النخلة وفرج أصلحه وتبوير السبل ثقيف [ لسان العرب مادة أبر ]

(٣) عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ، إن لفلان  
نخلة في حائطي فعمره فليربعبها أو ليهبها لي قال فابني الرجل فقال رسول الله ﷺ « افعل  
ذلك بها نخلة في الجنة فأبى فقال النبي ﷺ « هذا أبطل المس »

واصطدم اواقع بأن بعض التجار لا يعترفون ببعض الديون التجارية التي عليهم ، وعديماً كان إذا أراد تاجر ان يقرض من زميل له ، فهو يكتب الدَّيْن في كمبيالة أو إيصال امانة ، وذلك لتوثيق الدَّيْن

ولكن الامر اليومى فى السوق قد يختلف ، فهذا يحتاج نقوداً لامر عاجل ، وزميله يثق فى قدرته على الرد والتسديد ، لانه قد يحتاج هو الآخر لنقود عاجلة ، ويثق ان من يقرضه الآن ، سيقرضه فيما بعد ، ولذلك انشأوا ما يُسمى بالدَّيْن التجارى ، فيفتحون « دفترًا » يُسجلون فيه الديون التجارية ، لتحكم الدفاتر فيما يعجر عن تذكره الاشخاص

ودهب شاب مسلم لبعته دراسية هناك ، وأوصح لهم أن قضية الدين أخذت اهتمام الإسلام ، لدرجة أن أطول آية فى القرآن هى الآية التى تعدد التعامل مع الديون ، وأخذ يترجم لهم قول الحق سبحانه

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَنْحَسِرَ <sup>(١)</sup> مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا <sup>(٢)</sup> أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ

(١) اللبّس النقص يقول تعالى ﴿ وَشَرُّهُ خَيْرٌ مِنْ غَيْرِهِ ﴾ [يوسف] أى ناقص دين منه [لسان العرب - مادة يمس]

(٢) السفية الناقص العقل الصرّ التصرف [القاموس القويم ٢١٧/١] وقال ابن كثير فى تفسيره (٢٣٥/١) « أى مجبوراً عليه بتقدير ومجور »

تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَصِلَ<sup>(١)</sup> إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبِ  
الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا<sup>(٢)</sup> أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ  
أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً  
قُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ<sup>(٣)</sup> أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا  
يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَلَّحُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَانْقُرَ اللَّهُ وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ  
وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

[البقرة]

وظاهر الأمر أنه يحصى الدائن . ولكن الحقيقة أنه يحصى المدين  
أيضاً . لأن المدين إن علم أن الدَّيْنَ مَوْثُوقٌ ، فهو سيمسعى جاهداً أن  
يؤديه في موعده ، وأيضاً كي لا يأخذ لئصابيون فرصة للهرب من  
السداد ، وبذلك حمى القرآن الدائن والمدين معاً كي لا تقف حركة  
التعامل بين الناس

ومع هذا فإنه لم يمنع الأريحية الإيمانية والمروءة أن تسلك  
طريقها في عالم الرد والإحاء لمؤمن ، فإن كان لك قريب أو إنسار  
لك به صلة ، وأنت تأمن على ما اقترض منك ، يقول لك لحق  
سبحانه .

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بْبَعْضٍ فَلْيُؤْذِ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَهُ وَلْيُسْقِ اللَّهَ  
رَبَّهُ. ﴿٢٨٣﴾﴾

[البقرة]

- (١) الضلال السبيان [ لسان العرب - مادة سأل ]  
(٢) سئم الشيء : مله وضجر منه واحسّ بفتور نموه قال تعالى ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ  
صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ . ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة]  
(٣) الجباج الإثم والذنب قال تعالى ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطْرُقَ بِهِمَا ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة] أي  
لا إثم ولا حرج عليه بل له الثواب والأجر العظيم [ القاموس القويم ١/١٢١٩ ]

وبهذا القول يشعر مَنْ يحمل أمانة من الغير بالحجل ، ففعل  
على ردِّها . ثم يضيف الحق سبحانه

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا  
تُكْتُبُوهَا .. (٢٨٢)﴾ [المقرة]

وهكذا جاء الإسلام بقوانين لا يمكن أن تخرج من أمة أمية .  
لأنها قوانين تسبق العصور ، وهي قوانين تنفع من دين سماوى  
خاتم . ولذلك عندما سألوني عن موقف الإسلام من التقدمية  
والرجعية ، قلت نهم

إن القياس حاطيء ، لأنك لن تستطيع أن تقيس فكر بشر بما  
أنزله ربُّ كل البشر ، وإذا كان العالم شرِّقه وعزُّه يهتدى إلى أى  
حير تستظم به حيت . ويجد جذوراً لذلك الخير فى الإسلام ، فهذا  
دليل على أن العالم يتجه إلى الوسطية .

وكان المثل فى الشيوعية التى قامت ثورتها الدموية فى عام  
١٩١٧ ، وقالوا إنها مقدِّمة الشيوعية ، وسقطت الشيوعية من بعد  
أن أصيب المجتمع الروسى بالتييس والجمود ، والخوف من أسلوب  
حكِّم الحزب الشيوعى

ونجد الرأسمالية الشرسة . وهى تُهذَّب من شرَّاستها ، وتعطى  
العامل حقه وتؤمِّن عليه . وهكذا يتجه العالم إلى الوسطية التى دعا  
لها الإسلام

وقد نزل الإسلام من قبل عالمٍ عليمٍ بكل الأهواء وبكل المراحل



ولذلك نجد الحق سبحانه وهو يُعَمِّنُ رسوله ﷺ إِنْ أَذَاهُ أَحَدٌ فِي  
الْمَنَهِجِ الَّذِي جَاءَ بِهِ ، لِأَنَّهُ ﷺ لَمْ يَكُنْ لِيَأْخُذَ بِمَنْ يَهْوَى أَنْ يُؤْذِيهِ فِي  
شَخْصِهِ ، وَكَانَ ﷺ لَا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ ، وَلَكِنْ إِنْ تَعَرَّضَ أَحَدٌ لِلْمَنَهِجِ  
فَعَصَاهُ ﷺ يَظْهَرُ جَلِيًّا

وَمَنْ وَقَفُوا ضِدَّ الدِّينِ فَابْلَهَمُ الرِّسُولَ ﷺ بِالْدَّعْوَةِ ، هَمَزٌ آمَنَ  
مَنْهُمْ نَالَ حِلَاوَةَ الْإِيمَانِ ، وَمَنْ لَمْ يُوَافِقْ فَقَدْ تَوَالَتْ عَلَيْهِ الْمَصَائِبُ مِنْ  
كُلِّ جَانِبٍ ، مِنْهُمْ مَنْ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ مُصَارِعَهُ

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ  
﴿ إِنَّمَا يَذْهَبُ بِكَ قَائِلًا مِنْهُمْ مُتَقَمُّونَ ﴾ (٤١) أَوْ بُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا  
عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢) [الزخرف]

أَيُّ أَنَّهُ حَلٌّ وَعَلَا إِذَا أُرِيْلِحَ رَسُوْلُهُ بِالرَّقِيقِ الْأَعْمَى وَيَنْتَقِمُ  
مِنَ الدِّينِ وَقَفُوا ضِدَّهُ ، أَوْ بُرِيَهُ عَذَابُهُمْ رَأَى الْعَيْنُ<sup>(١)</sup>

وَكَانَ هَذَا الْقَوْلُ هُوَ الَّذِي يَشْرَحُ قَوْلَهُ سَبَّحَانَهُ هَذَا  
﴿ وَإِنْ مَا رَبُّكَ بِغَضِّ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ أَوْ تَوْفِيقِكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ  
وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ (٤) [الزمر]

وعذاب الديب - كما تؤمن - مهما بلغ فس يصل إلى مرتبة عذاب  
الأحرار

ويقول سبحانه من بعد ذلك

(١) قال ابن كثير في تفسيره ( ١٢٨/٤ ) « ثم يفهم الله تعالى رسوله ﷺ حتى أقر عسه  
من أعدائه ، وحكمه من مواليهم ، ومنه ما تضمنته صياصيتهم ( حصونهم ) من معنى  
قول السدي واختاره ابن جرير »

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَنَّهُ يُخَكِّمُ  
لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١﴾﴾

و « يَرَوْا » هنا بمعنى « يعلموا » ، ولم يقل ذلك ، لأن العلم قد يكون علماً بغيب ، ولكن « يَرَوْا » تعني أنهم قد علموا ما جاء بالآية علم مشاهد ورؤية واضحة ، وليس مع العين أين

وإذا جاء قول الحق سبحانه ليخبرنا بأمر حدث في العاضى أو سيحدث في المستقبل ، ووجدنا فيه فعل الرؤية ، فهذا يعنى أننا يجب أن نؤمن به إيمان مشهود ، لأن قوله سبحانه أوثق من الرؤية ، وعلمه أوثق من عينيك

وسبق<sup>(١)</sup> أن قال الحق سبحانه لرسوله

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾﴾ [الفيل]

ونعلم أن النبى ﷺ قد ولد فى عام الفيل ولا يمكن أن يكون قد رأى ما حدث لأصحاب الفيل ، ولكنه صدق ما جاء به أقول الحق وكأنه رؤيا مشهدة

وقال الحق سبحانه

﴿لَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكُطًا ۖ﴾ [الفرقان]

(١) قول نصيلة الشيخ هنا ، سبق ، هو باعتبار رعد ومكان حدوث سورى الفيل والرعد ، وليس باعتبار ترتيبها من المصحف سورة الفيل مكية ، أما سورة الرعد فهي مدنية ( ح )

وحين يُعبر القرآن عن أمر غيبي يأتي بفعل « يرى » مثل قوله الحق

﴿رَأَوْا تَرَى إِذَ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا<sup>(١)</sup> رُءُوسِهِمْ عَدَّ رَبِّهِمْ ..﴾ [السجدة]

وحين يتكلم القرآن عن أمر معاصر يقول .

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ ..﴾ [٤٤]

[الأنبياء]

وهنا يقول الحق سبحانه

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ..﴾ [٤١]

[الرعد]

وهذا قول للحاضر المعاصر لهم .

وتعريف الأرض هنا يجعلها مجهولة ، لأننا حين نرغب في أن نعرف الأرض ، قد يتجه الفكر إلى الأرض التي نقف عليها وبالمعنى الأوسع يتجه الفكر إلى الكرة الأرضية التي يعيش عليها كل المشر .

وقد تُنسبُ لأرض إلى بقعة خاصة وقع فيها حدثٌ ما ، مثل قول الحق سبحانه عن قارون

﴿فَحَسْبُنَا بِهِ وَفِدَاؤُهُ الْأَرْضَ ..﴾ [٨١]

[التقصص]

ويقول الحق سبحانه عن الأرض كلها

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ..﴾ [٥٥]

[النور]

وبطبيعة الحال هم لن ياخلوا كل الارض ، ولكن ستكون لهم  
السيطرة عليها

وسبحانه يقول ايضاً

﴿ فَذَرُوهَا فَكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ .. ﴾ (٧٣)

[الاعراف]

وهكذا نفهم أن كلمة « الأرض » تطلق على بقعة لها حدث  
خاص ، أما إذا أطلقت ، فهي تعني كل الأرض ، مثل قول الحق  
سبحانه

﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ <sup>(١)</sup> ﴾ (٦١)

[الرحمن]

ومثل قوله تعالى لبنى إسرائيل

﴿ رَقَنَّا مِنْ بَعْدِهِ <sup>(٢)</sup> لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ .. ﴾ (١٠٤)

[الاسراء]

مع أنه قد قال لهم في آية أخرى

﴿ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ .. ﴾ (٢١)

[المائدة]

فبعد أن حدد لهم الأرض بموقع معين عاد فإطلق الكلمة ، ليدل  
على أنه قد شاء ألا يكون لهم وطن ، وأن يظلوا مُبْعَثَرِينَ ، ذلك أنهم  
رفضوا دخول الموقع الذي سبق وأن حدد له لهم وقالوا

﴿ إِنَّا لَنِي نُدْخِلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا .. ﴾ (٢٤)

[المائدة]

(١) الأنام - ما ظهر على وجه الأرض من جميع الخلق وقال المفسرون هم النجس والإنس  
[ ليلان العرب - ملحة - أنم ]

(٢) أي من بعد إسراق قريش المقصود بالأرض هنا أرض الشام ومصر ذكره القرطبي  
في تفسيره ( ٦٧/٥ ٤ )

ولذلك قال الحق سبحانه في موقع آخر

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ<sup>(١)</sup> فِي الْأَرْضِ أُمَمًا .. (١٦٨)﴾ [الاعراف]

أى جعلنا كل قطعة بما تحويه من تماسك متفرقة عن القطعة الأخرى ، وهذا هو حال اليهود في العالم ، حيث يُوحَدُونَ في أحياء خاصة بكل بلد من بلاد العالم ، فلم يذوبوا في مجتمع ما .

وقوله الحق هنا

﴿وَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا<sup>(٢)</sup> مِنْ أَطْرَافِهَا .. (١٦٩)﴾ [الرعد]

مُوحَّه إلى قريش ، فقد كانت لهم السيادة ومركزها مكة ، ثم من بعد ذلك وجدوا أن لموقف يتغير في كُلِّ يوم عن اليوم الآخر ، ففي كل يوم تذهب قبيلة إلى رسول الله ﷺ في المدينة لتعلن إسلامها وتبایعه

وهكذا تنقص أمام عيونهم دائرة الكفر ، إلى أن أعلنوا هم أنفسهم دخولهم في الإسلام .

وهكذا شاء الحق سبحانه أن تنقص أرض الكفر ، وازدادت أرض الإيمان ورأوا ذلك بأنفسهم ولم يأخذوا عِبرَةً بما رآه أمام أعينهم

(١) قطعناهم مرشاهم من الأرض لما أي طوائف ومرفقاً [ لسان العرب . مادة قطع

(٢) احتُف من انفصالها على أقوال

قال ابن عيسى أو لم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض

ونال سيامه وعكرمة خرابها ونقصان الأرض والشمات

وقال ابن عباس ومجاهد في رواية موت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها

قاله ابن كثير في تفسيره (٥٢٠/٢) ثم قال والقول الأول أولى وهو ظهور الإسلام

على أشرك قرية بعد قرية وهذا اختيار ابن جرير ،

من أن الدعوة مُنْتَهية ولن تتراجع أبداً ، حيث لا تزداد أرض إلا  
ممكين فيها

والممكن حين ينقص بموقعه من معسكر الكفر فهو يُزِيد رُقعة  
الإيمان ؛ إلى أن جاء ما قال فيه الحق سبحانه

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ  
أُفْوَاجاً (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَامْتَحِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (٣) ﴾ [النصر]

وهناك أناس مُخْلِصُونَ لدين الله ، ويحاولون إثبات أن دين الله  
فيه أشياء تدلُّ على المعاني التي لم تُكْتَشَفْ بعد ، فقالوا على سبيل  
المثال فور صعود الإنسان إلى القمر لقد أوضح لحق ذلك حين  
قال

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ فَانْظُرُوا لَا تَعْدُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٢) ﴾ [الرحمن]

وقالوا إنه سلطان العلم .

ولكن ماذا يقولون في قوله بعدها

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْابٌ (١) مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) ﴾ [الرحمن]

فهل يعنى ذلك أنه أباح الصعود بسلطان العلم كما تقولون ؟

ولهؤلاء نقول نحن نشكر لكم محاولة ربُّطكم للظواهر العلمية  
بما جاء بالقرآن ، ولكن أين القمر بالنسبة لأقطار السماوات

(١) الشَّوَابُ - يضم الشين وكسرها - القطعة من الذهب ليس فيها دنانير [ القاموس القويم

والأرض ؟ إنه يبدو كمكان صغير للغاية بالنسبة لهذا الكون المتسع ،  
فأين هو من الحجم المسمى بالشَّعْرَى<sup>(١)</sup> ، أو بسلسلة الأجرام المُسَمَّاة  
بالمرآة لمُسلَّسلة ؟ بل أين هو من المجرات التي تملأ الفضاء ؟

وحين تنظر أنت إلى النجوم التي تعلوك تجد أن بينك وبينها مائة  
سنة ضوئية ، ولو كنت تقصد أن تربط بين سلطان العلم وبين  
القرآن ، فعليك أن تأخذ الاحتياط ، لأمك لو كنت بمفد سلطان العلم  
ما قال الحق سبحانه بعدما

﴿ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٍ .. ﴾ (٣٥) [الرحمن]

وإن سألت وما فائدة الآية التي تحكى عن هذا السلطان ؛ فهي  
قد جاءت لأن الرسول قد أخبر القوم أنه صعد إلى السماء وعرج به ،  
أي أنه صعد وعرج به بسلطان الله

وهنا يقول الحق سبحانه

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. ﴾ (٤١) [الرعد]

وكلمة « أطراف » تدلنا على أن لكل شيء طُولاً وعَرْضاً تتحدد  
به مساحته ، وكذلك له ارتفاع ليتحدد حجمه . ونحن نعرف أن أي  
طول له طرفان ، وإن كان الشيء على شكل مساحي تكون أطرافه  
بعدد الأضلاع

وما دام الحق سبحانه يقول هنا

(١) الشعري نجم ثابت في السماء يُدعى قديماً عند بعض قبائل العرب ، قال تعالى ﴿ وَاتَّخَذَ  
رَبُّ النَّجْمِ (٣٥) ﴾ [النجم] [ القاموس الفيوم ٢٥٠/١ ] وقال ابن عباس ومجاهد  
وقائد وابن زيد وغيرهم هو هذا النجم الزقار الذي يقال له « مريم الجوزاء » [ تفسير  
ابن كثير ٢٥٩/٤ ]

﴿ من أطرافها .. ﴾ (٤١)

[الرعد]

أى من كل نقطة فى دائرة المحيط تعتبر طرفاً ومعنى ذلك أنه سبحانه قد شاء أن تضيق أرض الكفار ، وأن يوسع أرض المؤمنين من كل جهة تحيط بمعسكر الكفر ، وهذا القول يدل على أنه عملية مُحَنَّة ، ولم تكن كذلك من قبل

ويتابع سبحانه من بعد ذلك

﴿ والله يحكم لا عقب لحكمه .. ﴾ (٤١)

[الرعد]

أى أن الموضوع قد نُت فيه وانتهى أمره . ونحن فى حياتنا اليومية نقول : هذا الموضوع قد انتهى ، لأن الرئيس الكبير قد عقب على الحكم فيه ،

ونحن فى القضاء نجد الحكم يصدر من محكمة ادرجة الابتدائية ، ثم باتى الاستئناف ليؤيد الحكم أو يرفضه ، ولا يقال إن الاستئناف قد عقب على الحكم الابتدائى ، بل يُقال إنه حكم بكذا إما تأييداً أو رفضاً : فما بالنا بهكم من لا يغفل ولا تحصى عنه خافية ، ولا يمكن أن يُعقب أحد عليه ؟

والمثل فى ذلك ما يقوله الحق سبحانه عن سليمان وداود عليهما السلام

﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحوت<sup>(١)</sup> إذ نفثت<sup>(٢)</sup> فيه غم القوم

(١) الحوت الذى نفثت فيه الغم إما كل كبرما ( غنياً ) فلم تدع فيه ورقة ولا هتقداً من غم ، إلا أكلته [ تفسير ابن كثير ١٨٦/٣ ]

(٢) نفثت الغم إذا تسرقت غرمت بالليل من غير علم راميها ، ولا يكون النفث إلا بالليل [ لسان العرب - مادة نفث ]



وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَهَمَّانَهَا سُلَيْمَانُ وَكَوَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .

[الأنبياء]

﴿٧٩﴾

وأصل الحكاية أن خلافاً قد حدث بسبب أغنام يملكها إنسان ،  
وافتحمت الأغنام زراعاً إنسان آخر ، متحاكموا إلى داود عليه  
السلام ، فقلل داود إن على صاحب الأغنام أن يتنازل عنها لصاحب  
الأرض

وكان سيدنا سليمان - عليه السلام - جالساً يسمع أطراف  
المديث فقال : لا . بل على صاحب الأغنام أن يتنازل عن أغنامه  
صاحب الأرض لفترة من الزمن يأخذ من لبنها ويستثمرها ، وينتفع  
بها إلى أن يزرع له صاحب الغنم مثل ما أكلت الأغنام من أرضه<sup>(١)</sup>

وقال الحق سبحانه

[الأنبياء]

﴿ فَهَمَّانَهَا سُلَيْمَانُ .. ﴾ ﴿٧٩﴾

وهذا هو الاستئناف ، ولا يعنى الاستئناف طعن قاص في  
القاضي الأول ، لكنه بحثٌ عن جوهر العدل ولعل القضية إن أُعيدت  
لنفس القاضي الأول لحكم نفس الحكم الذي حكم به الاستئناف بعد  
أن يستكشف كل الظروف التي أحاطت بها

وهنا يقول الحق سبحانه

[الرعد]

﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ .. ﴾ ﴿٤١﴾

(١) انظر في هذا تفسير ابن كثير ( ١٨٦/٢ ) ، والبر المنثور للسيوطي ( ٦١٥/٥ )

ولحظة أن يُصدر الله حُكْمًا ، فلن يأتي له استئناف ، وهذا معنى قوله الحق

﴿ لَا مُعْتَبَرٌ لِحُكْمِهِ .. ﴾ (٤١)

[الرعد]

وكان هذا القول الحكيم يحمل التنبؤ بما أشار به القصاء بإنشاء الاستئناف ، ولا أحد يُعْتَبَرُ على حُكْمِ الله ، لأن المُعْتَبَرُ يفترض فيه أن يكون أيقظ من المُعْتَبَرِ عليه ، وعنده قدرة القفات إلى ما لم يلتفت إليه القاضي الأول ، ولا يوجد قُيُومٌ إلا الله ، ولا أحد بقادر على أن يعلم كل شيء إلا هو سبحانه

واقفة كل حُكْمٍ هو تنفيذه ، ففى واقعنا اليومي نجد من استصدر حُكْمًا يُعَانِي من المتاعب كي يُنفّذه ؛ لأن الذى يُصدر الحكم يختلف عَمَّنْ ينفذه ، فهذا يتبع جهة ، وذاك يتبع جهة أخرى

ولكن الحكم الصادر من الله ، إنما يُنفَّذُ بقوته سبحانه ، ولا يوجد قوى على الإطلاق سواه ، ولذلك يأتي قوله الحق

﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٤٢)

[الرعد]

فكان الله يَنْبِهَا بهذا القول إلى أن الحكم بالعدل يحتاج إلى سرعة تنفيذ

ونحن نرى في حياتنا اليومية ، كيف يَرْهَقُ مَنْ له حكم بحق عادل ، ولو أننا نُسْرِعُ بتنفيذ الأحكام لَسَادَتْ العمانية قلوب أفراد المجتمع

ونحن نحد استشرء العصبية في الأحذ بالثار إنما يحدث بسبب

الإبطاء في نظر القضاة ؛ حيث يستغرق نظر القضية والحكم فيها سنوات ، مما يجعل الحق يزداد . لكن لو تم تنفيذ الحكم فور معرفة القاتل ، وفي ظل الانفعال بشراصة الجريمة ، لكانت ازدياد عمليات الثار ولهدأت النفوس

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك .

﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا  
تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ ﴿٤٢﴾ ﴾

وهنا يحبر الحق سبحانه رسوله ، وأي سامع لهذا البلاغ يستقرئ موكب الرسائل السابقة ، وسيجد أن كل أمة أرسل لها رسول مكرب به وكادت له كي تسفل دعواه ، ولم ينفع أي أمة أي مكر مكرته أو أي كيد كادته ، فكل للرسالات قد انتصرت فسحانه القاتل .

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. ﴾ (٢١) [المجادلة]

وهو القاتل .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِمَآدُنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ  
﴿١٧٢﴾ وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات]

(١) عقي الدار أي عاقبة دار الدنيا ثواباً وعقاباً أو لمن الشواب والعقاب في الدار الآخرة  
وهو تهديد ووعد [ ذكره القرطبي في تفسيره ٢٦٧٢/٥ ]

والحق سبحانه حين يُورد حُكْمًا في القرآن ، وهو الذي حفظ هذا القرآن ، فلن تأتي أي قضية كونية بتسخ الحكم القرآني .

وانت إذا استقرات مواكب الرس كلها تجد هذه القضية واضحة تماماً ، كما أثبتها الحق سبحانه في القرآن المحفوظ ؛ وما حفظه سبحانه إلا لوثقه بأن الكونيات لا يمكن أن تتجاوره

وبالفعل فقد مكرت كل أمة برسولها ، ولكن الحق سبحانه له المكر جميعاً ، ومكر الله خير للبشرية من مكر كل تلك الأمم ، ومكره سبحانه هو الغالب ، وإذا كان ذلك قد حدث مع الرسل السابقين عليك يا رسول الله فالأمر معك لا بد أن يختلف لأنك مرسل إلى الناس جميعاً ، ولا تعقيب يأتي من بعدك

وكل تلك الأمور كانت تعلمته ﷺ ؛ فلا بد من انتصاره وانتصر دعوته ، مسبحانه محيط بأي مكر يحكره أي كائن ، وهو جل وعلا قادر على أن يحيط كل ذلك

ويتابع سبحانه في نفس الآية

﴿ يَلْمِزُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكَفَّارُ لِمَنْ عَقِبِيَ الدَّارُ (١٦) ﴾

[الرعد]

والحق سبحانه يعلم ما يخفى عن الأعين في أعماق الكائنات ، خير هو أو شر ، ويحمي من شاء من عباده من مكر الماكرين ، وينزل العقاب على أصحاب المكر السيئ بالرسول والمؤمنين

ولسوف يعلم الكافرون أن مصيرهم جهنم ، وبئس الدار التي يدخلونها في اليوم الآخر ، فضلاً عن نصرة رسوله ﷺ في الدنيا وخزيهم فيها

وهكذا يكونون قد أخذوا الخزي كجزاء لهم في الدنيا ، ويزدادون  
علماً بواقع العذاب لدى سيِّفوتُهُ في اِندَارِ الآخرة  
ويُنْهِى الحق سبحانه سورة الرعد بهذه الآية

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ  
شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [٢٣]

وبطعنهم من كلمة

﴿لَسْتَ مُرْسَلًا...﴾ [٢٣] [الرعد]

ان الكافرين يتوقفون عند رفض الرسول ﷺ ، وكان كل أمانهم  
ان يَنْقُوه عنه انه رسولُ صطفاهِ الحق سبحانه بالرسالة الجامعة  
بدليل أنهم قالوا

﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْغَرَبِينَ عَظِيمٍ﴾ [٢٤] [الرعد]

ومن بعد ذلك قالوا .

﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ  
السَّمَاءِ أَوْ اقْتُلْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٢٥] [الأنفال]

أي ان فكرة الإرسال لرسول مقبولة عندهم ، وغير المقبول  
عندهم هو شخص الرسول ﷺ .

ولذلك يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ

﴿قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (١٢)

[لا عد]

واشهاد كما نعلم هو الذى يرجح حُكم الحق . فإذا ما ظهر أمر من الأمور فى حياتنا الدنيا التى نحتاج إلى حُكم فيها : فنحن نرفع الأمر الذى فيه خلاف إلى القاضى ، فيقول : « هاتوا الشهود »

ويستجوب القاضى الشهود ليحكم على ضوء الشهادة ، فما بالنا والشاهد هنا هو الحق سبحانه ؟

ولكن ، هل الله سيشهد ، ولمن سيفول شهادته ، وهم غير مُصدقين لكلام الله الذى نزل على رسوله ﷺ ؟

ونقول لقد أرسله الحق سبحانه بالمعجزة الدالة على صدق رسالته فى البلاغ عن الله ، والمعجزة حرق لنواميس الكون

وقد جعلها الحق سبحانه رسالة بين يدي رسوله وعلى لسانه ، فهذا يعنى أنه سبحانه قد شهد له بأنه صادق .

والمعجزة أمر خارق للعادة يُظهرها الله على من بلغ أنه مُرسل منه سبحانه ، وتقوم مقام القول ، صدق عبدي فيما بلغ عني .

وإرادة المعجزة ليست فى المعنى الجرشى ، بل فى المعنى الكلى لها . والمثل فى المعجزات البارزة واضح : فها هى النار التى ألقيت فيها إبراهيم عليه السلام ، ولو كان القصد هو نجاته من النار ، لكانت هناك ألف طريقة ووسيلة لذلك : كأن تُمطر الدنيا ، أو لا يستطيعون إلقاء القبض عليه .

ولكن الحق سبحانه يوضح لهم من بعد أن أمسكوا به ، ومن بعد أن كبّلوه بالقيود ، ومن بعد أن القوه في النار ، ويأتي أمره بأن تكون النار برداً وسلاماً عليه فلا تحرقه

﴿لَقَدْ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء]

وهكذا غير الحق سبحانه الناموس وخرقه ، وذلك كي يتضح لهم صدق إبراهيم فيما يبلغ عن الله ، فقد حرق له الحق سبحانه النواويس نليل صحة بلاغه

وإذا كان الحق سبحانه قد قال منا في الآية التي نحن بصدد خراطرتها عنها

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا<sup>(١)</sup>﴾  
وَبَيْنَكُمْ .. (٤٣)﴾ [الرعد]

وشهادة الحق سبحانه لرسوله بصدق البلاغ عنه ، تتمثل في أنه ﷺ قد نشأ بينهم ، وأمضى أربعين عاماً قبل أن ينطق حرفاً يحمل بلاغة أو خطبة أو قصيدة ، ولا يمكن أن تتأخر عقوبات المبوغ إلى الأربعين

وشاء الحق سبحانه أن يجري القرآن على لسان رسوله في هذا العمر ليبلغ محمد ﷺ الناس جميعاً به ، وهذا في حد ذاته شهادة من الله

(١) أي حسبي الله . من الشاهد على وطئكم ، شاهد على فيما بلغت عنه من الرسالة ، وشاهد عليكم أيها المكذوبون فيما تفترونه من البهتان . قاله ابن كثير في تفسيره (٥٢١/٢)

ويضيف سيجانه هنا :

﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (الرعد)

والمقصود بالكتاب هنا القرآن ، وَمَنْ يقرأ القرآن بإمعان يستطيع أن يرى الإعجاز فيه ، وَمَنْ يتدبر ما فيه من معانٍ ويتقنص أسلوبيه ، يجده شهادة لرسول الله ﷺ .

أو يكون المقصود بقوله الحق

﴿وَمِنْ عَمَلِهِ عِلْمَ الْكِتَابِ﴾ (٤٧) [الرعد]

أى هؤلاء الذين يعلمون خبر مَقْدِم رسول الله ﷺ من النبوة والإنجيل : لأن نعت رسول الله ﷺ وصفته مذكورة فى تلك الكتب السابقة على القرآن ، بدرجة أن عبد الله بن سلام<sup>(١)</sup> وقد كان من أخصاب اليهود قال : لقد عرفتُ محمداً حين رأيته كمعرفتى لائسى ، ومعرفتى لمحمد أشد<sup>(٢)</sup> .

ولذلك ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال له يا رسول الله إن نفسي مالت إلى الإسلام ، ولكن اليهود قوم بُهت<sup>(٢١٥)</sup> ، فإذا أعلنت إسلامي ؛ سيمسكونني ، ويلعنوني ، ويصلقون بي أوصافاً ليست فيّ . وأريد أن

(١) هو عبيد بن سلام بن الحارث الإسرائيلي ، أبو يوسف صحابي أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة ، وكان اسمه بالعصيين ، قسماه رسول الله ﷺ عبدا له وشهد مع عمر

فتح بيت المقدس أقام بالمدينة إلى أن توفي عام ٤٢ هـ (الإعلام للريكتي ٩ / ٩)

(٣) يقول تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَالْكَافِرُونَ لَا يَخْلُقُونَ سِوَاكَ﴾ كما يعرفون ابتدائهم [البقرة: ١٧٧]

(٣) **الْبُيُوتِ الْكَذِبِ** وبأته استقبله بأمر يؤمنه به ، وهو منه بريد لا يعلمه [ لسلي



تَسْأَلُهُمْ عَنِّي أَوَّلًا ، فَأَرْسَلْ لَهُمْ رَسُولَ اللَّهِ يَدْعُو صِنَادِيَهُمْ وَكِبَارَ الْقَوْمِ فِيهِمْ ؛ وَتَوَهَّمُوا أَنْ مُحَمَّدًا قَدْ يَلِينُ وَيَعْدِلُ عَنْ دَعْوَتِهِ ، فَجَاءُوا ، وَقَالَ لَهُمْ ﷺ : « مَا تَقُولُونَ فِي ابْنِ سَلَامٍ ؟ » <sup>(١)</sup> فَاحْذَرُوا بِكَيْلُونِ لَهُ الْمَسِيحَ ، وَقَالُوا فِيهِ أَحْسَنَ الْكَلَامِ

وَمَا قَالَ ابْنُ سَلَامٍ : « الْآنَ أَقُولُ أَمَامَكُمْ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ » ، فَاحْذَرُوا يَسْتَوُونَ ابْنَ سَلَامٍ ، فَقَالَ ابْنُ سَلَامٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : أَلَمْ أَقُلْ إِنَّ يَهُودَ قَوْمَ بَهْتٍ ؟

وَنَعْلَمُ أَنَّ الَّذِينَ كَانُوا يَفْرَحُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِمَا يَنْزِلُهُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ وَحْيٍ هُمْ أَرْبَعُونَ شَخْصًا مِنْ نَصَارَى نَحْرَانَ ، وَاثْنَانِ وَثَلَاثُونَ مِنَ الْحَبِشَةِ ، وَثَمَانِيَةٌ مِنَ الْيَمَنِ .

وَنَعْلَمُ أَنَّ الَّذِينَ أَنْكَرُوا دَعْوَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانُوا يَبْهَوْنَ بَعْضُهُمُ الْبَعْضَ عَنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ ، وَيَنْقُلُ الْقُرْآنَ عَنْهُمْ ذَلِكَ حِينَ قَالُوا

﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَفْوُ <sup>(٢)</sup> فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت]

وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُمْ كَانُوا مُنَافِكِينَ مِنْ أَنَّ سَمَاعَ الْقُرْآنِ يُؤْثِّرُ فِي النَّفْسِ بَيِّظَةً الْفُطْرَةِ الَّتِي تَهْفُو إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ

أَمَّا مَنْ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ بِالْكِتَابِ السَّابِقَةِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هُمْ يَعْلَمُونَ حَبْرَ بَعَثَتِهِ وَأَوْصَانَهُ مِنْ كِتَابِهِمْ

(١) خَرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ ( ٢٩٢٨ ) ، وَأَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ ( ١٠٨/٢ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ )

مِنْ حَدِيثِ نَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(٢) الْقُرْآنُ فِيهِ أَيُّ شَوْشَا عَلَى قَارِئِهِ بِالنَّفَرِ مِنَ الْقَوْلِ ، أَوْ اطْفِئُوا فِيهِ وَاحْتَقَرُوا لَهُ الْعُيُوبَ

لنصرهوا الناس عنه [ التماموس القويم ٢ ، ١٩٦ ]

يقول الحق سبحانه .

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. ﴾ (١٤٦)

[البقرة]

ويقول أيضاً .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٩)

[البقرة]

سُورَةُ الْاَنْعَامِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[إبراهيم]

﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ .. (٦)﴾

كلمة « كتاب » إذا أطلقت انصرف معناها إلى القرآن ، فهو يُسَمَّى .  
كتاباً : وَيُسَمَّى قرآنًا ، وَيُسَمَّى تنزيلاً ، وله أسماء كثيرة .

وكلمه «كتاب» تدل على أنه مكتوب ، وكلمة «قرآن» تدل على أنه مقروء ، وهذان الاسمان هما الصيغة في أسماء القرآن ، لأنه كتاب مكتوب ومقروء .

فكان الصحابي<sup>(١)</sup> الذي يجمع القرآن لا يكتب آية إلا إذا وجدها مكتوبة ، ووجدها مقروءة عن اثنين من الصحابة ، فالقرآن كتاب يملك الدليل على كتابته من عهد رسول الله ﷺ ، وهو مقروء كما تدل كلمة « قرآن »

وقوله الحق

[إبراهيم]

﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ .. (٦)﴾

يدل على أنه جاء من علو .

ويقول الحق سبحانه في موقع آخر عن القرآن

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى

لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)﴾

[النس]

ويقول في موقع آخر

(١) هو زيد بن ثابت الأنصاري ، صحابي ، كان كاتب الوحي ، ولد في المدينة ٦٦ ق هـ ، وبشأ بمكة كل أحد الذين جمعوا القرآن في عهد النبي ﷺ من الأنصار ، وعرضه عليه ، وهو الذي كتب في المصحف لأبي بكر ، ثم لعثمان حين جهز المصحف إلى الأنصار ( الأعلام للزركلي ٥٧/٢ )

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٥)﴾ [الإسراء]

ومرة بسد النزول إلى مَنْ جاء به . ومرة ينسب النزول إلى الكائن الذي أرسله الحق بالقرآن إلى محمد ﷺ . وهو جبريل عليه السلام .

فقوله ﴿وَأَنْزَلْنَاهُ .. (١)﴾ [إبراهيم] للتعدي من منطقة اللوح المحفوظ ليبشر مهمته في الرجود ، وعلية إنزال القرآن إليك يا محمد هي

﴿تُخْرِجُ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (١)﴾ [إبراهيم]  
ونلاحظ هنا أن القرآن نزل للباس كافة ، ولم يقل الحق سبحانه ما قاله للرسل السابقين على رسول الله : حيث كنت رسالة أي منهم مُحددة بقوم معينين ، مثل قوله تعالى .

﴿وَأَلِيَّ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. (٦٥)﴾ [الأعراف]

وقوله الحق

﴿وَأَلِيَّ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا .. (٨٥)﴾ [الأعراف]

وكذلك قوله سبحانه لموسى

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ .. (٤٩)﴾ [آل عمران]

وهكذا كان كل رسول إنما يبعثه الله إلى بقة خاصة ، وإلى أناس بعينهم ، ومى رمن خاص ، إلا محمدا ﷺ : فقد بعثه الله إلى الناس كافة

والمثل أمامنا حين حكم ﷺ بالحق بين مسلم ويهودي ، وأنصف اليهودي ، لأن الحق كان معه <sup>(١)</sup> ، والحق عند رسول الله ﷺ أعزُّ عليه ممَّنْ ينتسب إلى الإسلام

وهكذا نرى أن قوله الحق ،

﴿ تُخْرِجُ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ . (١) ﴾ [إبراهيم]

يلين على عمومية الرسالة ، ويُعزِّزها قوله

﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا .. (١٥٨) ﴾ [الاعراف]

وبذلك تبطل حُجَّةُ مَنْ قالوا إنه مرسل للعرب فقط

ونجد هنا اصطفاة رسول الله ﷺ

الاصطفاء الأول : أن الحق سبحانه قد اختاره رسولا ، فمجرد الاختيار لتلك المهمة : فهذه منزلة عالية .

والاصطفاء الثاني . أنه رسول للناس كافة ، وهذه منزلة عالية

(١) أخرج ابن عساکر ( ٢٥٤/٧ ) مهذب تاريخ دمشق ( عن عبيد بن أبي حنيرة الأسلمي أنه كان ليهودي عليه أربعة دراهم فاستعدى عليه فقال يا محمد إن علي هذا أربعة دراهم وقد غلبني عليها ، قال أعطه حقه قال والذي يملك بالحق ما أقدر عليها ، قال أصبه حقه قال والذي نفسي بيده ما أقدر عليها ، قد أخبرتك أنك تبعثنا إلى حبيب بأرجل لم تنسنا شيئا فلرجع فأتصيا قال أعطه حقه ، وكان رسول الله ﷺ إذا قال ثلاثا لم يؤلج ، فخرج ابن أبي حنيرة إلى السوق وعلى رأسه حصاة وهو مقرر ببردة ، فنزع العصاة عن رأسه فأتزر بها ونزع البردة فقال اشتر مني هذه البردة فباعها منه بأربعة دراهم فعرّت عجوز فقالت ما لك يا صاحب رسول الله ﷺ ، فأخبرها فقالت هذوتك هذا البرد - لبرد عليها طرخته عليه وكذا أخرجه أحمد في مسنده ( ٤٢٢/٣ ) وأوردته الكاتحلوى في حياة الصحابة ( ٨١/٢ )



أخرى ، لأنها تستوعب المكان والزمان ، والألسنة والأقوام .

ثم يأتى الإعجاز فى قوله .

﴿لُخْرِجَ النَّاسُ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (١)﴾ [إبراهيم]

ولم يَقُلْ من الظلمات إلى الأنوار ، وشاء أن يأتى بالظلمات كجمع ، وأن يأتى بالنور كمفرد ، لأن النور واحد لا يتعدد ؛ أما الظلمات فمتعددة بتعدد الأهواء ، ظلمة هنا وظلمة هناك .

وحين يُخْرِجُنَا للحق سبحانه من الظلمات المتعددة حسب أهواء البشر ، فهذا فَضْلٌ منه وبعمة ، لأننا نخرج إلى النور الواحد

وهكذا يشاء الحق سبحانه أن يُجلى المعانى بالمحسّنات التى يدركها الجميع ، فلا شك أن الظلمة تستر الأشياء التى قد يصطدم بها الإنسان فيمتنع عن السير مطمئناً ؛ لأنه إن اصطدم بشيء فقد يُحطّم الشيء أو يُحطّمه هذا الشيء ، وهكذا تمنع الظلمة الإنسان من أن يبتدى إلى ما يريد

أما النور فهو يوضح الأشياء ، ويستطيع الإنسان أن يُميّز بين الطرق ويتجنب الضار ويتجه إلى النافع ، ويكون على بصيرة من الهداية ، ذلك هو الأمر الحسى ؛ وكل من النور والظلمة أمر حسى .

وهكذا يُجلى الله لنا المعانى والحياة لا تحتاج فقط إلى ما يُجلى المظاهر المادية بالنور ، بل تحتاج أيضاً إلى نور يُجلى المظاهر المعنوية ، من حقد وحسد ، وخوف وأمن ، وطمئنان ، وأمانة ووفاء ؛ وغير ذلك

فالحياة كلها فيها الشيء وما يقابله ، لذلك لا بد أن تجلّى المعانى أيضاً . والنور الذى جاء به رسول الله ﷺ يجلّى احسن والمعنى فى آن واحد ، لنتجنب الأشياء التى تطمسها الظلمة ، ولسير على بينة من المعانى ، فلا نصطدم بالعقبات .

ولذلك يُفسّر لنا الحق سبحانه الامر المعنوى ، فيقول

﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١)﴾ [إبراهيم]

وهذا هو الصراط المستقيم الذى يُخرجنا إليه محمد ﷺ من الظلمات الى نوره .

ويريد الحق سبحانه أن يجلّى لنا الطريق إلى هذا الصراط ، لانه قد يكون مُتعباً للبعض ، ويريد سبحانه أن يجمع لنا بين امرين ، طريق متضح وواضح يصل فيه الإنسان إلى الغاية يُفسّر ، وطريق آخر غير واضح لا تتجلّى فيه الاشياء

وجاء بالظلمات والنور ليوضح لنا هذا المعنى ، حيث يكون الطريق المستقيم هو أقصر وسيلة للغاية المرجوة من الحياة الدنيا والآخرة ، ويكون طريق الظلمات هو الطريق غير الآمن

وينسب الحق سبحانه الطريق الذى يُخرجنا إليه الرسول ﷺ

﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١)﴾ [إبراهيم]

والعزیز هو الذى يَغْلِب ولا يُغْلَب ، والحميد هو من ثبتت له صفة الحمد من الغير ، وإن لم يصدر حمداً من الغير ، فهو حميد فى ذاته ، ويحب أن يُحمد رغم أنك إن حمدته أو لم تحمده فهو حميد

وهو المثل الأعلى ، وسبحانه مُنَزَّهٌ عن كل مثيل أو شبهة ، نجد  
في حياتنا الدنيا مَنْ يُقال عنه إنه حميد اخصال ، وإن لم يوجد مَنْ  
يمدحه ، لكنه في كُلِّ ما يصدر عنه يراعى أن يكون محموداً

ولكن الشر يكون المحمود منهم حَدَثاً ، أما المحمود من الحق  
فهو مُطلق ، ولا تكون الذاتُ محمودة أو حميدة إلا إذا كان لها  
من الصفات ما يجعلها أهلاً بالإنعام الذي يجب على الإنسان أن  
يحمدّه .

والفطرة السليمة في الإنسان تستقبل هذا الكون المُعدَّ من قَبْلُ أن  
يوجد لاستقباله ، وتحب أن تحمد مَنْ صنع هذا الكون ، رغم أن حمد  
الإنسان أو عدم حمده لا يضيف شيئاً لمن أمدَّ هذا الكون وخلقّه ،  
فهو محمود في ذاته

وإن حمدته فهذا لمصحتك ، وفي هذا هداية إلى صراط العرير  
الذي لا يُغلب ، والحميد الذي يستحق الحمد ، وإن لم يوجد حامد  
له ، لأن صفاته سبحانه أروية

فإنه خالق قبل أن يخلق الخلق ، وهو قرازق قبل أن يُخلق  
المرروق ، وهو مُعز قبل أن يوجد مَنْ يُعزّه ، محمود قبل أن يوجد  
مَنْ يجمده ، ثواب قبل أن يوجد مَنْ يقرب عليه

فهو سبحانه بالصفة يفعل ، أما الإنسان فلا يفعل إلا إذا فعل  
الصفة ، فانت لا تعرف أن فلاناً كريم ، إلا لأنك تراه يعطي عن جود  
وسخاء ، أما الله فهو الكريم من قبل أن يوجد مَنْ يُكرمه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك .

﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ  
وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (١)

وانت إن قرأت هذه الآية موصولة بما قبلها ، فتقرأها  
﴿مِصْرَاطُ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي  
الْأَرْضِ (٢)﴾ [إبراهيم]

وإن كنت ستقرأها مفصولة عما قبلها ، فتقول  
﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ  
عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢)﴾ [إبراهيم]

وستنطق كلمة ، الله ، غير مُرَقَّعة عكس إن قرائتها موصولة ،  
حيث يجب أن تنطقها مُرَقَّعة

وتقتضي الأصول في الكتاب أن يوجد الاسم العلم على الذات  
أولاً ، ثم تأتي الصفة من بعده ، فتقول ، « لقيت فلاناً الشاعر أو  
الكاتب أو العالم ، ، لكن الأمر هنا جاء على غير هذا النسق

﴿مِصْرَاطُ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١)﴾ [إبراهيم]

أي ، قَدْماً ، العزيز الحميد ، ثم جاء بلفظ الجلالة ، وهو العلم  
على واجب الوجود « الله » ، وقد حدث ذلك لأن العلم يدل على  
مُسَمَّاء بصرف النظر عن الصفات ، ثم توجد الصفات له

وهناك من العلماء مَنْ قال إنه مُشْتَقٌّ بمعنى أن « الله » تعنى

(١) الويل كلمة عذاب ودعاء بالشر وإختار به [ القاموس القويم ٣٦٢/٢ ] والويل

الهلاك يُدْعَى به لس وقع في عذاب أو هلكة يسقطها [ لسان العرب - مادة ويل ]

المعبود بحق ؛ وصفة العزيز الحميد حيثية لأن يُعبد سبحانه بحق.

ومن العلماء من قال . إن كلمة « الله » هي عَظَم ، وليست سَمًا مُشَقَّةً ، فَلَهِ الملكية المطلقة .

﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ . ٧﴾ [إبراهيم]

لا يقع في هذا الملك إلا ما شاء هو . فمن آمن به أنصف نفسه وحياته وأحرقه ، أما مَنْ لم يؤمن به فَلَهِ المقابل . وهو قوله الحق

﴿رَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ٧﴾ [إبراهيم]

وهذا الوَيْل ليس في الآخرة فقط . بل في الدنيا أيضاً ، لأن الإنسان حين تعترضه الصَّعَابَ والعَقَبَات والمصائب التي ليس له أسباب يدفعها بها ؛ هنا يستطيع المؤمن أن يذكر أن له رباً فوق الأسباب ، ويرتاح إلى معونة الحق سبحانه له . وهكذا يشعر أن له رصيداً في الدنيا يعتمد عليه في مواجهة الأحداث الجسام

أما غير المؤمن فليس أمامه سوى اليأس ، ولذلك نجد انتشار الانتحار بين غير المؤمنين ؛ لأن هناك أحداثاً فوق أسبابهم ، ولا يستطيعون دفعها ، وليس لهم إيمان برب يرجعون إليه .

ولذلك حين أقرأ للمفسرين مَنْ يشرح كلمة « الويل » بأنها عذاب الآخرة ، فأجد نفسي قائلاً : بل والوَيْل يكون في الدنيا أيضاً ، لأن الكثير من أحداث الحياة يكون فوق أسباب الإنسان ؛ فلو لم يؤمن الإنسان بالله لَفَزِعَ من قَرط اليأس .

ولذلك نجد بعضهم حين لا يجدون مفرّاً إلا أن يقولوا يارب ، وهم بذلك يعلنون صرخة الفطرة الأولى التي قارموها بالإلحاد وعدم الإيمان ، وهذا الويل له امتداد بلون أشد في الآخرة

ويصف الحق سبحانه هؤلاء الذين لا يؤمنون ، فيقول

﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ  
وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ  
فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ٣ ﴾

وهنا نجد مادة الحاء والباء : حب ؛ ومن عجائبها أن العمل يكون رباعياً ؛ فنقول « أحب فلان » ونقول لمن يحب « محبوب » وهذا يعني أن هناك تلاقياً بين الاثنين ؛ أما في حالة عدم التلاقي فيقال « حب يحب فهو حاب ومحب » .

والفرق بين أحب واستحب ؛ ملحوظ في مجيء السين والقاء ، وهما علامة على الطلب ، وعلى هذا فاستحب تعني أن من يحب لم يكتف بالامر الطبيعي ، بل تكلف الحب وأوغل فيه

والعقل على ذلك نجده في الحياة اليومية ؛ فمَنْ ينجرف إلى شيء من الانحراف ؛ ولكنه لا يحب أن يكون مُحِباً لهذا الانحراف في نفس الوقت ؛ ويفعل الانحراف وهو كاره له ، وقد يضرب نفسه ويلومها لأنها تنجرف إلى هذا الانحراف

ونجد آخر ينحرف ؛ لأنه يحب هذا الانحراف وينفوس فيه ؛ وهو مُحِبٌ لهذا الانغماس ويتحدث بهذا الانحراف ؛ ويحب في نفسه أنه

(١) قال القرطبي في تفسيره ( ٣٦٧٧/٥ ) : أي يطلبون لها زينة وميلاً سوا الفقه امرأتهم ، وقسمه حاجاتهم وأغراضهم .

أحب تلك المعصية ، لأنها تُحقّق له شهوة عاجلة ، هذا هو مَنْ « استحبّ » ، لأنه أّزاد لحب عن حدّه الطبيعي .

وحين تُدقّق في الآية الكريمة تجد أنّها لا تمنعك من حبّ الدنيا لكنها تتحدث أنّ تستحبّها على الآخرة ، فهذا هو الامر المدموم ، أما إذا أحببت الدنيا لأنها تُعينك على تكاليف دينك وجعلتها مزرعة للآخرة : فهذا امر مطلوب ، لأنك تفعل فيها ما يجعلك تسعد في آخرتك ، فهذا طلب للدنيا من أجل الآخرة

ولذلك تجد قوله الحق في سورة « المؤمنون »

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزُّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ (٤)

[المؤمنون]

فهو لا يؤدى الزكاة فقط ، بل يعمل ليأتى لنفسه ولحياله بالقُوت ؛ ويبدل الجهد ليكون لديه مائضٌ يؤدى منه الزكاة ، ولذلك فهو لا يعمل قَدْر حاجته فقط بل على قَدْر طاقته ليحقق ما يمكن أن يُعطيه لمن لا يقدر على العمل .

ولذلك لم يقل الحق سبحانه

« وَالَّذِينَ هُم لِلزُّكَاةِ مُؤَدُّونَ » بل قال

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزُّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ (٤)

[المؤمنين]

وهنا لا نجد هؤلاء الذين يستحبّون الحياة من أجل أن يجعلوها مزرعة للآخرة ، بل هم يستحبّون الحياة .

﴿ وَنُصَدِّقُكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴾ (٣)

[إبراهيم]

أى . أنهم لم يكتفوا بحُبِّ الدنيا على الآخرة فقط ، ولم يكتفوا  
بالسَّير في طريق الشهوات والعلذات وتخريب ذواتهم ، بل تعادوا في  
الغى<sup>(١)</sup> وصدّوا غيرهم عن سبيل الله

ونجد الحق سبحانه يقول في موقع آخر

﴿ لَمْ يَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُوتَهَا عِجْرًا .. ﴾ [١٩] ﴿ [ال عمران]  
كانهم ضلُّوا في سواتهم ، ولم يكتفوا بذلك ، بل يحاولون إضلال  
غيرهم ويصدونهم عن اهداية  
ثم تأتي مرحلة جديدة .

﴿ وَيَبْغُوتَهَا عِجْرًا .. ﴾ [٢٠] [إبراهيم]

أى يبعون شريعة الله مُعوجة لنفقد لهم نزواتهم وهكذا نجد  
ثلاث مراتب للضلال ، استحاب الحياة الدنيا على الآخرة ، والصد  
عن سبيل الله وتشويه المنهج كي يُكرّموا انفس فيه .

ويصف الحق سبحانه هؤلاء

﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ [٢١] [إبراهيم]

أى أن أصحاب المرتبة الاولى في الضلال هم مَنْ استحبوا  
الحياة الدنيا على الآخرة والذين توغلوا في الضلال أكثر فهم الذين  
يصدون عن سبيل الله ؛ أما الذين توغلوا أكثر فأكثَرُ فَهُمْ الذين  
يُشوّهون في منهج الله لتنفير الناس منه ، أو ليحقق لهم نزواتهم ،  
وهكذا ساروا إلى أبعد منطقة في الضلال.

(١) الغى الضلال والحياة والفساد [ لسان العرب - مادة غوى ] وغوى بمعنى خاب

ورسل لأنه اتهم في الجبل [ القاموس اللويم ٦٤/٢ ]



ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١)

ونعلم أن الرسول ﷺ مُبَلِّغٌ عن الله منهجه ، ومؤيدٌ بمعجزة تثبت صدقه فيما طمع لِعَنْ أُرسل إليهم . وقد حدث الحق سبحانه من قبل عما حدث للأمم السابقة على أمة محمد ﷺ ، لقد كان كل رسول يتكلم بلغة قومه

وهناك فرق بين قوم الدعوة وهم أمة رسول الله ﷺ ، وقوم الاستقبال ، وهم الأمم السابقة على أمة محمد ﷺ

فالأمم السابقة لم تكن مُطَالِبَةً بأن تُبَلِّغ دعوة الرُّسل الذين نزلوا فيهم ، أما أمة محمد ﷺ فمُطَالِبَةٌ بذلك ، لأن الحق سبحانه أُرسل رسوله ﷺ ، وأبلغنا في القرآن أن من آياته سبحانه أن جعل للناس على السنة مختلفة<sup>(١)</sup>

ولم يُكُنْ من المستعقول أن يرسل رسولاً يتكلم كل اللغات ، فنزل ﷺ في أمة العرب . وحين ستقبلوه وأشربت<sup>(٢)</sup> قلوبهم حُبَّ الإيمان : صار عليهم أن ينساحروا بالدعوة ، لينقلوا معنى القرآن حجة بعد أن استقبلوه معجزة .

(١) يقول تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقَ السَّكَنَةِ وَالْقَوَائِمِ﴾ (٢٧) [الروم]  
(٢) أشرب قلبه محبة هذا ، أي حل محل الشراب . ومنه قول تعالى ﴿وَأَخْبَرُوا لِي قُلُوبَهُمْ أَفْجَلُ ..﴾ (٢٧) [البقرة] أي حب العجل . وقد أشرب في قلبه حب أي خلطه [لسان العرب - مادة شرب]

والقرآن حُجَّةٌ لَّأنه يسوسُ حركةَ الحياة ، وحركاتُ الحياة لا تختلف في الناس أجمعين ، كما أن كُلَّ حصارة تأخذ من الأخرى مُنجزاتها العلمية ، وتُترجمها إلى لسانها الذي تتطرق به

وترجمة المعانى من لسان إلى آخر مسألة معروفة في كُلِّ حضارات العالم ، لأن المسألة في جوهرها مسألة معانٍ ، والمعانى لا تختلف من أمة إلى أخرى .

والقرآن معانٍ ومبهم يصلح لكل البشر ، ونزل بالعربية ، لأن موهبة الأمة العربية هي النبوغ في اللغة والكلام ، وهكذا صار على تلك الأمة مهمة الاستقبال لمبهم الله كمعجزة بلاعية ، وإرساله إلى بقية المجتمعات .

وبذلك تستطيع أن تُعقد مقارنة بين البلاد التي فُتحت بالسيف والقتال ؛ والبلاد التي فُتحت بالسلم ورؤية القدوة المسلمة الصالحة ، ستجد أن الذين نشروا الإسلام في كثير من أصقاع الأرض قد اعتمدوا على القدوة الصالحة .

ستجد أنهم نقلوا الدين بالخصال الحميدة ، وبتطبيق منهج الدين في تعاملهم مع غيرهم ، ولذلك أقبل الناس على دين الله .

وهكذا نجد أن منهج الإسلام قد حمل معجزة من المعانى ، بجانب كونه معجزة في اللغة التي نزل بها ، وهي لغة العرب

وبعن نجد أقواماً لا يستطيع أن تقرأ حرفاً عربياً إلا في المصحف ، ذلك أنهم تعلّموا القراءة من المصحف واعتمدوا على

فَهُمُ الْمَعَانِي الْمَوْجُودَةُ فِيهِ عِبَرُ التَّرَحُّمَاتِ الَّتِي قَامَ بِهَا مُسْلِمُونَ أَحْبَبُوا  
الْقُرْآنَ ، وَنَقَلُوهُ إِلَى اللُّغَاتِ الْآخَرَى .

وَلِذَلِكَ نَجِدُ قَوْلَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ .

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (١٧)﴾ [القمر]

وَهَكَذَا نَعْلَمُ أَنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ قَدْ يَسَّرَ أَمَّ الْقُرْآنِ بِلِسَانِ الْعَرَبِ  
أَوَّلًا ، ثُمَّ يَسَّرَهُ بَأَنَّ جَعَلَ مِنْ تِلْكَ الْأَمَةِ الَّتِي نَزَلَ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ أُمَّةً  
نَشَرَ الْبِلَاقَ عَنْهُ سُبْحَانَهُ ، ذَلِكَ أَنَّ الرِّسَالَاتِ تُرِيدُ تَبْيِيعًا ، وَالتَّبْلِيغُ  
رِسَالَتُهُ الْأَوَّلَى هِيَ الْكَلَامُ ، وَوَسِيلَتُهُ الثَّانِيَةُ الْاسْتِقْبَالِيَّةُ هِيَ الْأَذُنُ ،  
فَلَا بُدَّ مِنَ الْكَلَامِ أَوَّلًا ، ثُمَّ لَا بُدَّ مِنْ أَدْنٍ تَعْرِفُ مَدْلُولَاتِ الْأَلْفَافِ لِتَسْمَعَ  
هَذَا الْكَلَامَ ، وَلِتُطَبِّقَهُ سَلُوكًا .

كَمَا أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّ مَنْ يَسْمَعُ الْمُتَكَلِّمَ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ وَاعِيًا وَعَارِفًا  
بِمَعَانِي الْأَلْفَافِ ، فَمَا تَسْمَعُهُ الْأَذُنُ يَحْكِيهِ اللِّسَانُ

وَعَرَفْنَا أَنَّ اللُّغَةَ بِنْتُ السَّمَاعِ ، وَكُلُّ فَرْدٍ إِنَّمَا يَتَكَلَّمُ بِاللُّغَةِ الَّتِي  
سَمِعَهَا فِي بَيْتِهِ ، وَإِذَا تَتَبَعْتَ سُلْسَلَةَ تَعَلُّمِ كُلِّ الْكَلَامِ سَتَجِدُ نَفْسَكَ  
أَمَامَ الْجَذْرِ الْأَصْلِيِّ الَّذِي تَعَلَّمُ مِنْهُ الْعَشْرُ الْكَلَامَ ، وَهُوَ آدَمُ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ

وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا (١)﴾ (٢٦)﴾ [البقرة]

(١) أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا (٢٦)﴾ [البقرة] فِي  
هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي يَتَعَارَفُ بِهَا النَّاسُ إِنْسَانًا ، وَدَابَّةً ، وَارِضًا ، وَبَحْرًا ، وَسَهْلًا وَجَبَلًا  
وَحِمَارًا ، وَاشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْأُمَمِ وَغَيْرِهَا ، [ نَظَرُ السَّيُوطِيِّ فِي الدَّرِّ الْمَشْهُورِ ١/١٢١ ]

ونعلم أن اللغة بدأت توقيفية حين علمها الله لأدم ، ثم تكلمها آدم فسمعتها بيثته ، فصارت وضعية من بعد ذلك ، وختلفت اللغة من مجتمع إلى آخر .

وهذا قال الحق سبحانه .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ .. (٤)﴾ [إبراهيم]

وجاء بعد ذلك مباشرة بالتعليل

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .. (٤)﴾ [إبراهيم]

وهكذا أوضح جُلَّ وعلا السبب في إرسال كل رسول بلسان قومه ، وهناك آية يقول فيها سبحانه

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) لَفَرَّاهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩)﴾ [الشعراء]

وقال أيضاً

﴿وَنُوحٍ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا فَقَالُوا لَوْلَا فَصَلَتْ آيَاتُهُ الْأَعْجَمِيَّ وَعَرَبِيَّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ<sup>(١)</sup> وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤)﴾ [فصلت]

فهناك مَنْ يستقبل القرآن كتليل هداية ويُنفى نفسه من الكثر ، وهناك مَنْ يستقبل القرآن فيكون عليه عَمًى وعلى سمعه غشاوة وخوف وعدم ارتياح ، ذلك أنه كافر

والسبب - كما نعلم - أن حدوث الحادث من أمر به يحتاج إلى  
فاعل وإلى قابل للفعل

وسبق أن ضمرتُ مثلاً مَنْ يشرب الشاي : فينفخ فيه ليُبرده  
قليلاً ، ونفس هذا الإنسان حين يخرج في صباح شتوى فهو ينفخ  
في يديه ليُدْفئهما ، وهكذا ينفخ مرة ليبرد شيئاً : وينفخ أخرى  
مُسْتَعِياً الدَّاء .

والمسألة ليست في أمر النفخ ، ولكن في استقبال الشاي للهواء  
الخارج من فمك ، الشاي أكثر حرارة من حرارة الجسم فيبرد  
بالنفخ ، بينما اليد في الشتاء تكون أكثر برودة من الجسم ، فتستقبل  
النفخ لها برفع درجة حرارتها لتتساوى مع حرارة الجسم .

وهكذا نجد أن القرآن واحدٌ ، لكن المؤمن يسمعه فيفرح به ،  
والكافر يسمعه فيتعجب ويرهق منه

وسبحانه يقول .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ ذَاَخِرْجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا  
الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنفَا .. (١٦) ﴾

[محمد]

وهكذا نجد مَنْ يستقبل القرآن ، ولا يصباح إلى معانيه ، ونجد  
مَنْ يستمع إلى القرآن فيخشع قلبه وينفعل بالاستجابة لِمَا يُوصَى به  
الحق سبحانه

إنن عرفنا الآن أن اللغة بدأت توقيفية وانتهت اصطلاحية ، فقد  
أخذنا من الله ما علمه لأدم من أسماء ، وتغيّرت الألسن من جماعة

إلى أخرى ، وهكذا اختلفت السنة الرُّسُلُ حَسَبَ القوم المرسلين إليهم .

وكل رسول يُبَيِّنُ للقوم منهج الله ، فإذا بَيَّنَّ هذا المنهج ، استقبله البعض بالإيمان بما جاء به والهداية ، واستقبله البعض الآخر بالكُفْر والضلَّال

فالذى هداه الله استشرف قلبه إلى هذا المنهج ، وأخرج من قلبه أى عقيدة أخرى ، وبحث فيما جاء به الرسول ، وملا قلبه بالمنهج الذى ارتاح له فهماً وطمأنينة

وهو عكس مَنْ تسكن قلبه قضية مخالفة ، ويَصِرُّ عليها ، لا عن قناعة ، ولكن عن عدم قدرة على التمهيط والدراسة والاستشراق . وكان عليه أن يُخْرِجَ القضية المُضلة من قلبه . وإن يبحث ويقارن ويستشف ويَحْسِنُ التدبر ؛ ثم يُدْخِلُ إلى قلبه القضية الأكثر قبولاً ، ولكنه لا يفعل ، عكس مَنْ هداه الله .

ولا يقولن أحد : ما دام قد أضلنا الله فلم يعد بنا ؟ ، ولكن ليعلم كل إنسان أن المشيئة لقابلية الإيمان موجودة ، ولكنه لم يَسْتَدْعِها إلى قلبه

والحق سبحانه يقول

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ.. (١٧)﴾ [محمد]

ويقول

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٧٦)﴾ [البقرة]

أى أن الفسق قد صدر منهم ، لأنهم ملأوا أفئدتهم بقضايا باطلة ، فجاءت قضايا الحق فلم تجد مدخلا .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواصرتها عنها يقول سبحانه ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٤ ﴾

[إبراهيم]

مَنْ يَقْبَلُ عَلَى الضَّلَالِ يَزِيدَهُ اللَّهُ ضَلَالًا ، فَمَنْ يَزِيدُ إِيْمَانَهُ مَلِكُ اللَّهِ شَيْئًا ، وَمَنْ يَوْسُ قَهْرُ يَصْمُنْ لِنَفْسِهِ سَلَامَةَ الْحَيَاةِ وَمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَهُوَ فِي الْحَيَاةِ عِنَصْرٌ خَيْرٌ ، وَهُوَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ يَجِدُ الْحَيَاةَ مَعَ نِعَمِ الْمُنْعَمِ سُبْحَانَهُ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يُغْلَبُ : وَالْحَكِيمِ الَّذِي قَدَّرَ لِكُلِّ أَمْرٍ مَا يَشَاءُ .

ويقول سبحانه من بعد ذلك

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّ اللَّهَ إِت فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥ ﴾

والآيات التى أرسلها الله مع - موسى عليه السلام - والمعجزات التى حدثت معه وبينها وأظهرها لقومه كثيرة ، ورسولنا ﷺ نزل ومعه معجزة واحدة وهى القرآن ، أما بقية المعجزات الحسية التى حدثت مع رسول الله ، فهى قد جاءت لتثبيت قواد المؤمنين برسالته ،

ولم يبقَ لها أثر من بعد ذلك إلا الذكرى النافعة التي ياتس بها  
الصالحون من عباد الله

وكثرة المعجزات التي جاءت مع موسى - عليه السلام - تبين أن  
القوم الذين أرسل لهم قوم لجج<sup>(١)</sup> وجل ، وحيز عُد العلماء  
المعجزات التي جاءت مع موسى وجدها بعض من العلماء تسع آيات ،  
ووجدها غيرهم ثلاث عشرة معجزة ، ووجدها بعض ثلاث أربع  
عشرة .

وفي التحقيق لمعرفة تلك الآيات علينا أن نفرّق بين الآيات التي  
صدرت بالنسبة لفرعون ، والآيات التي جاءت لبني إسرائيل . فالعصا  
التي انقلبت حيّة تسعى ، واليد التي تضيء هي لفرعون ، وعدد  
القرآن الآيات التي جاءت مع موسى لفرعون بتسع آيات . يقول الحق  
سبحانه

﴿ فِي تِسْعَ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۖ ۝ (١٢) ﴾ [النمل]

ولم يكن موسى يطلب من فرعون أن يؤمن ، فهو لم يُرسل  
لهدايته ؛ ولكنه جاء ليُفحصه وليأخذ بني إسرائيل المرسل إليهم ،  
والآيات هي : العصا ووضّع اليد في الجيب لتخرج بيضاء ، ونقص  
الأنفُس والثمرات ، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم . هذه  
هي الآيات التسع الخاصة بفرعون .

أما بقية الآيات التي جاء بها موسى - عليه السلام - لبني  
إسرائيل فهي كثيرة مثل

(١) اللجة والجلجة اختلاط الأصوات واللجة الجلجة والجم القوم إذا صاحوا [ لسان

العرب - مادة لجج ]

(٢) المقصود بالقدم هنا هم قوم فرعون



﴿وَإِذْ تَقَيْنَا<sup>(١)</sup> الْجِبِلَّ فَوَتْهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ .. (١٧١)﴾ [الاعراف]

وايضاً

﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ .. (٥٧)﴾ [البقرة]

وكذلك قوله الحق

﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ<sup>(٢)</sup> وَالسَّلْوَى<sup>(٣)</sup> . (٥٢)﴾ [البقرة]

ولذلك أجمل الحق سبحانه الآيات التي جاءت مع مرسى لقومه :  
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ  
وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ .. (٥)﴾ [إبراهيم]

أى . أعدّ إلى بقرة شعورهم ما كان في الحاشية ؛ وأن يستدعوا  
من الذاكرة أيام الله ، والمرد ما حدث في تلك الأيام ، مثلما نقول  
نحن « يوم بدر » أو « يوم ذي قار » أو « السادس من أكتوبر » أو  
« العاشر من رمضان » .

- 
- (١) نقله رفعه من مكانه وحركه رجديه [ القاموس القويم ٢٥٢/٢ ] .  
(٢) المن . ندى يشبه الغسل كما أن الله ينزله على الأشجار غذاء طيباً يهني [إسرائيل] مجسديوا  
فضل الله عليهم في ذلك [ القاموس القويم ٢٤٠/٢ ]  
(٣) السلوى السمانى . وهو طائر صغير من رتبة الدجاج وجسمه مغطى وغطى من الطيور  
المهاجرة من أوروبا في الشتاء إلى البلاد النافذة كنصر والعودن ويعود ما سلم منه في  
أوائل الصيف إلى موطنه في أوروبا [ القاموس القويم ٢٢٦/١ ]  
(٤) أيام الله نعم الله وأيام الله ولقن الله في الأمم السابقة رجال الطيرى وعظمهم بما  
سلف في الأيام الماضية لهم . أى بما كلن في أيام الله من النعمة والمنة . وقد كانوا  
حبيبا مستغلين . واكتفى بذكر الأيام عنه لأنها كانت معلومة منهم [ تفسير القرطبي  
٦٦٧٨/٥ ]

وهنا في القول الكريم إما أن يكون التذكير بتلك الأيام الخاصة بالوقائع التي حدثت للأقوام السابقين عليهم كقوم نوح وعاد وثمود ، ذلك أن الحق سبحانه قد أعلمهم بقصص الأقوام السابقة عليهم ، وما حدث من كل قوم تجاه إرسال المرسل إليه من الله

أو أن يكون التذكير بالأيام التي أنعم الله فيها على بني إسرائيل بنعمه أو ابتلاهم فيها بما يؤلمهم ، ذلك أن الحق سبحانه قال ﴿ وَذَكَرَهُمْ يَوْمَ بَأْيَامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

[إبراهيم]

والصَّابِرُ هو مَنْ يُكَبِّرُ الصَّبْرَ عَلَى الْأَحْدَاثِ ، وَهُوَ كَلِمَةُ تُوحَى بِأَنَّ هَذِهِ أَحْدَاثًا مُؤَلِّمَةً وَقَعَتْ ، وَتَحْتَاجُ إِلَى الصَّبْرِ عَلَيْهَا ، كَمَا تُوحَى كَلِمَةُ « شَكُورٌ » بِحَوَائِثِ مَنَعَةٍ تَسْتَحِقُّ الشُّكْرَ .

وهكذا نجد أن المؤمن يحتاج إلى أمرين : صَبْرٌ عَلَى مَا يُؤْلَمُ ، وَشُكْرٌ عَلَى مَا يُرْضَى ، وَحِينَ تَجْتَمِعُ هَاتَانِ الصِّفَتَانِ فِي مُؤْمِنٍ ، يَكُونُ مُكْتَمِلَ الْإِيمَانِ <sup>(١)</sup> .

وقد قال الحق سبحانه إِنَّ تِلْكَ الْآيَاتُ هِيَ أَدَلَّةٌ تُوَصِّحُ الطَّرِيقَ أَمَامَ الْمُؤْمِنِ ، وَتُعْطِي لَهُ الْعِبْرَةَ ، لِأَنَّهُ حِينَ يَعْلَمُ تَارِيخَ الْأَقْوَامِ السَّابِقَةِ ، وَيَجِدُ أَنَّ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ قَدْ عَانَى مِنْ بَعْضِ الْأَحْدَاثِ الْمُؤَلِّمَةِ ؛ لَكِنَّهُ نَالَ رِضَا اللَّهِ وَنَعْمَهُ ؛ وَمَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ قَدْ تَمَتَّعَ قَلِيلًا ، ثُمَّ تَلَقَّى نَقْمَةَ اللَّهِ وَغَضَبَهُ

(١) عن مصيب الرومي قال قال رسول الله ﷺ : « عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَهُ كَنَهِ خَيْرٍ ، وَلَيْسَ بِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمَانَتَهُ سِرٌّ شَرٌّ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَبَيْنَ أَمَانَتِهِ ضَرَاءٌ صَبْرٌ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » أخرجه مصنف في صحيحه ( ٢٩٩٩ )

هَذَا يَقُولُ الْمُؤْمِنُ عَلَى تَحْمُلِ مَشَاقِّ الْإِيمَانِ ، لِأَنَّهُ يَتَّقِي فِي أَنْ  
الْحَقِّ سُبْحَانَهُ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ مُؤْمِنٍ ، وَلَا يَدَّ لِمُوكِبِ الْإِيمَانِ أَنْ  
يَنْتَصِرَ ، وَلِذَلِكَ فَالْمُؤْمِنُ يَصْبِرُ عَلَى الصَّحْنِ ، وَيَشْكُرُ عَلَى النِّعَمِ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ  
إِذَا أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ  
وَيَدْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي  
ذَلِكَ كُفٌّ بِلَاءٍ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

وهكذا نجد الحق سبحانه وقد جاء بنموذج من أيام معاناتهم من  
جبروت فرعون ، وكيف خلَّصهم سبحانه من هذا الجبروت ، وكان  
فرعون يُسَلِّطُ عليهم أقسى ألوان العذاب ، ف « سام » الشيء أى  
طلعه ، و « سام » سوء العذاب ، أى طلب العذاب السيء .

وقد ذُبح فرعون أدناءهم الذكور ، ولم يُنَّبِّحْ الإناث لتصبح النساء  
بلا عائل ويستبيحن ، وفي هذا نكابة شديدة

(١) سامه الأمر يسومه سوماً كَلَّمَهُ إِيَّاهُ عَلَى حَيْرِ لِرَادَتِهِ قَالَ لِرَجَاجٍ أَكْثَرَ مَا يَسْتَعْمَلُ فِي  
الْعَذَابِ وَالضَّرِّ وَالظَّمِّ [ لِسَانُ الْعَرَبِ - مائة - صوم ]  
(٢) استحياء استشفاه حياً ولم يفتله قَالَ تَعَالَى ﴿ يُدْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ .  
(٣) [ البقرة ] . أى أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَ الذَّكَورَ فَقَطْ وَيَتْرَكُونَ الْبَنَاتِ وَالنِّسَاءَ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ  
[ التَّائِمِينَ الْقَوْمِ ١/ ٦٨٢ ]

ووقف بعض المستشرقين عند هذه الآية ، وقالوا : لقد تعرض القرآن من قبل لهذه الآية في سورة البقرة ، حين قال

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (٢٤٩) [البقرة]

فهل هذه الآية في سورة إبراهيم هي البليغة . أم الآية التي في سورة البقرة ، خصوصاً وأن الفرق بينهما هو مجيء « الواو » كحرف عطف على نبيح الأبناء باستباحة النساء ؟

وأضاف هذا المستشرق ، وسوف أتنازل عن النظر إلى ما جاء في سورة الأعراف حين قال القرآن .

﴿وَإِذْ أُنَجِّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (١٤٦) [الأعراف]

وبطبيعة الحال ، فهذا المستشرق لم يأخذ فهم القرآن عن ملكة عربية ، ذلك أنه لو كان قد امتلك هذه القدرة على الفهم ، لعرف أن الكلام لم يصدر في الآيات عن مصدر واحد ، بل صدر عن مصدرين .

ففي آية سورة البقرة كان المصدر المتكلم هو الله سبحانه ، ولذلك قال

﴿نَجَّيْنَاكُمْ..﴾ (٢٤٩) [البقرة]

ولكن المصدر المتكلم في سورة إبراهيم هو موسى عليه السلام ، لم يقل أنه هو الذي أنجاهم بل يُعَدُّ النعم التي من الله بها

عليهم ويمتنُ بها عليهم . وعِلَّةُ ذلك أن العظيم حين يمتنُ على غيره لا يمتنُ إلا بالعنائم ، أما دور العظيم فقد يمتنُ بما دور ذلك<sup>(١)</sup> .

وأسوق هذا المثل لمزيد من الإيضاح لا للتشبيه ، سبحانه مُنزَّه عن التشبيه ، وأقول هَبْ أن إنساناً غنياً به أخ رقيق الحال ، وقد يُمد العنى أخاء ابغقير بأشياء كثيرة ، وقد يعتنى بأولاده ، ويقوم برعايته ورعاية أولاده رعاية كاملة . ويأتى ابن الفقير ليقول لابن الغنى لماذا لا تسألون عنا ؟ فيقول ابن الغنى : ألم يأت أبى لك بهذا القلم وتلك البذلة ، بالإضافة إلى الشقة التى تسكنون فيها ؟

ولكن العَمُ لعنى يكتفى بأن يقول أنا أسأل عنكم ، بدليل أنى أحضرت لكم الشقة التى تسكنون فيها إذن . فالكبير حقاً هو الذى يذكر لأمر الكبيرة ، أما الأقل فهو من يُعَدُّ الأشياء .

وهما يَصِفُ الحق سبحانه سُوءَ العذاب وذُبْحَ الابناء بالبلاء العظيم فى قوله تعالى

﴿وَذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (٦)

[إبراهيم]

وهكذا نرى مظهرية الخير التى من الله بها عليهم ، وهى الإنجاء من ذبح الابناء واستباحة النساء ، وكان ذلك نوعاً من مظهرية الشر . وهذا ابتلاء صعب .

(١) قال أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه ، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن . من ٣٧ ، فإن قلت ما الحكمة فى ترك الماطف هذا ، وذكره فى سورة إبراهيم ؟ قلت لأن ما هنا من كلام الله تعالى ، فوقع تفسيراً لما قبله ، وما هناك من كلام موسى وكان مأموراً بتعباد المحى فى قوله ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَنَّهُمْ إِلَهُ﴾ [إبراهيم] . فعُدَّ المحى عليهم ، فحاسب ذكر الماطف .

وسبق أن أوضحنا أن البلاء يكون بالخير أو بالشر ، فقد قال  
سبحانه

﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً رَبَّنَا تُرْجِعُونَ ٧٥﴾ [الأنبياء]

فلا الخير دليل تكريم ، ولا الشر دليل إهانة ، فهو القائل

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ٧٥﴾  
وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ٧٦﴾ [الجم]

فالابتلاء في الأصل هو الامتحان ، إما أن تنجح فيه أو ترسب ،  
ولذلك فهو غير مذموم إلا بالسيئة التي يؤول إليها .

ويقول سبحانه من بعد ذلك .

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ  
وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ٧﴾

ونلاحظ أن الآية تبدأ بكلمة « تأذن » وكل المادة الألف والذال  
والنون مأخوذة من الأذن والآن آلة السماع ، والأذن إعلام ،  
وآذنهم أي أعلمهم .

وتأذن أي أعلم بتوكيد وهكذا يكون معنى الآية أني أعلمكم  
بتوكيد من ربكم أنكم إن شكرتم ليريدنكم من نعمه وعطائه ، لأن

(١) الكفر هنا بمعنى جمود النعمة ، وهو ضد الشكر ورجل كفر جاحد لا يسم الله ويقول  
كفر نعمة الله وبهيمة الله كفراً وكفراً وكفوراً [ لسان العرب - مادة كفر ]

الشكر دليل ارتباب بالوهاب ، وأنكم سلختم أنفسكم من الاعتزاز بما  
أوتيتم ، وعلمتم أنه هو وحده الوهاب

والحق سبحانه هو مَنْ قال

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفُورٌ ۖ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْهَى ۖ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق]

ولو كان الإنسان مربوطاً بالحق سبحانه ، لما فصل الحق عن  
نعمه ، ولظل ذاكراً للحق الذي وهبه النعم

ولذلك أقول دائماً إياك أن تشغلك النعمة عن العُعم ، لأن النعمة  
موهوبة بك ، وليست ذاتية فيك

وتأتى المقابلة من بعد ذلك مباشرة فيقول

﴿ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۖ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

وهنا يثور سؤال هل الذى لا يشكر نعم الله يكون كافراً ؟

وهنا علينا أن نعلم أن هناك فارقاً بين الكفر والكفران ، ولكن  
لفظ الكفر جاء هنا ليغلف من معنى عدم الشكر ، ولم يأت بكلمة  
كُفْران وجاء بقوله

﴿ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۖ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

والمثل فى ذلك هو قول الحق سبحانه

﴿ وَإِلَّا عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ  
غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۖ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران]

وَمَنْ لَمْ يَحْجْ فَهُوَ عَاهٍ ، وكان الله يريد أن يُصعّب عدم القيام

بالحج أو أن الآية تريد حُكْمَيْن : الحكم الأول الإيمان بدرضية  
الحج ، والثاني : القيام بالحج فعلاً .  
ذلك أن الحق سبحانه قد قال .

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا...﴾ [٩٧] [آل عمران]  
فمَنْ يَؤْمِنُ بِأَنَّ هَذَا حُكْمٌ صَحِيحٌ وَاجِبٌ وَيُؤْمِنُ بِهِ وَلَكِنَّهُ  
لَا يُنْقِذُهُ ، قد يدخل في المعصية ؛ لأنه يستطيع أن يحُجَّ ولم يفعل .  
أما مَنْ يَكْفُرُ بِالْحَجِّ نَفْسَهُ وَيَنْكُرُ الْقِصَّةَ كُلَّهَا ، فهو كافر والعياذ بالله  
وهنا يقول الحق سبحانه

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكُمْ لِمَنْ شَكَرْتُمْ لِأَرْيَدُكُمْ وَلَمَّا كَفَرْتُمْ إِنِّي عَذَابِي  
لَشَدِيدٌ﴾ [٧] [إبراهيم]

وهكذا جاء الكفر مقابل الشكر ، ولابد من عذاب للكفر ؛ وعذاب  
الله لابد أن يكون شديداً ؛ لأن العذاب يتناسب بقسوة المعذب .  
ولا أقدر من الله ، ويعوذ به سبحانه من عذابه ، فهو أمر لا يُطَاق  
ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ  
جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [٨]

وقد قال موسى ذلك كي لا يظن ظان من قومه أن الله في حاجة  
إلى شكرهم ، وأنه سيعاقبهم بالعذاب إن كفروا بشكره ، فأراد أن  
يسخّ هذا الظن من أذهان من يسمعون



وأوضح لهم أن الحق سبحانه لن يزيده إيمانكم شيئاً ، ولن  
يضيف هذا الإيمانُ منهم ومعهم أهل الأرض كلهم لملكه شيئاً ، لأن  
ملك الله إنما أبرزه سبحانه بصفات الكمال فيه ، وهو ناشئ عن  
كمال موجود.

ولذلك يأتي قوله الحق

﴿الْقِيَامُ يَكُ مَبْذُورًا ۖ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ  
وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ  
حَاءُ تَهُمُ رُسُلُهُمْ بِاللَّيْنَتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ  
وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ۖ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا  
تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝١﴾

وهذه الآية الكريمة اعطينا تفسيراً لقوله سبحانه .

﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا حَلَالٌ ۖ﴾ (٧٤) ﴿لَهَا نَذِيرٌ﴾

[مائل]

وكذلك قوله سبحانه

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ  
نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۖ﴾ (٧٨) ﴿

[عافر]

ونعلم أن الحق سبحانه قد أوحى لعيسى - عليه السلام - أن

(١) خلا مضي وسبق والقرون الخالية هم العواصم [ لسان العرب - مادة خلا ]

يُلْخِ قَوْمَهُ بِقَصْرِ بَعْضٍ مِنَ الْاَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ عَلَيْهِ وَهَذَا وَاضِحٌ فِي  
قَوْلِهِ الْحَقُّ

﴿ اَلَمْ يَأْتِكُمْ بَآءُ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ نُّوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ .. (٩) ﴾

[إبراهيم]

ويقول سبحانه عن القوم الذين جاءوا من بعد ذلك

﴿ وَالَّذِيْنَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اِنَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ..

(٩) ﴾

[إبراهيم]

أى أن الرسل قد حملوا منهج الله ، وكذلك المعجزات الدالة على  
صدقهم لِمَنْ جَاءُوا من بعد ذلك ، والبيّنات إما أن تكون المعجزات  
الدالة على صدقهم ، أو هي الآيات المُشْتَمِلَةُ على الأحكام الواضحة  
التي تُنظّم حركة حياتهم لِتُسَعِّدَهُمْ

ولكن هل قِيلَتْ تلك الأقوامُ تلك البيّنات ؟

لا ، لأن الحق سبحانه يقول عنهم

﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِىْ أَفْرَاجِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ .. (٩) ﴾

[إبراهيم]

وهكذا نرى أن الكافرين هم مَنْ وَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ عَلَى أَمْوَاهِهِمْ ،  
وإما أنهم عَصَوْا عَلَى الْاَيْدِىِ بِالنَّوَاجِدِ لَانَّهُمْ لَمْ يُطَبِّقُوا تَطْبِيقَ مَنْهَجِ  
الله ، ولم يستطيعوا التَّحَكُّمَ فِىْ أَنْفُسِهِمْ .

أو أنهم رَدُّوا أَيْدِيَهُمْ إِلَى أَمْوَاهِهِمْ بِمَعْنَى أَنْ قَالُوا لِلرَّسْلِ -  
« هَس » ، أَصَمْتُوا وَلَا تَتَكَلَّمُوا بِمَا جِئْتُمْ بِهِ مِنْ بِلَاغٍ ، أو أن  
بعضهم قال للرسل « لا فائدة من كلامكم فى هؤلاء » .

والثراء في القرآن يتحمل كل هذه المعاني ، والآية تتسق فيها كل تلك المعاني . فالعبارة الواحدة في القرآن تكون شاملة لخبرات تناسب كمالات الله ، وتستظل كمالات القرآن موجودة يظهر بعضها لنا ، وقد لا ندرك البعض الآخر إلى أن يُعلمنا بها الله يوم القيامة

ويأتى قولهم

﴿إِن كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ..﴾ (٩)

[إبراهيم]

ليكشف لنا غيبتهم ، فهم يعترفون بأن هؤلاء رسل من السماء ، وفى نفس الوقت يُنكرون المنهج ، ويُعلنون هذا الإنكار ، يكشف لنا ذلك قوله تعالى

﴿وَأَنَّا لَمُنَىٰ شَيْءٍ مَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ (٩)

[إبراهيم]

أى أنهم أعلنوا رأيهم فى المنهج ، وقالوا إنهم مُحيرون ويشكُّون فى هذا المنهج

ويأتى القرآن بردَّ الرسال فى قول الحق سبحانه

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنشَأَ مِنَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (١)

(١) لعل الفطر الشق وفطر الله الخلق بفطرهم خلقهم وبناهم قال ابن عباس ما كتبت أبهى ما فطر السموات والأرض حتى أثنى أمرأيتان يختصمان فى بشر ففان أحدهما أنا فطرتهما أى أن ابتدأت فطرهما . [ لسان العرب - عادة فطر ]

وقوله . ﴿أَفَى اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم] هو لَوْنٌ من الخطاب الذي لا يترك لمن توجه إليه الكلام أن يجيب إلا كما تريد أنت . وأنت لا تفعل ذلك إلا إذا كُتِبَ واثقاً من أن مَنْ تَوَجَّهَ إليه الكلام سيجيب - إن استحضر الحق في ذهنه - كما تريد أنت .

ولذلك لم يأت الخطاب هنا بقوله « لا شك في الله » وبذلك يكون الكلام خبيرياً ، وقد يقول واحد : إن هذا كلام كاذب ، ولكن على الرغم من أن المستمعين من الكفر ، إلا أنه يأتي بالقضية في شكل تساؤل يستأمنهم على أنهم سوف يدبرون الكلام في رؤوسهم ، وسيعثرون على الإجابة التي لا يمكن أن ينكرونها ؛ وهي « ليس في الله شك »

وهكذا نجد أن القائل قد سكت عن إعلانهم الكفر أولاً ؛ وجاء لهم بالتساؤل الذي سيجيبون عليه « ليس في الله شك » ، ويأتي لهم بالدليل الذي لا يحتمل أي شك وهو قوله الحق :

﴿فَاظِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ..﴾ [١٥] [إبراهيم]

والفاطر هو الذي خلق خلقاً على غير مثال سابق ، متلها مثل قوله الحق .

﴿يَلْبِغُ<sup>(١)</sup> السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ..﴾ [١٧] [البقرة]

فلا أحد قادر على أن يخلق مثل السموات والأرض ، وهي مخلوقة على غير مثال سابق . وسبحانه هو مَنْ شاء أن يكون

(١) يبدعه يبدعه أنشاء على غير مثال سابق ويبدع السموات والأرض أي مبدعها ومنصفتها على غير مثال سابق [ القاموس الزويم ١/٥٧ ]

الإنسان سيداً لكل الكائنات المخلوقة ، وإن تكون تلك الكائنات  
مُسَخَّرَةً لخدمته

وقد يتخيل الإنسان أن خلقه أكبر من خلق السماوات والأرض ،  
لذلك يُبَيِّنُهُ الحق سبحانه

﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. ﴾ (٥٧) [عاهد]

ولو نظرت إلى الشمس وسألت نفسك كم من الأجيال قد  
استمتعوا بدفئتها واستفادوا منها ؟ فمن المؤكد أنك لن تعرف عدد  
الأجيال ؛ لأن الشمس مخلوقة من قبل خلق البشر ، وكل إنسان  
يستمتع بالشمس ويستفيد منها عدد سنوات حياته ، ثم يذهب إلى  
الموت .

ونجد المفسر الجليل الفخر الرازي<sup>(١)</sup> يضرب المثل الذي لا يمكن  
أن يُنكره أحد ، ويدلُّ على النقطة في الإيمان ، ويوضح أن الحق  
سبحانه لم يُسهل الإنسان إلى أن يضحَّ عقله ليُشعر بضرورة  
الإيمان ، ويضرب المثل بطفل صغير تسَلُّ ، وضرب شقيقه ، هنا  
لا بد أن يلتفت الشقيق ليكتشف مَنْ الذي ضربه ؛ لأن الإنسان من  
البداية يعلم أن لا شيء يحدث ، لا وله فاعل

وهَبْ أن طفلاً جاء ليجد شقيقه جالساً على كرسي ، وهو يريد

(١) هو محمد بن عمر بن الحسن أبو عباد الإمام المفسر ، أوجد رماته في المعتقل  
والمعتقلين رعيوم الأول ، وهو قرشي النصب ، أصله من طبرستان يقال له - ابن حبيب  
الري - رحل إلى حيدرآباد وما وراء النهر وخراسان وتوفي في هراة عام ٦٠٦ هـ  
( الأعلام للزركلي ٦/ ٢١٢ )

أن يجلس على نفس الكرسي : هنا سيقوم الطفل بشدّ وجنّب أخيه من على الكرسي ليجلس هو ، وكأنه اكتشف بالفطرة أن اثنين لا يمكن أن يستوعبهما حين واحد .

وهكذا يتوصل الإنسان بالفطرة إلى معرفة أن هناك خالقاً أوحده .  
وهكذا نجد قوله الحق .

﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ ﴾ (١٠)

[إبراهيم]

هو الآية الكونية الواسعة

ويأتى من بعد ذلك بالقول

﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ ۖ ﴾ (١١)

[إبراهيم]

وهذا القول يند على الرحمة والحكمة والقدرة والحنان ، وهو هنا يقول

﴿ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ (١٠)

[إبراهيم]

ولم يَقْرُ . يغفر لكم ذنوبكم ، ذلك أنه يخاطب الكفار ، بينما يقول سبحانه حين يخاطب المؤمنين

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١) تُوَفَّقُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يُتَجَاهَدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمُوتُونَ أَمْ وَاللَّهِ يَأْمُرُكُمْ وَأَنْفُسُكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢) يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ ﴾ (١٢)

[الصف]

وهكذا لا يساوى لحق سبحانه في خطابه بين المؤمنين والكافرين

أو ، أن المقصود من قوله

﴿لِيُغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ..﴾ (١٠) [إبراهيم]

هو غفران الكيثر ، ذلك أن صفائر الذنوب إما يغفرها أداء الفرائض والعبادات ، فنحن نعلم أن الرسول ﷺ قال : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغش الكيثر »<sup>(١)</sup> .

ويتابع سبحانه

﴿وَيُخْرِكُمُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى..﴾ (١١) [إبراهيم]

وكلنا نعرف أن الأجل هو للزمن المضروب والمُقَدَّر للحدث وإن شاء الحق سبحانه الإجابة فنجد ما يدل عليه قوله الحق .

﴿فَحَسْبُنَا<sup>(٢)</sup> بِهِ وَبَدَارُهُ الْأَرْضُ ..﴾ (١٢) [القصاص]

كما فعل مع قارون

أو أن قوله ، ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى..﴾ (١٣) [إبراهيم] مقصود به يوم القيامة

ولكن الكفار أهل لَدَدٍ<sup>(٤)</sup> وعناد ، لذلك نجد قولهم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ( ٢٢٢ ) ، وأحمد في مسنده ( ١٨١ / ٢ ) وابن ماجه في سننه ( ١٠٨٦ ) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

(٢) حسب الله الأرض جعلها تهبط وتُقَوِّرُ [ القاموس المجمع ١ / ١٩٤ ]

(٣) اللدّ الحصومة الشديدة الالدّ الشديد الحصومة الجدل. [ لسان العرب - مادة لد ]

﴿قَالُوا إِن أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا  
فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (٦)

[إبراهيم]

وعكذا يعلن أهل الكفر لرسولهم أنهم يُفضلون أن يكونوا أهل تقليد  
للآباء ، ولو أنهم فكروا لعلموا أن التقليد لو شاع في المجتمعات لما  
ارتقى أحدٌ عن آيائه وأجداده ، فالعالم يتطور من تمرُّد جيل على جيل  
سابق ، فلماذا يُصرُّ هؤلاء الكافرون على أن يحتفظوا بتقليد الآباء  
والأجداد ؟

وإذا كان الأبناء يتطورون في كل شيء ، فلماذا يحتفظ هؤلاء  
الكفار بتقليد الآباء في العقائد ؟

ولا يكتفى أهل الكُفْرِ بذلك ، بل يطلبون أن ياتى لهم الرسل  
بسلطان مبين ، والسلطان يُطلق مرّةً على القهر على الفعل ، ويكون  
الفاعل المقهور كارهاً للفعل .

ومرّةً يُطلق على الصّجة التي تُقنع بالفعل ، ويكون الفاعل مُحمّا  
لما يقدّم عليه ، والدين لا يمكن أن ينتشر قهراً ؛ بل لابدُّ أن يُقبل  
الإنسان على ادّين بقلبه ، وذلك لا ياتى قهراً

لذلك نجد القول الحق .

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ..﴾ (٢٥٦)

[البقرة]

رما دام الرُّشد قد ظهر فالإكراه لا مجال له ، لأن الذي يُكره  
على شيء لا يمكن له أن يعتقد ما يُكره عليه

وإذا ما دخل الإنسان الدين فعليّه أن يلتزم بما يُكلف به الدين ،



ولذلك فالإنسان لا يمكن أن يدخل إلى الدين مكرهاً ، بل ، لا بد أن يدخله على بصيرة

ويأتى الحق سبحانه بعد ذلك بما قاله الرسل رداً على قول أهل الكفر

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كُنَّا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١١)

وهكذا أوضح الرسل لأقوامهم نحن بشر مثلكم ، والسلطان الذى يملكه هو المعجزة التى احتصر بها الحق سبحانه كل رسول ، والحق سبحانه هو الذى يتفضل على عباده ، فيختار منهم الرسول المناسب لكل قوم ؛ ويرسل معه المعجزة الدالة على تلك الرسالة ، ويقوم الرسول بتبليغ كل ما يأمر به الله

وكل رسول إنما يفعل ذلك ويقبل عليه بكل الثقة فى أن الحق سبحانه لن يخله وستنصره ، فسبحانه هو القائل

﴿ وَإِنْ جُنَدُوا لَهُمُ الْمَالُوت (١٢٢) ﴾

[نصائات]

ويخبرنا سبحانه بطمانة الرسول ومن معه لحظة أن يرسلهم

(١) يس بنهم ويحسن وفى أسماء الله تعالى العنان المثار أى الذى يدهم غير فاقه بالإنعام وقال ابن الأثير هو المنعم المفضل من العن فى كلامهم بمعنى الإحسان إلى من لا يستغني ولا يطلب الجراء عليه [ ليس العرب - مانه من ]

جِسامَ الأحداث ، وتبلغ قلوبهم الحنجر ، ويشاءون :

﴿مَتَى يَصْرُ اللَّهُ .. (٢١٤)﴾

[البقرة]

فتأتى أخبار نصر الحق سبحانه لرسله السابقين لطمأن  
المؤمنين ، ونجد الحق سبحانه هنا يقول :

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٢١٥)﴾

[ابراهيم]

هكذا اطن كل رسول لمن آمن به من قومه ، فعلى الله وحده  
يتوكل المؤمنون ، ويفوضون كل أمورهم إليه وحده ، صرنا على  
معاينة الكافرين ، وثقة في انه سبحانه ينصر من أبلغوا رسالته  
ومنهجه ، وينصر معهم من آمنوا بالمنهج والرسالة

وينقل لنا الحق سبحانه بقية ما قاله الرسل لأقوامهم

﴿وَمَا لَنَا إِلَّا أَنْتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْ يُفْرِكَ

عَنْ مَاءٍ أَذْيَمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢٤)﴾

ونلاحظ أن الحق سبحانه قد وصف المتوكلين في نهاية الآية  
السابقة بأنهم لمؤمنون ، وهنا يصفهم في نهاية هذه الآية بأنهم  
المتوكلون ، لأن صفة الإيمان تدخل في صفة التوكل ضمناً .

ونعلم أن هناك فارقاً بين التوكل والتوكل ؛ فالتوكل يعنى أن  
تستغنى أسباب الله العمدودة ؛ لأن التوكل عمل القلوب ، بعد أن تؤدى  
الجوارح ما عليها من عمل وأخذ بالأسباب فالجوارح تعمل والقلوب  
هى التى تتوكل

ويأتى لنا الحق سبحانه ببقية الحوار بين الذين كفروا من أهل  
الاقوام السابقة وبين رسلهم ، فيقول .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّسُلُ هُمْ كَمَا خَرَجْنَاكُمْ مِنْ  
أَرْضِنَا أَوْ لَنَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ  
لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٣)

وهكذا نرى أن فاشية الخير حين فُشَّتْ في الناس ، يغضب منها  
المستفيدون من الفساد والذين يعيشون عليه ، ويتجه تفكير المفسدين  
إلى ضرورة إخراج حمائر الخير من الأرض التي يعيش المفسدون  
على الاستفادة من أهلها .

وإِنْ عَزَّتْ الْأَرْضُ عَلَى حِمَائِرِ الْخَيْرِ ، فعليهم أن يعلنوا عودتهم  
إلى ديانة الكافرين . ولا يقال عُدْتُ إِلَى الشَّيْءِ إِلَّا إِذَا كُنْتُ فِي  
الشَّيْءِ ثم خرجت عنه وَعُدْتُ إِلَيْهِ

وهل كان الرسل الذين يُهَدِّدُهُمْ أهل الكفر بالإخراج من البلاد ،  
يقبلون العودة إلى ديانة الكفر ؟

طبعاً لا ، ولذلك نفهم من قوله تعالى

﴿ أَوْ لَنَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا .. ﴾ (١٣)

[إبراهيم]

بمعنى « أو لتصيرن في ملتنا » .

ولم يقبل الرسل تلك المصاومة ، ذلك أن الحق سبحانه وتعالى  
يُنْزِلُ جنود القنبيط والطمانينة والسكينة على قلوب رُسُلِهِ والمؤمنين ،

(١) لقطة الشريعة والدين والملتة الذين حقاً كان أو باطلاً [اللاموس القويم ٢/ ٢٢٦] .

فلا متأثر للرسول وَمَنْ مَعَهُمْ يَمُوتُ هَذَا الْكَلَامُ

وهذا ما يُعْبَرُ عَنْهُ قَوْلُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ فِي آخِرِ الْآيَةِ .

﴿فَأَرْحَمَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٧)

[إبراهيم]

وهكذا يَأْتِي الْقَانُونُ السَّمَاوِيُّ بِالْعَدْلِ وَهُوَ إِهْلَاكُ الظَّالِمِينَ ، وَتِلْكَ

قَضِيَّةٌ إِيْمَانِيَّةٌ بَاقِيَةٌ وَدَائِمَةٌ أَبَدًا

وَيَكْمُلُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَعَدَهُ لِرَسُولِهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

﴿وَلَنُنْشِئَنَّكُمْ أَزْوَاجًا مِّنْ بَعْدِهِمْ  
ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ (١٨)

وهنا يؤكد لِحَقِّ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَنْ يَنْتَبِذَ عَلَى الْإِيْمَانِ ، وَيَخَافُ مَقَامَ

الْحَقِّ سُبْحَانَهُ ، وَيُخْشِئُ يَوْمَ الْعَرْضِ عَلَى الْحَقِّ وَيَوْمَ الْحِسَابِ ، وَلَمْ

يُنْكَصْ " عَنْ مَنْهَجِ دَعْوَةِ الْحَقِّ ، سَيُورِثُهُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ أَرْضَ مَنْ كَفَرَ

بِالله ، فَتِلْكَ سُنَّةُ اللَّهِ ، لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ

﴿وَأَوْزَعَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْثُورُوهَا ..﴾ (٢٧)

[الأحراب]

وَنَعْلَمُ أَنَّ مَنْ يَخَافُ اللَّهَ وَيُخْشِئُ وَيُؤْمِنُ أَنَّهُ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ ،

فَسُبْحَانَهُ يَحْزِي مَنْ يَعِيشُ حَسَاتِهِ فِي صَوْنِ الْإِيْمَانِ بِأَن يُوْرِثَهُ أَرْضَ

مَنْ كَفَرَ ، وَقَدْ قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ لِرَسُولِهِ

(١) الْتُكُومُ الْإِحْجَامُ وَتُكُوسُ عَلَى عَقِيْبِهِ رَجَعَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَيْرِ وَالْتُكُوسُ

الرجوع إلى وراء [لسان العرب - مادة ت ك س]

﴿وَلَوْ رَتَّبْنَاهُ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ..﴾ (١٢٧) [الأعراف]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (١٢٨)

و. استفتح « تعنى طلب الفتح ، وهناك فتح ، واستفتح وكلمة « فتح » تدل على أن شيئاً مُغْلَقاً ينفتح ، ومرة يكون المقصود بالكلمة أمراً حسيّاً ، وأحياناً يكون الأمر معنويّاً ، ومرة ثالثة يكون الفتح بمعنى الفصل والحكم

والمثل على الأمر الحسى قول الحق سبحانه -

﴿وَلَمَّا فَصَحَّارَهُمْ وَجَدُوا بِضَافَتِهِمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ..﴾ (١٢٩) [يوسف]

ومرة يكون الفتح معنويّاً ، وبمعنى سابقة الحير والعلم ، كقول الحق سبحانه

﴿وَإِذَا خَلَا بِمَعْشُرِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ..﴾ (١٣٠) [الأنعام]

(١) استفتحوا استنصرو أي إلى اللبس في الاستفتاح على قومهم ، والدعاء بهلاكهم [تفسير القرطبي ٢٦٨٦/٥]  
(٢) قال القرطبي في تفسيره ( ٢٦٨٧/٥ ) الجبار والعنيد في الآية بمعنى واحد ، وإن كان اللفظ مختلفاً ، وكل متناع عن الحق جبار وعنيد أي متكبر .

وكذلك قول الحق سبحانه

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُوَسَّلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ .. (٢) ﴾  
[ماحر]

أما المثل على الفتح بمعنى الفصل في الأمر ، فالمثل هو قول الحق سبحانه

﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ رِبِّهِ فَوَعْنَا بِالنَّحْقِ وَأَنْتَ حَيُّرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) ﴾  
[الأعراف]

وهكذا نجد للفتح معاني متعددة ، وكلها تدور حول المغاليق وهي تَفْضُ ، ويطلق الفتح آخر الأمر على البصر ، والمثل هو قول الحق سبحانه

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) ﴾  
[النصر]

وهنا يقول الحق سبحانه

﴿ وَاسْتَغْنُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) ﴾  
[إبراهيم]

وهم طلبوا الفتح بمعنى طلبوا النصر ، وكانت تلك خيبة من الكفار ، فهم طلبوا الفتح أي النصر ، وهم قد فعلوا ذلك مظنة أن عندهم ما ينصرهم .

وكيف ينصرهم الله وهم كافرون ؟

لذلك يُحْيِي الله غنهم ويحكم عليهم بمصير كل مَنْ عاش جبّاراً في الأرض ، متكبراً عن عبادة ربه .

ويقول سبحانه .

﴿وَحَآبِ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِدٍ ﴿١٥﴾﴾ [إبراهيم]

والجبار هو مَنْ يَقهر الناس على ما يريد ، والمقصود هنا هم الْمُتَكَبِّرُونَ عن عبادة الحق سبحانه وتعالى ، ويعاندون في مسألة الإيمان به سبحانه

وماذا ينتظرهم من بعد ذلك ؟

يقول الحق سبحانه .

﴿مِنْ وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَٰدِيٓقٍ ﴿١٦﴾﴾

أى من خلف الجبر السُّمَّتَتْ بالكفر جهنم ، وما فيها من عذاب . وفى العامية نسمع مَنْ يَتَوَعَّدْ أَخْرَ ويقول له « وراك . وراك » ويعنى بذلك أنه سيوقع به أدنى لم يَأْتِ أوانه بَعْدَ .

وكلمة « وراء » فى اللغة لها استخدامات متعددة ، مرة تاتى بمعنى « بَعْدَ » والمثل فى قوله تعالى عن امرأة إبراهيم عليه السلام

﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَالِمَةٌ فَصَحَّكَتُ<sup>(١)</sup> فَفَشَّرْتَاهَا بِأَسْحَاقَ وَمِنْ وَرَآءِ سَحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧٦﴾﴾ [هود]

(١) أى شجيت من الضيق الذى جاورا باليسرى وقيل كانت لا تحيض فحاضت ونى اللغة ضحك المرأة أى حاضت والراغب فى المفردات أنكر هذا التفسير وأرجع أن قوله تعالى « ضحك » معناه سُرَّتْ كثيراً [ القاموس المفيد ٢٩ / ١ ]

أى جاء يعقوب من بعد إسحق

ومرة تُطلق « وراء » بمعنى « غير » مثل قول الحق سبحانه

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفْرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ أَتَعْنَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ [المؤمنون]

ومنا يقول الحق سبحانه .

﴿مَنْ وَرَاءَهُ جَهَنَّمُ.. ﴿١٦﴾﴾ [إبراهيم]

ويعلم أن جهنم ستأتى مستقبلاً ، أى ، أنها أمامه ، ولكنها تنتظره ، وتلاحقه

ويتابع الحق سبحانه

﴿وَيُخْفَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ [إبراهيم]

والصدید هو الماء الرقيق الذى يخرج من الجرح ، وهو القئح الذى يسيل من أجساد أهل النار حين تشوى جلودهم

ولذا أن نتصورَ حجم الألم حين يحتاج أحدهم أن يشرب ؛ فيقدم له الصيد الفاتح من حرق جلده وجلود أمثاله . والصيد أمر يُنافى من رؤيته ، فما بالنا وهو يشربه ، والعياذ بالله .

ويقول الحق سبحانه متابعاً لما ينتظر الواحد من هؤلاء حين يشرب اصدید



﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ  
الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمَنْ  
وَرَأَيْهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ (١٧)

ويتجرعه أى . يأخذه جرعة جرعة . ومن فرط مرارته لا تكون  
له سهولة تُسْفَخُ ، فيكاد يقف فى الحلق ، والإنسان لا يأخذ الشيء  
جرعة جرعة إلا إذا كان لا يقدر على استمرار الجرعة ، ولكن هذا  
المشروب من الصديد لا يكاد يستسيغه مَنْ يتجرعه . ويقال  
استسغ الشيء أى . ابتلعه بسهولة

وقوله سبحانه .

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ..﴾ (١٧) [إبراهيم]

أى . لا يكاد يبلعه بسهولة فطعمه وشكله غير مقبولين

ويتابع سبحانه

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ..﴾ (١٧) [إبراهيم]

أى . ينظر حوله فيجد الموت يحيط به من كل اتجاه ، لكنه لا  
يموت ، ويفكجا بأن العذاب يحيط به من كل اتجاه مُصَدِّقًا لقول الحق  
سبحانه .

(١) تجرعه . بلعه فى تكلف وتكره [ الفيلوسوف القديم ١٢٠/١ وقال القرطبي فى تفسيره

( ٢٦٨٩/٥ ) . أى . يتحساه جرعا لا مرة واحدة لمرارته وحرارته .

(٢) ساع الشراب فى الحلق إذا كل سلسا سهلا [ لسان العرب - مادة - سوغ ]

﴿رَمَن وَّرَاثَهُ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧)﴾

[إبراهيم]

هكذا يتعذب الجبار للمتعب في أمر الإيمان . وإذا فسدت العذاب الغليظ بأهون عذاب يلقاه إنسان من النار لوجدنا أنه عذاب فوق الاحتمال ، فيها هو وَيَقُولُ : « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجل يُوضَعُ في أَحْمَص<sup>(١)</sup> قدميه جمرتان يلقى منهما دماغه »<sup>(٢)</sup> .

فما بالنا بالعذاب الغليظ . وقانا الله وإياكم شره ؟

ويقول سبحانه من بعد ذلك قضية كونية

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ  
أَسْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ  
مِنَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَاحُ الْبَعِيدُ﴾ (١٨)

وقد يأتي في أنهان البعض ما يشوه عقائد الإيمان . فيقول كيف يدخل فلان النار وهو من أهدى العشرة تلك المخترعات الهائلة التي غيرت مسارات الحضارة . وأسعدت الناس ؟ كيف يُعَذَّبُ الله هؤلاء الذين بذلوا الجهد ليطوروا من العلوم والفنون ، ليعذبهم لمجرد أنهم كفار ؟

(١) الأحمص : باطن القدم وما رق من أسفلها وتجاوى من الأرض [ لسان العرب - مادة حمص ] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البيهقي في صحيحه ( ٦٥٦١ ) ، وكذا مسلم في صحيحه ( ٢١٣ ) من حديث العثمان بن بشير رضي الله عنه

وأقول : نعم ، يعذبهم الله على الرغم من أنه سبحانه لا يصيب عتده أجرٌ من أحسن عملاً ، وهو قادر على أن يجزيهم في الدنيا بما ينالونه من مجد وشهرة وثروة ، وهم قد عملوا من أجل ذلك وانطبق عليه قوله : « عملت ليُقَال وقد قيل »<sup>(١)</sup> وأخذوا أجورهم مما عملوا لهم ، ذلك أنهم عملوا ولم يكن في بالهم الله .

وهكذا يصور القرآن مسألة الجزاء ، فالواحد من هؤلاء الكفار إذ كان يلقى العذاب الغليظ على الكفر ، فالحق لا يغمطه<sup>(٢)</sup> أجر ما فعل من خير ؛ فينال ذلك في الدنيا ويستمتع بإطلاق اسمه على اختراعه أو اكتشافه .

ونعلم جميعاً قوله ﷺ : « مَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ »<sup>(٣)</sup> أما في الآخرة فالعذاب جزاؤه ، لأنه عاش كافراً بالله .

وهذه الأعمال التي صنعوها في الدنيا ، وظنوا أنها أعمال إنسانية وأعمال برٍّ تأتي يوم القيامة وهي رماد تهبُّ عليه الريح الشديدة في يوم عاصف لتذره بعيداً

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الْعَذَابُ الْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم]

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ( ١٩٥ ) ، وأحمد في مسنده ( ٣٢٢/٢ ) والسنن في سننه ( ٢٤/١ ، ٢٤/٢ ) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقد شرحه فضيلة الشيخ الشعراوي في كتاب : الأحاديث القسيبة ( ١٣٥/١ - ١٠١ ) بتحقيق

(٢) غلط الحق : جده ، واللفظ كقرآن النعمة وسترها [ لسان العرب : مادة غط ]

(٣) حديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه ( ١ ) ، وكذا مسلم في صحيحه ( ١٩٠٧ ) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأوله : إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى .

ولن تكون لديهم عندئذ فرصة لاستئناف الحياة لاستفيدوا من التجربة ، بل أمامهم وحولهم العذاب ، سان حال كل منهم يقول

﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا .. (١٠٠) ﴾ [الزمر]

لكنه لو رُدُّ إلى الحياة لَعَد إلى ما نُهي عنه ، مُصَدِّقًا لقول الحق سبحانه

﴿ وَلَقَدْ رُودَّتْ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦) ﴾ [الكهف]

وهذا انكسر هو الضلال البعيد الذي جعل كل أعمالهم التي ظنوا أنها صالحة ، مجرد أعمال مُحَنطة ، فضلوا بالكفر عن الطريق المُوصِّل إلى خير الآخرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَئُوسَ  
يَذْهَبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) ﴾

وسبحانه يُعلمنا هنا أنه خلق السماوات والارض بعيزان الحق ، فلا تأتي السماء وتنطبق على الأرض ، فسبحانه القائل

﴿ يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ .. (١٥) ﴾ [الحج]

وأت كلمنا سرَّت وجِدَّت الشمس من فوقك ، وهي مرفوعة بنظام هندسي دقيق .

وهكذا أورد الحق سبحانه أن يؤكد قضية كونية مُحَصَّنة مشهودة ،  
وبدأ بقوله

﴿ أَلَمْ تَرَ .. ﴾ (١٩) [إبراهيم]

رغم أنه لا يوحد مع العين آيين ، ذلك أن الشمس واضحة أمام  
كُلِّ البشر ، وهكذا يجد أن معنى « ألم تر » هنا تكوّن بمعنى « ألم  
تعلم »

وجاء سبحانه بـ ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ هنا ليدلنا على أن ما يُعلمنا الله به  
من حَقٍّ أصدق مما تُعلمنا به العين ، فلما قال سبحانه ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾  
فهو تعنى ألم تعلم علماً مُؤَكِّداً ؛ لأن عيبك ربما تخونك في  
الرؤيا أو تخدعك بالإبصار ، ولكن إذا قال لك الله ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾  
فاعلم أنه علم موثوق به

وحين يلتفتا الحق سبحانه هنا إلى رؤية السماوات والأرض ،  
فكان لا بُدَّ لنا أن نعلم أنها لم تُكُنْ لثُجود إلا بخلق الله لها ؛ وهو  
الذي أخبرنا أنها من خلقه ؛ ولم يدعها أحد لنفسه ، وبذلك تثبت له  
قضية خلقها إلى أن يقول آخر أنه خلقها ، ولم يقل لنا أحد ذلك  
أبداً

وسبق أن قال سبحانه ،

﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. ﴾ (٥٧) [غافر]

والبشر كما نعلم لا يعيش فرد منهم مثلاً تعيش السماء ، فالعرد  
يموت ويُولد غيره ، وكُلُّ البشر ياتون ويذهبون ، والشمس باقية ،  
وكذلك الأرض

ومن عجيب الخلق الرحمانى ان الله خلق كل ذلك تسخييراً لامر  
الإنسان ، فلا يشذ كائن من تلك المَسْخَرَاتِ عن أمر الإنسان  
وما طَلِبَ منك أيُّها الإنسان تكليفاً أنت مُخَيَّر فيه إن شئتَ أمنتَ ، وإن  
شئتَ كفرتَ ، وإن شئتَ أطعتَ ، وإن شئتَ عصيتَ .

ولكن المخلوق المُسَخَّر لخدمتك ليست له هذه المشيئة وهو  
سبحانه الحق للقاتل .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا  
وَأَشْفَقْنَ ﴾<sup>(١)</sup> منها وحملها الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴿

[الأحزاب]

وقد أعلمنا هذا القول الكريم بأن الرحمانية سبقت لنا نحن البشر  
من قبل خلقنا ، وأقدمتنا رحمانية الله على وجود مهيا لنا

ومن العجيب أن الكون المخلوق لنا استبقاؤه لحياتنا واستبقاؤه  
لنوعنا يتركز في أشياء لا ندخل لنا فيها ، ولا تتغير أبداً ؛ وهي  
الأشياء العليا كالشمس والقمر والأرض .

وهناك أشياء أخرى يكون التغيير فيها على نوعين قسم يتغير  
ويأتى بدلاً منه شيء جديد ، كالنبات الذى يذهب ويصير حميداً ،  
وكذلك الحيوانات التى تأكلها أو التى تموت .

وهناك خلق يتغير مع إبقاء عناصره ، وإن تغيرت مادته ،  
كالمعادن التى نراها - الجبال والأرض وعناصرها - ونكتشف منها  
كل يوم جديداً

(١) أشفقن منها : خفقن من حمل الأمانة ، ومن نتائج عدم الوفاء بحقوقها [ القاموس القويم

إذن فالمخلوقات التي استقبلت الوجود الإنساني نوعان نوع لا تدخل للأغيار فيها ؛ ونوع آخر فيه تدخل للأغيار مع بقاء مادتها وهي الجمادات ؛ ونوع تتغير أنواعه وأجناسه .

كُلُّ هذه الأشياء تدلُّنا على أن الحق سبحانه وتعالى له صفتان صفة القدرة والقهر ، وهو سبحانه يقهر ما يشاء على ما يشاء ، ولا يتغير .

وصفة الاختيار التي أوجدها في الإنسان .

وانت صفة القدرة التي سخر بها سبحانه الأشياء لخدمة الإنسان مُطلق سلطانَه سبحانه على كُلِّ ما خلق ، فلا شيء يخرج عن مراده أبداً

وأراد سبحانه بصفة الاختيار التي وهبها للإنسان أن ياتيه عبده الإنسان محباً متبعاً لتكاليف الإيمان ، فالذي يطيع الله وهو قادر على أن يعصيه إنما يدلُّ بذلك على أنه مُحِبُّ لله ؛ ويثبت له صفة المحبوبة

ومنا يقول الحق سبحانه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ ﴾ [إبراهيم]

ومنا أن نلاحظ أن كلمة « بالحق » وردت في مواقع كثيرة من القرآن الكريم .

وعلى سبيل المثال ، نجد في القرآن الكريم قوله تعالى

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ﴾ [الحجر]

وقوله تعالى :

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ<sup>(١)</sup>﴾ [السخا]

وهذا يدل على أن السماوات والأرض مخلوقة على هيئة ثابتة ، وقد جعل ذلك مدارس الفلسفة تستقبل تلك القضية استقباليين ، استقبال من يريد أن يؤمن ، واستقبال من يريد أن يكفر ، وانقسم من أرادوا الكفر إلى فريقين .

الفريق الأول أخذ من ثبات قوانين الشمس والقمر والأرض دليلاً على أنه لا يوجد خالق لهذا الكون ، وقالوا لو أن هناك خالفاً له لغير من هيئة السماوات والأرض ، ولكن كل من تلك الكواكب تدير نفسها بألية ذاتية مُحَكِّمة

والفريق الثاني ممن أرادوا الكفر قال إن الشذوذ في الكون ووجود خلل وعيوب خلقية في بعض من المخلوقات والأنواع ، دليل على أنه لا يوجد إله ، فكيف يخلق إله مخلوقاً أعشى ؛ وأحر أعرج ، وثالثاً بعين واحدة ؟

وهكذا أخذ هذا الفريق من أهل الكفر وجود الشذوذ في الكون كدليل على عدم وجود إله

ومن العجيب أن الفريق الذي أراد التفسير في هيئة السماوات والأرض ، أراد ذلك كدليل على وجود خالق ، والفريق الذي رأى أن هناك شذوذاً في بعض المخلوقات أخذ ثبات الخلق على هيئة واحدة كدليل على وجود إله

(١) لعب عمل محلاً لا يُجدى عليه نفعا لا عبثون هابثون غير جابرين [ القاموس القويم



كل ذلك يدلُّنا على أن الفريقين قد أخذًا من قصيتين متعارضتين دليلاً على الكفر ، ولم يتفق الفريقان على قضية واحدة ، وهذا يوضح التناقض بينهما

ولو أمعن كل من الفريقين النظر لعلم كل منهما أن الإيمان ضرورة أساسية لفهم هذا الكون على ثبات ما فيه ، وعلى وجود بعض من الشذوذ فيه

بانت يا مَنْ تنتظر ثباتاً في الأكوان خُذْ ثبات الية الحركة في السماوات والأرض والشمس والقمر دليلاً على الإيمان بوجود خالق إله قادر .

وأنت يا مَنْ تأخذ التعيُّر في الخلق دليلاً على وجود خالق ، فه أنت ترى اختلاف بعض المخلوقات ما يجعلك تعثر على عدم التماثل في المخلوقات دليلاً على وجود إله خالق به علاقة القدرة

وأوضح الحق سبحانه لنا أنه لم يخلق لسموات والأرض لعبة ، بل خلقهم بالحق ، وهناك فارق بين اللعبة والحق ، فاللعبة قد تتوصل إليها مَنْ يعبت بشيء : فتخرج له صدفة يستحسنها هو أو غيره كلعبة

يقول الحق

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِأَمْرِ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [٢] ﴿ [عجل]

أما الخلق بالحق ، فهذا يعنى أن مَنْ يخلقها إنما يفعل ذلك بموازين دقيقة مُحكمة ، ويصنعها على نظام ثابت له قضية تحكمه من الحكمة والحق

وما دام الكون الأعلى ثابتاً ، فإن الحق سبحانه هو الذى خلق

السموات والأرض ، وما دُمَّتْ تريد ثباتاً في حركتك الاختيارية ؛  
فخذ المنهج الذي أنزله الله بالحق ، تثبت قضايك كما تثبت القضايا  
العليا ، وأنت حين تخرج عن منهج الحق تجد فساداً .

وإذا أردتَ ألا يوجد فساد في المجتمع من أي لَوْنٍ فابحث عن  
حكم الله الذي صيغه الإنسان في مخالفة منهجه تجد أن صياغه هو  
المسبب في وجود الفساد ، واقرأ قوله الحق في سورة الرحمن

﴿ اِرْحَمْنِ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)  
الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا  
وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ (٩) وَلَا  
تَخْسَرُوا الْمِيزَانَ (١٠) ﴾ [الرحمن]

ومكذا أنت ترى الشمس - على سبيل المثال - منضبطة في  
شروقها وغروبها وكسوفها ، وكذلك القمر في سطوعه أو محاقه<sup>(١)</sup> أو  
خسوفه

وكما رفع الحق سبحانه السماء ووضع الميزان ، فعليكم أن  
تزنوا كل أمر بالميزان الصحيح لتتصلح أموركم فإن اعتدال  
الموازين المادية والمعنوية والقيمية هي استقرار لحركة الحياة

أما إن ظلمتم على أبجج فاعلموا أنه سبحانه قادر على أن يذهبكم  
وإن يأتى بخلق جديد

(١) البيان : المطلق المعبر عما في النفس من معان وأفكار [ القاموس التوحيدي ١٢٢/١ ]

(٢) القسط العدل والقسط عقل وإزالة الظلم والجور والقسطاس الميزان والعدل  
[ القاموس التوحيدي ١١٦/٢ ]

(٣) المشرق : أشرق الشهر إذا أشرق الهلال فلم يدر وقال ابن الأعرابي سُمِّيَ المحاق محاقاً  
لأن طلع مع الشمس فمحفته فلم يدر أحد [ لسان العرب - مادة محل ]

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٩) [إبراهيم]

إن منطوق الآية ومفهومها ليس مراده سبحانه ، لأن الله خلق الخلق ،  
روهبهم الاختيار ليُقبل الخلق على الله ، رغم أنه سبحانه قد ملكهم ألا  
يُقبلوا عليه

وفي موقع آخر يقول سبحانه

﴿هَاسِتُمْ هَاسِتًا تَدْعُونَ لِتُقْبَلَ لِي سَبِيلَ اللَّهِ هَمَّكُمْ مَنْ يَخْلُ وَمَنْ  
يَخْلُ فَإِنَّا يَخْلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْعَسَى وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَكُونُوا يَسْتَبْدِلُ قَوْمًا  
عَوْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (٣٨) [محمد]

ويقول في قضية إنكار اليهود لطريقة ميلاد المسيح عيسى بن

مريم

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧) وقالوا ألهها  
خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ  
أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً  
فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ (٦١) [الرحمن]

إذن فطلاقه قدرة الله التي خلقته بلا أب ، يمكن أن تفهم تلك القدرة  
المطلقة ما تشاء ، فلا شيء يتأبى على مرادات الحق ولا على قدراته

ويقول في موقع آخر .

﴿فَلَا أَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا نَقَادِرُونَ﴾ (٤) على أن يُبدل  
خيراً منهم وما نحن بمسبوقين (٤١) [المعارج]

فلا أحد يسبق إرادة الله أو مشيئته .

ويقول الحق سبحانه مؤكداً أن قدرته على المعجزة بخلق جديد

ليست مسألة مستحيلة

## ﴿ وَمَا ذَلِك عَلَى اللَّهِ يَعْزِيزُ ﴾

والشيء العزيز هو الشيء الممتنع والله سبحانه لا يُغَلَب وقد  
بيّن لنا في جزئيات الحياة أنه يذهب بنباتات ويأتى بنبات آخر ،  
ويذهب بحيوان ويأتى بحيوان آخر ، وكذلك يذهب بالجماعة من  
البشر ويأتى بغيرهم

ويقول سبحانه بعد ذلك

﴿ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الصُّعْفَتَانِ لِلَّذِينَ اسْتَكَبرُوا  
إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا هَلْ أَنشَئُمُ مَّغْنُونًا مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ  
مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدً يَّتَّكِمُ بِهِ سَوَاءٌ عَلَيْنَا  
أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبْرًا مَّا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴾

والبروز أن يظهر شيء كان خفياً ويقال « رجل بارز » أى  
مرموق وفيد الابصار ، ولا تُفتح الدنيا إلا عليه ، ويقال « امرأة  
برزة » أى امرأة تختلط بالرجال وغير مُستقرة

(١) الجرع : نفيس السبر ، وهو ضعف النفس من احتمال المكروه [ القاموس القريم

[ ١٣٢/١ ]

(٢) المحيص : المهرب والمفرّ والمحايسة ، مفاعلة ، من الحصن العتول والهروب من الشيء

لعلى العرب حاده حيص ]

ويقرل سبحانه

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً.. (٤٧)﴾ [الكود]

أى سبرى كلُّ منا كلُّ الارض فى اليوم الآخر وهى مكتملة ،  
لا جزء منها فقط كما يحدث فى حياتنا الدنيوية ، ذلك أن الحق  
سبحانه قد قال لنا

﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٧٢)﴾ [ق]

ويُقار أيضاً « فرس بارز » وهو ما يطلق على الحصان الذى  
يقوز عند التسابق مع غيره ، ولا يستطيع فرس آخر أن يسفقه ،  
لذلك فهو فرس تراه العين أثناء السباق بوضوح .

ونعلم أن الخيل فى لحظات السباق تثير أثناء تسابقها غباراً -  
أى تراباً يُصَيَّب الموثبات - فلا يرى أحد تفاصيل الموقع الذى  
تحرى فيه الحيرل ، أما إذا ظهر فرس يسبق الجميع فلا خيون أخرى  
قريبة منه تثير غباراً يمنع رؤيته بارزاً واضحاً

وهنا يقول الحق سبحانه

﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا.. (٢١)﴾ [إبراهيم]

ولقائل أن يسأل وهل كانت هناك أشياء خافية عنه سبحانه ثم  
برزت ؟

ونقول إنه سبحانه مُرَّه أن تَحْفَى عنه خاصية فى الأرض  
أو للسماء أو الكون كله ، ولكن المقصود هنا أنهم يبرزون عند  
أنفسهم ، ويرون وجودهم واضحاً أمام الحق سبحانه .

وهم من قُلِّ كانوا

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ (١٨) ﴿[النساء]

وكانوا قد ظنُّوا أنهم قادرون على أن يخفوا عن ربهم ما كانوا يفعلون ، وَيُبيِّنُونَ ويمكرون ، ولجدهم يوم القيامة مفضوحين أمام خالقهم ، حُكِّمهم في ذلك حُكْم كل الخلق .

أو - برز كل واحد منهم أمام نفسه ، ورأى نفسه أمام الله

ونعلم أنه سبحانه قد خلق الخلق على لونين ؛ لونٍ مقهورٍ فيه الإنسان ، ولا إرادة له ، وَلَوْ مُخَيَّرَ فيه الإنسان ، ونسبة ما منح فيه الإنسان الاختيار قليل ، إذا ما قيس بما ليس له فيه اختيار .

وقد شاء الحق سبحانه ذلك ، لأنه علم أولاً أن الإنسان الذي تعود على أن يتمرد على الله ، فهو يوضح له أنت قد ألقت التمرد وقول ، لا ، . وقد تجاهر بالكفر ، وتحارب من أجله ، وتريد أن تخرج عن مرادات الحق ، فإن كنت صادقاً في أن هذا الخروج ناتٍ فيك ؛ فتمرد على القهريات التي تنتابك

ويعلم الإنسان بالتجربة أنه غير قادر على ذلك ، فلا الفقير يستطيع أن يثري دون مشيئة الله ، والمريض لا يستطيع أن يشفى دون مشيئة الله والضعيف لا يستطيع أن يقوى ضد إرادة الله

وكل هذا يدل على أن ملكية الله لك لا تزال بالقهر فيك ، وسيأتي يوم يسلب منك الاختيار

﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٢٦)﴾ [عامر]

وأتت تبرر بكل تكويك بحظتها امام نفسك ، وتجد الحق سبحانه امامك . وأتت إما أن تكون بارزاً بكل تكويباتك أمام نفسك لحظة وقوفك أمام خالفك ، أو يكون المقصود بقوله الحق وقوف كل الحق أمام بارزين ، سواء أكانوا تابعين أو متبوعين

ولحظتها سجد قوله الحق مطبقاً

﴿قَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا.. (٢٦)﴾ [إبراهيم]

وهكذا يرى أن هناك حواراً بين اثنين من البشر ، نوع مستكبر ، وهم ائقادة السادة الذين يُلقون أوامرهم ، ليُنقذها الضعاف ، ثم يُفاحا الضعاف التابعون أن رؤوسهم تساوت في اليوم الآخر مع هؤلاء الأقوياء الجديرة ، ويرون ما ينتظرهم جميعاً من عذاب ، فيسال الضعاف أهل الجبروت

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ (٢٦)﴾ [إبراهيم]

وهؤلاء المستكبرون سبق لهم أن استكبروا على هؤلاء الضعاف بما لهم من قوة وسيادة ، أو استكبروا على الرسل إيماناً كما أوضح الحق سبحانه في موقع آخر من القرآن

﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِثَيْنِ عَظِيمٍ (٢٦)﴾ [الحرف]

وفي هذا القول استكباراً على الإيمان ، وكأنهم يُعدّلون على الله - والعياذ بالله - مشيئته وواسع علمه الذي يختار به الرسل

أو أنهم قد استكبروا على أنفسهم فلم يؤمنوا ، أو أنهم قد استكبروا على الاتباع بما لهم من جاه ونفوذ فلم يقدر الاتباع على مخالفتهم ؛ لذلك يقول لهم الاتباع لحظة تساوى الرؤوس

﴿ لَهْلَ أَنْتُمْ مُقْتُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٧١) [إبراهيم]

وهذا تقرير وخبر ومضيعة للتابع .

ونعلم أن الحق سبحانه قال فى موقع آخر من القرآن على لسان التابعين

﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ ﴾ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ صِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَظِيمُ لَعَنَّا كَبِيرًا ﴾ (٦٨) [الاحزاب]

وقد عرض الحق سبحانه هذه المسألة علينا لنتعلم من البداية كيف يكون ميزان التبعية ؟ وإياك أن تتبع نى أمر إلا إذا اقتضت أنه يأتى لك بخير ، وأنه يدفع عنك الشر . وليتنبه كل منا جيداً ولا يعطى زمام قيادة حركة الحياة إلا عن بيعة .

وليتذكر كل منا قوله الحق

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْمُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٦) [الحشر]

فحين ياتيك أمر مخالف لمنهج الله ، عليك أن تعلّى منهج الله فوق كل أمر . وقد أوضح لنا الحق سبحانه ذلك كي ينتبه جيداً فلا نُلْقَى زمام أمورنا لمن نتبع إلا بروية وبحكمة ، أيدلنا على خير أم يدلنا على شر ، وهل يستطيع أن يدرأ عنا الشر ، وأن يُنجينا من الإصبة بمكرهه ؟



فَلْيَكُنْ كُلُّ مَنَّا عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ أَمْرِهٖ ، وَقَدْ قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ فِي  
سُورَةِ الرَّحْمَنِ .

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٦) ﴾ [الرحمن]

والآلاء هي النعم ، ومن أرقى النعم هي تلك القيم التي أوصحها  
لنا الحق سبحانه لتسير على هُداها في الحياة الدنيا كي لا نُقْبَلْ على  
الحياة بجهالة ، بل بتوضيح وتبيان لكل شيء .

ومكذا يجب أن يتصرف التابع مع المتبوع كي لا يقف في موقف  
الخزي المشترك بين الاثنين في يوم الحساب ، حيث يقول التابعون  
للمتبعين

﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَبَلَّغْ أُنْتُمْ مُبْعُوثُونَ عَمَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ... (٢٦) ﴾

[إبراهيم]

وهذا القول القرآني يتكلم به ربُّ العالمين ، وكلُّ حرف فيه لهدف  
ومعنى

وقوله

﴿ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ... (٢٦) ﴾ [إبراهيم]

يعنى أنهم لن يقدروا أنْ يُخَفَّفُوا ولو جرَّةً بسيطاً من عذاب الله ،  
وكانهم يُسَهَّلُونَهَا عليهم ، فيطلبون منهم أن يتحملوا ، أو أنْ يُخَفَّفُوا  
عنهم ولو جرَّةً بسيطاً من العذاب

والمثلُّ على ذلك حين يطلب إنسان من آخر جنياً ، فيقول له

ليس معنى غيره ، فيرد الطالب : [إِنَّ اعطاني بعضاً منه ، وكأنه يطلب ولو رُبْعَهُ أو عشرة قروش منه

هكذا قال الذين اتبعوا لمن اتبعوهم ، فماذا يكون الرد من هؤلاء الذين تابوا على الله إيماناً به ؟ ها هم يردون على مَنْ سألوهم أَنْ يُخَفَّفُوا ولو جزء قليلاً من لعذاب

﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَنَعَةٍ﴾ (٢١) [إبراهيم]

وهكذا يتكشف كذبهم ، فهم يدَّعون أن معنى الهداية هو أن يهتدوا الله الإيمان ، مُتَنَاسِلِينَ أن معنى الهداية هو الدلالة الموصلة إلى الغاية

ولنا في قول الحق سبحانه ما يوضح المعنى

﴿وَالَّذِينَ اهْتَلَوْا زَادَهُمْ هُدًى..﴾ (١٧) [مسد]

فمَنْ يُقْبِر على الإيمان بصدور مُنْشَرْح يجد كُلَّ سَبِيلٍ الخير أمامه ، أما مَنْ كَسَرَ فكيف يهديه الله ، وهو قد استنحب العَمَى على الهدى ، لن يجد بطبيعة الحال آية هداية

ويقول الكافرون ذلك لَمَنْ اتبعوهم في يوم العشر ، ذلك أنهم يرون رأى العين أن الجنة حق ، والنار حق ، والحساب حق ، لذلك يعترفون أمام مَنْ اتبعوهم في الدنيا بأن الحق سبحانه لو أخذ بيدهم في الحياة الدنيى إلى الإيمان لَقَدْنَاكُمْ إلى هذا الإيمان ، وهم في ذلك أصحاب رأى مغلوط .

وذلك قولهم -

[إبراهيم]

﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ.. (٢١)﴾

ونعلم أن الإنسان إذا ما وقع في مأزق أقوى من قدراته ،  
ولا فحوة فيه للنجاة ؛ فهو يستقبل هذا المأزق بأحد استقباليين ،  
الاستقبال الاول ، أن يجزع ويتضرع ، والاستقبال الثاني أن يصمد  
ويصبر

وهنا نجد الكافرين يقولون

[إبراهيم]

﴿سَاءَ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّعِيصٍ (٢١)﴾

أي أنهم سواء جرعوا وتضرعوا ، أو صبروا وصمدوا فلن  
ينجيهم الله مما هم فيه ، فلا مهرب ولا منجى

و ، حاص ، في المكان أي ذهب إلى هنا أو هناك ، ولا يجد  
راحة ، وجد في تعبيرا عاما ما يُصور ذلك وهو قولنا ، فلان  
حايض ، أي لا يجد مكانا يرتاح فيه

ولذلك يقال ، ثبت بهم الأرض ، أي أن كل مكان في الأرض  
يرفضهم ويشرح الحق سبحانه هذه القصية فيقول

﴿حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ  
أَنْفُسُهُمْ.. (١١٨)﴾

[التوبة]

وهكذا يرى من ثبت بهم الأرض ، إنما لا تسعهم أنفسهم أيضاً  
بل تضيق عليهم ، ونسمع ممن يُكَلِّ بهم الحق في الحياة الدنيا من  
يقول ، أنا لا أطيق نفسي ،

وهذا ما يحدث بالفعل لبعض من الناس في لحظات اضيق ؛  
فتضيق ذات أى منهم عن حمل ذاته ، وكأن الواحد منهم له ذاتان ؛  
وكان الواحد منهم له صورتان ؛ الصورة التى تزين الشهوة ؛ وحين  
تزيد عن الحد يعود إلى صورة كباره الشهوة ؛ وهو لا يسعد فى  
الحالتين ؛ عشق الشهوة وكراهيتها .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك .

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ  
وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ  
سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا  
أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ  
إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ  
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢٤)

وهنا نجد تصعيذا للحوار ؛ فبعد أن كان من المتبوعين  
والتابعين ؛ نجد هذا الارتقاء فى الحوار ليكون بين الشيطان وبين  
البشر . ونلاحظ أن الحق سبحانه هذا بالحال الذى يدور فيه الحوار  
وهو انقضاء الأمر<sup>(١)</sup> ، حيث تقرر الوضع النهائى لكل شيء ؛

(١) المصريح المغيث المنقذ من يستصرخه والمصرخ الذى يزيل سبب الصرخ وسبب

الصراخ [ القسوس التويم ٣٧٣/١ ]

(٢) قال القرطبي فى تفسيره ( ٣٦٩٢/٥ ) . معنى «لما قضى الأمر» (٢٤) [ إبراهيم ] أى

حصل أهل الجنة فى الجنة . وأهل النار فى النار .

ولا نقاش في أي أمر ، ولا فرصة للتراجع عما حدث

وقضاء الأمر يعني أن يذهب كل إنسان إلى مصيره ، فمن كان من أهل الجنة دخلها ، ومن كان من أهل النار دخلها ، فقد وصلت الأمور إلى حدها النهائي الذي لا تتغير من بعده

ويلصق الشيطان نفسه فيقول

﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾. (٢٧) ﴿[إبراهيم]

وَوَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ، لأنه وَعَدَ مَعْنً يملك ، أما وَعَدَ الشيطان فقد اختلف ، لأنه وَعَدَ بما لا يملك ، لذلك هو وَعَدَ كاذب ؛ لأن الحق سبحانه هو الأمر الثابت الذي لا يتغير .

وحين قُعد أنت - الإنسان - إنساناً آخر بخير قادم ؛ فهل تصمن أن ثوانيك ظروفاً على أن تُحقق له هذا الأمر ؟

ولذلك يوصينا الحق سبحانه أن نقول « إن شاء الله »<sup>(١)</sup> وبذلك مردّ الوعد لله ، فهو وحده الذي يمكنه أن يعدّ ويتنقذ ما يعد به

وعلى الواحد منا أن يحمي نفسه من الكذب ، وأن يقول « إن شاء الله » فإن لم تستطع أن تحقق ما وعدت به تكون قد حميت نفسك من أن تُلقى اتهاماً بالكذب .

ونجد الشيطان وهو يقول في الآخرة

﴿وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾. (٢٢) ﴿[إبراهيم]

(١) ذلك في قوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا إِنَّمَا كَانَ عَدْوً﴾ (٢٢) إلا أن يشاء الله ﴿[الكهف]

ذلك أن وَعْدَهُ باطل ، والباطل لَجَجٌ<sup>(١)</sup> . وحين تحكم به الآن تُثبت لك الوقائع عكسه ، ونجعلك لا تصدق ما حكمت به .

ولذلك نجد الحق سبحانه يوضح لنا المسافة بين الحق والباطل فيقول

﴿ فَأَمَّا الزُّبْدُ فَجُفَاءٌ<sup>(٢)</sup> وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَمَا بَالُكُمْ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

وهكذا يحاول الشيطان أن يُدْرِيه نفسه رغم علمه أنه قد وعد ، وهو لا يملك إنفاذ ما وعد به ، ولذلك يحاول أن يلصق لتهمة بمن اتبعوه مثله مثل أولئك الذين قالوا .

﴿ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ... (٢١) ﴾ [إبراهيم]

فيقول الشيطان من بعد ذلك

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

والسلطان - كما نعلم - إما سلطان قهْر أو سلطان إقناع وسلطان القهْر يعني أن يملك أحد من القوة ما يقهر به غيره على أن يفعل ما يكره ، بينما يكون كارهاً للفعل .

(١) اللجج - أن يتكلم الرجل بلسان غير بين واللججة واللجج - التردد في الكلام واللجج - المخلط الذي ليس بمستقيم - الحق أبلج ، أي - مضيء مستقيم [ لسان العرب - مادة لجج ]

(٢) جفا الرادى قهراً - أي بالزُبد والذبي واسم الزبد الجفاء والجفاه البطل [ لسان العرب - مادة جفا ]

أما سلطان الحجة فهو أن يملك منطقاً يجعلك تعمل وفق ما يطلبه منك وتحب ما تفعل ، وهكذا يعترف الشيطان للبشر يوم الحشر الأعظم ، ويقول ، أريد أن أناقشكم ، هل كان لي سلطان قسُريٌّ أقهركم به ؟ هل كان لي سلطان إقناع أقنعكم به عسى اتباع طريقي ؟

لم يكن لي في دنياكم هذه ولا تلك فلا تتهموني ولا تجعلوني « شماعة » تُعلقون عليّ أخطاءكم ، فقد غويتُ من قبلكم وخالفْتُ أمر ربي ولم يكن لي عليكم سلطان سوى أن دعوتكم فاستجبتم لي

وكل ما كان لي عندكم أُنِي حَرَكْتُ فيكم نوازع أنفسكم وتحركت نوازع أنفسكم من بعد ذلك لِتُقْبِلُوا على المعصية

إذن فالشيطان إما أن يُحرِّك نوازع النفس أو يترك النفس تتحرك سوارعها إلى المعصية ؛ وهي كافية لذلك .

وسبق أن أوضحْتُ كيف تُعرف المعصية ، إن كانت من الشيطان تسويلاً استقلالياً أو تسويلاً تبعيةً ، فإن وقعت النفس عند معصية بعينها ، وكلما أبعدنا الإنسان بُلح عليه ، فهذا هو ما تريده النفس من الإنسان حيث تطلب معصية بعينها

أما نَزْعُ<sup>(١)</sup> الشيطان فهو أن ينتقل الشيطان من معصية إلى أخرى محاولاً عوايه الإنسان ، إن وجدته رافضاً لمعصية ما ، انتقل بالغواية إلى غيرها ، لأن الشيطان يريد الإنسان عاصياً على أي لُون ، فالهم أن يعصى فقط لذلك يحاول أن يدخل إلى الإنسان من نقطة

(١) مرغ الشيطان وسوس له بالشهر وخرج ما بين الرجلين أقصد ما بينهما [ القاموس

ضعفه ، فإنَّ وجده قويا في ناحية اتجه إلى أخرى

ويظن الشيطان أنه ليس المعلوم على ذلك

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْهُمُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرَكُمْ﴾ (٧٧) ﴿

[إبراهيم]

فالمعلوم هنا هو مَنْ أَقْبَلَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ ، لَا مَنْ أَعْوَى بِهَا .

ويستمر الحق سبحانه في فضح ما يقوله الشيطان لمن أغواهم في اليوم الآخر

﴿مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِي﴾ (٧٨) ﴿

[إبراهيم]

هذا هو قول الشيطان الذي سبق وأن تعاسى على آدم لحظة أن طلب منه الحق سبحانه أن يسجد له مع الملائكة ، ولكن الموقف هنا هو التصارى بين الذين أغواهم وبينه ، فهو يظن أنه لن ينفعهم وهم لن ينفعونه

والمُصْرِح من مادة الصُراخ من صرخ ، وهو رَفَعَ الصوت بفرض أن يسمعه غيره ولا يطلب مَنْ يصرخ شيئا آخر غير المعونة فلو أن أحدا عشر على كثر تحت قدميه فلن يصرخ ، بل يتلفت حوله ليرى : هل هناك مَنْ رآه أم لا ؟

أما إنْ هاجمه أسد فلا بُدَّ أن يصرخ طالبا النجاة ، وهكذا يكون الصراخ له مَأْرَب طلب المعونة وهذا لا يتأتى إلا مَنْ يَخَاف من مُفْرِع .



و « مُصْرَخ » يدس على الفعل « أصرح » ، وهو فعل دخلت عليه ما يُسمى في اللغة « همزة الإزالة » والمثل هو كلمة « معجم » أي - الذي يدلُّك على معنى لفظٍ لِيُزيلَ إبهامه - فيقال « أعجم الكتاب » أي أزال إبهامه ، وهذه الهمزة التي دخلت تُروِّضُ إزالة العُجْمَة عن الكلمة .

والمثل أيضاً على هذه الهمزة « هو كلمة « عتب » أي لومه ، وحين تدخل عليها الهمزة تصبح « أعتب » أي ، أزال ما به عتبٌ ونجد في دعائه ﷺ قوله الشريف « لك العُتْبَى حتى ترصى »<sup>(١)</sup> .  
أي ، إذا كُنتَ يا ربّ تعتب علىّ في أيّ شيء ؛ فإننا أدعوك أن تُزيلَ هذا العتب .

وهكذا نجد أن الإزالة تأتي مرة بإضافة الهمزة ، ومرة تأتي بالتضعيف ؛ مثل قولنا « مرّض الطبيب مريضه » أي أزال عنه - بإذن من الله - مرضه .

إن « مُصْرَخ » هو مَنْ يُزيل صراخ آخر ، فكان هناك مَنْ استغاث ، فجاءه مَنْ يُغيّثه وهكذا يعلن الشيطان في اليوم الآخر أنه ومن أغواهم في مازق ، وأنه غيّر قائله على إزالة سبب هذا المارق ، ولا هم بقادريين على إزالة سبب مازقه ؛ ولن يُغيث أحدهما الآخر

(١) دعاء دعا به رسول الله ﷺ بعد إيداء أهل الطائف له ، فقال « اللهم إليك أشكى ضعف قوتي وذلة هيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين كنت رب المستضعفين وأنت ربّي إلى من تكلّى ؟ إلى يهيد يجهنمي أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك مسب علي فلا أبالي لك العتبي حتى ترصى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » أورده البيهقي في دلائل النبوة ( ٢ / ٢٦٥ ) ، وابن هشام في السيرة النبوية ( ٢ / ٤١٩ ، ٤٢ )

ويضيف .

﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ .. (٢٧) ﴾ [إبراهيم]

فانتقم أشركتموني مع الله في الطاعة ، حين استسلمتم لغوايتي ، ولم تكونوا من عباد الله المخلصين الذين أقسمتُ أنا بحزة الله ألا أغويهم<sup>(١)</sup> ، وكل منكم نفذ ما أمويته به ، فناديتكم واستجبتم ، وناداكم الله فعصيتم أو كفرتم وصبرتم مثلي فقد سبق لي أن أمرني الله وعصيت .

ويقول الحق سبحانه ما يجيء على لسان الشيطان لمن كفر وعصى

﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٦) ﴾ [إبراهيم]

وهذه قضية عامة ، قضية الكفر في القمة ، فكما أطعتم الشيطان وجعلتموه شريكاً لله ، فما هو الشيطان يُخبركم بتقدير هذا الموقف ، بأنه شرك بالله ، وهو يعلن الكفر بهذا ، لأن يوم الحشر قد جاء ، وتحقق فيه قول الله له

﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٢٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٢٨) ﴾ [الحجر]

وكان الشيطان من قبل اليوم لمعلوم - وهو اليوم الآخر - يمدس

(١) وذلك قوله تعالى ﴿ قَالَ لَهْرُوكَ لِأَفْرِهِمْ أَجْمَعِينَ (٢٦) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٢٧) ﴾ [إبراهيم]  
 (٢) أنظره آخره واسمه رتائي عليه والوله تعالى ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٢٦) ﴾ [الأعراف] أي أسهلني وآخر حسابي وعقبي إلى يوم القيامة [ القاموس القويم ٧٧٢/٧ ]

وَيُوسُوسُ وَيُنْزَغُ ، أَمَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فَدَّ بَرَزَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ إِنْسٍ وَجَنٍّ وَكُلِّ الْكَائِنَاتِ أَمَامَ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، وَلَمْ يَحُدَّ هَبَاكَ مَا يَخْفَى عَنِ الْعَيْنِ .

وَهَذَا مَا خَدَعُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، وَضُنُّوا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُخْفُوا مَا مَعْلُومٌ عَنْ أَعْيُنِ اللَّهِ ، وَلِذَلِكَ سَجَدَ الْحَدِيثُ الْقُدْسِيُّ يَقُولُ

« يَا بَنِي آدَمَ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنِّي لَا أَرَاكُمْ ، فَالْخَلْقُ فِي إِيْمَانِكُمْ ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنِّي أَرَاكُمْ فَلِكُمْ جَعَلْتُمُونِي أَهْوَى النَّاظِرِينَ إِلَيْكُمْ » .

وَأَنْتَ فِي حَيَاتِكَ الْيَوْمِيَّةِ لَا تَجِدُ مَنْ يَسْرِقُ مِنْ آخِرِ وَجْهٍ لَوْجِهِ ، وَلَا أَحَدٌ يَحْرِقُ بَيْتَ أَحَدٍ أَمَامَ عَيْنَيْهِ ، فَرَنْ كُنْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْبَشَرِ لَا تَفْعَلُونَ ذَلِكَ مَعَ بَعْضِكُمُ الْبَعْضَ ؛ فَكَيْفَ تَفْعَلُونَ ذَلِكَ مَعَ خَالِقِكُمْ ، فَتَعَصُّوهُ

وَأَنْ شَكَّكُمُ أَنَّهُ لَا يَرَاكُمْ فَالْحَلُّ فِي إِيْمَانِكُمْ ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ يَرَاكُمْ فَلَا تَجْعَلُوهُ أَهْوَى النَّاظِرِينَ إِلَيْكُمْ لِأَنَّهُ لَوْ نَظَرَ إِلَيْكَ إِنْسَانٌ فَأَنْتَ لَا تَحْرِقُ عَلَى أَنْ تَصْبِغَ لَهُ مَا يَكْرَهُهُ

وَلِذَلِكَ يَقُولُ الشَّيْطَانُ مَعْتَرِضًا وَمُتَرَا بَانَ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابُ الْعِمْ ، وَالظَّالِمُ فِي الْقَمَةِ هُوَ الشَّرِكُ بِاللَّهِ

﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣)

[الغمان]

وَحِينَ نَقَرْنَا ذَلِكَ إِمَّا أَنْ نَأْخُذَهُ عَلَى أَنَّهُ إِقْرَارٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ، أَوْ نَفْهَمُ عَلَى أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ قَالَ

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ﴾ (٢٢) [إبراهيم]

ويقول الحق سبحانه بعدما تلك للقضية العامة .

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢) [إبراهيم]

بعد أن تكلم سبحانه عن برور الخلق والكائنات ، ثم الحوار بين  
الضعفاء والسياسة ، ثم الحوار بين الشيطان وبين أهل الكفر  
والمعصية ، يأتي بالقضية النهائية في الحكم

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢) [إبراهيم]

والمناسبت توحى بمقابلاتها ، لتكون النفس مُتَشَوِّقَةً وَمُتَقَبِّلَةً  
لهذا المقابل ، مثل قول الحق سبحانه

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (٢٣) [الأنفطار]

ويأتي بعدها بالمقابل لها

﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (٢٤) [الأنفطار]

فكما جاء بمقابل الأشقياء ، لا ند أن يفتح القلوب لتتعم بسعادة  
مصير وجزاء الدين سَعِدُوا بِالْإِيمَانِ

ذلك يقول الحق سبحانه

﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ  
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ  
يُحِبَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ (٢٢)

وهنا جاء الفعل ، ويمكن نسبته إلى ثلاث جهات . ولكل جهة مَلْحَظ ، مَمْرَةٌ يُسَنِّدُ اِفْعَلُ لِه سِبْحَانِه ، وَمَرَّةٌ يُنْسَبُ اَلْفَعْلُ لَلْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يَتْلُقُونَ اَلْأَمْرَ مِنْ اَللّهِ بِإِدْخَالِ اِمْرُؤَتَيْنِ اَلْجَنَّةِ ، وَمَرَّةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ اَلْجَنَّةَ بِإِذْنِ اَللّهِ .

فَاللّهِ اَدْخَلَهُمْ اِذْنًا ، وَاسْلَاكُهُ اَلْمُؤَكِّدُونَ مَتَحُوا اَبْوَابَ اَلْجَنَّةِ لَهُمْ ، وَالْمُؤْمِنُونَ دَخَلُوا بِاَلْفَعْلِ وَهَكَذَا يَكُونُ لِكُلِّ مَلْحَظ .

وَمِنْهَا تَرَاءةٌ اُخْرَى لِلآيَةِ تَوْصِيعُ ذَلِكَ

« وَأَدْخِلْ<sup>(١)</sup> الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ اَلْجَنَّةَ » وَالْمُتَكَلِّمُ هَا هُوَ اَللّهُ . وَنَلْحَظُ أَنَّ اَللّهُ قَدْ قَالَ هَذَا

﴿وَأَدْخِلْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ [ابراهيم]

لِكِي تَضُمَ كَلِمَةً « اَدْخِلْ » اَنَّهُ سِبْحَانَهُ اَنْ يَدْخُلُوهُمْ ، لِأَنَّهُ قَالَ فِي نَفْسِ الْآيَةِ

﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ [ابراهيم]

وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ الْمُكَفِّينَ بِذَلِكَ فَتَحُوا لَهُمْ اَبْوَابَهَا وَالْمُؤْمِنُونَ دَخَلُوهَا كُلُّ ذَلِكَ بِإِذْنِ اَللّهِ

وَنَلْحَظُ أَنَّ كُلَّ الْكَلَامِ هَا عَنْ الْجَنَاتِ ، فَمَا فِي الْجَنَاتِ ؟

(١) هَذِهِ تَرَاءَةُ الْحَمْسِ « وَأَدْخِلْ » عَلَى اَلِاسْتِقْبَالِ وَاَلِاسْتِغْنَاءِ قَالَ اَلْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ ( ٢٩٩٦ ، ٥ )

ونقول إن الجنة في أصل اللغة هي السَّتر ، ومنها الجنون أي  
سَّتر العقل ، والمادة هي الجيم والدون ، والجنة تستر مَنْ فيها بما  
فيها من أشجار كثيرة بحيث مَنْ يمشي فيها لا يظهر ، لأن أشجارها  
تستره

أو . أن مَنْ يدخلها يجلس فيها ولا يراه أحد ، لأن كل حير فيها  
لا يُكشَّه أن يخرج منها

وتُطلق الجنات على ما في الدنيا أيضاً ، والحق سبحانه هو  
القائل

﴿لَيُؤْتِيَنَّكُمْ أَمْثَلَهُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِمَّنْ خَلِقُوا أَغْصَابًا ۚ﴾ [البقرة]  
ولنا أن يعرف أن الجنة غر المسكن التي هي الجنة ، لأن الحق  
سبحانه يقول

﴿وَمَا كُنْ عَلَيْهِ فِي جَنَّاتٍ عِدْنَ﴾ [التوبة]

والجنة - والله المثل الأعلى - هي الحديقة الواسعة ، وهذا الاتساع  
مؤدَّع على كل مرأى عَيْن ، والإنسان - بمجائب تكويبه - يُحب أن  
يتخصص في مكان مرة ، ويحب أن ينتشر في مكان مرة أخرى ،  
فيستأجر شقة أو يبنى لنفسه بيتاً مستقلاً « فيلاً » . وفي البيت  
أو الفيلا يحب الإنسان أن تكون له حجرة خاصة لا يدخلها غيره

والإنسان يُعَيِّم الأشياء على هذا الأساس ، فينتظر مَنْ يرغب في  
شراء قطعة أرض ليبنى عليها بيتاً أمي تطلُّ على حارة أم على  
شارع ؟ وهل سيسطيع أن يعلو مالبناء إلى عدة أدوار أم لا ؟ وهل

سيخصص قطعة من الأرض كحديقة أم لا ؟

فإن كانت الأرض تُطْرَق على الفضاء ، فحساب المقر ليس بالثمن المدفوع فيه ؛ ولكن بقيمة ما يتيحه من اتساع أفق ونضياء من مزارع أو على البحر مثلاً ، حيث لن يتطفل عليك أحدٌ في هذا لمكان والجنان بهذا الشكل التقريبي ، هي أماكن مُتسعة ، وكل مَنْ يدخلها له فيها مساكن طيبة ، تلك الجنات تجري من تحتها الأنهار ومن يدخلونها

﴿خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ (٢٢)

[إبراهيم]

ذلك أن الإنسان يحب التمتع ، ولكن كل تنعم في الدنيا هناك ما يُنفِصه ، وهل يدوم أم لا يدوم ؟ وكل مَنْ رأى أناساً عاشت في نعيم ، ثم نُزِعَ منها بحكم الاعمار ، أو تركوه بحكم الموت

أما جنة الله ونعيمها فالأمر مختلف ، ذلك أن النعيم هناك لا يفوتك ولا تقوته ؛ لأنه على قَدَرِ مكانات ربك

ونلاحظ أن قول الحق سبحانه

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ (٢٢)

[إبراهيم]

يُوضِّح أن الخلود في الجنة دائم بإذن من الله

ويتابع سبحانه

﴿نَجِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ (٢٣)

[إبراهيم]

والتحية هو ما يواجه به الإنسان أخاه إيجاباً لسروره بلفائه ،

ولذلك تأتي التحية على مقدار السرور ، فمرة تكون التحية بمجرد رفع اليد نون مُصافحة ، وقد لا تكفى بذلك في حالة ازدياد المعزة التي لصاحبك عندك ؛ فتصافحه ؛ وقد تأخذه في أحضانك ، وهكذا ترتقى في التحية ، وهي إعلان السرور باللقاء

وتحية الجنة هي السلام ؛ لأن لسلام أمن كل إنسان ، سلام مع نفسك ، فلا تُكثرها بحديث النفس الذي يقدم على ما فات ، أو الحلم بعمل قادم ، فلكسلام في الجنة لن تجد فيه مُنقصات من الماضي أو الحاضر أو المستقبل ، وتتسمم مع كل ما حولك في الكون ، الجحاد ، النباب ، البشر ، الملائكة .

ولذلك قال الحق سبحانه تذيلاً لهذه الآية

﴿ نَحْمَدُهَا فِيهَا سَلَامٌ ﴾ (٧٣) [إبراهيم]

وهذه أفضل نعمة ، وهي الحياة في سلام وأمن ، وبعد ذلك تدخل الملائكة عليهم مصداقاً لقول الحق سبحانه

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ<sup>(١)</sup> مِنْ كُلِّ بَابٍ<sup>(٢)</sup> سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (٧٤) [الرعد]

ثم يلقون السلام الأعلى من الله ، وهو القائل

﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ (٥٨) [يس]

(١) قال سعيد بن جبير يدخلون عليهم على مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات ، معهم التحف من الله ما ليس لهم في جنات عدن [ الدر المنثور ١/٦٣٩ ]  
(٢) عن عتبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما منكم من أحد يتوضأ فيطلع أو يمسح الوضوء ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء ، أخرجه مسلم في صحيحه ( ٢٢٤ )



وبعد أن شرح الحق سبحانه أحوال أهل القرب والسعادة ، وأهل البعد والشقاء ، أراد عز وجل أن يضرب لنا مثلاً يوضح فيه الفارق بين منهج السعداء الذين عاشوا بمنهج الله ، ومنهج الأشقياء الذين اتبعوا منهج شتى غير منهج الله ، فقال سبحانه

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥١﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

والمثل هو الشيء الذي يوضح بالجلي الخفى . وأنت تقول لصديق لك هل رأيت فلاناً ؟ فيقول لك لا لم أره ، فتقول له إنه يشبه صديقنا علان . وهكذا توضح أنت من خفى عن مخيلة صديقك من هو واضح الصورة في مخيلته .

والحق - سبحانه وتعالى - يضرب لنا الأمثال بالأمور المحسنة ، كي ينقل المعاني إلى أذهاننا ، لأن الإنسان له إلف بالمحسن ، وإدراكات حواسه تعطيه أموراً حسنة أولاً ، ثم تحقق له المعاني بعد ذلك .

(١) أصل الشيء - أساسه وقاعدته التي يقوم عليها ويكون في أسفله [ القاموس القويم

(٢) الأكل - أكل النخل والشجر ، وكل ما يؤكل فهو أكل [ لسان العرب - مادة أكل ]

ويقول الحق سبحانه .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا.. (٧٤)﴾

[البقرة]

وقد قال الكافرون : أ يضرب الحق مثلاً ببعوضة ؟ ذلك أنهم لم يعرفوا أن لبعوضة لها حياة . وفيها حركة كأي كائن ؛ وتركيبها التشريحي يتشابه مع التركيب التشريحي لكل الأحياء في التفاصيل ، ويؤدي كل الوظائف الحيوية المطلوبة منه .

ولا أحد غير أدارسين لعلم الحشرات يمكن أن يعرف كيف تنفس ، أو كيف تهضم طعامها ، ولا كيفية وجود جهاز دموي فيها ، أو مكان الغدد الخاصة بها ، وهي حشرة دقيقة الصنع .

وهو سبحانه ضرب الأمثال الكثيرة ليوضح الأمر الخفي بأمر جلي ومن بعد ذلك ينتشر المثل بين الناس ونقول إن كلمة « ضرب » مثلها مثل « ضرب العملة » ، وكان الناس قديماً يأتون بقطع من العضة أو الذهب ويشكلونها بقدر وشكل محدد لتدل على قيمة ما ، وتصير بذلك عملة متداولة ، ويقال أيضاً - « ضرب في مصر » أي اعتمد وصار أمراً واقعاً . وكذلك المثل حين ينتشر ويصبح أمراً واقعاً

والمثل الذي يضربه الحق سبحانه هذا هو الكلمة الطيبة ؛ ولها أربع خصائص

﴿كشجرة طيبة.. (٧٥)﴾

[إبراهيم]

أى : تعطيك طيباً تستريح له نفسك ، إما منظراً أو رائحة  
أو ثماراً أو كل ذلك مجتمعاً ؛ فقله

﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ .. (٧٤) ﴾ [إبراهيم]

يُوحى بأن كل الحواس تجد فيها ما يُريحها ، وكلمة « طيبة » ،  
ماخوذة من لطيب فى جميع وسائل الإحساس .

فالخاصية الأولى ، أنها شجرة طيبة ، أما الخاصية الثانية فهي  
أن أصلها ثابت ، كإيمان المؤمن المسيح ، والثالثة أن فروعها فى  
السماء . وهذا دليل أيضاً على ثبات الأصل وطيب منبتها

أما الخاصية الرابعة فهي أن تؤتى أكلها كل حين بدون ريبها ،  
أى : فيها عطاء المدد الذى لا يعرف الحد ولا العدد ، وهى قدل على  
صفات المؤمنين المحبين .

وبما أنها شجرة طيبة ؛ فهي كائن نباتى لا بد لها من أن تتغذى  
لتحفظ مقومات حياتها . ومقومات حياة النبات توجد فى الأرض ،  
فإن كانت الشجرة مُخلَّقة وغير ثابتة فهي لن تستطيع أن تأخذ  
غذاءها .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن تلك الشجرة

﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ .. (٧٤) ﴾ [إبراهيم]

وكلنا نرى أن الشجرة تأخذ غذاءها من الجذور فقط ؛ ولكن  
الحقيقة العلمية تؤكد أن الشجرة تأخذ خمسة بالمائة من غذائها عن

الجدور ؛ والباقي تأخذه من الهواء ، وكلما كان الهواء نظيفاً فالشجرة تنمو بأقصى ما فيها من طاقة حتى تكاد أن تبلغ فروعها السماء

أما إن كانت البيئة غير نظيفة وملوثة ، فالهواء يكون غير نظيف بما لا يسمح للشجرة أن تنمو النمو المناسب ، فتعمر الأغصان غير المناسبة على الشجرة ، فلا تستخلص منها الغذاء المناسب ، ولا تنمو النعم المناسب

اللهم إلا إذ نزل عليها المطر فيغسل أوراقها

إذن . فقول الحق سبحانه

﴿ أَصْلَها قَابَتْ. (٢٤) ﴾

[إبراهيم]

يعنى . أنها تأخذ من الأرض

وقوله

﴿ وَفَرَعَهَا فِي السَّمَاءِ.. (٢٥) ﴾

[إبراهيم]

يُبين أنها تأخذ من أعلى

ويتابع سبحانه :

﴿ تَزْنِي أَكْلهَا كُلَّ حَبْرٍ. (٢٦) ﴾

[إبراهيم]

والأكل هو ما يؤكل ويُتَمَتَّع به ، ولكن لا يأخذ المعنى هنا على ما يؤكل بالفم فقط ؛ ذلك أن هناك أشجاراً ونباتات طيبة ، لأن مزاج الكون العام يتطلبها ، فالظل مثلاً يُستفاد منه ، وكذلك هناك أشجار يتفاعل وجودها مع الأثير ، ويأخذ منها رائحة طيبة .

والمثل في ذلك الطفل المدوي الذي شاهد نخيل جيرانه مثمرًا بالبالح ، ولكن النخلة التي يملكونها غير مثمرة ، وتساءل لماذا ؟ وذهب ليقطعها ، فلحقه والده ومنعه من ذلك ، وقال له : إن نخلتنا هي الذكر الذي يُنتج الفلاح اللازم لبقية النخيل كي تثمر .

ولذلك فانا لا اوافق المفسرين الذين ذهبوا إلى تفسير قوله الحق

﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ . (٢٤) ﴾ [إبراهيم]

بأنها مثل شجرة التفاح وغيرها من الأشجار المثمرة ، ذلك أن كل شجرة حتى ولو كانت شجرة حنظل فهي طيبة بفائدتها التي أودعها الحق إياها ، لشجرة الحنظل نأخذ منها دواءً - قد يكون مريض الطعم . لكن يشفي بعضاً من الأمراض بإذن الله

ذلك أن كل ما هو موصوف بشجرة له مهمة طيبة في هذا الكون وقول الحق سبحانه

﴿ تَزَيَّيْ أَكْلَهَا كُلُّ حِينٍ . (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

يدلنا على أن هناك قدراً مشتركاً بين الشجر كله ، مثمرًا بما يراه من فاكهة أو غير ذلك

وقد نبهنا العلم الحديث إلى أن كل خُضرة إنما تُنفق الجو بما تأخذ منه من ثاني أكسيد الكربون ، وبما تضيف له من أوكسجين ، وتستمر الخضرة في ذلك بهاراً ، وتقلب مهمتها بإرسال ثاني أكسيد الكربون ليلاً وامتصاص الأوكسجين ، وكامها مبرمجة على فهم أن النهار يقتضي الحركة

ويحتاج الكائن الحي فيه إلى المزيد من وقود الحركة وهو الأوكسجين ، والإنسان أثناء الحركة يستهلك كمية كبيرة من

الأكسجين ، ويجد من يصعد سلماً ينهج لأن رغبته تحاول أن  
امتصاص أكبر قدر من الأوكسجين ليؤكسد الدم ، وينتج الطاقة  
اللازمة للصعود وهكذا نجد كل خُصرة إنما تقوم بوظائف محددة  
لها سلماً من قبل الخالق الأعلى .

ولذلك اختلف العلماء عند تفسير

﴿ تَوْنِي أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ ۖ ﴾ (٢٥)

[إبراهيم]

فمنهم من قال إن « الحين » يُطلق على اللحظة ، مثل قول  
الحق سبحانه

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ <sup>(١)</sup> (٨٢) وَأَنْتُمْ حِينٍ تَنْظُرُونَ ﴾ (٨٤) [الواقعة]

وقد مُفسِّر <sup>(٢)</sup> آخر إن « الحين » يُقصد به الصباح والمساء ،  
ولحق سبحانه هو القائل

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۖ ﴾ (١٧)

[الروم]

وأقول : فلننتبه إلى أن « الحين » هو الوقت الذي يمين فيه  
المقدور ، فإذا كان الحين هو لحظة بلوغ الروح إلى الحُلُقُوم ، فهذه  
اللحظة هي المراد بـ « الحين » هنا ، وإذا كان المقصود بها زمناً

(١) الحلقوم الحلق وهو علمياً الآن هو تجويف خلف تجريف الفم وفيه ست لغزات  
فتحة فم ، وفتحة الممرين ، وفتحة الأنف ، وفتحة المجرة ويمر الطعام والشراب من  
الحلقوم إلى المريء أما النفس فهو يمر من الحلقوم إلى السيرة [ القاموس القويم  
١٦٧/١ ]

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره ( ٢٦٩٨/٥ ) أقوالاً : قال الربيع : كل حين ، غدوة  
وعشية وقال ابن عباس وقال الضحاك كل ساعة من ليل أو نهار شتاء وصيفاً يؤكل  
في جميع الأوقات ثم قال : وهذه الأقوال متناقضة غير متناقضة ، لأن الحين عند  
جميع أهل اللغة إلا من شدّ منهم بمعنى الوقت يقع للليل والنهار وكثيره ،

أطول من ذلك ، صباحاً أو مساء ، فهذا الزمن ينسحب عليه معنى الحين

والحق سبحانه هو القائل

﴿وَلَهُابَرِينَ فِي الْبَاسِ وَالصَّرَاءِ وَحِينَ الْبَاسِ ..﴾ (١٧٧) [البقرة]

والباس يعني الحرب ، ومدة الحرب قد تطول وكذلك يقول الحق سبحانه

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٢٣) [الأعراف]

وهكذا يكون معنى « حين » هنا هو الأجل غير المُسمَّى الذي يمتد إلى أن تتبدل الأرض غير الأرض والسما غير السماء إذن فلا يوجد توقيت مُحدد المدة يمكن أن نُحدد به معنى « حين » .

ويذيل الحق سبحانه الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرها عنها بقوله

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٥) [إبراهيم]

وضرب المثل معناه إيقاع شيء صغير ليبدل على شيء كبير ، أو بشيء جلي ليبدل على شيء خفي ، ليُقَرَّبَ المعنويات إلى وسائل الإدراكات الأولى . وهي مُدركات الحس من سَمْع وبصر وبقيّة وسائل الإدراك .

وحين تأتي المعاني التي تناسب الطمّوح العقلي : فالإنسان يتجاوز مرحلة الحس إلى المعلومات المعنوية ، فيقربها الحق سبحانه بأن يضرب لنا الأمثال التي توصل لنا المعنى المطلوب إيصاله .

والحق سبحانه لا يستحي - كما قال - أن يضرب مثلاً بالبعوضة وما فوقها<sup>(١)</sup> والبعوض من المستشرقين يقول ولماذا لم يقل « وما تحتها » ؟

ونقول لمن يقول ذلك أنت لم تفهم اللغة العربية ، ذلك لم تستقبل القرآن بالملكة العربية : ذلك أن المثل يضرب بالشئ الدقيق : وما فوق الدقيق هو الأدق

والحق سبحانه يضرب لنا المثل للحياة الدنيا ، وهي الحياة التي من لدن خلق الله للإنسان ، ذلك أنه كانت هناك أجناس أخرى قبل الإنسان . وهو سبحانه هنا يوضح لنا بالمثل ما يخص الحياة من لحظة خلق آدم إلى أن تقوم الساعة ، وهو يطويها .. تلك الحياة الطويلة العريضة التي تستغرق أعمار أجيال - ويعطيها لنا في صورة مثل موجز ، فيقول لنا

﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتْرَكْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا<sup>(٢)</sup> تَفْرِوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (١٥)﴾ [الكهف]

(١) يقول تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . (٢٤)﴾ [البقرة] قال ابن كثير في تفسيره ( ٦٤/١ ) « معنى الآية أنه تعالى لا يستنكف أن يضرب مثلاً ما أي مثل كان بأي شيء كان صغيراً أو كبيراً ، وما ههنا للتقليل . وقال الربيع بن أنس هنا مثل ضرب به الله للدنيا أن البعوضة تحيا ما جاءت ، فإذا سمعت ماتت ، وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب لهم هذا المثل في القرآن إذا اعتزلوا من الدنيا رياء أخذهم الله عند ذلك . »  
(٢) الهشيم البيت اليابس المتكسر وهو ما يس من الورق وتكسر وعظم فيطع الفأية في البس حتى بلغ أن يجمع [ سائر العرب - مائة هشم ]





وهكذا يطوى الحق سبحانه الحياة كلها في هذا العنبر من ماء  
ينزل ونبات ينمو لينضج ثم تذروه<sup>(١)</sup> الرياح .

وأيضاً يقول الحق سبحانه

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَزِينَةٌ وَتُفَاخِرُونَ بَيْنَكُمْ وَتُكَاثِرُونَ فِي  
الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ<sup>(٢)</sup> أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ<sup>(٣)</sup> فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا  
ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا .. ﴿٢﴾﴾ [الحديد]

وهكذا يطوى الحق سبحانه الحياة الدنيا بطولها وعرضها في هذا  
العنبر البسيط لنرى ما يوضح لنا المعاني الخفية في صورة مُحَسَّنَةٍ  
بحيث يستطيع العقل الفطري أن يدرك ما يريد الله منها

ويعلم أن المحسّنات تدرك أولاً بعض الأشياء ، ثم ترتقى إلى  
مرتبة التخيل ، ثم يأتي التوهم ؛ فمراحل الإدراك للأشياء الخفية هي  
الحس أولاً ثم التخيل ثانياً ؛ ثم التوهم ثالثاً

والتخيل هو أن تجمع صورة كلية ليس بها وجود في الخارج ،  
وإن كانت مكونة من مادة وأشياء موجودة في هذا الخارج . والعنبر  
على ذلك هو قول الشاعر الذي أراد أن يصف الوشم على يد حبيبته ،  
فقال

(١) ذرا الهواء الشيء يذروه يروا اطاره ويذره [ القاموس القويم ١/ ٢٤٢ ]  
(٢) الغيث للمطر قال تعالى ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ [الحديد] بحتمل أنه  
كمثل مصر أعجب الكفار ما خرج بسببه من نبات ، ويحتمل أنه كزورج أعجب الكفار بموه  
وبهاثة [ القاموس القويم ٢/ ٦٥ ]  
(٣) أعاجبت الريح البيت أبيضته أي جعلته جافاً قد ذهب رطوبته [ لسان العرب مادة  
هيج ]

خوض كأن بنائها في نقشه للوشم المزور<sup>(١)</sup>  
سمك من البلور في شك تكوّن من زبرجد<sup>(٢)</sup>

وحين نتحدث في الصورة الكلية لتلك الآيات من الشعر ؛ لن  
تجدّها موجودة في الواقع ؛ ولكن الشاعر أوجدها من مكوّنات  
ومفردات موجودة في الواقع ؛ فالسمك موجود ومعروف ؛ والبلور  
موجود ومعروف ؛ وكذلك الشبك والزبرجد ، وقام الشاعر بسج تلك  
الصورة غير الموجوده من أشياء موجودة بالفعل ، وهنا هو الخيال  
الذي يقرب المعنى .

والترهّم يختلف عن الخيال ؛ فإذا كان التخيل هو تكوين صورة  
غير موجودة في الواقع من مفردات موجودة في هذا الواقع ؛ فالترهّم  
هو صورة غير موجودة في الواقع ، ومكوّن من مفردات غير  
موجودة في الواقع

والحق سبحانه يقول لما عن الجنة

﴿ وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين .. ﴾ (٧١) [الرحم]

ويشرح الرسول ﷺ ذلك بملكرة تفسيرية ، فيقول « فيها ما لا  
عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »<sup>(٣)</sup>

(١) الخوصة اللؤلؤة والبنار أطراف الأصابع والزرد - هو تكلم حلق الدرع بمصها  
في بعض كالشبكة

(٢) الزبرجد الرمد [ لسان العرب - مادة زبرجد ]

(٣) أخرج مسلم في صحيحه ( ٢٨٢٤ ) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ  
قال قال الله عز وجل وأعدت لعبائى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت  
ولا خطر على قلب بشر ، مصداق ذلك في كتاب الله ﴿ لا نعلم نفساً ما أخفى لهم من قرة أعين  
جزءاً بما كانوا يعملون ﴾ (٤٥) [السجدة] .

وَالْعَيْنُ وَسِيلَةُ إدْرَاكَ وَحُسْنٍ ، وكذلك الأذن ، أما ما لا يخطر على القلب فهو ليشرح الحيال أو الوهم

وهكذا نعلم لماذا يضرب الله لنا الأمثال ، ليُوجِزَ لنا ما يشرح ويوضح بأشياء قريبة من الفهم البشرى

وأنت حين تريد أن تكتب لصديق ، فقد تمسك الورقة والقلم وقُدِّبْ رسالة طويلة ، ولكن إن كنت تمك وقتك فستحاول أن تُرَكِّز كل المعاني في كلمات قليلة

وكلنا يذكر ما كتبه سعد زعول<sup>(١)</sup> زعيم ثورة ١٩١٩ المصرية لواحد من أصدقائه بعد أن سطر له رسالة في خمس صفحات ، وأنها « إني امتذر عن الإطالة في الخطاب فلم يكن عتدى وقت للإيجاز ، وذلك لأن مَنْ يُوجِز إنما يضع معاني كثيرة في كلمات قليلة

وحين طلب أحد القادة المسلمين أنصُرَةً من خالد بن الوليد ، وكان القائد الذي يطلب المساعدة مُحَاصِرًا ، وأرسل لحالد بن الوليد كلمتين اثنتين « إياك أريد » ، وهكذا اختصر القائد المجاصر ما يرغب إيصاله إلى مَنْ ينجده ، بإيجاز شديد

والشاعر يقول

إِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ نَفْسِيَّةٍ طَوِيَتْ أُنَاحُ لَهَا لِسَانُ خَسُودٍ  
لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرِفُ طَيْبُ عَرَفٍ<sup>(٢)</sup> الْعُودِ

(١) هو سعد إبراهيم زعول ، ولد في « إبيانة » من قرى « الغربية » عام ١٨٥٧م تعلم في كُتُب القرية وبحل الأهر ، واتصل بالسيد جمال الدين الأفغاني ، تولى وزارة المعارف ووزارة الحفائية ( العدل ) أصبح رمزاً للثورة بعد نفيه إلى حalte توفي بالقاهرة عام ١٩٣٧م [ الأعلام للزركلي ٨٣/٢ ] عن ٧٠ عاماً

(٢) المعروف الريح طيبة كانت كحبيشة وقال ابن سيده العرف ، الرائحة الطيبة والممتنة [ لسان العرب - مادة عرف ]

أى . أنه إنا كانت هناك فضيلة مكتومة نسيها الناس ، فالحق سبحانه منح بها لسان حاسد حافد ليُثَرِّثَ وينبش ويُقَبِّب ، تظهر وتتحلى ؛ متلما يُوضَعُ خشبُ العود - وهو من أرقى ألوان البخور في النار ، فينتشر عطره بين الناس .

وهكذا ضرب الشاعر المثل ليُوضَحَ أمراً ما للقارىء أو السامع

ويقول الشاعر ضارباً المثل أيضاً

وَإِذَا امْرُؤٌ مَدَحَ امْرَءًا لِنَوَالِهِ<sup>(١)</sup> وَأَطَالَ فِيهِ فَقَدْ أَطَالَ هِجَاؤُهُ  
لَوْ لَمْ يُقَدَّرْ فِيهِ بَعْدَ الْمُسْتَقَى عِنْدَ الْوُرُودِ لَمَّا أَطَالَ رِشَاءُهُ<sup>(٢)</sup>  
والمقاييس العادية تقول إن المرء حين يمدح أحداً لفترة طويلة ، فهذا يعنى الرُّفْعَةُ والمجد للممدوح . ولكن حين يقرأ أحدٌ قول هذا الشاعر قد يتعجب ويندهش ، ولكنه يتوقف عند قول الشاعر أن الماء لو كان قريباً في البئر ، لأخرجه العطشان يدور مربوط بحبل قصير ، ولكن إن كان الماء على بُعد مسافة في البئر فهذا يقتضى حبلًا طويلاً لينزل الدلو إلى الماء

وهذا يعنى أن طول المدح إنما يُعبّر عن فظاظة الممدوح الذي لا يستحيب إلا بالسثناء الطويل ؛ ولو كان الممدوح كريماً حقاً لكتفى بكلمة أو كلمتين في مدحه .

(١) النوال النظم وأناله معروفاً وبوّله أعطاه معروفاً [ لسان العرب - مادة نول ]

(٢) الورد الجمود والوصول للماء لشرب والرشاء الصل يوصل به إلى الماء في البئر كما يوصل بالرشوة إلى ما يطلب من الأشياء [ لسان العرب - مادة رشو ]

وهكذا يكون ضربُ المثل توضيحاً وتقريباً للذهن .

وهنا قال الحق سبحانه

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٥) [إبراهيم]

والتذكر معناه أن شيئاً كان معلوماً بالفطرة ، ولكن الغفلة طرأت ،  
فبيأتى المثل ليُذكر بالامر الفطري

وبعد أن ضرب الحق سبحانه المثل بالكلمة الصيبة بياناً لحال أهل  
القرب من الله والود معه واتباع منهجه ، أراد أن يذكر لنا المقابل ،  
وهو حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الله ، وعن منهجه ، فيقول  
سبحانه وتعالى

﴿ وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ

فَوْقِ الْأَرْضِ مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ (٢٦)

وحين نقارن الكلمة الحبيثة بالكلمة الصيبة سكتشف الفارق  
الشاسع ، فالكلمة الصيبة مُجْتَنَّةٌ من فوق الأرض ، والجُثَّةُ كما نعلم  
هي الجسد الذي خرجت منه الروح ، ومن بعد أن يصبح جُثَّة يصير  
رَمَةً ، ثم يتحلل إلى عناصره الأولى

إن فالاجتثاث هو استئصال الشيء من أصله وقطعه من  
حدوره ، أما المقابل في الشجرة الطيبة وأصلها ثابت لا يُطحله  
ظروف أو أحداث ، والكلمة الصيبة بلا جذور لأنها مُجْتَنَّةٌ ، وليس لها  
قَرَارٌ تستقر فيه .

(١) جُثَّةُ الشيء : قطعه أو قلعه من جذوره واجتثته استئصاه أو التلعه [ اللاموس الغريم

وَحِينَ تَكْلُمُ الْمُفْسِرُونَ عَنِ الشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ إِنِّهَا  
الْأَنْخَلَةُ لِأَنَّ كُلَّ مَا فِيهَا حَيْرٌ ، فَوَرَقُهَا لَا يَسْقُطُ وَيَبْقَى دَائِمًا كَطَلٍّ  
وَكُلَّ مَا فِيهَا يُنْتَفَعُ بِهِ .

فنحن - على سبيل المثال - بأحد جذع النحلة ونصنع منه أعمدة  
في بيوت الرِّيف ، وجريد النخل نصنع منه الكراسي ، والليف  
المرجود بين الأفرع نأخذُه لنصنع منه الحبال والخوص نصنع منه  
أقفف

والذين حاولوا أن يُفسِّروا « الشجرة الخبيثة » بأنها شجرة  
المنّظل ، أو شجرة التين ، أو شجرة الكُرّات ، لكل هؤلاء أقول بقدر  
حلقها الحق سبحانه لتكون شجرة صيبة في ظروف احتياجا لها ،  
لأنك حين تنظر إلى الكون ستجد أن مزاجه مُتَنَوِّعٌ ، ومُتَوَرِّمَاتُ الحياة  
ليست هي الأكل والشرب فقط ، بل هناك توازن بيئي قد صممه الحق  
بعالي ، وهو الأعلم مِنَّا جميعاً بما خلق ، ولم يخلق إلا طيّباً

وكل شيء في الكون له عطاء مستمر يُضَعُّ في الجر ، والمثل هو  
تساقط أوراق الشجر التي تُعيد الخصب مرة أخرى إلى الأرض ،  
وكلها أمور يُبْدِيهَا الحق سبحانه ولا يبتدئها ، أي يُطهرها بعد أن  
كانت موجودة أزلاً ومخفية عنا

وهو جلّ وعلا يرفع قوماً ويخفض قوماً ، وهو المقاتل عن ذاته

﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (٢٩)

وكلنا نعلم أن اليوم عند منطقة ما يبدأ في توقيت مُعَيَّن ،  
وينتهي في توقيت مُعَيَّن ، وتختلف المناطق الجغرافية وتختلف معها

بدايات أى يوم من منطقة إلى أخرى ، فبعد لحظة من مداية يومك يبدأ يوم آخر فى منطقة أخرى ، وهكذا تتعدد الأيام وبدايات النهار والليل عند مختلف البشر والمجتمعات .

ولذلك فحين نسمع قول الرسول ﷺ : « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »<sup>(١)</sup>

فمعنى ذلك أن يد الله مبسوطة دائماً ، ذلك أن الليل يبدأ فى كل لحظة عند قَوْم ، ويبدأ النهار عند قوم فى نفس اللحظة ؛ ويتتابع ميلاد الليل والنهار حسب دوران الشمس حول الأرض

وهكذا لا يجب أن نظلم شجرة الثوم ، أو شجرة الحنظل ، أو أى شجرة من مخلوقات الله ونصفها بأنها شجرة خبيثة فلا شيء خبيث من مخلوقات الله

وبحق حين نجد شاكاً يقوم بثنى قطعة من الحديد قد بحسبه الجاهل أنه يسىء استخدام الحديد ، ولكن العاقل يعلم أنه يقوم بثنائها ليصنع منها ما يفيد ، كخُطّاف يشدُّ به شيئاً يترمه .

وعنده الكلمة الطيبة هى شهادة « لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » ومن هذه الشهادة يتفرع كل خير ومن هنا نعلم أن عُدَّة الكلمة الخبيثة هى الكفر بتلك الشهادة ، وما يتبع الكفر من عناد لرسول الله ﷺ وصدُّ عن سبيل الله ، ومن تكذيب لمعجزات الرسل ، وإنكار لمنهج الله

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ( ٢٧٥٩ ) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه

ولقاتل أن يقول . ما دام الحق سبحانه قد قال إن هناك شجرة خبيثة ، فلا بد أن توجد تلك الشجرة ، وأقول : إن كل ما يضر الإنسان في وقت ما هو خبيث ، فالسكر مثلاً يكون خبيثاً بالنسبة لمرضى السكر ، وكل كائن فيه حسنة مفيدة ، وله جانب ضار في حالات معينة : وعلى الإنسان المختار أن يميز ما يضره وما ينفعه

ونلاحظ هنا في وصف الكلمة الخبيثة بأنها كالشجرة الخبيثة ، أن الحق سبحانه لم يقل إن تلك الشجرة الخبيثة لها فرع في السماء ، ذلك أنها مجتثه من الأرض : محلظة الجذور ، فلا سند لها من الأرض ، ولا مدد لها من السماء

ولذلك يصفها الحق سبحانه

﴿ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ (٤٦)

[إبراهيم]

أي ما لها من ثبات أو قيام . وكذلك الكفر بالله ، ومن يكفر لا يصعد له عمل طيب ، فلا أساس يصعد به العمل أو القول الطيب ولهذا وصفت الشجرة الخبيثة بصفات ثلاث أولها أنها شجرة حبيثة وثانها أنها عديمة لأصل غير ثبات ، وثالثها ما لها من قرار لعدم ثبات الأصل

ثم يبين الله جل علاه متحدثاً عن حصاد الحالتين ، فالأولى . أمن وأمان في الدنيا والآخرة والحالة الثانية ظلم بضلال ، وقلق بصنك ، وفي الآخرة لهم عذاب اليم

ويقول سبحانه ونعالى



﴿يُشِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُصِلُ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ  
اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧)

وتأتى هنا كلمة « التثبيت » طبيعية بعد قوله :

﴿اجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَوَارٍ﴾ (٢٦) [إبراهيم]

لأن الذى يُجْتَنُّ لا ثبوت له ولا استقرار ، فجاء بالمقابل بقوله

﴿يُشِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ..﴾ (٢٧) [إبراهيم]

وتوحى كلمة التثبيت أيضاً بأن الإنسان بنى للاغيار ، وتطرا عليه  
الاحداث التى هى نتيجة لاختيار المكلفين فى نفاذ حُكْمٍ أو إبطاله ،  
فالمكلف حين يأمره الله بحكم ؛ قد يُنْفِذُه ، وقد لا ينفذه .

وكذلك قد يتعرض المكلف بمخالف لمنهج الله ، فلا يُنْفِذُ هذا  
المخالفُ تعاليم المنهج ، ويؤدى مَنْ يتبع التعاليم ، وهما يثق المؤمن  
أن له إلهاً لن يخذله فى مواجهة تلك الظروف ، وسينصره إن قُربُ  
أو بعيد على ذلك

وهكذا لا تنال الأحداث من المؤمن ، ويصدق قوله الحق

﴿يُشِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ..﴾ (٢٧) [إبراهيم]

فهم قد آمنوا بوجوده وبقدرته ، وبأن له طلاقة مشيئة يُثَبِّتُهم بها

(١) قال ابن عباس هو لا إله إلا الله ودوى النفسانى عن البراء بن عازب أنه قال مرات

من عذاب القبر [ تفسير القرطبي ٣٧٠٦/٥ ]

مهما كانت جسامة الأحداث ، ذلك أن المؤمن يعم عن يقين أن الحق سبحانه قد قال وصدق

﴿ اَلَا يَذْكُرُ اللّٰهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوْبُ ﴾ (٢٨)

[الرعد]

وما دام المؤمن قد ثبت قلبه بالإيمان وبالقول الثابت ، فهو لا يتعرض لزيغ<sup>(١)</sup> القلب ولا يتزعزع عن الحق .

والتشبيث يختلف في أعراف الناس باختلاف المثبت ، فحين يُحلَّك عمود في جدار البيت ، فصاحب البيت يأتي بالمهندس الذي يقوم بعمل دعائم لتثبيت هذا العمود ، ويتبادل الناس الإعجاب بقدرات هذا المهندس ، ويتحاكى الناس بقدرات هذا المهندس على التثبيت للأعمدة التي كانت أن تنهار ، وهذا ما يحدث في عُرْف البشر ، فما نألفنا بما يمكن أن يعمل خالق البشر ؟

وقوله الحق

﴿ يٰٓثَبَّتْ اللّٰهُ الدِّينَ اٰمَنَّا .. ﴾ (٢٧)

[إبراهيم]

يردك إلى الحُثْبَت الذي لَنْ يطرا على تثبيته أدسى خلل . وكلمة « التثبيث » دلَّتْنا على أن الإنسان ابنُ أقيار ، وقد تحدث له أشياء غَيْر مطابقة لما يريده في الحياة ، لذلك فالمؤمن يجب ألاَّ يَخُور ، لا له رياء لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار .

وسبحانه يُثَبِّت الذين آمنوا

﴿ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴾ (٢٧)

[إبراهيم]

(١) الرِّيع الميل ، رِيع القلب الميل عن الهدى والقصد . [ لسان العرب - مادة ريع ]



وإذا كان الحق سبحانه يُثَبِّتُ الذين آمنوا في الدنيا بالقول الثابت  
الحق فتثبيته لهم في الآخرة هو حياة بدون أسباب

ونجده سبحانه لم يَقُلْ هذا للحياة الآخرة ، بل قال

﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ ۝٢٧ ﴾ [إبراهيم]

ذلك ان الارتقاعات الطسوحية في الحياة تكون مناسبة للمجهود  
المبذور فيها ، ولكن الامر في الآخرة يختلف تماماً ، لأن الحق  
سبحانه هو الذي يُحَاذِي على قَدَرٍ طلاقة مشيئته ، وهو يُثَبِّتُهُم بداية  
من سؤال القبر وبهاية إلى أن يَلْقُوا الثواب على حُسْنِ ما فعلوا من  
خير في سبيل الله

وما دام الحق سبحانه قد ذكر هنا التثبيت في الحياة الدنيا  
والآخرة ، فلا بُدَّ أن يأتى بالمقابل ، ويقول

﴿ وَبِصَلِّ ۝٢٨ اللَّهُ الطَّالِعِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۝٢٩ ﴾ [إبراهيم]

وسبحانه يُضِلُّ الظالم لأنه اختار أن يظلم ؛ وهو سبحانه قد  
جعل للإنسان حقَّ الاختيار ، فَمَنْ اختار أن يظلم ، لا بُدَّ له من  
عقاب . وإذا كان سبحانه قد خلق الخلق وجعل الكون مُسَخَّرًا لهم ،  
وأعطى المؤمن والكافر من عطاء الربوبية ، فإن اختار الكافر كفره ،  
فهو لن يُنْقِذَ تكاليف الألوهية التي أنزلها الله منهجاً لهداية الناس

(١) أي يسلمهم من حاجتهم في قبرهم كما سألوا في الدنيا يكفرهم فلا يلقتهم كلمة  
الحق . ماذا سألوا في قبرهم قالوا لا ندرى فيقول لا دريت ولا تليت وعندك  
يُضْرَبُ بالمقام على ما ثبت في الأخبار [ تفسير القرطبي ٢٧٠٢/٥ ]



والكافر إنما يظلم نفسه ، ذلك أنه ما دام قد أنس إلى الكفر فالحق سبحانه يحتم على قلبه . فلا يخرج من القلب الكفر ، ولا يدخل إليه الإيمان ، وهو رب العالمين يفعل ما يشاء .

وإذا كان الحق سبحانه يعطي كل إنسان ما يريد ، وما دام الكافر يطلب أن يكون كافرًا ، فسبحانه يمد له في أسباب الكفر ليأخذه من بعد ذلك بها ، كما يمد الله للمؤمنين كل أسباب الإيمان مصداقًا لقوله الحق

﴿ كَلَّا نُمَدِّدُ هَؤُلَاءِ وَمِنْ ذُلِّهِمْ نُمَدِّدُ هَؤُلَاءِ مِنْ عِطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عِطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا <sup>(٦١)</sup> ﴾

[الإسراء]

ومعنا تكون طلاقة قدرة الحق سبحانه وهو يفعل ما يشاء ، ذلك أنه لا يوجد إله غيره .

واسحق سبحانه قد أكرمنا بالعبودية له وحده ، ذلك أننا رأينا جميعاً وشاهدنا أثر عبودية الإنسان للإنسان ، حين يأخذ السيد خير العبد ، وقد ذاق الشريعة الكثير من ويلاتها ، ولكن العبودية لله تختلف تماماً حيث يأخذ العبد خير السيد ، ويُقدِّق لسيد إحسانه على عبادته

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا  
وَأَحْلَوْا قَرْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ <sup>(٦٢)</sup> ﴾

(٦١) الحظر المنع والمحظور المصروع ومعنى قوله تعالى ﴿ وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾

(٦٢) [الإسراء] أي لا يمنع عطاء الله أحد [القاموس القويم ١/١٦١]

(٦٣) البوار الهلاك ودار البوار دار الهلاك [لسان العرب - مادة بور] والمقصود بها

جهنم قاله ابن زيد [ذكره القرطبي في تفسيره ٢٧٠٢/٥] ويدل عليه قوله تعالى

بعد ﴿ جهنم يصلونها ﴾ [الفرار ٥٣] [إبراهيم]

وحين يقول الحق سبحانه .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى . . (٢٨) ﴾

[إبراهيم]

فهذا يعنى أن المُخبر وهو الحق إذا ما أخبرنا بشيء فهو اصدق من أن تراه أعيننا

وتشير الآية إلى عملية مُبادلة بين اعتراف بالنعمة ، ثم إنكارها كان هناك شيئاً قد استبعدناه ، وأتينا ببديل له . ولحق سبحانه هو القائل

﴿ أَسْتَيْدُلُّونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ . (٦١) ﴾

[البقرة]

والحق سبحانه وتعالى قد أعطاك النعمة ولم يطلب منك أن تقوم بأى تكليف إيمانى قبل البلوغ . وهكذا نجد أن النعمة هي الاصل ، والتكليف إنما يأتى من بعد ذلك ، وكان من الواجب ألا يعصى العبد من أنعم عليه بكل النعم . وأن يتحه إلى التكليف بمحبة ، كي لا يقلب نعمة الله كفراً .

أو أن المقصود هم قوم قريش الذين أفاء<sup>(١)</sup> الله عليهم الخير . وجعل لهم لحرم آمناً

﴿ أَوْ لَمْ يُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمَنًا يُجْنِي<sup>(٢)</sup> إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَنُكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾

[القسم]

(١) أفاء الله عليه شيئاً منحه غنيمة في الحرب بالنصر أو بغير الحرب [ القاموس القويم ٩٢/٢ ]

(٢) جنى الحراج والماء جمع وقوله تعالى ﴿ يُجْنِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٥٧) [القسم] تجمع إلى الحرم المكي وتساقي إليه ثمرات وحيرات كثيرة [ القاموس القويم ١١٢/١ ]

وكذلك أنعم عليهم بأن يكون نبي الإسلام - الدين الخاتم - منهم ، وهو النبي الذي ستدين له الدنيا والعالم في كل زمان ومكان ، فلماذا يُبدلون تلك النعمة كُفراً ؟

أما كانت تلك النعمة وحدها كافية لمقابلتها بعقيق الشكر وحُسْن العبادَة ؟ فهذا النبي الذي قال الحق سبحانه عن رسالته

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ (٤٤) [الزحرف]

وهو سبحانه القائل عن نعمه عليهم

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَجِدُوا رَبُّهُمْ هَذَا الِيتَ (٣) لَدَىٰ أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَسْهَمَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

فكيف يُبدلون نعمة الله كُفراً ؟ وكيف يُسيئون معاملة الرسول ﷺ وصَحْبِهِ حتى قال ﷺ « اللهم اجعل سبعينهم كسنيين يوسف »<sup>(١)</sup>

وخرج لقتالهم في بدر ، وهم الذين صبروا بأنفسهم تلك نتيجة تبديلهم لنعمة الله كُفراً ، ولماذا تَبَلَّوا عطء الحق من خير ونعم ورفضوا منهجه ؟

ولو كانوا قوم صدُق مع انفس ، وصدق مع ما يمتدونه لطلبوا من الاصنام أن تعطِيهم ، أو لرفضوا أن يأخذوا خَيْرَ المنعم ما داموا قد رفضوا منهجه ، وهو سبحانه قد أنعم عليهم بمَقُومَاتِ اِصَادَةِ ، وأضاف لذلك منهجه مَقُومُ الروح .

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول « اللهم أشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سبعين كسني يوسف » الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٦ - ١) وحمد في مسنده (٢ / ١٧ - ٢ - ٥٢١)

وحين نقرا قول الحق سبحانه .

﴿وَأَحْلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨)﴾

[إبراهيم]

فهم أن الإحلال هو إيجاد حال في محل ونعلم أن الظرف ينقسم إلى قسمين ظرف مكان وظرف زمان ، فإذا أحللت حدثا محل حدث ؛ فهذا يخص ظرف الزمان ، وحين نحل شيئا مكان شيء آخر ، فهذا أمر يخص ظرف المكان

ومن يقول الحق سبحانه

﴿وَأَحْلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨)﴾

[إبراهيم]

وهذا يعنى ظرف مكان . ولقائل أن يقول وكيف يأخذون أهلهم وقومهم ليحلوهم إلى دار بوار ؟

ونقول . لقد حدث ذلك نتيجة أنهم قد غشواهم وخدعواهم ، ولم يستعمل هؤلاء الأهل عقولهم ولم يلتفتوا إلى أن قاداتهم وأولى الأمر منهم يسلكون السلوك لسيء وعليهم ألا يقلدوهم ، فَجَرُّوا عليهم الفتن واحدة بلو أخرى ، وتبين<sup>(١)</sup> الفتن على القلوب

ولهذا أراد الحق سبحانه لامة محمد ﷺ أن تكون بها مناعات من الفتن ، فتحت النفس اللوامة المؤمن ، فيكثر الحسنات ليبطل السيئات ، وإذا ما تحولت النفس اللوامة إلى نفس أمارة بالسوء وجدت في المجتمع المسلم من يجرها .

(١) الذين الصدا يطر السيف فيهم بريق ويستعار لفشادة تطي على القلب بسبب الذنوب وراى الصدا عليه غلب عليه رضاء كله [ القاموس القويم ٢٨٢/١ ]



وبهذا تصيح أمة محمد ﷺ محصنة ضد الفتن التي تذهب  
الإيمان

ويقول الحق سبحانه

﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ..  
[آل عمران]

ويذكرنا الحق سبحانه بأن الرسول سيكون شهيداً علينا ، ونحن  
سكون شهداء على الناس ، وهكذا ضمن الحق سبحانه أن يعلم كل  
واحد من أمة محمد جريئة من العلم ليكون امتداداً لرسالة رسول  
الله ﷺ

ومثلما شهد الرسول أنه قد بلغ الرسالة ، سيكون على كل واحد  
من أمة محمد ﷺ أن يشهد بأنه قد بلغ ما علم من رسالة  
محمد ﷺ

وكل ما يعلم كيف حدثت الغفلة الأولى ، حيث حدثت الغفلة من  
الأسوة ، فزاحمتهم الشهوات وارتكبوا السيئات ، فحين غفلت النفس  
ارتكبت المعصية ؛ وحين رأى الناس من يرتكب المعصية قلده

وهكذا حمل من وقع في الغفلة وزره ووزر من اتبعه بالأسوة  
السيئة ، فصار ضالاً في داه ، ثم تحل وزر من أصله أيضاً

وهكذا صار من فعل ذلك هو من أحل قومه دار البوار

والبوار يعنى الهلاك ، ذلك أن الكبار من هؤلاء القوم حين  
تصرعوا وسلكوا بما يخالف المصهج أورثوا من اتبعوهم الهلاك

ونحن في الريف نصفُ الأرض التي لا تصلح للزراعة بأنها  
الأرض البور<sup>(١)</sup> ، وكذلك يُقال « قُمْنا بتبوير الأرض » أي أهكنا  
ما فيها من زرع

وحين نقرأ قول الحق .

﴿وَأَسْكُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨)﴾

[إبراهيم]

جد في كلمة « قومهم » ما يوحي بالخسّة لعن يرتكبون هذا  
الفعل الشائن ، فمن يهلك قومه لا بد أن يكون خسيساً ، ولا بد أن  
يكون محترف غشّ وحنيفة ، فالقوم هم من يقومون معهم ، وكان  
من اللائق أن تضرب على يد من يصيبهم بشر أو يفسدتهم  
أو يخدعهم

ويشرح الحق سبحانه دار البور هذه ، فيقول

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيُكْسَرُ الْقَرَارُ (٢٩)﴾

وإذا قسنا جهنم بالمقرات ، قلن نجد من يرغب في أن تكون  
جهنم هي مقره ، لأن الإنسان يحب أن يستقر في المكان الذي يجد  
فيه راحة ، ولو لم يجد في هذا المكان راحة ، فهو يتركه .

وجهنم التي يَصْلَوْنَهَا لن تكون المقر الذي يجدون فيه أدنى

(١) بور الأرض ما بار منها ولم يعمر بالزرع ، ولعل الزجاج البائر في اللغة الفاسد الذي  
لا خير فيه قال وكذلك أرض باثرة مقروكة من أن يزرع فيها [ لسان العرب - مادة  
بور ]

(٢) أصلاه النار أدخله إياها وأثواه فيها وصلبت النار أي تاسبت حرها وحسنى اللحم  
شواه والصلاه الشواه ، لأنه يُصلى بالنار [ لسان العرب - مادة صلى ]

راحة ، لأن العذاب مُقيم بها ؛ ولذلك يصفها للحق سبحانه بأنها

﴿بُئْسَ الْقَرَارُ (٢٩)﴾ [إبراهيم]

فكانهم ممسوكون بكلايب<sup>(١)</sup> فلا يستطيعون منها فكاكاً . وهي

تقول

﴿هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ (٣٠)﴾ [ذ]

وكانهم قد عَشِقُوا النار فعشقتهم النار ، ولو كانت لديهم قدرة على أَنْ يَفْرُوا منها لَفعلوا ، لكنهم مربوطون بها وهي مربوطة بهم وهي بُئْسَ الْقَرَارُ ، لأن أحداً لن مخرج منها إلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ

نَمَتَّوْا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٢﴾﴾

والنَّد هو المثل والمُشَابِه وهم قد اتخذوا لله شركاء ؛ وإيَّ شريك اتحدوه لم يَقُلْ لهم عن النعم لى أسغها عليهم ولم يُنزل لهم منهاجاً . ومؤلاء الشركاء كانوا أصناماً ، أو أشجاراً ، أو الشمس ، أو القمر ، أو النجوم ، ولم يَقُلْ كائن من هؤلاء مساذا أعطى من نعم ليعبدوه ؟

ونعلم أن العبادة تقتضى أمراً وتقتضى نهياً ، ولم يُنزل أى من هؤلاء لشركاء منهاجاً كى يتبعه مَنْ يعبدونهم ، ولا ثواب على العبادة ، ولا عقاب على عدم العبادة

(١) الكلايب جمع كَلَاب ، حبيدة معرجة الرأس ، كالخطاف [ لسان العرب - مادة كلب ]

ولذلك نجد أن مثل هؤلاء إنما اتجهوا إلى عبادة هؤلاء الشركاء :  
لأنهم لم يأتوا بمصيح يلتزمون به .

ولذلك نجد الدجالين الذين يدعون أنهم رأوا النبي ﷺ ،  
ويتصرفون مع من يُصدقونهم من الاتباع ، وكأنهم كانت أرقى من  
النبي ﷺ - والعياذ بالله منهم -

ومن العجيب أننا نجد بعضاً من المتقنين وهم يتبعون هؤلاء  
الدجالين وقد يبتعد عنه بسطاء الناس ، ذلك أن النفس الفطرية تحب  
أن تعيش على فطرة الإيمان ، أما من يأتي ليُحقِّق من أحكام الدين ،  
فيهواه بعض من يتلمسون الفكك من المنهج .

وبذلك يجعل هؤلاء الاتباع من يخفف عنهم المنهج ندأ الله  
- والعياذ بالله - ويضلون بذلك عن الإيمان

والحق سبحانه يقول هنا

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ .. ﴾ (٣)

[إبراهيم]

أى . لِيُضِلُّوا غيرهم عن سبيل الله .

وهناك قراءة أخرى<sup>(١)</sup> لنفس الآية « لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » ،  
وأنت ساعة تسمع حدثاً يوجد ليحيى حدث كنتيجة له . فأنت تأتي  
بـ « لام التعليل » كقولك « ذاك الطالب ليصبح » هنا أنت لم تأت  
بفعل وبقيضه وهل كانوا يضلون أنفسهم ؟

(١) هي قراءة ابن كثير وابن عسر - قاله القرطبي في تفسيره (٢٧٠٢/٥) ثم قال « أما من  
فتح ( أى الياء ) فعلى معنى أنهم هم يضلون عن سبيل الله على الدوام أى عاقبتهم  
إلى الإسلال والسلال ، فهذا لام العاقبة »

لا ، بل كانوا يتصورون أنهم على هدى واستقامة ، وهذه تُسمى « لام العاقبة » وهي تعني أنه قد يحدث بعد الفعل فعل آخر كان وارداً وهذه تُسمى « لام تعليلية » ،

ولكن قد يأتي فعل بعد الفعل ولم يكن صاحب الفعل يريد ، كما فعل فرعون حين التقط موسى عليه السلام من الماء ليكون ابناً له ، ولكن شاء الحق سبحانه أن يجعله عدواً .

وساعة التقاط فرعون لموسى لم يكن فرعون يريد أن يكبر موسى ليصبح عدواً له ، ولكنها مضيئة الله التي أرادت ذلك لتخطئة مَنْ ظن نفسه قادراً على التحكم في الأحداث ، بداية من ادعاء الألوهية ، ومروراً بذبح الأطفال الذكور ، ثم يأتي لتقاطعه لموسى ليكون قرة عين له ؛ فيبشاً موسى ويكبر ليكون عدواً له " .

ويتابع الحق سبحانه

﴿ قُلْ تَمَتُّعُوا إِنَّا مَصِيرُكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ (٣٠) [إبراهيم]

وهذا أمر من الله لمحمد أن يقول لهم : تمتعوا . وهذا أمر من الله والعبادة أمر من الله ، فهل إن تمتعوا يكونون قد أطاعوا الله ؟  
وهنا نقول : إن هذا أمر تهكمي ، ذلك أن الحق سبحانه قال من بعد ذلك :

﴿ فَإِنْ مَصِيرُكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ (٣١) [إبراهيم]

وعلى هذا نجد أن الأمر إما أن يُراد به إنقاذ طلب ، وإما أن يُراد به الصّد عن الطلب بأسلوب تهكمي

ونجد في قول الإمام على - كرم الله وجهه - تولا يشرح لنا هذا : « لا شر في شر بعده الجنة ، ولا خير في خير بعده النار ، فمن يقول إن التكالييف صعبة ، عليه أن يتذكر أن بعدها الجنة ، ومن يرى المعاصي والكفر أمراً هيناً ، عليه أن يعرف أن بعد ذلك مصيره إلى النار ؛ فلا تعزل العقوبات عن الأسباب ، ولا تعزل السبب عن المسبب أو المقدمة عن النتائج .

فالآب الذي يجد اسمه يلاحق امداكرة في الليل والنهار ليبنى مستقبله قد يشفق عليه ، ويسحب الكتاب من يده ، ويأمره أن يستريح كي لا يقع في المرض فيصبح كالمثنت<sup>(١)</sup> ، لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً<sup>(٢)</sup> أبقى ، ولكن الولد يرغب في مواصلة الجهد ليصل إلى مكانة مشرفة .

وهذا نجد أن كلاً من الآب والابن قد نظرا إلى الخير من زوايا مختلفة ، ولذلك قد يكون اختلاف المنظر إلى الأحداث وسيلة لاستقراء الخير في الأحداث .

وهم حين يسمعون قول الحق سبحانه

﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَّصِيرُكُمْ إِلَى النَّارِ ۖ ﴾ (٣)

[إبراهيم]

قد يستعبطون الأحداث ، ويقول الواحد منهم إلى أن يأتي هذا المصير قد نجد حالاً له .

ومقول : فليتذكر كل إنسان أن الأمر المعلق على غير ميعاد

(١) الانبيات الانقطاع ورجل مثبت أي ساقط به [ لسان العرب - مادة بث ]

(٢) الظهر الإبل التي يُحمَل عليها ويركب [ لسان العرب - مادة ظهر ]

مُحَدَّدٌ ، قَدْ يَأْتِي عِجَاةٌ ، فَمَنْ يَعِيشُ فِي مَعْصِيَةِ إِلَى عَمْرِ التَّسْعِينَ ،  
هل يظن أنه سيعرف من النار ؟

إنه وأهم يحدد نفسه ، ذلك أن إيهام الله لميعاد الموت هو أضعف  
بيان عنه ، وما دام المصير إلى النار فلا متعة في تلك الحياة .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا  
مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ  
لَّا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ ۖ ﴾

و « قُلْ » من الله لرسول الله ﷺ ، ومن معنى هذا أن العباد  
الذين سيسمعون هذا الأمر سيقومون إلى الصلاة ؟ لقد سمعه  
بعضهم ولم يقيم إلى الصلاة .

إذن من يطلع الأمر هو من حقق شرط الإيمان ، وعلينا أن ننظر  
إلى مكتشفات كلمة ، عبادي ، فعباد الله هم الذين آمنوا ، وحين  
يؤمنون فهم سيُعبرون عن هذا الإيمان بالطاعة وهكذا نفهم معنى  
الالفاظ لتستقيم معانيها في أساليبها .

وكل خلق الله عبيد له ؛ ذلك أن هناك أمراً قد أرادها الله في  
طريقة خلقهم ، لا قدرة لهم على مخالفتها ، فهو سبحانه قد قهرهم  
في أشياء ، وخبرهم في أشياء .

(١) خلال إس جمع خلة و مصدر حاله والمعنى إلى يوم القيامة لا ينجز من عذابه  
شيء ، فلا يباح فيه شيء بما لا يقتدي الكافر نفسه به ولا حيلة تفيد به ، فلا صديق  
يُغنى عن صديق [ للقاموس القويم ٢٠٨/١ ]

وبذلك أقول دائماً للمتتمردين على الإيمان بالله ، لقد أَلْفَنُم التمرّد على الله ، ولم يَأَبَ طَبَع واحد منكم على رِض التمرّد ، فإن كنتم صادقين مع أنفسكم عليكم أن تتمرّدوا على التنفس ، فهو أمر لا إرادى ، أو تمرّدوا - إن استطعتم - على المرض وميعاد الموت ، ولن تستطيعوا ذلك أبداً

ولكنهم أَلَفُوا التمرّد على ما يمكنهم الاحتيار فيه ونسوا أن الله يريد منهم أن يلتزموا بمنهجه ، فإن اختار امرؤ أن يتبع منهج الله صار من « عباد الله » وإن لم يضع للمنهج فيما له فيه احتيار فهو من العبيد المقهورين على اتباع أوامر الله القهرية فقط .

وأت حين تستقرى كلمة « عباد » وكلمة « عبيد » فى القرآن ستجد قول الحق سبحانه

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا<sup>(١)</sup> وَإِذَا حَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ<sup>(٢)</sup> قَالُوا سَلَامًا<sup>(٣)</sup>﴾ [الفرقان]

وتتعدد هنا صفات العباد الذين اختاروا اتباع منهج الله ، وستجد كلمة لعبيد وهى مُلتصقة بمن يتمردون على منهج الله ، ولن تجد وصفاً لهم بأنهم « عباد » إلا فى آية واحدة ، حين يخاطب الحقّ كلّ وعلا الذين أصسوا الناس ؛ فيقول لهم .

(١) الهون الرقيق واللين والثلث والهون السكينة والوقار والسهولة [ لسان العرب مادة هون ]

(٢) جهل ملان على غيره تعذى عليه وتضافه رقسا والجهل الطيش والسفه والتعذى بقير حق والجهل أيضاً ضد العلم وهو الخلو من المعرفة [ القاموس القويم ١٣٤/٩ ]



﴿أَأَنْتُمْ أَضَلُّتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧)﴾ [الفرقان]

ونلاحظ أن زمن هذا الخطاب هو في اليوم الآخر ، حيث لا يوجد لأحد مُرتاد مع الله ، وحيث يسلب الحق سبحانه كل حق الاختيار من كل الكائنات المختارة

وهكذا لا يمكن لأحد أن يطعن في أن كلمة « عباد » إنما تستخدم في وَصَف الذين اختاروا عبادة الله والالتزام بمنهجه في الحياة الدنيا ، ذلك أنهم قد سَلِمُوا زِمَام اختيارهم لله ، وأطاعوه في أوامره ونواهيه

ونلاحظ أن قول الحق سبحانه

﴿قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً .. (٣١)﴾ [إبراهيم]

هو أمر صادر من الحق سبحانه لرسوله ﷺ ، وأن المؤمنين في انتظار هذا الأمر لِيَتَفَعَّدُوهُ فوراً ، ذلك أن المؤمن يحب أن يُنفذ كل أمر يأتيه من الله .

وما دُمْتُ قد أبلغتهم يا محمد هذا الأمر فسيُنفذونه على الفور ، وقد جاء قول ( يقيموا ) محذوفاً منه لام الامر ، تأكيداً على أنهم سيصدقون<sup>(١)</sup> لتنفيذ الأمر فور سماعه .

وعادة نجد أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في جمهرة آيات القرآن<sup>(٢)</sup> تأتيان متتابعين مع بعضهما ، لأن إقامة الصلاة تتطلب

(١) صدقت إلى الشيء - ملئت إليه [ لسان العرب - مادة صدع ]

(٢) جاء هذا في أكثر من ٢٧ آية من القرآن [ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ]

حركة ، تتطلب طاقة وتأخذ وقوداً والوقود يتطلب حركة ويأخذ زمناً ، والزكاة تعنى أن تُخرج بعضاً من ثمرة الزمن ، وبعضاً من أثر الحركة فى الوقت

ونجد الكسالى عن الصلاة يقولون : « إن العمل يأخذ كل الوقت والواحد ممّا يحاول أن يجمع الصلوات إلى آخر النهار ، ويؤدّيها جميعها قضاءً » وهم لا يلتفتون إلى أن كل فرض حين يؤدّى فى ميعاده لن يأخذ الوقت الذى يتصورون أنه وقت كبير

وظاهر الأمر أن الصلاة تُقلّل من ثمرة العمل ، لكن الحقيقة أنها تُعطى شحنة وطاقة تحفز النفس على المزيد من إتقان العمل ، وكيف يُقبل المصلّى على العمل بنفس راضية ، ذلك أنه بالصلاة قد وقف فى حضرة مَنْ خلقه ، وَمَنْ رزقه ، وَمَنْ كفله

ولذلك يخرج منها هادئاً مطمئناً مُنتبهاً راضياً ، ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول « أرحنا بها يا بلال »<sup>(١)</sup>

والصلاة فى كل فرض ، لن تأخذ أكثر من ربع الساعة بالوضوء ، وإذا سببت وقت الصلوات كلها إلى وقت العمل سجد أنها تأخذ نسبة بسيطة وتعطى بأكثر ممّا أخذت

وكذلك الزكاة قد تأخذ منك بعضاً من ثمرة الوقت لتعطيه إلى غير القادر ، ولكنها تمنحك أماناً اجتماعياً فوق ما تتخيّل

ولذلك تجد الصلاة مُرتبطة بالزكاة فى آيات القرآن ببعضهما ، وإقامة الصلاة هى جماع القيم كلها ، وإيتاء الزكاة جماع قيام الحركات العضلية كلها .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ( ٥ ٢٦٤ ) ، وأبو داود فى سننه ( ٤٩٨٥ ) عن رجل من الصحابة

وتعالج الصلاة شيئاً ، وتعالج الزكاة شيئاً آخر ، وكلاهما تُصلح  
مكونات ماهية الإنسان ، الروح ومقوماتها ، والجسد ومقوماته  
ولذلك قال ﷺ : « رَجَعْتُ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ »<sup>(١)</sup> .

وحين تنظر إلى الصلاة والزكاة تجد مصالح الحياة مجتمعة  
وتتفرع منهما ، ذلك أن مصالح الحياة قد جمعها ﷺ في الأركان  
الخمسة للدين ، وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ،  
واقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن  
استطاع إليه سبيلاً<sup>(٢)</sup> .

وعرفنا من قبل كيف أخذت الصلاة كل هذه لأركان مجتمعة ،  
ففيها شهادة أن لا إله إلا الله ، وفيها نضحية وتزكية ببعض الوقت ،  
وفيها صوم عن كل ما تلتزم به وأنت صائم ، وأنت تتوجه خلاله  
إلى قبلة بيت الله الحرام

وهكذا نرى كيف ترتبط حركة الحياة والقيم المُصلحة لها  
بالصلاة والزكاة .

ويأمرنا الحق سبحانه في هذه الآية الكريمة بأن ننفق سراً  
وعلانية ، وهكذا يشيع الحق الإنفاق في أمرين متقابلين ، فالإنفاق

(١) أخرجه أحمد في مسنده ( ١٢٨/٢ ، ١٩٩ ، ٢٨٥ ) ، والسنن في سننه ( ١١/٧ )  
والحاكم في مستدركه ( ١٦٠/٢ ) من حديث أس بن مالك رضي الله عنه ، قال الحاكم  
صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، ولما به : « حَبَّبَ إِلَىَّ مِنَ الدُّنْيَا  
النَّفْسَ ، وَالطَّيِّبَ ، وَجَعَلَتْ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ »

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ( ١٦ ) كتاب الإيمان ، والبخاري في صحيحه ( ٨ ) من  
حديث ابن عمر رضي الله عنهما

سراً كي لا يقع الإنسان فريسةً المباهة ؛ والإنفاق علناً كي يعطى غيره من القادرين أسوة حسنة ، ولكي تمنع الآخرين من أن يتحدثوا عنك بلهجة فيها الحسد والغيرة مما أفاء الله عليك من خير

ولذلك أقول اجعل الصدقة التطوعية سراً ، واجعلها كما قال النبي ﷺ : « لا تعلم شمالك ما أعطت يمينك »<sup>(١)</sup>

واجعل الزكاة علانية حتى يعلم الناس أنك تؤدي ما عليك من حقوق الله وتكون بالنسبة لهم أسوة فعلية ، وعظة عملية ، واجتنبوا من أركان الإسلام عظة سلوكية ، فتجن نوى بعضاً من القرى والمدن لا يحج منها أحد ، لأن القادرين فيها قد أدوا فريضة الحج .

ونجد أن القادر الذي يبني مسجداً ، يعطى القادر غيره أسوة ليبني مسجداً آخر ، وما أن يأتي رمضان حتى يصوم القادرون عليه ، ويعطوا أسوة لصغارهم ، وتمنع الاستخذاء أمام الغير ، وهكذا يعلن كل تكاليف الإسلام بوصوح أمام المجتمعات كلها .

ويقول الحق سبحانه

﴿ قُلْ لِمَ بَادِيَ الدِّينِ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ ﴾ (٣٦) [إبراهيم]

ومن هنا نعلم أن هناك أعمالاً يمكن أن تزجها ، إلا الغابات التي

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ( ١٠٣١ ) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ضمن حديث « سمعة يظلمهم الله من ظلم يوم لا ظل إلا ظله ، الإمام العاتل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلار تحباً في الله اجتمعوا عليه وقرقاً منه ، ورجل بعته امرأة مات منصب وجمال فقال إني أخلف الله ، ورجل تصدق بصدقة قلهاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه »

لا توجد فيها أعواض ، فعليك أن تقتبِز الفرصة وتنفذها على الفور ،  
ذلك أن اليوم الآخر لن يكون فيه بَيْعٌ أو شراء ، ولن يستطيع أحد  
فيه أن يُزكى أو يُصلى . فليست هناك صداقة أو شفقة تُغيك عما  
كان يجب أن تقوم به في الحياة الدني

والشفاعة فقط هي ما أذن له الرحمن بها<sup>(١)</sup> . ولذلك يأتي الأمر  
هنا بسرعة القيام بالصلاة وإيتاء الزكاة والإنفاق سرّاً وعلانية من  
قبل أن يأتي اليوم الذي لا بَيْع فيه ولا حلال .

والبيع - كم نعلم - هو معلومة متقابلة ، فهناك من يدفع  
الشمس ، وهناك من يأخذ السلعة والحلال هو العُخالة ، أي  
الصدق الوفي الذي تلزمه ويلزمك .

والشعر يبين معنى كلمة « خليل » حين يقول

لَمَّا التَقِينَا قَرَبَ الشُّوقِ جَهْدَهُ      خَلِيلِينَ ذَايَا لَوْعَةٍ وَمَتَابَا  
كَانَ حَلِيلًا فِي حِلَالِ خَلِيلِهِ      تَسْرِبًا أَثَاءَ الْعِتَاقِ وَغَبَا  
وهذا يوضح أن المُخالة تعني أن يتخلل كلُّ مبهما الآخر .

وفي الآخرة لن تستطيع أن تشتري جنة أو تفتدي نفسك من  
البار ، ولا مُخالة هناك بحيث يفيض عليك صديق من حسنة  
والحق سبحانه هو القائل

(١) يقول تعالى ﴿وَمَنْ لَهُ شَفَاعَةٌ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ رَوْحِي لَهُ قَوْلًا ﴿١٤٩﴾﴾ [طه] ويقول  
أيضاً ﴿وَلَا تَطْعُمُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴿١٥٠﴾﴾ [سبا] فالشفاعة تليق بسن القرآن  
بشرط إذن الله للشافع أن يشفع وللشروع فيه يعلم الله فيه ، أما الكافرون والمشركون  
والمنافقون فالشفاعة منفية عنهم

﴿الْأَخْلَاءُ يُؤْمِلُونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوًّا إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧) [الرخرف]

وبعض السطحيين يريدون أن يأخذوا على القرآن أنه أثبت الخلّة  
ونعما ؛ فهو لقاتل

﴿لَا يَنْعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ (٣١) [إبراهيم]

ومو القاتل

﴿وَلَا خِلَّةٌ ..﴾ (١٥٤) [البقرة]

ثم أثبت الخلّة للمتقين ، الذين لا يُزَيّن أحدهما للآخر معصية  
وهؤلاء السطحيون لا يُحسنون تدبر القرآن ، ذلك أن الخلّة  
للمتقية - أو الحلال المنصية - في الآيات هي الخلال التي تحض على  
المعاصي ؛ وهذه هي الخلال السيئة

وبعلم أن البيع في الحياة الدنيا يكون مفايلة سلعة بشئ ، أما  
المُخَالَة ففيها تكريم ممن يقدمها ، وهو أمر ظاهري ، لأن في باطنه  
مُقايسة ، فإذا قدّم لك لحدّ جميلاً فهذا يقتضى أن تردّ له الجميل ،  
أما التكرّم المجرد فهو الذي يكون بخير سابق أو لاحق .

وبعد أن بيّن لنا الحق سبحانه السعداء وبيّن الأشقياء ، وضرب  
المثل بالكلمة الطيبة ، وضرب المثل بالكلمة الخبيثة ، يأتي من بعد  
ذلك مما يهيج في المؤمن فرحة في نفسه ، لأنه آمن بالله الذي  
صنع كل تلك النعم ، ويذكر نعماً لا يشترت فيها مع الله أحد أبداً ،  
فيقول .

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ  
مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ<sup>(١)</sup>  
لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأنْهَارَ<sup>(٢)</sup>﴾

والسمااء والارض كما نعظم - هما ظرفا الحياة لنا كلها ، وقد  
قال الحق سبحانه

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ..﴾ (٥٧) [ غافر ]

فإذا كان الله هو الذى خلق السماوات والارض ؛ فهذا لفتٌ بنا  
على الإجمال ، لأنه لم يقل لنا ما قاله فى مواضع اخرى من القرآن  
اتكريم بأنها من غير عمد<sup>(٣)</sup> ؛ وليس فيها فطور ، ولم يذكر هنا أنه  
خلق فى الارض رواسى كى لا تميد<sup>(٤)</sup> بنا الارض ، ولم يذكر كيف  
قدّر فى الارض أنواتها<sup>(٥)</sup> ، واكتفى هنا بلمحة عن خلق السماوات  
والارض

(١) الفلك السفينة للمذكر والمؤنث والواحد والجمع [ القاموس القويم ٢/ ٨٩ ]

(٢) عمد جمع عمود وقال الفراء فيه قولان

- احيوها أنه خلقها مرفوعة بلا عمد ، ولا يستلجون مع الرؤية إلى خبر

والقول الثاني أنه خلقها بعمد لا تورب تلك العمد [ لسان العرب - مادة عمد ]

(٣) ماد يمسد تحرك واقتزى رسات الارض اضطربت وولدت قال تعالى ﴿وَأَتَى فِي

الارض رواسى أن تميد بكم﴾ [ لقمان ] لثلاث تميل ويضطرب ، قالجبال العلية ثوارن

البحار العميقة [ القاموس القويم ٢/ ٧٤٦ ]

(٤) القوت الطعام يحفظ على البين حياته وجمعه اقوات قال تعالى ﴿وَقَدَّرَ بِهَا أنواتها فى

أنفة أيام﴾ [ فصلت ] أى اقوات جميع سكان الارض من انسان وحيوان وكل شيء

حتى إلى آخر الدهر [ القاموس القويم ٢/ ١٢٦ ]

وحين يتكلم سبحانه هنا عن خلق السماوات والأرض يأتي شيء لم يدعه أحد على كثرة المدعين من الملاحدة ؛ وذلك لتكون ألزم في الحجة للخصم ، وبذلك كشف لهم حقيقة عدم إيمانهم ، وجعلهم يدرون أنهم كفروا نتيجة لرد<sup>(١)</sup> غير حاضج لمنطق ؛ وهو كفر بلا أسباب .

وحين يحكم الله حكماً لا يوجد له معارض ولا منازع ، فهذا يعنى أن الحكم قد سلم له سبحانه ولم يجترأ أحد من الكافرين على ما قاله الله ، وكان الكافر منهم قد أدار الأمر في رأسه ، وعلم أن أحداً لم يدع لنفسه خلق السماوات والأرض ، ولا يجد مفرأ من التسليم بأن الله هو الذى خلق السماوات والأرض

وقور الحق سبحانه هنا

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ .. (٣٧)﴾ [إبراهيم]

يُوضِّح لنا أن كلمة « الله » هنا ، لأنها مناط الصعوبة في التكليف ، فالتكليف يقف أمام الشهوات ، وقد تغضبون من التكليف ، ولكنه يحميكم من بعضكم البعض ، ويكفل لكم الأمان والحياة الطيبة.

ولم يأت الحق سبحانه بكلمة « رب » هنا لأنها مناط العطاء الذى شاء لبشر ، مؤمنهم وكافرهم .

وكلمة « الله » تعنى المعبود الذى يُنزل الأوامر والنواهي ، وتعنى أن هناك مشقات ، ولذلك ذكر لهم أنه خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء .

(١) اللد - الخصومة الشديدة - ولده يلد - حصنه [ لسان العرب - مادة لدد ]



ونحن حين نسمع كلمة « السماء » نفهم أنها السماء المقابلة للأرض . ولكن التحقيق يؤكد أن السماء هي كل ما علاك فأظلك والمطر كما نعلم إنما ينزل من الغيم والسحاب والحق سبحانه هو القائل .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوْجِىٓ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ۚ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ حَلَالِهِ ۚ ﴾ (٤٣) [النور]

وقد عرفنا بالعلم التجريبي أن السحابة - على سبيل المثال - تتلبد من فوق السحاب ، وعلى ذلك فالمطر لا ينزل من السماء ، بل يتزل منّا يعلونا من غيم وسحاب

أو . أنك حين تنسب لنزول من السماء ، فهذا يوضح لما أن كل أمورنا تأتي من أعلى ، ولذلك نجد الحديد الذي تحتضنه الجبال ويصنع في داخلها ، يقول فيه الحق سبحانه

﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾ (٢٥) [الحديد]

(١) رجه بوجه دفعا بسرعة وزجا الشيء يرجوه سلقه يرفق [ القاموس القويم

[ ٧٨٤/١ ]

(٢) قوله ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ۚ ﴾ [النور] أي متجمعا فيه سحر كثير فريه [ القاموس

القويم [ ٢٢٦/١ ]

(٣) الودق المطر كله شديده وهينه [ لسان العرب - مادة ودق ]

(٤) قال ابن كثير في تفسيره ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [الحديد] يعني السلاح كالسيوف والحراش والسنان والتصال والدروع وحرم و ﴿ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد] أي من مصلحتهم كالسكة والناس والقنود والمشاور والأرميل والآلات التي يستعمل بها في الحراثة والحياسة وما لا قوام للناس بدونه وغير ذلك [ تفسير ابن كثير ٣١٥/٤ ]

وهكذا نجد أنه إما أن يكون قد نزل كعناصر مع المطر ، أو لأن الأمر بتكوينه قد نزل من السماء .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يتحدث الحق سبحانه عن خلق السموات والأرض ، وكيف أنزل الماء من السماء .

﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رَرَقًا لَكُمْ .. ﴾ (٣٧)

[إبراهيم]

والثمرات هي نتاج ما تعطيه الأرض من نباتات قد تاكل بعضها منها ، وقد لا تاكل البعض الآخر ، فنحن ناكل العنب مثلاً ، ولكننا لا ناكل فروع شجرة العنب ، وكذلك ناكل البرتقال ، ولكننا لا ناكل أوراق وفروع شجرة البرتقال

ويتابع سبحانه

﴿ وَمَسْحُورٌ لَكُمْ الْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ .. ﴾ (٣٨)

[إبراهيم]

والتسخير معناه قهر الشيء ليكون في خدمة شيء آخر وتسخير الفلك قد يثير في ذهن سؤالا كيف يُسحر الله الفلك ، والإنسان هو الذي يصنعها ؟

ولكن لماذا لا يسأل صاحب السؤال نفسه ومن أين تأتي بالأخشاب التي تصنع منها الألواح التي تصنع منها الفلك ؟ ثم من الذي جعل الماء سائلاً ، لتطفو فوقه السفينة ؟ ومن الذي سير الرياح لتدفع السفينة ؟

كل ذلك من بديع صنع الله سبحانه .

وكلمة « الفلك » تأتي مرة ويُراد بها الشيء الواحد ، وتأتي مرة ويُراد بها اشياء ، فهي تصلح ان تكون مفرداً او جمعاً .

والمثل هو قول الحق سبحانه :

﴿وَأُطْلِكَ الْبَحْرَ فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ .. (١٦٤)﴾ [البقرة]

وكذلك قال في قصة نوح عليه السلام :

﴿وَاصْنَعِ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا .. (٢٧)﴾ [هود]

وبعض العلماء يقولون : إذا عاد ضمير التانيث عليه ، تكون جمعاً ، وإذا عاد عليها بالتذكير تكون مفرداً .

ونكتي أقول : إن هذا القول غير غالب ، فسبحانه قد قال عن سفينة نوح وهي مفرد

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا .. (١٤)﴾ [القمر]

ولم يقل : « تجري بأعيينا » ، وهكذا لا يكون التانيث دليلاً على الجمع

ويتابع سبحانه .

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ .. (٢٦)﴾ [إبراهيم]

ونفهم بطبيعة الحال أن النهر عَذْبُ الماء ، والبحر ماؤه مالح . وسبحانه قد سَخَّرَ لنا كل شيء بأمره ، فهو الذي خلقَ النهر عَذْبُ الماء ، وجعل له عُمُقًا يسمح في بعض الأحيان بمسير الفلك ، وأحياناً أخرى لا يسمح للعمق بذلك .

وجعل البحر عميقاً القاع لتمرُق فيه السفن ، وكل ذلك مُسَحَّرٌ  
بأمره ، وهو القاتل سبحانه .

﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ..﴾ (٣٣) [الشورى]

أى أنه سبحانه قد يشاء أن تقف الرياح ساكنة ، فتترك السفن  
فى البحار والأنهار

ومن عجائب إنباءات القرآن أن الحق سبحانه حينما تكلم عن  
الرياح التى تُسَيِّرُ الفلك والسفن ، قال الشكليون والسطحيون « لم نعد  
تُسَيِّرُ السفن بالرياح بل تُسَيِّرُها بالطاقة » .

ونقول فلنقرأ قوله الحق

﴿وَلَا تَنَارَعُوا فَيَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ..﴾ (٤٦) [الأنفال]

و « ريحكم » تعنى قوتكم وطاقتكم ، فالمراد بالرياح القوة  
المطلقة ، سواء جاءت من هواء ، أو من بخار ، أو من ماء .

وهذه الآية - التى نحن بصدد خراطرتها عنها - نزلت بعد أن  
أعلمنا الحق سبحانه بقصة السعداء من المؤمنين ، والاشقياء  
الكافرين ، فكانت تلك الآية بمثابة التكريم للمؤمنين الذين قدروا نعمة  
الله هذه ، فلما علموا بها آمنوا به سبحانه .

وكرمهم هذه الآية لصفاء بطرتهم التى لم تُضَجَّبْ ، وتكريم  
للعقل الذى فكَّر فى الكون ، ونظر فى مظرة اعتقار وتدبر ليستنتج  
من ظواهر الكون أن هناك إلهاً خالقاً حكيماً .

وفى الآية تفريع للكافر الذى استقبل هذه انعم ، ولم يسمع من

أحد أنه خلقها له ؛ ولم يخلقها لنفسه ، ومع ذلك يكابر ويعاند ويكفر  
بربّ هذه النعم .

وأول تلك النعم خَلَقَ السماوات والأرض ، ثم إذا نظرتَ لبقية  
النعم فستجدها قد جاءتُ بعد خَلَقِ السماوات والأرض ، وشيء من  
تلك النعم مُفَصَّلٌ بالسمااء مثل السحاب ، وشيء متصل بالأرض  
مثل الثمرات التي تخرجها .

إذن فالاستقامة الأسلوبية موجودة بين انعمّة الأولى وبين  
النعمة الثانية

ثم قال بعد ذلك

﴿ وَسَخَّرْ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ .. ﴾ (٢٢) [إبراهيم]

فما هي المناسبة التي جعلتُ هذا الأمر يأتي بعد هذين الأمرين ؟  
لأنَّ الْفُلْكَ طريقها هو لبحار ومسارها في الماء .

وقد قال الحق سبحانه أنه خلق السماوات والأرض ومساكن  
الأرض ينصرف على اليابسة كما ينصرف على المائية وعن العجيب  
أن المائية على سطح الكرة الأرضية تساوي ثلاثة أمثال اليابسة ؛  
ورُقْعَةُ الماء بذلك تكون أوسعَ من رقعة التراب في الأرض

وما دام الحق سبحانه قد قال إنه أخرج من الأرض ثمرات هي  
برق لنا ، فلا بُدَّ من وجود علاقة ما بين ذلك وتلك ، فإذا كانت  
البحار تأخذ ثلاثة أرباع المساحة من الأرض ، فلا بُدَّ أن يكون فيها  
للإنسان شيء

وقد شرح الحق سبحانه ذلك في آيات أخرى ، وأوضح أنه سخر البحر لساكن منه لحماً طرياً<sup>(١)</sup> ، وتلك مقومات حياة ، ونستخرج منه حلية نلبسها ، وذلك من ثرف الحياة .

ونرى القلك مواخر<sup>(٢)</sup> فيه لنبتغى من فضله سبحانه .

وبذلك تكون هناك خيرات أخرى غير السمك والطحى ، ولكنها جاءت بالإجمال لا بالتفصيل ، فربما لم يكن الناس قادرين في عصر نزول القرآن على أن يفهموا ويعرفوا كل ما فى البحار من خيرات ، ولا ترال الاسحات العلمية تكشف لنا المزيد من خيرات البحار

وحين نتأمل الآن خيرات البحار نتعجب من جمال المخلوقات اتى فيه

إن فنقوله

﴿لِنَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ .. (٦٦)﴾

[الإسراء]

هو قول إجمالى يُلخّص وجود أشياء أخرى غير الأسماك وغير الزينة من اللؤلؤ والمرجان وغيرها ، ونحن حين نرى مخلوقات أعماق البحار نتعجب من ذلك الخلق أكثر مما نتعجب من الخلق الذى على اليابسة ، ومن خلق ما فى السماء

(١) وذلك قوله تعالى ﴿وَمَا يَسْغَى الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ مُتَّبَعٌ شَرَابُهُمْ وَهَذَا طَحْجٌ أَمَّا جِوَارُهُمْ فَهُمْ كَلٌّ تَكُونُ لِحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حُلِيَّةً لَتَبْسُوهَا وَنَرَى الْقَلَكُ فِيهِ مَوَاحِرُ لِنَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِمَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

﴿[فاطر]

(٢) سحر السقينة سحرًا وسحرًا شقت الماء بصدورها وسمع لها صوت [ القاموس المبرور

[ ٢١٨/٢

وهكذا يكون قوله الحق

﴿ تَبْتَغُوا مِنْ أَفْئِدِهِ .. ﴾ (٦٦)

[الإسراء]

من آيات الإجمال التي تُفصّلها آيات الكون ، فبعض من الآيات القرآنية تُفسرها الآيات الكونية ، ذلك أن الحق سبحانه لو أوضح كل التفاصيل لما صدّق الناس - على عهد نزول القرآن - ذلك

وعلى سبيل المثال حين تكلم سبحانه عن وسائل المواصلات ،

قال

﴿ وَالْخَيْلِ وَالْإِبَالِ وَالْحَمِيرِ لَتَرْكَبُوهَا وَزِيَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٨)

[النحل]

وقوله تعالى

﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٨)

[النحل]

أدحل كلّ ما اخترعنا نحن البشر من وسائل المواصلات ، حتى النقر بالأزدار كالفاكس وغير ذلك ،

وحينما يتكلم سبحانه عن البحار ، إنما يوضح لنا ما يكمل الكلام عن الأرض

﴿ وَسَحَّرَ لَكُمْ الْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ .. ﴾ (٣٦)

[إبراهيم]

ولو فطن الناس لقالوا عن السفن « جمال البحار » ، ما ناموا قد قالوا عن الجمل إنه « سفينة الصحراء » ، ولكنهم أخذوا بالمجهول لهم بالمعلوم لديهم

واياك أن تقول - أنا الذى صنعتُ الشراع ؛ وأنا الذى صنعتُ  
المركب من الألواح ، ذلك أنك صنعتُ كل ذلك بقواك المخلوقة لك من  
الله ، وبالفكر الموهوب لك من الله ، ومن المادة الموهوبة لك من الله ،  
فكلها أشياء جاءتُ بأمر من الله .

وهنا يقول سبحانه

﴿ وَسَخَّرْ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٧٧) ﴾ [إبراهيم]

والنهر ماؤه عادة يكون عذباً ليروى الأشجار التى تُنتج الثمار  
والأشجار عادة تحتاج ماء عذباً

وهكذا شاء الله أن يكون ماء البحر والمحيطات مخزوناً ضخماً  
للمياه ، تحت ثلاثة أرباع مساحة الكرة الأرضية ، وهى مساحة  
شاسعة تتيح فُرصة لعمليات البحر ، التى تُحوّل الماء بواسطة  
الحرارة إلى بخار يصعد إلى أعلى ويصير سحباً ، فيُسقط السحابُ  
الماء بعد أن تخلص أثناء اليخر من الأملاح وصار ماء عذباً تروى  
منه الأشجار التى تحتاجه ، وتنتج لنا الثمار التى نحتاجها ، وكان  
الأملاح التى توجد فى مياه البحار تكون لحفظها وصيانتها من  
العطب

ونعلم أن معظم مياه الأنهار تكون من الأمطار ، وهكذا تكون  
دورة الماء فى الكون ؛ مياه فى البحر تسطع عليها الشمس  
لتبخرها ، لتصير سحباً ، ومن بعد ذلك تسقط مطراً يُعذى الأنهار ،  
ويصب الراقد مرة أخرى فى البحار .



ويتابع سبحانه -

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ <sup>(١)</sup>  
وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [٣٣]

والشمس آية بهارية ، والقمر آية ليلية ، والماء الذي نضمربه له علاقة بالشمس والتي تُبخره من مياه البحار ، وتروى به أيضاً الأرض التي تنتج لنا الثمار ؛ أما البحار مصاب كل ما يحصى فيها يتم حسب التقويم القمري

وهل كان رسول الله ﷺ يعلم كل ذلك وهو النبي الأمي ؟

طبعاً لم يكن ليعلم ، بل أنزل الحق سبحانه عليه القرآن ، يضم حقائق الكون كلها

وقول الحق سبحانه عن الشمس والقمر « دائبين » من الدَّاب ، والدَّوْب هو مرور الشيء في عمل رتيب ، ونقول « فلان دَّوْب على المذاكرة » أي - أنه يبذل جهداً منظماً رتيباً لتعميل مواده الدراسية ، ولا يُبدد وقته

وكذلك الشمس والقمر اللذان أقام الحق سبحانه لهما نظاماً دقيقاً

(١) داب على الأمر - أصابه - ودائبين أي مستمرين في الحركة دائبين فيها بلا انقطاع تشبيهاً لهما بالإسفن المعبد - وقال تعالى ﴿ قُلْ تَزْعُمُونَ سُبْحَ سُبْحَ عَالِيَا - (١٧) ﴾ [يوسف] أي - مناديين مجتهدين ذوي دأب - [ القاسم القويم ١/ ٢١٩ ]

وعسى سبيل المثال نحن بحسب اليوم بأوله من الليل ثم النهار ،  
ونقسم اليوم إلى أربع وعشرين ساعة ، ولذلك قال اسحق سبحانه

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ٥٥ ﴾ [الرحمن]

وقال أيضاً .

﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ٩٦ ﴾ [الأنعام]

أى أنك أيها الإنسان ستجس من ظهور واحتفاء أى منهما  
حساباً

وقد جعلهما الحق سبحانه على دقة فى الحركة تُيسر علينا أن  
نحسب بهما الزمن ، فلا اصطدام بينهما ، ولكل منهما قَلْك<sup>(١)</sup> خاص  
وحركة مسوبة بدقة فلا يصطدمان ولا يُشبهان بطبيعة الحال  
الساعات التى نستخدمها وتحتاج إلى ضبط .

وكلم ارتفعيا فى صناعه نجد اخفراعتنا فيها تُقَرِّبنا من عَمَقِ  
الإيمان بالخالق الأعلى

وفى نفس الآية يقول الحق سبحانه

﴿ وَمَسْجُرٌ<sup>(٢)</sup> لَّكُمُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ٢٢ ﴾ [إبراهيم]

(١) الفلك المدار يسبح فيه الجرم السماوى قال تعالى ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ٢٣ ﴾

[الأنعام] أى من مدار تدور فيه [ القاموس القويم ٨٩/٢ ]

(٢) مسجُرُه أحضه وقهره لينفذ ما يريد معه بدون إرادة ولا إختيار من المسجُر ومنه قوله

تعالى ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُسْجَرَاتٍ بِأَمْرِ ٥٥ ﴾ [الأعراف] أى مصيرات خاضعت

مشهورات بأمر الله وإرادته هو ، لا بإرادتها ولا بمختيارها [ القاموس القويم ٢٠٦/١ ]

وبما أن الشمس آية نهارية ، والقمر آية ليلية . والنهار يسبق الليل في الوجود بالنسبة لنا . كان مقتضى الكلام أن يقول سخر لكم النهار والليل .

ولكن الحق سبحانه أراد أن يُعلمنا أن القمر وهو الآية الليلية ، ويسطع في الليل ، والليل مخلوق للمكون ، لكن هذا السكون ليس سبباً لوجود الإنسان على الأرض ، بل السبب هو أن يتحرك الإنسان ويستعمر الأرض ويكده ويكده فيها

لذلك جعل استهلال الشمس أولاً والقمر يسجد صوته منها ، ثم جاء بخر الليل وخر النهار ، فكان الله قد اكتنف هذه الآية بنورين

النور الأول من لشمس . والنور الثاني من القمر ، كي يعلم الإنسان أن حياته مُغلقة تغليفاً يتيح له الحركة على الأرض ، فلا تتلذذ أيها الإنسان أن الأصل هو النوم ! ذلك أنه سبحانه قد خلق النوم لقرتاح ، ثم تصحو لتكدح

ولنلاحظ أن كلمة « التسخير » تأتي للأشياء الجوهرية ، وتأتي للمُسخرات أيضاً ، فالحيوان مُسخر لنا ، وكذلك النبات والسماء مُسخرة بما فيها لنا . أما الليل والنهار فهما نتيجتان لجواهر هما لشمس والقمر ، والليل والنهار مُسببان عن شيئين مُبشرين هما لشمس والقمر .

والتسخير - كما نعلم - هو منع الاحتيار . وإذا ما سخر الحق سبحانه شيئاً فلنعلم أنه مُنضبط ولا يتأثر فيه اختلال ، ولكن الكائن غير المُسخر هو الذي يتأثر فيه الاختلال ، ذلك أنه قد يسير على جادة الصواب ، أو قد يُخطئ

وفى مسألة التسخير والاختيار تُعب الفلاسفة فى دراستها ،  
وذهبت المذاهب الفلسفية - وخصوصاً فى ألمانيا - إلى مذهبين اثنين  
ظاهريهما التعارض ، ولكنهما يسيران إلى غاية واحدة وهى تبرير  
الإلحاد .

وكان من المقبول أن يكون مذهبٌ منهم يُبرر الإلحاد ، وأن يبرر  
الآخر الإيمان ، ولكن شاء فلاسفة المذهبين أن يُبرروا الإلحاد

وقال فلاسفة أحد المذهبين . أنتم تقولون إن الكون تُديره قوة  
قادرة حكيمة ، وأن كُلَّ ما فيه منضبط بتصرفات محسوبة ودقيقة .

ولكن الواقع يقول إن هناك بعضاً من المحالفات التى تراها  
فى الكائنات ، والعنل هو تلك الشذوذات التى فى الإنسان . على  
سبيل المثال - فهناك القصير أكثر من اللارم ؛ وهناك الطويل أكثر  
من اللارم ، وهناك من يولد بعين واحدة ؛ وهناك من يولد بدراع  
عاجز ، ولو أن القوة التى تدير الكون حكيمة لَمَا ظهرت أمثال تلك  
الشذوذات .

ونرد على صاحب تلك النظرية قائلين : وإنا لم يَكُنْ هناك إله ،  
أستطيع أن تقول لنا الحكمة من وراء وجود تلك الشذوذات ؟ فانت  
تدفع الحكمة عن الخالق الذى يؤمن به ، فهل تستطيع أنت إثبات  
الحكمة لغيره ؟ طبعاً لن يستطيع أن يرد عليك لأن كلامه مردود .

ثم نأتى للمدرسة المقابلة التى تقول . إن النظام الموجود بالكون  
يدل على أنه لا يوجد به خالق ؛ فهو نظام ثابت آلى ، ولا يوجد إله  
قادر على أن يقلب آلية هذا الكون .

وهكذا كانت هاتان المدرستان مختلفتين ، ومتعارضتين ؛ ولكنهما  
يؤديان إلى الإلحاد

ونرد على المدرستين قائلين يا من تأخذ ثبات النظام دليلاً  
على وجود إله ، فهذا الثبات موجود في الكون الأعلى ويا من تأخذ  
الشدوذ دليلاً على وجود خالق ، فهو موجود في الكائنات الأدنى ،  
ولو حدث الشذوذ في الكائنات الأعلى لقُصدت السماوات والأرض .

وقد شاء الحق سبحانه أن يوحد الشذوذ لوجه في الأفراد ،  
فواحد يكون شاذاً ، والباقي الغالب يكون سليماً

وهكذا يكون الشذوذ في الأفراد غير مانع لقضية وجود خالق  
أعلى ، وإذا أردت ثبات النظام فانظر إلى الكون الأعلى ، كي تعلم أنه  
لا يوجد للإنسان مدخل في هذا الأمر

وهكذا نجد أن الحق سبحانه قد سخر لنا الليل والنهار ، وهما  
من الأعراض الناتجة عن تسخير الشمس والقمر ؛ وكلاً من الشمس  
واقمر دائبين ، يمشي كل منهما في حركته مشياً لا تنقطع فيه رقابة  
العادة ونضبط أوقااتنا على هذا النظام الرتيب الدقيق ، فنحدد  
- على سبيل المثال - أوائل الفصول ومواسم الزراعة ، ومراقبت  
الصلاة .

وإذا نظرت إلى أي اختلال قد يشأ من بعض الظواهر ، فاعلم  
أن ذلك قد نشأ من تدخل الإنسان المُختار المُستخلف في الأرض ،  
والمثال هو مشكلة نُقَب طبقة الأورون الموحودة في الغلاف الجوي ،  
والتي قد نشأت من تجاربنا التي نلث فيها من أجل تحسين حياتنا  
على الأرض

ولكننا ننظر إلى التجربة بأفق محدود ، وبفصل النظرة لحزنية  
عن النظرة الكلية المطلوب منا أن ننظرَ بها لكل ما يصيب بها في  
الكون ، فنسبب بهذا اللهث في التجارب في إفساد الكثير من أسرار  
حسياتنا على الأرض ، حتى يتناشكو من اضطراب الجسود برداً  
وصقيعاً ، وحرّاً فوق الاحتمال

وذلك يتدخل الإنسان المختار فيما لا يجب أن يتدخل فيه إلا بعد  
أن يدرس كل جوانبه . واقرا إن شئت قول الحق سبحانه

﴿ ظَهَرَ السَّاءُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ . ﴾ (٤١) [الروم]

ولذلك لابد من دراسة المقدمات والنتائج جيداً قبل أن نُصنِّع من  
تجاربنا التي قد تضر البشر ، ولذلك أيضاً أقول إن علينا أن ندرس  
الآثار الجانبية لكل اختراع علمي كي نحمل البشر من سيئات تلك  
الآثار الجانبية

ولنتذكر قول الحق سبحانه

﴿ وَلَا تَقْفُ<sup>(١)</sup> مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. ﴾ (٢٦) [الاسراء]

ولعل ما نعيش فيه من مشكلات تتعلق بالجر والصحّة هو نتيجة  
تدخلنا بغير علم مكتمل ، وهذا يؤكد لنا حكمة الخالق الأعلى ؛ ذلك

(١) قفاه يفقوه . مضي خلفه أن نبعه . وقوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. ﴾ (٢٦) [الاسراء] أي لا تتبع من العفائد ما ليس لك به علم ولا من الآراء ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تسترسل في الحديث عما ليس لك به علم [ القاموس القويم  
١٢٨/٢ ]

أنا لما خرجنا بالمُخترعات العلمية وابهرنا بفائدتها لسطحية ، ظننا  
أن في ذلك مكسباً كبيراً ، ولكنه كان وبالاً في بعض الأحيان نتيجة  
الآثار الجانبية .

ولذلك لم يُقَرِّ الحق سبحانه . « بما اكتسبت أيدي الناس » بل  
قال .

﴿ بما كسبت أيدي الناس .. ﴾ (٤١)

[الروم]

وفي الآية التي نحن بصدد حواطرها عنها يقول الحق سبحانه

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ (٤٣)

[إبراهيم]

وهكذا تعلم أن تعاقب ظهور الشمس والقمر ، يُسبَّب تعاقب مجيء  
الليل والنهار

ولا يعنى ظهور الشمس وسطوعها أن القمر غير موجود ، فهو  
موجود ، ولكن ضوء الشمس المُبهر يمنعك من أن تراه ، ولكن هناك  
أوقات يمكنك أن ترى فيها الشمس والقمر معاً

أما الليل والنهار فهما يتتابعان كل منهما خلف الآخر ، والحق  
سبحانه هو القائل

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً .. ﴾ (٦٢)

[الفرقان]

أى . أنهما لا يأتیان معاً أبداً ، فالليل فى بلد ما يقابله نهار فى بلد آخر .

وهكذا أثبت لنا الدأب فى الحركة ، فكلُّ منهما يأتى عقب الآخر ؛ وقد جعل الحق سبحانه ذلك من أول لحظة فى الخلق ، وكانا لحظة الوجود خلفاً ، كل منهما يأتى من بعد الآخر ، فكان الكون حين خلقه الله ، وجعل الشمس فى مواجهة الأرض ، صار الجزء المواجه للشمس نهاراً ، والجزء غير المواجه لها صار ليلاً .

ثم دارت الأرض ، ليأتى الجزء الذى كان غير مُواجه للشمس ، فى مواجهتها ، فصار ليلاً ، وذهب الجزء الذى كان فى مواجهتها ، ليكون مكان الجزء الآخر فصار ليلاً ، وهكذا شاء سبحانه أن يكون كل منهما خلف الآخر

وهكذا تكلم الحق سبحانه عن حَصْرٍ معصٍ من نعمه الكلية علينا نحن للعباد ، سماء ، وأرض ، وماء ينزل ، وثمرات تنبت من الأرض ، وكذلك سفّر لنا الشمس والقمر ، والليل والنهار ، وهذا ما يُسَعِّى تعدد لبعض النعم

ونعد واحداً من الصالحين يقول عن نعم الله « أعد منها ولا أعددها » فكان الله ينبها إلى أصول النظام الكونى الأعلى ، ثم لفتح المجال لنعم أخرى لن نستطيع أحد أن يُحصيها .



لذلك يقول سبحانه من بعد ذلك

﴿وَأَنذَرْتُكُمْ مِّنْ كُلِّ مَآسٍ لَّتُمُوتُواْ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّا الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٢٤)

نعم ، أعطانا الحق سبحانه مما نسال وقيل ان نسال الكور لنا من قبل ان نوحذ انفس فسبحانه قد أعطانا من قبل ان نسال وسبقت النعمة وجود آدم عليه السلام ، واستقبل الكون آدم ، وهو مُعدٌ لاستقباله

وانا نظرت للفرد منا سبحد ان نعم الله عليه قد سبقت من قبل نعرف كيف نساله ، والمثل هو الجبن فى بطن أمه

وهذا قال الحق سبحانه

﴿وَأَنذَرْتُكُمْ مِّنْ كُلِّ مَآسٍ لَّتُمُوتُواْ﴾ (٢٤) [برهيم]

يعنى : انه قد أعطاك ما تساله وما لم تساله ، نطقته او لم تنطق ، ولو بحديث النفس او خوطر خافية ، وانك قد تقترح وتطلب شيئاً فهو يعطيه لك .

وقد يسأل البعض من باب الرعدة فى الحصى - والله المثل لأعلى - نجد بعض البشر معز أفاء الله عليهم بجزيل نعمه ، ويقول لواحد منهم قل لى ماذا تطلب ؟

وقد حدث معى ذلك وسجن فى ضيافة واحد من أكرمهم الله بكريم عطائه ، وكنا فى رحلة صحراوية بالمملكة العربية السعودية ،

وقال لي أطلب أى شيء وستجده بإذن الله حاضراً . وفكرتُ في أن أطلب ما لا يمكن أن يوجد معه ، وقلت أريد خيطاً وإبرة ، فما كان رده إلا « وهل تريدان فتلة بيضاء أم حمراء ؟ » .

ولذا كان هذا يحدث من البشر ، فما بالنا بقدرته الله على العطاء ؟  
ومن حكمة الله سبحانه أنه قال

﴿وَأَنَّا كُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ﴾ (٣٤) [إبراهيم]

ذلك أن وراء كل عطاء حكمة ، ووراء كل منع حكمة أيضاً ، فالمنع من الله عين العطاء ، فالحق سبحانه منزه عن أن يكون مؤلفاً عنك ، كما أن الحق سبحانه قد قال

﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۚ﴾ (١١) [الإسراء]

ولذلك قل

﴿وَأَنَّا كُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ﴾ (٣٤) [إبراهيم]

أى بعض ما سألتموه ، ذلك أن هناك أسئلة حمقاء لا يجيبكم الله عليها ، مثل قول أى امرأة يعاندها ابنها « يسقيني نارك » هذه السيدة ، لو أدركها الله مار الفقدان أبها ، ماذا سوف تفعل ؟

إن من عظمت سبحانه أن أعطانا ما هو مطابق للحكمة ، ومنع عنا غير المطابق لحكمته سبحانه ، فالعطاء نعمة ، والمنع نعمة أيضاً ، ولو نظر كل من لعطاء السلب لوجد فيه نعماً كثيرة .

ويقول سبحانه

﴿سَأَرْسِلُكُمْ آيَاتِي لَئَلَّا تُشْكِرُونِ﴾ (٧٧) [الأنبياء]



لذلك فلا يقولن أحدٌ « قد دعوتُ ربِّي ولم يستجب لي » وعلى  
الإنسان أن يتذكَّر قول الحق سبحانه

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ١١ ﴾

[الإسراء]

فهو سبحانه من يملك حكمة العطاء وحكمة المنع ولا أحد منا  
يستطيع أن يعدَّ نعم الله ، والمعدُّ - كما نعلم - هو حصَّرتْ لمفردات  
حُمع أو حَزَنِيَّات كُلِّ . ويعلم أهل العلم بالمنطق - وبسميهم  
المناطق - أن هناك « كُليَّ » يقابله « جزئيَّ » ، وهناك « كُلُّ » يقابله  
« جزء » .

والمَثَل على « الكُليَّ » الإنسان ، حيث إننا جميعاً مُكوِّنين من  
عناصر متشابهة ، ومفرد البشر يختلف باختلاف الأسماء ، أما  
ما يُسمَّى « كل » فالمثل عليه هو الكرسي ، وهو مُكوَّن من مواد  
مختلفة كالخشب والمسامير والفراء ، ولا يمكن أن نطلق على الخشب  
فقط كلمة كرسي ، وكذلك لا نستطيع أن نسمَّى « المسامير » بأنها  
كراسي

وعلى هذا نكون قد عرفنا أن حقيقة الكُليَّ أن مفرداته مطابقة ،  
وإن اختلفت أسماءها ، لكن حقيقة الكلُّ أن مفرداته غير متشابهة ،  
وتختلف في حقيقتها .

وإذا أردتَ أن تُخصِّص الكُليَّ فانتِ تنطقُ أسماء لافراد كال  
تقول محمد وأحمد وعلي ، وهذا ما يُسمَّى عدداً ، وهكذا نفهم أن  
العدُّ هو إحصاء حَزَنِيَّات الكلي ، أو إحصاء أجزاء الكلِّ

وتعلم أنهم قد سَمَوْا العَدَّ إحصاءً ، لأنهم كانوا يعدُّون الأشياء قديماً بالحصى ، وأطلقت كلمة الإحصاء على مطلق العَدِّ حساباً للأصل ، وعرف عدد أجراء الكلى أو الكل

وكان لإنسان في العصور القديمة يعدُّ - على سبيل المثال - إلى رقم « مائة » ، ثم يحسب كل مائة بحصة واحدة ، فإذا تجمَّع لديه عشر حصوات عرف أن العدد قد صار ألفاً ، ومن هنا جاءت كلمة الإحصاء ، وفي كثير من أمور عصرنا المتقدم ، ما زِلْنَا نُسَمِّي بعض الأشياء بِمُسَمَّيات قديمة ، فنحسب قوة السيارة بقوة الحصان .

وأتت إذا نظرت إلى قول الحق سبحانه

﴿وإن تعدُّوا نعمت الله لا تحصوها .. (٣٤)﴾ [إبراهيم]

ستجد الكثير من المعاني ، ولكن مَنْ يحاولون التَّحْصِيدَ للقرآن يقولون إن هذا أمر غير دقيق ، فما دام قد حدث العَدُّ ، فكيف لا يتم الإحصاء ؟ وهؤلاء ينسون أن المقصود هنا ليس العَدُّ هي ذاته ، ولكن المقصود هو إرادة العَدِّ

ولو وُجِدَت الإرادة فليس هناك قدرة على استيعاب نعم الله ، ومن هنا لا نرى تعارضاً في آيات الله ، وإنما هو نسق متكامل . فأنت لا تقل على عدٍّ أمر إلا إذا كان غالب الظن أنك قادرٌ على العَدِّ ، وذلك إذا كان في إمكان البشر ، ولكن نعم الله فوق طاقة مقدور البشر

والمثل أيضاً على مسألة إرادة الفعل يمكن أن مجده في قوله

الحق .

﴿يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ .. (٦)﴾

[المائدة]

وحيث لا يغسل وجوهنا لحظة أن نقوم بالصلاة ، ولكننا بغسلها ونستكمل خطوات الوضوء حين يُؤذّن المؤذن ونمتلك برادة الصلاة ، فكان القول هنا يعني إذا أردتم القيام إلى الصلاة فافعلوا كذا وكذا

ونعلم أن ذكر الشيء بسببه كأنه هو ، ولذلك يُقال إذا كان الأذان قد أذن في المسجد وأنت خارج من مبرك بقصد الصلاة ، فلا تجرى لتتحقق بالإمام وتُترك الصلاة<sup>(١)</sup> ، لأنك في صلاة من لحظة أن توضأت وخرجت من بيتك للصلاة ، وإياك أن تفعل حركة تتناقض مع الصلاة . وادخل المسجد يسكينة ووقار لتؤدي الصلاة مع الإمام<sup>(٢)</sup>

وحيث نتأمل قول الحق سبحانه

﴿وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم]

ستجد أن العادة في اللغة هي استعمال « إن » في حالة الأمر المشكوك فيه ، أما الأمر المُتَيَقَّرُ فيجب استخدامه ، إذا ، مثل قوله الحق

(١) ويرشد إلى هذا حديث أبي بكره رضي الله عنه أنه جاء ورسول الله ﷺ راكع فركع دون الصف ثم مشى إلى الصف ، فلما قضى النبي ﷺ صلاته قال : « أيكم الذي ركع دون الصف ثم مشى إلى الصف » فقال أبو بكره أنا فقال النبي ﷺ رأيت الله حراماً ولا تعد ، أخرجه أبو داود في سننه ( ٢٧٩ ، ٦٨٠ ) ، والبيهقي في شعبه ( ١١٩/٢ ) ٣٦٧ فتح الباري | وأحمد في مسنده ( ٢٩٠ ، ٤٢ )

(٢) وهذا المعنى مأخوذ من الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه ( ٦٣ - المساجد ) عن أبي قتادة قال بينما نحن نصلّي مع رسول الله ﷺ فسمع جليلاً فقال ما شأنكم ؟ قالوا استعجلنا إلى الصلاة قال : فلا تفعلوا إذا أتيتم الصلاة ، معيكم السكينة ، هذا أدرككم لمصلوا وما شيقكم فالتوا »

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (٦)

[النصر]

وقد جاء الحق سبحانه هنا بأسلوب الشك حين قال

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا...﴾ (٣٤)

[إبراهيم]

ذلك أن العاقل يعلم مقدماً أنه سيعجز عن إحصاء نعم الله وكما  
يعلم أن هناك علماً اسمه « الإحصاء » وله أقسام جامعية  
متخصصة

وعلى الرغم من التقدم وصناعة الحاسب الآلي « الكمبيوتر »  
لم يستطع أحد ولم يُقبل أحدٌ على إحصاء نعم الله في الكون ، ذلك  
أن العدد والإحصاء يقتضي كُلياً له أفراد أو كُلاً له أجزاء

وأنت إن نظرت إلى أيّ نعمة من نعم الله ، قد تظنها نعمة  
واحدة ، ولكنك إن فصلت فيها ستجدتها نعماً متعددة وشتى ، وهكذا  
لا يوجد تناقص في قوله الحق

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا...﴾ (٣٤)

[إبراهيم]

وأنت إن أخذت نعمة المياه ستجدتها نعماً متعددة ، فهي مكونة  
من عناصر ، كل عنصر فيها نعمة ، وإن أخذت نعمة الأرض ستجد  
فيها نعماً كثيرة مضمورة ، وهكذا تكون كل نعمة من الله مضمورة فيها  
نعم متعددة ، ولا تُحصى

وحين تنظر في قول الحق سبحانه

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا...﴾ (٣٤)

[إبراهيم]

تحد ثلاثة عناصر ، هي المنعم ، والنعمة التي حَكَمَ الحق سبحانه  
أنك لن تحصيها ، وأن خلقه لم يضعوا انوفهم في أن يعدوا تلك  
النعمة ، فهي لا تحصى لأنها ليست مظنة الإحصاء ؛ ولا يقبل عاقل  
أن يحصيها .

ولعنصر الثالث هو المنعم عليه وهو الإنسان الذي قد يعجز  
عن إحصاء نعم رئيسه من البشر عليه ، فما بالك بتعم الله التي  
لا تحصى ، وكمالاته التي لا تُحد ، وعطائه الذي لا ينفد ؟ والله المثل  
لأعلى ، فهو المنزه عن المثل

ثم يأتي قول الحق سبحانه

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٧٤)

[إبراهيم]

وهما في سورة إبراهيم نجد قوله الحق مبيناً ظلم الإنسان لنفسه  
وكفره بالنعمة ، وفي كفره للنعمة كفر بالمنعم يقول سبحانه وتعالى  
﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨)  
جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا (٢٩) وَنَسُوا الْقُرْآنَ ﴾ (٢٩)

[إبراهيم]

وهؤلاء هم من ارتكبوا مظالم بالنسبة لعقيدة الوحدانية والإيمان  
بالله ، والإنسان هو المنعم عليه ، وما كان يصح أن يرى كل تلك  
النعم ثم يكفر بها ، وكان من العدل أن يعطى الحق لصاحبه ، ولكن  
بعضاً من البشر بدّلوا نعمة الله كُفْرًا ، وهكذا صاروا ممن يُطلق على  
كل منهم أنه ظالم في الحكم ، وأنه كافر ، لجحوده بالنعمة ونكرانه  
عطاء الخالق للمخلوق

(١) صلى اللحم وغيره يصلية صلياً شراه ، والصلاة الشراء والإحراق ، وسكنى بالنار  
قاسى حرّها واحترق [ لسان العرب : مادة سلا ]

والظلم كما نعرف هو أن تنقل الحق من صاحبه إلى غير صاحبه ، وإن لم تؤمن بالله تكون قد أخذت حق الإله في الوجود ، وإن كنت تؤمن بشركاء ، فأنت تنقل بذلك حقاً من الله إلى غيره ، وهذا ظلم الفضة .

وانظر إلى قول الحق سبحانه في سورة النحل

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١٦) وما در<sup>(١)</sup> لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴾ (١٣) وهو الذي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبًّا تَبْسُوتُوهَا وَنُورٍ الْفَلَكَ مَوَاحِرَ<sup>(٢)</sup> فِيهِ وَلِيَتَّخِفُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١٤) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ<sup>(٣)</sup> بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (١٦) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذْكُرُونَ ﴾ (١٧) وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٨) ﴿

فهو هناك إرادة أو قدرة تستطيع أن تخصص عطاءات الله التي فوق العدد والحد ؟ ففي الآيات السابقة وغيرها إعجاز وعجز ، وما دام هناك عجز فالكمال عنده لا يتناهى

(١) درأه الخلق خلقتهم وبثهم وكثرهم [ القاموس القويم ٧٤٧/١ ]

(٢) مخزت السفينة نمحر جرت تشق الماء مع صوت ، تشق الماء يصدرها [ معجم العرب مادة مخر ]

(٣) مادت الأرض اضطربت وزلزلت ماد تحرك واضطرب قال تعالى ﴿ وَوَلَقَدْ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ (١) [ القاموس ] لتلا تصيل وتضطرب بالمصال العالية توارى للبحار

الحقيقة [ القاموس القويم ٧٤٦/٢ ]



إن بعضاً ممن يستتركون على القرآن يقولون كيف يقول القرآن  
مرة

﴿إِنْ تَعْلُوا نِعْمَ لَكُمْ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

[إبراهيم]

ثم يقول في آية أخرى

﴿وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحج]

ونرى على هؤلاء أنتم لم تنظروا إلى السياق الذي جاء في كل  
آية ، وعصيت بصيرتكم عن معرفة أن سياق الآية - التي نحن بصدد  
خواتمها - قد جاء فيها ذكر النعم وذكر الجود والكفران  
بالنعم ، وهذا ناشئ عن ظلم الإنسان لنفسه بالظلم العظيم

وفي آية سورة النحل جاء بذكر النعم ، ورعم ظلمنا إلا أن  
رحمته سبحانه وسعتنا ، ولم يمنع عد ما أسبغ<sup>(١)</sup> علينا من نعم ،  
وكانه سبحانه يوضح لنا إياكم أن تستحوا أن تسألوني شيئاً ، وإن  
كنتم قد ظلمتم وكفرتُم في أشياء ، فظلمكم يقابله غفران مني ،  
وكافريتكم يقابلها مني رحمة ، وهكذا لا يوجد تعارض بين الآيتين ،  
بل كل تذييل لكل آية مناسب لها ، ففي الآية الأولى يعاملنا الله  
بفضله ، وفي الآية الثانية يعاملنا الله بفضله

ونلاحظ أن الحق سبحانه قد قال هنا

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم]

(١) أسبغ الله النعم أكملها وأنعمها وسعها وسعت النعمت اتسعت والشئ السابع

الكامل الرابع ر لسل العرب - مادة سبع ]

ونعلم أن هناك أناساً قد آمنوا بالله وبيعه ، ويشكرون الله عليها ، فكيف يصيب الحق سبحانه الإنسان بأنه ظَلُوم كَفَّار ؟  
ونقول إن كلمة « إنسان » إذا أطلقت من غير استثناء فهي تنصرف إلى الخُسْران والحياة بلا منهج ، ودون التفتت للتفكير في الكون

والحق سبحانه حين أراد أن يوضح لنا ذلك قال ﴿وَأَنصُرْ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَهَىٰ حَسِرٌ ۝٢﴾ [العنبر]  
ولذلك جاء سبحانه بالاستثناء بعدها ، فقال ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَبَوَّأُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَّوْا بِالصِّرَاطِ ۝٣﴾ [العنبر]  
ويقول سبحانه من بعد ذلك ،

﴿وَاذْكُرْ ۝١ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ۝٢ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۝٣﴾<sup>(١)</sup>

وحين يقول سبحانه ( إذ ) أي « اذكر » ويقول من بعد ذلك على لسان إبراهيم ( رَبِّ ) ولم يقل « يا الله » ذلك أن إبراهيم كان يرفع دعاءه لسخالق لمعنى ، بذلك قال « ربى » ولم يقل « يا الله » لأن عطية الله تكليف ، وأمام التكليف هناك تخيير ففى أن تفعل ولا تفعل ، مثل قوله سبحانه

﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ ۝٤٧﴾ [الأنعام]

١، المقصود بالبلد هنا مكة [ تفسير القرطبي ٢٧٠٦/٥ ]

أما عطاء الربوبية فهو ما يقيم حياة المُصلِّين وغير المُصلِّين .

ولم تَأْتِ مسألة إبراهيم هنا قَفْراً ، ولكنَّا نعلم أن القرآن قد نزل ، وأول مَنْ سَيَسْمَعُهُ هُمُ السَّادَةُ مِنْ قَرِيْشٍ ، الَّذِينَ تَمَتَّعُوا بِالْمِهَادَةِ وَالسِّيَادَةِ عَلَى الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَلَا يَجْرُو أَحَدٌ عَلَى التَّعَرُّصِ بِقَوَائِلِهَا فِي رِحْلَتَيْ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ، لِلْيَمَنِ وَالشَّامِ ، وَهُمْ قَدْ أَخَذُوا الْمِهَادَةَ مِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ .

ولذلك تَكَلَّمَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عَنِ النِّعْمَةِ الْعَامَةِ لِكُلِّ كَائِنٍ مَوْجُودٍ تَنْتَظِرُ أَدْنَاهُ بَدَاءَ الْإِسْلَامِ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ يَتَكَلَّمُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عَنِ النِّعَمِ الَّتِي تَخْصُهُمْ ، لِذَلِكَ قَالَ

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ۚ ﴾ [إبراهيم]

وقد وردت هذه الجملة في سورة البقرة بأسلوب آخر ، وهو قول الحق سبحانه

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بِلَدًا آمِنًا ۖ ۝١٢٦ ﴾ [البقرة]

والفرق بين « البلد » و « بلدة » يحتاج منا أن نشرحه ، فـ « بلدة » تعني أن المكان كان قَفْراً<sup>(١)</sup> ، ودعا إبراهيم أن يصبح هذا المكان بلدة آمناً أي أن يجد من يقيمون فيه ، يُحَدِّدُونَ حاجاتهم ومُتَطَلِبَاتِهِمْ ، وتكون وسائل الرزق فيه مُيسَّرة ، ودعاؤه أيضاً شمل طلب الأمن ، أي ألا يوجد له ما يُهدِّدُ طمأنينة الناس على يومهم العادي ووسائل رفاههم .

(١) القفر والقفرة الحلاء من الأرض وقد أقرت الأرض طلت من الكلا والنس [ لسان]

العرب - مادة قفر ]

وأجاب الحق سبحانه دعاء إبراهيم فصار المكان بلداً ، وجعله سبحانه آمناً آمناً عاماً ، لأن الإنسان في أي بقعة من بقاع الأرض لا يتخذ مكاناً يجس فيه ويقيم ويتوكل إلا إذا ضمن لنفسه أسباب الأمن من مَقُومَات حية ومن عدم تفزيحه تفزيحاً قوياً ، وهذا الأمن مطلوب لكل إنسان في أي أرض .

وقد دعا إبراهيم عليه السلام هذا الدعاء وقت أن نزل هذا المكان ، وكان وادياً غير ذي زرع ، ولا مَقُومَات للحياة فيه ، فكان دعاؤه هذا الذي جاء ذكره في سورة النقرة .

أما هنا فقد صار المكان بلداً ، وكان ادعاء بالأمن لثاني مرة ، هي دعوة لأمن خاص ، ففي غير هذا المكان يمكن أن تُقطع شجرة ، أو يصطاد صيّد ، ولكن في هذا المكان هناك أمنٌ خاص جداً أمرٌ للنبات ولكل شيء يوجد فيه ، فحتى الحيوان لا يُصَاد فيه ، وحتى ماعل الجريمة لا يُمس<sup>(١)</sup>

وهكذا اختلف الدعاء الأول بالأمن عن الدعاء الثاني ، فالدعاء الأول هو دعاء بالأمن العام ؛ والدعاء الثاني هو دعاء بالأمن الخاص ، ذلك أن كل بلد يوجد قد يتحقق فيه الأمن العام ، ولكن بلد البيت الحرام يتمتع بأمنٍ يشمل كل الكائنات .

(١) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرمة لله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يُعضد شوكة ولا يُنفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يُختلى خلاها ، فقال العباس يا رسول الله إلا الإدعر منه لقيهم وليوتهم فقال : « إلا الإدعر » أخرجه مسلم في صحيحه ( ١٢٥٢ )

ويقول بعض من السطحيين ما دام الحق قد جعل البيت حراماً  
آمناً ، فلماذا حدث ما حدث من سنوات من اعتداء على الناس في  
الحرم ؟

ونقول وهل كان أمن الحرم أمراً « كويماً » ، ام تكليفاً شرعياً ،  
إنه تكليف شرعى عُرِضَ أَنْ يُطَاع ، وعُرِضَ أَنْ يُعْصَى .

وقوله سبحانه

﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. (٩٧)﴾ [آل عمران]

يعنى أن عليكم أيها المُبْعُوثُونَ لدين الله أن تَقْرَأُوا مَنْ يدخل الحرم  
اسمهم في أمن وأمان ، وهناك فارق بين الأمر التكليفي والأمر الكوني

ويقول سبحانه على لسان إبراهيم

﴿وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٢٥)﴾ [إبراهيم]

وهو قول يحمل التنبيؤ بما حدث في البيت الحرام على يد عمرو  
ابن لُحَيٍّ الذي أدخل عبادة الأصنام إلى الكعبة ، وهو قول يحسم  
تنبيؤاً من إبراهيم عليه السلام

ولقائل أن يسأل وكيف يدعو إبراهيم بذلك ، وهو النبي  
المعصوم ؟ كيف يطلب من الحق أن يُجَنِّبَهُ عبادة الأصنام ؟

وأقول وهل العصمة تمنع الإنسان أن يدعو ربه بدوام ما هو  
عليه ، إننا نقتضى على سبيل المثال الأمر التكليفي منه سبحانه

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ (١٣٦)﴾ [النساء]

وهو أمرٌ بالمدائمه

والحق سبحانه قد قال على لسان رسوله شعيب - عليه  
السلام -

﴿قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مُلْكِكُمْ بِعَدِّ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا  
يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ..﴾ (٨٩) [الاعراف]

وفى هذا القول صراحة إلى المنعم علينا بنعمة الإيمان ، وفى هذا  
القول الكريم أيضاً إيضاحٌ بطلاقة قدره الحق سبحانه .

ونلاحظ أن الحق سبحانه قد قال هنا .

﴿وَاحْتِئِزِّي وَبَنِيَّ أَنْ نُعْبِدَ الْأَصْنَامَ﴾ (٣٥) [ابراهيم]

والصنم غير الوثن<sup>(١)</sup> ، فامشكُلُ بشكل إنسان هو الصنم ، أما  
قطعة الحجرِ فقط والتي خصَّها بعضُ من أهل الجاهلية بالعبادة فهو  
الوثن

وهناك من أراد أن يخرج بنا من هذا المأزق : فقال إن الكفر  
بوعان<sup>(٢)</sup> شرك جلي ، وشرك حفي<sup>(٣)</sup> ، والشرك الجلي أن يعبد  
الإنسانُ أى كائن غير الله ، والشرك الحفي أن تُقدَّس الإنسانُ  
الوسائطُ بعبادته وبين الله ، ويعطيها فرق ما تستحق . وينسب لها  
بعضاً من قدرات الله

(١) قال ابن الأثير : الفرق بين الوثن والصنم أن الوثن كل ما له حثّة معموله من جواهر  
الأرض أو من الخشب والحجارة كصورة الأدمى تُعمل وتُصنَّب فتعبد ، والصنم الصورة بلا  
حثّة . ومعهم من لم يفرق بينهما وأطلقهم على المحصين [ لسان العرب - مادة وثن ]

ودعاء إبراهيم عليه السلام أَنْ يُجَنِّبَهُ وَبَنِيهِ أَنْ يَعْبُدُوا الْأَصْنَامَ يقتضى مِنَّا أَنْ نفهم معنى كلمة أبناء ، ذلك أَنَّ إبراهيم قصد بالدعاء بنيه الذين يصلُّون إلى مرتبة الرسالة والنبوة مثله ؛ ذلك أننا نعلم أن بعضاً من بنيه قد عبدوا الأصنام ولاوثان .

ومعنى كلمة « أبناء » أوصحه سبحانه في مواطن أخرى ونبدأ من قوله

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ <sup>(١)</sup> فَأَتَمَّهُنَّ ۖ .. (١٢٤)﴾ [البقرة]

أى بعد أن أخبر الله إبراهيم ، وكلفه بالمهام التى كلفه الله سبحانه وتعالى بها على وجه التزام ، أمَّنه الحق على أن يكون إماماً ، فقال سبحانه

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ .. (١٢٤)﴾ [البقرة]

أى أن حيثية الإمامة هى أداء إبراهيم عليه السلام بكل مهمة بتمامها وبيدقة وأمانة ، وإذا كان هذا هو دستور الله فى الخلق ، فلا بد لنا من أن نتخلق بأخلاق الله ، وعلينا ألا نختار أى إنسان لاية مهمة ليكون إمامها ، إلا إن كان كُفءً لها ويحسن القيام بها .  
ولنتذكر قوله ﷺ .

« إِنَّا ضَيِّعَتِ الْأَمَانَةَ فَنَنْتَظِرُ السَّاعَةَ » قال المسائل له عن موعد

(١) الكلمات جمع كلمة ، وفى هنا أحكام الدين وتكاليفه [ القاموس القويم ١٧٢/٢ ] وقال ابن كثير فى تفسيره ( ١٦٥/١ ) « الطمعت الشرائع والأوامر والنواهي »

قيام الساعة . وكيف إضاعتها ؟ قال « إنا وُسْدٌ <sup>(١)</sup> الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » <sup>(٢)</sup>

ذلك أن إسناد أي أمر لغير أهله إنما هو إفساد في الوجود . لأن الأصل في إسناد أي أمر لأي إنسان أن يكون بهدف أن يقوم بالأمر كما يجب . فإذا كان الاحتيار سيئاً ، فسيكون هذا الإنسان أسوة في السوء . وتتفقر منه عدوى عدم الإلتفات إلى غيره ، ويتفشى السوء في المجتمع ، أما إذا تولى الأمر من هو أهل له فالموقف يختلف تماماً ، فوضع الإنسان في مكانه اللائق ، تعتدل به موازين العدل ، وفي اعتدال الميزان استقرار للزمان والمكان والإنسان

والمثل على ذلك أن الأولاد الذين تربوا في السعودية ، ورأوا أن يد السارق تُقطع ، لم نحد منهم من يسرق ، لأنهم تربوا على أن السارق تُقطع يده ، وفهموا أن الحق سبحانه لحظة أن يضع عقوبة قسيّة ، فليس هذا إذن بأن تقع الجريمة ، بل ألا تقع الجريمة

وحين يتساءل من يدعون التحضر كيف يقول القرآن

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. ﴾ (٢٥٦)

[البقرة]

وحين تجدون من يخرج عن الدين تقبصون عليه ، وينادي البعض بإعدامه ؟

(١) وُسْدٌ أُسْدٌ ، وأصله من الوسادة قال ابن منظور في اللسان ( مادة وسد ) « يعنى إذا سُدَّ وشُرِّفَ غير المستحق للسياادة والشرف »

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ( ٥٦ ، ٦٤٦٦ ) عن حديث ابن مريّة رضي الله عنه



ولهؤلاء أقول : وهل هذا الأمر يُحسب على الإسلام أم لصالح الإسلام ؟

إنه لصالح الإسلام ، ذلك أن مثل هذا الحرص على كرامة الدين يُهَيِّبُ الناس أن يدخلوا الدين إلا بعد الإقناع لمؤدى لليقين ، واليقين هو الوصول إلى الدين الحق مصحوباً بدليل

يقول الحق سبحانه

﴿سَرَبِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾  
[مصلح] ﴿٥٣﴾

بهذا نعلم أن دخول الإسلام سيكلفه حياته لو أراد أن يخرج منه لأنه خرج من اليقين لذى دخله بالدليل

وحين دعا إبراهيم - عليه السلام - ربه

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾  
[إبراهيم]

كان قد نجح في اختبار الله له ، ونجح في أداء ما أَسْفَدَ إليه تماماً ، وشاء به الحق سبحانه أن يكون إماماً ، واستشرف إبراهيم عليه السلام أن تكون الإمامة في ذريته ، فقال

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ . ﴿١٢٤﴾ [البقرة]

فجاءه الجواب من الحق سبحانه

﴿لَا يَبَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾  
[البقرة]

وهكذا أوضح الحق سبحانه أن بُنُوهُ الأنبياء ليست بُنُوهُ لَحْمٍ

وَدِمٌ ، بِلَ بَيِّنَةٍ اتِّبَاعِ وَاقْتِنَاءِ ، وَكَلَّمَا نَعْلَمُ أَنَّ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ قَدْ قَالَ  
لنُوحٍ عَنْ ابْنِهِ<sup>(١)</sup>

﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ ۞ (٤٦) ﴾ [هود]

وَنَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَالَ عَنْ سُلَيْمَانَ الَّذِي كَانَ فَارِسِيًّا  
« سُلَيْمَانُ مِنْ آلِ الْبَيْتِ »<sup>(٢)</sup>

وَفِي هَذَا تَاكِيدٌ عَلَى أَنَّ بَيِّنَةً لَانْبِيَاءِ هِيَ بَيِّنَةُ اتِّبَاعِ وَاقْتِنَاءِ  
وَيَسْتَكْمِلُ لِحَقِّ سَبْحَانِهِ دَعَاءَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَتَعَدُّ وَغَى  
خَلِيلِ الرَّحْمَنِ بِمَا تَفْعَلُهُ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ

﴿ رَبِّ إِنِّي نَزَّاهُ أَصْلًا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي  
وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ (٤٧) ﴾

(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ ( ٤١٦/٢ ) : « هَذَا هُوَ الْآيَةُ الرَّابِعَةُ ، وَسَمِعَهُ يَوْمَ وَكَانَ كَثِيرًا ،  
قَالَ تَعَالَى ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (١٦) ﴾ قَالَ سَأَرَى  
إِلَى حِمْرِ بَعْضِهِ مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْتُهُمَا السَّوْحُ فَكَانَ مِنَ  
الْمُفْرَقَيْنِ (٤٦) ﴾ [هود] ثُمَّ سَأَلَ نُوحٌ رَبَّهُ سِوَالِ اسْتِحْلَامٍ وَكُشْفٍ عَنْ حَالِ وَلَدِهِ الَّذِي غَرِقَ  
فَقَالَ ﴿ رَبِّ إِنِّي ابْنِي مِنْ نَحْلٍ وَإِنْ وَعْدُكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٧) ﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ  
أَعْلَانِ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْغَافِلِينَ (٤٨) ﴾ [هود]

(٢) عَنْ عَبْدِ بْنِ عَوْفٍ الْمُرْسِيِّ قَالَ : حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْجَنْدِيُّ عَامَ الْأَحْزَابِ مِنْ أَجْمِ السَّمَرِ  
حُطْرَفِ بَنِي حَارِثَةَ حِينَ يَلِغُ السَّدَادُ ثُمَّ قَطَعَ أَرْبَعِينَ ذِرْعًا بَيْنَ كُلِّ عَشْرَةٍ ، فَاخْتَلَفَ  
الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ فِي سُلَيْمَانَ الْفَارِسِيِّ ، وَكَانَ رَجُلًا قَوِيًّا ، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ : سُلَيْمَانُ  
مِنَّا وَقَالَتِ الْمُهَاجِرُونَ : سُلَيْمَانُ مِنْهُمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « سُلَيْمَانُ مِنْ آلِ الْبَيْتِ »  
أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي دَلَالِ النَّبَرَةِ ( ٤١٨ ٢ ) وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ ( ٤٩٨/٣ ) وَضَعَفَ  
الذَّهَبِيُّ إِسْنَادَهُ مِنْ أَجْلِ كَثَرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ

ونعلم أن الأصنام بذاتها لا تُضِل أحداً<sup>(١)</sup> ، تلك أنها لا تتكلم ولا تتحدث إلى أحد ، ولكن القائمين عليها بدعوى أن لتلك الأصنام الالهية ، ولا تكليف يصدر منها ، هم الذين يضلون الناس ويتركونهم كما يقول المثل العامى « على حلّ شعورهم »

ويرحب بهذا الضلال كل من يكره أن يتبع تعاليم الخالق الواحد الأحد .

ويتابع سبحانه ما جاء على لسان إبراهيم عليه لسلام من بعد الدعاء

﴿ فَمَنْ يَنْعِبْهُ فَإِنَّهٗ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَأَنُكَ عَظُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [٣٦]

وهذه تعقيبات فى مسألة الغفران والرحمة بعد العصيان ، فمرة يعقّبها الحق سبحانه :

﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [١١٨]

ومرة يعقبها

﴿ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [٥٧]

ذلك أن الجرائم تختلف درجاتها ، فهناك جريمة الخيانة العظمى أو جريمة القمّة ، مثل من يدعى أنه إله ، أو من يقول عنه أتباعه أنه إله دون أن يقول لهم هو ذلك

(١) قال القرطبي فى تفسيره ( ٦/٥ ٢٧ ) لما كانت الأصنام - سبباً للإضلال أصناف الفعل إليهن مصادراً ، فإن الأصنام جملات لا تفعل ،

وقد قال عيسى - عليه السلام - بسؤال الحق له

﴿أَلَيْسَ قُلْتُ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ (١١٦) [المائدة]

فبأتى قول عيسى عليه السلام

﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ  
إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (١١٦) [المائدة]

ويتابع عيسى عليه السلام القول

﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُعْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ  
(١١٨)﴾ [المائدة]

وهكذا تأتي لعزة والعفوة بعد ذكر العذاب ، فهذا مواضع  
تناسبها العزة والحكمة ؛ ومواقف تناسبها العفوة ورحمة ، ولا أحد  
يقاير على أن يرد له أمر مغفرة أو رحمة ، لأنه عزيز وحكيم  
وقوله الحق

﴿رَبِّ إِنْهُمْ أَصْلَافٌ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ..﴾ (٣٦) [إبراهيم]

يعكس صفات مناسبة للمقدمات الصدرية في الآية ، وتؤكد لنا أن  
القرآن من حكيم خبير ، وأن الله هو الذي أوحى إلى عبده القرآن

﴿مَنْ قَرَأَ فَلَا نَسِيَّ﴾ (٦) [الاعلى]

فما الذي يجعله يقول في آية

﴿الْعَفُورُ الْوَحِيمُ﴾ (٥٣) [الزمر]

وفي آية أخرى

﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨) [المائدة]

مع أن السياق المعنوي قد يوحي من الظاهر بعكس ذلك ٩

وما الذي يجعله سبحانه يقول في آية بعد أن يُذَكِّرنا أن نعم الله لا تُعدّ ولا تُحصى .

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٣٤)

[إبراهيم]

ويقول في آية أخرى بعد أن يُذَكِّرنا بنعم الله بنفس اللفظ

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٦٨)

[الحمل]

وكذلك قوله

﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١) فَمِنْ شَاءِ ذَكَرَهُ ﴾ (١٧)

[عيسى]

ثم قوله في آية أخرى

﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءِ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مِثْلًا ﴾ (٢٩)

[الإنسان]

كل ذلك يعطينا حكمة التنزيل ، فإن كل آية لها حكمة وتنزيلها يحمل أسرار المراد

وكلُّ ذلك يأتي نصديقاً لقوله الحق

﴿ سَقَرْتُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) ﴾

[الاعلى]

لأن الحق سبحانه وتعالى شاء أن يُنزل القرآن على رسوله ويضمن أنه سيحفظه ، وإن ييسى موقع أو مكان آية من الآيات أبداً ذلك أن الذى قال

﴿ سَقَرْتُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) ﴾

[الاعلى]

هو الحق الخالق القادر

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما قاله إبراهيم عليه السلام

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَتَكْتُمُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ  
الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ  
تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

ونفهم من التعبير في هذه الآية أن المكان لا يصلح للزراعة ، ذلك  
أنه أرض صخرية ، وليست أرضاً يمكن استصلاحها ؛ وقول إبراهيم  
- عليه السلام

﴿ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ .. ﴾ (٣٧)

[إبراهيم]

أي لا أمل في زراعتها بمجهود إنساني ، وليس أمام تواحد  
الردق في هذا المكان إلا العطاء الرباني ولم يكن اختيار المكان  
نتيجة بحث من إبراهيم عليه السلام ، ولكن بتكليف إلهي ، فسبحانه  
هو الذي أمر بإقامة القواعد من البيت المحرم ، وهو مكان من اختيار  
الله ، وليس من اختيار إبراهيم عليه السلام.

وحين يقول إبراهيم عليه السلام

﴿ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. ﴾ (٣٧)

[إبراهيم]

(١) قال القرطبي في تفسيره (٣٧٠٩/٥) ، قوله تعالى ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ (٣٧)  
[إبراهيم] يدل على أن النبي كان قديماً على ما روى قبل الطوفان ، وأضاف البيت إليه لأنه  
لا يملكه غيره . ووصفه بأنه محرم أي يحرم فيه ما يصحباح في غيره من جماع  
واستئثار ، وقيل محرم على الجارية ، وإن شئت حرمت ، ويستحق بحقه .

فهذا معنى حثية الرُّصا بالتكليف ، ومادام هذا أمراً تكليفاً يجب  
أن يُنفَّذ بعشق ، فهو يأخذ ثوابين اثنين ، ثواب حبّ التكليف ، وثواب  
القيام بالتكليف

ولنا المثل في حكاية الرجل انذى قباله الأصمعي<sup>(١)</sup> عند البيت  
الحرام ، وكان يقول : « اللهم ، إني قد عصيتك ، ولكنني أحب من  
يطيعك ، فاجعلها قرّبة لى ، فقال الأصمعي ما يعنى أن الله لا يُدُّ  
أن يفخر بهذا الرجل لحسن مسألته ، ذلك أنه رجل قد فرح بحب  
التكليف ولو لم يَقم به هو ، بل يقوم به غيره وهذا يُسعدّه

فالتكليف عندما يقوم به أى إنسان ، فذلك أمر فى صالح كل  
البشر ، وكلنا نقول حين نُصلى ونقرأ الفاتحة :

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٥)

[المائدة]

أى أن كلّاً منّا يحشر نفسه فى زمرة العابدين ، لعل الله يتقبّل  
من واحد فتدخل كلّنا فى الصفقة ، ولذلك أقول لمن يرتكب معصية  
عليك ألا تفضّض ، لأن هناك من يطيع الله ، بل افرح به ، لأن فرحك  
بالمطيع لله ، دليل على أنك تحبّ التكليف ، رعم أنك لا تقدر على  
نفسك ، وفى هذا الحبّ كرامة لك

وقد قال إبراهيم - عليه السلام - عن الوادى الذى أمره الحق  
سبحانه أن يقيم فيه القواعد للبيت الحرام أنه وادٍ غير ذى رُوع ، وقد

(١) هو عيالملك بن قريب الباهلي ، أبو سعيد ، ولد بالبصرة ( ١٢٢ هـ ) ، راوية العرب ،  
وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبدان كان كثير التملّوا في البوادي توفي بالبصرة  
( ٢١٦ هـ ) عن ٩٤ عاماً [ الاعلام للزركلى ١٦٢/٤ ]

جاء هو إلى هذا المكان لينفذ تكليف لحق سبحانه له ، لدرجة أن زوجته هاجر عندما علمت أن الاستقرار في هذا المكان هو بتكليف من الله قالت : « إنن لن يضيعنا »<sup>(١)</sup>

ويقدم إبراهيم عليه السلام حيثيات الإقامة في هذا المكان ، وأسباب إقامته لقواعد كما أراد الله ، فيقول

﴿ فَاجْعَلْ أَفْتَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ .. ﴾ (٣٧) [إبراهيم]

أي أن مجيء الناس إلى هذا المكان لن يكون شهوة سياحة ، ولكن إقامة عبادة ، فما دم المكان قد أقيم فيه بيت لله باختيار الله فلا بد أن يعبد فيه سبحانه

وهكذا تتضح تماماً حيثيات أخذ الأمر بالوجود في مكان ليس فيه من أسباب الحياة ولا مقوماتها شيء ، ولكن الحق سبحانه قد أمر بذلك ، فلا بد للمقيم للصلاة من إقامة حياة ، والمقوم الأول للحياة هو المأكَل والمشرب

ولذلك دعا إبراهيم عليه السلام

﴿ فَاجْعَلْ أَفْتَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ .. ﴾ (٣٧) [إبراهيم]

والأفتدة جمع « فؤاد » ، وتطلق على الطائفة ، وعلاقة الفؤاد

(١) وذلك أن إبراهيم عليه السلام أتى بهاجر وابنه الرضيع إسماعيل إلى مكة التي لم يكن فيها أحد وليس بها ماء فوضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ثم تركهما ونهب ففعلت هاجر يا إبراهيم ، أين تدعني وتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء ، قالت له ذلك مريراً وجعل لا يلتفت إليها فقالت له الله أمرك بهذا قال نعم قالت إننا لا نضيعها ذكره القرطبي في تفسيره (٣٧٠٧/٥)



بالحجيج علاقةً قربة ؛ لأن الهوى في الحجيج هوى قلوب ، لا جيبوب . وأنت تجد الإنسان يجمع النقود الخاصة بالحج ، وقد يحرم نفسه من أشياء كثيرة من أجل أن يملك بأداء تلك الفريضة<sup>(١)</sup>

وكلمة « هوى » مُكوّنة من مادة « الهاء » و « الواو » و « الياء » ولها معانٍ متعددة . فلك أن تقول « هوى » أو تقول « هوى » ، فإن قلت « هوى يهوى » من السقوط من مكان عالٍ ، دون إرادة منه في السقوط ، وكأنه مقهورٌ عليه ، وإن قلت « هوى يهوى » فهذا يعنى أحبُّ وهو نتيجة لميل القلوب ، لا ميل انقواب .

وهما يقول الحق سبحانه

﴿ فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِّنْ نَّاسٍ تَهْوَىٰ إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (٢٧)

[إبراهيم]

فهم في مكان لا يمكن راعته وقد تقبل الحق سبحانه دعاء إبراهيم عليه السلام ، ووجدنا التطبيق العملي في قوله الحق

﴿ أَوْ لَمْ يُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْنَىٰ ﴾<sup>(٢)</sup> إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَّزَقًا مِّنْ لَّدُنَّا .. (٥٧)

[القصاص]

(١) قال ابن عباس ومجاهد لو قال « أفنضة الناس » لارتفعت عليه فارس والروم والفرس والهند واليهود والنصارى والمجوس . ولكن قال « من الناس » فهم المسلمون . ذكره القرطبي في تفسيره ( ٢٧١١/٥ ) ، والسيوطي في « الدر المنثور » ( ٤٨/٥ )

(٢) جبا يجبي المال والحراج جباية جمعه قال تعالى ﴿ يُجْنَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٥٧) [القصاص] تجمع إلى الحرم المكي رؤساق إليه ثمرات وخيرات كثيرة ( القاموس القويم

وذلك قبل أن يوجد بترول أو غير ذلك من الثروات وكلمة  
 « يُجَسِّبِي » تدل على أن الأمر في هذا الرق القادم من الله كأنه  
 جَبَاية ، وأمر مفروض ، فتكون في الطائف مثلاً وفيه من الرمان  
 والعنب وتحاول أن تشتريه ، فتجد من يقول لك : إن هذا يخص مكة  
 المكرمة . إن أردت منه فإذهب إلى هناك  
 وتجد في كلمة .

﴿ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ .. ﴾ (٥٧)

[الفصل]

ما يثير العجب والدهشة ، فأتت في مكة تجد بالفعل ثمرات كل  
 شيء من زراعة أو صناعة ، ففيها ثمرات الفصول الأربعة قادمة من  
 كل البلاد ، نتيجة أن كل البعثات تُصدر بعضها من إنتاجها إلى مكة  
 وفي عصرنا الحالي نجد ثمرات النمو الحضري والعقود المُفَكَّرة  
 وهي معروضة في سوق مكة أو جدة ، ين تجد ثمرات التخطيط  
 والإمكانات وقد تمت ترجمتها إلى واقع ملموس في كل أرجاء الحياة  
 هناك

وقديماً عندما كنّا نؤدى فريضة الحج ، كنّا نأخذ معنا إبرة  
 الخيط ، وملح الطعام ، ومن بعد أن توحدت غالبية أرض الجزيرة  
 تحت حكم آل سعود واكتشاف البترول ، صرنا نذهب إلى هناك ،  
 ونأتي بكماليات الحياة

وانشظ قول الحق سبحانه

﴿ فَاجْعَلْ أَفْتَدَىٰ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ .. ﴾ (٢٧)

[إدريس]

فكلمة « من » توضح أن من تهوى قلوبهم إلى المكار هم قطعة من أفئدة الناس ، وقال بعض من العارفين بالله<sup>(١)</sup> لو ن النص قد جاء « فاجعل أفئدة الناس تهوى إليهم » لوجدنا أبناء الديانات الأخرى قد دخلت أيضاً في الحبيج ، ومن رحمة الله سبحانه أن جاء النص .

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ .. ﴾ (٣٧)

[إبراهيم]

ماقتصر الحبيج على المسلمين .

ويقول سبحانه من بعد ذلك مستكملاً ما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (٣٨)

وبعد أن اطمأن إبراهيم - عليه السلام - أن لهذا اللد أمناً عاماً وأمناً خاصاً ، واطمأن على مقومات الحياة ، وأن كل شيء من عند الله ، بعد كل ذلك عاودته المسألة التي كانت تشغله ، وهي مسألة تركه لهاجر وإسماعيل في هذا المكان

وبعض المفسرين قالوا إن الضمير بالجمع في قوله تعالى

﴿ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ .. ﴾ (٣٨)

[إبراهيم]

(١) نقل السيوطي في الدر المنثور ( ٤٨/٥ ) عن السدي معروفاً لابن أبي حاتم أنه قال في تفسير هذه الآية « قد يلقب الناس إليهم عليه حيث يهوى القلب يذهب الجسد ولذلك ليس من مؤمن إلا وقلبه معلق بحب الكلمة »

مقصود به ما يكنه من الحب لهاجر وإسماعيل ، وما يعلنه من الجفاء الذي يظهره لهما أمام سارة ، وكان المعاني النفسية عاونه لحظة أن بدأ في سلام ابوداع لهاجر رايته إسماعيل .

ونقول لقد كانت هاجر هي الأخرى تعيش موقفاً صعباً ، ذلك أنها قد وجدت في مكان ليس فيه زرع ولا ماء ، وكانها كتبت نوارعها البشرية طوال تلك الفترة وصبرت

ولحظة أن جاء إبراهيم ليؤدعها ، قالت له أين تتركنا ؟ وهل تتركنا من رأيك أم من أمر ربك ؟ فقال لها إبراهيم عليه السلام بل هو من أمر الله ، فقالت إذن لن يضيعنا

وتأكدت هاجر من أن ما قالت قد تحقق ؛ ولم يضيعهما الله .  
وحين عطش وحيدها جرى بين الصفا والمروة بحثاً عن مياه .  
ولكنها ترى تفجر الماء تحت قدمي ابنها في المكان الذي تركته فيه ،  
ويبدأ بثر زمزم<sup>(١)</sup> في مطاء البشر منذ ذلك التاريخ مياهه التي لا تنضب<sup>(٢)</sup> .

وهكذا يتحقق قول إبراهيم - عليه السلام - في أن الله يعلم ما نُسِر وما نُعلن ، ذلك أن كل مُعلن لا يكون إلا بعد أن كان مخفياً ، وعلى الرغم من أن الله غيب إلا أن صلاته لا تقتصر على القرب بل تشمل العالم الظاهر والباطن وكل مظلوف في السماء أو الأرض معلوم لله ، لأن ما تعتبره أنت غيباً في ذهنك هو معلوم لله من قبل أن يتحرك ذهنك إليه

(١) يقال ماء زمزم كثير بين الملح والعتيق [ لسان العرب - مادة زمزم ]

(٢) نصب الماء ذهب في الأرض وبعد ونضب البئر خرج مائه ونشف [ لسان العرب -

مادة نصب ]

ولذلك يقول سبحانه في موقع آخر

﴿وَأَن تَجْهَرُ بِالنُّفُورِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧)﴾ [طه]

فإذ كان السر هو ما أسررت به لغيرك ، وخرج منك لأنك استأمنت الغير على ألا يقوله ، أو كان السر ما أحفيتك أنت في نفسك فإذ هو العالم به في الحالتين

ويقول القرآن

﴿وَأِذْ أَمَرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا . (٢)﴾ [التحريم]

أي أن السر كان عند رسول الله ﷺ وانتقل إلى بعض من أزواجه . والأخفى هو ما قبل أن تبوح بالسر ، وكتمته ولم تخرج به وسبحانه يعلم هذا أسر وما تخفيه أي السر الذي لم تقله لأحد ، بل ويعلمه قبل أن يكون سرا .

ويقول سبحانه ما قاله إبراهيم عليه السلام - ضراعة وحمداً لـ

سبحانه

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ  
وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٥)﴾

واوهب هو عطاء من مفضل بلا مقابل منك وكل الذرية هبة .

(١) قال ابن عباس كان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة عندما ولد له إسماعيل ، وجاءه إسحاق وهو ابن مائة واشتق عشرة سنة [ تفسير القرطبي ٢٧١٣/٥ ]

لو لم تَكُنْ هبة لكانت رتيبة بين الزوجين ، وإنما يوجد زوجان توجد ولدك قال الله

﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ لِمَن يَشَاءُ عَاقِبًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝١٠﴾ [النشورى]

والدليل على أن الذرية هبة هو ما شاء سبحانه مع ذكرى عليه السلام . وقد طلب من الله سبحانه أن يرزقه بفلان يرثه ، على الرغم من أنه قد بلغ من الكبر عتياً<sup>(١)</sup> وزوجه عاقر ، وقد تعجب ذكرى من ذلك ، لأنه أنجب بقوة ، ومعنى هذا المعنى يقول الحق سبحانه

﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ وَفَدَّ حَقَّتْكَ مِنْ قَبْلِ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝٩﴾ [مريم]

وهذا يعنى ألا يدخل ذكرى فى الاسباب والمسببات والقوانين وقد سَمَّى الحق سبحانه الذرية هبة ، لذلك يجب أن نشكر الله على هبته ، فلا تُرد هبته ، إن وهب لك إناثاً فعلى العين والرأس ، لأن الذى يقبل هبة الله فى إجاب الإناث مرضاً يرزقه الله شباب يتزوجون البنات ؛ ويصبحون أطوع له من ابنائه ، رغم أنه لم يشق فى تربيتهم .

وكل منا يرى ذلك فى محيطه ، فمن أنجب الأولاد الذكور يظل يرقب . هل يتزوج ابنه بمن تخطفه وتجعله أطوع لغيره منه

وإن وهب لك الذكر فعلى العين والرأس أيضاً ، وعليك أن تطلب

(١) عتا عتواً وعتاً اسن وكبر ردهيت بضارته وعضارته قال تعالى عن ذكرى ﴿وقد بلغت من الكبر عتياً﴾ [مريم] [ القاموس القويم ٩/٢ ]

من الله أن يكون ابنك من الذرية الصالحة . وإنْ وهبَكَ نُكْرَانًا وَإِنَّا  
فَكَأَن مَشْكُورِهِ ، ونطلب من الله أن يُعِينَكَ عَلَى تَرْبِيَّتِهِمْ .

وعلى مَنْ جعله الحق سبحانه عقيماً أن يشكرَ ربه ، لأنَّ العُقْمَ  
أيضاً هبةٌ منه سبحانه فقد رأينا الابنَ لذي يقتل أباه وأمه ، ورأينا  
البنات التي تجحد أباها وأماها

وإنْ قَبِلَ الْعَاقِرُ هبةَ الله في ذلك ، واعينَ لنفسه ولمَنْ حوله هذا  
القول فالحق سبحانه وتعالى يجعل نظرة الناس كلهم له نظرة أبدء  
لاب ، ويجعل كل مَنْ يراه من شباب يقول له ، « أتريد شيئاً يا عم  
فلان ؟ » ويخدمه الجميع بمحبة صادقة

وإبراهيم - عليه السلام - قد قال للحق سبحانه

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ .. (٣٩) ﴾ [إبراهيم]

والشكر على الهبة - كما عرفنا - يُشكّل عطاءَ الذرية في الشباب ،  
أو في الشيخوخة

وأهل التفسير يقولون في

﴿ عَلَى الْكِبَرِ .. (٣٩) ﴾ [إبراهيم]

أنه يشكر الحق سبحانه على وهبه إسماعيل وإسحاق مع أنه  
كبير . ولماذا يستعمل الحق سبحانه ( على ) وهي من ثلاثة  
حروف ؟ بدلاً من « مع » ، ولم يقل « الحمد لله الذي وهب لي مع  
الكبر إسماعيل وإسحاق » .

وأقول . إن ( على ) تفيد الاستعلاء ، فالكبر صعب ، ولكن إرادة

الله أقوى من الضعف ، ولو قال « مع الكبر » فالمعية هنا لا تقتضى  
قوة ، أما قوله

﴿ رَهْبَ لِي عَلَى الْكَبَرِ .. ﴾ (٣٩)

[إبراهيم]

فيجعل قدرة الله فى العطاء فوق الشجوخة .

وحين يقول إبراهيم عليه السلام ذلك ؛ فهو يشكر الله على  
استجابته لما قاله من قبل

﴿ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ .. ﴾ (٣٧)

[إبراهيم]

أى أنه دعا أن تكون له نرية .

ويُنِيلُ الحق سبحانه الآية بقول إبراهيم

﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (٣٩)

[إبراهيم]

ويقول سبحانه من بعد ذلك

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ  
ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ۝١﴾

وكان إبراهيم عليه السلام حين دعا بأمر إقامة الصلاة فهذه  
قضية تخص منهج الله ، وهو يسأل الله أن يقبل ، ذلك أن الطلبات  
الأخرى قد طلبها بشريته ، وقد يكون ما طلبه شراً أو خيراً ، ولكن  
الطلب بأن يجعله مُقيماً للصلاة هو وريثه هو طلبٌ بالحير

ويتتابع الدعاء فى قول الحق سبحانه على لسان إبراهيم عليه

السلام



## ﴿ رَبِّنا اَغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤﴾

ونعلم أن طلب العُقران من المعصوم إيدان بطلاقة قدرة الله في الكون ، ذلك أن احتيال الحق سبحانه للرسول - أي رسول - لا يُغفى الرسول المختار من الحشر وطلب المغفرة ، وها هو سيدنا رسول الله ﷺ يقول : « إني أستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة »<sup>(١)</sup>

وطلب المغفرة من الله إن لم يكن لذنوب - كما في حال الرُّسل المعصومين - فهو من الأدب مع الله ، لأن الخالق - سبحانه وتعالى - يستحق منا فوق ما كلفنا به ، فهذا لم نقدر على المددويات وعلى القطوعات ؛ فلندعُ الحق سبحانه أن يغفر لنا .

ومما من لا يقدر على الصفرائض ، فليدعُ الله أن يغفر له ، ولذلك يُقال : « حسنات الأبرار سيئات المقربين »<sup>(٢)</sup>

(١) أخرجه البخاري في سننه ( ٣٢/٢ ) والحاكم في مستدركه ( ٤٥٧/٢ ) وقال صحيح الإسناد ولم يخرجه ، وأحمد في مستند ( ٣٩٤/٥ ) من حديث حذيفة رضي الله عنه أنه قال : كان في لسانى نبي على أهلى ولم يكن بعدوهم إلى غيرهم سالت النبي ﷺ فقال : « أين أنت من الاستغفار » إني لاستغفر الله كل يوم مائة مرة .

(٢) لأبرار والمقربين كلاهما من أهل الجنة ولكن الأبرار أقل مرتبة من المقربين وقد يحدث الله عن الصنفين فقال عن المقربين ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ (١) أولئك السَّابِقُونَ (٢) في حركات التعميم (٣) ثلثة من الأولي (٤) وقليل من الآخرين (٥) على سرر منضوذه (٦) متكئين عليها متلبسين (٧) يتولون عليهم ولدان محتضنون (٨) [الواقعة] الآيات أما لأبرار فقد قال عنهم ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ (٩) في سرر منضوذه (١٠) وطلح منضوذه (١١) وظل منضوذه (١٢) [الواقعة] الآيات فنعظم مرتبة المقربين فيجب أن الحسنات التي يعملها الأبرار والتي استحقوا بها الميم في الجنة هي سيئات من جانب ما يعمل المقربون

والحق سبحانه يقول برسوله ﷺ

﴿لِيَعْرِفَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقْسَمُ مِنْ دُنَيْكَ وَمَا تَأْخُزُ وَيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ٢٠﴾ [الفتح]

ولذلك أقول دائماً إن الحق - جلُّ جلالُ ذاته - يستحق أن يُعَدَّ بفوق ما كُلِّفَ به ، فإذا اقتصرنا على أداء ما كُلِّفَ به سبحانه ، فكاننا لم نُزِدْ كامن الشُّكْرِ ، وما بالنا إذا كان مثل هذا الحال هو سلوك الرُّسل ، خصوصاً وأن الحق سبحانه قد زادهم عن خلقه اصطفاً ، أفلا يزيدونه شُكْراً وطلباً للمغفرة ؟

ونلاحظ أن طلب المغفرة هنا قد شمل الوالدين والمؤمنين

﴿رَبِّا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ<sup>(١)</sup> وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ٤١﴾ [إبراهيم]

والإنسان كما نعلم له وجود أصلي من آدم عليه السلام وله وجود مباشر من أنبيائه ، وما دام الإنسان قد جاء إلى الدنيا بسبب من والديه ، وصار مؤمناً فهو يدعو لهما بالمغفرة ، أو ، أن الأسوة كانت منهما ، لذلك يدعو لهما بالمغفرة .

والإنسان يدعو للمؤمنين بالمغفرة ، لأنهم كانوا صحبة له وقُدوة ، وتواصى معهم وتواصوا معه بالحق والصبر ، وكان إبراهيم عليه السلام - صاحب الدعاء يدعو للمؤمنين من ذريته ، وذلك دعوة وشفاعة منه لمن آمن ، ويرجو الحق سبحانه أن يتقبلها

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٢/٤٧١٤) قراءتين أخريين لهذه الكلمة

- ( لوالدي ) يعني آياه وهي قراءة سعيد بن جبير وذلك لئلا أن يشيع عبء أنه من

ش

( لوالدي ) يعني ابنيه وهي قراءة إبراهيم السعدي ، ويسمى بن يعمر وذلك قيل إنه أراد ولديه إسماعيل وإسحاق

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٤٢)

وبعد ان ذكر الحق سبحانه واوضح النعم العامة على الكون ،  
والنعم الخاصة التي أنعم بها سبحانه على مَنْ تَوَلَّوْا مَكَّةَ ، ومن  
سلمهم مِنْ وَقْفِ ضِدِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَوْقِفَ الْعَنْتِ ، بعد ذلك جاء  
الحق سبحانه بهذه الآية نعرية وتسرية عن رسول الله ﷺ

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ (٤٢)

وأرضية التصوير التي سبقتها تشتمل بداية التكوين لهذا المكان  
الذي وجدوا به ، وكيفية مجيء النعم إلى مَنْ تَوَلَّوْا هَذَا الْمَكَانَ ،  
حيث تجيء إليهم الثمرات ، ونعمة المهابة بهم حيث يعصف سبحانه  
بمَنْ يُعَادِيهِمْ كَأَبْرَهَةَ وَمَنْ مَعَهُ .

﴿فَجَعَلَهُمْ كَصِفِّ<sup>(١)</sup> مَأْكُولٍ<sup>(٢)</sup>﴾ (٤٣)

[العنيل]

حيث يقول سبحانه من بعد هذه الآية مباشرة .

﴿لِلْإِبِلِ<sup>(٣)</sup> قُرَيْشٍ<sup>(٤)</sup> إِبِلَافِهِمْ<sup>(٥)</sup> رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ<sup>(٦)</sup> فَيَعْبُدُوا رَبَّ

(١) شخص بصره . انفتحت عيابه فلا تفرق من الخوف والذعر والحيرة [ القاموس القويم  
٣٤٣، ٨ ]

(٢) العصف المأكول النين او ورق الشجر الذي أصابه مرض الأكل فتأكلت منه جراد  
[ القاموس القويم ٢٤٣/٧ ]

(٣) الإبلان الاعتياك والانس بالشيء ومحبة . والإبلان أيضاً العهد يؤخذ لقامين خروج  
التجارة من أرض إلى أرض . قال ابن الأعرابي : أصاب الإبلان أربعة أهوة هي عبد مناف  
هاشم أحد عهداً من ملك الدوم ، ونوفل أحد عهداً من كسرى ، وعبد شمس أحد عهداً من  
المجاشي . والمطلب أحد عهداً من ملوك حمير باليمن . فكان تجار قريش يترددون على هذه  
الأمصار بعهود هؤلاء الإحوة فلا يتعرض لهم أحد . [ لسان العرب - مادة : ألف ]

هَذَا آيَتِ (٣) الَّتِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) ﴿ [فريش]

ورغم ذلك وقفوا من دعوة رسول الله ﷺ موقف الإنكار ولتعتن  
والتصدى والجُحود ، وحاولوا الاستعانة بكل خصوم الإسلام ،  
ليحاربوا هذا الدين ، ولذلك يوضح الحق سبحانه هذا تسرية عن  
الرسول الكريم

﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ .. (٤٢)﴾ [إبراهيم]

لماذا ؟ وبأى الإحاطة فى النصف الثانى من الآية

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢)﴾ [إبراهيم]

رقوله الحق

﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ .. (٤٣)﴾ [إبراهيم]

أى لا تظننَّ فحسب هذا ليست من احساب والعَد ، ولكنها  
من « حسب » « يحسب » ، وقوله الحق الذى يوضح هذه المسألة

﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٤٣)﴾

[العنكبوت]

أى أظنَّ الناس ، محسب يحسب ليست - إن - من العَد  
ولكن من الظَرْ والحُسبان نسبة كلامية غير مجرّوم بها ، ولكنها  
راحة

(١) الفتنة الاحتيار والاهتلاء بالشهاد والمصائب ومقص الاموال والارلاء والشرار يُعرف

مدى صدق التومئيد [ القاموس القريم ٧١، ٢ ]

والغفلة التي يتفيتها سبحانه عنه ، هي السُّهُو عن أمر لعدم اليقظة  
أو الانتباه ، وطبعاً وبداهة فهذا أمر لا يكون منه سبحانه ، فهو  
القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم

وهنا يخاطب الحق سبحانه رسوله والمؤمنين معه تبعاً ، فحين  
يخاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ فهو يخاطب في نفس الوقت كل من  
آمن به

ولكن ، أَكَانَ الرِّسُولُ يَظُنُّ اللَّهَ غَافِلًا ؟

لا ، ولنلاحظ أن الله حين يُوحِّه شيء فقد يحمل التوجيه أمراً  
يُنْفِده الإنسانُ فعلاً ، ويطلب الله منه الاستدانة على هذا الفعل

والمثل حين تقول لواحد لا يشرب الخمر « لا تشرب الخمر »  
وهو لا يشرب الخمر ، فابت نطالبه بقولك هذا أن يستمر في عدم  
شُرْب الخمر أي استمر على ما أنت عليه ، فعلاً في الأمر ، أو  
امتناعاً في النهي

وهل يمكن أن تأتي الغفلة لله ؟

وأقول حين ترى صفة توجد في البشر ، ولا توجد في الحق  
سبحانه فعليك أن تُفسِّر الأمر بالكمالات التي لله

والذي يفعل ظلماً سيبتل في عقاباً عليه ، وحين يتأخر العقاب  
بتساءل الذين رأوا فعل الظلم فهم يتهايمسون تُرى هل تم نسيان  
الظلم الذي ارتكبه فلان ؟ هل هناك غفلة في الأمر ؟

وهم في تساؤلاتهم هذه يريدون أن يعلموا موفعهم من مرتكب  
الذنب ، وضرورة عقابه ، وعلى ذلك نعمهم كلمة

[إبراهيم]

﴿عَالِمًا ٦٢﴾

في هذه الآية بمعنى « مُؤَجِّل العقوبة » .

وَمَنْ يَسْأَلْهُمْ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَذَكَّرُوا قَوْلَ لِحَقِّ سُبْحَانَهُ ،

﴿وَأَمْنِي<sup>(١)</sup> لَهُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُتَعِبِينَ﴾ (١٨٢) [الأعراف]

وعلى ذلك فليست هناك عفة ، ولكن هناك تأجيل للعقوبة لهؤلاء الصالحين ، ذلك أن الظلم يعنى أخذ حق من صاحبه وإعطاءه للغير : أو أخذ النفس

وإذا كان الظلم في أمر عقدي فهو الشرك وهو الجريمة العظمى وإن ظلمت في أمر كبيرة من الكبائر فهذا هو الفسق ، وإن ظلمت في صغيرة فهو الظلم

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - يُورد كل حكم يتسبب الثلاثه مواقف ، فيقول عن الذي تغاضى عن تجريم الشرك

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٤٤) [المائدة]

ويقول عن تجريم كبيرة من الكبائر

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٤٥) [المائدة]

ويقول عن تغاضى عن تجريم صغيرة بما يناسبها من أحكام الدين

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٤٥) [المائدة]

وإذا وجد محكوم عليه ، وهو واحد - بأحكام متعددة بالحكم متوقف على ما حكم به

(١) لإملاء الإبهال والتأخير وإزالة العسر وأما الله له كنهه وطوره له ، لسان العرب - مادة ملا [

وحين ينظر في مسألة الظلم هذه نجد أن المظالم يقنصى  
مظلوماً ، فمن كان الظُّلم - والعياذ بالله - هو ظُلم القمة وهو اشرك  
بالله ، فهذا الظلم ينقسم - عند العلماء - إلى ثلاثة أنواع

**النوع الأول :** وهو إنكار وجود الله والوهيته دون أن ينسبها لأحد  
آخر ، وهذا هو الإلحاد ، وهو ظُلم في واجب وجوديته سبحانه .

**والنوع الثاني** هو الاعتراف بالوهية الله ، وإشراك آخرين معه  
في الألوهية ، وهذا الشرك ظُلم للحق في ذاتية وواحدية تفرده .

**والنوع الثالث** ، هو القول بأن الله مُكوّن من أجزاء ، وهذا ظُلم  
له في أحدية ذاته

ويقول بعض العارفين إن اور حو في الوجود هو وجوده  
سبحانه

ومنهم الشاعر الذي قال

وأوّل حقٍّ في لوجُودٍ وجُوده      وكلُّ حقِّوقِ الكونِ منه استمدّت  
فلا هو حمعٌ كما قال مُشركٌ      ولا هو في الأجزاء ما حُسُنَ ملّتي<sup>(١)</sup>

والظلم الذي ورد في الآية التي نحن بصدد خوطبها عنها ، هو  
ظلم القمة ، ظُلم في العقيدة الإلهية ، ومعه ظلم آخر هو ظلم  
الرسول ﷺ ويُلخص الشاعر ظُلمهم للرسول ﷺ فيقول

(١) أي يا حُمن ملة الإسلام التي جاءت من عند الله مثبته وجوده دون شريك له في الملك  
ودون أن يكون مكوناً من أجزاء ثابتة له سبحانه وجوبية وجوده وواحدية تفرده  
وأحديه ذاته سبحانه ( ع )

لَقَبْتُمُوهُ أَمِينًا فِي صَغَرٍ وَمَا الْأَمِينُ عَلَى قَوْلٍ بِمَنْتُهُمْ

وهم قد سموا الرسول من قبل الرسالة بالأمين ، وبعد لرسالة  
نزعوا منه هذا الوصف ، وكانوا يَصِفُونَهُ قَبْلَ الرِّسَالَةِ بِالصَّادِقِ ، ولم  
يقولوا عنه مرة قبل لرسالة إنه ساحر ، ولم يَتَّهِمُوهُ مِنْ قَبْلِ الرِّسَالَةِ  
بِالْجَنُونِ

فكيف كانت له أوصاف الصدق والنطق بالحق ، والتحدث عن  
رجاحة قبرته في الحكم ؟

كيف كانت له تلك الصفات قبل الرسالة ، وتزعمونها منه من بعد  
الرسالة ؟

إن هذا هو ظلم سلب الكمال ، فقد كان للرسول ﷺ كمال قبل أن  
يُرْسَلَ ، فطُيِّمْتُمُوهُ بَعْدَ الرِّسَالَةِ وَأَنْكَرْتُمْ عَلَيْهِ هَذَا الْكَمَالَ ، وَهُوَ ظُلْمٌ  
مُزْدَوِّجٌ

فقد سبق أن اعترفتم له من قبل الرسالة بالأمانة ، ولكن من بعد  
الرسالة أنكرتم أمانته ، وكان صادقا من قبل الرسالة ، وقلتم إنه غير  
صديق بعدها

وم تكن له صفة نقص قبل الرسالة ، فجئتم أنتم له بصفة  
نقص ، كقولكم ساحر ، كاهن ، مجنون ، وهي هذا ظلم  
لرسول ﷺ .

وهذا أيضا ظلم للمجتمع الذي تعيشون فيه ، لأن من يريد  
استمرار الاستبداد بكلمة الكفر ، ويريد أن يستمر في السيادة



والاستغلال والتحكم في الغير ؛ فكلُّ ذلك ظَلَمٌ لمجتمع ، وفوق ذلك ظَلَمٌ للنفس ، لأن مَنْ يفعل ذلك قد يأخذ متعة بسيطة ، ويحرم نفسه من متعة كبيرة ، هي متعة الحياة في ظلِّ مهبِّ الله ، وينطبق عليه قول الحق الرحمن

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١٨) [البقر]

وفوق ظَلَمِ النفس وظَلَمِ المجتمع هناك ظَلَمٌ يمارسه هذا النوع من البشر ضد الكون كُلِّهِ فيما دون الإنسان ، من جماد وحيوان وبيت ذلك أن الإنسان حين لا يكون على مهبِّ خائفه ، والكون كله مُسَخَّرٌ لمهبِّ الحمالى ، فليس يرعى الإنسانُ ذلك فى تعامله مع الكون ، وسبحانه القائل

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ..﴾ (٤٤) [الإسراء]

حين يُسَبِّحُ كل ما فى انكون يشذُّ عن ذلك إنسانٌ لا يقبض منهج الله ، فالكون كله يكرهه ، وبذلك يظلم الإنسان نفسه ويظلم انكون أيضاً

وهكذا عرفنا ظَلَمَ ابقمة فى إنكار الألوهية ، أو الشريك به سبحانه ، أو ترهُّم أنه من أجراء ، وظَلَمَ نزع الكمال عن الرسول ، وهو الواسطة التى جاءت بحسر الإيمان ، وظَلَمَ الكون كله ، لأن الكون بكل أحناسه مُسَبِّحٌ لله

وقول الحق سبحانه

﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ..﴾ (٤٦) [إبراهيم]

نجد فيه كلمة « يعمل » ، ونعلم أن هناك فرقاً بين « عمل »  
و « فعل » ، والفعل هو أحدث كل الجوارح ، ما عدا اللسان الذي  
يقال عن حدثه « القول »

فكل الجوارح يأخذ الحادث منها اسماً ، وحدث اللسان يأخذ اسماً  
بمفرده ، ذلك أن الذي يكذب<sup>(١)</sup> الناس على صاخرهم في النار إنما هو  
حصائد السنتهم<sup>(٢)</sup> ، والفعل والقول يجمعهما كلمة « عمل »

وهنا في الآية التي نحن بصدد حواطرها عنها يقول الحق سبحانه  
« يعمل » ، ذلك أن المشركين الذين استقبلوا القرآن كانوا يَرَجِفُونَ<sup>(٣)</sup>  
بالإسلام وبالرسول ﷺ بالكلام ، وكل الأفعال التي قاموا بها نشأت  
عن طريق تحريض بالكلام

ونأتي هذه الآية الكريمة التي يُؤَكِّدُ فيها سبحانه أنه يُمَكِّنُ لهم  
الذنوب ليُمَكِّنَ لهم العقوبة أيضاً ، ويأتي قوله .

﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (١٧)

ويعلم أنه قد حدثت لهم بعض من الطواهر التي تؤكد قُرْبَ  
انتصار رسول الله ﷺ ، فقتل صناديدهم وبعض من ساداتهم في

(١) كب الشيء يكب قلبه وكبه لوجه فأنكب أي صرعه [ لسان العرب - مادة ككب ]  
(٢) عن معاذ بن جبل أنه قال : يا نبي الله وإيا المؤمنين بما تكلم به « مقال » ثلاث مد  
يا معاذ ، ومن يكذب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد السنتهم «  
أخرجه أحمد في مسنده ( ٢٢١/٥ - ٢٣٦ ) والترمذي في سننه ( ٢٦٩٦ ) وقيل  
« حسن صحيح »

(٣) أرجم القوم إذا حاصروا في الأخبار السيئة وذكر الله تعالى ﴿ وَالْمُرْغِفُونَ فِي  
الْأَعْيُنِ ﴾ [الأحزاب] هم الذين يؤلِّدون الأخبار الكاذبة التي يكره معها اضطراب في  
النفوس [ لسان العرب - مادة رجف ]

يسر ، وأسر كبرائهم ، وهكذا شاء سبحانه أن يأتي بالوعد  
أو الوعيد ، جاء بالأمر الذي يدخل به كل السامعين ، وهو عذاب  
الآخرة ، إن ظلموا على الشرك ومقاومة رساله

و ﴿نَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٤٦)

[إبراهيم]

يعنى تفتح بصورة لا تقلب بها يمئة أو يسرة من قول  
ما يرى ، وقد يكون عدم تقلب البصر من قرط جمال ما يرى ،  
والذي يفرق بينهما سيال خاص بخلق الله فقد ، وهو سبحانه الذي  
حلقه

فحين ترى إنساناً مدعوراً من قرط الخوف ، فسختته تتشكل  
بشكل هذا الخوف ، أما من بصر إلى شيء جميل وشخصت عيانه  
له ، يصبح لملامحه انسجام ارتواء النظر إلى الجمال ، ولذلك يقول  
الشاعر

جمال الذي أهواء قيد ناظري فليت لشيء غيره يتحول

ويمكننا أن نفرق بين لحائف وبين المستمتع بلامح الوجه  
المبسطة أو المذعورة

ونعلم أن البصر ابن لمرائي ، فساعة تتعدد المرائي ، فالبصر  
يتنقل بينها ، ولذلك فالشخص المبصر مشقت المرائي دائماً ، ويتنقل  
دهنه من هذا إلى هناك

أما من نعم الله عليهم بنعمة حجر أبصارهم - المكفوفين - فلا  
تشغله المرائي ، ولذلك سجدهم أحرص الناس على العلم ، بأدهانهم  
غير مشغولة بأي شيء آخر ، وبؤرة شعور كل منهم تستقبل عن  
طريق الأذن ما بثت فيها

ولذلك يقال عنهم « صناديق لعلم » إن أرادوا أن يعلموا ؛ فلا  
أحد من الذين يتعلمون منهم يكون فارغاً أبداً ، مثله مثل الصندوق  
الذي لا يفرغ

ولا أحد يتحكم في العاطفة الناشئة عن الغرائز إلا الله ، فأنتم  
لا تقول لنفسك ، اغضب ، أو ، ضحك ، لأنه هو سبحانه الذي  
يمسك ذلك ، وهو القائل

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ (٤٣)

[النجم]

واضحك والبكاء مسائل قسرية لا دخل لأحد بها

ونجد الحق سبحانه يقول في موقع آخر من القرآن

﴿وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ﴾ (٥١)

[الاحزاب]

فمرة تشخص الأبصار ، ويستولي اربع على أصحابها فلا  
يتحولون عن المشهد المرعب ، ومرة تزوغ الأبصار لعله يبحث لنفسه  
عن منفذ أو مهرب فلا يجد

ويكمل الحق سبحانه صورة هؤلاء الذين تزوغ أبصارهم فيقول

﴿مُهْلِكِينَ مُّقْنِعِينَ رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ  
طَرْفُهُمْ وَأَفْنَدْتَهُمْ هَوَاءً﴾ (٤٣)

(١) زاع البصر اضطرب ولم يحقق ما يرى أو انحرف عن القصد ولم ير شيئاً وبيع

الأبصار اضطربها لشدة الفزع [ القاموس القويم ١/ ٢٩٤ ]

(٢) المنع الذي يرفع رأسه ينظر في ذلك والإفجاع رفع الرأس والنظر في ذلك وحشوع

[ لسان العرب - مادة قنع ]

والمُهْطَع هو مَنْ بظهور من فَرْطَ تَمَرُّعه وكان رقبته قد طالت ،  
لأن المُهْطَع هو مَنْ فيه طُول ، وكان الجزاء بالعذاب يجذب المَجْزَى  
ليقربه ، فيُدْفَع عن شدة وجفوة إلى العذاب ، يقول الحق سبحانه

﴿يُدْعُونَ<sup>(١)</sup> إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دُعَاً<sup>(٢)</sup>﴾ [الطود]

وكان هناك مَنْ يدفعهم دفْعاً إلى مصيرهم المُرْلَم وهم

﴿مُقْنَعِي رُءُوسِهِمْ ..﴾ (٤٣) [إبراهيم]

أي رافعين رؤوسهم من فَرْط الدهشة لهول العذاب الذي  
ينتظرهم

ومى موقع آخر يُصوِّرهم الحق سبحانه

﴿إِنَّا جَعَلْنَا لِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً<sup>(١)</sup> يَلْبِى إِلَى الْأَذْقَانِ<sup>(٢)</sup> فَهُمْ مُقْمَحُونَ<sup>(٣)</sup>﴾ (٨)

[يس]

وهكذا تكون صورتهم مُفْزَعَةٌ من فَرْطِ المهانة ؛ فمَصَّرَ الواحد  
منهم شأخص إلى العذاب مُنْجَذِبٌ إليه بسرعة لا يتحكَّم فيها ، ورأسه  
مرفوعة من فَرْطِ الهول ؛ ومُقْمَحٌ<sup>(٣)</sup> بالأغلال .

(١) دعا بضمه دفعه عن جفوة والدُّعُ الطرد والدفْع في اسفار ورجو [ لسان العرب -  
مادة دع ]

(٢) الذقن مجتمع اللحمين أسفل الوجه ويُطلق على ما يبيت عليه من الشعر مجاراً وقد  
يطلق على الوجه كله [ القاموس القويم ٢٤٢/١ ]

(٣) الممّح الحاضض الذليل لا يكاد يرفع بصره قال الأزهري أراد عز وجس من أيديهم بما  
علّت عند أعناقهم رفعت الأغلال أنفاسهم ورؤوسهم صعداً كالإبل الرافعة رؤوسها [ لسان  
العرب - مادة ممح ]

ولا يستطيع الواحد منهم أن تجفل جفونه ، وكأنها مفتوحة رَغْمًا عنه ، وفؤاده هواء بمعنى أن لا شيء قادرٌ على أن يدخله

ونحن نلاحظ ذلك حين نضع رجاجة فارغة في قلب الماء ، فتخرج فقائيع الهواء مقبيل دخول الماء من قوتها

وبعلم أن قلب المؤمن يكون ممتلئاً بالإيمان أما الكافر المُلْحَد فهو في مثل تلك اللحظة يستعرض تاريخه مع الله ومع الدين ، فلا يجد فيها شيئاً يُطمئن ، وهكذا يكشف أن فؤاده خالٍ فارغ ، لا يطمئن به إلى ما يُواجه به لحظة الحساب .

ونجد بعضاً ممن شاهدوا لحظات احتضار<sup>(١)</sup> غيرهم يقولون عن احتضار المؤمن ، كان مُشرق الوجه متلألئ الملامح ، أما ما يقولونه عن لحظة احتضار الكافر فهم يحكُون عن بشاعة ملامحه في تلك اللحظة

والسبب في هذا أن الإنسان في مثل هذه اللحظات يستعرض تاريخه مع الله ، ويرى شريط عمه كله ، فمن قضي حياته وهو يُرضي الله ، لا بُدَّ أن يشعر بالراحة ، ومن قضي حياته وهو كافر مُلْحَد فلا بُدَّ أن يشعر بالمصير المرعب الذي ينتظره

ولذلك يقول الحق سبحانه

(١) حُضر المريض واحتضر إذا نزل به الموت ودمعه أجف [ سنان (عرب - مادة حضر) ]

﴿وَجُودَ يَوْمَ نَاضِرَةِ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاضِرَةِ (٢٣) وَوَجُودَ يَوْمَ نَاضِرَةِ (٢٤) تَنْظُرُ أَنْ يُفَعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾  
[القيامة]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُحِبِّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعُ الرَّسُولَ أَوَلَمْ نَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ (٤٤)﴾

وهذا خطاب من الحق سبحانه لرسوله ﷺ أن يُبْذِرَهم بضرورة الاستعداد ليوم القيامة ، وأنه قادمٌ لا محالة

وكلمة « يوم » هي طَرْفَ رَمَار ، وظرف الزمان لا بُدَّ له من حدث يقع فيه ، ويوم القيامة ليس محلَّ إنذار أو تبشير ، لأنَّ الإنذار أو البشارة لا بُدَّ أَنْ يكونا في وقت التكليف في الحياة الدنيا

وهكذا يكون المُتَنَبِّرُ به هو تضيؤهم مَفَّ يحدث لهم في هذا اليوم ، فما سوف يحدث بهم هو العذاب ، وكأنه قنبله موقوتة ما نَ يَأْتِي يوم القيامة حتى تنعجر في وحوشهم

وهنا يقول أهل ظُلْم انقمة في العقيدة ، وظُلْم الرسالة بمقاومتها ، وظلم الكون المُسَبَّح لله

﴿رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّحِبِّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعُ الرَّسُولَ .. (٤٤)﴾

[إبراهيم]

( ) بـاسرة كلمة عابسة كناية عن الهم والغم والخوف الشديد [ القاموس القويم ٦٦/١ ]

(٢) الفاقرة الداهية تكسر ففار الظهر [ القاموس القويم ٨٦/٢ ]

وهم يطلبون تأجيل العذاب لمهلًا بسيطة ، يُثَبِّتُونَ فِيهَا أَنَّهُمْ  
سَيُجَيِّبُونَ الدَّعْوَةَ وَيَطِيعُونَ الرَّسُولَ ، وهم يطلبون بذلك تأجيل  
قيامتهم

فيكرر الجواب من الحق سبحانه

﴿ أَرَأَيْتُمْ أَفْسَأْتُمْ مَن قَبْلَ مَا لَكُمْ مَن زُرَّالٍ ۚ ﴾ (٤٤)

[إبراهيم]

فلانتم قد سبق وأن أفسأتم بأن الله لا يبعث من يموت ، وقد قال  
الحق سبحانه ما قلتم

﴿ وَأَفْسَأُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ ۞ ﴾ (٤٨)

[العد]

وساعة ترى كلمة « بلى » بعد تدب ، فهذا يحس تكذيب ما جاء  
قبيها ، وهم في الآية التي نحن بصدد خواطرنها عنهم ظنُّوا أنهم لن  
يُبعَثُوا ، وظنُّوا أنهم بعد الموت سيصيرون تريباً ، وهم الذين قالوا

﴿ إِنَّمَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُكَ الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۚ ﴾ (٦٧)

[المؤمنين]

وهكذا أكدوا لأنفسهم أنه لا بعث من بعد الحياة ، ومن بعد البعث  
سنسمع من كل فرد فيهم

﴿ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ۚ ﴾ (٤٠)

[النبا]

أو أنهم ظنُّوا أن الدين أعظم الله عليهم في الدنيا ، لن يحرمهم  
في الآخرة ، كما أورد الحق سبحانه هذا العنل ، في قوله تعالى



﴿١٦٠﴾

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَّحُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ (١) مِنْ أَعْنَابٍ وَخَفَضْنَاهُمَا بِتَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا (٢) كُلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَنْظُمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٦)﴾

والذى يقول ذلك فهم أنه سوف يموت ؛ لكنه توهم أن جنته تلك ستظل على ما هي عليه ، وأنكر قيام الساعة وقال « حتى لو قامت الساعة ، ورُددتُ إلى الله فسأجد أفضل من جنتي تلك »

وهو يدعى ذلك وهو لم يُقدم إيماناً بالله ليحده في الآخرة ، فهو إذن ممن أنكروا الزوال أى البعث من جديد ، ووقع فى دائرة من لم يُصدقوا البعث ، وسبق أن قال الحق سبحانه ما أورده على السنتهم .

﴿أَلَمْ نَجْعَلْهَا فِي الْأَرْضِ أَثَرًا لِّمَنْ حَلَقٍ جَدِيدٍ (١)﴾ [السجدة]

والذين أنكروا البعث يُورد الحق سبحانه لنا حواراً بينه وبينهم ، فيقول سبحانه وتعالى

﴿فَالْتَوَا رَبَّنَا أَنَّمَا أُنْتَبِئُ وَأَحْيَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَقْنَا بِدُؤُونِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١)﴾ [عافر]

(١) السجدة حذيفة ذات شجر كثير ملتف يستتر الأرض [ القاموس القروى ١/ ١٢٢ ]  
(٢) ضل من الأرض مات وصار تراباً فصمّ فلم يتبين شيء من حنائه [ لسان العرب - مادة ضلل ]

فيود الحق سبحانه عليهم

﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ  
لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٦)﴾ [غافر]

وفى موقع آخر من لقرآن نجد حصاراً واستجداءً منهم لله .  
يقولون

﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا (١٧)﴾ [السجدة]

ويأتى ردّ الحق سبحانه عليهم

﴿فَذَوْقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِيَاكُمْ (١٨)﴾ [السجدة]

وفى موقع ثالث يقول الواحد منهم عند الموت

﴿رَبِّ ارْجِعُونِ (١٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ .. (٢٠)﴾

[المؤمنون]

فيأتى ردّ الحق سبحانه .

﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا (٢١)﴾ [المؤمنون]

وبعد دخولهم النار يقولون

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (٢٢)﴾ [المؤمنون]

فيقول الحق سبحانه

﴿قَالَ احْسَبُوا<sup>(١)</sup> فِيهَا وَلَا تَكَلَّمُونَ (٢٣)﴾ [المؤمنون]

(١) احسبوا - ارجعوا واعدوا على في النار ولا تكلّموني [القاموس القويم ١/ ١٩٢]

والعالمى - الصالح الدليل [المعجم الوجيز - مادة حسب]

وفي موضع آخر يقولون عند اصطراخهم<sup>(١)</sup> في النار

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۖ﴾ (٢٧) [فطر]

فيأتي الرد من الحق سبحانه .

﴿أَوْ لِمَ نَعْمَرُكُمْ مَا تَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُرُّوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (٢٧) [فطر]

ونحظ أنهم في كل آيات التوسل لله كي يعودوا إلى الحياة الدنيـة يقولون ( ربنا ) ، وتناسوا أنهم مأخوذون إلى العذاب بمخالفات الألوهية ، ذلك أن الربوبية عطاؤها كان لكم في الدنيا ، ولم ينقصكم الحق سبحانه شيئاً على الرغم من كفركم .

هكذا يكون حال هؤلاء الذين أقسموا أن الحق سبحانه لن يبعثهم ، وأنكروا يوم القيامة ، وأنه لا زوال لهم أي لا بعث ولا نشور .

ويتابع الحق سبحانه القول الكريم

﴿وَسَكَنَ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَمِنْكُمْ لَكُمُ كَيْفُ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبَ لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ (٤٥)

والسكون هو الاطمئنان إلى الشيء من عدم الإزعاج ، ونعلم أن

(١) اصطراخ القوم وتصارحوا استغاثوا والاصطراخ التصارع لسان العرب - مادة

صرح ]

(٢) قال قتادة سكن الناس من مساكن قوم نوح وعاد وشمود وقرون بين ذلك كثيره ممن

ذلك من الأمم [ الدر المنثور ٤٢/٥ ]

المرأة في الرواج تعقر سكتاً ، والنيت سكى ، وهنا يتكلم الحق سبحانه عن مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، أى اكم لم تتعظوا بالسوابق التى ما كان يحب أن تغيب عنكم . فانتهم تعرون في رحلات الصيف والشتاء على مدائن صالح ، وترون أثر الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك ، وتعمرون على الأحقاف<sup>(١)</sup> ، وترون ماذا حاق بقوم عاد .

وَكُلُّ أُولَٰئِكَ ثَالِثُ الْعِقَابِ مِنَ اللَّهِ . سواء بالريح المرصص<sup>(٢)</sup> العانية . أو أنه سبحانه قد أرسل عليهم حاصباً<sup>(٣)</sup> من السماء ، أو أنزل عليهم الصيحة ، أو أعرقهم كآل فرعون ، وأحد كل قوم من هؤلاء بذنبه

وصدق الله وعده في عذاب الدنيا ، فلماذا لم تأخذوا عبرة من ذلك ، وأنه سبحانه وتعالى صادق حين تحدث عن عذاب الآخرة ؟

وهنا قال الحق سبحانه

﴿وَسَكُنْتُمْ فِي مَسَاكِي الدِّيَارِ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ۖ﴾ [١٤٥]

[إبراهيم]

وفي آية أخرى يقول سبحانه

﴿وَأَنكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ۖ (١٤٧) وَبِالنَّيْلِ أَعْلًا تَعْقُلُونَ ۖ﴾ [١٤٨]

[الصافات]

(١) الأحقاف : مآذن قوم عاد بظاهر بلاد اليمن ، والحقف من الرمس المتعرج أو المستطيل أو المستدير من الرمل [ القاموس القويم ١/ ١١٢ ] زيادة

(٢) الريح المرصص : الشديدة البرد . ونيل : الشجيرة الصوت [ لسان العرب - مادة صرر ]

(٣) حصة : قدفه بالمصى والحاصب : عصا شديدة يدهنكم بالحصى قبيحاكم [ القاموس القويم ١/ ١٥٦ ]

أى أنكم تمرُّون على تلك الأماكن التى أقامها بعضُ من سبقوكم وظلموا أنفسهم بالكفر ، وأنزل الحق سبحانه عليهم العقاب ، ولذلك يقول فى الآية التى نحن بصدد خواطرها عنها

﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ لَعَنَّا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾ (٤٥) [إبراهيم]

نعم ، حين نمشى فى أرض قوم عاد ، ونرى حضارتهم التى قال عنها الحق سبحانه

﴿ إِمَّامٌ<sup>(١)</sup> دَاتُ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ (٤٥) [العنبر]

وهى حضارة لم تكتشف آثارها بعد ، وما زالت فى العظمورات ، وكل ملجور فى الأرض يفعل من غضب السماء ، تضع السماء ميعاد كشف له لينعظ أهلُ لأرض ، ويحدث هذا الكشف كلما زاد الإلحاد واستشرى

قد حدث أن اكتشفنا حضارة ثمود ، وكذلك حضارة الفراعنة ، وهى الحضارة التى سبقَتْ كل الحضارات فى العلوم والتكنولوجيا ، ورغم ذلك لم يعرف أصحاب تلك الحضارة أن يصوبوها من الابدثار الذى شاءه الله .

وما زال الناس يتساعلون لماذا لم يترك المصريون القدماء حبرتهم الحضارية مكتوبة ومُسجَّلة فى حطوات يمكن أن تفهمها ابشرية من بعد ذلك ؟

(١) إم اسم قبيلة منها عاد وقيل هى مدينه كبيره لهم - ورغم الكدى فى كتاب مصلح مصر انها مدينه الامكنه وقوله ( دات العمد ) يدل على انها دات حضارة وميل عالية [ القاموس القويم ١ ١٨ ]

﴿وَسَكُتُمْ فِي مَسَاكِي الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ  
وَحَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ (١٥)﴾ [إبراهيم]

أى أن الحق سبحانه يوضح لنا أن مشيئته فى إنزال العقاب  
قد وضحت أمام الذين عاصروا رسالة محمد ﷺ فى مساكن الأتواء  
التي سبقتهم وكفروا برسالات الرسل ، وسبق أن ضرب لهم الحق  
سبحانه الأمثال بهؤلاء القوم وبما حدث لهم والمثل إنما يضربه الله  
ليُقرب بالشئ الحسى ما يُقرب إلى الأدهان الشئ المعنوى .

ويستمر قوله الحق من بعد ذلك

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ  
مَكْرُهُمْ لِيَرْزُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ (١٦)﴾

والمكر كما تعلم - هو تبييت الكيد فى خفاء مستور ، وماخود  
من الشجرة المكمورة ، أى الشجرة التي تُدَارَى نفسها ونحن  
نرى فى البساتين لكبيرة شجرة فى حجم الإصبع ، وهى مجدولة  
على شجرة أخرى كبيرة ولا تستطيع أن تتعرف على ورقة منها ،  
أو أن تنسب تلك الورقة إلى مكان خروجها ، ومن أى فرع فى  
الشجرة املتفتة إلا إذا نرعتها من حول الشجرة التي تلتفت من  
حولها

ومن يُبَيِّت إنما يشهد على نفس بالجبن والضعف وعدم القدرة  
على المواجهة ، قد يصلح أن تُبَيِّت ضد مسأولك ، أما أن تُبَيِّت على  
الحى القيوم الذي لا تخفى عليه حافية فى الأرض ولا فى السماء  
فتلك هى الحيلة بعينها .

ولذلك يقول الحق سبحانه في مواجهة ذلك

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)﴾ [آل عمران]

وقال عن مكر هؤلاء

﴿وَلَا يَحِيقُ<sup>(١)</sup> الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَمْلِهِ (٤٣)﴾ [فاطر]

ونعلم أننا حين نسب صفة لله فنحن نأخذها في إطار

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الحج]

وعادة ما تنسب كل فعل من الله للخير ، كقوله سبحانه

﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩)﴾ [الأنبياء]

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)﴾ [آل عمران]

وقوله هنا

﴿وَنَدَّ مَكَرُو مَكْرَهُمْ .. (٤٦)﴾ [إبراهيم]

أي قاموا بالتبنييت المناسب لحيلتهم ولتفكيرهم ولقوتهم ، فإذا ما قابل الحق سبحانه ذلك ؛ فلسوف يقابله بما يناسب قوته وقدرته المطلقة وهو سبحانه قد علم ألا بما سوف يمكرونه ، وتركهم مي مكرهم .

فانتصارات الرسالات مرهون بقوة المرسل وأنصاعه ، وهم

(١) حاق به الشيء أصاب واحاط به . حاق به الأمر لزم ووجب عليه . والحقيق

ما يصيب الإنسان من مكروه فله [ المعجم الوجيز - مادة حقيق ]

يقابلون خصوماً همٌ حيثية وجود الرسالة ، ذلك أنهم قد ملأوا الأرض بالفساد ، ويريدون الحفاظ على الفساد الذي يحفظ لهم السلطة ، والدين الجديد سيدك سيادتهم ويزلزلها ، لذلك لا بدّ ألاّ يدخروا وسعاً في محاولة التّكيد والإيقاع بالرسول للقضاء على الرسالة .

وقد حاولوا ذلك بالمواجهة وقت أن كان لإسلام في بدايته ، فاخذوا الضعاف الذين أسلموا ، وبدّوا في تعديبهم ، ولم يرجع واحد من هؤلاء عن الدين .

وحاولوا بالحرب ، فنصر الله الدين آمنوا ، ولم ينجق لهم إلا المكر ، وسبّحانه القائل

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ۖ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (٣٠)

[الأنفال]

وحاولوا أن يفسدوا حلّة الإيمان الأولى ، وهي محمد بن عبد الله ﷺ ، وظنّوا أنهم إن نجحوا في ذلك ، فسوف تنفصر الرسالة فحاولوا أن يشتروه بالمال ، فلم يفلحوا

وحاولوا أن يشتروه بالمباينة والملك فم بنجسوا ، وقال قوله المشهورة « والله لو وصعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أوهلّك فيه ، ما تركته »<sup>(١)</sup>

(١) ليثبتوك أي يجرحوك جرحاً لا تقوم معها وأنت فلان ، أي اشتد به طمعه أو أثقت جرحاً فم يتحرك [ لسان العرب - مادة ثبت ]

(٢) أورده ابن هشام في السيرة النبوية ( ٢٦٦/١ ) معروفاً لسان إسحاق



ثم قررنا أن يقتلوه وأن يؤزِّعوا دمه بين القبائل ، وأخذوا من كل قبيلة شاة ليضربوا محمداً ﷺ بالسيوف ضرباً رجل واحد ، ولكنه ﷺ يهاجر في تلك الليلة ، وهكذا لم ينجح تبييتهم

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ۖ ۝٤٦﴾ [إبراهيم]

أى أنه سبحانه يعلم مكرهم .

ويتابع سبحانه قائلًا

﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتُرَوَّىٰ مَنَ الْجِبَالِ ۝٤٧﴾ [إبراهيم]

أى اطمئن يا محمد ، فلو كان مكرهم يُزيح الجبال فلن يبالوك ، ولجبال كانت أشد الكائنات بالسعة للعرب ، فلو كان مكرهم شديداً ترول به الجبال ، فلن يفلحوا معك يا رسول الله ، ولن يُزحزحوك عن هدفك ومهمتك .

والحق سبحانه بقول

﴿لَوْ أَرَادَ هَذَا الْمُرْأْنُ عَلَىٰ حِيلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا<sup>(١)</sup> مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأُمُتَالُ نَصْرُبُهَا لِلنَّاسِ لَعْنُهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٤٨﴾ [الحشر]

وإذا كان مكرهم يبلغ من الشدة ما تزول به الجبال ، فاعلم أن الله أشدُّ بأساً

ويُقدِّم سبحانه من بعد ذلك حثية عدم فاعلية مكرهم ، فيقول

(١) المتصدع التمزيق والتشقق والسندع الشق من الشيء الصلب والتصدع بكسر الصوحور مفعول [لسان العرب ، المعجم الوجيز - مادة صدع ]

﴿ فَلَا تُحْسِبَنَّ اللَّهُ يَخْلِفَ وَعْدَهُ رُسُلَهُ ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ۝١٧ ﴾

وَبَو كَانَ لِمَكْرَهُمْ مَفْعُولٌ أَوْ فَائِدَةٌ لَمَّا قَالَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ أَنْ وَعْدَهُ  
لِرُسُلِهِ لَنْ يُخْلَفَ ، وَلَكِنْ مَكْرَهُمْ سَامِدٌ مِنْ أَوَّلِهِ وَبِلَا مَسْعُولٍ ،  
وَسَبْحَانَهُ هُوَ الْقَائِلُ

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝١٧١﴾ (نُهِمُ بِهِمُ الْمُنْصُورُونَ  
۝١٧٢) وَإِنْ جُدْنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ ۝١٧٣﴾ [السافات]

إِنَّ فَوْعَدَ اللَّهِ لِرُسُلِهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُخْلَفَ  
وَلَوْ عَوْدٌ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ ، فَهَنَّاكَ وَعَدٌ لِشَيْطَانٍ لِأَوَّلِيَّائِهِ ،  
مُصْنَفَاتًا لِقَوْلِ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ۝١٧٤ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِّنْهُ  
وَالْغَنَاءَ ۝١٧٥﴾ [البقرة]

وَهَنَّاكَ وَعَدٌ مِنَ اللَّهِ لِمُؤْمِنِينَ  
﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي  
الْأَرْضِ ۝١٥٥﴾ [النور]

(١) حسب الشيء حسباً ظنه فلا تحسبن أي لا تظنن [ المعجم الوجيز - مادة حسب ]

(٢) العزيز من صفات الله عز وجل وأسمائه الحسنى قال الزجاج هو العميص فلا يقلبه شيء وقال غيره من القوى الغالب كل شيء [ لسان العرب - مادة عز ]

(٣) قال ابن كثير في تفسيره ( ٢٢١/١ ) : أي يحومكم الفقر لتمسكوا بما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله ، وهو مع نهيه إياكم عن الإنفاق حشية الإملاق ، يأمركم بالمعصي والمأثم والمحارم ومخالفة الحلال ،



فإننا كان الحق سبحانه لا يُخلف وعده لاتباع الرسل ، أيخلف وعده للرسل ؟

طبعاً لا ؛ لأن الوعد على إطلاقه من الله ، مُوفى ، فكيف إذا كان للرسل وللمؤمنين ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ إِنَّا لَنَعْلَمُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (٥١) [عامر]

والنصر يقتضى مزية المقابل ، ويحتاج النصر لصفة تناسبه ، والصفة المناسبة هي صدره من عزيز لا يُقلب والهريمة لمن كفروا تحتاج إلى صفة ، والصفة المناسبة هي تحقق الهزيمة بأمر مُستقم جنار

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿ يَوْمَ تَبْدِلُ الْأَرْضُ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ  
وَيَرْزُقُ اللَّهُ الْوَحِيدَ الْقَهَّارَ ﴾ (٤٨)

ويُحَوِّفهم الحق سبحانه هنا من يوم القيامة بعد أن صَوَّر لهم ما سوف يدعونّه ، بأن يؤخر الحق حسابهم وأن يُعيدهم إلى الدنيا لعلهم يعملون عملاً صالحاً ويجيبوا دعوة الرسل

ويوضح سبحانه هنا أن الكون الذي خلقه الله سبحانه ، وطراً

(١) برزوا هـ خرجت الملائق جميعها من قبورهم هـ [ تفسير ابن كثير ٥٤٤/٢ ]  
والبرزور الظهور والخروج وقوله تعالى ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ (٤٧) [الكهف أي ظاهرة بلا جسد ولا ثل ولا رمل ] [لسان العرب - مادة برز ]

عليه آدم وخلفته من بعده ذريته قد أعدّه سبحانه وسخره في خدمة آدم وذريته من بعده ، وهم يعيشون في الكون بأسباب الله الممدودة في أنفسهم ، والمنثورة في هذا الكون لكل مخلوق له ، مؤمنهم وكافرهم ، فمن يأخذ بتلك الأسباب هو من يفلح

وسبحانه القائل

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثًا<sup>(١)</sup> الْآخِرَةَ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢﴾﴾ [الشورى]

وهكذا شاء الله أن يهب عباده الارتقاء في الدنيا بالأسباب ، أما حياة الآخرة فمدن يحياها بالمُسَبَّب وبمجرد أن تخطر على بال المؤمن رغبة في شيء يجده قد تحقق

وهذا أمر لا يحتاج إلى أرض قدر فيها الحق اقواتها ، وجعل فيها رواسي ، وأنزل عليها من السماء ماء ، إذن فهي أرض غير الأرض ، وسماء غير السماء ؛ لأن لأرض التي نعرفها في أرض أسباب ، والسماء التي نعرفها في سماء أسباب

وفي جنة الآخرة لا أسباب هناك ، لذلك لا بُدَّ أن تتبدل الأرض ، وكذلك السماء .

وقوله الحق

﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم]

فهو يعنى ألا يكون هناك أحد معهم سوى ربهم ، لأن البروز هو الخروج والمواجهة .

(١) الحَرْث الثوب والنصيب وحَرْث الدنيا كَسَبُهَا [ سائر العرب - مادة حرت ]

والمؤمن وحد ربه إيماناً بالغيب في دُنياه ، وهو مؤمن به وبكل ما جاء عنه ، كقديم الساعة ، ووجود الجنة والنار .

وكلنا يذكر حديث رسول الله ﷺ مع أحد الصحابة<sup>(١)</sup> حين سأله الرسول ﷺ كيف أصبحت ؟ فقال الصحابي : أصبحت مؤمناً بالله حقاً . فقال له الرسول ﷺ لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ قال الصحابي عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسوي عدي ذهبها ومدرها - أي تساوي الذهب بالتراب - وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يُنعمون ، وإلى أهل النار في النار يُعذبون فقال له الرسول الكريم ﷺ : « عرفت فالزم »<sup>(٢)</sup> .

هذا هو حال المؤمن ، أما الكافر محاله مختلف فهو يبرز ليجد الله الذي أمكره ، وهي مواجهة لم يَكُنْ ينتظرها ، ولذلك قال الحق سبحانه في وصف ذاته هنا

﴿الواحد الْقَهَّارُ (٤٨)﴾ [إبراهيم]

وليس هناك إله آخر سيقول له « اتركهم من أجل خاطري » .

وفي آية أخرى يقول عن هؤلاء

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَغْمَانُهُمْ كَسْرَابٍ<sup>(٣)</sup> بِفَيْعَةٍ يَخَسِبُهُ الظُّلُمَانُ مَاءٌ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ .. (٤٩)﴾ [الدور]

(١) هو الحارث بن مالك الأنصاري ذكره ابن حجر العسقلاني في « الإصابة في تمييز الصحابة » (٢٤٣/١) وعرا الحديث لابن المبارك في الرد

(٢) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ( ٥٧/١ ) وعراه للطبراني في الكبير من حديث الحارث ابن مالك الأنصاري

(٣) السراب - تراه في نصف النهار في الأرض القضاء كأنه ماء - وليس بماء [ القاموس القويم ٢٠٨/١ ] والفيعة جمع فاع ، وهي الأرض المستوية المتسعة المبسطة وفيه يكون السراب [ تفسير ابن كثير ٢/٢٩٦ ]

أى أنه يفاجأ بمثل هذا الموقف الذى لم يستعد به

وقوه

﴿الوَاحِدَ الْقَهَّارَ (٤٨)﴾

[إبراهيم]

أى القادر على قهر المخلوق على غير مُرادِه

ويقول سبحانه من بعد ذلك

﴿وَتَرَى الْمُحْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٥١)﴾

واسمجرم هو من ارتكب ذنباً ، وهو هنا من ارتكب ذنب القمّة ،  
وهو الكفر بالله ، ومن بعده من ارتكب الذنوب التى دون الكفر ،  
وترامم جميعاً مجموعين بعضهم مع بعض فى « قرّن » وهو الحبل ،  
أو القيد الذى يُقيدون به .

والأصفاد جمع صفد ، وهو القيد الذى يوضع فى الرّجل ، وهو  
مثل الخُلّال ، وهناك من يُقيدون فى الأصفاد أى من أرجلهم ،  
وهناك من يفيد بالاعلال أى أن توضع أيديهم فى سلاسل ،  
وتعلّق تلك السلاسل فى رقابهم أيضاً

وكل أصحاب حريمة مُعيّنة يجمعهم رباط واحد ، ذك أن أهل كل  
جريمة تجمعهم أثناء الحياة الدنيا فى الغالب مودةً وتعاطف ، أما  
هنا فستجدهم متنافرين ، وعلى عدااء ، ويلعن كل منهم الآخر ، وكل

(١) مفريين مشدودين مقيدين بعضهم مع بعض والأصفاد القيود [ القاموس القويم

منهم ينافك<sup>(١)</sup> الآخر ويضايقه ، ويعلى ضيقه منه ، مصداقاً بقول  
الحق سبحانه

﴿الْأَحْزَاءُ<sup>(٢)</sup> يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزحرف]

وكان كلا منهم يُعَذَّبُ الآخر من قبل أن يذوقوا جميعاً العذاب  
الكبير

ولذلك نجدهم يقولون

﴿رَبَّنَا أَرْنَا الْقَدِيمَ اضْلاًّ مِّنَ الْحَبْرِ وَالْإِسِّ جَعَلْتُهُمَا نَحْتِ أَقْدَامِنَا  
لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٦٩)﴾ [فصلت]

ويقولون

﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَصْلَحْنَا السَّيْلَ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ  
مِّنَ الْعَذَابِ وَأَلْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨)﴾ [الأحزاب]

ويستكمل الحق سبحانه صورة هؤلاء المذنبين ، فيقول

﴿سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قِطْرٍ<sup>(٣)</sup> وَتَغْنَىٰ وَجُوهُهُم نَارٌ ﴿٦٩﴾﴾

(١) قال ابن منظور في سنن العرب - مادة نكف - في نوازل الأعراب - تنافك الوجال  
الكلام إذا تعاوراه ، أي - رد هذا على هذا وتبادلا التناقض بالكلام

(٢) الأحزاء جمع حليل وهو الصديق المخلص [ القاموس القويم ١/ ٢٠٨ ]

(٣) القطرون - مادة سورا ساقط لرجة ، تستخرج من الخشب والعصم وبحروف والتقطير  
الجاف ، وتستعمل لحفظ الخشب من التسوس ، والعديد من الصناعات [ المعجم الوجيز -

مادة قطر ]

و « السرابيل » جمع « سُرْبَان » وهو ما يلي الجسد ، وهو ما نسميه في عصرنا « قميص » وإذا كان السُرْبَال من قطران ، فهو أسود لاذع منتن الرائحة سريع الاشتعال ، وتلك صفات القطران ، وهو شيء يسيل من بعض أشجار البادية وتلك صفاته ، وهم يستخدمونه لعلاج الجمال من الجرب .

وعادة يضرب الحق سبحانه المثل من الصورة القريبة إلى اذهن من التي يراها العربي في بيئته .

ويقول عنهم الحق سبحانه أيضاً

﴿وَنَقَشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ ٥٠﴾

[إبراهيم]

والإنسان إذا ما تعرض لأمر يصيبه بالعطب ، فأول ما يحاول الحفاظ عليه هو وجهه ، ذلك أن بوجهه هو أشرف شيء في الإنسان ، فما بالناس حين تعشى وجوه الكفرة النار ؟ إن مجرد تخيل ذلك أمر مؤلم

وسبحانه يقول في آية أخرى

﴿الْهَمْسُ يَنْفَىٰ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ٧٤﴾

[الزمر]

وكان الواحد منهم من قَرَّط شدة العذاب يحاول أن يدفع هذا العذاب بوجهه ، وهكذا نجد أحاسيس شتى لهذا العذاب ، وهو مؤلم أشدَّ الألم .

ويقول سبحانه في موقع آخر

﴿يَوْمَ يُنْفَخُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ٤٨﴾

[القمر]



وهكذا نجد أن انوجه قد جاء في أكثر من صورة ، من صور هذا

العذاب

ويقول سبحانه من بعد ذلك

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ  
سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٥١)

والجزء أمر طبيعي في الوجود وحتى الذين لا يؤمنون به ،  
ويديرون حركة حياتهم بتقنيات من عندهم قد وضعوا لأنفسهم  
قوانين جزاء تحدد كل جريمة والعقاب المناسب لها

وبطبيعة الحال لا يكون أمراً غريباً أن يضع خالق الكون نظاماً  
للجزاء ثواباً وعقاباً ، ولو لم يضع الحق سبحانه نظاماً للجزاء  
بالثواب والعقاب ، لنال كل مُفسد بُغْيته من فساد ، ولأحس أهل  
القيم أنهم قد خدعوا في هذه الحياة

وما دام الجزاء أمراً طبيعياً ، فلا ظلم فيه إن ، لأنه صادر عن

قال

﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ . . (١٧)﴾ [غافر]

ولا يجازى الحق سبحانه الجزاء العنيف إلا على الجريمة

العنيفة

وقوله سبحانه

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ.. (٥١)﴾ [ابراهيم]

يعنى ان المؤمن او لكافر سَيَلْتَى جزاء ما فعل ، [ن ثواباً او عقاباً]

والكسب - كما نعلم - هو ان تاخذ زائداً عن الاصل فانت حين تحرم نفسك من شىء فى الدنيا ستاخذ حزاء هو الثواب وما يريد عن الاصل .

ومن كسب سيئة سيأخذ عقاباً عليها ، ويُقال « كسب السيئة » ولا يقال « اكتسبها » ذلك ان ارتكابه للسيئة صار ذريرة سلوكية ، ويفرح بارتكابها ، ولا بد إذن من الجزاء ؛ والجزاء يحتاج حسناً ، والحساب يحتاج ميراً .

وقد يقول المؤمن : إني أصدق ربي ، ولن يظلم ربي أحداً . ويقول إن المقصود بالميراث هو إقامة احبة ، ولذلك نجد سبحانه يقول

﴿ فَأَمَّا مَنِ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) ﴾ [القارة]

ويقول أيضاً

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ (٩) هَاوِيَةٌ (١٠) ﴾ [القارة]

ونجد القسمة العقلية فى الميزان واضحة فهى مرة « ثَقَلَتْ »

(٦) أى أنه سلاط ماو بام رأسه فى نار جهنم ، وعبر عنه بأمه بمعنى دماغه وقال قتادة يهوى فى النار حتى رأسه [ تفسير ابن كثير ٤/ ٤٢٢ ]

﴿٧١٩﴾

ومرة « خَفَّت » أما مَنْ تساوت كِفَاتًا ميزانه ، ففُكِّسَتْ حالته سورة  
الأعراف لتي قال فيها الحق سبحانه

﴿رَعَى الْأَعْرَافَ<sup>(١)</sup> رَجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ<sup>(٢)</sup> .. ﴿٤٦﴾﴾ [الأعراف]

وما دام الحق سبحانه سيحاسب كل نفس بما كسبت ، فقد يظن  
البعض أن ذلك سيستغرق وقتًا ، ولذلك يتابع سبحانه

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾ [إبراهيم]

ليبين لنا أنه سبحانه سيحاسب كل الخلق من لدن آدم إى أن  
تقوم الساعة بسرعة تناسب قدرته المطلقة

وحين سأل الناس الإمام - علما - كرم الله وجهه - كيف  
سيحاسب الله الخلق كلهم دفعة واحدة ، أجاب الإجابة الدالة الشافية ،  
وقال : « كما يرزقهم جميعاً » .

ويقول سبحانه من بعد ذلك

﴿هَذَا بَلَدٌ بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِمْ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّهَا هُوَ

إِلَهُ وَحِيدٌ وَلِيَدَّكَرُّوْا لِلْآلَتِيبِ ﴿٥٢﴾﴾

(١) أصحاب الأعراف هم قوم استوت حسنتهم وسيئاتهم ففُكِّسَتْ بهم سيئاتهم عن الجنة ،  
وحُفِّتْ بهم حسناتهم عن النار فوقوا هناك على السور حتى يقضى الله فيهم [ ذكره  
ابن كثير في تفسيره ٢/٢١٦ ]

(٢) السُّوْمَةُ بالضم العلامة قال ابن عباس يعرّفون أهل الجنة سماء الوجوه ، وأهل النار  
بسواد الوجوه [ تفسير ابن كثير ٢/٢١٨ ]

وهذه الآية هي مسك الختام لسورة إبراهيم ، ذلك أنها ركزت الدعوة ، بلاعاً صدر عن الله ليبلغه رسوله الذي أيد بالمعجزة ، ليحمل منهج الحياة للإنسان الخليفة في الأرض

وإذا ما صدرت قوانين حركة الحياة للإنسان الخليفة في الأرض المخلوق لله ، وجب ألا يتزايد عليها أحد بأكمال ولا بإتمام ، لأن الذي خلق هو الذي شرع ، وهذه مسألة يجب أن تكون على ذكر من بال كل إنسان مكلف

وحين نقرأ هذا القول الحكيم

﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ . (٥١) ﴾ [إبراهيم]

تجد أنه يحمل إشارة إلى القرآن كله ، ذلك أن حدود إبلاغ هو كل شيء نزل من عند الله

وقول الحق سبحانه .

﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

قد أعطانا ما يعطيه النص القانوني الحديث ، ذلك أن النص القانوني الحديث يوضح أنه لا عقوبة إلا بنص يُجرّم الفعل ، ولا بد من إعلان النص لكافة الناس ، ولذلك تُنشر القوانين في الجريدة الرسمية للدولة ، كي لا يقول أحد أنا أجهل صدور القانون .

وكلنا يعلم أن الحق سبحانه قد قال

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (١٠) ﴾ [الأنعام]

فمهمة الرسول - إذن - هي البلاغ عن الله بمنهج الحياة الذي  
يصور حركة الحياة

ويقول سبحانه عن مهمة الرسول

﴿ إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ (٤٥)

[الرعد]

ويقول سبحانه

﴿ الَّذِينَ يُتْلُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ .. ﴾ (٢٩)

[الاحزاب]

ويقول الحق سبحانه على لسان الرسول<sup>(١)</sup>

﴿ أَتَقْدِرُ أَنْبَلَعُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي .. ﴾ (٩٢)

[الاعراف]

ويقول أيضا

﴿ أَنْبَلَعُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ .. ﴾ (٥٧)

[هود]

وهكذا لا توجد حجة لقائل . إنني أخذت بذنب لم أعرف أنه ذنب  
وقت التكليف لا حجة لقائل مثل هذا القول ، لأن الحق سبحانه  
يقول في نفس الآية

﴿ وَلْيُنذِرُوا بِهِ .. ﴾ (٥٢)

[ابراهيم]

والإنذار تحويف بشر سوف يقع من قبل زمته ، ليوضح لك

(١) الرسول هنا هو شعيب عليه السلام فقد قال تعالى ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَهُمْ آيَةً ﴾  
الذين كذبوا شعيبا كانوا هم المفسرين (٩٦) فعلى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت  
لكم فكيف آمنتم على قوم كافرين (٩٧) ﴿ [الاعراف]

بشاعه المخالفة ، وكذلك التبشير هو تنبيه بخير قادم لم يأت أوانه  
كى تستعد لاستقباله

وقول الحق سبحانه

﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ .. ﴾ (٥٢)

[إبراهيم]

يتضمن البشارة أيضاً ، ولكنه يركز ويؤكد من بعد ذلك فى  
قوله

﴿ وَلِيُذَكِّرُوا بِهِ .. ﴾ (٥٢)

[إبراهيم]

لأن الخيبة ستقع على مرتكب الذنوب

واقول إن الإنذار هنا هو نعمة ، لأنه يُذكّر الإنسان فلا يُقدم  
على ارتكاب الذنب أو المعصية ، فساعة تُقدم للإنسان مغبة<sup>(١)</sup> لعمل  
السيئ ، فكأنك تُقدم إليه نعمة ، وتُسدّى إليه جميلاً ومعروفاً .

ويتابع سبحانه

﴿ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ (٥١)

[إبراهيم]

وهذه هى القضية العقدية الاولى ، ولتى تأتى فى قمة كل  
القضايا ، فهو إله واحد مصدر جميعاً عن أمره ، لأن الأمر الهام فى  
هذه الحياة أن تتصاغر حركة الأحياء وتتساند ، لا أن تتعاند .  
ولا يرتقى بنيان ، ما إذا كنت أنت تبى يوماً لىأتى غبرك مهدم  
ما بنيت

(١) المغبة من كل شيء حاقبه وأخبرته . وكذلك المغبة . [ المعجم الوجيز - مادة غيب ]

ومهمة حركة الحياة أن تُؤدّي مهمتنا كخلفاء الله في الأرض . أن  
تتعاضد مواهبنا ، لا أن تتعارض ، فيتحرك المجتمع الإنساني كله في  
اتجاه واحد ، لأنه من إله واحد وأمر واحد

وحين نقول الحق سبحانه

﴿وَهَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾ (٥٢)

[إبراهيم]

فهو يحدد لنا قوام الدين بعد تلقّيه من رسول الله ﷺ أن يُبلّغه  
من سمعه لمن لم يسمعه .

وبذلك قال ﷺ « مضّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها ، وأدامها  
إلى من لم يسمعها »<sup>(١)</sup>

وذلك لتبقى سلسلة البلاغ متصلة ، وإن لم يُبلغ قوم فالوزر على  
من لم يُبلغ ، وبذلك يحرم نفسه من شرف التبعية لرسول الله ﷺ ،  
فمن يعلم حكماً من أحكام الدين فالمطلوب منه هو تبليغه للغير ،  
فلما طلب الحق سبحانه من رسوله أن يُبلّغ أحكامه

والحق سبحانه هو القائل

(١) بشرافه وجهه بعمه والنصرة النعمة والخس والرونق وقال الحسن المؤدّب ليس  
هنا من الحسن في الوجه ، إنما معناه حسن الله وجهه في خلقه أي جاهه وقدره  
[لسان العرب - مادة نصر]

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ( ١٢٧ ، ١ ) ، والترمذي في سننه ( ٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨ ) . وابن  
ماجه في سننه ( ٢٢٢ ) والبيهقي في مسنده ( ٤٧ / ١ ) من حديث عباد بن مسعود  
رضي الله عنه

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لَّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ  
الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۚ ۞ (١٤٣)﴾ [البقرة]

وهكذا شهد الرسول ﷺ أنه بلغكم وبقي على كل مسلم بعم  
حكمًا من أحكام الدين أن يبلغه أمرًا لا يعرفه ، فقد ينفع به أكثر  
منه ، وبعد أن سمع الحكم قد يعمل به ، بينما من أبلغه الحكم  
لا يعمل به .

ولذلك قال ﷺ « رَبُّ مُبْلَغٍ أُرْفَى مِنْ سَامِعٍ »<sup>(١)</sup>

وبذلك أقول دائماً إياك أن تحلج بين المعلومة التي تُقال لك ،  
وبين سلوك من قالها لك ، ولنسمع الشعر الذي قال

خُذْ عِلْمِي وَلَا تَرْكَنْ إِلَى عَمَلِي وَأَجْزِ الثَّمَارِ وَخُلْ الْعُودَ لِحَطَبٍ  
وهكذا يتحمل المسمم مسئولية الإيلاع بما يعرف من أحكام الدين  
من لا علم لهم بها ، لتظل الرسالة موصولة ، وكلنا نعلم أن الحق  
سيحانه قد قال .

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ  
الْمُنْكَرِ ۚ ۞ (١٤٤)﴾ [آل عمران]

أي أنكم يا أمة محمد ، قد أخذتم مهمة الأنبياء

(١) أمة وسطاً أي أمة ماضلة خيرة قالوسط خير الطرفين [ القاموس القويم ٣٣٦/٧ ]

(٢) تمام الحديث « يضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها ، وادأها إلى من لم يسمعها »  
الحديث ، وقد سبق تمريجه صفحة (٧١٢٣)



ولأن البلاء قد جاء من الله على الرسول ﷺ ، والرسول أمين في تبليغه ، لذلك لا يمكن أن يصدر عن الواحد الحكيم أوامر متضاربة ، ولكن التضارب إنما يشأ من اختلاف الأمر ، أو من عدم حكمة الأمر ، ولتدقق جيداً في قول الحق سبحانه

﴿وَلْيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ۖ ٥٧﴾ [إبراهيم]

فكلمة « واحد » جاءت لتمنع مجرد تصور الشراكة ، فلا أحد مثله ، وهو أحد غير مُركَّب من أجزاء ، فليس له أجهزة تشبه أجهزة البشر مثلاً ، فلو كان له أجهزة لكان في ذاته يحتاجُ لأعضائه ، وهذا لا يصح ولا يمكن تخيله مع الله سبحانه وتعالى

وتلك هي القضية الأساسية التي يعيها أولو الألباب الذين يستقبلون هذا البلاغ وأولو الألباب هي جمع ، ومفرد « الباب » هو « لب » ، ولُبَّ الشيء هو حقيقة جوهره ، لأن القشرة توجد لتحفظ هذا اللب ، والمحفوظ دائماً هو أنفُسُ من الشيء الذي يُخلِّفه ليحفظه

وهكذا يكون أولو الألباب هم البشر الذين يستقبلون القضية الإيمانية بعقولهم ، ويحركون عقولهم ليتذكروها دائماً ، تلك أن مشاعر الحياة ومتعتها وشهواتها قد تصرف الإنسان عن المنهج ، ولذلك قال الحق سبحانه هنا

﴿وَلْيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ ۖ ٥٨﴾ [إبراهيم]

أي يتذكر أصحاب العقول أن الله واحدٌ أحد ، فلا إله إلا هو ، ولذلك شهد سبحانه لنفسه قبل أن يشهد له أيُّ كائنٍ آخر ، وقال

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . (١٨)﴾ [آل عمران]

وهذه شهادة الذات للذات ، ويُضيف سبحانه

﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوَّلُوا الْعِلْمَ (١٨)﴾ [آل عمران]

وشهادة الملائكة هي شهادة المُواجهة التي عايشوها ، وشهادة  
أولى الالباب هي شهادة الاستدلال

وشهد لحق سبحانه أيضاً لرسوله محمد ﷺ أنه رسول ، وكذلك  
شهد الرسول لنفسه ، فهو يقول مثلاً جميعاً « أشهد ألا إله إلا الله ،  
وأشهد أن محمداً رسول الله »

ومكنا فعلى أولى الالاب مهمة أن يتذكروا ويذكروا بأنه إله  
واحد أحد

سورة الحج



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اسورة التي نبدأ خواتمها هي سورة الحجر<sup>(١)</sup> تبدأ بالكلام  
عن جامع لبلاغ ، ومبج حياة الحية وهو القرآن الكريم الذي قد  
جاء بالخبر اليقين في قضية الألومية الواحدة ، والتي ذكرنا في آخر  
السورة السابقة بأن أولى الالباب يستقبلونها بعقولهم  
ويقول الحق سبحانه في مُستهل السورة

﴿الرَّيْلَكَ أَيَّنْتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانِ مُبِينٍ﴾<sup>(٢)</sup>

- 
- (١) هذه السورة هي السورة الخامسة عشر من القرآن متركيب المصحف وهي سورة مكة .  
عدد آياتها ٩٩ آية ، بداية في بداية الجزء ١٤ من القرآن وقد سميت سورة الحجر بهذا  
الاسم نسبة إلى أصحاب الحجر المذكورين في الآية ( ٨٠ ) من السورة ، وهم قوم ثمود  
أرسل لهم الله صالحاً رسولاً مكثبوه والحجر . ثمود ثمود ناحية الشام عند وادي القري  
والحجر أيضاً في معناه اللوى العقل وقد أنزلت هذه السورة بعد سورة يوسف وقبل  
سورة الأنعام على ما أورده السيوطي في علوم القرآن ( ٢٧/١ )
- (٢) قال السيوطي في الإتقان ( ٢١/٣ ) ، خاض في معناها علماء ، فأخرج ابن أبي حاتم  
وغيره من طريق أبي الضحى عن ابن عباس في قوله ( الر ) أنا الله لرى وأخرج  
أبو الشيخ من مصدق كعب القرظي ، قال ( الر ) من الرخص وقيل ( الر ) معناه  
أنا الله علم وأرفع حكاه الكرماني في تحريته ، ثم قال ، والمختار فيها أنه من  
الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى وقال الشعبي إن لكل كتاب سرّاً ، وإن سر هذا  
القرآن فواتح السور .

والسورة كما نرى قد افْتُتِحَتْ بالحروف التوقيفية ، والتي قلنا  
ان جبريل عليه السلام نزل وقرأها هكذا ، وحفظها رسول الله ﷺ  
وألغها لما ﷺ هكذا ، وهي قد نزلت أو ما نزلت على قوم برعوا  
في اللغة ، وهم أهل فصاحة وبيان ، ولم نجد منهم من يستنكرها .

وهي حروف مُقَطَّعة تُنطَقُ بأسماء الحروف لا مُسَمَّياتها ، ونعلم  
ان لكل حرف سماً ، وله مسمى ، فحين نقول أو نكتب كلمة  
« كتب » فنحن نضع حروفاً هي الكاف والياء والياء بجانب بعضها  
البعض ، لتكوِّن الكلمة كما ننطقها أو نفرِّدها

ويقال عن ذلك إنها مُسَمَّيات الحروف ، أما أسماء الحروف ، فهي  
« كـ » و « بـ » و « تـ » ولا يعرف أسماء الحروف إلا  
المتعلِّم ، ولذلك حير تريد أن تختبر واحداً في القراءة والكتابة تقول  
له تَهْجُ حروف الكلمة التي تكتبها ، فإن بطق أسماء الحروف ،  
عرفنا أنه يُجيد القراءة والكتابة .

وهذا القرآن - كما نعلم - نزل مُعْجِزاً للعرب الذين ينفقوا في  
اللغة ، وكانوا يقيمون لها أسواقاً ، مثل المعرض التي يقيمها نحن  
لصناعاتنا المتقدمة

ولذلك شاء الحق سبحانه أن تأتي معجزة الرسول الخاتم من  
جنس ما نبغوا فيه ، فلو كانت المعجزة من جنس غير ما نبغوا فيه  
ولم يالفوه لَقَالُوا لو تعلمنا هذا الامر لصنعنا ما يفوقه .

وجاءهم معجزة القرآن من نفس الجنس الذي نبغوا فيه ،

وباللغة العربية وينفس المُفردات المُكوّنة من الحروف التي تُكوّنون منها كلماتكم ، والذي جعل القرآن مُعْجِزاً أن المُتكلّم به خالق وليس مَخْصُوقاً وفي ، الر ، نفس الخامات التي تصنعون منها لُغَتكم .

وهذا بعض ما أمكن أن يلتقطه العلماء من مواتح السور عليا أن يعلم أن الله في كلماته أسراراً ، فهو القائل سبحانه

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ۖ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْنُمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ۚ ﴾ (٧)

أي أن القرآن به آيات مُحْكَمَاتٌ ، هي آيات الأحكام التي يترتب عليها لستواب والعقاب ، أما الآيات المتشابهات فهي مثل تلك الآيات التي تبدأ بها فواتح بعض من السور ، ومن في قلوبهم زَيْغٌ يفسءلون ما معانها ؟

وهم يقولون ذلك لا بحثاً عن معنى ، ولكن رغبة للفتنة ولهؤلاء نقول أتريدون أن تفهموا كل شيء بعقولكم ؟ إن العقل ليس إلا وسيلة إدراك ، مثله مثل العين ، ومثل الأذن ، فهل ترى عينك كل ما يمكن أن يرى ؟ طبعاً لا ، لأن للرؤية

(٦) الريح العقيم يقال دغ عن الطريق إذا عرس عنه [ لسان العرب - مادة ريج ]

بِالْعَيْنِ قَوَائِينَ وَحُدُودًا ، فَإِنْ كُنْتَ بَعِيدًا بِمَسَافَةٍ كَثِيرَةٍ عَنِ الشَّيْءِ فَمَنْ تَرَاهُ ، ذَلِكَ أَنَّ الْعَيْنَ لَا تَرَى أَبْعَدَ مِنْ حُدُودِ الْأَفَقِ

وَكُلُّ إِنْسَانٍ يَخْتَلِفُ أُنْفُقُهُ حَسَبَ قُوَّةِ بَصَرِهِ ، فَهَنَّاكَ مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِبَصَرٍ قَوِيٍّ وَحَادٍ ، وَهَنَّاكَ مَنْ هُوَ صَعِيفُ الْبَصَرِ ؛ وَيَحْتَاجُ إِلَى نَظَارَةٍ طَوِيلَةٍ تَسَاعِدُهُ عَلَى دَقَّةِ الْإِبْصَارِ

فَإِذَا كَانَتْ لِلْعَيْنِ - وَهِيَ وَسِيلَةُ إدْرَاكِ الْمَرَائِي - حُدُودٌ ، وَذَا كَانَتْ لِلْأُذُنِ ، وَهِيَ وَسِيلَةُ إدْرَاكِ الْأَصْوَاتِ بِحَدِّ الْمَسَافَةِ الْمَوْجِيَةِ لِلصَّوْتِ ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ حُدُودٌ لِلْعَقْلِ ، فَهَنَّاكَ مَا يُمْكِنُ أَنْ تَقْهَمَهُ ، وَهَنَّاكَ مَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تَقْهَمَهُ

وَابْرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ عَنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ ، « مَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاغْمِضُوا بِهِ ، وَمَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَآمِنُوا بِهِ »<sup>(١)</sup>

وَذَلِكَ حِفَظًا عَلَى مَوَاقِفِيتٍ وَمَوَاقِيدٍ مِيلًا إِلَى سِرٍّ مِنَ الْأَسْرَارِ الْمَكْنُونَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، فَلَوْ أَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ أُعْطِيَ كُلُّ أُسْرَارِهِ فِي أَوَّلِ قَرْنٍ نَزَلَ فِيهِ ، فَكَيْفَ يَسْتَقْبِلُ الْقُرُونُ الْآخَرَى بَدُونَ سِرِّ حَدِيدٍ ؟

إِذَنْ فَكُلَّمَا ارْتَفَى الْعَقْلُ الْبَشَرِيُّ ، كُلَّمَا أَذِنَ اللَّهُ بِكَشْفِ سِرٍّ مِنْ أُسْرَارِ الْقُرْآنِ ، وَلَا أَحَدٌ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَجَادِلَ فِي آيَاتِ الْأَحْكَامِ

(١) تمام هذا الحديث ، إن القرآن لم يبرهن بيقين بعضه بعضاً ، مما عرفتكم منه فاعملوا به ، وما تشابه منه فآمنوا به ، عزاه ابن كثير في تفسيره ( ٣٤٦/١ ) لابن مردويه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، وورده السيوطي في الدر المنثور ( ١٥٤/٢ ) وعزاه ليعمر المقدسي في الحجة



ويقول الحق سبحانه عن الآيات المتشابهة

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ - وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا.. (٧)﴾ [آل عمران]

وهناك من يقرأ هذه الآية كالاتي ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم - ، وتدسى من يقرأ تلك القراءة<sup>(١)</sup> أن مُتَنَهَى الرسوخ في العلم أن تؤمن بتلك الآيات كما هي<sup>(٢)</sup> .

والحق سبحانه هنا يقول

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١)﴾ [الحجر]

و ( تلك ) إشارة لما سبق ولما هو قادم من الكتاب ، و ( آيات ) جمع - آية - ، وهي الشيء العجيب الذي يُنْقِطُ إليه والآيات إما أن تكون كونية كالليل والنهار والشمس والقمر لتثبت الوجود الأعلى ، وما أن تكون الآيات المُعْجَرَةُ الدالة على صدق البلاغ عن الله وهي معجزات الرسل ، وإما أن تكون آيات القرآن التي تحمل المعهج للناس كافة

(١) الراسخون في العلم المحمكون فيه ، وأورد السيوطي في اندر الممتثور (١٥١/٤) أن رسول الله ﷺ قال : من برث يمجبه ، وصدق لسانه واستقام قلبه وعف بطنه وهرجه ، فذلك من الراسخين في العلم ، عزاه لابن جرير الطبري وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن عباس وأبي أمامة وأبي الدرداء

(٢) مقبضى هذه القراءة الوقف لازم على كلمة العلم ويكون معنى الآية أن الراسخين في العلم يعلمون تأويل الآيات المتشابهة أما القراءة الاولى فالوقوف على لفظ الجلالة ( الله ) معناه أن الله وحده هو عالم تأويل الآيات المتشابهة ( انظر تفسير ابن كثير ٤/٤٤٧ )

(٣) قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسولهم في العلم ان آمنوا بحكمه ومتشابهه وبم يعلموا تأويله ، أوردته السيوطي في اندر الممتثور (١٥١/٤) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم

وَيَصِفُ الْحَقَّ سُبْحَانَ

﴿وَقُرْآنٍ مِّنْهُ (١٠)﴾

[الحجر]

فهل الكتاب هو شيء غير القرآن ، ونقول إن الكتاب إذا أُطلق ، فهو يصرف إلى كل ما دل من الله على إرسال كصحف إبراهيم ، وزبور داود ، ونوراة موسى ، وإجيل عيسى ، وكل تلك كتب ، ولذلك يسموهم « أهل كتاب » .

أما إن جاءت كلمة « الكتاب » مُعرَّمة بالالف واللام فلا يصرف إلا للقرآن لأنه دل كساما حتماً ومُهِمًا على الكتب الأخرى

وبعد ذلك جاء بالوصف الخاص وهو ( قرآن ) وبذلك يكون قد عطف خاصاً على عام ، فالكتاب هو القرآن ودلّ بهذا على أنه سيكتب كتاباً ، وكان مكتوباً من قبل في اللوح المحفوظ

وإن قيل إن الكتب السابقة قد كُتبت أيضاً فالرد هو أن تلك الكتب قد كُتبت بعد أن نزلت بفكرة طويلة ، ولم تُكتب مثل القرآن ساعة التلقى من جبريل عليه السلام ، فالقرآن يتميز بأنه قد كُتب في نفس زمن نزوله ، ولم يُترك لغيره كبقية الكتب ثم بُدئ في كتابته

والقرآن يُوصف بأنه مُبين في دانه ومُبين لغيره ، وهو أيضاً مُحيط بكل شيء

وسبحانه القائل

﴿مَا مَرَّطٌ فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ (٣٨)﴾

[الأنعام]

وَأَيُّ أَمْرٍ بِحَقِّاجٍ لِحَكْمٍ ، فَمَا إِنْ نَحْنُ مُعْصِلُونَ فِي الْفَرَانِ أَوْ  
نَسْأَلُ فِيهِ أَهْلَ الدِّكْرِ ، مُصَدِّقًا لِقَوْلِ الْحَقِّ سِجْلَهُ  
﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الدِّكْرِ ۚ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٧) [الأنبياء]

ويقول سبحانه من بعد ذلك

﴿ رَبِّمَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا نَوَكَرُوا مُسْلِمِينَ ﴾

و « رَبَّ » حرف يستعمل للتقليل ، ويستعمل أيضاً للتكثير على  
حسب ما يأتي من بعده ، وهو حرف الأصل فيه أن يدخل على  
المعرد ونحوه نقول « رَبَّ أَخٍ لِي لَمْ تَلِدْهُ أُمِّي » وذلك لتقليل ، مثلاً  
نقول « ربما ينجح الكسور »

ولكن لو قلنا « ربما ينجح الذكي » فهذا للتكثير ، وفي هذا  
استعمال بلشئ في نقيضه ، يقال ظناً للعقل كي ينتبه

وهنا جاء الحق سبحانه

ب « رَبَّ » ومعها حرف « مَا » ومن بعدهما فعل « وَمَنْ الْعَيْبِ  
أَنْ تَقُولَ رَبَّ مَا » هنا زائدة ، لك أن المتكلم هو رَبُّ كُلِّ الْعِبَادِ

وهنا يقول الحق سبحانه

﴿ رَبِّمَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ (٨) [الحجر]

(١) الذكور القوم والكذب المنزول كلها أي أسألو أهل العلم من الأمم كالنصارى واليهود والصابئة  
وسائر الطوائف من كل الرمال الذين آمنهم بشراً و ملائكة ٢ [تفسير ابن كثير ١/ ١٧٤]  
(٢) قال القرطبي في تفسيره ( ٥ ٢٧٢ ) رب لا تدخل على الفعل عبداً لحقتها « مَا »  
هيئتها للدخول على الفعل ، وقال ابن هشام في تفسيره ( ١ ١٢ ) « إِنْ »  
يريد « بَعْدَ » رب « هاتان اللتان أن تكفها عن الفعل وإن نهيتها للدخول على الفعل  
القطعة وإن يكون الفعل ماضياً لفظاً ومحملياً »

فهر سياىى وقت ينمى سبه اهل لكفر ان يُسلموا ؕ إن « يود »  
تعنى « يحب » و « يميل » و « ينمى » . وكل شىء تميل إليه  
وتنمى به يسمى « طلب »

ويقال فى اللغة إن طلبت امراً يمكن أن يتحقق ، ويمكن ألا  
يتحقق ، فإن قلت « يا ليت الشباب يعود يوماً » فهذا طلب لا يمكن  
أن يتحقق ، لذلك يُقال إنه « تمنى » وإن قلت « بحلى أزور فلاناً »  
فهذا يُسمى رجاء ، لأنه من الممكن أن تزور فلاناً وقد نقول « كم  
عندك » بهدف أن تعرف الصورة الذهبية لمن يجلس إليه من تسأل  
هذا السؤال ، وهذا يُسمى استفهاماً

وهكذا إن كنت قد طلبت عزيزاً لا يُنال فهو تمنٌ وإن كنت قد  
طلبت ما يمكن أن يُنال فهو الترجى . وإن كنت قد طلبت صورته  
لا حقيقته فهو استفهام . ولكن إن طلبت حقيقة الشىء ، فأنت تطلبه  
كى لا تفعل الفعل

والطلب هنا فى هذه آية ، يقول

﴿رَبُّمَا يودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٢٠) [الحجر]

فهل يئأسى هذا الطلب ؟

ولكن منى يودون ذلك إن ذلك التمنى سوف يحدث إن وقعت بهم  
أحداث تنزع منهم العناد ، فيأخذون المسائل بالمقاييس الحقيقية

ولحق سبحانه هو القائل

﴿وَجحدُوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ (٢٤) [النمل]

## سُورَةُ الْحَجَرِ

﴿٧٦﴾ ٧٦٣٧

وقد حدث لهم حين وقعت عروة بدر ، ونال منهم المسلمون  
لفنائهم أن قالوا يا ليتنا كنا مسلمين ، وأخذنا تلك الفنائ<sup>(١)</sup>  
أي أن هذا التعمى قد حدث في الدنيا ، وسوف يحدث هذا عند  
موت أحدهم

يقول الحق سبحانه

﴿ حَتَّى إِذَا حُيِّدَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ (٦٤) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا  
فِيمَا تَرَكْتُ .. (٦٥) ﴿ [المؤمنون]

ويطلق لحن سبحانه على هذا القول

﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا . ﴾ (٦٦) ﴿ [المؤمنون]

وسيتمنون أيضاً أن يكونوا مسلمين ، مصداقاً لقول الحق سبحانه  
﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا  
وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ (٦٧) ﴿ [السجدة]

إذن عسايتي وقت يتمنى فيه الكفار أن يكونوا مسلمين ، ما  
عابنوا شيئاً ينزع منهم جحودهم وعنادهم ، ويقول لهم إن الحياة  
التي كنتم تمشكون بها فانية ، ولكم تطلعون أن تكونوا مسلمين  
وقت أن زال التكليف ، وقد فات الأوان

ويكفي المسلمين حُزراً أن كانوا على دين الله واستمسكوا  
بالتكليف ويكفيكم عاراً أن حسرتكم هذا الحسرة المبين ، وتقصروا  
على أنكم لم تكونوا مسلمين

(١) اورد السيوطي في الدر المنثور (٤ : ٦٦) عن ابن مسعود وبأن من الصحابة قالوا : « ود  
المشركون يوم بدر حين صرهد : احسابهم حين عرضوا على انذار أنهم كانوا مرجعين  
بمحمد ﷺ »

وهي اليوم الآخر يُعَذِّبُ الحق سبحانه العصاة من المسلمين الذين لم يتوبوا من ذنوبهم ، ولم يستغفروا الحق سبحانه ، أو ممن لم يعفر لهم سبحانه وتعالى ذنوبهم ، لعدم إخلاص النية وحسن الطوية عند الاستغفار ، ويدخل في ذلك أهل النفاق مصداقاً لقوله تعالى

﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم ﴾ (٨٠) [البقرة]

يبدخلون النار ليأخذوا قدرًا من العذاب على قدر ما عصوا ، ويطر بهم الكفار قائلين

ما أعفت عنكم لا إله إلا الله شيئاً ، فأنتم معنا في النار

ويدخل الحق سبحانه على ذلك فيعاز على كل من قال لا إله إلا الله ، فيقول أخرجوهم وطهروهم وعودوا بهم إلى الجنة وحينئذ يقول الكافرون يا ليتنا كنا مسلمين ، لخرج من النار ، ولحق بأهل الجنة ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَسْتَمْعُوا وَيَلْهَمُ الْأُمُلُ  
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣)

و ( ذرهم ) أمر بأن يدعهم ويتركهم وسبحانه قال مرة ( ذرهم ) ، ومرة قال

﴿ ودري والمكدين أولى العنة ﴾ .. (١١) [المرسل]

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٦٢/٥) من حديث أبي موسى الأشعري ، وعنه لأبو  
بي عاصم في نسخة وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن  
مردويه ، والبيهقي في البعث والشور

(٢) العنة التعميم والمسرة والعرج والترفة [لسان العرب - مادة عمم]

أَيَّ أَتْرَكْتَهُمْ بِي مَا أَنَا الَّذِي أَعَاقِبُهُمْ ، وَنَا الَّذِي أَعْلَمُ أَجَلَ  
الْإِمْهَالِ ، وَجَلَ الْعُقُوبَةِ

وَيَسَّ تَعْمَلُ مِّنْ « ذَرُّهُمْ » فَعَلَ مُضَارِعٌ هُوَ « يَذِرُ » ، وَقَدْ قَالَ  
الْحَقُّ سُبْحَانَهُ

﴿ وَيَذَرُكَ أَهْلُكَ ﴾ (١٤٧) ﴿ [الأعراف]

وَلَمْ يَسْتَعْمَلْ مِنْهَا فِي الْبَغَةِ فَعَلَ مَاضٍ ، إِلَّا قِيَمًا رُّوِيَّ مِنْ حَدِيثِ  
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ « ذَرُوا لِيَمِنْ مَا ذَرَوْكُمْ » ، أَيَّ أَتْرَكْتَهُمْ  
مَا تَرَكْتُمْ

وَيُشَارِكُ فِي هَذَا الْعَمَلِ فَعَلَ آخِرٌ هُوَ « دَعُ » بِمَعْنَى « أَتْرَكَ »  
وَقِيلَ أَهْمَلَتِ الْعَرَبُ مَا صَيَّرَ « يَدْعُ » وَ « يَذِرُ » إِلَّا فِي قِرَاءَةٍ<sup>(١)</sup> فِي  
قَوْلِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ

﴿ مَا وَدَّعْتَ رُبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ (٢) ﴿ [الصحي]

وَهَذَا يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ

﴿ ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْمَعُوا ﴾ (٣) ﴿ [الحجر]

وَيَحِرُّ أَيْضًا نَآكَلٌ ، وَهِيَكَ مَرْقُ بَيْنَ الْأَكْلِ كَوَقُودٍ لِلْحَرَكَةِ وَبَيْنَ  
الْأَكْلِ كَلْدَةٍ وَتَمْتَعٌ ، وَالْحَيَوَانَاتُ تَأْكُلُ تَتَّخِذُ الطَّاقَةَ بِذَلِيلِ أَيْهَا حِينَ  
تَشْمَعُ ، لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُجْبِرَهَا عَلَى أَكْلِ عَوْدٍ بِرَسِيمٍ زَائِدٍ

أَمَّا الْإِنْسَانُ فَيَبْعُدُ أَنْ يَأْكُلَ وَيَعْمَلُ بِيَدَيْهِ ، ثُمَّ يَرَى صَنِيفًا جَدِيدًا

(١) هِيَ قِرَاءَةُ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ وَالْمَعْنَى فِيهِمَا وَاحِدٌ ( وَدَّعَكَ وَدَّعَكَ ) أَيَّ مَا تَرَكْتَ رَبُّكَ  
[ يَسَارُ الْعَرَبِ - مَدَّةٌ وَدَّعَ ]

من طعام فهو يمدُّ يده ليأكل منه ، ذلك أن الإنسان يأكل شهوةً و متعةً ، بجانب أنه يأكل كوجود للحركة

والفرق بيننا وبينهم أن مأكلاً لتتكوّن عسماً لطاقة ، فإن حاءت اللذة مع الطعام فاهلاً بها ، ذلك أننا في بعض الأحيان نأكل ونتلذذ ، لكن الطعام لا يمرى<sup>(١)</sup> علينا بل يُعَبِّدنا ، فنبطل لمُهَضَّمات من مياه عارية وأدوية

ولذلك نجد رسول الله ﷺ يقول : « بحسب ابن آدم لُقُثَمَات يُقَمِّنُ صُنْفَهُ »<sup>(٢)</sup>

أي أنه ﷺ يدهانا عن أن مأكلاً بالشهوة واللذة فقط

ونلاحظ الفرق بين طعام الدنيا وطعام الجنة في الآخرة ، هناك سوف نأكل طعام الذي نستلذ به ويمرّ علينا ، بينما نحن نُضَار في الدنيا - في بعض الأحيان - أن نأكل طعام بدون ملّح ومسلوقاً كي يحفظ لنا الصحة ، ولا يُتَعَبِّدنا ، وهو أكل مرّ ومرّ وليس طعاماً هيباً ، ولكن طعام الآخرة هيباً ومرّاً

وعلى ذلك معهم قول الحق سبحانه

﴿ ذُرَّهُمْ يَأْكُلُو وَيَتَمَتَّعُوا ۖ ﴾ (٦٠) [الحجر]

أي أن يأكلوا أكلاً مقصوداً لذات اللذة فقط

(١) طعام مرّ هيباً - حسب العلية بين المرادة - ومرّ الطعام سهل في الملق وضمت عاقبته وحلا من التنفيس [ القاموس القويم ٢ / ٢٢ ]

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٢، ٤) وابن ماجه في سننه ( ٢٣٤٩ ) من حديث المقدم بن سعد بكرب وجماعه : ما أصلاً آدمي وعاء شراً من بطي - حسب الادعى إسماعيل يقيم صلبه على عيب الادعى نفسه - فثلاث نطعم - وثلاث الضراب - وثلاث للفسر »



ويقول الحق سبحانه متابعاً

﴿وَلَهُمْ الْأَمَلُ﴾ (٤) [الحجر]

أى أن ينصروا لأنفسهم غايات سعيدة ، تلهيهم عن وسيلة ينتفعون بها ، ولذلك يقول المثل العربى : « الأمل بدون عمل تلصص » فما دُمّت تامل أملاً ، فلا تَدُّ أن تحدمه بالعمل لتحقيقه

ولكن المثل على الأمل الخادع هو ما جاء به الحق سبحانه على لسان منْ غَرَّتْه النعمة ، فقال

﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (٣٥) وما أَظُنُّ السَّاعَةَ فَانِمَةً. ﴿٣٦﴾

[الكهف]

ولكن الساعة ستقوم رَغْماً عن أنف الأمل الكاذبة ، والسراب المخادع

ويقول الحق سبحانه

﴿وَلَهُمْ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٣) [الحجر]

وكلمة ( سوف ) تدل على أن الزمن متراخ قليلاً ، فالأفعال مثل « يعلم » تعنى أن الإنسان قد يعلم الآن ويعلم من بعد الآن بوقت قصير ، أما حين نقول « سوف يعلم » فتشمل كل الأرمنة

فالنصر يتحقق للمؤمنين بإذن من الله دائماً ، أما غير المؤمنين فليسوف يتمنون الإيمان ، كما قلنا وأوصحنا من قبل

وهكذا يرى أن قوله

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٦) [الحجر]

يشمل كُلَّ الأزيمة وقد صنع الحق سبحانه في الدنيا أشياء  
تُؤدِنُ بصدق وَعَدِهِ ، والذين يظنون أنهم يسيطرون على كُلِّ الحياة  
يُفاجئهم زلزالٌ فيهدم كل شيء ، على الرغم من النُقدِّم فيما يُسمَّى  
« الاستشعار عن بُعد » وغير ذلك من فروع العلم التطبيقي

وفي نفس الوقت نرى الحمير التي تتهمها بأنها لا تفهم شيئاً  
بُهِتٌ - هي والماشية - من قبل الزلازل لتخرج إلى الضلّاء بعيداً عن  
الخطأ التي قد تتهدم عليها ، وفي مثل هذا التصرف الغريزي عند  
الحيوانات تحطّم وأدب للعودة إلى الإنسان ، فمهما قاده الغرور ،  
وادعى أنه مالك لتأصية العلم ، فهو ما زال جاهلاً وجاهلاً

وكذلك نحد من يقول عن البلاد المُمطرة إنها بلاد لا يقطع  
مائها ، لذلك لا تنقطع حُضرُتها ثم يصيب تلك البلاد جفافٌ  
لا تعرف له سبباً ، وفي كل ذلك تنسب للبشر كي لا يقعوا أسرى  
للغرور

ويقول سبحانه من بعد ذلك صارباً لهم المثل

﴿ وَمَا أَهْلُكُنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾

أي أنه سبحانه لا يأمر بهلاك أي قرية إلا في الأجل المكتوب  
لها ويجعلها من الحُثل التي يراها من يأتي بعدها لعله ينقطع  
ويتعرف على حقيقة الإيمان  
وقد قال الحق سبحانه

﴿ وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمَةً مَتْمِنَةً بِآئِبِهَا رَزَقْنَاهَا رِغْدًا <sup>(١)</sup> مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ <sup>(١١)</sup> ﴾ [النحل]

والمثل لقريب من الذكرة ، لبنان « اتى عاشب إلى ما قبل الخمسينيات كبدا لا تجد فيه قديماً لانقاً ، ثم ادهرت واستعنت هي السيبات والسعيبات ، واستشرى بها لفساد ، فقال أهل المعرفة بالله « لا بُدَّ أن يصيبها ما يصيب القرى الكافرة بأنعم الله » وقد حدث ذلك وقام فيها الحرب الأهلية وانصبت عليها قول الحق سبحانه

﴿ وَيَذِيقْ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ .. <sup>(٦٥)</sup> ﴾ [الأنعام]

وهذا ما يحدث في الدنيا ، وهي مقدمات تؤكد صدق ما سوف يحدث في الآخرة

وسبحانه القائل

﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهِنُوكَهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا <sup>(٥٨)</sup> ﴾ [الإسراء]

وبصنع الحال ، فهذا ما يحدث لأي قرية طالم أهلها ، لأن الحق سبحانه لا يظلم مثقال ذرة

وإن ذكر أن تفسير السفي <sup>(٢)</sup> قد صُودر في عصر سابق ، لأن

(١) رعد العيش اسم وطاب وانرعد الكثير الواسع الذي لا يُعيب من مل أو ماء أو عيش أو كلا [ تفسير العرب - مادة رعد ]

(٢) كفر البعثة جودها كفر البعثة جودها ولم يشكرها ولم يشكر من قنمها له أو كان سبياً فيها بل أنكر فضله [ القاموس القويم ١٦٤ ، ٢ ]

(٣) هو أبو المركات عبد الله بن حمد بن محمود السفي قبه صفي « تفسير من أهل اهدج ووفاته فيها مصبت إلى - سيف - ببلاد الهند بين جيحون وسمرقند توفي عام ( ٧١ هـ ) [ الاعلام للبركلي ٤ ٦٧ ]

صاحب التفسير قال عند تفسيره لهذه الآية « حدثني فلان عن فلان  
ان البند الفلاني سيحصل فيه كذا » والبلد الآخر سوف يحدث فيه كذا  
إلى أن جاء إلى مصر وقال بالنصر ويدخل مصر رحل من جهة ،  
فويل لأهلها ، وويل لأهل سوريا ، وويل لأهل الرملة ، وويل لأهل  
فلسطين ، ولا يدخل بيت المقدس » .

وما دام الحق سبحانه قد قال

﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ (٥٨) [الإسراء]

فهو يُعلم بعضاً من حلقه بعضاً من أسرارهِ ، فلا مانع من أن  
نرى بعضاً من تلك الأسرار على ألسنتهم وحين نأعت تلك الحكاية ،  
وما هو للرئيس الذي كل موجوداً ، وقالوا له أنت من جهة وهم  
يقصدونك صوب تفسير أنفسهم

إن فقد ترك الحق سبحانه لنا في الدنيا مثلاً يؤكد صدقه فيما  
يحكيه عن الوعيد لبعض القرى حتى نُصدق ما يمكن أن يكون بعد  
يوم القيامة وحين يقول الحق سبحانه

﴿ وَمَا أَهْكُمَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴾ (٦١) [الحجر]

فليس لأحد أن يقول « إن ذلك لم يحدث لبلد العلاني » لأن كل  
أمر له أجل

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿ مَا نَسِيقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴾ (٥٩)

أى أنه سبحانه قد جعل لكل أمة أجلاً ، وعاية ، فإذا ما انتهى  
الأجل المعلوم جاءت نهايتها فلا كائن يتقدم على أجله ، ولا أحد  
يتأخر عن موعد نهايته .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (٦)

وهم هنا يسخرون من الرسول ومن القرآن ، ذلك أنهم لو كانوا  
يؤمنون بالقرآن وبالرسول ، لما وصفوه بالمجنون والذين قالوا ذلك  
هم أربعة من كبار الكفار عبد الله بن أمية ، والنضر بن الحارث ،  
وبوعل بن خويلد ، والوليد بن المغيرة . وقيل عن ابن عباس إنهم  
الوليد بن المغيرة المحرومي ، وحسيب بن عمرو الثقفي وقيل عن  
مجاهد إنهم عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبد يليل

والظاهر من قولهم هو التناقض الواضح ، فهم شأوا أم أبوا  
يعتقرون بالقرآن بأنه ذكراً ، والذكر في اللغة له عدة معان منها  
الشرف ، وقد أطلق على القرآن ، كما قل الحق سبحانه

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ (١٤) [الزخرف]

وسبق لهم أن تلمسوا في هذا القرآن هبات ، فلم يجدوا ، فكيف  
يصفون من نزل عليه هذا القرآن بالمجنون ، وهم لذين شهدوا له من  
قبل بالصدق والامانة

وقد شاء الحق سبحانه أن ينصف رسوله ﷺ فقال

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٦) [التكوير]

وهم على اتهامهم للرسول ﷺ لم يلتفتوا إلى أنهم قد خاطبوه بقولهم ( يسأيها ) وهو خطاب ينطبق مع نفس الخطاب لدى مخاطبه به الله . وهكذا أحصى الحق سبحانه على ألسنتهم توقييرا وحراما للرسول ﷺ دون أن يشعروا ، وذلك من مشيئته سبحانه حين يُنطق أهل العناد بالحق دون أن يشعروا

فقد قال الحق سبحانه عن المنافقين بهم قالوا

﴿ لَا تَعْفُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَهْجُرُوا ﴾ (٧) ﴿ [المنافقون]

أى لا تعفوا على من عند اسى ﷺ ، حتى يجوعوا ، فيفضوا من حوله هم يقولون عنه « رسول الله » ، فهم أمدوا بذلك ، أم أن هذا من غلبة الحق ؟

وتابع سبحانه ما جاء على ألسنتهم

﴿ لَوْ مَا تَأْتِيَا بِالْمَلَأِكَةِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٧)

ونعلم أن في اللغة لفاظا تدل على حدث وعلى رعدة المتكلم في أن يوجد السامع ما بعدها ، ومن هذه الألفاظ « لولا » و « سوف » و « بولا » نجى للتمنى ورعدة ما يكون بعدها ، وإن كان ما بعده نعيما فهو رعدة منك ألا يكون ، مثل قولك « لو جاء ريد لأكرمته » لكن نجى لم يحدث ، وكذلك الإكرام

وقد قل الكفار عما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم

﴿ لَوْ مَا تَأْتِيَا بِالْمَلَأِكَةِ ﴾ (٧) ﴿ [الحجر]

وَسَقِ لَهُمْ أَنْ قَالُوا

﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهُهُ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ (٧) [الفرقان]

وكانهم يطيبون نزول ملك مع لرسول ليؤنسه وليصدقوا أنه رسول من عند الله ، فهل كان تصديقهم المعلق على هذا الشرط ، تصديقاً للرسول ، أم تصديقاً للعكس ؟

وَسَقِ أَنْ سَأَلَ لِقَاءَ هَذَا الْأَمْرِ فِي قَوْلِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ

﴿وَبِشْرَافٍ مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا ابْعَثْ إِلَهًُا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩١) [الاسراء]

وكانهم علقوا الإيمان بالرسول على شرط أنه ليس ملكاً ، بل من صنف البشر . وجاء الرد عليهم

﴿لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَرُنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ (٢٥) [الاسراء]

إذن فلو نزل رسول من اسماء ملكاً ، لما استطاع أن يمشي في لارض مطمئناً ، فصلاً عن أنه لا يمكن أن يكون أسوة وقدوة للبشر ، لأنه من جنس آخر غير البشر

وَبِوَيْزِلٍ عَلَيْهِمْ مِنْكَ كَمَا رَعَمُوا ، وَقَالَ لَهُمْ افْعَلْ وَلَا تَفْعَرْ ، وَاسْتَقِيمُوا وَاسْتَغْفِرُوا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ، لَرُدُّوا عَلَيْهِ قَائِلِينَ نَتَ مِنْكَ يَنْطَبِقُ عَلَيْكَ قَوْلُ الْحَقِّ

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (١٣) [التحريم]

وَأَنْتَ لَا تَصْلَحُ أُسْوَةً لَنَا ثُمَّ كَيْفَ يَتَكَلَّمُونَ مَعَ مَلِكٍ وَهُوَ مِنْ طَبِيعَةٍ مُخْتَلَفَةٍ وَبِإِسْتِطَاعَةِ الْبَشَرِ أَنْ يَرْتَفِعُوا إِلَى مُسْتَوَاهُ لِيَأْخُذُوا

منه . وهو لن يستطيع أن ينزل إلى مستوى البشرية ليأخذ منه ،  
ولذلك شاء الحق سبحانه أن يرسل لرسول من جنس البشر  
وهكذا أبطل الحق سبحانه حجتهم في عدم الإيمان بالرسول ،  
لأنه لم يأت من جنس الملائكة ، وأبطل حجتهم في طلبهم أن ينزل  
مع الرسول ملائكة ليؤيدوه في صدق بلاغه عن الله  
وبذلك يقول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا  
إِذَا مُنْظَرِينَ ﴾ (٨)

وهكذا يعلمنا الحق سبحانه أنه لا يُنزل الملائكة إلا بمشيئة  
حكمته سبحانه ، وهو مراد الملك - كما طلبوا - لمساعدة رسول  
الله ﷺ في البلاغ عن الله ، فالملك إما أن يكون على هيئة البشر ،  
فلا يستطيعوا تمييز الملك من البشر ، وإما أن يكون على هيئة  
ملك ، فلا يستطيع البشر أن يروه ، وإلا هلكوا  
ذلك أن البشر لا يستطيع تحمل التواصل مع القوة التي أودعها  
الله في الملائكة

والحق سبحانه هو القائل

﴿ وَلَوْ أَنرَأَىٰ مَلَكًا لَّقُصِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴾ (٨) (الأنعام)

(١) قال القسطنطين في تفسيره ( ٢٧٢٨ هـ ) . معنى ﴿ إلا بالحق ﴾ (٨) [الحجرات] إلا

بالقرآن وقيل بالرسالة عن مجاهد وقال الحسن [إلا بالعذاب إن لم يؤمنوا] .

(٢) أنظره خرجه ومعه داني عليه [القاموس القويم ٢/٢٧٣]



ولو جعله الحق سبحانه في هيئة البشر وتواصلوا معه لالتبس عليهم لأمر ، ولظنوا أن الملك بشرٌ مثلهم

وفي هذا يقول الحق سبحانه

﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ولبساً عليهم ما يُلْسُونَ﴾ (١)  
[الأنعام]

بم يُنزل الحق سبحانه الملائكة ، لأنه لم يشأ أن يهلكهم ورسول الله فيهم ، فالحق سبحانه قد قال

﴿وَبَإِذْ كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٢٢)  
[الأنفال]

وقد آمن معظمهم وسخطوا في دين الله من بعد ذلك واستغفروا لذنوبهم ، وكان الله غفوراً رحيماً ، لأن الإسلام يجب ما قبله

وحين ننظر إلى صدر الآية نجد أنه سبحانه قال

﴿مَا نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (٨) [الحجر]

فلو نزلت الملائكة لكان عذاباً لهم ، فالحق سبحانه إذا أعطى قوماً آية طلبوها ، إما أن يؤمنوا ، وإما أن يهلكهم ولذلك يقول الحق سبحانه

﴿وَمَا مَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ (٥٩) [الإسراء]

(١) أي قطع ويمحو ما كان قبله من الكفر والمعاصي والذنوب [قوله ابن منظور في لسان

العرب : مائة جيب ]

فالحق سبحانه لم يُجبهم إلى الآيات والمعجزات التي طلبوها  
لأن السابقين لهم كذبوا بها قبل ذلك وهم يريدون أن يكذبوا  
بها ، وحتى لو نزل الآية فسيكذبونها ، وحين يكذبون في آية  
مقترحة من عندهم ، فلا ند أن يهلكهم أما لو كذبوا في آية مُرلة  
من عند الله قل الله يمههم

من فلو نزلت الملائكة كما يريدون فسيرلهم الحق ، والحق  
هو أن يهلكهم إذا كذبوا

ويذيل الحق سبحانه الآية بقوله

﴿ وَمَا كَانُوا إِذَا نُظِرَ فِي ﴾ (٨)

[السجدة]

أي ما كان أجل المشركين فد حال لنزل الله لهم الملائكة  
لإهلاكهم كما سبق وأهلك الأمم السابقة التي طلبت الآيات فرب  
لهم كما طلبوها ، ولما لم يصدقوا ويؤمنوا أهلكهم الله

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٩)

راقراا قد جاء بعد كتب متعددة وكان كل كتاب منها محمل  
منهج الله إلا أن أي كتاب منها لم يكر معجزة بل كانت انمُعجزة  
نزل مع أي رسول سبق سيدنا رسول الله ﷺ وعادة ما تكون  
المعجزة من صنف ما بيع فيه القوم الدين نزل فيهم

وما دام المنهج مفصلاً عن المعجزة فقد طلب الحق سبحانه  
من الحاملين لكتب المنهج تلك أن يحافظوا عليها وكان هذا تكليفاً

## سُورَةُ التَّحْرِيمِ

١٦٥١

من الحق سبحانه لهم والتكليف - كما يعلم - عُرضة أن يُطاع  
وعُرضه أن يُعصى . ولم يلتزم احد من الاقوام السابقة بحفظ الكتب  
لمصرلة انهم

وجد الحق - سبحانه وتعالى - يقول

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهِ الشُّعْرَاءُ الَّذِينَ أَتَمَمُوا  
لِلدِّينِ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ [١٦٥١] ﴿[المائدة]

إي أن الحق - سبحانه وتعالى - قد كلفهم وطلب منهم أن  
يحفظوا كتبهم التي تحمل منهجه ، وهذا التكليف عُرضة أن يُطاع  
وعُرضة أن يُعصى . وهم قد عصوا من الحق سبحانه وتكليفه  
بالحفظ ، ذلك انهم حرفوا وبذلوا وحذفوا من تلك الكتب الكثير

وقال الحق سبحانه عنهم

﴿وَإِنْ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [١٦٥٢] ﴿[البقرة]

بل وأصافوا من عندهم كلاماً وقالوا هو من عند الله . ذلك قال  
فيهم الحق سبحانه

﴿فَرِيقٌ لِّدِينِ الْيَهُودِ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ  
لِيُشْكِرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾  
[١٦٥٣] ﴿[البقرة]

(١) اليهود النوبة . وهذا يهود ناب ورجع إلى الحق هادوا . هادوا هي اليهودية [ سنن  
العروة - مادة هود ]

(٢) الحبر ( صبح الحاء وكسره ) المالح وجفف حصار [ المعجم القويم ٦ : ١٤ ] وقال  
في مدلوله في اللسان مادة حدر [ معناه العالم بسمير الكلام والمعم رسميه

وهكذا ارتكبوا ذنوب الكذب وعدم الأمانة ولم يحفظوا الكتب الحاملة بسبح الله كما أرسلها الله على أنبيائه ورُسُلِهِ السَّالِفِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

ولذلك لم يشأ الحق سبحانه أن يترك مهمة حفظ القرآن كتكليف منه للبشر ، لأن التكليف عُرْضَةٌ أَوْ يُطَاعُ وَعُرْضَةٌ أَوْ يُعْصَى ، فصلاً عن أن القرآن يتمير عن الكتب السابقة في أنه يحمل المنهج وهو المعجزة الدالة على صدق بلاغ رسول الله ﷺ في نفس الوقت

ولذلك قال الحق سبحانه

﴿ إِنَّا نَحْنُ بَرُّهَا الذِّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١٠)

[الحجر]

والذِّكْرُ إذا أُطلق انصرف المعنى إلى القرآن ، وهو الكتاب الذي يحمل المنهج ، وسبحانه قد شاء حفظه ، لأنه لمعجزة الدائمة الدالة على صدق بلاغ رسوله ﷺ

وكان لصحابة يكتبون القرآن نوراً أن ينزل على رسول الله ﷺ ، ووجدنا في عصرنا من هم غير مؤمنين بالقرآن ، ولكنهم يفتنون في وسائل حفظه فهناك من طبع المصحف في صفحة واحدة ، وسحر لذلك مواهب أناس غير مؤمنين بالقرآن

وحدث مثل ذلك حين تمّ تسجيل المصحف بوسائل التسجيل المعاصرة وفي ألمانيا - على سبيل المثال - توجد مكتبة يتم حفظ كل ما يتعلق بكل آية من القرآن في مكان مُعَيَّن مُحدد

وفي بلادنا المسلمة نجد من يقطع لحفظ القرآن منذ الطفولة ، ويُبْهِى حِفْظَهُ وعمره سبع سنوات ، وإن سألته عن معنى كلمة يقرؤها فقد لا يعرف هذا المعنى .

ومن أسرار عظمة القرآن أن البعض ممن يحفظونه لا يملكون أية ثقافة ، ولو وقف الواحد من هؤلاء عند كلمة ، فهو لا يستطيع أن يستكملها بكلمة ذات معنى مقارب لها ، إلى أن يردّه حافظ آخر للقرآن .

ولكى يعرف دقّه حفظ الحق سبحانه لكتابه الكريم ، نجد أن البعض قد حاول أن يدخل على القرآن ما ليس فيه ، وحاول تحريفه من مدخل ، برؤى أنه قريب من قلب كل مسلم ، وهو توقيير الرسول ﷺ ، وجاءوا إلى قول الحق سبحانه

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .

[الفتح]

﴿ (٧٦) ﴾

وادخلوا في هذه الآية كلمة ليست فيها ، وطبعوا مصحفاً غيروا فيه تلك الآية بكتابتها « محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » وأرادوا بذلك أن يسرقوا عواطف المسمعين ، ولكن العلماء عندما أمسكوا بهذا المصحف أمروا بإعدامه وقالوا « إن به شيئاً زائفاً » ، فردّ من طبع المصحف « ولكنها زيادة تحبونها وتؤقرونها » ، فردّ العلماء « إن القرآن توقيفى ، نقرؤه وطبعه كما نزل » .

وقامت صجّة ، وحسبها العلماء بأن أى زيادة - حتى ولو كانت فى توقيير رسول الله ﷺ ومحبته - لا تحوز فى القرآن ، لأن علينا أن نحفظ القرآن كما لقنه جبريل لمحمد ﷺ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴾

وهنا يُسَلَّى الحق سبحانه رسوله الكريم ، ويوضح له أن ما حدث له من إنكار ليس بدعاً ، بل حدث مثله مع غيره من الرسل سواء من إنكار أو تجاهل أو سخرية .

وإذا كنت أنت سيد الرسل وخاتم الأنبياء ، فلا بُدَّ أن تكون مشفقتك على قَدْر مهنتك ، ولا بُدَّ أن يكون نعيك على قَدْر جسامته الرسالة الخاتمة

و ﴿ شَيْعِ (١) ﴾ [العبر]

تعني الجماعة الذين اجتمعوا على مذهب واحد ، سواء كان ضلالاً أم حقاً والمثل على من اجتمعوا على باطل هو قوله الحق

﴿ أَوْ يَلِسْكُمْ <sup>(٢)</sup> شَيْعاً .. ﴾ (٦٥)

[الأنعام]

والمثل على من اجتمعوا على الحق قوله سبحانه

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْعَةٍ <sup>(٣)</sup> لِبِرَاهِيمَ ﴾ (٨٢)

[الصافات]

وهكذا تكون كلم ( شيع ) تعني لجماعة التي اجتمعت على

الحق أو الباطل

(١) الشيع جمع شيع ، وهي الفرقة من الناس يتابع بعضهم بعضاً رشيعة الرجل أتباعه وأبصاره ، ومن على مذهبه رايه [ القاموس الفيوم ٢٦٣/١ ]

(٢) يلبسكم شيعاً أي يُفهمي الأمر عليكم فعصيرون مرقاً مختلفة [ القاموس الفيوم ١٨٨/٢ ]

(٣) المفسر هنا عائد على نوح عليه السلام قال ابن حيس أي من أهل دياره وقال سجد من شيعه نوح إبراهيم ، على مهله وسسه وقال قتادة على دياره ذكره الآثار السيوطي في الدر المنثور ( ١٠ / ٧ )

وقول الحق سبحانه

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَرَّامِ (١)﴾ [الحجر]

يعنى أنك لن تكون أقلّ من الرُّس السابقيين عليك ، بل قد تكون رحلتك فى الرسالة شاقّة بما يناسب مهمتك ، ويناسب إمامتك للرسول وخاتمك للأنبياء

ويكمل سبحانه ما حدث للرسل السابقين على رسالة رسول الله ﷺ ، فيقول

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١١)﴾

ونجد كلمة

﴿يَسْتَهْزِءُونَ (١١)﴾ [الحجر]

ونجد أن الحق سبحانه قد أوضح هذا الاستهزاء حين قالوا

﴿يَنأِيهَا الَّذِي مَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦)﴾ [الحجر]

وكان الحق سبحانه يوضح له أن الاستهزاء قد يزيد ، وذلك دليل على أنك قد بلغت معهم مبلغ الكيد ، ولو كان كيدك قليلاً لحققوا كيدهم ، ولكنك جئت بأمر قاس عليهم وهدمت لهم مذهبهم ، وهدمت حتى سيادتهم وكذلك سطوتهم ولم يجدوا غير الاستهزاء لبقاوموك به

ومعنى ذلك أنهم عجزوا عن مقاومة منهجك ، ويحاولون بالاستهزاء أن يحققوا لك الخور<sup>(١)</sup> لتضعف ، معتمدين فى ذلك على

(١) الخور الضعف والانكسر وقال اللبث العوكر الضعيف الذى لا يقاوم على الشدة

[لسن العرب - مادة خور ]

أن كل إنسان يحب أن يكون كريماً في قومه ومُعزّزاً مكرماً

وهذا يريد الحق سبحانه من رسوله أن يُوطّن نفسه هي أنه سيُسْتَهْرَأ به وسيُجَارَب ، وسيُؤْذَى ، لأن المهمة صعبة وشاقّة ، وكلما اشتدت معاندتك وإيداؤك ، فاعلم أن هذه من حيذيات ضرورة مهمتك

ولذلك نجد لرسول ﷺ قبل أن يتأكد من مهمته أخذته زوجته حبيبة بنت حويلك - رضى الله عنها - عند ورقة بن نوفل ، وعرف ورقة أنه سيؤْذَى ، وقال ورقة لرسول الله ﷺ لئمتى أكون هياً حين يُحْرِك قَوْمَكَ . فتساءل الرسول ﷺ أُمَحْرِجِي هُمْ ؟ قال ورقة نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عُرِي ، وإن يسركنى يومك أنصرك نصرأ مؤزراً<sup>(١)</sup> .

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يصحب نزول الرسالة أن يُحصّنه صد ما سيحصل له ، ليكون عنده المناعة التي تقابل الأحداث فما دام سيصير رسولاً فليعلم أن الطريق محفوف بالإيذاء ، وبذلك لا يُفاجأ بوجود من يؤذيه .

ونحن نعلم أن المناعة تكون موجودة عند مَنْ وبها يستعد لمواجهة الحياة في مكان به وباء يحتاج إلى مَصْلٍ<sup>(٢)</sup> مضاد من هذا الوباء ، ليقى نفسه منه ، وهنا ما يحدث في الماديات ، وكذلك الحال في المعنويات .

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ١٣٩/٢ ، ١٤٠ ) من حديث محمد بن النعمان بن بشير

الأنصاري ، وانظر دلائل النبوة لأبي نعيم ( ١٦٨ )

(٢) المصل ما يتعد من دم حيوان محض من الإصابة بمرض كالجدري والنفري ثم يعطى به جسم آخر ليكتسبه مناعة تقيه الإصابة بذلك المرض [ المعجم الوجيز - مادة مصل ]



ولهذا يوضح سبحانه هذا الامر لرسوله ﷺ ، ولقراده ثقته في الحق الذي بعثه به ربه ، ويشدد في المحافظة على تنفيذ منهجه

والاستهزاء - كما نعلم - لئلا من الحرب السلبية ، فهم لم يستطيعوا مواجهة ما جاء به رسول الله ﷺ بالجد ، ولا ان يردوا منهجه الراقى ، لذلك لحثوا إلى السخرية من رسول الله ﷺ ، ولم تنفعهم سحريتهم في النيل من الرسول ، أو النيل من الإسلام ، ومى هذا المعنى ، يقول لنا الحق سبحانه عن مصير الذين يسخرون من الرسول ﷺ

﴿كَذَلِكَ نَسُكُّكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾

و « سلك لشيء » أى أدخله ، كما تدخل الحيط في ثقب الإبرة والحق سبحانه يقول

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المدثر]

أى ما أدخلكم في النار : فتأتى إجابتهم

﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المدثر]

وهنا يقول الحق سبحانه

﴿كَذَلِكَ نَسُكُّكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الحجر]

( ) أى كذلك نسلك الضلال والكفر والاستهزاء والشك في قلوبهم والسك إدخال الشيء في الشيء كإدخال الحيط في المحيط [ تفسير القرطبي ٢٧٢١/٥ ]

(٢) سقر اسم من أسماء جهنم [ القاموس القويم ٢١٧/٦ ] قال السجوطي في الإنفاق (١١٣/٢) ، ذكر الجواليقي أنها أعجمية ، وقال ابن منظور في اللسان ( مادة سقر ) « رفيل سميت النار سقر لأنها تذيب الأجسام والأرواح ، والاسم عربي من قولهم سقرته الشمس أى أبلته »

أى كما سلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء فى قلوب شيع  
الاولين كذلك نُدخله فى قلوب المجرمين

يعنى مشركى مكة ، لانهم اسخطوا أنفسهم فى دائرة الشرك  
التي دعتهم إلى هذا الفعل ، فنالوا جراً ما فعلوا مثل ما سبق من  
أقوام مثلهم ، وقد يجد من تلك القلوب تصديقاً يكذبونه بالسفتهم ،  
مثلاً قال الحق سبحانه

﴿ وَجَحِّدُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنُهَا أَنْفُسُهُمْ ۖ ۝١٤٤﴾ [النمل]

سهم أمة بلاغة ولغة وبيان ، وقد أثر فيهم القرآن محالوات  
وطلاوته<sup>(١)</sup> ، ولكنه العناد ، وما هو واحد<sup>(٢)</sup> منهم يقول

« إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن  
أسفله لمغدق »<sup>(٣)</sup>

لقد قال ذلك كافر بالرسول والرسالة

وعلم أن الذين استمعوا إلى القرآن نوعان ، والحق سبحانه هو  
القائل عن أحدهما

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا  
الْعِلْمَ مَذَاقًا أَلْنَا أَرْسُكَ الَّذِينَ طِيعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ  
۝١٦٦﴾ [محمد]

أى أن قوله لا يعجبهم وما يتلوه عليهم لا يستحق السماع ،  
فقال الحق سبحانه رداً عليهم

(١) الطلاوة الحسنى والقبول والرواق [ سائر العرب مادة طلى ]

(٢) هو الولد من المغيرة ، أبو عبد شمس وقد كان ذا سن فيهم وكبراً من كبرائهم

(٣) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية ( ١ / ٢٧ )

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءُ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آدَانِهِمْ وَقْرٌ<sup>(١)</sup>﴾  
وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى. ﴿١٤﴾

[مضات]

وهي مسألة - كما أقول دائماً - تتعلق بالقابل الذي يستقبل  
لحدث إما أن يُصَفَّى قلبه ليستقبل القرآن ، وإما أن يكون قلبه -  
والعياد بالله - مُمْتَلئاً بالكفر ، فلا يستقبل شيئاً من كتاب الحق .

وقد حدث أن أدخل الحق سبحانه كتبه السماوية في قلوب  
الأقوام السابقة على رسول الله ، ولكنهم لفساد ضمائرهم وفلأمة  
عقوبهم ، سَحَرُوا من تلك الكتب ، ولم يؤمنوا بها  
ويُصِفُ الحق سبحانه هؤلاء المجرمين بقوله

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ<sup>(٢)</sup> وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾

وهكذا يوضح الحق سبحانه أن قلوب الكفرة لا تلتزم بالإيمان ،  
ولا تُحس استقبال القرآن ، ذلك أن قلوبهم مُمْتَلئة بالكفر ، تماماً كما  
حدث من الأقوام السابقة ، فتلک سُنَّة مَنْ سَبَقُوهُمْ إِلَى الْكُفْرِ  
والسُّنَّةُ هي الطريقة التي تأتي عليها قضايا النتائج للمُقَدِّمات ،  
وهي أولاً وأخيراً قضايا واحدة

ومرة نحد الحق سبحانه يقول

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَبَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿١٦﴾﴾

[الاحزاب]

(١) الوقْر: ثقل في السمع أو صمم [ القاموس القويم ٢ / ٢٥ ]

(٢) خلا الامر بخلو مضى وسبق والقرون الحالية هم السراصم [ لسان العرب -

ونعلم أن الإضافة تختلف حسب ما يقتضيه التعبير . فـ ( سنة  
الاولين ) تعنى الامور الكونية التى قدرها الله لعباده . و ( سنة الله )  
تعنى سنة منسوبة لله . ومن سن الحق سبحانه أن يهلك الكافرين  
لرسل إن طلبوا آية فجاءتهم ، ثم واملوا الكفر .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ <sup>(١)</sup>  
لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ <sup>(٢)</sup> ﴾

وهم قد طلبوا أن ينزل إليهم ملك من السماء ، لذلك نجد الحق  
سبحانه هنا يأتيهم بدليل أقوى مما طلبوا ، ذلك أن يرسل ملك من  
السماء هو أسهل بكثير من أن ينزل من السماء سلماً يصعدون عليه ،  
وفى هذا ارتقاء فى الدليل ، لكنهم يرتقون أيضاً فى الكفر ، وقالوا  
إن حدث ذلك فلنسوفاً يكون من فعل السحر

ولو كان محمد ﷺ ساحراً لسحروهم ، وجعلهم جميعاً مؤمنين ،  
وعلى الرغم من أن مثل هذا الأمر كان يجب أن يكون بدهياً بالنسبة  
لهم ، لكنهم يتمادون فى الكفر ، ويقولون إنه لو نزل سلماً من  
السماء وصعدوا عليه لكان ذلك بفعل السحر ، وكان رسول الله هو  
الذى سحروهم وأعمى أبصارهم ، ولجعلهم يتوهمون ذلك .

(١) عرج يعرج صعد وعلا وارتفع [ القاموس القويم ١٣، ٢ ] والمخرج المصاعد  
والدرج والمعراج السكك [ لسان العرب - مادة عرج ]  
(٢) سكَّرت أبصارنا أى حسبت من النظر وحيرت . وقال أبو عمرو بن العلاء مصباح  
عطيت وغشيت أى مدت بالسحر فيتجلى بأبصارها غير ما ترى [ لسان العرب  
مادة سكر ]

وكان معنى هذا القول الكريم لو ارتقينا في مطلبهم ، وأنزلنا لهم سلماً يصعدون به إلى أعلى ، ليقولوا ، إن الحق هو الذي بعث محمداً بالرسالة ، بدلاً من أن ينزل إليهم ملك حسب مطلبهم ، لَمَا آمَنُوا بل لَقَالُوا إن هذا من فعل سحر قام به محمد ضدهم . وهكذا يرتقون في العباد والجحود .

ولا نَدُّ أن نلاحظ أن الحق سبحانه قد جاء هذا بكلمة .

[الحجر] ﴿ فَظَلُّوا (١٤) ﴾

ولم يقل « وكانوا » ، ذلك أن « كان » تُستخدم لمُطلق الزمن . و « ظل » للعمل بهاراً ، و « أمسى » لعمل ليلاً ، أى إن كل كلمة لها وقت مكتوب ، والمقصود من « ظلُّوا » هنا أن الحق سبحانه لن ينزل لهم السِّلْم الذي يعرجون عليه إلا في منتصف النهار ، ولكنهم أصرُّوا على الكفر .

لذلك قال سبحانه

[الحجر] ﴿ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرَجُونَ (١٤) ﴾

أى من نأخذهم بالليل ، حتى لا يقولوا إن الدنيا كانت مظلمة ولم نر شيئاً ، ولكنه سيكون في رضح النهار أى أن الله حتى لو فتح باباً في السماء يصعدون منه إلى الملا الأعلى في وصح النهار لكذبوا

وبعد ذلك ينقلنا الحق سبحانه إلى الكون ليُرينا عجيب آياته ،

فيقول

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَينَهَا لِلنَّظِيرِ ﴿٦﴾ ﴾

والبروج تعنى المبنى العالية ، والحق سبحانه هو القائل .

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ (٧٨)

[النساء]

وهو سبحانه القائل ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ (١)

والمعنى الجامع لكل هذا هو الرتبة المُلَفَّنة بجرمها العالى ، وقد

تكون مَلَفَّنة بحمالها الأخاذ

والبروج هى جمع بُرْج ، وهى منازل الشمس والقمر ، فكما

تحركت الشمس فى السماء تنتقل من برج الى آخر ، وكذلك القمر ،

مصدقاً لقول الحق سبحانه

﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (٣٣)

[الانبيا]

وهو سبحانه القائل

﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ

[يونس]

السَّيِّئِينَ وَالْحَسَابِ ﴾ (٥)

أى لنضبط كل التوقيينات على ضَوْء تلك الحركة لكل من

الشمس والقمر ، ونحس حين نفتح أى جريدة نقرا ما يُسَمَّى بأبواب

الطالع ، وفيه أسماء الأبراج برج الحمل ، و برج الجدى ، و برج

العذراء ، وغيرها ، وهى أسماء سرىانية للمنازل التى تنزلها أبراج

الحجور ويقول الشاعر

## سُورَةُ الْحَجَرِ

﴿٧٦﴾

حَمَلِ الثَّورُ جَوْزَةَ السَّرْمَازِ وَرَعَى اللَّيْثُ<sup>(١)</sup> سُنْبُلَ الْمِيزَانِ  
عَرَبَ الْقَوْسِ جَدَى دَلَوِ وَحُوتٌ مَا عَرَفْنَا مِنْ أُمَّةٍ السَّرِيكِينِ

وهم اثنا عشر برجاً ، ولكل برج مقاييس في الجو والطقس  
وحين نقرأ القرآن نجد قول الحق سبحانه

﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (٧٦)﴾ [الزلزال]

والبعض يحاول أن يجد تأثيراً لكل برج على المواليد الذين  
يولدون أثناء ظهور هذا البرج ، ولعل من يقول ذلك يصل إلى فهم  
لبعض من أسرار الله في كونه ، ذلك أنه سبحانه قد أقسم بمواقع  
النجوم ، وقال

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)﴾

[الواقعة]

وهناك من يقول إن لكل إنسان نجماً يولد معه ويموت معه ،  
لذلك يُقال : هوى نجم فلان ، ونحو لا تجزم بصحة أو عدم صحة  
مثل هذه الأمور ، لأنه لم تثبت علمياً ، والحق سبحانه أعلم  
بأسراره ، وقد يعلمها لبعض من خلقه

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواصها منها مجد قول الحق  
سبحانه

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا... (١٦)﴾ [الحجر]

أي أن هناك تأكيداً لوجود تلك البروج في السماء ، وليس هذا

(١) الليث الأسد ، والجمع ليوث وهو مأخوذ من المعى اللوى ، فالليث الشدة والقوة  
[لسان العرب مادة ليث]

الجُحُ لثأثيرها فى الجو ، أو لآنها علامت نهتدى بها . فضلاً عن تأثيرها على الحرارة و الرطوبة والنباتات ، ولكنها فوق كل ذلك تؤدى مهمة جمالية كبيرة ، وهى أن تكون زينة لكل مَن ينظر إليها

لذلك قال الحق سبحانه

﴿وَرَبَّانَاهَا لِلنَّاطِرِينَ (١٦)﴾

[الحجر]

ذلك أن الشيء قد يكون نافعا ، لكن ليس له قيمة جمالية ، وشاء الحق سبحانه أن يجعل للنجوم قيمة جمالية ، ذلك أنه قد خلق الإنسان ، ويعلم أن لنفسه ملكات متعددة ، وكل ملكة لها عذاء فغذاء العين المتظر الجميل ، والأذن غذاؤها الصوت الجميل ، والآنف غذاؤها الرائحة الطيبة ، واللسان يعجبه العذاق الطيب ، واليد يعجبها اللمس الناعم ؛ وهذا ما نعرفه من عذاء الملكات لحواس الخمس التى نعرفها .

وهناك ملكات أخرى فى النفس الإنسانية ، تحتاج كل منها إلى غذاء معين . وقد يسبب أخذ ملكة من ملكات النفس لأكثر المطلوب لها من غذاء أن تفسد تلك الملكة ، وكذلك قد تسبب الحرمان لملكة ما فساداً تكوينياً فى النفس البشرية

والإنسان المتوازن هو مَن يُغذى ملكاته بشكل متوازن ، ويظهر المرض النفسى فى بعض الأحيان نتيجة لنقص غذاء ملكة ما من الملكات النفسية ، ويتطلب علاج هذا المرض رحلة من البحث عن الملكة الممانعة فى النفس البشرية .

وهكذا نجد فى النفس الإنسانية ملكة لرؤية الزينة ، وكيف



تستعمل الزينة النفس البشرية ؟ ونجد المثل الواضح على ذلك هو وجود مهندسى ديكور يقومون بتوزيع الإضاءة فى البيوت بأشكال فنية مختلفة

ولذلك يقول الحق سبحانه عن أبراج النجوم

﴿ وَزَيْنًا لِلنَّاطِرِينَ ﴾ (١٦) [الحجر]

ونجده سبحانه يقول عن بعض نعمه التى أنعم بها علينا

﴿ وَأَلْخِلْ وَأَلْغُلْ وَالْغُلَّ وَالْغُلَّ لَتُرْكَبُوهَا وَرَبِّنَا . ﴾ (٨) [المثل]

وهكذا يمتدُّ علينا الحق سبحانه بجمال ما خلق وسخره لنا ، ولا يتوقف الأمر عند ذلك ، بل هى فى خدمة الإنسان فى أمور أخرى

﴿ وَنَحْمِلُ أَسْفَالَكُمْ <sup>(١)</sup> إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِاللَّهِ إِلَّا بِشَقِ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٧) [الصل]

وهو سبحانه وتعالى الذى جعل تلك الدواب لها منظر جميل ، فهو سبحانه القائل

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَعُونَ وَحِينَ تُسْرَحُونَ <sup>(٢)</sup> ﴾ (٦) [المحل]

وهو سبحانه لم يخلق النعم لنستخدمها فقط فى أغراضها المتأخرة ، ولكن بعضاً منها يروى أحاسيس الجمال التى خلقها فيها سبحانه وكلما تأثرنا بالجمال وجدنا الجميل ، وفى توحيده تفريد لجلاله

(١) الأضلال الأحمال الثقيلة والقتل الحسن الثقيل [ القاموس القويم ٨/٨ ]

(٢) سرحت المشية أى خرجتها بالغداة إلى المرعى [ لسان العرب - مادة سرح ]

ويقول سبحانه عن السماء والبروج .

## ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (١٧)

ونعلم أن الشياطين كانوا يسترقون<sup>(١)</sup> السمع لبعض من منهج الله الذي نزل على الرسل السابقين لرسول الله ﷺ ، وكانوا يحاولون أن يخيفوا لها من عندهم ما يفسد معنَاهُ ، وما أن جاء رسول الله ﷺ حتى منع كل هذا بأمر من الحق سبحانه ، يقول جل علاه

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِجَادَلُوكُمْ﴾ (٢٢٠) [الأنعام]

ولذلك نجد الشياطين تقول ما ذكره الحق سبحانه على ألسنتهم في كتابه العزيز

﴿وَأَنَّا لَمِنَ السَّمَاءِ فَرَجَدْنَاهَا مُلْتَأَ حَرًّا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾ (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقُودُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمَاعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدُ لَهُ شُهَبًا<sup>(٢)</sup> رُشْدًا (١) وَأَنَّا لَا نَدْرَى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ لَى الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رُشْدًا (١)﴾ [الحجر]

وهكذا علمنا أنهم كانوا يسترقون السمع ، ويأخذون بصنعاً من كلمات المنهج ويزيدون عليها ، فتبدو بها حقيقة واحدة وألف

(١) استرق السمع إذا سمعه مسخياً كأنه يسرق الكلام المسموع كما يسرق المال وقوله ﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرْقَ السَّمْعَ﴾ (٢٢٠) [الحجر] أي استسمع في خفية [القاموس القويم ٣١٢/١]

(٢) الشهاب الشطة الساطع من النار ومن النجم المصنوع اللامع وهو جرم سماوي يسمع في الفضاء ، قرأنا يدخل في جو الأرض اشتعل وصار رماداً [المعجم الوجيز مائة شهاب]

كذبة<sup>(١)</sup> . وشاء الحق سبحانه ان يُكذِّبَ ذلك : فقال

﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ <sup>(١٧)</sup> ﴾ [الحجر]

والشيطان كما نعلم هو عاصي الجن .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ دُشَابٌ مُبِينٌ <sup>(١٨)</sup> ﴾

وكلمة ﴿استرق (١٨)﴾ [الحجر]

تُحدِّد المعنى بدقة ، فهناك مَنْ سرق ، وهناك مَنْ استرق ، فالذي سرق هو مَنْ دخل بيتاً على سبيل المثال ، وأخذ يُعْنِي ما فيه من حقائق ، ونزل من المنزل على راحته لينقلها حيث يريد .

لكن إن كان هناك أحد في المنزل ، فاللص يتحرك في استخفاء خوفاً من أن يضبطه مَنْ يوجد في المنزل ليحفظه . وهكذا يكون معنى « استرق » الحصول على السرقة مقرونة بالخوف

وقد كان العاصون من الجن قبل رسول الله ﷺ يسترقون السمع

(١) أخرج البخاري من صحيحه ( ٥٧٦٢ ) وأحمد في مسنده ( ٨٧/٦ ) ومسلم في صحيحه ( ٢٢٢٨ ) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : « سأل ناس النبي ﷺ عن الكهنة ، فقال إنهم ليسوا بشيء فقالوا يا رسول الله إنهم يحنثون بالشئ يكون حفا فقال ﷺ تلك الكلمة من الحق يخطئها الجن فيسرقوها من ابن وليه كقوله الدجاجة فيخطئون معها أكثر من مائة كلمة »

(٢) الرجم الرمي بالحجارة والرجم اللعن والإبعاد والعرد ويكون الرجم بمعنى المشنوم المسبوب من قوله تعالى ﴿ تَنْبِئْهُمْ عَنْ لَأْرْجُسُكَ . (١٣٩) ﴾ [مريم] أي لا سببك [لسان العرب مادة رجم]

للمنهج المُنَزَّل على الرُّسُل السابقين لرسول الله ﷺ ؛ واختلف الأمر بعد رسالته الكريمة ، حيث شاء الحق سبحانه أَنْ يحرس السماء ، وما أَنْ يقترب منها شيطان حتى يتبعه شهاب ثاقب<sup>(١)</sup>

والشهاب هو النار المرتفعة ، وهو عبارة عن جَذْوَة تشبه قطعة الفحم المشتعلة ، ويخرج منه اللهب وهو ما يُسمى بالشهاب أما إذا كان اللهب بلا دَوَّالة<sup>(٢)</sup> من دحان ، فهذا اسمه « السَّمُوم » وإنَّ كان الدحان مُتَوَيًّا ، ويخرج منه اللهب ، ويموج في الجو فيسمى « مارج » حيث قال الحق سبحانه

﴿ مارج من نار ﴾ (١٥)

[الرحمن]

وهكذا نجد السماء محروسة بالشهب ولَسَمُوم ومارج من نار ويقول سبحانه من بعد ذلك

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِي وَأَنْبَتْنَا

فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ (١٦)

وحين نسمع كلمة الأرض فنحن نتعرف على المقصود منها ، ذلك أنه ليس مع العين أين والمد هو الامتداد الطبيعي لما يسير عليه من أي مكان في الأرض

وهذه هي اللفظة التي يلفتنا لها الحق سبحانه ، فلو كانت الأرض

(١) شهاب ثاقب أي مشتعل مصمى حارق نظام الليل ، أو حارق ماحق لكل شيطان يحطف حطفا من السماء وسبب اشتعال الشهاب هو دخوله في نطاق جاذبية الأرض واحتكاكه بالهواء [ القاموس القويم ١/ ١٠٧ ]

(٢) دَوَّالة كل شيء أعلاه دَوَّابة الفرس شعر في الرأس في أعلى الناصية ودَوَّالة القوم أشرفهم وأعلامهم [ لسان العرب - مادة ذاب ]

مُرَبَّعة ، أو مستطيلة ، أو مُثَلثة ، لوجدنا لها نهاية وحكمة ، لكنّا حين  
 نسير فى الأرض مجدها مُمتدة ، ولذلك فهى لا بُدّ وأن تكون مُدَوَّرة .  
 وهم يستدلون فى العلم التجريبي على أن الأرض كُروية بأن  
 الإنسان إذا ما سار فى خط مستقيم ، فليسوف يعود إلى النقطة التى  
 بدأ منها ، ذلك أن مُنْحَى الأرض مصوَّعٌ بدقّة شديدة قد لا تدرك  
 العين مقدار الانحناء فيه ويبدو مستقيماً .

وحين يقول الحق سبحانه

﴿وَأَلْهَمَّا فِيهَا رَوَاسِيَ .. (١٦)﴾ [الحجر]

يعنى أشياء تثبتها . ولقائل أن يتساءل ما دامت الأرض مخلوقة  
 على هيئة الثبات فهل كانت تحتاج إلى مشتات ؟  
 ونقول لا بد أن الحق سبحانه قد خلقها مُتَحَرِّكة وعُرْضة لأن  
 تصطرب ، فخلق لها المُتَقَلَّات وهكنا نكون قد أخذنا من هذه الآية  
 حقيقتين ، التكوير والدوران

وهناك آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ (٨٨)﴾ [السر]

ونفهم من هنا القول الكريم أن حركة الجبال ليست دائيّة بل تابعة  
 لحركة الأرض ، كما يتحرك السحاب تبعاً لحركة الرياح

وشاء سبحانه أن يجعل الجبال رواسى مُسْتَبْتَاتٍ للأرض كي  
 لا تميدّ بها ، فلا تميل يَمَةً أو يسُرّة أثناء حركتها

ويقول الحق سبحانه

﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ (١٩) [الحجر]

وأنبت سبحانه من الأرض كلَّ شيءٍ موزونٍ بدقةٍ تناسب الحو  
والبيئة ، ويصم العناصر اللازمة لاستمرار الحياة .

ويقول سبحانه من بعد ذلك

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ وَمَنْ لَكُمْ لَهُ بَرَقِينَ﴾ (٢٠)

في هذا القول يمتنُّ علياً سبحانه بأنه جعل لنا في الأرض وسائل  
لنعيش ولم يكتفِ بذلك ، بل جعل فيها رزق ما نطعمه نحن من  
الكائنات التي تخدمنا ، من نبات وحيوان ، ووقود ، وما يلهمنا به  
لمطور حياتنا من أساليب الزراعة والصناعة ، وفوق ذلك أعطانا الذرية  
التي تقرأ بها العين ، وكل ذلك خاضع لمشيئته وتصرفه

ويقول سبحانه من بعد ذلك

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (٢١)

وقوله الحق

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (٢١) [الحجر]

أى أنه لا يوجد جنس من الأجسام إلا وله حرائقٌ عند الله

(١) المقصود من الإنبات الإشياء والإيجاد قاله القرطبي في تفسيره ( ٢٧٢٦/٥ ) ومنه

قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي الْأَرْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [موج]

(٢) المعاش جمع معيشة وهو ما يقتات به ويحيش عليه الإنسان

سبحانه ، فالشيء الذي قد تعتبره قافها له خرائن ؛ وكذلك الشيء  
النفيس ، وهو سبحانه يُنزل كل شيء بقدر ، حتى الاكتشافات العلمية  
يُنزلها بقدر

وحين نحتاج إلى أي شيء مخزون في أسرار الكون ، ونحن نُعمل  
عقولنا الممنوحة لنا من الله لنكتشف هذا الشيء والمثل هو الوقود .  
وكما قديماً نستخدم خشب الأشجار والحطب

وسبحانه هو القائل

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ <sup>(٧٦)</sup> أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ  
الْمُنشِئُونَ <sup>(٧٧)</sup> ﴾ [الواقعة]

واتسعت احتياحات البشر فاكتشفوا الفحم الذي كان أصله نباتاً  
مطموراً أو حيواناً مطموراً في الأرض ، ثم اكتُشف البترول ، وهكذا  
أي أنه سبحانه لن يُنشيء فيها جديداً بل أعد سبحانه كل  
شيء في الأرض ، وقدر فيها الاقوات من قبل أن ينزل آدم عليه  
السلام إلى الأرض من جنة لتدريب ليعمر الأرض ، ويكون خليفة لله  
فيها ، هو ودريته كلها إلى أن تقوم الساعة .

فإدراك شكوتنا من شيء فهذا مَرَجعه إلى التكاسل وعدم حسن  
استثمار ما خلقه الله لنا وقدره من أرزاقنا في الأرض ونرى التعاسة  
في كوكب الأرض رغم التقدم العلمي والتقني ، ذلك أننا نستخدم  
ما كنزته الحق سبحانه ليكون مجال سعادة لنا في الحروب والتعاقب .

(١) أوردى السراج النار من الشيء وري الزبد خرجت ماره وأوراه غيره إذا استخرج  
ناره ، والريد الوارد الذي يظهر ماره سريماً [ لسان العرب مادة وري ]

ولو أن ما يُصرف على الحروب ، تم توجيهه إلى تنمية المجتمعات المختلفة لعاش الجميع في وفرة حقيقية ولكن سوء التنظيم وسوء التوزيع الذي يقوم به نحن البشر هو المُسبب الأول لنعاسة الإنسان في الأرض ؛ ذلك أنه سبحانه قد جعل الأرض كلها للأنام ، فمن يحد ضيقاً في موقع ما من الأرض فليتجه إلى موقع آخر .

ولكن العوامل السياسية وغير ذلك من الخلاصات بين الناس تجعل في أماكن في الأرض ، رجالاً بلا عمل ، وتجعل في أماكن أخرى ثروة بلا استثمار ، ونتجاهل قوله سبحانه

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ۚ ﴾ [الحجر]

فلكل شيء في الأرض خزائن ، والخزينة هي المكان الذي تُدخر فيه الأشياء النفيسة ، والكون كله مخلوق على هيئة أن الحق سبحانه قدّر في الأرض أوقاتاً لكل الكائنات من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة

فإن حدث تضيق في الرزق فاعلموا أن حقاً من حقوق الله قد ضُيع ، إما لأنكم أهملتم استصلاح الأرض وإحياء موانئها<sup>(١)</sup> بقدر ما يزيد تعداد السكان في لأرض ، وإما أنكم قد كنزتم ما أحدثتم من الأرض ، وصننتم بما اكتنزتموه على سواكم

فإن رأيت فقيراً مُضيقاً فاعلم أن هناك عنياً قد ضُنّ عليه بما

(١) إحياء الموات هو إبعاد الأرض الميتة التي لم يسبق تعميرها وتهيئتها وجعلها صالحة للانقطاع بها في السكنى والزرع وبحولها . ويشترط لاعتبار الأرض مواتاً أن تكون بعيدة عن العمران ، ويسقط حق محتجر الأرض للإحياء فيها إذا مرت ثلاث سنوات دون إعمارها [ فقه السنة ٢ : ٢٠١ ] بلصرف



أفاهن الله على الغنى من رزقي ، وإن رأيت عاجزاً عن إدراك أسباب حياته فاعلم أن واحداً آخر قد ضمنَّ عليه بقوته . وإن رأيت جاهلاً ، فاعلم أن عالماً قد ضمنَّ عليه بعلمه . وإن رأيت أخزقاً<sup>(١)</sup> فاعلم أن حكيماً قد ضمنَّ عليه بحكمته ، فكلُّ شيء مخزون في الحياة ، حتى تسلم حركة الحياة ، سلامة تؤدي إلى التساؤد والتعاضد ، لا إلى التعاؤد والتصارب

ونعلم أنه سبحانه قد أعدَّ لنا أنكون بكل ما فيه قبل أن يخلقنا ، ولم يُلْغِنا قبل لبوغ ؛ ذلك أنه علم أولاً أن التكليف يُحدِّد اختيار الإنسان لكثير من الأشياء التي تنطق بكل ملكات النفس ؛ قوتاً ومشرباً وملبساً ومسكناً وصنطاً للأهواء ، كي لا تنفارق في إرضاء العرائض على حساب القيم .

وشاء سبحانه ألا يكون التكليف ، لا بعد البوغ ، حتى تستوى ملكات النفس القوة والاعتدال ، ويكون قادراً على إنجاب مثيل له ، ولكي يكون هذا التكليف حُجَّةً على الإنسان ، هذا الذي طمَّر له الحق سبحانه كل شيء إما في الأرض ، أو كان طمراً في الموع ، أو في الجبس .

وكلُّ شيء في الكون موزون ، إما أن يكون جِثْماً ، أو مَوْعاً ، أو أفراداً ، والميزان الذي توجد به كل تلك العطاءات ، إنما شاء به الحق سبحانه أن يهبَ الرب لكل ، ولسماتق الكثرة ، وليعيش الإنسان في حُسن الإيمان . وهكذا يكون عطاء الله لنا عملاً وبويعية ، وعطاء الرومية ، والذكي حقاً هو مَنْ يأخذ العطاءين معاً لمستقيم حياته .

(١) الأخرق الجاهل الذي لا يُعَسِّرُ عمله [ لسان العرب - مادة خرق ]

والحق سبحانه هو القائل

﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ حَنِيَّةَ الْإِنْفَاقِ  
وَمَا كَانَ لِلْإِنْسَانِ قُوْرًا ۝١٠٠ ﴾ [الاسراء]

وذلك ليوضح لنا الحق سبحانه أن الإنسان يظن أن ذاتيته هي  
الأصل وأن مفعيلته هي الأصل ، وحتى في قضايا الدين ، قد يقع  
العبد قوله الحق

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۝١١ ﴾ [الحشر]

ومن يفعل ذلك إنما يفعله في ظاهر الأمر أنه يؤثر الغير على  
نفسه ، ولكن الواقع الحقيقي أنه يطعم فيما أعده الله له من حُسن  
جِراء في الدنيا وفي الآخرة

إذن فأصل العملية الدينية أيضاً هو الذات ، ولذلك مجسد من  
يقول : أنا أحب الإيمان ، لأن فيه الخيرية ، يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّهُ لَحَبُّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ﴾ [العنكبوت]

وفيه أنانية ذكية فتتيح لصاحبها أخذ الثواب على كل عمل يقوم به  
لغيره وهذا لون من الأنانية الذكية النافعة ؛ لأنها أنانية باقية ، ولها  
عائد إيماني .

(١) قتر الرجل على عبالة ضيق عليهم في النفقة والقتل ضيق العيش والإقتار

الضيق على الإنسان في الذرق [ لسان العرب - مادة قتر ]

(٢) خص يخص خصاصة انتقر واحتاج والخصاصة الفقر والاحتياج ، [ القاموس القويم

ونعلم أن الحق سبحانه لو شاء لجعل الناس كلهم أثرياء ، ولم يجعل يداً علياً ويداً سفلى ، لكنه سبحانه لم يشأ ذلك ليُجعل الإنسان ابن أغيار ، ويعدل فيه بميزن الإيمان ، وببُذْكَ غرور الذات على الذاب ، وليتعلم الإنسان أن غروره على ربّه لن ينال من الله شيئاً ، ولن يأتى للإنسان بأى شيء

وكل مظاهر القوة فى الإنسان ليست من عند الإنسان ، وليست ذاتية فيه ، بل هى موهوبة به من الله ، وهكذا شاء الحق سبحانه أن يَهْدِبَ الناس ليُحسنوا التعامل مع بعضهم البعض .

ولذلك أوضح سبحانه أن عنده خزائن كل شيء ، وهو شاء لائقى ما فيها طيهم مرة واحدة ، ولكنه لم يُرد ذلك ليؤكد للإنسان أنه ابن أغيار ، وليلقّتهم لى مُعطى كل النعم

كما أن رتبة النعمة قد تُنسى الإنسان حلاوة الاستمتاع بها ، وعلى سبيل المثال أنت لا تجد إنساناً يتذكّر عَيْتِهِ إلا إنا ألمته ، وبذلك يتذكر نعمة البصر ، بل وقد يكون فقد النعمة هو المُلفت للنعمة ، وذلك لكى لا ينسى أحد أنه سبحانه هو المنعم .

ويقول سبحانه من بعد ذلك

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً  
فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ (٢٢)

(١) لواقح حوامل لأنها تحمل الماء والقرى والسحاب والحير والنفع قال الأزهري وجبل الريح لاقحاً لأنها تحمل السحاب ، أى تكله وتصورفه ثم تمر به فتستدره ، أى تقبله [ تفسير القرطبي ٣٧٢٩/٥ ]

والإرسال هو الدَّفْعُ للشَّيْءِ من حَيْزٍ إِلَى حَيْزٍ آخَرَ ، وحين يقول سبحانه إنه أرسل الرياح ، نجد أنها مُرْسَلَةٌ من كُلِّ مَكَانٍ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ ، فهي مُرْسَلَةٌ من هنا إِلَى هناك ، ومن هناك إِلَى هنا .

وهكذا يكون كل مكان ، هو موقع لإرسال الرياح ، وكل مكان هو موقع لاستقبالها ، ولذلك مجد الرياح وهي تسير في نَوْرَةٍ مستمرة : ولو سكنت لَمَّا تحرَّكَ الهواء ، ولأَصْبَحَتْ البَشَرِيَّةُ بالكثير من الأمراض ، ذلك أن الرياح تُجَدِّدُ الهواءَ ، وتُنظِّفُ الأمكنة من الرُّكُودِ الذي يُمكن أن نصيرَ إليه .

ونعلم أن القرآن حين يتكلم عن الرياح بصيغة الجمع فهو حديث عن خيرٍ والمثل هو قول الحق سبحانه

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ .. (٥٧) ﴾ [الاعراف]

أما إذا أُفرد وجاء بكلمة « رِيح » فهي بالعذاب ، مثل قوله .

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ۖ عَاتِيَةٍ ۖ (٦) ﴾ [الحاقة]

وهنا يقول الحق سبحانه ﴿ وَأَرْسَلْنَا لِرِّيَّاحٍ لَوَاقِحَ ۖ (٢٦) ﴾ [الحجر]

ولواقح جمع لافحة ، وتُطْلَقُ في اللغة مرَّةً على النافثة التي في بطنها حنين ، ومرَّةً تُطْلَقُ على اللاقح الذي يلقي الخير ليصير فيه جنيناً ، لأن الحق سبحانه شاء أن يتكاثر كل ما في الكون ، وجعل

(١) رِيحٌ صَرْصَرٌ شديدة البرد وقيل شديدة الصوت [لسان العرب - مادة صرد]

من كُلِّ زوجين اثنين ، إما يتكاثر أو تتولد منه الطاقة ، كالسالب  
والموجب فى الكهرباء

وهو القائل سبحانه

﴿مَبْحَنَ الَّذِي سَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ۖ﴾ (٣٦) [يس]

ثم عَدَّدَ لما فُتِلَ .

﴿مِمَّا نَبَتْ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦) [يس]

وهناك أشياء لا يُدركها الإنسان مثل شجرة الحَمِيز ، التى لا يعلم  
الشخص الذى لم يدرس علم النبات كيف تتكاثر لتنتب وتثمر ، ويعلم  
العالم أن هناك شجرة جُمِيز تلعب دور الأنثى ، وشجرة أخرى تلعب  
دور الذُكْر .

وكذلك شجرة القوت وهناك شجر لا تُعرف فيه الأنثى من  
الذُكْر ، لأنه مكمور توجد به الأنثى والذُكْر ، وقد لا تعرف أنت ذلك ،  
لأن الحق سبحانه جعل اللقاحة خفيفة للغاية ، لتحملها الريح من  
مكان إلى مكان .

وممن لم نَرَ كيف يتم لقاح شجرة الريتور ، أو شجرة المانجو ،  
أو شجرة الجوافة ، وذلك لئلاخذ من ذلك عبرة على دقة صنْعته  
سبحانه

والمثل الذى أضربه دائماً هو لمياه التى تسقط على جبل ما ،  
وبعد أيام قليلة يجد الجبل وقد امتلأ بالحشائش الخضراء ؛ ومعنى  
هذا أن الجبل كانت توجد به يدور تلك الحشائش التى انتظرت الماء  
لتنبت .

ونعرف العلماء على أن المذكورة بعد أن تنضج في النبات فهي  
تتكشف وتنتظر لرياح والجو المناسب والبيئة المناسبة لتنتقلها من  
مكان إلى مكان

ولهذا نجد بعضاً من الجبال وهي خضراء بعد هبوب الرياح  
وسقوط المطر ، ذلك أن حبوب اللقاح انتقلت بالرياح ، وجاء المطر  
لنجد النباتات فرصة للنمو .

وقد تجد جبلاً من الجبال نصفه أخضر ونصفه جَدْبٌ ، لأن  
لرياحٍ نقلتُ للنصف الأخضر حبوب اللقاح ، ولم تنقل الحبوب  
لنصف الثاني من الجبل ، ولذلك نجد الحق سبحانه قد جعل للرياح  
دورةً تنتقل بها من مكان لمكان ، وتدور فيها بكل الأماكن

ويتبع سبحانه في نفس الآية :

﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً... (٢٢) ﴾

[الحجر]

وقد تبين لنا أن المياه نفسها تنشأ من عملية تلقيح ، وبه ذكورة  
وأنوثة

وهي هذا المعنى يقول الحق سبحانه

﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِحَارِثِينَ <sup>(١)</sup> (٢٢) ﴾

[الحجر]

أي أنكم إن تخرتوا المياه لأنكم غير مأمونين عليه ، وإذا كان  
الله قد هدانا إلى أن نحزن المياه ، فذلك من عطاء الله فلا يقول  
أحد لقد بنينا السدود ، بل قُلْ هدانا الله لنبنينا ، بعد أن يسقط  
المطر ذلك أن المطر لو لم يسقط لما استطعنا تخزين المياه

(١) أي ليست حرائث منكم ، فمن الحارثين بهذا الماء ، سؤله إذا شغنا ، وبمسكه إذا  
شغنا [ تفسير القرطبي ٢/٢٧٤٢ ]

وعلى هذا يكون سبحانه هو الذي خزن المياه حين أنزلها من السماء بعد أن هدانا لنبيّ السدود

وأنت حين تريد كوباً من الماء المُقَطَّر ، تذهب إلى الصبيل ليُسْحَن الماء في جهاز مُعَيَّن ، ويُحوَّل إلى بخار ، ثم يُكثَّف هذا البخار ليصير ماء مُقَطَّراً ، وكل ذلك يتم في الكون ، وأنت لا تترى به .

ويقول سبحانه من بعد ذلك

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ (٢٣)

وفي ظاهر الأمر كان من الممكن أن يقول الحق « إِنَّا نُمِيتُ وَنُحْيِي » ، لأنه سبحانه يحاطبنا ونُحْنُ أحياء ، ولكن الحق سبحانه أراد بهذا القول أن يلفتنا أن ننظر إلى الموت الأول ، وهو لعدم المَحْض الذي أنشأنا منه ، وهو سبحانه القائل

﴿ وَكُنْتُمْ أََمْْوَآءًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢٨)

[النقرة]

والكلام في تفصيل الموت يجب أن تُفَرَّق فيه بين العدم المَحْض والعدم بعد وجود ، والعدم المَحْض هو ما كان قبل أن يُخْلَق ، ثم أوجدنا الله لتكون أحياء ، ثم يُمِيتنا من بعد ذلك ، ثم يبعثنا من بعد ذلك للحساب .

وهنا في الآية التي نحن بصدد حواصرنا عنها يكون الكلام عن الموت الذي يحدث بعد أن يهبنا الله الحياة ، ثم نقضى ما كتبنا لنا من أجل

ثم يُدَيِّل الحق سبحانه الآية بقوله

﴿ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ (٢٧)

[العمر]

وهذا القول يعنى أن هناك تركة كبيرة ، وهى هذا الكون الذى خلقه سبحانه ليستخلفنا فيه . ونحن لم نُصِفْ شيئاً لهذا الكون الذى خلقه الله ، لأنك إن نظرت إلى كمية المياه أو الغذاء التى فى الكون ، وكل مقومات الحياة لما وجدت شيئاً يزيد أو ينقص ، فالماء تشربه ليرويك ، ثم يخرج عرقاً وبولاً ، ومن بعد الموت يتحلل الجسم ليتبخر منه الماء ، وهذا يجرى على كل الكائنات

وحين يتناول الحق سبحانه فى هذه الآية أمر الموت والحياة وعودة الكون فى النهاية إلى مُنشئه سبحانه ؛ فهو يُحَدِّثنا عن أمرين يعثوران<sup>(١)</sup> حياة كل موجود مما الحياة والموت ، وكلاهما يجرى على كل الكائنات ، فكل شيء له مدة يحيها ، وأجل يقصيه

وكل شيء يبدأ مهمة فى الحياة فهو يُؤَدِّ ، وكل شيء يُنْهِى مهمته فى الحياة - بحسب ما قدره الله له - فهو يموت ، وإن كنا نحن البشر بحدود إدراكنا لا نعي ذلك

وهو سبحانه القائل

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (٨٨)

[القصص]

(١) الثعالب والاعنور أن يكون هذا مكان هذا ، وهذا مكان هذا يقال اعتوراه وابتنأه هذا مرة وهذا مرة . قال ابن الأعرابي فيما نقله عنه ابن منظور فى لسان العرب [ مادة عور ]  
(٢) قال ابن كثير فى تفسيره ( ٣ / ٤ ) . قد إخبار بأنه الدائم الباقي الحى القيوم الذى تموت الخلائق ولا يصوت ، كما قال تعالى ﴿ وَيَبْقَى وَجْهٌ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (٢٧) [ الرحمن ] معبر بالوجه من البقاء ، وهكذا قوله من ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (٨٨) [ القصص ] أى إلا إياه

وقال مجاهد والثوري أى إلا ما يريد به وجهه وحكاه البخارى فى صحيحه كالمقرر له وهذا القول لا يلقى القبول الأول ، فإن هذا إخبار من كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطبقة للشريعة ، والقول الأول مقتضاه أن كل الدورات هائلة وباطلة إلا ما لله تعالى وتقدس فيه الأول الآخر الذى هو قبل كل شيء وبعد كل شيء ،



إذن فكل شيء يُطلق عليه « شيء » مصيره إلى هلاك ، ومعنى ذلك أنه كان حياً ، ودليلنا على أنه كان حياً هو قول الحق

﴿لَيْسَ مِنْ هَٰذَا عَمَلٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ حَيٌّ عَنْ بَيْنِهِ..﴾ (٤٦) [الأنفال]

ومكنا نعلم أن كل ما له مهمة في الحياة له حياة تناسبه ، وفور أن تنتهي المهمة فهو يهلك ويموت ، والحق سبحانه وتعالى يرث كل شيء بعد أن يهلك كل من له حياة ، وهو سبحانه القائل

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْتُ يُرْجَعُونَ﴾ (١٠) [مريم]

وهو بذلك يرث التارك والمتروك ، وهو الخالق لكل شيء ويختلف ميراث الحق سبحانه عن ميراث الخلق ، بأن المخلوق حين يرث آخر ، فهو يُودعه التراب أولاً ، ثم يرث ما ترك ، أما الحق سبحانه فهو يرث الاثنين معاً ، المخلوق وما ترك

ولذلك نحن نرى من يعز عليهم ميت ، قد يمسكون بالصنبة التي تحمل البجثة ، ويرفصون من فرط المحبة أن تخرج من منزله ، ولو تركناه لهم لمدة اسبوع ورمت البجثة ، سيقولون لمن يحمل البجث أن يحمله ليؤاثر به التراب ، ثم يبدأون في مناقشة ما يرثونه من الفقيد

وهم بذلك يرثون المتروك بعد أن أودعوا التارك للتراب ، وإذا كان التارك من الذين أحسنوا الإيمان والعمل فيدخل حياة جديدة هي أروع بالتأكيد من حياته الدنيا ، ولأنه ياكل ويشرب دون أن يتعب ، وكل ما تمر على ذهنه رغبة فهي تتحقق له ، فهو في ضيافة المنعم الأعلى

ويقول سبحانه من بعد ذلك

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ

﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾

والمُستقدم هو مَنْ تقدم بالحياة والموت ، وهم مَنْ فعلنا من بشر وأمم . والمُستأخر هو مَنْ سيأتي من بعدنا وسبحانه يعلمنا بحكم أنه علم من قبل كل مستأخر ، أى أنه علم بنا من قبل أن نوجد ، ويعلم بنا من بعد أن نرحل ، فعلمه كامل وأرلى ، وهاتئة هذا العلم أنه سينتقب عليه الجزاء ، ونحن حين أخذنا الحياة والرق لم نُقلت بهما معيداً ، بل نجد الله قد علم أزلاً بما فعل كل منا

وهناك مَنْ يقول إن هناك معنى آخر ، بأن الحق سبحانه يكتب مَنْ يسرع إلى الصلاة ويتقدم إليها فوراً أن يسمع النداء لها ، ويعلم

(١) قال القرطبي في تفسيره ( ٢٧٤٢/٥ ) : فيه ثمان تأويلات

١ - المستقدمين من الخلق إلى اليوم والمستأخرين الذين لم يخلقوا بعد قاله قتادة وعكرمة وغيرهما

٢ - المستقدمين الأموات والمستأخرين الأحياء قاله ابن عباس والضحك

٣ - المستقدمين من تقدم أمة محمد والمستأخرين أمة محمد قاله مطهر

٤ - المستقدمين في الطاعة والخير والمستأخرين في المعصية والشر قاله الحسن وقتادة أيضاً

٥ - المستقدمين في صفوف الحرب والمستأخرين فيها قاله سعيد بن المسيب

٦ - المستقدمين من قتل في الجهاد والمستأخرين من لم يقتل قاله القرطبي

٧ - المستقدمين أهل الطؤ والمستأخرين نحر الخلق قاله الشعبي

٨ - المستقدمين في صفوف الصلاة والمستأخرين فيها بسبب النساء ذكرها

القرطبي في تفسيره ( ٢٧٤٢/٥ )

مَنْ يَناحِرُ عَنِ لِقِيائِهِ بِإِذْنِ الْعَمَلَةِ ، ذَلِكَ أَنْ تَأْثِيرَ كَلِمَةِ « اللَّهُ أَكْبَرُ »  
فِيهَا مِنَ الْيَقِظَةِ وَالْإِتْبَاءِ مَا يُذَكِّرُنَا بِأَنَّ اللَّهَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ مَا يَشْغَلُكَ .

وَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْ إِعْجَازَاتِ الْأَذَانِ أَنَّهُ جَعَلَ الْمَدَاءَ بِاسْمِ « اللَّهُ أَكْبَرُ » ،  
وَمِنْ يَقُولُ اللَّهُ كَبِيرٌ ، وَذَلِكَ أَحْتَرَمًا لِمَا يَشْغَلُنَا فِي الدُّنْيَا مِنْ  
مَوْضُوعَاتٍ قَدْ نَرَاهَا كَبِيرَةً ، ذَلِكَ أَنَّ الدُّنْيَا لَا يَجِبُ أَنْ تُهَانَ ، لِأَنَّهَا  
الْمَعْبُورُ إِلَى الْجَزَاءِ الْقَادِمِ فِي الْآخِرَةِ

وَلِذَلِكَ أَقُولُ دَائِمًا : إِنَّ لِدُنْيَا أَهَمَّ مِنْ أَنْ تُنْفَسَى ، وَفِي نَفْسِ  
الْوَقْتِ هِيَ أَتَعَهُ مِنْ أَنْ تَكُونَ غَايَةً ، فَأَنْتَ فِي الدُّنْيَا تَضْرِبُ فِي  
الْأَرْضِ وَتَسْعَى لِقُوتِكَ وَقُوتِ مَنْ تَعُولُ ، وَلِيُسْعِيكَ هَذَا الْقُوتُ عَلَى  
الْعِبَادَةِ

لِذَلِكَ فَلَا يَحْتَقِرُ أَحَدُ الدُّنْيَا ، بَلْ لِيُشْكِرَ اللَّهَ وَيَدْعُوهُ أَنْ يُؤَفِّقَهُ  
فِيهَا ، وَأَنْ يَبْدَلَ كُلَّ جُهْدٍ فِي سَبِيلِ مَحَاجِهِ فِي عَمَلِهِ : فَمَعْمَلِ الطَّيِّبِ  
يُنَالُ عَلَيْهِ أَعْبَدُ حُسْنِ الْجَزَاءِ ، وَقَوْرٌ أَنْ يَسْمَعَ الْمُؤْمِنُ « اللَّهُ أَكْبَرُ » ،  
فَعَلِيهِ أَنْ يَتَجَهَّ إِلَى مَنْ هُوَ أَكْبَرُ فَعَلًا ، وَهُوَ لِحَقِّ سُبْحَانِهِ ، وَأَنْ  
يُؤَدِيَ صَلَاتَهُ هَذَا هُوَ الْمَعْنَى الْمُسْتَقْبَلُ مِنَ الْمُسْتَقْدِمِ لِلصَّلَاةِ  
وَالْمُسْتَأْخِرِ عَنْهَا .

وَمِنْهَا مِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ رَأَى مِلَاحَظَةً شَتَّى فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ .  
فَمَعْنَاهَا قَدْ يَكُونُ عَامًّا يَشْمَلُ الزَّمَانَ كُلَّهُ ، وَقَدْ تَكُونُ بِمَعْنَى خَاصٍّ ؛  
كَمَعْنَى الْمُسْتَقْدِمِ لِلصَّلَاةِ وَالْمُسْتَأْخِرِ عَنْهَا .

وَإِنَّهُ يَكُونُ الْمَعْنَى أَشَدَّ خُصُوصِيَّةً مِنْ ذَلِكَ ، فَتُحَنَّنُ حِينَ تُصَلِّي  
تَقِفُ صَغُوفًا ، وَيَقِفُ الرِّجَالُ أَوَّلًا ، ثُمَّ الْأَطْفَالُ ؛ ثُمَّ النِّسَاءُ ، وَمِنْ

الرجال مَنْ يَتَقَدَّمُ الصفوفَ كَيْلًا تَقَعُ عِيُونُهُ عَلَى امْرَأَةٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ  
يَتَحَايَلُ وَيَقِفُ فِي الصَّفِوفِ الْأَخِيرَةِ لِيَرَى الْمَسَاءَ ، مَا وَضَحَ الْحَقُّ  
سُبْحَانَهُ أَنْ مِثْلَ هَذِهِ الْأُمُورِ لَا تَقُوتُ عَلَيْهِ <sup>(١)</sup> ، فَهُوَ لِعَالَمٍ بِالْأَسْرَارِ  
وَأَخْفَى مِنْهَا

أَوْ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى هُوَ الْمُسْتَقْدِمِينَ إِلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
أَوْ الْمَتَأَخِّرِينَ عَنِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ وَمَنْ يَمُوتُ حَتْفًا أَنْفَهُ أَيْ  
عَلَى فَرَاشِهِ لَا دُخْلَ لَهُ بِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ

أَمَّا إِنْ دُعِيَ نَادَى الْجِهَادِ وَيُقَدِّمُ نَفْسَهُ لِلْحَرْبِ وَيُقَاتِلُ وَيُنَالُ  
الشَّهَادَةَ ، فَالْحَقُّ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يَعْلَمُ مَنْ تَقَدَّمَ إِلَى لِقَائِهِ مُحِبًّا  
وَجِهَادًا لِرَفْعَةِ شَأْنِ الدِّينِ

وَقَدْ يَكُونُ فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ وَفِي عِيُونِ عِيَرِهِ مِمَّنْ يَكْرَهُونَ الْحَيَاةَ ،  
وَلَكِنَّهُ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ مُحِبٌّ لِلْحَيَاةِ بِأَكْثَرٍ مِمَّنْ يَدْعَوْنَ حُبَّهَا ؛ لِأَنَّهُ  
أَمِنَكَ الْيَقِينِ الْإِمَامِ ابْنِ حَالِقٍ الدُّنْيَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُدَالَّ الْجِهَادُ فِي  
سَبِيلِ الْقِيَمِ إِنْ أَرَادَهَا مِنْهَا جَاءَ يَنْعَدِلُ بِهِ مِيزَانُ الْكُورِ ، وَإِنْ اسْتَشْهَدَ  
فَقَدْ وَعَدَهُ سُبْحَانَهُ الْخُلْدَ فِي الْجَنَّةِ وَنَعِيمَهَا

وَتَجِدُ أَبَا بَكْرَ الصِّدِّيقَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَهُوَ يَقُولُ لِرَسُولِ

(١) وَرَدَ فِي هَذَا حَدِيثٍ قَالَ عَنْهُ ابْنُ كَثِيرٍ ( تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ ٢/ ٤٠١ ) ، حَدِيثٌ غَرِيبٌ جَدًّا  
فِيهِ مَكَارَةُ شَدِيدَةٌ ، وَقَدْ ذَكَرَهُ الْوَاحِدِيُّ فِي أَسْبَابِ بَرُولِ هَذِهِ الْآيَةِ ( أَسْبَابُ الْبَرُولِ  
ص ١٥٨ ) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَتْ تَصَلِّي حُلَيْفُ النَّبِيِّ ﷺ امْرَأَةً حَسَنَاءَ ، قَالَ ابْنُ  
عَبَّاسٍ لَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مِثْلَهَا قَطُّ ، وَكَانَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ إِذَا صَلُّوا اسْتَقْدَمُوا يَعْنِي لَفْلًا  
يُرَوِّهَا وَيَعْطَفُ يَسْتَأْخِرُونَ ، إِذَا مَا سَجَدُوا خَفَرُوا إِلَيْهَا مِنْ تَحْتِ أَيْدِيهِمْ ، وَالْحَدِيثُ مَرْوِيُّ  
فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ وَسَيِّسِ النَّسَائِيِّ وَالتِّرْمِذِيِّ

الله ﷻ ادْعُ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ أَسْتَشْهَدَ ، فَيَرِدُ عَلَيْهِ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ  
« مَتَعْنَا بِنَفْسِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ »<sup>(١)</sup>

وعلى ذلك لا يكون المستأخر هنا محلَّ لَوْمٍ ، لأن الإيمان يحتاج  
لمَنْ يصومه وَيُثَبِّتَهُ ، كما يحتاج إلى مَنْ يُوَكِّدُ أن الإيمان بالله أعزُّ من  
الحياة نفسها ، وهو الْمُتَقَدِّمُ للقتال ، وبنال الشهادة في سبيل الله  
ويقول سبحانه من بعد ذلك

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

أى أن المُتَوَلَّى ترستك يا محمد لن يترك مَنْ خاضموك  
وعاندوك ، واهانوك وأذرك دون عقاب

وكلمة ﴿ يَحْشُرُهُمْ ﴾ (٢٥)

[الحجر]

تكفى كدليل على أن الله يقفُ لهم بالمرصاد ، مهم قد أنكروا  
البعث ، ولم يجرؤ أحدهم أن يُنكر الموت ، وإنا كن الحق سبحانه قد  
سبق وعثر عن البعث بقوله الحق

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ (٢٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبْعَثُونَ ﴿ (٢٦) ﴾

[المؤمنون]

(١) أخرجه إمامكم في مستدرکه ( ٢ / ١٧٤ ) أن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق لم يزل على  
دين قومه في الشرك حتى شهد بدرًا مع المشركين ودعا إلى البرر ( المارزة ) فقام إليه  
أبوه أبو بكر ليمازره ، فذكر أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر « متعنا بنفسك »

فهم كانوا قد غفلوا عن الإعداد لما بعد الموت ، وكانهم يشكُّون في أنه قادم ، وجاء لهم بخبر الموت كآمر حتمي . وسبقته ( هو ) لتؤكد أنه سوف يحدث فالحشر مسبوب لله سبحانه ، وهو قادر عليه ، كما قدر على الإحياء من عدم ، فلا وَجْه للشك أو الإنكار ثم جاء لهم بخصر البعث الذي يشكُّون فيه ، وهو أمر سبق وأن ساق عليه سبحانه الأدلة الواضحة

ولذلك جاء بالخبر المصحوب بضمير الفصل

﴿ يَحْشُرُهُمْ ۖ ﴾ (٢٥)

[الحجر]

وسبحانه يُجرى الأمور كلها بحكمة واقتدار ، فهو العليم بما تتطلب الحكمة علماً يحيط بكل الزوايا والجهات ويقور سبحانه من بعد ذلك

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۖ ﴾ (٢٦)

وسبحانه يتكلم هنا عن خلق الإنسان من بعد أن تكلم عن خلق الكون وما أعده له فيه ، وليستقل الكون الخليفة لله ، فيوصح أنه قد خلقه من الصلصال . وهو الطين اليابس .

وجاء سبحانه بخبر الخلق في هذه السورة التي تضمنت خبر

(١) الصلصال الطين الاسود والصلصال المصبوب في قالب إنساني أو مجسود بصورة إنسان من طين كالأصفار صالح للتصوير والصلصال [ القموس القويم ١ / ٢٢٦ ]

(٢) نار السموم النار الحارة التي تفتل وقال ابن مسعود من السموم التي خلق الله منها الجان حرد من سبعين جزءاً من نار جهنم [ ذكره القرطبي في تفسيره ٥ / ٢٧٤٦ ]

مَدَّ الْأَرْضَ ؛ وَمَجَّى الرِّيحَ ، وَكَبَفَةَ أَنْزَالَ الْمَاءَ مِنَ السَّمَاءِ ، وَكَيْفَ قَدَّرَ فِي الْأَرْضِ الرِّزْقَ ، وَجَعَلَ فِي الْأَرْضِ رِوَاسِي ، وَجَعَلَ كُلَّ شَيْءٍ مُوزُونًا .

وهو سبحانه قد استنهرُ السورة بقوله

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١) ﴾

[الحجر]

أى أنه افتتح السورة بالكلام عن حارس القيم للحركة الإنسانية ، ثم تكلم عن المائة التى منها الحياة ، وبذلك شمل الحديثُ الكلامَ عن المَقُومِ الأساسى للقيم وهو القرآن ، والكلام عن مَقُومِ المادة ، وكان ذلك أمراً طبيعياً ، ودللتُ عليه سابقاً بحديثي عن مُصمِّمِ أى جهاز من الأجهزة الحديثة ، حيث حدد أولاً الغرض منه ، ثم يضع جدولاً وبرنامجاً لصيانة كل جهاز من تلك الأجهزة

وهكذا كان خلقُ الله للإنسان لذى شاء له سبحانه أن يكون خليفته فى الأرض ، ووضع له مَقُومَاتِ مادة ومَقُومَاتِ قيم ، وحاء بالحديث عن مَقُومَاتِ القيم أولاً ، لأنها ستمد حياة الإنسان لتكون حياة لا تنتهى ، وهى الحياة فى الدنيا والآخرة .

وهذا القول يُوضِّحُ لما أن آدم ليس هو أول من استعمر الأرض ، بل كان هناك خلقٌ من قَبْلِ آدم ، فإذا حدثنا علماء الجيولوجيا والمفريات عن أن هناك ما يدل على وجود بعض من الكائنات المظسورة تثبت أنه كانت هناك حياة منذ خمسين ألف قرن من الزمان

فتحن نقول له إن قولك صحيح

وحيث نسمع ابيض قول هؤلاء العلماء بقولون لا نَدُّ اَن تلك  
الحيوانات كانت موجودة في زمن آدم عليه السلام ، وهؤلاء  
يتحاملون اَن لحق سبحانه لم يَقُلْ لنا اَن آدم هو اول من عَمِر  
الأرض ، بل شاء سبحانه اَن يخلقنا ويعطينا مهمة الاستغلاف في  
الأرض

واحق سبحانه هو الفائق

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٦٦) وما ذلك على الله  
بعزيز (١٧) ﴿

أي اَن خلق غيرنا امر وارد ، وكذلك الخلق من قبته امر وارد  
ونعلم اَن خلق آدم قد أخذ لقطات متعددة في القرآن الكريم ،  
تؤدي في مجموعها إلى القصة بكل أحداثها وأركانها ، ولم يكن ذلك  
تكراراً في القرآن الكريم ، ولكن جاء القرآن بكل لقطة في الموقع  
المناسب لها ، ذلك انه ليس كتاب تاريخ بل بشرى ، بل كتاب قيم  
ومنهج ، ويريد اَن يؤسس في البشر القيم التي تحميهم وتصورهم  
من أي انحرف ، ويريد اَن يربّي فيهم المهابة .

وقد تناول الحق سبحانه كيفية خلق الإنسان في الكثير من سور  
القرآن النقرة ، الأعراف ، الحجر ، الإسراء ، الكهف ، وسورة ص

قال سبحانه - على سبيل المثال - في سورة النقرة

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا  
مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي  
أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٠) ﴿

[البقرة]



وجاء هذا القول من الله للملائكة ساعة خلق الله لأدم ، من قبل أن  
تبدأ مسألة نزول آدم للأرض

وقد أخذت مسألة خلق الإنسان حداً طويلاً من الذين يريدون أن  
يستدركوا على القرآن متساقلين كيف يقول مرة إن الإنسان  
مخلوق من ماء ، ومرة من طين ، ومرة من صلصال كالفخار ؟

ونقول إن ذلك كله حديث عن مراحل الخلق ، وهو سبحانه أعلم  
بمن خلق ، كما خلق السموات والأرض ، ولم يشهد الحق أحداً من  
الخلق كيف خلق المخلوقات

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ  
مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَادًا <sup>(١)</sup> ﴾ (٥٦)

ومن رحمته سبحانه أنه يذكّر في مُحَصَّنَاتِ الْحَيَاةِ وَمَادِيَتِهَا مَا  
يُثَبِّتُ صِدْقَ نَبِيِّ غَيْبِيَّاتِهِ ، فإذا قال مرة : إنه خلق كل شيء من  
الماء فهو صادق فيما قال ، لأن الماء يُكُونُ أَعْلَى الْجَسَدِ لبشرى  
على سبيل المثال .

وإذا أوضح أنه خلق الإنسان من طين ، فالتراب إذا اختلط بالماء  
صار طيناً وإذا مرّ على الطين وقت صار صلصالاً ، وإذا قال

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ <sup>(٢)</sup> وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (٢٩)

[الحجر]

(١) عصداً : أمراً سامعياً [ القاموس القويم ٢/ ٢٤ ]

(٢) سَوَّى الشَّيْءَ تَسْوِيَةً : عَدَّه وَجَعَلَهُ لَا عَرَجَ فِيهِ [ القاموس القويم ١/ ٢٢٧ ]

وَكُلُّ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ ، الَّتِي يَشْرَحُهَا لَنَا نَقْضُهَا فِي الْوَاقِعِ  
الْمَادِيِّ الْمَلْمُوسِ ، فَحِينَ يَحْدُثُ الْمَوْتُ - وَهُوَ نَقْضُ الْحَيَاةِ - نَجِدُ  
الرُّوحَ هِيَ أَوَّلُ مَا يُخْرَجُ مِنَ الْجِسْمِ ، وَكَانَتْ هِيَ آخِرَ مَا دَخَلَ الْجِسْمَ  
أَثَاءَ الْخَلْقِ .

وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ تَبَدُّلُ الْحَيَوِيَّةِ فِي الرَّحِيلِ عَنِ الْجَثْمَانِ ، فَيَتَحَوَّلُ  
الْجَثْمَانِ إِلَى مَا يَشْبَهُ الصَّلْتِصَالِ ، ثُمَّ يَتَبَخَّرُ الْمَاءُ مِنَ الْجَثْمَانِ ،  
لِيَصِيرَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ تَرَابًا

وَهَكَذَا نَشْهَدُ فِي الْمَوْتِ - نَقْضُ الْحَيَاةِ - كَيْفِيَّةَ بَدْءِ مَرَاثِمِ الْخَلْقِ  
وَهِيَ مَعْرُوسَةٌ ، فَالْمَاءُ أَوَّلًا ثُمَّ اشْتِرَابٌ ، ثُمَّ الطِّينُ ، ثُمَّ الصَّلْتِصَالُ  
الَّذِي يَشْبَهُ الْحَمَاءَ الْمَسْنُونِ ، ثُمَّ تَفْخُجُ الرُّوحُ

وَقَدْ صَدَّقَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ حِينَ أَوْضَحَ لَنَا فِي النَّقِيصِ الْمَادِيِّ  
مَا أَبْلَغْنَا عَنْهُ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ

وَعَلَى ذَلِكَ - أَيْضًا - نَجِدُ أَنَّ الَّذِينَ يَضَعُونَ النُّكْهَاتِ بِأَنَّ الشَّمْسَ  
خُلِقَتْ قَبْلَ الْأَرْضِ وَكَانَتِ الْأَرْضُ جُرْعًا مِنَ الشَّمْسِ ثُمَّ انْصَلَّتْ  
عَنْهَا ، عَلَى هَؤُلَاءِ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ مَا يَقُولُونَهُ هُوَ أَمْرٌ لَمْ يَشَاهِدُوهُ  
وَهِيَ أُمُورٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَدْرُسَهَا أَحَدٌ فِي مَعْمَلٍ تَجْرِييٍّ ، وَقَدْ قَالَ  
الْقُرْآنُ عَنْ أَهْلِ هَذِهِ اللَّعْمِ

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ  
مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا ﴾ (٥١) [الكهف]

وَهُمْ قَدْ أَعَابُوا عَلَى تَاكِيدِ إِعْجَازِيَّةِ الْقُرْآنِ الَّتِي أَسْمَاهُمْ  
الْمُضِلِّينَ ، لِأَنَّهُمْ يَفُوتُونَ النَّاسَ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ

ويقول سبحانه من بعد ذلك

﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ (٢٧)

ونعلم أن كلمة ( السَّمُوم ) هي اللهب الذي لا نَحْسَانُ له ،  
ويُسَمَّونه « السَّمُوم » لأنه يتلصص في الدخول إلى مسامِّ الإنسان ،  
وهكذا نرى أن للعنصر تأثيراً في مَقَوِّمات حياة الكائنات ،  
فالمخلوق من طين له صفات لطيفية ، والمخلوق من نار له صفات  
النارية ، ولذلك كان قانون الجن أخفَّ وأشدَّ من قانون الإنس

والحق سبحانه يقول

﴿إِنَّهُ يَرَأَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾<sup>(١)</sup> مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴿ (٢٧) [الاعراف]

وهكذا نعلم أن قانون خلق الجن من عنصر النار التي لا لهب لها  
يوضح لنا أن له قدرات تختلف عن قدرات الإنسان

ذلك أن مهمته في الحياة تختلف عن مهمة الإنسان ، ولا تصنع  
له خيرية أو المضلية ، لأن المهام حين تتعدد في الأشياء ، تمنع  
المقارنة بين الكائنات .

والمثلُ على ذلك هو قلبه مَنْ عنده علم بالكتاب على عهريت  
الجن ، حين سأل سليمان عليه السلام عَمَّنْ يَأْتِيهِ بِعَرْشِ بَلْقَيْسَ .

﴿قَالَ بِنَائِهَا الْمَلَأُ أَهْكُمْ يَأْتِيهِ بِعَرْشِهَا﴾<sup>(٢)</sup> قِيلَ إِنَّ يَأْتِيهِ مِنْهُمْ

﴿ (٣٨) [العمل]

(١) انقبيل الجماعة أو العصابة أو الكفلاء و الاعوان المدبرون [ القاموس القويم ٢، ٩٨ ]

(٢) العرش سرير الملك ذكر ابن كثير في تفسيره (٣، ٣٦٢) . كان من ذهب مصحى

بالباقوت والبرجد واللؤلؤ ، وقوائمه لؤلؤ وجوهر ، وكان مُسْتَقَرّاً بالديهاج والحديد .

وقال عفريت من الجن إنه قدير على أن يأتي بالعرش قبل أن يقوم سليمان من مقامه ، ولكن من عنده علم بالكتاب قال إنه قادر أن يأتي بعرش بلقيس قبل أن يرتد طرف سليمان ، وهكذا غلب من عنده علم بالكتاب قدرة عفريت الجن<sup>(١)</sup>

وقد قصر علينا الحق سبحانه هذا من كتابه الكريم ، فقال

﴿ قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ (٣٩) قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي . ﴿ ٤٠ ﴾ [السل]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلَاصِلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (٤٨)

وعرفنا في مواقع متفرقة من خواطرننا كيف نفهم هذه الآية ونعلم أن البشر في زماننا حين يريدون صنع تمثال ما ، فهم يحلّطون التراب بالماء ليصير طيناً ، ثم يتكوّنون إلى أن يحتمر ، ويصير كالصلصال ، ومن بعد ذلك يُشكّل التمثال ملامح من يريد أن يصنع له تمثالاً .

والنماثيل تكون على هيئة واحدة ، ولا قدرة لها ، عكس الإنسان المخلوق بيد الله ، والذي يملك بفعل النفع فيه من روح الله ما لا

(١) عفريت الجن أقوى الجن والعفريت المأفد في الأمور مع بهاء [ المعجم الرجير -

مادة عفريت ]

يعلمه أي كائن صنعته مهارة الإنسان ؛ ذلك أن عجزاً وطلاقة قدرة الخالق لا يمكن أن تستوى مع قدرة المخلوق المحدودة

وهناك حديث يقول فيه ﷺ : « خلق الله عز وجل آدم على صورته ، ستون ذراعاً »<sup>(١)</sup>

واختلف العلماء في مرجع الضمير في هذا الحديث ، أيعود إلى صورة آدم ؟ أم يعود إلى آدم ؟

فمن العلماء من قال إن الضمير يعود إلى آدم ، بمعنى أن الله لم يخلقه طفلاً ، ثم كبر ، بل خلقه على الصورة الناضجة ، وتلفت آدم فوجد نفسه على تلك الصورة الناضجة ، وأنه لم يكن موجوداً من قبل ذلك بساعة ؛ لذلك تلفت إلى الموجد به

والذين قالوا إن الحق سبحانه خلق الإنسان على صورته ، وأن الضمير يعود إلى الله ، فذلك لأن الحق قد جعل الإنسان خليفة له في الأرض ، وأعطاه من قدرته قدراً ، ومن علمه علماً ، ومن حكمته حكمة ، ومن قاهرته قهراً .

ولذلك يقول ﷺ : « تحلقوا بأحلاق الله » .

فخلق آدم داخراً في كينونته يقول الحق

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ( ٢٨٤١ ) قال النووي في شرحه لهذا الحديث : « هذه الرواية ظاهرة في أن الضمير في صورته عائد إلى آدم ، وإن المراد أنه خلق في أول نشأته على صورته التي كان عليها في الأرض وبولي عليها ، وهي سوله ستون ذراعاً ، ولم ينتقل أطوار كبريته وكانت صورته في الجنة هي صورته في الأرض لم تتغير »

﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩)  
[آل عمران]

وأمام الكينونة يقتضى التعليل ، ولم يبق إلا الإيمان بالحال

ويقول سبحانه من بعد ذلك

﴿فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٦٩)

والتسوية بمعنى جعل الشيء صالحاً للمهمة التى تُراد له وشاء سبحانه أن يُسَوِّى الإنسان فى صورة تسمح لنفخ الروح فيه والنفخ من روح الله لا يعنى أن النفخ قد تم بدفع الحياة عن طريق الهواء من فم آدم ، ولكن الأمر تمثيلٌ لانتشار الروح فى جميع أجزاء الجسد

وقد اختلف العلماء فى تعريف الروح ، وأرى أنه من الأسلم عدم الخوض فى ذلك الأمر ، لأن لحق سبحانه هو القائل

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥)  
[الأنعام]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك

(١) - النفخ - إجرء الريح فى الشيء - والروح جسم لطيف ، أجرى الله لبعاده بأن يحلوا الحياة فى العبد ، من ذلك الجسم - وحقيقته إضافة خلق إلى خالق - فالروح خلق من خلقه لصفاته إلى نفسه تشريفاً وتكريماً - قاله القرطبي فى تفسيره ( ٢٧١٧/ ٥ )

## ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ (٢)

وقد سجدوا جميعاً في حركة واحدة ، ذلك أنه لا اختيار لهم في تنفيذ ما يؤمرون به ، فمن بعد أن خلق الله آدم جاء تكريم الحق سبحانه به بقوله للملائكة ﴿ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ (١٦٦) [طه]

وسجدت الملائكة التي كُلِّفها الله برعاية وتدبير هذا المخلوق الجديد ، وهم المُنْذِرَاتُ أَمْراً والحَفَظَةُ ، ومن لهم علاقة بهذا المخلوق الجديد .

وقوله الحق ﴿ فَفَعَّلُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (١٦٩) [الحجر]

يعنى أن عملية السجود قد حدثت بصورة مباشرة وحسمة وسريعة ، وكان سجودهم هو طاعة للأمر الأعلى ، لا طاعة لآدم .

وقول الحق سبحانه

﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ (٣) [الحجر]

يعنى املائكة الأعلى من البشر ، ذلك أن هناك ملائكة أعلى منهم ، وهم الملائكة المهيمنون المتفرغون للتسبيح فقط

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك

## ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ (٣١)

وهكذا جاء الحديث هنا عن إبليس ، بالاستثناء وبالعقاب الذي

نزل عليه ؛ فكان الأمر قد شمله ، وقد أخذت هذه المسألة جدلاً طويلاً بين العلماء

وكان من الواجب أن يحكم هذا الجدال أمراً

الأمر الأول : أن لنص سید الاحكام

والأمر الثاني : أن شيئاً لا نص فيه ، فنحن ساخذة بالقياس والالتزام . وإذا تعارض نص مع التزام ، فنحن نُؤول الالتزام إلى ما يُؤول النص

وإذا كان إبليس قد عُرِقب ، فذلك لأنه استثنى من السجود امتناعاً وإباءً واستكباراً ، فهل هذا يعني أن إبليس من الملائكة ؟

لا ذلك أن هناك نصاً صريحاً يقول فيه لحق سبحانه

﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ ٥٠ ﴾ [الكهف]

وهكذا حسم الحق سبحانه الأمر بأن إبليس ليس من الملائكة<sup>(١)</sup> ، بل هو من الجن ، والجن جنس مختار كالإنس ، يمكن أن يُطيع ، ويمكن أن يعصى .

وكونه سمع الأمر بالسجود ، فمعنى ذلك أنه كان في نفس الحصة للملائكة ، ومعنى هذا أنه كان من قبل ذلك قد التزم التزاماً

(١) قال الحسبي البصري ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وإنه لأصل الجن كما أن آدم عليه السلام أصل البشر . روله ابن جرير الطبري بإسناد صحيح عنه ( ذكره ابن كثير في تفسيره ) ( ٨٨/٢ )



يرفعه إلى مستوى الحضور مع الملائكة<sup>(١)</sup> ، ذلك أنه مختار يستطيع أن يطيع ، ويعطك أن يعصى ، ولكن التزامه الذي اختاره جعله في صفوف الملائكة

وقالت كتب الأثر إنهم كانوا يُسمونه ملاورس الملائكة محذراً بطاعته ، وهو الذي وهبه الله الاحتيار ، لأنه قدر على نفسه وحمل نفسه على طاعة ربه ، لذلك كان مجلسه مع الملائكة تكريماً له ، لأنه يجلس مع الأطهار ، لكنه ليس ملاكاً

وبعض العلماء صنفوه بمستوى أعلى من الملائكة<sup>(٢)</sup> ، والبعض الآخر صنفه بأنه أقل من الملائكة ، لأنه من الجن ، ولكن الأمر المتفق عليه أنه لم يكن ملاكاً بنص القرآن ، وسواء أكان أعلى أم أدنى ، فقد كان عليه الالتزام بما يصدر من الحق سبحانه .

ونجد الحق سبحانه وهو يعرض هذه المسألة ، يقول مرة ( أبى ) ومرة ( استكبر ) . ومرة يجمع بين الإباء والاستكبار<sup>(٣)</sup>

(١) قال ابن كثير في تفسيره ( ٨٨/٢ ) : « ذلك أنه كان قد توسم بأفعال الملائكة ، ورثب بهم وتمسك وتنسك فلهذا جعل في طبائهم ومسمى بالمعاقلة ، فبعد الحاجة بضح كل وعاء بما فيه ، وحاقه طبعه » . يتصرف في العبادة بالتقديم والتأخير

(٢) أورد ابن كثير عدة آثار في تفسيره ( ٧٧، ١ ) في هذا ، فمن ابن عباس قال : « كان إبليس يسعه عزرايل ، وكان من أشرف الملائكة ، من ذوي الأجنحة لاربعة ، ثم أبس بعد وقال أيضاً كان من أشرف الملائكة وأكرمهم قبلة ، وكان خائفاً على الجنان وكان له سلطان سماء الدنيا وكان له سلطان على الأرض »

(٣) قوله ( أبى ) وحده جاء في قوله تعالى ﴿إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾ (٢٨) [الحجر] أما قوله ( استكبر ) وحده فجاء في قوله تعالى ﴿إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين﴾ (٢٩) [ص] أما الجمع بينهما فجاء في قوله تعالى ﴿فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ (٣٠) [البقرة]

والإباء يعنى أنه يرفض أن ينفذ الأمر بدون تعال والاستكبار هو التأبى بالكيفية ، وهنا كانت العقوبة تعيلاً لعملية الإباء والاستكبار ، وكيف ردّ أمر الحق الذى أورده سبحانه مرة يقول إبليس

﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر] وقوله

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (٧٦) [ص] ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿قَالَ يٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (٧٧)

ونقول « ما لك » فى الشيء العجيب الذى تريد أن تعرف كيف وقع ، وكان هذا تساؤل عن أمر مخالف لما أخفاه إبليس ، الذى ومبه الله خاصية الاختيار ، وقد اختار أن يكون على الطاعة

ولنلاحظ أن المتكلم هنا هو الله ، وهو الذى يعلم أنه خلق إبليس بخاصية الاختيار ، فله أن يطيع ، وله أن يعصى وهو سبحانه هنا يوضح ما علمه أولاً عن إبليس ، وشاء سبحانه إبراز هذا ليكون حجة على إبليس يوم القيامة

ويتابع سبحانه

﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (٧٨)

وهكذا أفصح إبليس عما يُكنّهُ من قَهَمٍ خاطيء لطبيعة انبعاصر ،  
مقد توهم أن الطين والصلصال أقل مرتبة من انذار التي خلقه منها  
الله وامتناع إبليس عن السجود - إذن - امتناع مُعلّل ، وكان إبليس  
قد فهم أن عنصر المخلوقية هو الذي يعطى التمايز ، وتجاهل أن  
الامر هو إرادة المُعصّر الذي يُرتّب المراتب بحكمته ، وليس على  
موى أحد من المخلوقات

ثم من قال إن النار أفضل من الطين ؟ ونحن نعلم أنه لا يُقال  
في شيء إنه أفضل من الآخر إلا إذا استوت المصلحة فيهما ، والنار  
لها جهة استخدام ، والطين له استخدام مختلف ، وأيُّ منهما له مهمة  
تختلف عن مهمة الآخر

ومن توجيه الله في فضائل الخلق أن مَنْ يطلى الأشياء بالذهب  
لا يختلف عنده سبحانه عن الذي يعجن الطين ليصنع منه الفخار ،  
فلا يفضل أحدهما الآخر إلا بإتقان مهمته

وهكذا أفصح إبليس أن الذي رين له عدم الامتثال لامر السجود  
هو قناعته بأن هناك عنصراً أفضل من عنصر

ويأتى الامر بالعقاب من الحق سبحانه فيقول تعالى

﴿ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾

وهكذا صدر الامر بطرد إبليس من حضرة الله بالملأ الاعلى ،  
وصدر العقاب بأن مطرود من كل خير ، وأصل المسألة أنها الرجم  
بالهجرة

وقد حدث نك لردّه أمر لله سبحانه ، واستكباره ، ولقنائه أن النار التي خلّق منها أفضل من الطين الذي خلّق منه آدم ، ولم يلتفت إلى أن لكل مخلوق مهمة ، وكل كائن يؤدي مهمته هو مُساوٍ للآخر

وقد شاء الحق سبحانه تلك ليزاول كل كائن الأسباب التي وجد من أجلها ، فآدم قد خلقه الله ليُعمله خليفة في الأرض ، ذلك أنه سبحانه مباشر لأمر في العُسيات بواسطة ما خلق

فالنار - على سبيل المثال - تتسبب في إنضاج الطعام لأنه سبحانه هو الذي شاء ذلك وجعلها سبباً في إنضاج الطعام ومراولة الحق سبحانه لأشياء كثيرة في المُسببات معناه أن المخلوقات تُؤدي المهام التي أرادها سبحانه لها في الوجود

والمؤمن الحق هو من يرى في الأسباب التي في الكون ، أنها عطاء من الله ، وأن يده ممدودة له بتلك الأسباب

وبعد أن طرد الحق سبحانه إبليس من حصرتة<sup>(١)</sup> سيُقرر سبحانه الحكم الذي أصدره عليه في قوله

﴿وَإِنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾<sup>(٢)</sup>

وفي هذا القول ما يؤكد أن الحق أيضاً يموتون ، ولهم آجال مثلنا ، وفي هذا الحكم بالطرد تأكيد على أنه سبحانه لن يوفقه إلى توبة ، ولا يعفو عنه في لنهاية

(١) قوله تعالى ﴿فَاخْرِجْهَا﴾ (٢٠) [الحج] قال ابن كثير في تفسيره ( ٥٥١/٢ )  
 • أي من العمرة التي كان فيها من العلا الأعلى ، وقال القرطبي في تفسيره ( ٢٦٥٠/٥ )  
 • أي من السموات ، أو من جهة عدن ، أو من جملة الملائكة ،  
 (٢) اللعن الإبعاد والطرد من الخير والنعيم الشيطاني ، صفة عالية لأنه طرد من السماء ، وقيل لأنه أبعد من رحمته الله لسلن العبد مائة لسن [

ولكن إبليس يحاول الالتفاف ، فيأتى ما جاء على لسانه

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (٣٦)

وكان إبليس بهذا القول أراد أن يقلب من الموت ، ولكن مثل هذا المكّر لا يجوز على الله أو معه ، فإذا كان إبليس قد أراد أن يطأ في الدنيا إلى يوم يبعث لبشر ، فذلك دليل على أمنيته بالهروب من الموت

ويقول الحق سبحانه رداً على دعاء إبليس

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ (٣٧)

ولحظة أن يسمع إبليس ذلك يظن أنه قد أفلت من الموت ، إذ لا موت بعد البعث ، ويتوهم أن دعوتَه قد أُجيبَت ، وكأنه قد أفلت بغروره الذي ظن به أن يتسع له الوقت ليأخذ الثأر من بي آدم ؛ فعدم سجوده لآدم هو الذي وضعه في هذا الموقف العصيب .

ولو كان إبليس يملك درة من وعي لعلم أن الاستكثار والتوهم بأن عنصر انذار أفضل من الطين هما السبب وراء ما حاق به من الطرد

ولكن تأتي من بعد ذلك مباشرة الآية التي تتضمن عدم إفلاته

من الموت ، فيقول سبحانه

(١) أنطرس أمهني وأخرس وقال القرطبي في تفسيره ( ٢٥ / ٣٧٥ ) : « أراد بسؤاله الإنظار إلى يوم يُبعثون لا يموت لأن يوم البعث لا موت فيه ولا بعد »

## ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (٢٨)

أى أن إبليس سيدق الموت أيضاً ، لأن كل المخلوقات سيدق الموت من قبل أن تقوم القيامة . مصداقاً لقوله الحق

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ..﴾ (٦٨) [الزمر]

وكذلك قوله ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (٢٩) [الرحمن]

وهكذا لم يفلت إبليس من الموت .

ولقد أن يسأل وكيف كلّمه الله ؟

ويقول لم يكلمه الله تشريفاً أو تكريماً ، بل علّط له العقاب ، كما أن الحق سبحانه ملائكة يمكنهم أن يبلغوا ما شاء لمن شاء

ويقول سبحانه من بعد ذلك

## ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُوَيِّضُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣١)

(١) قال ابن عباس أراد بهد اليوم - للفتنة الأولى - أى حين تموت الخلائق وقيل الوقت المعلوم الذى استأثر الله بعلمه ، ويجهله إبليس فيدبوت إبليس ثم يسعد [ تفسير القرطبي ٥ / ٢٧٥ ]

وقول الشيطان ﴿ رَبِّ.. ﴾ (٣٩) [الحجر]

هو إقرار بالدروبية ، ولكن هذا الإقرار متبوع بعد الاعتراف بأنه قد سب لنفسه الطرد واللعنة ، فقد قال

﴿ بَعَا أَغْوِيَّتِي .. ﴾ (٣٩) [الحجر]

والحق سبحانه بم يُغْوِه ، بل أعطاه الاختيار الذي كان له به أن يؤمن ويطيع أو يعصى ويعاقب فسبحانه قد مكّن إبليس من الاختيار بين الفعل وعدم الفعل ، فخالف إبليس أمر الله وعصاه

ويتابع إبليس ﴿ لَأَرِيَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ (٣٩) [الحجر]

وفى هذا إيصاح أن كلّ وسوسة للشيطان تقتصر فقط على الحياة المترفة وفى الأشياء التى تدمر العافية ، كمن يشرب الخمر ، أو يتناول المحدرات ، أو يتجه إلى كل ما يَغضب الله بالانحراف .

ولذلك نجد أن مَنْ يحيا بدخل يكفيه الضرورات ، فهو يأمر على نفسه من الانحراف . ونقول أيضاً لمن يحاولون أن يضبطوا مواربيهم المالية إن الاستقامة لا تُكَلَّف ، وإن تتجه بك إلى الانحراف

وتزيين الشيطان أن يكون فى الأمور الحلال ، لأن كل الضرورات لم يُحَرِّمها الحق سبحانه ، بل يكون التزيين دائماً فى غير الضرورات ، ولذلك فالاستقامة عملية اقتصادية ، تُوفّر على الإنسان مشقة التكلفة العالية لبعض من ألوان ~~الاستقامة~~

ولذلك نجد المسرفين على أنفسهم يحسدون مَنْ هم على

الاستقامة ، ويحاولون أخذهم إلى طريق الانحراف ، لأن كل منصرف  
بما يلوم نفسه متسائلاً : لماذا أخيب وحدي ، ولا يخيب معي مثل  
هذا المستقيم ؟ وتمتلىء نفسه بالاحتقار لنفسه

وكذلك كان إبليس في حُمق رده على الله ، ولكنه يفتنه إلى مكانته  
ومكانة ربه ، أيدخل في معركة مع الله ، أم مع أبناء آدم الذي خلقه  
سبحانه كحديقة ليحمر الأرض ؟

لقد حدد إبليس موقعه من الصراع ، فقال

﴿ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُعْثُونَ . ﴾ (٣٦) [الحجر]

وهذا يعنى أن مجال معركته مع الخلق لا مع الخالق ، لذلك قال

﴿ وَلَا تُغْوِيَهُمْ<sup>(١)</sup> أَجْمَعِينَ ﴾ (٣٩) [الحجر]

وكلمة ( أجمعين ) تفيد الإحاطة لكل الأفراد ، وهذا فوق قدرته  
بعد أن عرف مقامه من نفسه ومن ربه ، فقال ما جاء به الحق  
سبحانه في الآية التالية

﴿ إِنْ أَعْبَادَكَ لَرِئْسُهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٤١)

فهؤلاء العباد الذين خلصتهم لنفسك يا رب ، على أقدار عليهم ،  
لأنك أخذتهم من طريق الغواية ، لأنهم أحسوا الإيمان ، وقد وصلوا

(١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ : « إن إبليس قال

يا رب وعزتك وجلالك لا أزال اغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسامهم فقال الرب

ومرتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استفروني » أخرجه أحمد في مسنده ( ٢٩/٢ )

(٤١) وفي إسناده ابن لهيعة وانظر مجمع الروائد ( ٢٧/١٠ )



إلى مرتبة من الإخلاص التبعدي درجة يصعب بها على الشيطان  
عوايتهم

ويقول أهل المعرفة والإشراق « أنت تصل بطاعة الله إلى كرامة  
الله » .

ولو شاء الله أن يكون جميع خلقه مهديين ما استطاع أحد أن  
يضلهم ، ولكن عرة الله<sup>(١)</sup> عن خلقه هي التي أسحت المجال للإعواء ،  
ولذلك نجد إبليس يقرّ بعمره عن غواية من أخلصوا لله العبدية

ونجد رد الحق سبحانه على إبليس واضحاً لا لبس فيه ، ولا قبول  
لما قد يظنه إبليس مجاملة منه لله ، فيقول سبحانه في الآية التالية

﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ٤١ ﴾

وهكذا أوضح الحق سبحانه أن صراطه المستقيم هو الذي يقود  
العباد إلى الطاعة ، فليس في الأمر تفضل من إبليس الذي سبق له أن  
حدّد المواقع والاتجاهات التي سيأتي منها لغواية البشر ، حيث قال  
الحق سبحانه ما جاء على لسان إبليس

﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ١٧ ﴾  
[الأعراف]

(١) عرة الله عن خلقه أي استناده سبحانه عنهم

(٢) قال قتادة « أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بحث ولا جنة ولا نار ومن خلفهم من  
أمر الدنيا ، فرينها لهم ودعاهم إليها ومن أيمانهم من قيل حسماتهم يطعمونها ومن  
خمسائهم زين لهم السيئات والمصالح ودعاهم إليها وأسرهم بها « أتاك يا بني آدم من كل  
وجه » غير أنه لم يأتك من فوقك ، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله » ذكره ابن  
كثير في تفسيره ( ٢٠٤/٢ )

فى ذلك القول حدد إبليس جهاب العواية التى يأتى منها وترك  
« الفوق » و « النُحْت » ، لذلك نقول : إن العبد إذا استحصِر دائماً علوّ  
عِزّة الربوبية ، ودُلّ العبودية ، فالشيطان لا يدخل له أبداً

ويواصل الحق سبحانه لونه المُلَمَّع عنه لنا

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ  
اتَّعَاكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ (١٤)

وهكذا أصدر الحق سبحانه حكمه بالآ يكون لإبليس سلطان على  
مَنْ أخلص لله عبادة ، وأمر إبليس ألا يتعرض لهم ، فسبحانه هو  
الذى يصُوبهم منه ، إلا مَنْ ضلَّ عن هدى الله سبحانه ، وهم مَنْ  
يستطيع إبليس غوايتهم .

وهكذا نجد أن « الغاوين » هى ضد « عبادى » ، وهم الذين  
أصلحاهم الله من الوقوع تحت سلطان الشيطان ، لأنهم أخلصوا  
وخلصوا نفوسهم لله ، وسنجد إبليس وهو ينطق يوم القيامة أمام  
الغاوين

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ  
مِنْ مُلْطَانٍ <sup>(١)</sup> إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا  
بِمُصْرِحِكُمْ <sup>(٢)</sup> وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِي إِنْى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ  
قَبْلُ ﴾ (٢٢)

[إبراهيم]

(١) السُّلْطَانُ : الملك والقوة والظفر والمجة والبرهان [ القاموس القويم ١ : ٣٢٣ ]

(٢) المصريح : المقيت الذى يُمَيِّت غيره والاستصراح : الاستفاعة والإغلاخ والمستصرح :

المستغيث [ لسان العرب - مادة - صرح ]

ومن نعم الله علينا أن أحبرنا الحق سبحانه بكلّ ذلك في الدنيا ،  
ولسوف يُقرّ الشيطان بهذا كله في اليوم الآخر ، ذلك أنه لم يملك  
سلطاناً يقهرنا به في الدنيا ، بل محروء إشارة ونزغ . ولا يملك  
سلطاناً إقناعاً ليجعلنا نفعل ما ينزغ به إلينا

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما يؤكد أن جزاء الغاوين قاسٍ  
اليم

### ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٤٣)

ولأن المصير لهؤلاء هو جهنم ، فعلى العبد الذكي أن يستحضر  
هذا الجزاء وقت الاختيار للفعل كي لا يرتكب حيلة الفعل الذي  
يُرَبِّيه له الشيطان ، أو تُكَلِّح عليه به نفسه . ولو أن المُسْرِف على  
نفسه استحضر العقوبة لحظة ارتكاب المعصية لَمَّا أقدم عليها ، ولكن  
المُسْرِف على نفسه لا يقرن المعصية بالعقوبة ، لأنه يفسد النتائج عن  
المقدمات .

ولذلك أقول دائماً : هَبْ أَنْ إِنْسَانًا قَدْ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ شِرَاسَةُ  
الغريزة الجسدية ، وعرف عنه الناس ذلك ، وأعدّوا له ما يشاء من  
رغبات ، وأحضروا له أجمل النساء ، وسهّلوا له المكان المناسب  
للمعصية بما فيه من طعام وشراب

وقالوا هذا كله لك ، شَرُطْ أَنْ تَعْرِفَ أَيضاً مَاذَا يَنْتَظِرُكَ  
وأضاهوا له من بعد ذلك قُبُوراً في المنزل ، به فرن مشتعِلٌ ويقولون  
له . بعد أن تَفَرُّغَ من لَذَّتِكَ ستدخل في هذا الفرن المشتعِل . ماذا  
سيصنع هذا الإنسان ؟

لا يَدْءُ أنه سيقضى الإقدام على المعصية التي تقودهم إلى  
الجحيم

وهكذا نعلم أن مَنْ يرتكب المعاصي إنما يستنصى العقوبة ،  
والذكي حقاً هو مَنْ يُصدّق حديث النبي ﷺ الذي يقول فيه : الموت  
القيامة ، فَمَنْ مات فقد قامت قيامته <sup>(١)</sup> . ولا أحد يعلم متى يموت  
ويُبين الحق سبحانه من بعد ذلك مراتب الجحيم ، فيقول

﴿ هَاسِئَةً أَبْوَابُ كُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾

وفي جهنم يكون موعد هؤلاء الغاوين ومعهم إبليس الذي أبى  
واستكبر ، وصنم على عواية ابشر ، واللوان العذاب ستختلف ، ولكل  
جماعة لهم جريمة يُقرنون <sup>(٢)</sup> بها معاً فَمَنْ يشربون الخمر سيكونون  
معاً ، وَمَنْ يلعبون الميسر يكونون معاً

ولكلّ باب من أبواب جهنم جماعة تدخل منه ربطت بينهم في  
الدنيا معصية ما ؛ وجمعهم في الدنيا ولآء ما ، وتكونت من بينهم

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ، حديث رقم ٢٦٩٨ ) عن أنس بن مالك رضي الله عنه  
وقوله : « أكثروا بذكر الموت فربكم إن تكرهوه في حى تكرهه عليكم ، وإن ذكرتموه في  
شيق وسعه عليكم ،

(٢) قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه هل تدرون كيف أبواب جهنم ؟ قيل هي مثل  
أبوابنا قال لا ، هي هكذا بعضها فوق بعض راد التعذيب ، ورضع إحدى يديه على  
الأخرى ذكره الفرغاني في تفسيره ( ٢٧٥٣/٥ )

(٣) وهو قوله تعالى ﴿ وَفَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّبِينَ ﴾ في الأصناف (٢٢) [إبراهيم] أي مُسَلَّسِينَ  
في القيد والأغلال كل واحد مع قريبه وشبيهه

صداقاتٌ في الدنيا ، واشتركوا بالمخالطة : ولذلك فعليهم الاشتراك  
في العقوبة والنكال .

وهكذا يتحقق قول الحق سبحانه :

﴿الْأَخْلَاءُ<sup>(١)</sup> يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف]

وفي الجحيم أماكن ثأويهم : فقسم يذهب إلى اللظى : وآخر إلى  
الحطمة : وثالث إلى سقر . ورابع إلى السعير ، وخامس إلى  
الهاوية .

وكل جزء له قسم معين به : وفي كل قسم دركات ، لأن الجنة  
درجات ، والنار دركات تنزل إلى أسفل .

ويأتي الحق سبحانه بالمقابل : لأن ذكر المقابل كما نعلم يُعطى  
الكافر حسرة : ويعطى المؤمن بشارة بأنه لم يكن من العاصين ،  
ويقول :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥)﴾

والمُتَّقِي هو الذي يحول بين ما يُحِبُّ وما يَكْرَهُ : ويحاول ألا  
يُصِيبَ مَنْ يَحِبُّ ما يَكْرَهُ . وتتعدى التقوى إلى متقابلات ، فنجد الحق  
سبحانه يقول : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ (٢٨٢)﴾ [البقرة]

ويقول أيضاً :

(١) الخليل : الصديق المخلص ، وجميع أخلاء . وخاله مُخالَة : صادقه مصادقة قوية .  
[ القاموس القويم ٢٠٨/١ ]

﴿فَانقُورُوا النَّارَ الَّتِي وَقُرْدُهَا النَّاسُ وَالْحَجَّارَةُ...﴾ (٦٤) [البقرة]

وقلنا من قَبْلُ : إن الحقَّ سبحانه له صفاتُ جلال ، وصفات  
كمال وجمال . يَهَبُ بصفات الكمال والجمال العطايا ، ويَهَبُ بصفات  
الجلال البَلَايا ؛ فهو غَفَّار ، وهو قهار ، وهو عَفُو ، وهو مُنْتَقِم .

وعلينا أن نجعلَ بيننا وبين صفات الجلال وقاية ؛ وأن نجعلَ  
بيننا وبين صفات الجمال قُرْبى ؛ والطريق أن نتبع منهجه ؛ فلا  
ندخل النار التي هي جُذٌّ من جنود الله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٤٥) [الحجر]

وهم الذين لم يرتكبوا المعاصي بعد أن آمنوا بالله ورسوله  
واتبعوا منهجه . وإن كانت المعصية قد غلبت بعضهم ، وتابوا عنها  
واستغفروا الله ؛ فقد يغفر الله لهم ، وقد يُبَدِّل سيئاتهم حسنات .

ومنْ يدخل الجنة سيّجدا فيها الميرون والمقصود بها الأنهار ؛  
والحق سبحانه هو القائل : ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ<sup>(١)</sup> وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ  
لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ...﴾ (٦٥) [محمد]

ولعل هناك عيونا ومنايع لا يعلمها إلا الحق سبحانه .

ويقول الحق سبحانه :

(١) آسن العام : تغيرت رائحته . وهو الذي لا يشربه أحد من خلقه . [لسان العرب - مادة :  
آسن ]

## ﴿ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ ﴾ (٤٦)

وهنا يدعواهم الحق سبحانه بالدخول إلى الجنة في سلام الأمن والاطمئنان . ونحن نعلم أن سلام الدنيا والاطمئنان فيها مُختلف عن سلام الجنة ؛ فسلام الدنيا يعكسه خوف انتقاص النعمة ، أو أن يفوت الإنسان تلك النعمة بالموت . ونعلم أن كل نعيم في الدنيا إلى زوال . أما نعيم الآخرة فهو نعيم مقيم .

ويتابع سبحانه ما ينتظر أهل الجنة :

## ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ (٤٧)

وهكذا يُخرج الحق سبحانه من صدورهم أي حقد وعداوة . ويرون أخلاء الدنيا في المعاصي وهم مُعتَلَنُونَ بالغُلِّ ، بينما هم قد طهرهم الحق سبحانه من كل ما كان يكرهه في الآخرة ، ويحيا كل منهم مع أزواج مطهرة . ويجمعهم الحق بلا تنافس ، ولا يشعر أي منهم بحسد لغيره .

والغُلُّ كما نعلم هو الحقد الذي يسكن النفوس ، ونعلم أن البعض من المسلمين قد تختلف وجهات نظرهم في الحياة ، ولكنهم على إيمان بالله ورسوله ﷺ .

والمثل أن علياً كرم الله وجهه وأرضاه دخل موقعة الجمل ، وكان

(١) الغل العداوة والضغن والحقد والحسد . قال الزجاج في تفسير الآية : « حقيقة واد أعلم أنه لا يحسد بعض أهل الجنة بعضاً في علو المرتبة لأن الحسد غل . وهو أيضاً كبر . والجنة حُبْرَاءُ من ذلك » ذكره ابن منظور في اللسان « مادة : غل » .

فى المعسكر المقابل طلحة<sup>(١)</sup> والزبير رضى الله عنهما ؛ وكلاهما مبشّر بالجنة ، وكان لكل جانب دليل يُقلّبه .

ولحظة أن قامت المعركة جاء وجهه على - كرم الله وجهه - فى وجه الزبير ؛ فيقول على رضى الله عنه : تذكر قول رسول الله ﷺ وأنتما تمرآن عليّ ، سلّم النبي وقتل أنت ؛ لا يفارق ابن أبي طالب رَمُوهُ ، فنظر إليك رسول الله ﷺ وقال لك : « إنك تقاتل علياً وانت ظالم له » . فرمى الزبير<sup>(٢)</sup> بالسلاح ، وانتهى من الحرب .

ودخل طلحة بن عبيد الله على على - كرم الله وجهه - ؛ فقال عليّ رضوان الله عليه : يجعل لى الله ولابيك فى هذه الآية نصيباً . فقال أحد الجالسين : إن الله أعدل من أن يجمع بينك وبين طلحة فى الجنة . فقال علىّ : وفيما نزل إذن قوله الحق :

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ ۖ ..﴾ (٤٧) [الحجر]

وكلمة « نزعنا » تدل على أن تغفل العمليات الحقدية فى النفوس يكون عميقاً ، وأن خلّعها فى اليوم الآخر يكون خلّعاً من الجنور ، وينظر المؤمن إلى المؤمن مثله ؛ والذي صاداه فى الدنيا نظرت إلى مُحسِن له ؛ لأنه بالعداوة والمنافسة جعله يخاف أن يقع عيب منه .

(١) هو : طلحة بن عبيد الله القرشى ، أحد الثمانية الذين سبّوا إلى الإسلام ، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر ، وأحد الستة أصحاب الشورى . مات عام ٢٦ هجرية بيد مروان بن الحكم فى موقعة الجمل . [ الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/ ٢١١ ] .

(٢) هو : الزبير بن العوام ، ابن عمه النبي ﷺ ، أحد المشركين المشركين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، زوج أسماء بنت أبي بكر الصديق . قتل فى موقعة الجمل عام ٢٦ هجرية على يد عمرو بن جرمز . [ الإصابة ٢/ ٥ - ٧ ] وقد أورد ابن حجر هذا الحديث فى الإصابة وعزاه لأبى يعلى من طريق أبى جرو المازنى .